ليف تولستوي

الحرب والسلم

ترجمة : صياح الجهيم

الجزء الثالث

26.5.2017



ليف تولستوي

الحرب والسلم

الكتاب الثالث

ترجمة: صيّاح الجهيم

الحرب والسلم



اسم المؤلف: ليف تولستوي

Author: **Лев Николáевич Толстóй**

عنوان الكتاب: الحرب والسلم – الكتاب الثالث

Title: **Война и мир - III**

ترجمة: صياح الجهيم

Translator: **Sayah Al jhayem**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: 1981

First Edition: 1981

الطبعة الثانية: 2017

Second Edition: 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الجزء الأول

الفصل الأول

منذ أواخر عام ١٨١١ شرعت أوروبا الغربية في تجهيز قواتها تجهيزاً كثيفاً وفي حشدها وتركيزها، وفي عام ١٨١٢ أخذت هذه القوات، ملايين الرجال (ومن ضمنهم الذين كانوا يقومون بنقل الجيش وتموينه) تزحف من الغرب إلى الشرق متجهة إلى الحدود الروسية التي كانت القوات الروسية تسير إليها كذلك منذ عام ١٨١١. وفي ١٢ حزيران[1] عبرت قوات أوروبا الغربية الحدود الروسية وبدأت الحرب، أي أنه قد حدث حدث مخالف للعقل ومناقض للطبيعة البشرية. ذلك أن ملايين البشر ارتكبوا بعضهم تجاه بعض عدداً لا يحصى من ضروب الإثم والغش والخيانة والسرقة والاحتيال وترويج النقد الزائف والنهب والحرق والقتل، عدداً تعجز جميع سجلات محاكم العالم عن أن تجمع مثله في قرون كاملة. لكن الذين ارتكبوا هذه الجرائم لم يكونوا يعدّونها جرائم آنذاك.

فما الذي دعا إلى هذا الحدث العجيب؟ ما أسبابه؟ يؤكد المؤرخون تأكيداً ساذجاً أن الأسباب هي: الإهانة التي لحقت بدوق اولدنبرج، خرق الحصار القاري، نزوع نابليون إلى السيطرة، عناد الكسندر، أخطاء الدبلوماسيين، الخ.

---

١ - «في ١٢ حزيران» أي في ٢٤ حزيران حسب التقويم الغريغوري. ولابد من الملاحظة أن جميع التواريخ التي يعطيها تولستوي، حسب التقويم الروسي، تتأخر اثني عشر يوماً.

وبناء على ذلك فقد كان يكفي، حتى لا تقع الحرب، أن يعكف ماترنيخ أو روميا نتزيف أو تاليران، فيما بين حفلتين، على تدبيج مذكرة بارعة الأسلوب محكمة الصنع، أو أن يكتب نابليون إلى الكسندر: «سيدي الأخ، أوافق على أن أعيد إلى الدوق أولدنبرج دوقيته».

نحن نفهم أن تكون الأشياء قد بدت على هذا النحو بالنسبة إلى الناس آنذاك. ونفهم أن يعزو نابليون الحرب إلى دسائس انكلترا (كما قال في جزيرة القديسة هيلانة)، وأن يردّ أعضاء البرلمان الإنكليزي هذه الحرب إلى نزوع نابليون إلى السيطرة؛ وأن يردها دوق اولدنبرج إلى العنف الذي كان ضحية له، وأن يردها التجار إلى الحصار القاري الذي قاد أوروبا إلى الإفلاس، وأن يردها الجنود والقادة القدماء إلى ضرورة استخدامهم، وأن يردها المنادون بالشرعية إلى ضرورة إعادة المبادئ الشرعية الخيّرة، وأن يردها الدبلوماسيون إلى أن التحالف المعقود سنة ١٨٠٩ بين روسيا والنمسا لم يخف ببراعة كافية عن نابليون وإلى الصياغة الرديئة التي صيغت بها المذكرة رقم ١٧٨. نحن نفهم أن يتعلل الناس آنذاك بهذه الأسباب وبأسباب كثيرة أخرى تبعاً لتعدد وجهات النظر؛ أما بالنسبة إلينا، نحن الأجيال التي جاءت من بعد، ونحن ننظر إلى ذلك الحادث الجلل بكل اتساعه وأهميته ونتحرى معناه البسيط الرهيب، فإن هذه الأسباب تبدو غير كافية. لسنا نفهم كيف يمكن أن يقتل ملايين المسيحيين بعضهم بعضاً وأن يعذب بعضهم بعضاً لأن نابليون كان متعطشاً إلى السلطة ولأن الكسندر كان عنيداً، ولأن سياسة انكلترا كانت ملتوية ماكرة، ولأن دوق أولدنبرج قد أهين. لسنا نفهم الصلة التي يمكن أن تكون بين هذه الظروف وجرائم القتل والعنف؛ لسنا ندرك كيف أَمْكن لإهانة لحقت بدوق أن تدفع آلاف البشر الآتين من أطراف أوروبا الغربية إلى قتل ونكب سكان مقاطعتي سمولنسك وموسكو وإلى أن يلاقوا القتل على أيدي هؤلاء السكان.

بالنسبة إلينا، نحن الأجيال التي جاءت من بعد، ونحن لسنا بمؤرخين لتضلّلنا أهواء البحث والاستقصاء، ومن ثم فنحن نستطيع أن ننظر ملياً في الحدث دون أن تغشي الحجب عقولنا، بالنسبة إلينا، تبدو هذه الأسباب عديدة لا حصر لها. وكلما أمعنّا في البحث عنها تبين لنا أنها أكثر عدداً مما كنا نظن، وبدا كل منها، إذا نظرنا إليه بمعزل عن غيره من الأسباب أو ضمن زمرة منها، صحيحاً في ذاته وباطلاً في الوقت نفسه بسبب تفاهته إزاء عظم الحدث، وبسبب عجزه وقصوره عن ابتعاث مثل ذلك الحدث (إذا لم تتدخل الأسباب الأخرى المتوافقة معه). إن رغبة أي عريف فرنسي في العودة إلى الجيش أو رفضه لهذه العودة يبدو سبباً صحيحاً ومقبولاً، شأنه شأن رفض نابليون الانسحاب إلى ما وراء الفستول وإعادة دوقية أولدنبرغ: فلو أن هذا العريف رفض العودة إلى الخدمة العسكرية، ورفض ثان وثالث وآلاف الجنود هذه العودة لما بقي في جيش نابليون ما يكفي من الرجال ولما أمكن للحرب أن تقع.

لو أن نابليون لم يوجس خيفة من طلب الانسحاب إلى ما وراء الفستول و لم يأمر جنده بالتقدم لما وقعت الحرب؛ ولكن لو أن جميع العرفاء رفضوا العودة إلى الجيش لما أمكن للحرب أن تقع أيضاً. وكذلك فإن الحروب كانت ستكون مستحيلة لولا دسائس انكلترا، ولولا دوق أولدنبرج، ولولا الإهانة التي أحس بها الكسندر، ولولا الحكم المطلق في روسيا، ولولا الثورة الفرنسية، ولولا حكم الإدارة والإمبراطورية التي تلته في فرنسا، ولولا كل ما أدّى إلى الثورة الفرنسية، وهلم جرا. وبدون أي من هذه الأسباب ما كان يمكن أن يقع شيء. ومن ثم فإن جميع هذه الأسباب وآلافاً غيرها قد تلاقت وتضافرت لخلق الحدث، وليس بينها سبب قادر على صنع ذلك الحدث وحده دون غيره من الأسباب، وإنما حدث الحدث لأنه كان لابد له أن يحدث. كان لابد

لملايين الرجال الذين فقدوا رشدهم وأضاعوا صوابهم وطرحوا كل العواطف الإنسانية أن يسيروا من الغرب إلى الشرق وأن يقتلوا أمثالهم من البشر كما سارت قبل بضعة قرون جماعات من الرجال، من الشرق إلى الغرب ليقتلوا أيضاً أمثالهم هناك.

إن أفعال نابليون والكسندر اللذين كان يبدو أن حدوث الحدث أو عدم حدوثه منوط بكلمة منهما، لم تكن أكثر حرية من أفعال الجندي البسيط الذي قادته القرعة أو قاده التجنيد إلى ميدان المعركة. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؛ فلكي تتم مشيئة نابليون والكسندر، (وهما في الظاهر، المالكان لزمام الحدث) كان لابد من تضافر مالا يحصى من الظروف التي لا يمكن أن يقع الحدث بدون أي منها. كان لابد من أن يقبل ملايين الرجال الذين تتركز في أيديهم القوة الفعلية -الجنود الذين كانوا يطلقون النار وينقلون المؤن والمدافع- تحقيق مشيئة هذين الرجلين الضعيفين والمنعزلين وأن يدفعهم إلى ذلك عدد لا حصر له من الأسباب المتنوعة والمركبة.

لا مفر من الحتمية في التاريخ لتفسير الحوادث اللاعقلانية (أي الحوادث التي لا نفهم معناها). وكلما جهدنا في تفسيرها منطقياً بدت لنا أكثر بعداً عن العقل وأكثر استعصاء على الفهم.

كل امرئ يعيش لذاته، ويمارس حريته ليصل إلى أهداف خاصة، ويحس بكل كيانه أنه قادر أو غير قادر على إتمام هذا الفعل أو ذاك، ولكن ما إن يتمه في لحظة معينة من الزمان حتى يغدو فعلاً لا رجوع عنه وحتى يغدو ملكاً للتاريخ، وحينذاك يكف عن أن يكون فعلاً حراً ويتخذ دلالة متقدمة عليه ومحددة من قبل.

وفي حياة كل امريء وجهان: الحياة الفردية التي تزداد حريتها

بمقدار ما تكون منافعها مجردة غير مشخصة، والحياة الابتدائية الجماعية التي يخضع فيها الإنسان خضوعاً محتماً للقوانين المفروضة عليه.

إن الإنسان يعيش لذاته عن وعي، لكنه يشارك عن غير وعي في السعي وراء الأهداف التاريخية، أهداف الإنسانية جمعاء. الفعل المنجز التام فعل لا سبيل إلى الرجوع عنه، وهو بتوافقه في الزمن مع آلاف الأفعال المنجزة التامة على أيدي أناس آخرين، يكتسب قيمة تاريخية. وكلما علت منزلة الإنسان في السلم الاجتماعي تعاظم عدد الناس الذين يرتبطون به، وكلما كان سلطانه على الناس أكبر غدا طابع الحتمية والتحديد المسبق في كل فعل من أفعاله أوضح وأبين.

«قلب الملك في يد الرب»[1]

الملك عبد التاريخ.

إن التاريخ، أي حياة الإنسانية اللاواعية، المشتركة، الجماعية، يستخدم كل لحظة من حياة الملوك أداة لإتمام مقاصده.

مع أن نابليون، في هذه الفترة من سنة ١٨١٢، كان قانعاً أكثر من أي وقت مضى أن إراقة دم الشعوب أو منع إراقته رهنٌ به (كما قال له الكسندر في رسالته الأخيرة)، إلا أنه لم يكن قط أشد خضوعاً لهذه القوانين المحتمة التي كانت تجبره (في حين كان يعتقد أنه يعمل على هواه) على إتمام ما لم يكن بد من إتمامه للعمل العام المشترك، للتاريخ.

أخذ رجال الغرب يزحفون نحو رجال الشرق ليقتتلوا وليذبّح

١- من أمثال سليمان. ويقول نص التوراة اليوناني بالضبط: «قلب الملك في يد الرب، مثل مجرى ماء، يقوده حيث يشاء» (٢١-١).

بعضهم بعضاً. وبموجب قانون تلاقي الأسباب وتضافرها فقد ظهرت آلاف الأسباب الصغيرة لهذه الحركة وهذه الحرب وتوافقت مع ذلك الحدث: المطاعن على خرق الحصار القاري، إهانة دوق أولدنبرج، دخول الجيش إلى بروسيا بقصد تأمين السلام المسلح (كذلك كان يعتقد نابليون)، حب نابليون للحرب، وهو حب توافق مع استعدادات شعبه، جاذبية الاستعدادات الضخمة والنفقات التي جرّتها وضرورة تأمين المنافع والمغانم اللازمة لتغطية تلك النفقات، وأمجاد درسدن المُثْملة[1]، والمحادثات الدبلوماسية التي حدتها الرغبة الصادقة في السلام كما يرى المعاصرون، كلها لم تعْدُ أن جرحت كبرياء المتفاوضين، وملايين الأسباب الأخرى التي أسهمت في إتمام الحدث وتلاقت معه.

عندما تنضج التفاحة وتسقط، فلماذا تسقط؟ ألأن ثقلها جرها إلى الأرض، ألأن سويقها جف، ألأن الشمس أحرقتها، ألأنها كانت مفرطة الثقل، ألأن الريح هزتها، أم لأن الصبي الجالس تحت الشجرة اشتهى أن يأكلها؟

ليس في ذلك كله ما يُعدُّ سبباً حقيقياً لسقوط التفاحة. وليس ها هنا سوى توافق بين الشروط الملائمة لاكتمال الحدث الحيوي، العضوي، الابتدائي. وعالم النبات الذي يزعم أن التفاحة سقطت نتيجة لتحلل النسيج الخلوي أو لأسباب أخرى مشابهة، محقّ كالطفل الذي يزعم أنها سقطت لأنه اشتهى أن يأكلها ولأن الله استجاب لدعائه. ومن يزعم أن نابليون زحف على موسكو لأنه كان يريد ذلك وأنه لقي الخسران والدمار لأن الكسندر كان يريد ذلك، محق ومخطئ معاً كمن يزعم أن جبلاً يزن آلاف الأطنان ومنقوباً من قاعدته قد انهار نتيجة لآخر

١- في أواخر أيار سنة ١٨١٢، سبق نابليون الجيش وقصد إلى درسدن حيث احتفى به امبراطور النمسا وملكا بروسيا والساكس ومجمع الأمراء التابعين لهم.

ضربة معول ضربها آخر العمال. ففي الأحداث التاريخية ليس الرجال العظام المزعومون سوى بطاقات تهب الحدث اسمه، ولا صلة لهم بهذا الحدث، شأنهم شأن البطاقات ذاتها.

إن كل فعل من أفعالهم يبدو لهم صادراً عن إرادة حرة ما هو إلا فعل غير إرادي بالمعنى التاريخي، وهو مرتبط بمسيرة التاريخ العامة، محدد منذ الأزل.

***

الفصل الثاني

في ٢٩ أيار غادر نابليون درسدن حيث قضى ثلاثة أسابيع، تحيط به حاشية من الأمراء والدوقات والملوك بل لقد كان فيها امبراطور. وقبل رحيله أثنى على الأمراء والملوك والإمبراطور الذين استحقوا ثناءه، وعنف الملوك والأمراء الذين لم يكن راضياً عنهم، وأهدى امبراطورة النمسا درره وماساته الخاصة، أي تلك التي انتزعها من ملوك آخرين، وترك الإمبراطورة ماري لويز بعد أن ضمها بحنان بين ذراعيه، مغتمة، كما يقول مؤرخه[١]، لفراق يبدو أن ماري لويز هذه، وكانت تُعتبر زوجة له مع أنه ترك زوجته الشرعية في باريس، لا تملك القوة على احتماله. ومع أن الدبلوماسيين لم يساورهم الشك في إمكان المحافظة على السلام وأنهم بذلوا وسعهم بحماسة من أجل ذلك، ومع أن الإمبراطور نابليون وجّه رسالة شخصية للإمبراطور الكسندر يدعوه فيها «سيدي الأخ»، ويؤكد له «صادقاً» أنه لا يريد الحرب وأنه لن يكف عن حبه وتقديره له، إلا أنه كان ماضياً في طريقه إلى الجيش، وكان يصدر، عند كل مرحلة، أوامره التي تهدف إلى تسريع حركة الجند من الغرب إلى الشرق. كان يسلك الطريق الكبرى، طريق بوزن،

١- مؤرخه هو «أدولف تيير»، وهو سياسي وكاتب (١٧٩٧-١٨٧٧). كتب: «تأريخ القنصلية والإمبراطورية» في ١٩ مجلداً، فرغ منه ١٨٥٥. وقد استقى تولستوي الكثير منه.

ثورن، دانتزيغ وكينسبرج، في عربة تجرها ستة جياد ويحيط بها خدمه ومرافقوه وحرسه. وفي كل من هذه المدن كان آلاف الأشخاص يستقبلونه بحماسة يشوبها الرعب.

كان الجيش يتقدم من الغرب إلى الشرق وكانت العربة ذات الجياد الستة التي تُبدل عند كل مرحلة تحمل نابليون إلى الوجهة نفسها. وفي ١٠ حزيران أدرك نابليون الجيش وقضى الليل في قلب غابة «ويلكو ويسكي»[١] في ملكية كونت بولوني حيث أعدت من أجله شقة خاصة.

وفي اليوم التالي تجاوز نابليون الجيش وبلغ بعربته نهر النيمين؛ وهناك ارتدى بذلة عسكرية بولونية وتفقد ضفاف النهر ليعثر على معبر صالح لعبور القوات.

وحين رأى نابليون في الجانب الآخر من النهر القوزاق والسهوب[٢] المترامية الأطراف التي تقع في وسطها موسكو، المدينة المقدسة، عاصمة هذه الإمبراطورية الشبيهة بإمبراطورية السكيتيين التي اجتاحها الكسندر الأكبر، أمر جيشه بالتقدم، مثيراً بذلك الدهشة العامة ومستهيناً بجميع الاعتبارات الاستراتيجية والدبلوماسية. وفي اليوم التالي، عبر الجند نهر النيمين.

في الصباح الباكر من يوم ١٢ حزيران خرج نابليون من خيمته التي نُصبت في هذا اليوم على منحدر وعر من ضفة النهر اليسرى وراقب بمنظاره أمواج الجند وهي تتدفق من غابة ويلكو ويسكي لتنتشر على

١- قرية على الضفة اليسرى للنيمين، في مقاطعة سواكلي تابعة لدوقية فارسوفيا الكبرى.

٢- تهكم واضح من المؤلف، إذ ليس بين النيميين وموسكو سهوب وإنما هناك غابات كثيفة وحقول محروثة.

الجسور الثلاثة المقامة على النهر. وكان الجنود يعلمون أن الإمبراطور حاضر هاهنا، فكانوا يبحثون عنه بأبصارهم، حتى إذا اكتشفوا شخصه على رابية من الأرض، أمام الخيمة، بعيداً عن حاشيته، بمعطفه وقبعته الصغيرة، رموا قلنسواتهم في الفضاء وصاحوا: «عاش الإمبراطور!» وكانت جموعهم لاتني تتدفق بعضها وراء بعض خارج الغابة الهائلة التي ضمتهم وأخفتهم حتى هذه الساعة، ثم تتشعب لتقطع الجسور الثلاثة إلى الضفة الأخرى.

–سيكون تقدمنا مؤكداً هذه المرة. أوه! إذا تصدّى للأمور بذاته حميت المعركة.... ها هو ذا... عاش الإمبراطور!.... ها نحن أولاء في سهوب آسيا!... البلد مكرب على كل حال. إلى اللقاء يا بوشيه، سأحتفظ لك بأجمل قصر في موسكو. إلى اللقاء! وحظاً سعيداً... هل رأيته، الإمبراطور؟ عاش الإمبراطور... رطور!... لو عينوني حاكماً للهند فسأجعلك، يا جيرار، وزيراً لكشمير، هذا مقرر. عاش الإمبراطور! عاش! عاش! عاش! وهؤلاء القوزاق الأوغاد، ما أسرعهم في الجري! عاش الإمبراطور! ها هو ذا! هل رأيته؟ رأيته مرتين كما أراك. العريف الصغير!... رأيته يمنح أحد الجنود القدماء وساماً... عاش الإمبراطور!....

كذلك كان يتحدث الشبان والكهول من الجنود، وهم أناس من مختلف الطباع والأوضاع الإجتماعية. كانت وجوه هؤلاء الرجال جميعاً تعكس الفرح نفسه ببداية المعركة التي طال انتظارهم لها، وتعكس الحماسة نفسها والإخلاص نفسه للرجل ذي المعطف الرمادي، الواقف على الرابية.

في ١٣ حزيران حُمل إلى نابليون جواد عربي أصيل، فاعتلى صهوته ومضى عدواً إلى أحد جسور نهر النييمين وقد أصمّته الهتافات

الحماسية التي لعله لم يكن يحتملها إلا لأنه كان من المتعذر منع هؤلاء الرجال من التعبير بهذه الصرخات عن الحب الذي يكنُّونه له؛ لكن هذه الهتافات التي كانت ترافقه أينما ذهب كانت عبئاً عليه لأنها كانت تصرفه عن المشاغل العسكرية التي استحوذت عليه منذ أن لحق بالجيش. وعبر النهر على جسر كان يهتز، ثم انعطف فجأة إلى الشمال وعدا بجواده صوب «كوفنو»[1] يسبقه القناصة من الحرس الفرسان الذين كانوا يشقون له طريقاً خلال الجند، وقد استخفهم الفرح وأثملتهم السعادة. ولما وصل إلى ضفة «فيليا» العريضة، توقف قرب فوج من الفرسان البولونيين كان يقيم هناك.

هتف البولونيون بالحماسة ذاتها وقد انفضّت صفوفهم وتدافعوا لرؤيته: عاش الإمبراطور! وتفقد نابليون النهر وترجل وجلس على جذع شجرة بجنب الماء. وأشار إشارة فحُمل إليه منظار مقرب، وأسنده على ظهر غلام بادر إلى ذلك وقد غمرته السعادة، وتفحص الجهة الأخرى من النهر. وقال شيئاً، من غير أن يرفع رأسه؛ فإذا باثنين من مرافقيه ينطلقان على جواديهما نحو الفرسان البولونيين.

وعندما بلَغَهم أحدُ المرافقين تساءل الجنود في صفوفهم:

- ما الأمر؟ ماذا قال؟

لقد أمر بالبحث عن مَعبر وبعبور النهر إلى الضفة الأخرى. وسأل عقيد الفرسان - وهو شيخ حسن المنظر. محمر الوجه، كان يتلعثم من الانفعال - سأل المرافق: إن كان من المسموح له ولفرسانه عبور النهر سباحة على مرأى من الإمبراطور، وهو ظاهر الخوف من الرفض. كمثل

١- كوفنو مدينة في ليتوانيا على فيليا الذي يصب في النيمين. وكانت واقعة آنذاك في الأراضي الروسية.

صبي يطلب الإذن بامتطاء صهوة جواد. فأجاب المرافق أن الإمبراطور لن يستاء. دون شك من هذه الحميَّة المفرطة.

وما إن قال ذلك حتى هتف ذلك الضابط المُشَوْربُ القديم، وهو يستل سيفه وقد بدا عليه الفرح وبرقت عيناه: عاش الإمبراطور! ثم أمر الفرسان أن يتبعوه وهمز حصانه وانطلق إلى النهر عدواً. وعند حافة النهر حث بعنف جواده الذي أبدى شيئاً من الحِران واندفع إلى الماء متجهاً نحو وسط النهر حيث كان التيار سريعاً. فلحق به مئات الفرسان عدواً. وفي منتصف ذلك التيار السريع استولى البرد والخوف عليهم. وأخذ بعضهم يتشبث ببعض وهم يتهاووْن عن خيولهم. فغرقت بعض الجياد كما كان بعض الرجال يغرقون أيضاً، وكان آخرون يسعون جهدهم لبلوغ الضفة الأخرى، ومع أن المعبر كان على نصف فرسخ منهم إلا أنهم كانوا مزهوّين بأن يسبحوا وأن يغرقوا تحت بصر الرجل الجالس على جذع شجرة والذي لم يكن يتطلع إلى ما كانوا يفعلونه. وعندما عاد المرافق وانتهز اللحظة المناسبة ليلفت نظر الإمبراطور إلى إخلاص البولونيين لشخصه، نهض الرجل القصير ذو المعطف الرمادي ودعا «بيرتييه»[1] وراح يتمشى معه إلى جانب الماء مصدراً أوامره وملقياً نظرة ممتعضة على أولئك الفرسان الذين كانوا يغرقون وكانوا يصرفونه عن اهتمامه.

كانت قناعته بأن حضوره في جميع أنحاء العالم، من إفريقيا إلى سهوب موسكو يُحدث الأثر نفسه ويثير في الرجال جنون التضحية، كانت قناعته هذه غير جديدة عليه. فأمر بحصانه وعاد إلى مقره.

١- بيرتييه (١٧٥٣-١٨١٥) رئيس أركان نابليون. مارشال فرنسا. وأمير واغرام ونوشانيل.

غرق في النهر ما يقربُ من أربعين فارساً رغم القوارب التي أُرسلت لنجدتهم. وقد ارتد معظمهم إلى الشاطئ. أما العقيد وبعض الرجال الآخرين فإنهم بلغوا الضفة الأخرى وخرجوا بمشقة من الماء. وما أن وضعوا أقدامهم على الأرض بثيابهم التي تُرْشحُ ماء حتى هتفوا، وهم ينظرون بحماسة إلى الموضع الذي وقف فيه نابليون ثم غادره،: «عاش الإمبراطور!» وأحسوا في هذه اللحظة أنهم سعداء.

وفي المساء، فيما بين أمرين، أحدهما للتعجيل بإرسال العملات الروسية المزيفة بغية إدخالها إلى روسيا، والثاني لإعدام سكسوني قُبض معه على رسالة تحتوي على إشارات إلى تحركات الجيش الفرنسي، أصدر نابليون أمراً ثالثاً يمنح العقيد البولوني الذي ألقى بنفسه في النهر من غير داع جوقة الشرف التي أنشأها هو نفسه. «إن شاء أن يهلكهم أفقدهم رشدَهم»[1].

***

١ – الفكرة لأورو بيدوس: إن شاء جوبيتير أن يهلكهم أفقدهم صوابهم قبل كل شيء.

الفصل الثالث

في هذه الأثناء كان امبراطور روسيا يقيم في «فيلنا» منذ أكثر من شهر، يستعرض قواته ويشهد مناوراتها. لم يكن قد أُعِدَّ شيء للحرب التي كان جميع الناس يتوقعونها، والتي من أجل التحضير لها غادر الإمبراطور «بطرسبرج» ولم يكن هناك خطة عامة للعمليات. كما ازداد التردد بشأن اختيار خطة بين جميع الخطط المقترحة بعد أن قضى الإمبراطور شهراً في مقر القيادة العامة. كان لكل جيش من الجيوش الثلاثة قائده العام، إلا أنه لم تكن هناك قيادة موحدة ولم يكن الإمبراطور ليضطلع بالأعباء الملقاة على عاتقه.

كان كلما طال مقامه في فيلنا قلَ الاستعداد للحرب التي أعيا انتظارُها، وكانت جميع جهود بطانته تبدو أنها لا تهدف إلا إلى حمله على نسيان الحرب الآتية وعلى قضاء الوقت قضاء ممتعاً ساراً.

وبعد العديد من الحفلات الراقصة والمآدب التي أقامها الأشراف البولونيون ورجال الحاشيةِ والإمبراطور نفسه، عَرضت لأحد الجنرالات من المرافقين العسكَريين البولونيين، في شهر حزيران، فكرةُ إقامة مأدبة عشاء وحفلة راقصة على شرف الإمبراطور باسم زملائه. وقد لقيت الفكرة هوى في النفوس وقبولاً من الإمبراطور. فافتتح المرافقون العسكريون من الجنرالات عملية الاكتتاب. ودُعيت أقرب

النساء إلى نفس الإمبراطور لكي تقوم بمهمة ربة المنزل. وقد قدم الكونت «بينيغسين»[1] الذي كانت له أملاكه في مقاطعة فيلنا[2]، منزله الريفي في «زاكرت» لهذا الاحتفال، وتقرر أن تجري فيه، في ١٣ حزيران، الحفلة الراقصة ومأدبة العشاء والنزهة على الماء والألعاب النارية.

ففي نفس اليوم الذي أصدر فيه نابليون أمره بعبور نهر النييمين والذي اجتازت فيه طلائعه الحدود الروسية بعد أن دحرت القوزاق، كان الكسندر يقضي سهرته في منزل «بينيغسن»، الريفي، في الحفلة الراقصة التي أقامها له الجنرالات، مرافقوه العسكريون.

كان الاحتفال بهيجاً متألقاً؛ وكان العارفون يقولون أنهم لم يروا قط مثل هذا العدد من النساء الجميلات مجتمعات معاً. وكانت الكونتيسة «بيزوخوف» التي تبعت الإمبراطور من بطرسبرج إلى «فيلنا» بين سيدات روسيات أخريات، حاضرة فبزّتْ بجمالها الروسي النموذجي السيدات البولونيات الناعمات المرهفات. وقد لفتت إليها الأنظار وكرَّمها الإمبراطور بإحدى الرقصات.

كان بوريس دروبتسكوي هناك أيضاً، فتى عزباً، كما كان يقول، وذلك لأنه ترك زوجته في موسكو، ومع أنه لم يكن مرافقاً عسكرياً جنرالاً إلا أنه شارك بمبلغ كبير في الاكتتاب لهذه الحفلة. لقد غدا الآن رجلاً غنياً قطع شوطاً بعيداً على طريق المجد، ولم يعد يبحث عمن يدعمه، لكنه كان يتعامل مع أعلى أقرانه منصباً تعامل الند للند.

في منتصف الليل كان الرقص مايزال مستمراً. وقد دعت هيلين بنفسها «بوريس» إلى رقصة «المازوركا»، حين لم تجد مُراقصاً

١- تولستوي يسبق التاريخ هنا لأن بينيغسين لم ينل لقب كونت إلا في ١٨١٣.

٢- فيلنا مدينة رئيسية من مدن ليتوانيا، واقعة على فيليا. ألحقت بروسيا في ١٧٩٥.

جديراً بها. فكانا يشكلان الزوج الثالث. وكان بوريس يتحدث عن أصدقائهما القدامى وهو يُلقي نظرات غير مبالية على كتفي هيلين العاريتين البضتين اللتين كانتا تنبعثان من ثوبها الشفاف الداكن المطرز بالذهب، وكان في الوقت نفسه لا يفتأ يلاحظ الإمبراطور الذي كان في القاعة نفسها، من غير أن يعلم أحد بذلك بل من غير أن يعلم هو نفسه بذلك. لم يكن الإمبراطور يرقص، وكان واقفاً قرب أحد الأبواب يستوقف هذا تارة ويستوقف ذاك تارة أخرى بكلمة من كلماته الحلوة اللطيفة التي كان وحده يُحسنها.

وعند بداية المازوركا شاهد بوريس المرافق العسكري الجنرال بالاشيف[1]، وهو أحد الخلصاء المقربين إلى الإمبراطور، يدنو من سيده الذي كان يُحدث إحدى السيدات البولونيات ويقف قريباً منه قرباً لا تسمح به الآداب المرسومة. وبعد أن تبادل الإمبراطور والسيدة بعض الكلمات ألقى نظرة مستفهمة على بالاشيف وأدرك أنه ما كان يفعل ذلك لولا بعض الأسباب الجدية. فودع محدثته بإشارة من رأسه ثم التفت إليه.

وما إن بدأ بالاشيف كلامه حتى ارتسمت الدهشة على وجه الإمبراطور. فأمسك بذراعه واجتاز القاعة معه دون أن يلتفت إلى الناس الذين كانوا يتنحون ليفسحوا له الطريق. ولاحظ بوريس وجه «آراكتشيف» متأثراً منفعلاً في اللحظة التي غادر فيها الإمبراطور القاعة ومعه «بالاشيف».وما لبث أن خرج من بين جمهور المدعوين، وهو يلقي على الإمبراطور نظرات من طرف خفي وينفخ من خلال أنفه الأحمر، وكأنما كان ينتظر أن يوجِّه إليه الكلام. (وأدرك بوريس أن

١- بالاشيف (١٧٧٠-١٨٣٧) حاكم بطرسبرج بين (١٨٠٩-١٨١٠)، وعضو مجلس الدولة بين ١٨١٠-١٨٣٤.

آراكتشيف كان حاسداً لبالاشيف ومستاء من أن نبأً واضح الأهمية قد حمله إنسان غيره).

لكن الإمبراطور وبالاشيف مرا دون أن يلمحاه وخرجا إلى الحديقة المضاءة. فتبعهما آراكتشيف، وهو يشد بيده على سيفه ويُلقي حوله نظرات مهتاجة غاضبة، ووقف منهما على عشرين خطوة.

وكان بوريس، أثناء رقصة المازوركا، لا يني يتعذب وهو يتساءل عما عسى أن يكون ذلك النبأ الذي حمله بالاشيف، وكيف يمكنه أن يطَّلع عليه قبل غيره.

وفي اللحظة التي كان عليه أن يختار مُراقصة له، همس لهيلين أنه ينوي دعوة الكونتيسة بوتوكا التي خرجت إلى الشرفة، كما كان يظن، ثم انسل على الأرض الخشبية إلى باب الحديقة ووقف لدى رؤيته الإمبراطور الذي كان يصعد درجات الشرفة وبصحبته بالاشيف. وكان الإمبراطور وبالاشيف يتجهان إلى مدخل القاعة. وبمنتهى السرعة ألصق بوريس نفسه بإطار الباب، كأنما لم يُتحْ له أن يتنحى عن الطريق، ووقف وِقْفة الاحترام ثم انحنى إجلالاً.

كان الإمبراطور يُنهي حديثه بالكلمات التالية، وقد بدا عليه الانفعال كمن تلقى إهانة شخصية:

«الدخول إلى روسيا دون إعلان الحرب! لن أعقد صلحاً مادام على أرضي عدو واحد مسلح». وأحس بوريس أن الإمبراطور كان يلفظ هذه الكلمات بشيء من الرضى: كان مرتاحاً إلى الشكل الذي صاغ فيه فكرته وممتعضاً من أن بوريس قد سمعه. فأردف قائلاً وهو يقطب حاجبيه:

- «ينبغي ألا يعلم أحد شيئاً مما قلتُ!». فأدرك بوريس أنه هو المقصود بهذه الكلمات. فخفض بصره وحنى رأسه انحناءة خفيفة، ثم رجع الإمبراطور إلى القاعة ولبث نحو نصف ساعة في الحفلة الراقصة.

كان بوريس أول من علم أن القوات الفرنسية عبرت النييمين، وهكذا أُتيح له أن يُظهر لبعض الشخصيات الرفيعة أنه عالم بكثير من الأشياء التي تخفى على غيره، الأمر الذي كان يزيد من قيمته في نظرهم.

زاد من المفاجأة التي أثارها النبأ المباغت عن عبور الفرنسيين للنييمين أنه جاء بعد شهر من الانتظار الفارغ وفي غمرة حفلة راقصة! وكان الإمبراطور قد وجد في اللحظة الأولى، وتحت وطأة السخط والعار، الصيغة التي أصبحت شهيرة فيما بعد والتي أعجبته هو نفسه وعبرت عن مشاعره تعبيراً تاماً. وبعد عودته من الحفلة الراقصة أرسل في الساعة الثانية صباحاً رسولاً يستدعي أمين سره «شيشكوف» وكلفه أن يحرر أمراً يومياً إلى القطعات وأمراً امبراطورياً إلى الفيلد مارشال الأمير سالتيخوف[1]، حرص فيهما صراحة على إبراز الكلمات التي أكد فيها الإمبراطور أنه لن يعقد صلحاً ما بقي على الأرض الروسية فرنسي مسلح واحد.

وفي اليوم التالي أُرسلت الرسالة التالية إلى نابليون:

سيدي الأخ: علمت البارحة أنه رغم وفائي بالعهود التي التزمت بها حيال جلالتكم، فإن قطعاتكم عبرت حدود روسيا، وقد تلقيت في هذه اللحظة مذكرة من بطرسبرج يعلن فيها الكونت لوريستون، كسبب لهذا الاعتداء، أن جلالتكم اعتبرتم أنفسكم في حالة حرب معي منذ أن طلب الأمير كوراكين أوراق اعتماده. إن الدوافع التي بنى عليها

١- سالتيخوف. (١٧٣٦-١٨١٦). رئيس مجلس الوزراء في ١٨١٢.

الدوق «دوباسانو» رفضه لتسليمها له ما كانت لتحملني على الظن أن هذا المسعى سيُتخذ ذريعة للاعتداء. والواقع إنِ هذا السفير لم يكن مُخولاً لما فعل، كما صرح هو نفسه بذلك، وما إن أبلغت بما جرى حتى أعلمته مقدار استنكاري وأمرته أن يبقى على رأس عمله. وإذا لم يكن في نية جلالتكم سفك دم شعبينا بسبب خلاف من هذا النوع، وإذا وافقتم على سحب قواتكم من الأراضي الروسية اعتبرت ما حدث كأنه لم يكن وغدت التسوية ممكنة. أما في الحالة المعاكسة، يا صاحب الجلالة، فسوف أجد نفسي مرغماً على صد هجوم لم يدع إليه داع من قبلنا. ومازال الأمر منوطاً بجلالتكم لتجنيب الإنسانية ويلات حرب جديدة.

«التوقيع: الكسندر...»

***

الفصل الرابع

في ١٣ حزيران، في الساعة الثانية صباحاً، استدعى الإمبراطور «بالاشيف»، وبعد أن قرأ عليه رسالته إلى نابليون، عهد إليه بحملها وتسليمها شخصياً إلى امبراطور فرنسا. وكرر عليه مرة أخرى، وهو يصرفه، أنه لن يعقد صلحاً ما بقي على الأرض الروسية عدو مسلح واحد، وأمره أن يردد هذه الكلمات بعينها على مسامع نابليون. و لم يُثبت الإمبراطور هذه الكلمات في رسالته لأنه أحس، بحسه المرهف الفطري، أنها لا تتفق مع محاولته الأخيرة للتصالح؛ لكنه أصر أن ينقلها بالاشيف شفهياً.

سافر بالاشيف في ليلة ١٣–١٤ حزيران، يصحبه نافخ بوق وقوزاقيان، ووصل عند الفجر إلى قرية «ريكونتي» حيث الطلائع الفرنسية، على هذه الضفة من نهر النييمين. فأوقفه حُراس الخيالة الفرنسيين.

وصاح به، وهو يقترب، ضابط صف من الخيالة الفرنسيين يلبس بزة من القطيفة الحمراء وقلنسوة ذات زغب، صاح يأمره بالوقوف. فلم يمتثل بالاشيف على الفور لكنه استمر يسير بتؤدة.

اعترض ضابط الصف بالأشيف بحصانه، مقطّب الحاجبين مدمدماً بالشتائم، واستل سيفه وانتهر الجنرال الروسي بفظاظة وهو يسأله إن

كان أصم فلم يسمع ما قيل له. فعرّفه بالاشيف بنفسه. عند ذاك أرسل ضابط الصف جندياً للبحث عن أحد الضباط.

وراح ضابط الصف يتحدث مع رفاقه عن شؤونهم. دون أن يُعير بالاشيف اهتمامه. دون أن ينظر إلى الجنرال الروسي.

ونظراً لصلات بالاشيف الوثيقة بالسلطة العليا وبالدولة، ونظراً للحديث الذي جرى بينه وبين الإمبراطور قبل ثلاث ساعات، ولكونه تعوَد التكريم بحكم منصبه، فقد أصيب بالحيرة حين رأى هنا، على الأرض الروسية هذا العداء، وحين عومل، بخاصة، على يد القوة الغاشمة معاملة خالية من أي احترام.

أخذت الشمس تشق ستار السحب؛ كان الهواء بارداً ندياً. ومن القرية كان قطيع من الماشية يمشي إلى المروج. وكانت القبّرات تنبعث من الحقول مزغردة. الواحدة تلو الأخرى، كالفقاعات على سطح الماء. كان بالاشيف يُنقِّل بصره حوله، وهو ينتظر قدوم الضابط الذي ذهب الجندي يبحث عنه في القرية. وكان القوزاقيان ونافخ البوق يبادلون الفرسان الفرنسيين، بين الفينة والفينة، النظرات بصمت.

وصل إلى القرية عقيد الفرسان الفرنسيين الذي كان يبدو عليه أنه قد نهض للتوّ من فراشه، على جواد أشهب، حسن المنظر، تام الخلقة، يرافقه اثنان من رجاله. وكانت هيئة الضابط والجنديين وخيولهم تنمُّ على الانشراح والأناقة.

كان ذلك في مطلع العمليات إذ القوات ما تزال حسنة الحال وكأنها في استعراض عسكري زمن السلم، مع ضرب من الأناقة التي يَغْلب عليها الطابع الحربي ومع ذلك اللون من البهجة والقوة والعزم التي ترافق الشروع في الحرب.

كان العقيد يجد مشقة في حَبْس تثاؤبه، لكنه أظهر لباقة وأنساً وبدا عليه أنه أدرك خطر المهمة التي يحملها بالاشيف. فاجتاز معه خط المخافر الأمامية وأكد له أنه سيقابل الإمبراطور، بناء على رغبته، في أقرب وقت من غير شك، وذلك لأن مقر قيادته يقع، على ما يعتقد، في الأماكن المجاورة.

مروا بقرية «ريكونتي» وسط مفارز الفرسان الفرنسيين، والحراس والجنود الذين كانوا يحيون عقيدهم وينظرون باستغراب إلى البزّة الروسية. ثم خرجوا من القرية. وقال العقيد:

إن قائد الفرقة الذي سيستقبل بالاشيف وسيوصله إلى غايته، على كيلومترين من هذا المكان.

كانت الشمس قد أشرقت وأخذت تلتمع التماعاً بهيجاً على الخضرة الزاهية.

وما إن تجاوزوا نزلاً، في أعلى السفح، حتى شاهدوا كوكبة من الفرسان مقبلة عليهم من السفح الآخر، وعلى رأسها فارس يمتطي جواداً أسود تلمع عدته تحت أشعة الشمس؛ وكان رجلاً مديد القامة، مشتملاً بدثار أحمر، ذا قبعة يزينها ريش، وقد تدلى شعره الأسود خصلاً على كتفيه وامتدت رجلاه الطويلتان إلى الأمام على عادة الفرنسيين في ركوب الخيل. أقبل هذا الرجل على بالاشيف عدواً، وكان ريش قبعته وجواهره وشرائطه الذهبية تتلألأ وتبرق في شمس حزيران.

كان بالاشيف على خطوات من هذا الفارس الذي يصطنع الأبهة ويتكلف الإثارة بأساوره وعقوده وريشه وبريق ذهبه، عندما همس

إليه العقيد الفرنسي «أولنر» بكل احترام: «ملك نابولي»[1]. والواقع أن هذا الفارس كان «مورا» الذي صار يدعى الآن ملك نابولي. ومع أنه لم يكن مفهوماً، على الإطلاق، كيف كان «مورا» ملكاً لنابولي، إلا أنه كان يُدعى بهذا الاسم، وكان هو نفسه قانعاً بأنه ذلك الملك، فزادته هذه القناعة هيبة ووقاراً عن ذي قبل. لقد كان متأكداً من ذلك أشد التأكد، حتى أنه عندما هتف بعض الايطاليين، عشية سفره، بينما كان يتنزه هو وزوجته في شوارع نابولي: «عاش الملك!» التفت إلى زوجته قائلاً، وعلى وجهه ابتسامة حزينة: «يا للمساكين، إنهم لا يعلمون أني سأرحل عنهم غداً».

لكنه مع قناعته التامة بأنه كان ملك نابولي ومع رأفته برعيته إلا أنه قد عاد إلى عمله المعهود ببهجة وفرح منذ أن تلقى أمراً، في هذه الأيام الأخيرة، بالعودة إلى الخدمة، ولاسيما بعد مقابلته نابليون في «دانتزيج» إذ قال صهره المبجل: «إني جعلتك ملكاً لتحكم على طريقتي، لا على طريقتك»؛ عاد إلى عمله وهو أشبه ما يكون بالحصان الذي أحسنت تغذيته و لم يثقله شحمه، فاستخفه النشاط حين أحس أنه مربوط بعربته وجرى معمقاً على دروب بولونيا وقد امتلأ مرحاً وانبساطاً، دون أن يعلم هو نفسه أين يذهب ولماذا.

ولما رأى الجنرالَ الروسي رد إلى الوراء رأسه ذا الشعر الطويل الجعد، بحركة ملكية مهيبة، ونظر إلى العقيد الفرنسي نظرة مستفهمة. فذكر العقيد لجلالته بكل احترام صفة بالاشيف الذي لم يكن يحسن النطق باسمه.

١- «ملك نابولي»: في سنة ١٨٠٨ جعل نابليون من صهره «مورا» ملكاً على نابولي، بعد أن طرد منها فرعاً من آل بوربون.

حل الملك الصعوبة التي عرضت للعقيد فقال:

- دو بالماشيف!

ثم أضاف بحركة تنمُّ على تنازله الملكي:

- يسعدني أن أتعرف إليك، أيها الجنرال.

وما إن راح الملك يتكلم بصوت مرتفع وبسرعة، حتى فارقته، في الحال، هيبته الملكية، وعاد، من غير أن يفطن لذلك، إلى بساطته البيتية، وهي لهجته التي عُرف بها. ثم وضع يده على غارب جواد بالاشيف وقال كمن يأسف لوضع ليس من شأنه الحكم عليه:

- كل شيء صائر إلى الحرب، على ما يبدو، أيها الجنرال.

فأجاب بالاشيف، مشدداً على لقب «يا صاحب الجلالة»، لغاية في نفسه، وهو تشديد لابد منه عندما نخاطب شخصاً ما يزال هذا اللقب جديداً عليه:

- يا صاحب الجلالة، إن مولاي الإمبراطور لا يريد الحرب، كما ترون جلالتكم.

كان وجه «مورا» يشرق بالرضى الأبله وهو يصغي إلى السيد «دوبا لاشوف». لكن للمُلك مستلزماته: لقد كان يحس أن عليه التحدث إلى مبعوث الكسندر في شؤون السياسة، بصفته ملكاً وحليفاً. فترجل وأمسك بذراع بالاشيف وسار به خطوات بعيداً عن حاشيته التي كانت تنتظره باحترام. ثم تمشى معه جيئة وذهاباً وهو يجهد في أن يتكلم بتعاظم. ومما قاله له أن نابليون أحس بالإهانة عندما طُلب إليه سحب قواته من بروسيا، ولاسيما منذ أن جرحت كرامة فرنسا من

جراء نشر هذا المطلب وإعلانه على الملأ. فأجاب بالاشيف بأنه ليس في هذا المطلب ما يجرح لأن...

وهنا قاطعه مورا:

– وإذن فأنت تقدر أن المحرض ليس الإمبراطور الكسندر؟

قال مورا ذلك وهو يبتسم ابتسامة تفيض بالسذاجة الغبية.

وشرح «بالاشيف» لماذا كان يعتقد أن نابليون هو المحرض على الحرب.

فقاطعه «مورا» مرة أخرى وقال له بلهجة شبيهة باللهجة التي يتحادث بها الخدم الحريصون على أن يظلوا أصحاباً متصافين رغم خصومات أسيادهم:

– يا عزيزي الجنرال، إني أتمنى من كل قلبي أن يتصالح الإمبراطوران وأن تنتهي الحرب التي بدأت بالرغم مني، في أسرع وقت ممكن.

وسأله عن أحوال الدوق الأكبر وعن صحته وذكر اللحظات الحلوة التي قضياها معاً في نابولي[1]. ثم انتصب فجأة بمهابة، وكأنما عاد إليه شعوره بكرامته الملكية، ووقف وقفته عند تتويجه وقال وهو يحرك يده اليمنى:

– تستطيع الانصراف إذا شئت، أيها الجنرال. أتمنى لك النجاح في مهمتك.

ولحق بحاشيته التي كانت تنتظره بكل احترام، والريح تلاعب دثاره الأحمر المطرز وريش قبعته، والشمس تتلألأ على جواهره.

---

١ – أرسل الدوق الأكبر قسطنطين إلى نابولي ليحضر تتويج مورا سنة ١٨٠٨.

تابع بالاشيف طريقه معتقداً أنه لن يلبث طويلاً حتى يمثل بين يدي الإمبراطور بالذات، كما زعم مورا. ولكن بدلاً من أن يقابل نابليون كما كان يتوقع فقد أوقفه مرة أخرى حراس إحدى قطعات المدفعية التابعة للمارشال «دافو» في الموقع التالي على نحو ما جرى له في خط المخافر الأمامية وقاده مساعد من مساعدي آمر القطعة بعد أن أخطِر إلى القرية لمقابلة المارشال دافو[1].

***

١- المرشال دافو (١٧٧٠-١٨٢٣) من أفضل قادة نابليون. دوق أويرستاد وأمير ايكمول منذ ١٨٠٩.

الفصل الخامس

وكان «دافو» عند نابليون مثل آراكتشيف عند الكسندر. وهو وإن لم يكن جباناً، إلا أنه كان شديد الاندفاع مثله، قاسياً وعاجزاً عن إظهار إخلاصه إلا عن طريق القوة.

إن هؤلاء الرجال ضروريون، في جهاز الدولة، كضرورة الذئاب في الطبيعة. وهم يوجدون ويبرزون ويستمرون أبداً، مهما بدا غريباً وجودهم ومهما بدت عصية على الفهم دالَّتهُم على رئيس الدولة. هذه الضرورة وحدها يمكن أن تفسر كيف أن شخصاً مثل آراكتشيف، هذا الشخص القاسي الذي كان ينتزع بيديه شارب الواحد من جنوده والذي كان عاجزاً عن مواجهة الخطر بسبب ضعفه العصبي، كيف أن هذا الرجل العاري من الثقافة والتهذيب استطاع أن يحافظ على نفوذه وسلطانه بجنب طبيعة الكسندر النبيلة، الشهمة، الرقيقة.

وجد بالاشيف دافو جالساً على برميل في مستودع للحبوب، في بيت قروي، ومنهمكاً في الكتابة (كان يدقق في بعض الحسابات)، وإلى جانبه يقف مساعده العسكري. وقد كان من الممكن أن يجد المارشال دافو مسكناً أفضل لكنه كان من أولئك الناس الذين يرتضون لأنفسهم أشد ظروف الحياة مشقة وذلك لكي يحق لهم أن يكونوا متجهمين. وللسبب نفسه نراهم أبداً نهباً للمشاغل الملحة

العاجلة. كان تعبير وجهه يقول: «كيف يفكر المرء في مسرات الحياة إذا كان جالساً على برميل في مستودع حقير -كما ترى- منكباً على عمله». اللذة الكبرى والحاجة الأساسية لهؤلاء الناس -إذا لقوا الذين انخرطوا في معترك الحياة- أن يرموا بوجوههم فعاليتهم الدائبة الكالحة. هذه اللذة هي التي أحسها دافو عندما أُدخل إليه بالاشيف. فقد استغرق في عمله استغراقاً أكبر عند دخول الجنرال الروسي، وبعد أن ألقى نظرة من خلال نظارتيه على وجه بالاشيف الذي أنعشته الصبيحة البديعة وأحاديثه مع «مورا»، لم يكلف نفسه النهوض بل إنه لم يبد أية حركة، لكنه زاد من تقطيب حاجبيه وابتسم ابتسامة خبيثة.

ولما لاحظ «دافو» الأثر السيء الذي تركه هذا الاستقبال في نفس بالاشيف، رفع رأسه وسأله ببرودة عما يريد. و لم يستطع بالاشيف أن يعزو هذا الضرب من الاستقبال إلا إلى جهل دافو بشخصه من حيث هو مساعد عسكري للإمبراطور وممثل له. فبادر إلى تعريفه بنفسه وبالغرض من مهمته. على أن دافو بعد أن أصغى إليه ازداد قسوة وفظاظة، على عكس ما كان يتوقع بالاشيف.

وسأله:

- أين رسالتك؟ هاتها وسأرسلها إلى الإمبراطور.

فقال بالاشيف له: إنه أمر بتسليمها إلى الإمبراطور بالذات.

قال دافو:

- أوامر امبراطوركم صالحة في جيشكم، لا هنا. وعليك أن تعمل هنا بما يشار عليك أن تعمله.

وكأنما أراد دافو أن يُشعر الجنرال الروسي بخضوعه للقوة الغاشمة، فأرسل مرافقه العسكري يستدعي الضابط المناوب.

أخرج بالاشيف الظرف الذي يحتوي على رسالة الإمبراطور ووضعه على الطاولة (كانت الطاولة عبارة عن باب ملقى على برميلين، ومازال مفصلاته تتدلى منه). وتناول دافو الظرف وقرأ العنوان.

قال بالاشيف:

- أنت حر تماماً في أن تبدي أو لا تبدي لي دلائل الاحترام، لكن اسمح لي أن ألفت انتباهك إلى أن لي الشرف أن أكون أحد المرافقين العسكريين لصاحب الجلالة...

حَدجَه دافو بنظرة دون أن يقول شيئاً وسرَّه سروراً واضحاً أن يتبين شيئاً من الاضطراب والارتباك على قسمات بالاشيف.

وقال له:

- ستُعامَل بالاحترام الذي يليق بك.

ووضع الظرف في جيبه وغادر المستودع.

وبعد برهة دخل مرافق المارشال السيد «دوكاستري» ومضى به إلى الغرفة المعدة له.

تناول بالاشيف طعام العشاء في هذا اليوم مع المارشال، في المستودع، على اللوح الخشبي الموضوع فوق البرميلين.

وفي اليوم التالي ذهب دافو مبكراً بعد أن دعا بالاشيف وأوعز إليه أن يظل حيث هو، وأن ينتقل مع المتاع إن صدرت الأوامر بذلك وألا يكلِّم إنساناً سوى السيد «دوكاستري».

بعد أربعة أيام من الوحدة والسأم والشعور بالتبعية والعجز، وهو شعور زاد من حدته أنه تلا جوّ السلطة الذي كان فيه بالاشيف قبل فترة وجيزة، وبعد أن قطع بعض المراحل مع متاع المارشال ومع القطعات الفرنسية التي كانت تحتل المنطقة بأسرها، أعيد إلى «فيلنا» التي أصبحت في أيدي الفرنسيين، عن طريق الحاجز نفسه الذي خرج منه قبل أربعة أيام.

وفي اليوم التالي جاء أحد حجاب الإمبراطور ليبلغه أن الإمبراطور وافق على مقابلته.

قبل أربعة أيام كان حراس فوج «بريوبراجنسكي» يقومون بحراسة المنزل الذي اقتيد بالاشيف إليه؛ أما الآن فكان هناك راميان فرنسيان ببزة زرقاء مقوّرة على الصدر وقبعة ذات زغب، وحرس من الفرسان والرماحين، وحاشية متألقة من المرافقين العسكريين والغلمان والجنرالات، كانوا ينتظرون، خروج نابليون عند درج المدخل، متحلّقين حول جواده والمملوك «رستم». كان نابليون يستقبل بالاشيف في المنزل نفسه الذي أرسله منه الكسندر في مهمة.

***

الفصل السادس

مع أن بالاشيف قد تعوّد سخاء البلاطات، إلا أنه دهش لما في بلاط نابليون من ترف وبذخ.

أدخله الكونت «دو تورين»[1] إلى قاعة استقبال رحبة كان ينتظر فيها كثير من الجنرالات والحجاب والأشراف البولونيين الذين رأى بالاشيف عدداً كبيراً منهم في بلاط امبراطور روسيا. وأعلن «دوروك» أن الإمبراطور نابليون سيستقبل الجنرال الروسي قبل نزهته.

وبعد لحظات من الانتظار ظهر الحاجب المناوب وانحنى بأدب أمام بالاشيف ودعاه إلى أن يتبعه.

دخل بالاشيف إلى قاعة صغيرة يُفضي أحد أبوابها إلى مكتب العمل، وهو المكتب الذي عهد إليه فيه امبراطور روسيا بمهمته. وانتظر بضع دقائق. ثم سُمعَ وقع خطوات مُستعجلة خلف الباب. وما لبث الباب أن انفتح بشدة على مصراعيه، وخيَّم الصمت، وتناهى وقع خطوات أخرى، خطوات ثابتة واثقة، آتية من المكتب: إنه نابليون. كان قد فرغ من ارتداء ملابسه لركوب جواده. كانت بزّتُه الزرقاء تنفتح على صدرة بيضاء تغطي بطنه المدوّر، وكان بنطال من الجلد الأبيض يلف

١– هذا الكونت من سلالة القائد العظيم «دو تورين». وكان يخدم في بلاط نابليون.

فخذيه الربلتين، وغطت ساقيه القصيرتين جزمة من جزمات الفرسان. وكان واضحاً أن شعره القصير قد مُشط قبل حين، لكن خصلة منه كانت ساقطة على منتصف جبينه العريض. وكان عنقه الأبيض الغليظ الذي يفوح بعطر ماء الكولونيا يُباين أشدّ التباين طوق بذلته الأسود. أما وجهه الممتليء، المحتفظ بشبابه، ذو الذقن البارزة، فكان ينمُ على ملاحة باشة حفيَّة فيها جلال الملوك.

تقدَّم بعجلة وهو ينتفض مع كل خطوة، وقد ردّ رأسه إلى الوراء ردّاً خفيفاً. وكان لشخصه القصير المتثاقل، بكتفيه العريضتين السمينتين، وببطنه وصدره اللذين برزا إلى الأمام بالرغم منه، ذلك المظهرُ المهيب الرغيد، مظهر أبناء الأربعين الذين ألفوا حياة الدعة والرخاء. وفضلاً عن ذلك فقد كان يبدو، هذا اليوم، كأحسن ما يكون أنساً وبشاشة.

ردَّ بحركة من رأسه على تحية بالاشيف العميقة المفعمة بالاحترام، وأخذ يحدثه على الفور، وهو يتجه إليه، شأن الرجل الذي ليس لديه لحظة واحدة يضيعها سدىً، والذي لا يكلف نفسه تهيئة ما سيقوله، لأنه واثق من أنه سيقول أبداً ما ينبغي أن يقوله وعلى أكمل وجه:

– مرحباً يا جنرال! تلقيت رسالة الإمبراطور الكسندر التي حملتها، وأنا سعيد برؤيتك.

نظر إلى وجه بالاشيف بعينيه الكبيرتين ثم ما لبث أن رفعهما عنه.

كان من الواضح أن شخصية بالاشيف لا تعنيه في شيء وأن ما يدور في نفسه هو وحده موضع اهتمامه. لا أهمية لكل ما هو خارجي وذلك لأن كل شيء في العالم منوط بمشيئته وحدها.

وأردف قائلاً:

- إنني لا أرغب في الحرب، و لم أرغب بها قط. لكنني قد أرغمت عليها إرغاماً. وحتى الآن (وشدَّد على لفظة الآن) أنا على استعداد لقبول كل الإيضاحات التي يمكن أن تقدمها لي.

ثم عرض بوضوح وإيجاز أسباب استيائه من الحكومة الروسية.

لقد اقتنع بالاشيف قناعة جازمة، من لهجته المعتدلة والودية، بأنه يرغب في السلم وبأن في نيته الشروع في المحادثات.

بدأ بالاشيف كلامه الذي هيأه منذ زمن طويل قائلاً:

- مولاي! إن سيدي الإمبراطور...

عندما قاطعه نابليون بعد أن فرغ من حديثه بنظرة مستفهمة؛ إن عيني الإمبراطور المحدقتين فيه أربكتاه، وبدا على نابليون كأنه يقول، وهو يتفحص ببسمة خفية بزة بالاشيف وسيفه: «أنت مضطرب فهدىء من روعك». وتمالك بالاشيف نفسه وبدأ بالكلام. فقال إن الإمبراطور الكسندر لم ير في طلب «كوراكين»[1] لأوراق اعتماده سبباً كافياً للحرب، وأن كوراكين قد تصرف من تلقاء نفسه دون موافقة مليكه، وأن الإمبراطور الكسندر لم يرغب في الحرب، وأنه لم يُقم أية علاقات مع انكلترا.

وهمس نابليون:

- لم يقم «بعد» تلك العلاقات...

١- إن الأمير كوراكين (١٧٥٢-١٨١٨) الذي كان سفيراً في باريس منذ ١٨٠٨، لما لم يتلق جواباً على الإنذار الروسي القاضي ألا يعبر الجيش الأعظم نهر الايلب طلب أوراق اعتماده، الأمر الذي عده نابليون قطيعة نهائية.

وكأنما كان نابليون يخشى أن ينجرف وراء عواطفه فقطب حاجبيه وأومأ برأسه إيماءة خفيفة لينبه بالاشيف إلى أن بإمكانه متابعة حديثه.

وبعد أن عرض بالاشيف كل ما كُلف أن يقوله أكد أن الإمبراطور الكسندر يرغب في السلم، لكنه لن يشرع في المحادثات إلا على شرط أن... وهنا تردد: لقد تذكر الكلمات التي لم يثبتها الإمبراطور في رسالته وحرص على أن يضمنها أمره الملكي الموجه إلى ساليتكوف، والتي أمر بالاشيف بنقلها إلى نابليون. تذكر هذه الكلمات: «ما بقي على الأرض الروسية عدو مسلح واحد»، لكن شعوراً معقداً عقل لسانه فلم يستطع التفوه بها بالرغم من رغبته في ذلك. فتردد وقال: على شرط أن تنسحب القطعات الفرنسية إلى ماوراء «النييمين».

لاحظ نابليون اضطراب بالاشيف عند تلفظه بهذه الجملة الأخيرة؛ فاختلج وجهه وسرت في ربلة ساقه اليسرى رعدة منتظمة. ودون أن يتحرك من موضعه، استأنف الكلام بصوت أعلى وأعجل من ذي قبل. وقد لاحظ بالاشيف بالرغم منه، بعد أن خفض بصره غير مرة أثناء الحديث التالي، أن ارتجاف ربلة نابليون اليسرى، يتزايد كلما رفع صوته.

بدأ نابليون كلامه قائلاً:

- لست أقل رغبة في السلم من الإمبراطور الكسندر. ألم أبذل وسعي منذ ثمانية عشر شهراً للحصول عليه؟ وها قد مضى ثمانية عشر شهراً وأنا أنتظر الإيضاحات.

وأضاف، وهو يقطب حاجبيه ويحرك يده البيضاء السمينة حركة قوية مستفهمة:

- لكن ما عسى أن يكون المطلوب مني للشروع في المحادثات؟

قال بالاشيف:

- انسحاب القطعات إلى ماوراء النييمين يا مولاي.

وردد نابليون وهو ينظر في عيني بالاشيف:

- إلى ما وراء النييمين؟ أنتم تريدون الآن إذن أن أنسحب إلى ما وراء النييمين، إلى ما وراء النييمين فقط؟

فحنى بالاشيف رأسه بكل احترام.

إنهم لا يطالبون الآن بغير الانسحاب إلى ما وراء النييمين، بدلاً من الجلاء عن بوميرانيا الذي كانوا يطالبون به قبل أربعة أشهر. استدار نابليون بعجلة وأخذ يذرع الغرفة.

- أنت تقول: إنني مطالب بالانسحاب إلى ما وراء النييمين لافتتاح المحادثات إلا أنه كان يُطلب مني أيضاً قبل شهرين التراجع إلى ما وراء «الأودر» و«الفستول»، ورغم ذلك، فأنتم توافقون على الشروع في المحادثات.

مشى بصمت من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر ثم وقف مرة أخرى أمام بالاشيف. وبدا وجهه كأنما قد تحجر في تعبير صارم، وكانت ساقه اليسرى تزيد من ارتجافها. كان نابليون يعرف هذه الخاصة في نفسه وكان يقول فيما بعد:

«إن ارتعاش ربلتي اليسرى علامة كبرى عندي».

قال فيما يشبه الصراخ الذي أثار دهشته هو نفسه:

-إن عروضاً من مثل الجلاء عن «الأودر» والفستول يمكن أن تقدم إلى أمير «باد» لا إلي. ولو أعطيتموني بطرسبرج وموسكو لما قبلت بهذه

الشروط. تقولون: إنني بدأت الحرب؟ لكن من الذي لحق بالجيش قبل الآخر؟ الإمبراطور الكسندر لا أنا. إنكم تعرضون عليَّ أن أفاوض في حين أنني أنفقت الملايين وأنكم تحالفتم مع انكلترا وأن وضعكم سيء. ثم تعرضون عليَّ المفاوضة! ما الغاية من تحالفكم مع انكلترا؟ وماذا أعطاكم هذا التحالف؟

كان يتكلم باستعجال، وكان جلياً أن كلامه لا يهدف إلى إبراز مزايا عقد الصلح والبحث عن إمكاناته، بل إلى إثبات كامل حقه وقوته وإلى التدليل على عيوب الكسندر وأخطائه.

لقد كان الغرض من مطلع حديثه أن يبرز ميزات وضعه وأن يظهر مع ذلك قبوله بافتتاح المفاوضات. لكنه كان كلما مضى في كلامه غدا أقل تحكماً فيما يقول. كان واضحاً أشد الوضوح أن الغرض الوحيد من كلامه الآن هو أن يرفع من نفسه وأن يغض من الكسندر، أي أن يفعل بالضبط ما كان يُعرض عنه في بداية المقابلة.

قال:

- يقال: إنكم عقدتم صلحاً مع الأتراك[1]؟

فأومأ بالاشيف برأسه ايماءة الموافقة وبدأ كلامه:

- عقد الصلح...

لكن نابليون لم يدع له الكلام. كان واضحاً أنه يحس بالحاجة إلى أن يتحدث وحده، فتابع كلامه بتلك البلاغة وذلك الهياج العاتي، وهما صفتان ينزع إليهما أولئك الذين أفسدتهم الحياة بنعمائها:

١- عقد الجنرال كوتوزوف هذا الصلح في أيار عام ١٨١٢. وأطلق هذا الصلح يد ٥٥٠٠٠ جندي. ونالت فيه روسيا بلاد الصرب.

- نعم، إنني أعلم أنكم عقدتم الصلح مع الأتراك دون أن تحصلوا على «مولدافيا» وعلى «فالاشيا». وكنت سأعطي امبراطوركم هاتين المقاطعتين كما أعطيته فنلندا. نعم لقد كنت وعدت الإمبراطور الكسندر بهاتين المقاطعتين، وكنت أنوي أن أعطيهما إياه، أما الآن فلن يحصل على هاتين المقاطعتين الجميلتين. كان بإمكانه أن يضمهما إلى امبراطوريته وأن يمد الحدود الروسية من خليج بوتني إلى مصب الدانوب.

وتابع نابليون كلامه، وقد ازداد حدة وأخذ يتمشى في الغرفة ويردد كلمة كلمة ما قاله للإسكندر ذاته في «تيلسيت»:

إن كاترين العظيمة لم يكن بوسعها أن تفعل خيراً من ذلك. لقد كان سينال ذلك كله بسبب من صداقتي. آه! ما كان أجمله مُلكاً، ما كان أجمله ملكاً!

كرر ذلك مراراً ثم توقف وأخرج من جيبه مسعطاً من ذهب وتناول بنهم تنشيقة منه وأردف قائلاً:

«يا للمُلك الجميل الذي كان يمكن أن يكون للإمبراطور الكسندر!».

ثم نظر بعطف إلى بالاشيف الذي لم يكد يهتم بإبداء ملاحظته حتى بادر نابليون مرة أخرى إلى مقاطعته قائلاً، وهو يهز كتفيه كَمَنْ أصابته حيرة:

- ما الذي كان يمكن أن يتمناه أو يبتغيه فلا يجده بقربي؟ لقد آثر، على عكس ذلك، أن يلم حوله أعدائي، وأيهم؟ جاء بأمثال ستين[1]

---

[1]- ستين (١٧٥٧-١٨٣١) سياسي بارز حقق في بروسيا بعد ١٨٠٧ إصلاحات ليبرالية مهمة. أبعد من بروسيا بناء على أمر نابليون فأصبح عدواً ضارياً له.

و«آرمفيلد»[1] و«بينغسين»[2] و«ونتزنجيرود». أما ستين فهو خائن طرد من بلده، وأما آرمفيلد فهو فاسق متآمر، وأما «وتنزنجيرود» فهو فرنسي فر إلى خدمة العدو، وأما «بينيغسين» فهو أقرب إلى الروح العسكرية منهم إلا أنه عاجز لم يستطع أن يفعل شيئاً في سنة ١٨٠٧ ولابد أنه سيثير في نفس الإمبراطور الكسندر ذكريات رهيبة....

وتابع نابليون كلامه الذي قصر عن مسايرة الحجج التي كانت تنهال عليه لكي يثبت له حقه وقوته (وهما شيء واحد في نظره):

– وليتهم كانوا أهلاً لشيء، إذن لأمكن استخدامهم، لكن أن يكون ذلك وهم لا يصلحون لا للحرب ولا للسلم! وقد يبدو أن «باركلي»[3] أقدرهم، إلا أني لا أرى ذلك حين أنظر إلى ردود فعله الأولى. وماذا يفعلون، ماذا يفعل هؤلاء الأتباع؟ أن «بفويل»[4] يقترح، و«آرمفيلد» يناقش، و«بينيغسين» يبحث ويتفحص، أما «باركلي» فهو لا يعزم على أمر حين يدعى إلى العمل فيفوته الوقت. «باغراتيون» وحده رجل حروب.

١– آرمفيلد: (١٧٥٧–١٨١٤) ولد في فنلندا، حاكم سويدي لهذه المقاطعة منذ ١٨٠٥، انحاز إلى الروس ونال لقب كونت. وأصبح رئيساً لمجلس شؤون فنلندا وصديقاً للإسكندر.

٢– بينيغسين: (١٧٤٥–١٨٢٦)، من مواليد هانوفر، خدم روسيا منذ ١٧٣٧ وأصبح رئيساً للأركان العامة منذ ١٨١٢، ونال لقب كونت سنة ١٨١٣.

٣– باركلي دي دولي: (١٧٦١–١٨١٨) ولد في ريغا، جنرال روسي منذ ١٧٩٩، حاكم فنلندا العام في ١٨٠٨، وزير الحرب منذ ١٨١٠، قائد الجيش الأول في ١٨١٢، فيلد مارشال عام ١٨١٤.

٤– بفويل: (١٧٧٩–١٨٦٥) جنرال بروسي، من مخططي المدرسة الحربية القديمة. خدم في روسيا من ١٨١٢ إلى ١٨١٤. رئيس وزراء بروسيا في سنة ١٨٤٨.

إنه غبي لكن له خبرة وبديهة وعزيمة... وما الدور الذي يلعبه امبراطوركم الشاب بين هذه النفاية من الناس؟ إنهم يعرضونه للخطر ثم يحّملونه تبعة ما يجري.

وختم نابليون حديثه بهذه الكلمات التي قذف بها وكأنها تحدّ في وجه الإمبراطور، وكان يعلم إلى أي حد يتمنى الإمبراطور الكسندر لو يكون قائداً حربياً:

- على الملك ألا يقود جيشه إلا إذا كان جنرالاً.

فالحرب دائرة منذ ثمانية أيام و لم تستطيعوا الدفاع عن «فيلنا». لقد شُطرتم شطرين وطُردتم من المقاطعات البولونية. إن جيشكم يتذمر.

قال بالاشيف وقد أعياه أن يستوعب ما قيل له وشق عليه أن يتابع بريق هذا السيل من الألفاظ.

- على العكس، يا سيدي، إن الجند يتحرقون شوقاً إلى...

فقاطعه نابليون:

- أعرف كل شيء، أعرف كل شيء. أعرف عدد كتائبكم بالدقة التي أعرف بها عدد كتائبي. ليس لديكم مائتا ألف رجل، أما أنا فلدي ثلاثة أضعاف ما لديكم.

وأضاف قائلاً:

- يميناً إن لدي خمسمائة وثلاثين ألف رجل على هذه الضفة من الفستول -ناسياً أن يمينه لم يعد لها أية قيمة-. ولن يستطيع الأتراك مساعدتكم: إنهم لا يصلحون لشيء، وقد دللوا على ذلك حين عقدوا صلحاً معكم. أما السويديون فقد قدر لهم أن يحكمهم ملوك مجانين.

كان ملكهم مجنوناً[1] فبدلوه واتخذوا ملكاً آخر هو «برنادوت»[2] الذي ما لبث أن أضاع رشده، لأن المجنون وحده قادر، حين يكون سويدياً، على أن يعقد تحالفاً مع روسيا.

وابتسم نابليون ابتسامة خبيثة وتنشق مرة أخرى شيئاً من السعوط.

كان «بالاشيف»، عند كل جملة من جمل نابليون، يريد ويستطيع أن يبدي اعتراضاً، كان يهم أبداً بالكلام، لكن نابليون لم يكن ليتيح له ذلك. أراد بالاشيف أن يقول، بصدد جنون السويديين، أن السويد تغدو جزيرة حين تحمي روسيا ظهرها؛ إلا أن نابليون أطلق صيحة هادرة التعجب خنقت صوت بالاشيف. لقد كان في تلك الحالة من الهيجان التي يشعر المرء فيها بالحاجة إلى الكلام، وإلى مزيد من الكلام، ليثبت لنفسه فقط أنه على حق. وغدا موقف بالاشيف صعباً شائكاً: كان يخشى، بصفته سفيراً، أن يعرّض كرامته للخطر إن لم يُبد اعتراضه؛ أما بصفته رجلاً فقد انكمشت نفسه وتشنجت أمام هذا الغضب الذي استبد بنابليون من دون داع. كان يعلم أن ما يقوله نابليون في هذه اللحظة عديم الأهمية، وأنه سيخجل منه حين يعود إليه هدووءه. وظل بالاشيف جامداً، مطرقاً، ناظراً إلى ساقي نابليون الضخمتين وهما تضطربان، جاهداً في أن يتحاشى نظرته.

وتابع نابليون كلامه:

١- هو ملك السويد شارل الثالث عشر (١٨٠٩-١٨١٨) الذي تبنى في سنة ١٨١٠ المارشال الفرنسي بيرنادوت وجعله وريثاً للعرش. أنشأ في سنة ١٨١١ وساماً باسمه لكبار الماسونيين.

٢- جان برنادوت (١٧٣٦-١٨٤٤) خصم نابليون، أعلن الحرب عليه في سنة ١٨١٣. أصبح ملك السويد باسم شارل الرابع عشر.

– وماذا يهمني من حلفائكم؟ أنا أيضاً لي حلفائي، البولونيون: إنهم ثمانون ألفاً، وهم يقاتلون كالأسود. وعما قريب سيصلون إلى مائتي ألف.

ولعله ازداد غضباً، وهو يقول هذه الكلمات، لشعوره بأنه يكذب ولأنه رأى بالاشيف في وضعه المستسلم ذاته، يقف أمامه بصمت، فإذا به يستدير على نفسه ويقترب منه حتى يلاصقه ويصرخ وهو يحرك يديه البيضاوين حركات عنيفة سريعة:

اعلموا أنكم إن أثرتم «بروسيا» علي فسأمحوها من خريطة أوروبا -قال ذلك ووجهه شاحب متشنج من الغضب، وقد ضرب إحدى يديه الصغيرتين بالأخرى ضرباً شديداً– نعم، سألقي بكم إلى ما وراء «الدفينا»، إلى ما وراء «الدينبر»، وسأقيم في وجهكم ذلك السد الذي تركته أوروبا ينهار لأنها كانت مجرمة أشد الجرم، عمياء أشد العمى. نعم، هذا ما ينتظركم، وهذا ما ستكسبونه بابتعادكم عني.

ثم خطا بضع خطوات بصمت، وكتفاه السمينتان تنتفضان انتفاضاً. وأعاد إلى جيب صدرته مسعطه ثم أخرجه وحمله مرات إلى أنفه ووقف إزاء بالاشيف ولزم الصمت بضع لحظات ونظر في عينيه نظرة استهزاء وقال بصوت هادئ:

– ومع ذلك، ما كان أجمل المُلك الذي كان بوسع سيدك أن يحصل عليه!

وإذا أحس بالاشيف أن عليه أن يرد على نابليون قال: إن الأشياء لا تبدو، من الجانب الروسي، بمثل هذا المظهر القاتم. وظل نابليون صامتاً ينظر إليه باستهزاء، وكأنه لا يصغي إليه. وقال بالاشيف: إن الناس في روسيا يتوقعون من الحرب أفضل النتائج. فأومأ نابليون برأسه إيماءة تنم

على التنازل وكأنما أراد أن يقول: إن واجبك هو الذي يملي عليك هذا الكلام، لكنك لا تؤمن بشيء مما تقول، أعرف ذلك. لقد أقنعتك.

وعندما فرغ بالاشيف من كلامه، أخرج نابليون مسعطه مرة أخرى وتنشق منه، وضرب الأرض بقدمه ضربتين، وهما إشارة منه لخدمه، ففتح الباب ودخل حاجب فقدم له، وهو منحن باحترام، قبعته وقفازيه، وقدم له آخر منديله. واستدار نابليون نحو بالاشيف دون أن ينظر إليهما وقال وهو يتناول قبعته:

– بلّغْ الإمبراطور الكسندر باسمي أن إخلاصي له باق كما كان من قبل: إنني أعرف مزاياه الرفيعة حق المعرفة وأقدرها أعظم تقدير. لست أستبقيك أكثر من ذلك، أيها الجنرال، وسوف تتسلم رسالتي إلى الإمبراطور.

واتجه نابليون بسرعة إلى الباب فهرع كل من كان في قاعة الاستقبال إلى الدرج.

***

الفصل السابع

كان بالاشيف قانعاً، بعد كل ما قاله له نابليون، بعد انفجار غضبه وبعد الكلمات الأخيرة التي ألقاها بجفاف: «لست أستبقيك أكثر من ذلك، أيها الجنرال، وسوف تتسلم رسالتي»، كان قانعاً أن نابليون لن يعزف عن رؤيته فحسب، بل إنه سيتحاشاه، وهو السفير المهان، لاسيما أنه كان شاهداً على فورة غضبه التي لا تليق به. لكن دهشته كانت عظيمة عندما دُعي في اليوم نفسه، بواسطة «دوروك»، إلى مائدة الإمبراطور.

وقد حضر ذلك العشاء «بيسيير»[1] و«كولنكور» و«بيرتييه».

استقبل نابليون بالاشيف باشاً، متلطفاً. ولم يبدُ عليه أي تحرج أو أسف لانفجاره في الصباح، بل أنه، على العكس من ذلك، بذل وسعه ليُدخل الارتياح إلى نفس بالاشيف. وكان واضحاً أن نابليون قانع منذ زمن بعيد أنه لا يمكن أن يخطئ وأن كل ما يصنعه حسن في عينه، لا لأن ذلك يتفق مع مفهوم الخير والشر وإنما لأنه كان يصنعه هو بنفسه.

كان الإمبراطور جذلاً عند عودته من نزهته على حصانه في «فيلنا» حيث استقبلته الجماهير ورافقته بحماسة. كانت جميع النوافذ، على

١- بيسيير: (١٧٦٦-١٨١٣) جنرال ممتاز من جنرالات الفرسان، مارشال فرنسا، دوق أيستريا، قائد الحرس في سنة ١٨١٢، قتل في معركة لوتزن.

طريقه، مزدانة بالسجاد والأعلام وبأحرف اسمه الأولى وكانت النساء البولونيات يحيينه وهن يلوحن بمناديلهن.

وعلى المائدة أجلس بالاشيف إلى جانبه، ولم يعامله بلطف فحسب، بل عامله وكأنه من عداد أفراد حاشيته أو من عداد أولئك الذين يؤيدون مشاريعه ويبتهجون بانتصاراته. وقاده الحديث، فيما تحدث، إلى الكلام على موسكو، وسأل بالاشيف عن العاصمة الروسية، لا كما يستعلم المسافر الطُلَعة عن المكان الذي ينوي زيارته فحسب بل كالقانع أن بالاشيف، بصفته روسياً، سيرتاح إلى حب الاستطلاع هذا. سأله:

– ما عدد سكان موسكو وما عدد بيوتها؟ أصحيح أنها تسمى موسكو المقدسة؟

كم كنيسة فيها؟

وعندما أجابه أن فيها أكثر من مائتي كنيسة، قال:

– ولم هذه الكمية من الكنائس؟

فرد بالاشيف:

– إن الروس شديدو التقى.

قال نابليون وهو يسأل بعينيه موافقة «كولنكور»:

– على كل حال، إن كثرة الأديرة والكنائس خاصة من خواص الشعب المتأخر.

فأجاز بالاشيف لنفسه بأدب واحترام ألا يشارك امبراطور فرنسا رأيه، وقال:

- لكل بلد عاداته وأخلاقه.

فقال نابليون:

- لكن، لم يبق في أي مكان من أوروبا ما يُشبه هذا.

قال بالاشيف:

- عفواً، يا صاحب الجلالة، فهناك، غير روسيا، اسبانيا التي تكثر فيها الكنائس والأديرة كما تكثر في روسيا.

وقد لقي هذا الجواب الذي يُلمِّح إلى هزيمة الفرنسيين الحديثة العهد في اسبانيا، تقديراً عالياً في بلاط الإمبراطور الكسندر بعد أن رواه بالاشيف بنفسه، إلا أنه لم يلق قبولاً على مائدة نابليون ومر من غير أن يفطن له أحد.

وكان واضحاً، من خلال وجوه السادة المارشالات، السادرة الحائرة، أنهم يتساءلون: أين النكهة في الجواب الذي شددت عليه لهجة بالاشيف. وكان يُقرأ على قسماتهم: «وحتى لو كان في الجواب تلميح فإننا لم نفهمه أو أنه ليس من الفكاهة في شيء». لم يلق الجواب قبولاً حتى أن نابليون لم يأبه له وسأل بالاشيف بسذاجة عن المدن التي يمر بها أقصر الطرق إلى موسكو. فأجاب بالاشيف الذي كان يقظاً محترساً طوال الغداء بقوله: كما أن كل طريق تُفضي إلى روما فكذلك تُفضي كل طريق إلى موسكو، وأن الطرق كثيرة وأن بينها الطريق الذي يمر ببولتافا[1] والذي اختاره شارل الثاني عشر؛ واحمر وجهه فرحاً بالرغم منه لأنه وقع على مثل هذا الجواب الموفق. لكنه لم يكد ينتهي من ذكر

١- في سنة ١٧٠٩ اختار ملك السويد شارل الثاني عشر هذا الطريق الجنوبي للسير إلى موسكو لكنه هزم عند بولتافا.

اسم «بولتافا» حتى انطلق «كولنكور» في الكلام على سوء الطريق بين بطرسبرج وموسكو وأخذ يستعرض ذكرياته في بطرسبرج.

وبعد الغداء، دعاه نابليون إلى مكتبه لتناول القهوة، وهو المكتب الذي كان قبل أربعة أيام مكتباً للإسكندر. جلس نابليون وأشار إلى بالاشيف، وهو يُحرك قهوته في فنجان من خزف «سيفر»، أن يجلس بجانبه.

إن ضرباً من الحالة النفسية التي تتلو الطعام تُهيءُ المرء، أكثر من أي سبب حقيقي آخر، لأنْ يشعر بالرضى عن نفسه وألاّ يرى، حيثما تطلع، غير الأصدقاء. لقد كان نابليون في تلك الحالة بعينها. كان يُخيَّل إليه أنه محاط بالناس الذين يعبدونه. كان قانعاً بأن بالاشيف، بعد أن تناول الطعام على مائدته، صديق له، معجب به. فالتفت إليه، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة فيها شيء من السخرية، وقال:

– ها هنا الغرفة التي كان يشغلها الإمبراطور الكسندر، على ما قيل لي.

غريب هذا، أليس كذلك، يا جنرال؟

لم يبدُ على نابليون أي شك في أن هذه الملاحظة قد لا تسر محدثه باعتبارها دليلاً على تفوقه هو، تفوق نابليون على الكسندر.

ولم يستطع بالاشيف أن يجيب على ذلك فحنى رأسه بصمت.

وتابع نابليون كلامه دون أن تفارقه تلك الابتسامة الساخرة المليئة بالثقة:

– نعم، في هذه الغرفة، ومنذ أربعة أيام، كان يجتمع «ونتز نجيرود»

و«ستين» للتشاور. إن ما لا أستطيع فهمه هو أن الإمبراطور الكسندر قد ضم إليه جميع أعدائي الشخصيين. إني لا أفهم... ذلك. ألم يخطر بباله أنني يمكن أن أفعل مثل ما فعل؟

سأل بالاشيف هذا السؤال فأسلمتْه هذه الذكرى إلى ما يشبه الغضب الذي أصابه صباحاً، وكان مايزال متوهّجاً فيه.

قال وهو ينهض ويدفع بيده فنجانه:

- ليعلمْ... أنني أفعل ذلك. سأطرد من ألمانيا كل أقربائه آل «ورتنبرغ» و«باد» و«فايمار»[1]... نعم سأطردهم. فليهيء لهم ملجأ في روسيا.

حنى بالاشيف رأسه ودل بهيئته على أنه كان يرغب في الانصراف وأنه لم يكن يُصغي إلا لأنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك.

و لم يلاحظ نابليون ذلك؛ كان يتحدث إلى بالاشيف لا بوصفه سفيراً لعدوه بل بوصفه رجلاً يفيض إخلاصاً له ويبتهج بإذلال سيده القديم:

- و لِمَ تولى الإمبراطور الكسندر قيادة جيوشه؟ ما جدوى ذلك؟ الحرب مهنتي، أما مهنته فهي أن يحكم لا أن يقود القطعات. لِمَ اضطلع بهذه المسؤولية؟

تناول نابليون مسعطه مرة أخرى، وخطا في الغرفة بضع خطوات بصمت، ثم اقترب فجأة من بالاشيف ومد يده بحركة واثقة، عجلى، بسيطة، وكأنما كان يقوم بعمل عظيم الشأن يُلاطف به بالاشيف، مد يده إلى وجه الجنرال الروسي ابن الأربعين وشد أذنه شداً خفيفاً وهو يفترّ باسماً.

١- أم الكسندر الأول كانت أميرة ورتنبرج بالولادة، وزوجته اليزابيت أميرة باد بالولادة، وأخته ماريا بافلوفنا تزوجت منذ ١٨٠٤ الدوق الأكبر لساكس فايمار.

«أن يشد الإمبراطور أذن إنسان» تُعتبر، في فرنسا، الشرف الأعظم والحظوة القصوى.

وقال:

مالك، لا تقول شيئاً، أيها المعجب بالإمبراطور الكسندر ويا صفيّه؟

قال ذلك وكأنما كان يجد من السخف أن يكون المرء صفياً لغيره ومعجباً بغيره، هو نابليون... وأضاف وهو يحني رأسه انحناءة خفيفة رداً على تحية بالاشيف:

– هل الجياد جاهزة للجنرال، أعطوه جيادي فطريقه طويلة...

كانت الرسالة التي حملها بالاشيف آخر رسالة يوجهها نابليون إلى الكسندر. وقد نُقلت جميع تفاصيل المقابلة إلى الإمبراطور الكسندر، وبدأت الحرب.

***

الفصل الثامن

سافر الأمير «آندريه» إلى بطرسبرج، بعد اللقاء بينه وبين بطرس في موسكو، لقضاء بعض الأعمال، كما قال لأهله؛ والحقيقة أنه ذهب للقاء الأمير آناتول كوراجين، وكان آندريه يرى أنه لابد من مواجهته. واستعلم عن كوراجين فور وصوله فلم يجده في بطرسبرج. وكان «بطرس» قد أخطر أخا زوجته أن الأمير «آندريه» يلاحقه. وسرعان ما حصل آناتول كوراجين من وزير الحربية على تعيينه في جيش مولدافيا[1]، فانتقل إلى هناك. قابل الأمير آندريه أثناء إقامته في بطرسبرج «كوتوزوف» جنراله القديم الذي كان حفيا به، فعرض عليه أن يصحبه إلى مولدافيا حيث عُين قائداً عاماً للجيش فيها. وقبل آندريه بالعرض وذهب إلى تركيا بصفته ملحقاً بالأركان العامة.

كان «آندريه» يرى من غير المناسب أن يكتب لكوراجين كي يدعوه إلى المبارزة. وكان يُقدر أن ذلك يسيءُ إلى سمعة الكونتيسة «روستوف»، ولهذا كان يسعى إلى لقائه شخصياً لعله يجد ذريعة جديدة للمبارزة. لكنه لم يستطع أن يلقى كوراجين الذي رجع إلى روسيا بعد وصول الأمير «آندريه» بقليل. لقد شعر الأمير آندريه في

١- منذ ١٨٠٨ احتل الجيش الروسي الذي كان يحارب الترك المقاطعتين الرومانيتين الخاضعتين للسلطان وهما مولدافيا وفالاكيا. ولذلك يذكر تولستوي «تركيا» أيضاً.

هذا البلد الجديد وفي ظروف الحياة الجديدة بارتياح أكبر. فمنذ خيانة خطيبته التي طعنته طعنة كان ألمها أشد لأنه كان يخفيه بعناية عن الناس جميعاً، غدت شروط الحياة التي كان سعيداً فيها شاقة عليه، وأشقُّ منها أيضاً الحرية والاستقلال اللذان كانا لا يقدران بثمن من قبل. لقد كف عن الاستسلام لتلك الأفكار التي خطرت له لأول مرة في ميدان القتال في «أوسترلتس» والتي كان يحب أن يبسطها أمام بطرس والتي عمرت وحدته في «بوغوتشاروفو» ثم في سويسرا وروما، بل إنه كان يخشى ذكرى هذه الأفكار التي فتحت له آفاقاً مضيئة لا نهاية لها. إن ما كان يعنيه الآن هو المسائل العملية المباشرة التي لا علاقة لها بمشاغله القديمة والتي كان يتشبث بها بحرص يشتد مع تلاشي تلك المشاغل القديمة. فكأن قبة السماء اللانهائية التي كانت تمتد فوقه من قبل قد تحولت إلى قبة منخفضة، محدودة تسحقه، قبة كان كل شيء فيها واضحاً جلياً، إلا أنه لم يكن فيها شيء مما هو خالد أو مما هو محفوف بالأسرار والخفايا.

وكانت الخدمة في الجيش، بين جميع ألوان النشاط التي تعرض له، أشدها بساطة، وكان يجيدها فوق غيرها. كان يقوم بمهامه، بصفته جنرالاً مساعداً عسكرياً في أركان كوتوزوف، بحماسة ومثابرة، مدهشاً كوتوزوف بميله إلى العمل وبدقته. وحين لم يجد «كوراجين» في تركيا رأى من غير الضروري ملاحقته وتقصي أثره في روسيا؛ لكنه كان يُدرك أيضاً أنه بالرغم من الزمن الذي يمر، وبالرغم من الازدراء الذي يُحس به نحوه، وبالرغم من جميع الأسباب التي تدعوه إلى الترفع عن مبارزته، فإنه لا يستطيع إنْ لقيه، أن يمتنع عن تحديه ودعوته إلى المبارزة، كما لا يستطيع الجائع الغرثان أن يمنع نفسه من الارتماء على الطعام. وكان شعوره بأن الإهانة لم يُثأرْ لها، وبأن غضبه الذي مازال حبيساً يُثقل قلبه، كان هذا الشعور يسمم الهدوء المصطنع الذي أحاط به نفسه، في تركيا بفضل نشاطه المحموم المائل إلى الطموح والزهو.

وفي سنة ١٨١٢، عندما وصل نبأُ الحرب ضد نابليون إلى بوخارست[1] (وكان كوتوزوف فيها منذ سنتين يقضي أيامه ولياليه مع خليلته الفالاكية)، طلب الأمير آندريه نقله إلى جيش الغرب. فقبل كوتوزوف طلبه راضياً، -وكان يرى في نشاط بولكونسكي ما يُشبه المأخذ على الحياة العاطلة الخاملة التي يحياها،- وعهد إليه بمهمة لدى «باركلي دي تولى».

قبل أن يلتحق الأمير آندريه بالجيش الذي كان، في شهر أيار، في معسكر «دريسا»[2]، مرَّ بليسيا خوري، وهي من أملاك أبيه، وكانت على طريقه، لأنها لا تبعد سوى ثلاثة فراسخ عن طريق سمولنسك الكبرى. لقد حدث في حياته كثير من التقلبات خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة، ففكر في كثير من الأشياء، وعاش ورأى كثيراً منها (زار الغرب والشرق) حتى أنه دهش أشد الدهشة حين رأى كل شيء على حاله، في أدنى التفاصيل، وحين رأى مجرى الحياة ذاته. وعندما سار في الممر واجتاز البوابة الحجرية كان كأنما يلجُ إلى قصر مسحور نائم. كان يسود البيت الوقار ذاته، والنظافة ذاتها، والصمت ذاته؛ كان الأثاث هو هو، والجدران هي هي، والأصوات هي هي، والروائح هي هي، والوجوه الوجلة هي هي وإن كبرت قليلاً. مازالت الأميرة ماريا الفتاة الخجلة الخالية من الجمال، التي تكبر في ظل الخوف والعذاب النفسي الدائم، قاضية أفضل سني حياتها من دون فائدة ولا بهجة.

١- بوخارست عاصمة فالاكيا. ويسمى سكانها الفالاكيون.

٢- دريسا: مدينة صغيرة على دفينا، بين دفنسك وبولوتسك. وفيها بني في سنة ١٨٧٤ معسكر هائل محصن كان على الجيش الروسي أن يدافع منه عن نفسه في وجه نابليون. لكن هذه الخطة التي وضعها «بفويل» كان لابد من التخلي عنها بسبب ضغط الفرنسيين جنوباً على سمولتسك.

ومازالت الآنسة «بورين» المغناجَ، الراضية عن ذاتها، الممتلئة بالآمال السعيدة، المستمتعة بكل لحظة من حياتها.

وكان «ديسال»، المربي الذي جاء به من سويسرا، يرتدي معطفاً روسي التفصيل ويخاطب الخدم بلهجة روسية رديئة، لكنه مازال ذلك المربي المحدود الذكاء، المتعلم، الفاضل والمدعي.

كان التبدل الجسدي الوحيد الذي لوحظ على الأمير العجوز غياب إحدى الأسنان من زاوية فمه؛ كان الشيخ من الناحية النفسية هو هو وإن اشتد نزقُه وتزايد تشككه إزاء ما يجري في العالم. كان نيقولا الصغير وحده هو الذي كبر وتغير وتميزت قسماته؛ كان شعره الداكن جعداً، وكان إذا تبسم أو ضحك انحسرت شفته العليا عن فمه الجميل فأشبه بذلك الأميرة الصغيرة الراحلة كل الشبه، من غير أن يعلم هو بذاك. كان نيقولا وحده هو الذي لا يخضع، في هذا القصر المسحور، النائم، لقانون الثبات والاستقرار. لكن مع أن كل شيء، في الظاهر، ظل على حاله، إلا أن العلاقات الحميمة بين جميع الأشخاص تغيرت منذ أن غاب عنهم الأمير آندريه. كان سكان المنزل منقسمين إلى معسكرين متباعدين متعاديين لا يجتمعان الآن إلا بسبب حضوره، ولا يغيران نمط حياتهما المعتاد إلا من أجله. وإلى أحد المعسكرين ينتمي الأمير الشيخ والآنسة «بورين» والمهندس، وإلى المعسكر الثاني تنتمي الأميرة ماريا، وديسال ونيقولا الصغير وجميع المربيات والخادمات.

كان الجميع يتناولون الطعام معاً، أثناء إقامة الأمير آندريه في ليسيا خوري، لكنهم كانوا جميعاً يضيقون بذلك. وكان الأمير آندريه يحس أنه ضيف وأنهم يقبلون بهذا الاستثناء من أجله، وأن حضوره يزعج الجميع. أحس بذلك بالرغم منه، أثناء الغداء، في اليوم الأول، فظل صامتاً؛ ولما رأى الأمير الشيخ انقباضه التزم الصمت الكالح أيضاً

وسرعان ما انسحب إلى غرفته بعد الطعام. وعندما دخل عليه الأمير آندريه، في المساء ليراه، بذل وسعه في أن يخرجه من صمته وركوده، فحدثه عن حملة الكونت الشاب «كامنسكي»[1] وإذا بالأمير الشيخ يأخذ في الكلام على الأميرة ماريا لائماً لها على تعلقها بالخرافات وعلى كرهها للآنسة «بورين» التي كانت وحدها، في اعتقاده، المخلصة له بصدق.

كان الأمير الشيخ يقول: أنه إن كان مريضاً فالذنب ذنب ماريا التي كانت تعذبه وتستثيره عامدة؛ وأنها كانت تُفسد الأمير الصغير نيقولا بتدليلها وبأحاديثها البلهاء. وكان الأمير الشيخ يعلم علم اليقين أنه هو الذي كان يعذب ابنته التي غدت حياتها جدَّ شاقة؛ لكنه كان يعلم أيضاً أنه لا يستطيع أن يمتنع عن تعذيبها وأنها كانت تستحق ذلك. وكان يقول في نفسه: «لِمَ لا يحدثني الأمير آندريه عن أخته وهو يرى ذلك؟ أيظنني فاسقاً أو شيخاً غبياً أبْعَد ابنته من غير داع وقرّب منه الفرنسية؟ إنه لا يعرف، ينبغي أن أوضح له الأمر، ينبغي أن يفهمني». ثم شرع يعرض الدواعي التي من أجلها لم يعد بوسعه أن يحتمل من ابنته طباعها المنكرة.

قال الأمير آندريه دون أن ينظر إلى أبيه (كان يلومه لأول مرة في حياته):

- ما كنت أحب الكلام على ذلك، ولكن إن كنت تسألني رأيي فسأقول لك بصراحة رأيي في ذلك كله. إذا كان بينك وبين «ماشا»[2]

١- كامنسكي (١٧٧٨-١٨١١) ابن الفيلد مارشال كامنسكي، عين في ١٨١٠ قائداً لجيش مولدافيا فاحرز نجاحاً عظيماً، لكنه أصيب بمرض فمات شاباً.

٢- ماشا تصغير ماريا.

سوء تفاهم وخلاف فلست أستطيع أن أحملها المسؤولية في أية حال من الأحوال: إني أعلم مبلغَ حبها واحترامها لك.

وتابع كلامه وقد اهتاج، لأنه كان مهيّأ للاهتياج منذ بعض الزمن:

– مادمت تسألني رأيي فإني لا أستطيع أن أقول سوى شيء واحد: إن كان هناك سوء تفاهم فالذنب ذنب هذه المرأة التافهة التي لا يحق لها أن تكون رفيقة لأختي.

نظر الشيخ، بادئ الأمر، إلى ابنه محدّقاً فيه، كاشفاً بابتسامته التي حمل نفسه عليها حملاً، عن غياب إحدى أسنانه، وهو شيء لم يألفه بعد الأمير آندريه، ثم قال:

– مَنْ الرفيقة التي عنيتَ يا عزيزي؟ قل لي؟ لقد ناقشتم ذلك من قبل! أليس كذلك؟

قال آندريه بلهجة مغتاظة قاسية:

– ما كنت أريد أن أحكم على أحد، يا أبي، لكنك أنت أثرت هذا الحديث، ولقد قلت وسأقول أبداً: إن الذنب لا يقع على الأميرة ماريا وإنما... يقع على هذه الفرنسية.

قال الشيخ بصوت خفيض، صوت بدا للأمير آندريه مرتبكاً.

– آه! لقد حكمت!... لقد حكمت...

ثم وثب فجأة وصرخ:

– اخرج من هنا! اخرج من هنا! ولا تعودنَّ إلى هذا المكان أبداً...

أراد الأمير آندريه أن يسافر، لكن الأميرة ماريا توسلت إليه أن يمكث

يوماً آخر. وفي هذا اليوم لم ير أباه الذي لم يخرج و لم يدعْ أحداً يدخل إليه ما عدا الآنسة بوريين وتيخون، والذي سأل غير مرة إن كان ابنه قد انصرف. وفي اليوم التالي، ذهب الأمير آندريه، قبل رحيله، لرؤية ابنه. وجلس الطفل القوي الذي يشبه شعره الجعد شعر أمه، في حضن أبيه. فأخذ الأمير آندريه يقص عليه حكاية «ذي اللحية الزرقاء»، لكنه أخذ يفكر قبل أن يُنهي حكايته. لم يكن يفكر بهذا الصبي الحلو، بابنه الذي يجلسه في حضنه، بل بنفسه. كان يبحث في أعماقه بارتياع، عن الندم لأنه أغضب أباه أو عن الأسف لفراقه فلا يجدهما (وهذه أول مرة في حياته يختلف فيها مع أبيه). وأخطرُ من ذلك أنه كان يبحث في أعماقه أيضاً عن حنانه القديم لابنه فلا يعثرُ عليه، حنان أملَ أن يوقظه وهو يلاطفُ ابنه ويُجلسه في حضنه.

كان الصبي يقول له: هيا! أَنْهِ الحكاية. لكن الأمير آندريه أنزله من حضنه وخرج من الغرفة دون أن يجيب.

ذلك أن الأمير آندريه ما إنْ هجر مشاغله اليومية، وما إن عاد بخاصة، إلى شروط حياته القديمة أيام كان سعيداً، حتى أصابه القرف من الحياة قوياً كما كان من قبل، فتعجّل الهرب من هذه الذكريات وأسرع في البحث عن شغل يشغله.

سألته أخته:

– هل عزمت على الرحيل، يا آندريه؟

فقال الأمير آندريه:

– أحمد الله على أنني أستطيع الرحيل. وأنا شديد الأسف لأنك لا تستطيعين أن تفعلي مثل ما أفعل.

هتفت الأميرة ماريا قائلة:

- لَم تقول هذا! لم تقول هذا وأنت ماض إلى هذه الحرب الرهيبة وقد غدا شيخاً طاعناً في السن! قالت الآنسة بوريين أنه كان يَسْتعلم عنك...

لم تكد تتطرق إلى هذا الموضوع حتى ارتجفت شفتاها وانبجست الدموع من عينيها. فأدار الأمير آندريه ظهره وأخذ يذرع الغرفة. ثم قال بشيء من الحقد الذي أخاف أخته:

- آه! يا إلهي! يا إلهي! عندما يفكر المرء بتلك الكائنات الحقيرة التي يمكن أن تكون سبباً في شقاء الآخرين...!

وفهمت أنه حين يتحدث عن الكائنات الحقيرة فهو لا يقصد فقط الآنسة بوريين التي كانت سبباً في شقائها، بل إنه يقصد أيضاً الرجل الذي دمَّر سعادته.

قالت وهي تلمس مرفقه وتنظر إليه بعينين كانتا تلتمعان من خلال الدموع:

- آندريه، أتوسل إليك، ولا أطلب منك إلا شيئاً واحداً:

إنني أفهمك (وخفضت بصرها). لا تظن أن الناس هم الذين يصنعون شقاء الناس الآخرين. الناس أدوات «بيديه».

وألقت من فوق رأس الأمير آندريه بنظرة من تلك النظرات الواثقة التي نلقيها على مكان نعلم أننا سنعثر فيه على صورة، وتابعت قولها:

- «هو» الذي يرسل الألم، لا الناس. الناس أدوات «بيديه» وهم

غير مذنبين. وإذا اعتقدت أن أحد الناس أذنب معك فانس واصفح. ليس لنا الحق في أن نعاقب. ولسوف تُدرك سعادة الصفح.

ومع أنه لم يفكر، حتى هذه اللحظة، بكوراجين، إلا أن حقده الموتور ثار فجأة في قلبه. وقال في نفسه: «إذا كانت الأميرة ماريا ذاتها تحثني على الصفح، فذلك يعني أنه كان ينبغي لي أن أعاقبه منذ زمن طويل». ومن غير أن يردّ على أخته، فكر في لحظة الغضب المثيرة التي سيقابل فيها كوراجين الذي كان يعلم أنه في الجيش.

توسلت الأميرة ماريا إلى أخيها أن يمكث يوماً آخر، وقالت له أنها تعلم مبلغ التعاسة التي ستصيب أباهما لو أن آندريه سافر دون أن يصالحه، لكن الأمير آندريه أجابها بأنه قد يعود قريباً من الجيش، وأنه لن يتوانى عن مراسلة أبيه، وأنه كلما أطال بقاءه الآن ازداد الأمر سوءاً وتفاقم الخلاف بينهما.

كانت آخر الكلمات التي سمعها من أخته وهي تودعه:

- وداعاً يا آندريه! تذكّر أن المصائب تأتي من الله، وأن البشر غير مذنبين البتة.

قال الأمير آندريه في نفسه وهو يغادر ممر «ليسيا خوري»: «لا بد أن تكون الأمور كذلك! ستظل هذه المخلوقة المسكينة البريئة فريسة لشيخ رجع إلى صباه. إنه يحس بنفسه مذنباً لكنه لا يستطيع أن يغير نفسه. أما ابني الصغير فهو يكبر، سعيداً بالحياة التي سيغدو فيها كالآخرين مخادِعاً أو خادعاً. إنني ذاهب إلى الجيش، لماذا؟ لست أدري. وأنا أرغب في لقاء رجل أحتقره لأتيح له أن يقتلني أو أن يستهزئ بي!».

لقد كانت عناصر حياته قديماً هي نفسها، ولكنها كانت إذ ذاك

تأتلف على حين أنها تتفكك وتتحلل اليوم. الصور العارية من المعنى والتي لا رابط بينها، هي وحدها التي كانت تعرض لفكره الواحدة بعد الأخرى.

***

الفصل التاسع

وصل الأمير آندريه إلى مقر القيادة العامة في نهاية شهر حزيران. وكانت قطعات الجيش الأول، حيث كان يقيم الإمبراطور، تشغل معسكر «دريسا» المحصن؛ وكانت قطعات الجيش الثاني تتراجع وهي تجهد في الالتحاق بالجيش الأول الذي يفصله عنها، على ما كان يقال، قوات فرنسية ضخمة. كان الناس جميعاً مستائين من سير العمليات العام؛ ولكن لم يكن أحد يفكر في خطر غزو المقاطعات الروسية، و لم يكن أحد يقدّر أنه يمكن نقل الحرب إلى ما وراء المقاطعات البولونية في الغرب.

وجد الأمير آندريه «باركلي دي تولي» الذي ألحق به، معسكراً على ضفاف «الدريسا». ولما لم تكن في جوار المعسكر أية قرية أو ناحية لها شأنها، فإن ذلك العدد الجم من الجنرالات ورجال الحاشية الذين كانوا في الجيش، كانوا يحتلون، في دائرة قطرها عشر فراسخ، أجمل المنازل في القرى الواقعة على ضفتي النهر. وكان «باركلي دي تولي» يقيم على أربع فراسخ من الإمبراطور. ولقد استقبل «بولكونسكي» بجفاف وبرودة وقال بلهجته الألمانية: إنه سيرجع إلى الإمبراطور بشأن تعيينه وأنه سيكون، في هذه الأثناء، ملحقاً بأركانه.

أما آناتول كوراجين الذي كان آندريه يأمل أن يلقاه في الجيش فلم

يكن هنا، وإنما كان في بطرسبرج؛ فسرّه هذا النبأ. وما إن وجد نفسه في قلب العمليات الهائلة الجارية حتى أقبل عليها وفرح لأن التفكير في كوراجين لن يصرفه عنها إلى بعض الوقت. وفي الأيام الأربعة الأولى التي لم يستدعه فيها أحد، طاف بالمعسكر المحصن وكوّن لنفسه فكرة دقيقة عنه بفضل معلوماته الخاصة وأحاديثه مع الرجال المختصين. لكن مسألة ما إذا كان لهذا المعسكر مزية أم لا ظلت بدون حل. لقد أقنعته تجربته للحرب أن المخططات التي درست خير دراسة تكاد تكون عديمة الأهمية (كما رأى ذلك في اوسترلتس)، وأن كل شيء منوط بالطريقة التي نتّقي بها ضربات العدو المفاجئة الطارئة، إن كل شيء منوط بإدارة العمليات وبسالة القادة. وتوضيحاً للمسألة الأخيرة سعى الأمير آندريه، مستخدماً وضعه وعلاقاته، أن يتغلغل إلى خصائص قيادة الجيش وللشخصيات والجماعات التي تشارك فيها، وانتهى إلى الصورة التالية:

عندما كان الإمبراطور مايزال في فيلنا، كانت قواتنا مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الجيش الأول بقيادة «باركلي دي تولي» والجيش الثاني بقيادة «باغراتسيون»، والجيش الثالث بقيادة «تورماسوف»[1]. وكان الإمبراطور مع الجيش الأول، ولكنه لم يكن معه بصفته قائداً عاماً. وكانت الأوامر العامة تنص على أنه لن يمارس القيادة وأنه سيكون موجوداً في الجيش فقط. وفضلاً عن ذلك، فإنه لم تكن له هيئة أركان القائد العام وإنما كان هناك هيئة أركان المقر الإمبراطور. كان

١- تورماسوف (١٧٥٢-١٨١٩) جنرال تميز في جميع الحروب منذ ١٩٧١. كان قائد الجيش الثالث في جنوبي روسيا، حل محل كوتوزوف في كانون الأول من عام ١٨١٢. منح لقب كونت سنة ١٨١٥.

يساعده قائد الأركان الإمبراطورية الجنرال الأمير «فولكونسكي»[١]، وجنرالات، ومساعدون عسكريون، ودبلوماسيون، وعدد كبير من الأجانب، إلا أنه لم تكن هناك هيئة أركان للجيش. وكان إلى جنبه فوق ذلك، وبدون وظائف خاصة، وزير الحرب السابق «اراكتشيف»، والكونت «بينيغسين» أقدم الجنرالات رتبة، وولي العهد «قسطنطين بافلوفيتش»، والمستشار الكونت «رومیانتسيف»، والوزير البروسي السابق «ستين»، والجنرال السويدي «آرمفيلد»، والواضع الرئيسي لخطة المعركة «بفويل»، والجنرال المساعد العسكري واللاجيء السرديني «بولوكشي»[٢]، و«لزوجين»[٣] وكثيرون غيرهم. ومع أنه لم تكن لهذه الشخصيات وظائف رسمية، إلا أنها كانت تمارس تأثيراً بسبب مكانتها؛ وغالباً ما كان قائد القطعة والقائد العام نفسه يجهلان بأية صفة كان «بينيغسين» أو «الدوق الأكبر»[٤]، أو «آراكتشيف»، أو «فولكونسكي» يطلبون هذا الشيء أو ذاك، ويشيرون بهذا الشيء أو ذاك، كما كانا يجهلان إن كان الأمر الذي نقل على شكل نصيحة يصدر عنهم أم عن الإمبراطور، وإن كان يجب تنفيذه أم لا. لكن ذلك لم يكن سوى الظاهر؛ أما الدلالة الحقيقية لوجود الإمبراطور وكل

١- فولكونسكي هو عم والدة ليف تولستوي (١٧٧٦-١٨٥٢).

٢- بولوكشي: المركيز بولوكشي (١٧٧٩-١٨٤٩) من مواليد سردينيا. خدم فرنسا في سنة ١٨٠٦، وخدم روسيا منذ ١٨٠٧. رئيس أركان الجيش الأول في سنة ١٨١٢، والحاكم العام لمقاطعات البلطيق (١٨٢١-١٨٢٩). عاد إلى ايطاليا وشغل مناصب رفيعة.

٣- ولزوجين (١٧٧٣-١٨٤٥) ضابط بروسي، التحق بخدمة روسيا منذ ١٨٠٧ وعاد إلى الجيش البروسي في عام ١٨١٥.

٤- الدوق الأكبر هو أخو الإمبراطور.

هذه الشخصيات، من وجهة نظر البلاط، (الجميع يغدون بحضور الإمبراطور حاشية ممالقة له.)، فلم تكن تغيب عن أحد. كانت الدلالة هي التالية: إن الإمبراطور لم يحمل لقب «قائد عام»، لكنه كان يدير كل الجيوش، وكان الأشخاص الذين يحيطون به معاونين له. كان «آراكتشيف» الحارس الأمير للنظام ومرافق الإمبراطور العسكري؛ وكان يبدو على «بينيغسن»، وهو ملاّك في مقاطعة «فيلنا»، أنه يقوم بواجبات الضيافة في بلده، إلا أنه، في الواقع، كان جنرالاً ممتازاً نافعاً بما يسديه من نصائح، جاهزاً ليحل محل «باركلي»؛ وكان الدوق الأكبر هنا لأن تلك كانت رغبته؛ وكان الوزير السابق «ستين» هنا، لأنه كان سديد الرأي، ولأن الإمبراطور الكسندر كان يقدر مزاياه الشخصية تقديراً عالياً. وكان «آرمفيلد» عدواً لدوداً لنابليون، وجنرالاً واثقاً من نفسه مما كان يدفع الكسندر دائماً إلى احترامه. وكان «بولوكشي» هنا لأنه كان جريئاً وقوياً في أحاديثه. وكان المساعدون العسكريون من الجنرالات هنا لأنهم كانوا يرافقون الإمبراطور أينما ذهب؛ وأخيراً على وجه الخصوص، كان «بفويل» هنا لأنه واضع خطة المعركة ضد نابليون، ولأنه كان يدير جميع العمليات بعد أن أقنع الكسندر بجودة هذه الخطة. وكان «ولزوجين» إلى جانبه يترجم إلى شكل أقرب منالاً أفكار «بفويل» هذا المنظِّر، هذا الرجل الصارم والشديد الثقة بنفسه حتى أنه كان يجهر بالاحتقار الكلي للآخرين.

وفيما عدا الشخصيات المذكورة، الروسية والأجنبية، (ولاسيما الشخصيات الأجنبية التي كانت تقترح كل يوم أفكاراً جديدة غير متوقعة، بجسارة لا يملكها إلا أولئك الذين يمارسون نشاطاً في وسط غير وسطهم)، كان هناك عدد كبير من الأشخاص الثانويين الذين كانوا في الجيش لأن رؤساءهم كانوا فيه.

بين جميع الأفكار والآراء التي كانت تبرز إلى النور في هذا العالم العريض المضطرب والبراق المتعجرف، تبين الأمير آندريه أقساماً متميزة واضحة المعالم للاتجاهات والأفرقة. ويضم الفريق الأول «بفويل» وأنصاره من المنظرين المقتنعين بوجود علم للحرب يتضمن قوانينها الثابتة، قوانين الحركة المائلة، قوانين التغطية الخ.... وكان «بفويل» وأتباعه يقولون بوجوب الانسحاب إلى داخل البلاد وفقاً للقوانين الصارمة التي تفرضها نظرية الحرب المزعومة، وكانوا لا يرون في خرق هذه النظرية سوى علامة من علامات البربرية والجهل أو سوء النية. وإلى هذا الفريق كان ينتمي الأمراء الألمان، و«ولزوجين» و«ونتزنجيرود»، وآخرون من الألمان خاصة.

وكان الفريق الثاني على النقيض من الأول؛ كما هي الحال دائماً حين يستدعي التطرف تطرفاً آخر يقابله. وإلى هذا الفريق كان ينتمي أولئك الذين كانوا يطالبون، منذ «فيلنا»، بالهجوم في بولونيا والانعتاق من أية خطة موضوعة سلفاً.

كان هؤلاء يمثلون الروح القومية فضلاً عن كونهم ممثلي الجرأة في العمل، وهو ما جعلهم ينفردون برأيهم ولا يقبلون بغيره رأياً في النقاش. كانوا روساً: «باغراتيون» و«ايرمولوف» الذي أخذ صيته يذيع، وآخرون. وكانوا يرددون كلمة شهيرة لايرمولوف الذي طلب من الإمبراطور خطوة واحدة، وهي أن يرفّع إلى ألماني. كان رجال هذا الفريق يقولون، وهم يستعرضون ذكرى سوفوروف،: أنه لا يجب أن نفكر وأن نغرز الدبابيس في الخرائط، وإنما يجب أن نحارب العدو وأن نقهره وأن نمنعه من دخول روسيا وأن نحول دون هبوط الروح المعنوية في الجيش.

وإلى الفريق الثالث الذي كان يوحي إلى الإمبراطور بأكبر قدر من

الثقة، كان ينتمي رجال من الحاشية يؤيدون التوفيق بين الاتجاهين. وكان هؤلاء، ومعظمهم مدنيون ومن بينهم «آراكتشيف»، يرون ويقولون ما يقوله، على العموم، أولئك الذين لا يملكون قناعات لكنهم يرغبون في أن يظهروا بمظهر من يملكها. كانوا يزعمون أن الحرب، ولاسيما ضد عدو عبقري مثل بونابرت (صاروا يسمونه بونابرت مرة أخرى) تتطلب، من غير شك، تفكيراً عميقاً وعلماً عظيماً، —وعلى الأساس، كان «بفويل» عبقرياً—؛ لكنهم كانوا مضطرين إلى الإقرار، في الوقت نفسه، بأن المنظرين ضيقو الفكر، في الغالب، ولذلك فمن الواجب ألا نثق بهم ثقة مطلقة، وأن نصغي إلى ما كان يقوله خصوم «بفويل»، إلى ما كان يقوله الرجال العمليون، المجربون وأن نعمل على إيجاد الحل الوسط بين الطرفين. لقد توصلوا إلى ضرورة إبقاء معسكر «دريسا» وفقاً لخطة «بفويل»، مع تعديل حركات الجيشين الآخرين. كان أنصار هذا الفريق يعتقدون أن هذا الحل هو أفضل الحلول، مع أنه لا يمكن بلوغ أي من الأهداف المرجوة بهذه الطريقة.

أما تيار الرأي الرابع فكان أبرز ممثليه الدوق الأكبر ولي العهد الذي لم يكن بوسعه أن ينسى خيبته في «اوسترلتس»، حيث تقدم على رأس الحرس وكأنه في استعراض عسكري، بخوذته وسترته القصيرة، مقدراً أنه سيسحق الفرنسيين ببسالته، وحين وجد نفسه، على حين غرة، في الخط الأول، لم يتمكن من الإفلات والنجاة، في غمرة البلبلة العامة، إلا بعد لأي. كان لرجال هذا الفريق فيما يطلقون من أحكام فضل الصدق وعيوبه. كانوا يخشون نابليون ويرون فيه القوة ويرون في أنفسهم الضعف، وكانوا يعلنون ذلك على الملأ. كانوا يرددون: «لن يحمل إلينا ذلك كله سوى الكارثة والعار والهزيمة! لقد تخلينا عن «فيلنا»، وتخلينا عن «فيتيبسك»، وسوف نتخلى أيضاً عن «دريسا». الشيء

الوحيد الذي بقي علينا أن نفعله هو أن نعقد الصلح بأسرع وقت ممكن مادمنا لم نُطرد من بطرسبرج!».

وكان هذا الرأي الشائع في أوساط الجيش العليا يجد دعماً له في بطرسبرج ولدى المستشار «روميا نتزيف» الذي كان يرغب في الصلح أيضاً لأسباب أخرى، لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة.

خامساً، كان هناك أنصار «باركلي دي تولي»، باعتباره وزيراً للحرب وقائداً عاماً لا باعتباره رجلاً عادياً. كانوا يقولون: «مهما تكن عيوبه (هكذا كانوا يبدؤون كلامهم دائماً) فهو رجل شريف جدي، وليس عندنا من هو أفضل منه. امنحوه السلطة الحقيقية، لأن الحرب لا يمكن أن تدار بنجاح من غير وحدة القيادة، وسيريكم ما بمقدوره أن يفعله، كما أراكم ذلك في فنلندا من قبل. وإذا كان جيشنا منظماً، وإذا كان قوياً، وإذا كان قد استطاع أن ينسحب إلى «دريسا» دون أن تلحق به الهزيمة، فالفضل في ذلك لباركلي وحده. وإذا ما استبدلنا به الآن «بينغسن» خسرنا كل شيء؛ ذلك أن «بينيغسن» دلل على عجزه سنة ١٨٠٧».

وكانت الجماعة السادسة، من أنصار «بينيغسن»، على العكس من ذلك، تصر على أنه ليس هناك من هو أعظم قدرة وخبرة من «بينيغسن»، وأنه، بالرغم مما جرى، لابد من الرجوع إليه. وكانوا يحتجون بأن انسحابنا إلى «دريسا» كان أشد الهزائم خزياً، كما كان سلسلة متصلة من الأخطاء. وكانوا يقولون: «كلما تعددت الأخطاء كان ذلك أجدى، إذ سرعان ما ندرك، على الأقل، أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو. إن ما نحتاج إليه ليس رجلاً عادياً مثل «باركلي» وإنما نحتاج إلى رجل مثل «بينيغسن» أثبت قيمته وقدراته في سنة ١٨٠٧ وشهد له نابوليون ذاته، وإلى قائد يسلِّم الناس بقيادته راضين طائعين؛ ومثل هذا الرجل القائد لا يمكن أن يكون سوى «بينيغسن»».

وكان الفريق السابع يتألف من أناس نجدهم دائماً في بطانة الملوك، ولاسيما الملوك الشباب. وكانوا كثراً، بنوع خاص، حول الملك الكسندر؛ وهم من الجنرالات والمساعدين العسكريين الذين أخلصوا أعظم الإخلاص للرجل الذي كانوا يعبدونه فيه بصدق وتجرد، كما كان يعبده روستوف في سنة ١٨٠٥، أكثر من إخلاصهم للملك. وكانوا ينسبون إليه جميع الفضائل، بل جميع المزايا الإنسانية.

كان هؤلاء الأشخاص يعجبون بتواضع الإمبراطور الذي كان يرفض قيادة الجيوش، لكنهم كانوا يلومونه على هذا الإفراط في التواضع، و لم يكونوا يرغبون إلا في شيء واحد، و لم يكونوا يلحون إلا على شيء واحد، وهو أن ينبذ مليكهم المحبوب إفراطه في سوء ظنه بنفسه، وأن يعلن توليه لقيادة الجيش وأن ينشئ إلى جانبه هيئة لأركان القيادة العامة وأن يستشير عند الحاجة المنظرين والعمليين المجربين، وأن يقود بنفسه جنده إلى المعركة، فمثل هذه القيادة هي التي ستلهب حماستهم.

وكانت الجماعة الثامنة، وهي أكثر الجماعات عدداً ونسبتها إلى غيرها كنسبة تسع وتسعين إلى واحد، تتألف من أناس لا يريدون السلم ولا يريدون الحرب، لا يريدون الزحف إلى الأمام كما لا يريدون معسكر «دريسا» المحصن أو غيره، لا يريدون «باركلي» ولا الإمبراطور، ولا «بفويل»، ولا «بينيغسن»، ولا يشتهون إلا شيئاً واحداً جوهرياً دون غيره من الأشياء: وهو أكبر قدر من المنافع والملذات لأنفسهم. ففي هذا المستنقع العكر من الدسائس التي كانت تتلاقى وتتشابك في مقر الإمبراطور غدا ممكناً النجاح في كثير من الأشياء التي لا يجوز التفكير فيها في أوقات أخرى. فهذا واحد يعتنق اليوم نظرات «بفويل»، حرصاً منه على مركز مربح، ويعتنق غداً نظرات خصمه، ويؤكد بعد غد أن ليس له رأي في الموضوع الفلاني، ولا هم له سوى التنصل من

المسؤولية وإرضاء الإمبراطور. وهذا ثانٍ تحدوه الرغبة في تأمين منافعه فيسترعي انتباه الإمبراطورية بما يثيره من ضجة حول ما كان الإمبراطور قد لمح إليه بالأمس، ويناقش، ويصرخ في المجلس وهو يضرب صدره، ويدعو معارضيه إلى المبارزة، مظهراً استعداده لأن يضحي بنفسه في سبيل المصلحة العامة. وهذا ثالث يلتمس بوقاحة، بين جلستين وفي غياب أعدائه، عوناً مادياً لقاء خدماته المخلصة، وهو يعلم أن ليس هناك متسع من الوقت لرفض طلبه. وهذا رابع، يبدو أبداً مرهقاً بالعمل كلما وقعت عليه عين الإمبراطور. وهذا خامس، يدلل، بغية بلوغ هدف طالما اشتهاه، هو دعوة ملكية، يدلل بعناد على صحة أو خطأ رأي شاع حديثاً، مستخدماً لذلك الحجج التي تتفاوت روعة وصحة.

كان كل أولئك الناس يطاردون المال والأوسمة والمناصب، ولا يلتفتون إلا إلى اتجاه الرعاية الإمبراطورية؛ كانت جماعة الزنابير هذه، إذا أحست ميل تلك الرعاية إلى جهة من الجهات اندفعت إليها اندفاعاً كان يصعب معه على الإمبراطور أن يحولها عنها إلى غيرها. وفي غمرة ترجح الوضع وجسامة الخطر الداهم الذي كان يسبغ على كل شيء طابعاً خاصاً من القلق، ووسط هذه الزوبعة من الدسائس والأنانيات والصراعات بين الآراء والمشاعر المتعارضة، وبين جميع تلك الشخصيات المتعددة الجنسيات، كانت هذه الجماعة، وهي تفوق غيرها عدداً وتتكون من أناس انهمكوا في مصالحهم الشخصية، لا تفتأ تعقد الوضع وتزيده غموضاً ولبساً. كانت هذه الجماعة من الزنابير تطير، أياً كانت المسألة المثارة وقبل أن تنتهي من الجعجعة في الموضوع السابق، إلى موضوع جديد وتغطي بطنينها على الأصوات الصادقة التي كانت تسهم في النقاش.

في اللحظة التي وصل فيها الأمير «آندريه» إلى الجيش، كانت هذه

الجماعات قد أنتجت فريقاً تاسعاً بدأ يتجلى. وكان من أناس تقدموا في السن، وأوتوا العقل، وتمرسوا بأعمال الدولة، وعرفوا، من غير أن يشاركوا في أي من الآراء المتناقضة، كيف يفحصون موضوعياً كل ما يجري في المقر الإمبراطوري وكيف يبحثون عن الوسائل التي تضع حداً للتردد والحيرة واللبس والضعف.

كان هؤلاء يقولون ويرون أن السوء آت قبل كل شيء من وجود الإمبراطور وحاشيته العسكرية في الجيش؛ وأن ما حُمل إلى الجيش من تقلبٍ ملتبس واتفاقي في العلاقات، يناسب البلاط لكنه شؤم على الجيش؛ وأن على الإمبراطور أن يحكم لا أن يقود الجند؛ وأن المخرج الوحيد من هذا الوضع هو رحيل الملك وحاشيته؛ وأن وجوده وحده يشل خمسين ألف رجل لابد منهم لتأمين حمايته الشخصية؛ وأن أسوأ قائد عام، إن كان مستقلاً، خير من أفضل قائد مقيد بوجود الإمبراطور وسلطته.

في الوقت الذي كان الأمير آندريه يقيم فيه في «دريسا» بدون وظيفة محددة، توجه الوزير شيشكوف[1]، وهو واحد من أبرز ممثلي هذا الفريق، إلى الإمبراطور برسالة وقعها «بالاشيف» و«آراكتشيف» معه. وقد استغل، في هذه الرسالة، الإذن الذي منحه إياه الإمبراطور بمناقشة سير العمليات العام، واقترح عليه باحترام أن يغادر الجيش، متذرعاً بوجوب إلهاب حماسة سكان العاصمة للحرب.

إن مهمة إثارة حماسة الشعب للحرب والنداء الذي يجب توجيهه إليه للدفاع عن الوطن، هذه الحماسة القومية (في الحدود التي أثارها

١- شيشكوف: (١٧٥٤-١٨٤١) أميرال وأديب محافظ، مؤلف بيانات طنانة. كان وزيراً للتعليم العام من سنة ١٨٢٤ إلى سنة ١٨٢٨.

وجود الإمبراطور في موسكو) التي كانت العامل الرئيسي في انتصار روسيا، مهمة عُرضت على الإمبراطور وقبل بها الإمبراطور على أنها ذريعة لمغادرته الجيش.

***

الفصل العاشر

لم تكن هذه الرسالة قد سلمت إلى الإمبراطور عندما أنبأ «باركلي» «بولكونسكي» ذات يوم، أثناء الغداء، أن الإمبراطور يرغب في رؤيته ليسأله عن تركيا، وأن عليه أن يمثل بين يديه في اليوم نفسه، في الساعة السادسة بعد الظهر، في مقر «بينيغسن».

في هذا اليوم علم مقر الإمبراطور بتحرك جديد لنابليون، وهو تحرك يمكن أن يغدو خطراً على الجيش؛ ثم تبين فيما بعد أن النبأ كاذب. وفي صباح هذا اليوم دلل العقيد «ميشو»[1] للإمبراطور، وهو يطوف معه بتحصينات «دريسا»، أن هذا المعسكر المخندق الذي بناه «بفويل» والذي اعتبر حتى الآن عملاً رائعاً من أعمال التكتيك يهدف إلى ضياع نابليون، إن هذا المعسكر سخف منافٍ للعقل وأنه سيكون سبباً في ضياع الجيش الروسي.

وصل الأمير آندريه إلى مقر الجنرال «بينيغسن» الذي كان يشغل مسكناً ريفياً صغيراً على ضفة النهر ذاتها. فلم يجد «بينيغسن» ولا

١- ميشو: الكونت ميشو (١٧٧١-١٨٤١) ولد في سافوا، والتحق بخدمة روسيا منذ ١٨٠٥، عين مساعداً عسكرياً جنرالاً للإسكندر الأول بين ١٨١٣-١٨١٥.

الإمبراطور؛ لكن «تشيرنيشوف»[1]، وهو أحد مساعدي الإمبراطور العسكريين، استقبل بولكونسكي وأنبأه أن جلالة الإمبراطور خرج، وبصحبته الجنرال «بينيغسن» والكونت «بولوكشي»، كي يتفقد تحصينات «دريسا»، للمرة الثانية هذا اليوم، وهي تحصينات أخذ الشك يساور النفوس في جدواها.

كان تشيرنيشوف يقرأ رواية فرنسية قرب النافذة، في الغرفة الأولى التي ربما كانت قاعة للرقص من قبل: فما زال فيها أرغن تكدست فوقه الطنافس؛ وفي زاوية منها وضع سرير المطوي يغفو، وقد بدا منهكاً من جراء وليمة أو من جراء العمل. وكان في القاعة بابان، الباب المقابل ويفضي إلى قاعة الاستقبال القديمة، والباب الأيمن ويفضي إلى مكتب العمل. وكانت تصل من الباب الأول أصوات تتكلم الألمانية، وتتكلم الفرنسية بين الحين والحين. كان يعقد هنا، في قاعة الاستقبال القديمة بناء على رغبة الإمبراطور، اجتماع لبعض الشخصيات، -ولم يكن يسمى مجلساً حربياً لأن الإمبراطور لا يحب التحديد الدقيق-، التي كان الإمبراطور يريد معرفة رأيها، في الصعوبات الراهنة. لم يكن مجلساً حربياً وإنما كان اجتماعاً لبعض الشخصيات المختارة والمدعوة إلى توضيح بعض المسائل للإمبراطور شخصياً. وكان يدعى إلى هذا الاجتماع: الجنرال السويدي آرمفيلد، والمساعد العسكري الجنرال «ولزوجين»، و«ونتزنجيرود» الذي كان نابليون يدعوه أحد الرعايا

١- تشيرنيشوف: الكونت تشيرنيشوف (١٧٨٥-١٨٥٧) ضابط في فرسان الحرس، مساعد عسكري للإمبراطور، أرسل في سنة ١٨١١ بمهمة إلى نابليون، ثم أصبح جنرالاً ووزيراً للحرب من ١٨٣٢ إلى ١٨٥٥، ثم أميراً من أصحاب السمو، منذ ١٨٣٩.

الفرنسيين الفارين إلى العدو، و«ميشو»، وتول[1] والكونت سيتن الذي لم يكن عسكرياً قط، وأخيراً «بفويل» ذاته الذي كان المحرك الرئيسي للقضية كلها، كما قيل للأمير آندريه. وقد أتيح للأمير آندريه أن يتفحصه جيداً، لأن «بفويل» وصل بعده بقليل، وقبل أن يدخل إلى القاعة، توقف برهة ليحدث «تشيرنيشوف».

ومع أن الأمير آندريه لم ير بفويل من قبل، فقد خيل إليه، للوهلة الأولى، أنه يعرفه. كان يرتدي بزة جنرال روسي أسيء تفصيلها فغاصت رقبته فيها حتى بدا كالمتنكر. وكان فيه شيء من «ويرودر» و«ماك» و«شميث» وغيرهم من الجنرالات المنظرين الألمان الذين تسنى له أن يلقاهم في سنة ١٨٠٥؛ لكنه كان أكثرهم نموذجية. إذ لم ير الأمير آندريه قط ألمانياً يجمع إلى هذا الحد السمات المميزة للمنظرين الألمان الآخرين.

كان «بفويل» رجلاً قصيراً شديد النحول لكنه كان متماسك البنيان، وكان كأنما صنع على عجل، بحوضه العريض وبلوحيه الناتئتين. وكان وجهه متغضناً وعيناه غائرتين. وكان شعره من الأمام وعلى الصدغين مسرحاً بضربات عجلى من الفرشاة، أما من الخلف فكان منفوشاً في خصلات شعثاء. دخل، وهو يلقي من حوله، نظرات قلقة غاضبة، كأنما كان كل شيء يخيفه في القاعة الفسيحة التي يلج إليها. التفت إلى «تشيرنيشوف»، وهو يشد على سيفه بحركة خرقاء، وسأله بالألمانية: أين الإمبراطور. وكان واضحاً أنه يتعجل عبور الحجرات، والانتهاء من التحيات والمجاملات، والإكباب على عمله خلف خريطته حيث يحس أنه في مكانه المناسب. وهز رأسه بسرعة رداً على ما كان يقوله «تشيرنيشوف»، وابتسم ساخراً وهو يوضح له أن الإمبراطور خرج

١- تول جنرال في أركان الجيش الأول في سنة ١٨١٢.

يتفقد التحصينات التي بناها هو، «بفويل» وفقاً لنظريته. وغمغم بينه وبين نفسه بالألمانية، بصوت خشن خفيض، صوت الألمان الواثقين من أنفسهم. «غبي.».... أو «سحقاً للتاريخ».... أو «ستزداد الأمور سوءاً»... ولم يسمع الأمير آندريه جيداً ما قاله، وأراد أن يمضي، لكن «تشيرنيشوف» قدمه لبفويل مشيراً إلى أنه قادم من تركيا حيث انتهت الحرب نهاية موفقة. فرماه «بفويل» بنظرة خاطفة تجاوزته إلى ما وراءه وقال، وهو يضحك: «لابد أنها كانت حرباً تكتيكية رائعة». ثم دخل إلى الغرفة التي كانت تنبعث منها الأصوات وهو يضحك ضحكة استخفاف.

كان جلياً أن «بفويل» الذي كان دائم الاستعداد للسخرية الحادة، قد اغتاظ اليوم إلى حد بعيد حين علم أن الإمبراطور وصحبه قد أباحوا لأنفسهم تفقد حصنه والحكم عليه دون وجوده. لقد أتاحت هذه المقابلة القصيرة وحدها للأمير آندريه أن يكوّن لنفسه، بفضل ذكرياته عن «أوسترليتس»، فكرة واضحة عن هذه الشخصية. كان «بفويل» واحداً من أولئك الرجال الواثقين بأنفسهم ثقة لا تتبدل ولا تتحول، إلى حد الاستشهاد، مما لا نرى مثله إلا لدى الألمان، وذلك لأن الألمان وحدهم يقيمون ثقتهم بأنفسهم على الفكرة المجردة، على العلم، أي على ما يزعمون من معرفة الحقيقة المطلقة. الفرنسي واثق من نفسه لاعتقاده أنه يفتن، بجسمه وبفكره، الرجال والنساء على السواء، فتنة لا سبيل إلى مقاومتها. والإنجليزي واثق من نفسه لأنه مواطن في دولة هي أفضل الدول تنظيماً، لأنه، بوصفه انكليزياً، يعلم دائماً ما ينبغي أن يفعله، ولأنه يعي أن ما يفعله، بوصفه ذاك، هو، بلا جدال، خير ما يُفعل. والإيطالي واثق من نفسه لأنه انفعالي ولأنه ينسى بسهولة نفسه والآخرين. والروسي واثق من نفسه لأنه لا يعلم شيئاً ولا يريد أن يعلم شيئاً، ولأنه لا

يعتقد أن من الممكن معرفة شيء من الأشياء معرفة كلية. ثقة الألماني أسوأ أنواع الثقة جميعاً وأشدها لصوقاً بصاحبها، وأبغضها إلى النفس، لأن الألماني يتخيل أنه يعرف الحقيقة، أي العلم الذي ابتكره هو نفسه فعده حقيقة مطلقة. كذلك كان «بفويل»، بوضوح. كان يملك علماً هو نظرية الحركة المائلة التي استنبطها من تاريخ حروب «فريديريك الأكبر»، أما ما سوى ذلك من تاريخ الحروب الحديثة فكان يبدو له منافياً للعقل؛ كانت تلك الحروب، في نظره، معارك تسودها الفوضى وترتكب فيها الأخطاء من كل جانب حتى أنها لم تكن تستحق أن تسمى حروباً؛ إنها لم تكن تتفق والنظرية، ولا يمكن أن تكون موضوعاً للعلم.

كان «بفويل»، سنة ١٨٠٦، أحد واضعي خطة الحملة التي انتهت إلى «ايينا» وإلى «اويرستاد»[1]؛ لكنه لم يكن يرى في نتيجة الحرب أدنى دليل على خطأ نظريته. بل إن مخالفة هذه النظرية كانت، في نظره، السبب الوحيد للهزيمة؛ وكان يقول، وهو يتهكم ذلك التهكم الفرح الخاص به: «لقد كنت أقول إن كل شيء سينتهي إلى الدمار». كان «بفويل» واحداً من أولئك المنظرين المفتتنين بنظريتهم افتتاناً ينسون معه الهدف منها، أي تطبيقها العملي؛ وكان يكره، حباً بالنظرية، كل تطبيق عملي، ويهزأ به. بل إنه كان يغتبط بالفشل، لأن الفشل الذي مرده إلى خرق النظرية في التطبيق العملي كان يثبت له صحة نظريته فقط.

تبادل مع الأمير آندريه و«تشيرنيشوف» بضع كلمات عن الحرب بلهجة الرجل الذي يعرف سلفاً أن الأمور ستسوء والذي لا يجد بأساً في ذلك. إن خصلات الشعر الواقفة على قذاله، والصدغين

١ – ايينا واويرستاد معركتان انتصر فيهما نابليون على البروسيين في سنة ١٨٠٧.

اللذين سرح شعرهما على عجل، كل ذلك كان يدل أبلغ دلالة على ما تقدم.

ودخل الغرفة الأخرى التي سرعان ما وافت منها نبرات زاجرة بصوت «بفويل» الخفيض.

***

الفصل الحادي عشر

لم يكد الأمير آندريه يرفع بصره عن «بفويل» حتى دخل الكونت «بينيغسن» مسرعاً، وبعد أن رد بإشارة من رأسه على تحية بولكونسكي مضى إلى مكتبه رأساً وهو يلقي بتعليماته على مساعده العسكري. كان الإمبراطور يسير في أثره؛ وقد سارع «بينيغسن» فسبقه ليتخذ بعض الترتيبات وليتمكن من استقباله. خرج «تشيرنيشوف» والأمير آندريه إلى درج المدخل. كان الإمبراطور يترجل عن حصانه بادي التعب. وكان المركيز «بولوكشي» يقول له شيئاً ما. كان الإمبراطور يصغي، ورأسه مائل إلى اليسار والاستياء على وجهه، إلى بولوكشي الذي كان يتكلم بحرارة بالغة. وخطا الإمبراطور خطوات إلى الأمام، وكأنه يرغب في أن يقطع الحديث، لكن الإيطالي، الذي تضرج وجهه، وبلغ به الهياج أقصاه، ونسي آداب السلوك، تبعه واستمر في كلامه:

- أمَّا ذاك الذي أشار بهذا المعسكر، معسكر دريسا....

قال هذا في حين كان الإمبراطور يصعد الدرج ويتفحص، بعد أن لمح الأمير آندريه، هذا الوجه الجديد.

وتابع بولوكشي كلامه بعزم الرجل المستعد لكل شيء والعاجز عن كبح جماح نفسه:

– أمَّا ذاك الذي أشار بمعسكر دريسا، يا مولاي فلا أجد له سوى أحد خيارين الدار الصفراء[1] أو المشنقة.

فقاطعه الإمبراطور وبدا عليه أنه لم يسمع كلامه، حين تعرف على «بولكونسكي» وقال له برفق:

يسرني أن أراك. اذهب إلى غرفة الاجتماع وانتظرني هناك.

ودخل الإمبراطور إلى المكتب. ثم تبعه الأمير «بطرس ميخائيلوفتش فولكونسكي» والبارون «ستين» وأغلق الباب خلفهما. أما الأمير آندريه فاستغل إذن الإمبراطور وتبع «بولوكشي» الذي عرفه في تركيا، إلى القاعة التي يعقد فيها اجتماع المجلس.

كان الأمير «بطرس ميخائيلوفتش فولكونسكي» يقوم بوظيفة رئيس أركان للإمبراطور. فخرج من المكتب ومعه خرائط نشرها على طاولة القاعة، وعرض على المجتمعين المسائل التي كان يرغب أن يعرف رأيهم فيها. وكان قد وصل نبأ في الليل (ثم كُذِّب النبأ فيما بعد) أن الفرنسيين يلتفون على معسكر «دريسا».

كان الجنرال «آرمفيلد» أول المتكلمين فاقترح، تجنباً للمصاعب الراهنة، أن يحتل الجيش موضعاً جديداً كل الجدة، وهو اقتراح لم يكن ينتظره أحد ولا يمكن تبريره (إلا برغبته في أن يظهر أنه، هو أيضاً، قادر على إبداء الرأي) موضعاً بعيداً عن طرق بطرسبرج وموسكو يتجمع فيه الجيش وينتظر العدو. وكان واضحاً أن «آرمفيلد» قد تخيل هذه الخطة منذ زمن طويل، وأنه كان يعرضها الآن، لا ليجيب عن

١– الدار الصفراء: مصح المجانين في روسيا. سميت كذلك لأنها مطلية باللون الأصفر.

الأسئلة المطروحة، وهي أسئلة لم يجب عنها على كل حال، بل أنه كان ينتهز الفرصة للتعريف بها. كان اقتراحه واحداً من الاقتراحات التي لا تحصى، جديراً بأن يكون صالحاً كغيره إذا كنا نجهل الطابع الذي ستتخذه الحرب. وقد هاجمه بعضهم ودافع عنه آخرون. وانتقد الكولونيل الشاب «تول» بحدة ما بعدها حدة، مشروع الجنرال السويدي، وأخرج من جيبه، أثناء المناقشة، دفتراً مملوءاً بالملاحظات المدونة واستأذنهم في قراءته. فاقترح، في بيان مسهب، خطة أخرى للحرب تناقض كلياً خطة «آرمفيلد» وخطة «بفويل» على السواء. وفند «بولوكشي» آراء «تول»، واقترح خطة للتعرض والهجوم يمكنها وحدها إنقاذنا من ذلك التردد ومن هذا الفخ (كذلك كان يرى معسكر «دريسا»). واكتفى «بفويل» بأن تأفف مشمئزاً وبأن لوى وجهه مظهراً بذلك أنه لن ينزل أبداً إلى نقاش مثل هذه الحماقات. وعندما سأله الأمير «فولكونسكي» الذي يدير المناقشات، رأيه، اقتصر على القول:

– لم تسألني رأيي؟ لقد اقترح الجنرال «آرمفيلد» موضعاً ممتازاً بمؤخراته المكشوفة! أو يمكنكم أن تختاروا الهجوم الذي اقترحه هذا السيد الإيطالي، وهو رائع، أو الانسحاب، وهو أيضاً رائع! فلم تسألني؟ أنتم أعرف بالأمر مني. وعندما قطب «فولكونسكي» حاجبيه ونبهه إلى أنه يطلب رأيه باسم الإمبراطور، نهض «بفويل» وانتعش فجأة وبدأ كلامه قائلاً:

– لقد أفسدوا كل شيء وشوشوا كل شيء. كانوا جميعاً يزعمون أنهم أعلم مني، وها أنا ذا الآن أدعى لإبداء الرأي. كيف نصلح الأشياء؟ لا سبيل إلى إصلاح شيء. يجب تطبيق المباديء التي عرضتها بدقة. أين الصعوبة؟ حماقات.

قال ذلك وهو يضرب على الطاولة بأصابعه النحيلة. ثم اقترب من

الطاولة وأخذ يتكلم بسرعة، وهو يحدد بأصبعه الجافة المواقع على الخريطة، مدللاً على أنه ليس من احتمال يمكن أن يقلل من قيمة معسكر دريسا، وأن كل شيء قد وُضع في الحسبان وأن العدو إن باشر حقاً في حركة الالتفاف فسوف يباد حتماً.

ألقى عليه «بولوكشي» الذي لم يكن يعرف الألمانية أسئلة بالفرنسية فبادر «ولزوجين» إلى نجدة سيده الذي لم يكن يحسن الفرنسية وترجم له أقواله وكان يجد مشقة كبيرة في متابعة «بفويل» وهو يؤكد بطلاقة أن كل ما وقع وكل ما يمكن أن يقع قد احتاطت له خطته ووضع في الحسبان، وأنه إذا كانت الصعوبات تعترض الآن فمرد ذلك إلى أن الخطة لم تنفذ تنفيذاً دقيقاً. وكان لا يكف عن ضحكة الساخر، وأخيراً ترك البرهنة باستخفاف، شأنه شأن الرياضي الذي يكف عن التحقق من صحة مسألة محلولة بوسائل شتى. فناب عنه «ولزوجين» واستمر يشرح أفكاره بالفرنسية، وهو يقول له بين الحين والحين، بالألمانية: أليس كذلك يا صاحب السعادة»؟

وكان «بفويل» يصرخ به ساخطاً، كمن يطلق النار على جماعته في غمرة القتال:

– بلى، بلى، وما الحاجة إلى هذا الشرح؟

كان «بولوكشي» و«ميشو» يهاجمان معاً «ولزوجين» بالفرنسية؛ و«آرمفيلد» يخاطب «بفويل» بالألمانية، و«تول» يشرح ذلك كله للأمير «فولكونسكي» بالروسية. أما الأمير آندريه فكان يصغي ويراقب بصمت.

بين الشخصيات، كان «بفويل» بحدته وتصميمه وثقته المغالية بنفسه، هو الذي اجتذب إليه «آندريه» دون غيره. كان واضحاً أنه

هو الوحيد الذي لا يرغب في شيءٍ لنفسه، بين الحاضرين، ولا يشعر بحقد على أحد، ولا يريد إلا أمراً واحداً: تنفيذ خطته التي وضعت بحسب نظرية كلفه إعدادها سنوات من العمل. كان مضحكاً، وكانت سخريته كريهة، لكن أمانته المتزمتة لأفكاره كانت تحمل على الاحترام العفوي له. وفضلاً عن ذلك فإن أقوال الآخرين جميعاً، فيما عدا أقوال «بفويل»، كانت تتسم بسمة مشتركة لم تظهر في المجلس الحربي سنة ١٨٠٥، هي: الذعر الشديد الذي تثيره فيهم عبقرية نابليون؛ وهو، وإن كان مكتوماً، غلا أن كل اعتراض من اعتراضاتهم كان ينم عليه. كانوا يسلمون بأن نابليون قادر على كل شيء، وكانوا يتوقعون انبعاثه من كل الجهات دفعة واحدة، وكانوا يستخدمون اسمه ليلغي بعضهم ما اقترحه الآخرون؛ إلا «بفويل» الذي كان ينظر إليه على أنه بربري، شأنه شأن خصوم نظريته. وعلاوة على الاحترام، كان «بفويل» يوحي إلى «آندريه» بشيء من الرثاء له. فمن خلال اللهجة التي كان أفراد الحاشية يخاطبونه بها، ومن خلال ما استجاز «بولوكشي» قوله للإمبراطور، ومن خلال ضرب من العنف اليائس لدى «بفويل» ذاته، على وجه الخصوص، من خلال ذلك كله كان جلياً أن الآخرين يعلمون وشك سقوطه وأنه، هو نفسه، عالم بذلك. وبالرغم من ثقته بنفسه ومن سخريته الخشنة، فقد كان يدعو إلى الرثاء بشعره المملس على الصدغين وبخصلاته الشعثاء على القذال. لقد امتلأ أسى وهو يرى الفرصة الوحيدة للتحقق من نظريته على مستوى عظيم ولإثبات صحتها للعالم أجمع، تفلت منه، وإنْ أخفى ذلك الأسى خلف ستار من السخط والاحتقار.

امتد الجدال طويلاً، وكان كلما طال حميت نار المناقشات وانتهى بها الأمر إلى الصياح وإلى تناول الأشخاص، وتعذر استخلاص النتائج العامة مما يقال. و لم يملك الأمير آندريه، وهو يصغي إلى هذه المناقشات

بلغات شتى، وإلى هذه الفرضيات والخطط والردود والصرخات، إلا أن يدهش لما كانوا يقولونه جميعاً. ذلك أن الفكرة التي طالما راودته، خلال نشاطه العسكري، وهي أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد علم حربي وأنه لا يمكن من ثم، أن يوجد ما يسمى «بالعبقرية العسكرية»، تلك الفكرة قد تجلت الآن لعينيه ساطعة سطوع الحقيقة. أين النظرية والعلم في قضية لا تُعرف شروطها وظروفها ولا يمكن تحديدها ولا تحديد القوى الفعالة فيها؟

لم يستطع أحد قط ولا يستطيع أحد أن يعرف ما الوضع الذي سيكون عليه، غداً، جيشنا وجيش العدو، كما لا يستطيع أحد أن يقدر قيمة هذه المفرزة أو تلك. وكما نجد، أحياناً، بدلاً من الجبان الذي يصرخ في الخطوط الأولى: «لقد حوصرنا» ثم يفر هارباً، الرجلَ المرح الشجاع الذي يصرخ صرخة الحرب «هـوراه»، فكذلك رب مفرزة من خمسة آلاف رجل تساوي ثلاثين ألف رجل كما جرى في «شوينغرابن»، وقد يهرب خمسون ألف رجل أحياناً أمام ثمانية ألاف رجل كما جرى في «أوسترليتس». أي علم يمكن أن يكون في قضية، شأنها شأن كل مشكلة عملية، لا سبيل إلى التنبؤ بشيء منها، وكل شيء فيها منوط بما لا يحصى من الشروط التي تتجلى أهميتها في لحظة لا يعرف أحد متى تجيء؟

إن «آرمفيلد» يزعم أن جيشنا قد شطر، ويؤكد «بولوكشي» أننا وضعنا الجيش الفرنسي بين نارين، ويذهب «ميشو» إلى أن عيب معسكر «دريسا» في أن الساقية وراءه، ويرى «بفويل» أن ها هنا مصدر قوته. ويقترح «تول» خطة، فيقترح «آرمفيلد» خطة أخرى؛ كل الخطط صالحة وكلها سيئة، ولا يمكن أن تظهر محاسنها إلا في اللحظة التي يتم فيها الحدث. لم يتحدث الناس جميعاً عن العبقرية العسكرية؟ وهل

يكون عبقرياً من يحسن اختيار الوقت المناسب للأمر بتوزيع البسكويت إلى اليمين وإلى الشمال؟ لم يُدع العسكريون عباقرة إلا لأنهم ازدانوا بالبريق وبالسلطة، ولأن جمهور الأنذال يتملق الأقوياء فينسب إليهم خصائص العبقرية خطأ. الأمر على العكس من ذلك تماماً، فقد كان خير الجنرالات الذين عرفتهم أغبياء أو شاردي الذهن.

وفي مقدمتهم «باغرايتون» الذي شهد له نابليون. ونابليون ذاته! إني لأذكر وجهه، وجه المدعي، المحدود، في ساحة القتال في «أوسترلتس». القائد الممتاز لا يحتاج إلى العبقرية ولا إلى صفات خاصة، بل ينبغي له، على نقيض ذلك، أن يتجرد من أرفع صفات الإنسان وأفضلها، أي الحب والشعر والحنان والشك الفلسفي. ينبغي أن يكون محدوداً، قانعاً قناعة وطيدة بأهمية ما يفعل (وإلا أصابه الجزع) وحينذاك فقط يغدو قائداً باسلاً.

ومعاذ الله أن يكون إنسانياً، وأن يحب أحداً، وأن يرأف بأحد، وأن يفكر بما هو عادل وبما هو جائر! ومن السهل أن نفهم لم صيغت نظرية العبقرية من أجلهم في كل زمان، ذلك لأنهم يملكون القوة. وفضل الانتصار لا يعود إليهم، لكنه يعود إلى الجندي الذي يصرخ في الصفوف: «لقد هلكنا» أو «هوراه»! في الصف وحده إنما يستطيع المرء أن يخدم وهو على يقين بأنه نافع.

كذلك كان يفكر الأمير آندريه وهو يصغي إلى هذه المناقشات، و لم يثب إلى نفسه إلا عندما ناداه «بولوكشي» والناس ينصرفون.

في اليوم التالي، وأثناء العرض، سأل الإمبراطور الأمير آندريه: أين يحب أن يعين، وسقط الأمير آندريه في نظر البلاط نهائياً عندما استأذن الإمبراطور أن يخدم في الجيش و لم يطلب أن يُلحق بجلالته.

***

الفصل الثاني عشر

تلقى «روستوف»، قبل بدء العمليات الحربية، رسالة من ذويه ينبئونه فيها بإيجاز أن «ناتاشا» مريضة وأنها فسخت خطبتها مع الأمير آندريه (وعللوا له هذا الفسخ برفض ناتاشا)، ويطلبون إليه مرة أخرى أن يقدم استقالته وأن يعود إلى المنزل. وعندما قرأ «نيقولا» هذه الرسالة لم يخطر بباله أن يطلب إجازته أو أن يقدم استقالته، وإنما كتب لأهله أنه حزين أشد الحزن لمرض «ناتاشا» ولفسخ خطبتها مع خطيبها، وأنه سيبذل وسعه لينزل عند رغبتهم. وكتب لصونيا على حدة:

«يا صديقة روحي المعبودة. إن الشرف وحده هو الذي يمنعني من العودة إلى البيت. ففي هذه اللحظة، في عشية البدء بالمعركة، أجد من العار علي، لا أمام زملائي فحسب بل أمام نفسي أيضاً، أن أوثر سعادتي على واجبي وعلى حب الوطن. لكن هذا هو آخر فراق لنا. ثقي أنه إذا ما انتهت الحرب وبقيت على قيد الحياة ودام حبك لي فسوف أترك كل شيء على الفور، وسوف أطير إليك لأضمك إلى صدري المضطرم بالشوق ضماً لا فراق بعده».

والواقع أن الدخول في المعركة هو الذي حال بين روستوف وبين العودة والزواج من صونيا، كما وعد بذلك من قبل. إن خريف «أوترادنوي» وما فيه من نزهات الصيد، والشتاء وما فيه من أعياد

الميلاد، وحب صونيا، كل ذلك فتح له آفاقاً من الأفراح الهادئة التي تقوم عليها حياة الأشراف في الريف، وهي أفراح كان يجهلها من قبل وغدت تجتذبه الآن إليها. كان يقول في نفسه: «زوجة رائعة، وأطفال، وفصيلة حسنة من كلاب الصيد، وعشرة أزواج أو اثنا عشر زوجاً من الكلاب السلوقية الجريئة، وإدارة الأراضي، والجيران، وبعض الوظائف التي يختارني إليها أقراني... ذلك ما يناسبني دون غيره». لكن المعارك بدأت الآن وينبغي له أن يبقى، في كتيبته. وبما أنه لابد من ذلك، فقد كان «نيقولا روستوف»، بطبعه، راضياً كل الرضى عن الحياة التي يحياها في الجيش والتي استطاع أن يجعلها بهيجة.

عندما عاد «نيقولا» من إجازته استقبله رفاقه بفرح، وكان قد أرسل بمهمة تزويد الفوج بالخيل، وعاد من روسيا الصغرى بجياد رائعة أدخلت البهجة إلى نفسه ودفعت رؤساءه إلى تهنئته. وأثناء غيابه رقي إلى رتبة نقيب؛ وعندما وضعت الكتيبة على أهبة الحرب وعززت ملاكاتها ألحق مرة أخرى بكوكبته القديمة.

بدأت الحرب ونقل الفوج إلى بولونيا[1] وضوعفت المرتبات، ووصل إليه ضباط جدد ورجال جدد وجياد جدد؛ وساده ذلك التحفز الفرح الذي يرافق بداية الحرب؛ وكان «روستوف» مدركاً لميزات وضعه في الفوج، فأخلد إلى مباهج الخدمة وعكف على واجباتها بكل كيانه، وهو يعلم، مع ذلك، أنه سيترك تلك الخدمة إن عاجلاً وإن آجلاً.

كانت القطعات قد أخلت «فيلنا» لأسباب شتى معقدة، سياسية وتكتيكية. وكانت كل خطوة إلى الوراء تترافق، في هيئة الأركان العامة،

١- أي إلى لتوانيا التي كانت جزءاً من بولونيا قبل ١٧٩٥ والتي كان معظم ملاكها من البولونيين.

بجملة معقدة من المصالح والترتيبات والأهواء. أما بالنسبة إلى فرسان «بافلوغراد» فكان هذا التراجع في قلب الصيف، مع وجود ما يكفي من المؤن، عبارة عن رحلة ممتعة. لم يكن الخوف والقلق والدسيسة تجد سبيلاً لها إلا إلى هيئة الأركان العامة، أما الجند في الجيش فلم يكونوا يسألون إلى أين يمضون ولماذا. وإذا كانوا يأسفون للانسحاب فذلك لهجرانهم مسكناً ألفوه، أو لفراقهم إحدى الحسناوات البولونيات. وإذا ما قدر لأحدهم أن يحدث نفسه بأن الأمور أخذت تسوء فقد كان يسعى جهده، كما يليق بكل عسكري صالح، أن يصطنع المرح وأن ينصرف عن التفكير في الوضع العام إلى الاهتمام بعمله المباشر. كانوا يعسكرون، أول الأمر، في ضواحي «فيلنا» فرحين، يتعرفون إلى النبلاء البولونيين الريفيين، وينتظرون الاستعراضات التي يحضرها الإمبراطور أو القادة الكبار الآخرون. ثم جاءهم الأمر بالتراجع إلى «سوينسياني»[1] وبإتلاف المؤن التي لا يمكن نقلها. وقد حمل الفرسان معهم ذكرى «سوينسياني» أو «معسكر السكر» كما سماها الجيش بأسره، لأن الأهلين شكوا كثيراً من الجند الذين استغلوا الأمر بالتموين المحلي فصادروا الخيل والعربات والطنافس، علاوة على المؤن، من قصور الأشراف البولونيين، وكان «روستوف» يذكر «سونيساني» لأنه أوقف الرقيب الأول، في يوم وصوله إلى هذه الناحية، ولأنه لم يستطع السيطرة على فوجه الذي فقد وعيه من السكر بعد أن نهب، على غير علم من قائده، خمسة براميل من الجعة المعتقة. ومن «سوينساني» تراجع الجند شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى «دريسا» واقتربوا، هذه المرة من الحدود الروسية.

في الثالث عشر من تموز اشترك فرسان «بافلوغراد» لأول مرة في معركة لها شأنها.

١- مدينة صغيرة في مقاطعة «فيلنا» على طريق دفيلنا - دفنسك.

وفي ليلة الثاني عشر من حزيران، عشية القتال، هبت عاصفة شديدة مصحوبة بالمطر والبرد، من تلك العواصف التي تميز بها صيف ١٨١٢.

كانت كوكبتان من فوج «بافلوغراد» تخيمان في حقل شيلم اضطجعت سنابله تماماً من وطء الماشية والخيل. كان المطر يهطل مدراراً، وكان روستوف يأوي، ومعه ضابط شاب في رعايته، يدعى «ايلين»، إلى خص بُني على عجل. ودلف إلى هذا الخص ضابط من فوجه، طويل الشاربين، داهمه المطر وهو عائد من الأركان، وقال له:

– وصلت للتو من الأركـان، أيها الكونت. هل سمعت بمأثرة «رايفسكي»؟

وروى له تفاصيل معركة «سالتانوفكا»[1].

كان روستوف يدخن غليونه، وقد أدخل عنقه في ردائه بعد أن تسرب ماء المطر إلى جسمه، يصغي بأذن شاردة، ملقياً، بين الحين والحين، نظرة على الشاب «ايلين» الذي كان يلز نفسه به. كان هذا الضابط فتى في السادسة عشرة وصل حديثاً إلى الفوج، وهو الآن بالنسبة إلى «نيقولا»

١– قرية على الضفة اليمنى للدنيبر، جنوبي موهيليف، وفيها تصدى الفيلق السابع الذي يقوده الجنرال رايفسكي، في ٢٣ تموز، للفرنسيين الذين يقودهم دافو، كي يتيح للجيش الثاني الذي يقوده باغراتيون أن يعبر الدنيبر وأن ينسحب إلى سمولنسك. وقد هاجم رايفسكي الفرنسيين بالحراب على رأس فوجه يحيط به إبناه ألكسندر وعمره ستة عشر عاماً، ونيكولا وعمره أحد عشر عاماً، وهما ملازمان في المشاة: وكان رايفسكي (١٧٧١–١٨٢٩) عسكرياً، مقداماً، تميز في جميع الحروب حتى سنة ١٨١٤، وقد رفض لقب كونت الذي منحه إياه الإمبراطور. أما ابنته ماريا التي تزوجت من الأمير سيرج فولكونسكي، وهو أحد متمردي تشرين، فقد لحقت بزوجها إلى سيبيريا سنة ١٨٢٦.

مثلما كان «نيقولا» بالنسبة إلى «دينيسوف» قبل سبع سنوات. كان «ايلين» يسعى إلى محاكاته في كل شيء، وكان يحبّه كما تحب المرأة.

كان الضابط ذو الشاربين الطويلين، «زدنسكي»[1] يروي متشدقاً أن سد «سالتا نوفكا» غدا «تيرموبيل» روسيا، وأن الجنرال «رايفسكي» قام هناك بمأثرة مجيدة باهرة جديرة بالعصور القديمة. لقد تقدم على السد مع والديه، تحت وابل من نار العدو، وباشر الهجوم وهما إلى جنبه. كان روستوف يصغي إلى هذه الحكاية ولا يقول شيئاً يؤيد به حماسة «زدنسكي»، بل إنه كان يبدو خجلاً مما يروى له، وإن لم يكن بنيته الاعتراض عليه. فمنذ معارك «أوسترليتس» سنة ١٨٠٧، كان يعلم بتجربته الشخصية أن الناس يكذبون دائماً وهم يروون الأعمال الحربية، كما كذب هو نفسه؛ وفضلاً عن ذلك، فقد كان له من التجربة ما يكفيه ليعلم أن كل شيء في الحرب يجري على نحو يختلف عما نتخيله وعما نرويه. ولذلك لم يكن يستسيغ قصة «زدنسكي»، ولا «زدنسكي» ذاته الذي كان ينحني كعادته، بشاربيه الطويلين، حتى يلامس وجه محدثه ويضايقه في خصه الصغير. كان «روستوف» ينظر إليه بصمت ويقول في نفسه: «أولاً لابد أن يكون على السد المهاجم بلبلة وزحمة عظيمتان، وحتى لو تقدم رايفسكي مع ولديه، فإن ذلك لا يمكن أن يترك أثراً إلا في الأشخاص الذين يحيطون به مباشرة، أما الآخرون فلم يكن بوسعهم أن يروا كيف يتقدم ومع من يتقدم. بل إن الذين رأوه لم يتحمسوا كثيراً لما رأوا، إذ ما أهمية مشاعر «رايفسكي» الأبوية الرقيقة عندهم، في حين تتعرض حياتهم للخطر؟ ثم إن مصير الوطن لا يتوقف على سد «سالتانوفكا» البتة، سواء تم الاستيلاء عليه أم لا، كما كانت الحال في «تيرموبيل» على حد زعمهم. فما جدوى تلك

١– زدنسكي: اسم ابتكره المؤلف، له وقع الأسماء البولونية.

التضحية إذن؟ و لم يقحم ولديه في هذه الحرب؟ كنت سآبى أن أدفع إليها بأخي «بيتيا»، بل كنت سأسعى إلى وضع هذا الفتى «ايلين»، وهو لا يمت إلي بصلة لكنه فتى شهم، بمأمن منها.

كذلك كان يفكر «روستوف» وهو يصغي إلى «زدنسكي». لكنه لم يعرب عن شيء من أفكاره: كانت تجربته الطويلة تمنعه من ذلك. لقد كان يعلم أن هذه القصة تسهم في تمجيد جيوشنا وأن من الواجب عليه التظاهر بتصديقها. وهو ما فعله.

قال «إيلين» الذي رأى أن كلام «زدنسكي» لا يبسط «روستوف»
-لا يمكن للمرء أن يطيق ذلك. كل شيء تبلل حتى جوربي وقميصي. وأنا أجلس على بركة ماء. سأذهب للبحث عن ملجأ آخر. أعتقد أن المطر قد خفّ. وخرج «إيلين» ثم خرج «زدنسكي» بدوره.

وبعد خمس دقائق رجع «إيلين» وهو يركض ويتخبط في الوحل:

- هوراه! «روستوف»، هيا، أسرع. وجدتها! هناك نزل على مئتي خطوة منا، ورفاقنا فيه. نستطيع، على الأقل، أن نجفف فيه ثيابنا. و«ماريا هنريخوفنا» فيه أيضاً.

كانت «ماريا هنريخوفنا» زوجة طبيب الفوج؛ وكانت فتاة ألمانية جميلة تزوجها في بولونيا. وكان يستصحبها معه أينما ذهب الفوج، إما لأنه لم يستطع أن يفعل غير ذلك، وإما لأنه لم يشأ أن يفارقها، في الفترة الأولى التي تلت زواجه. وقد غدت غيرته غرضاً لتنادر ضباط الفرسان.

رمى «روستوف» معطفه على كتفيه ونادى «لافروشكا» لكي يتبعه مع بعض متاعه، وذهب بصحبة «إيلين» منزلقاً في الوحل ها هنا،

مخبصاً في مستنقعات الماء هناك، تحت المطر الذي أخذ يسكن، وفي ظلمة المساء التي كانت تخددها أحياناً ومضات البروق البعيدة. قالا:

- «روستوف»، أين أنت؟

- هنا. أرأيت هذا البرق!

***

الفصل الثالث عشر

كان في النزل خمسة أو ستة ضباط، وكانت تقف أمامه عربة الطبيب. وكانت «ماريا هنريخوفنا»، وهي ألمانية قصيرة شقراء ممتلئة، تتصدر، في قميص النوم وقبعته، مقعداً عريضاً، وزوجها نائم خلفها. دخل «روستوف» و«إيلين» فاستقبلتهما ضحكات وهتافات فرحة. قال روستوف ضاحكاً:

– عجباً! يبدو عليكم أنكم تجدون ما تلهون به.

فأجابه الآخرون:

– ولم لم تأت، أنت أيضاً، قبل الآن؟

– ما أسوأ حالكما! إنكما ترشحان ماء! فلا تغمرا صالتنا به.

– ولا توسخا فستان «ماريا هنريخوفنا»!

وأسرع «روستوف» و«إيلين» للبحث عن ركن صغير يبدلان فيه ثيابهما دون أن يخدشا حياء «ماريا هنريخوفنا». وأرادا أن يدخلا إلى خلوة صغيرة خلف الحاجز. لكن ضباطاً ثلاثة كانوا يملؤونها بأسرها، ويلعبون بالورق على ضوء شمعة واحدة موضوعة على صندوق فارغ، ويرفضون أن يتنازلوا عنها بأي ثمن. عند ذاك أعارتهما «ماريا هنريخوفنا» جبة لها تقوم مقام الستار، وخلف هذا الستار استطاع

«روستوف» و«إيلين»، بمساعدة «لافروشكا» الذي حمل ثيابهما، أن يستبدلا بثيابهما المبللة ثياباً جافة.

أشعلت النار في المدفأة المخربة؛ وجيء بلوح من الخشب وركز على سرجين، وفرش بلبادة، وأحضر السماور ونصف زجاجة من الروم، وطلب إلى «ماريا هنريخوفنا» أن تقوم بدور المضيفة، والتف الجميع حولها. فعرض عليها أحدهم منديلاً نظيفاً تمسح به يديها الصغيرتين الفاتنتين، وطرح آخر رداءه تحت قدميها ليقيهما شر الرطوبة، وسد ثالث النافذة بمعطفه ليجنب رفاقه تيارات الهواء، وعمد رابع إلى طرد الذباب عن وجه زوجها لكيلا يستيقظ.

قالت له «ماريا هنريخوفنا» وهي تبتسم ابتسامة تنم على الحياء والسعادة:

– دعه مستغرقاً في نومه بعد ليلته البيضاء.

فأجابها الضابط:

– هذا غير ممكن، يا «ماريا هنريخوفنا»، فلا بد من العناية بالدكتور. ومن يدري، فلربما ترأف بي غداً وهو يقطع يدي أو رجلي.

لم يكن هناك سوى ثلاثة أقداح؛ وكان الماء وسخاً بحيث يتعذر على المرء أن يتبين إن كان الشاي ثقيلاً أم لا، ولم يكن السماور يتسع إلا لستة أقداح. لكنهم وجدوا لذة أكبر وهم يتناولون أقداحهم، كل بدوره وبحسب القدم، من يدي «ماريا هنريخوفنا» الصغيرتين الممتلئتين بأظفارهما القصيرة التي لم تكن نظيفة تماماً. كان جميع الضباط يبدون مغرمين بها حقاً، هذا المساء. وحتى الذين كانوا يلعبون بالورق خلف الحاجز جذبهم هذا الإقبال العام عليها، فبادروا إلى ترك اللعب

وانضموا إلى الآخرين حول السماور. وحين رأت «ماريا هنريخوفنا» نفسها محاطة بهذه الشبيبة اللامعة الكيسة أشرقت بالسعادة على الرغم من الجهد الذي بذلته لإخفاء ذلك، وبالرغم من الذعر الجلي الذي كانت تبعثه كل حركة من حركات زوجها النائم خلفها.

لم يكن هناك سوى ملعقة واحدة؛ كان السكر كثيراً لكن تذويبه كان متعسراً، لذلك تقرر أن تحرك السكر في قدح كل منهم بالدور. وعندما تناول روستوف قدحه، صب فوقه شيئاً من الروم ورجا «ماريا هنريخوفنا» أن تحركه له.

قالت له «ماريا هنريخوفنا»، والابتسامة لا تفارق وجهها، وكأن كل ما يمكن أن تقوله أو يقوله الآخرون باعث على أعظم التسلية، وكأن له فوق ذلك معنى خفياً:

- لكنك تتناوله من غير سكر؟

- لا يهمني السكر، وكل ما أريده أن تحركي لي الشاي بيدك الحلوة.

وافقت «ماريا هنريخوفنا» وراحت تبحث عن الملعقة التي أخذها أحد الضباط.

قال روستوف:

- حركيه بإصبعك، يا «ماريا هنريخوفنا»، فذلك أحلى.

قالت وقد تضرجت من السرور:

- إنه ساخن!

وأمسك «إيلين» بدلو الماء وصب فيه قطرات من الروم ودنا من «ماريا هنريخوفنا» ورجاها أن تحركه بإصبعها، قائلاً لها:

- هذه هي كأسي. غطي فيها إصبعك وسأشربها كلها.

وعندما فرغ السماور، تناول «روستوف» ورق اللعب وعرض عليهم أن يلعبوا لعبة «الملوك» مع «ماريا هنريخوفنا». واقترعوا ليعرفوا قرينها في اللعبة. واقترح «روستوف»، كقاعدة للعب، أن يكون من حق من يصبح ملكاً تقبيل يد «ماريا هنريخوفنا»، وأن على «التابع» إعداد سماور جديد للطبيب عندما يستيقظ.

وسأل «إيلين»:

- وإذا كانت «ماريا هنريخوفنا» هي «الملك»؟

- إنها ملكة من قبل اللعب! وأوامرها هي القانون.

ما كاد اللعب يبدأ حتى برز رأس الطبيب الأشعث من خلف «ماريا هنريخوفنا». لقد كان مستيقظاً منذ زمن طويل، يصيخ السمع، وكان واضحاً أنه لا يجد ما يبعث على البهجة والمرح في كل ما يقال وما يفعل. كان وجهه حزيناً مربداً. لم يحيِّ الضباط وحك رأسه وسألهم الخروج لأنهم كانوا يسدون عليه الطريق. وما إن انصرف حتى أغرب الضباط في ضحك صاخب، على حين تضرجت «ماريا هنريخوفنا» إلى حدود البكاء، وهو ما جعلها أعظم فتنة في نظر الضباط. وعندما عاد الطبيب قال لزوجته (التي فقدت ابتسامتها المشرقة وتطلعت إلى زوجها بقلق وهي تنتظر حكمه): إن المطر انقطع وإنه لابد من قضاء الليل في العربة وإلا نُهب كل ما فيها.

قال «روستوف»:

- لا حاجة بك إلى ذلك، يا دكتور، وسأرسل جندياً.. أو اثنين!

وقال «إيلين»:

– وسأقوم أنا نفسي بالحراسة!

قال الطبيب:

– لا، يا سادة، أنتم نمتم، أما أنا فلم تغمض لي عين منذ ليلتين.

ثم جلس، وهو متجهم الوجه، قرب زوجته بانتظار نهاية اللعبة.

أحس الضباط، لدى رؤية وجهه المتجهم، وهو ينظر إلى امرأته شزراً، بمزيد من البهجة، و لم يتمالك كثير منهم عن الضحك، وهو ضحك كانوا يبادرون إلى البحث عن ذرائع مقبولة له. وعندما ذهب الطبيب مصطحباً زوجته واستقر في العربة، اضطجع الضباط في النزل متدثرين بمعاطفهم المبللة؛ لكنهم لبثوا زمناً طويلاً من دون أن يناموا، مستذكرين، تارة، قلق الطبيب ومرح زوجته، وخارجين، تارة أخرى، إلى عتبة الدرج ليرووا بعضهم لبعض ما كان يجري في العربة. حاول «روستوف» مراراً أن ينام، مغطياً رأسه بمعطفه، لكنه كان ينصرف في كل مرة عن هذا النوم بما يلقى من ملاحظات جديدة، فإذا بالأحاديث تستأنف وإذا بالضحكات الفرحة الطفولية تنفجر مرة أخرى بدون داع.

***

الفصل الرابع عشر

في نحو الساعة الثالثة صباحاً، لم يكن أحد قد نام بعد، عندما جاء الرقيب يحمل أمراً بالتوجه إلى «أوستروفنا».

حزم الضباط أمتعتهم على عجل، وهم يتحدثون ويضحكون؛ وأُشعل السماور مرة أخرى بعد أن ملئ بالماء الوسخ. لكن «روستوف» ذهب ليلتحق بكوكبته دون أن ينتظر الشاي. كان الصبح قد انبلج والمطر قد انقطع؛ وأخذت الغيوم تنكشف. وكان الجو رطباً بارداً ولاسيما بهذه الثياب التي لم تجف بعد. وعندما خرج «روستوف» و«إيلين» من النزل، ألقيا نظرة، في ضوء الفجر، على عربة الطبيب بغطائها الجلدي الملتمع من المطر؛ فرأيا ساقي الطبيب تبرزان من تحت الوزرة، ولمحا، في داخل العربة، على الوسادة، قبعة المرأة، وسمعا تنفس إنسان مستغرق في النوم.

قال «روستوف» لإيلين الذي كان يصحبه:

– إنها لطيفة حقاً!

فأجاب «إيلين» بكل ما في سنواته الست عشرة من جد:

– يا لها من امرأة فاتنة!

وبعد نصف ساعة، كانت الكوكبة مصطفة على الطريق. وعند

الإيعاز: «إلى السرج»، رسم الجنود علامة الصليب وامتطوا خيولهم. اتخذ روستوف مكانه على رأس الكوكبة وأوعز: «إلى الأمام سر!» فتحرك الفرسان في صفوف رباعية، وسط اصطفاق الحوافر في الوحل وقعقعة السيوف وهمس الأحاديث، على الطريق العريضة المحفوفة بأشجار البتولة، في إثر المشاة وسرية من سريات المدفعية.

كانت الريح تكسح بكل سرعتها غيوماً متمزقة ذات زرقة بنفسجية، وغيوماً حمراء في الشرق؛ وأخذ ضوء النهار يمد جناحيه فبانت بوضوح تلك الأعشاب القصيرة المتجعدة التي تنبت في الطرقات المعترضة، وقد بللها المطر؛ وتمايلت في الريح أغصان البتولة الحانية التي تبللت هي أيضاً وساقطت قطرات صافية، مائلة، وتميزت شيئاً فشيئاً وجوه الجنود. كان روستوف، ومعه إيلين الذي لم يكن يفارقه، يسير في الجانب المنخفض من الطريق، بين صفين من أشجار البتولة.

كان روستوف يبيح لنفسه أن يركب، في الريف، حصاناً قوزاقياً، لا حصاناً نظامياً. ولما كان هاوياً للخيل وخبيراً بها، فقد حصل على حصان أشقر من «الدون»، يجمع بين الجموح والقوة ولا يسمح لأي حصان آخر أن يسبقه. وكان ركوبه يُشعر روستوف بمتعة حقيقية. كان يفكر بحصانه، وبالصبح المنبلج، وبزوجة الطبيب؛ أما بالخطر الداهم فلم يفكر قط.

كان روستوف، قديماً، يحس بالخوف قبل المعركة؛ أما الآن فهو لا يشعر بأدنى تخوف؛ لا لأنه ألف نار الحرب (لا يمكن للمرء أن يألف الخطر)، بل لأنه تعلم كيف يسيطر على نفسه. لقد تعود أن يفكر، وهو ذاهب إلى القتال، بكل شيء إلا بما كان ينبغي أن يعنى به دون غيره: بالخطر الذي ينتظره. لم يوفق إلى ذلك، في البداية، بالرغم من الجهود التي بذلها، وبالرغم من تقريعه لنفسه ورميها بالجبن؛ إلا أن ذلك قد

حدث على نحو طبيعي، مع مر السنين. كان يتقدم الآن إلى جانب «إيلين» منتزعاً من حين إلى آخر ورقة من أوراق الشجر وقعت تحت يده، ملامساً بقدمه خاصرة جواده، ماداً غليونه المنطفئ إلى الفارس الذي يتبعه، دون أن يلتفت إليه، وهو هادئ النفس غير مكترث لشيء، وكأنما كان في نزهة. كان يؤلمه أن يرى القلق على وجه «إيلين» الذي كان يكثر من الكلام؛ فلقد كان يعرف بالتجربة هذا الانتظار الممض للخوف وللموت، وهو انتظار غدا الفتى فريسة له، وكان يعلم أن لا علاج لذلك سوى الزمن.

ما كادت الشمس تظهر من وراء الغيوم حتى هدأت الريح، وكأنها لم تجرؤ أن تعكر صفو صبيحة الصيف البديعة هذه التي تلت العاصفة. كانت قطرات من الماء ماتزال تسقط، ولكن عمودياً، ثم سكن كل شيء. كانت الشمس قد طلعت تماماً؛ بدت في الأفق واختفت خلف سحابة طويلة وضيقة حجبتها. وعادت إلى الظهور بعد لحظات، وهي أشد سطوعاً، فوق السحابة التي مزقت حواشيها. واستضاء كل شيء وراح يلتمع. ثم دوى المدفع بعيداً وكأنما يرد على هذا الفيض من الضياء.

لم يتسنَّ لروستوف أن يقدر المسافة التي تفصله عن هذه الطلقات النارية حتى وصل المساعد العسكري للكونت «أوسترمان تولستوي»[1]

١- الكونت أوسترمان تولستوي، ابن جنرال منحدر من الفرع الثاني لآل تولستوي، ورث سنة ١٧٩٦ لقب أمه واسم عائلتها «أوسترمان»، الذي انطفأ. وكان جنرالاً شجاعاً قاد فرقة سنة ١٨١٢ وتميز في معركة «كولم» سنة ١٨١٣ حيث قطعت إحدى القذائف يده. أقام سنة ١٨١٦ قرب جنيف، بعد أن اشمأز من الرجعية في روسيا، ومات هناك، وكان قد قام بعدة رحلات إلى الشرق مع الشاب المختص بشؤون بيزنطه «فالميرير» الذي كان أمين سره.

وهو يجري على جواده من جهة «فيتبيسك»، حاملاً الأمر بالسير خبباً على الطريق.

سبقت الكوكبةُ قطعة المشاة وسرية المدفعية اللتين كانتا تغذان السير أيضاً، وهبطت سفحاً، وبعد أن اجتازت قرية هجرها أهلها صعدت سفحاً آخر؛ وتغطت الجياد بالزبد وتوهجت بالحمرة وجوه الرجال.

أمر رئيس المفرزة وهو في المقدمة:

– قف، تراصف! نصف دائرة إلى اليمين، سيراً عادياً إلى الأمام، سر!

عند ذاك سار الفرسان بمحاذاة مقدمة القطعات نحو الجناح الأيسر وتمركزوا خلف فرساننا الرماحين المتمركزين في الخط الأول. وإلى اليمين كان المشاة متجمعين في رتل متراص:

كان هؤلاء هم الاحتياط؛ ومن فوقهم، على مرتفع، برزت مدافعنا، على الأفق، في الهواء الشفاف، وتحت أشعة الصباح الساطعة المائلة. وإلى الأمام، فيما وراء الوادي، كانت ترى أرتال العدو ومدافعه. أما في الوادي فكانت مخافرنا الأمامية مشتبكة مع العدو تتبادل وإياه طلقات نارية خفيفة.

امتلأ «روستوف» فرحاً بهذه الأصوات التي لم يسمعها منذ زمن طويل، وكأنه أمام أبهج أنغام الموسيقى. «تراب – تا – تا – تاب»! كانت الطلقات تدوي فجأة، منفردة حيناً، وفي سلسلة متتالية سريعة حيناً آخر. كان كل شيء يصمت، ثم كان يسمع مرة أخرى ما يشبه انفجار المفرقعات التي مشى عليها أحد الناس.

ظل الفرسان في أماكنهم قرابة ساعة. ثم ارتفع قصف المدفعية.

ومر الكونت «أوسترمان» مع تبعه خلف الكوكبة، وتوقف ليكلم قائد الفوج، ثم ابتعد باتجاه المدافع على المرتفع.

وبعد انصرافه بقليل أُمر الفرسان الرماحة باتخاذ وضعية الهجوم. ورص المشاة صفوفهم ليسمحوا للخيالة بالمرور. وتحرك الفرسان في ارتعاش شهب الرماح، وهبطوا المنحدر خبباً، للقاء الخيالة الفرنسيين الذين ظهروا عند سفح الجبل، إلى اليسار منه.

وما إن وصل الرماحة إلى نهاية المنحدر حتى تلقى الفرسان أمراً بالتوجه إلى المرتفع لتغطية بطارية المدفعية. وبينما كانوا يحلون محل الرماحة انطلقت من الخطوط، من بعيد، رصاصات طائشة مرت وهي تصفر.

أثار فرح «روستوف» هذا الصوت الذي لم يسمعه منذ زمن طويل، أكثر مما أثارته الطلقات النارية الأولى. فانتصب على حصانه وراح يتفحص ساحة القتال التي انكشفت من المرتفع، وكان بكل جوارحه مع الرماحة. وحمل الرماحة على الفرسان الفرنسيين وتلاحم الفريقان تحت الدخان، وبعد خمس دقائق ارتد الرماحة إلى الوراء، لا إلى نقطة انطلاقهم، بل إلى اليسار منها. وبين الرماحة بلونهم البرتقالي على خيولهم الشقراء، كانت ترى جماعة متراصة من الفرسان الفرنسيين الزرق على خيولهم الشهباء.

***

الفصل الخامس عشر

رأى «روستوف»، بعين الصياد الثاقبة، قبل غيره هؤلاء الفرسان الفرنسيين الزرق يلاحقون خيالتنا. كان الخيالة يقتربون ثم يقتربون في جماعات مشتتة، يتعقبهم الفرسان الفرنسيون. وكان من الممكن رؤية هؤلاء الرجال الذين بدوا، من المرتفع، جد صغار، وهم يتصاولون ويتصادمون ويحركون أيديهم وسيوفهم.

كان «روستوف» يراقب ما يجري أمامه وكأنه في رحلة صيد. وأحس بغريزته أنه لو انقض في هذه اللحظة، هو وفرسانه، على الفرسان الفرنسيين إذن لما صمد هؤلاء لهم. لكن كان ينبغي عليه أن يفعل ذلك على الفور، في هذه اللحظة ذاتها، وإلا فات الأوان. وألقى نظرة حواليه. كان النقيب الذي بجنبه لا يرفع بصره عن الخيالة تحتهم. فقال له روستوف:

- يا «أندريه سيفاستبانيتش»، في وسعنا أن ندحرهم...

فأجابه هذا:

- سيكون ذلك رائعاً! قسماً....

همز «روستوف» جوادهُ، دون أن يستمع إلى مزيد من كلامه، ومضى إلى مقدمة الكوكبة، وما كاد يأمر بالتحرك حتى راحت الكوكبة التي

أحست إحساسه تندفع بأسرها في إثره. لم يكن «روستوف» يعلم كيف فعل ذلك و لم فعل ذلك. لقد أقدم على ذلك كله بلا ترو، وبلا نظر إلى العواقب. رأى الفرسان الفرنسيين على مقربة، يعدون متفرقين، فعلم أنهم لن يصمدوا، وأن المسألة مسألة لحظة لن تعود إن هو فوّتها. كان أزيز الرصاص وفرقعته يحفزانه، وكان جواده يتفلت إلى الانطلاق، فلم يستطع المقاومة. إذ ذاك همز جواده وصرخ آمراً بالهجوم، وعندما سمع طرق حوافر كوكبته التي كانت منتشرة وراءه هبط المنحدر خبباً، ميمماً شطر الفرسان الفرنسيين. وما إن بلغت الخيل أدنى السفح حتى انتقلت من الخبب إلى العدو بالرغم منها، ممعنة في السرعة كلما دنت من خيالتنا ومن الفرسان الفرنسيين الذين كانوا يطاردونهم. كان الفرسان الفرنسيون قريبين جداً. فَمَنْ كان منهم في المقدمة لوى عنانه لدى رؤية فرساننا، بينما توقف الآخرون. وانتاب «روستوف» الشعور الذي كان ينتابه وهو يجري ليقطع الطريق على الذئب، فأرخى لجواده «الدوني» العنان وعدا في خط عمودي إلى صفوف الفرسان الفرنسيين المتفرقة. وتوقف رماح، وارتمى آخر على الأرض كيلا تدوسه الخيل، وانخرط في الفرسان فرس بغير فارس. كان الفرسان الفرنسيون جميعاً قد لووا أعنتهم وولوا مدبرين. فاختار «روستوف» فارساً منهم على فرس أشهب واندفع في إثره. واعترضت سبيله شجيرة فتخطاها جواده الأصيل بوثبة منه، ثم تبين، وهو يستوي بمشقة على حصانه، أنه على وشك اللحاق بالعدو الذي اختاره. كان هذا الفرنسي، وهو ضابط كما تدل بزته، يعدو منحنياً على حصانه الأشهب الذي كان يضربه بصفيحة سيفه. وبعد لحظة صدم حصان «روستوف» بلبانه مؤخرة حصان الضابط الفرنسي وكاد يرميه أرضاً، وفي تلك اللحظة بعينها استل «روستوف» سيفه، دون أن يعلم لم فعل ذلك، وأهوى به على الفرنسي.

وفي الحال، فارقته حماسته. سقط الضابط الفرنسي من جراء الهزة والخوف قبل أن يسقط من جراء ضربة السيف التي حزت عضده حزاً خفيفاً. وكبح «روستوف» حصانه وتطلع إلى عدوه ليرى من ذا الذي صرعه. كان الضابط الفرنسي ينط على الأرض لأن إحدى رجليه علقت في الركاب. ونظر إلى «روستوف» من تحت إلى فوق مروعاً، وقد تقبض وجهه وأخذ يطرف بعينيه، وكأنه يرقب وقع الضربة الثانية. لم يكن وجهه المربد الملطخ بالوحل، الفتي، بشعره الأشقر وبغمازته في ذقنه، وبعينيه الزرقاوين الصافيتين، وجه عدو في ساحة القتال، لكنه كان وجهاً عادياً، مألوفاً، مما نراه كل يوم. وقبل أن يقرر «روستوف» ما الذي يجب أن يفعله به صاح الضابط الفرنسي: «إني أستسلم». كان يجهد عبثاً كي يخلص رجله من الركاب، دون أن يرفع عينيه الزرقاوين المذعورتين عن روستوف. على أن بعض الفرسان بادروا إليه وفكوا رجله وساعدوه على امتطاء جواده. كان فرساننا يناوشون الأعداء، من كل جانب: كان أحد هؤلاء الأعداء جريحاً، دامي الوجه لكنه يأبى أن يسلم حصانه؛ وكان آخر يطوق أحد الفرسان بذراعيه وهو يردفه خلفه؛ وكان ثالث يمتطي جواده مستنداً إلى أحد فرساننا. أقبل المشاة الفرنسيون يطلقون النار وهم يجرون. فانثنى فرساننا على عجل ومعهم أسراهم. وتبعهم «روستوف» منقبض القلب من إحساس غريب بالضيق. لقد تجلى له شيء مبهم ومشوش، شيء لم يجد إلى إدراكه سبيلاً، على أثر أسر هذا الضابط وعلى أثر الضربة التي وجهها إليه.

وما لبث أن جاء الكونت «أوسترمان تولستوي» للقاء الفرسان فهنأ «روستوف» وشكره وقال له إنه سينقل نبأ عمله الباسل إلى أسماع الإمبراطور وإنه سيقترح أسمه لوسام صليب «سان جورج». وعندما استدعي «روستوف» من قبل الكونت «أوسترمان تولستوي» تذكر أنه

انطلق إلى الهجوم دون أن يتلقى أمراً بذلك، واعتقد جازماً أن رئيسه يطلبه ليعاقبه على قلة انضباطه. فكان ينبغي له، من ثم، أن يحدث له إطراء «أوسترمان» ووعده بالمكافأة مفاجأة أعظم سروراً: إلا أن ذلك الإحساس المؤلم المبهم ظل يعتصر قلبه. وتساءل وهو يغادر الجنرال: «ما الذي يعذبني؟ إيلين؟ لا، إنه سليم معافى. هل أتيت أمراً مخجلاً؟ لا، ليس الأمر كذلك». كان شيء غير ذلك يعذبه وكأنه الندم. «نعم، نعم، إنه هذا الضابط الفرنسي ذو الغمازة. وإني لأذكر أن ذراعي توقفت عندما رفعتها».

شاهد «روستوف» الأسرى الذين كانوا يُقتادون، وسار في إثرهم ليرى أسيره الفرنسي ذا الغمازة في ذقنه. كان الفرنسي في بزته الغريبة، يمتطي حصان أحد الفرسان الروس ويلقي حوله نظرات قلقة. و لم يكن جرحه في ذراعه ذا بال. وتبسم لروستوف على كره، وحياه بيده. كان روستوف يحس أبداً بالضيق وبالخجل من شيء ما.

لقد لاحظ أصدقاؤه طوال هذا اليوم واليوم التالي أنه لم يكن، على وجه الدقة، مغموماً أو غاضباً، وإنما كان شديد الوجوم والتفكر والانطواء. كان يشرب فلا يستسيغ الشراب. وكان يتوخى الوحدة ويفكر في شيء ما.

كان روستوف يفكر دائماً في عمله العسكري الباهر الذي عاد عليه، من غير أن يتوقع ذلك، بوسام صليب «سان جورج»، وأكسبه شهرة الباسل المقدام، فيجد فيه شيئاً لم يتوصل إلى فهمه. لقد كان يقول في نفسه: «وإذن فهم يخافون أكثر مما نخاف! أهذا هو ما يسمى البطولة! وهل فعلت ذلك، في الحقيقة، من أجل الوطن؟ وما ذنبه، بغمازته وبعينيه الزرقاوين؟ كم خاف! كان يظن أني سأقتله! و لم أقتله؟ لقد ارتجفت يدي. ومع ذلك فقد منحوني صليب «سان جورج». لست أفهم شيئاً من ذلك، البتة.

وبينما كان «نيقولا» يردد في نفسه هذه الأسئلة من غير أن يصل إلى فهم واضح لما كان يقض مضجعه، كانت عجلة الحظ تدور، كما يقع غالباً، لمصلحته. فقد برز اسمه بعد معركة «اوسترولفنا»، وعين قائد كوكبة، وكان رؤساؤه إذا احتاجوا إلى ضابط شجاع عهدوا إليه بشتى المهمات.

***

الفصل السادس عشر

عندما علمت الكونتيسة بمرض «ناتاشا» وصلت إلى موسكو ومعها «بيتيا» وجميع ذويها، مع أنها لم تتعاف جيداً ومع أنها ما تزال ضعيفة. ثم غادرة أسرة روستوف برمتها منزل «ماريا دميتريفنا» لتقيم نهائياً في قصرها.

كان مرض «ناتاشا» من الشدة بحيث استُبعد، لحسن حظها وحظ أهلها، التفكير فيما كان سبباً لهذا المرض أي سلوكها وفسخ خطبتها. لقد بلغ بها المرض مبلغاً لا يجوز معه التساؤل عن الحدود التي ينبغي لومها فيها عما جرى، في حين أنها أعرضت عن الطعام والنوم وأسرع إليها الهزال وأخذت تسعل، وإن الأطباء لمّحوا إلى الخطر الذي يتهدد حياتها. لم يبقَ مجال للتفكير إلا في العناية بها. كان الأطباء يزورونها منفردين أو مجتمعين للتشاور، ويتكلمون كثيراً بالفرنسية والألمانية واللاتينية، وينتقد بعضهم بعضاً، ويصفون ما شاؤوا من العلاجات لجميع الأمراض التي يعرفونها؛ ولم يخطر ببال أحد منهم أنه ليس بوسعهم معرفة المرض الذي تشكو منه، كما أنه ليس بوسعهم معرفة أي من الأمراض التي تنتاب البشر، لأن لكل إنسان خصائصه المميزة، ومرضه الخاص به، وهو مرض معقد، يجهله الطب، مرض لا يصيب الرئة والكبد والجلد والقلب والأعصاب... الخ كالأمراض المصنفة في الكلية، لكنه يقوم على ما لا يحصى من ضروب التآلف بين الآفات التي تصيب هذه الأعضاء. هذه الفكرة البسيطة لم تكن لتخطر ببال

الأطباء (كما لا يخطر ببال الساحر أن يكف عن أفعاله السحرية)، لأن علة وجودهم هو العلاج ما داموا يقبضون عليه مالاً، ومن أجله نذروا أجمل سني حياتهم. لكن هذه الفكرة لم تكن، على الخصوص، تخطر لهم لإيمانهم بأنهم نافعون نفعاً لا جدال فيه. والحق أنهم كانوا كذلك بالنسبة إلى أسرة «روستوف»، لا لأنهم حملوها على تجرع عقاقير مضرة في أكثرها (كان ضررها طفيفاً لأن الجرعات كانت خفيفة)؛ بل أنهم كانوا نافعين، لابد منهم، ولا مفر منهم (ولهذا السبب سيظل هناك أبداً مدعو التطبيب، والمجبرون، ومعالجو المرض بالمرض نفسه) لأنهم كانوا يشبعون حاجة نفسية لدى المريضة ولدى محبيها. كانوا يشبعون تلك الحاجة الأبدية إلى الأمل في تخفيف الآلام، تلك الحاجة إلى العطف والرعاية التي يحس بها الإنسان عندما يتألم. كانوا يشبعون تلك الحاجة التي نجدها لدى الطفل في شكلها البدائي، حاجته إلى أن يحك الموضع الذي يتألم منه. فلا يكاد الطفل يصاب بأذى حتى يسارع إلى الارتماء بين ذراعي أمه أو مربيته لتقبل ولتحكّ له موضع الألم، إذ ذاك يشعر على الفور أن الوجع قد سكن. ولا يتصور الطفل أن أناساً أقوى منه وأعقل يعجزون عن امتلاك الدواء القادر على تسكين وجعه. إن أمله بسكون الوجع، والعطف الذي تبديه أمه وهي تدلك موضع التورم يخففان من وطأة آلامه. كان الأطباء نافعين لناتاشا من حيث أنهم يعانقون موضع الألم أو «الواوا» ويدلكونه مؤكدين أنه سيزول على الفور إذا ذهب الحوذي إلى صيدلية «الأربات» ليشتري بروبل وسبعين كوبيكا مساحيق وأقراصاً في علبة جميلة، وإذا تناولت من هذه المساحيق مقداراً معيناً مذاباً في الماء المغلي، مرة كل ساعتين، لا أكثر ولا أقل.

ماذا كانت ستفعل «صونيا» وسيفعل الكونت والكونتيسة، وكيف كانوا سيطيقون البقاء مكتوفي الأيدي، لو لم يكن عليهم أن يعطوا «ناتاشا»، في ساعات محددة، الأقراص والأشربة الساخنة ومرق

الدجاج وكل وصفات الأطباء التي كان التقيد بها شغلهم وسلواهم؟ كيف كان يمكن للكونت أن يتحمل مرض ابنته العزيزة لولا علمه أن هذا المرض كان يكلفه آلاف الروبلات وأنه سيدفع آلافاً غيرها طائعاً راضياً لكي تشفى؛ ولولا علمه أنها إن لم تشف فلن يحجم عن إنفاق آلاف الروبلات أيضاً، ولن يتردد في اصطحابها إلى الخارج وعرضها على أساطين الطب؛ ولو لم يتح له أن يروي بالتفصيل أن «ميتيفييه» و«فيلر» لم يفقها شيئاً، على حين كان «فريز» أعظم فهماً منهما، وأن «مودروف»[1] شخص المرض خيراً منه؟ ماذا كانت الكونتيسة ستفعل لو لم يتح لها أن تخاصم، بين الحين والحين، ابنتها التي لم تكن تراعي وصفات الطبيب مراعاة دقيقة. كانت تقول لها بغضب ينسيها حزنها:

– لن تشفي أبداً إذا لم تصغي إلى الطبيب وإذا لم تتناولي الدواء في الوقت المحدد. لا يجوز المزاح في الوقت الذي يمكن للمرض أن يتحول فيه إلى ذات الرئة.

كانت تجد عزاء كبيراً وهي تنطق بهذه الكلمة التي لم تكن تفهمها لا هي ولا غيرها. وماذا كانت ستفعل «صونيا» لو لم تكن ترتاح إلى ما تحدث به نفسها من أنها قضت ثلاث ليال، في الأيام الأولى، دون أن تخلع ثيابها لكي تشرف على تنفيذ تعليمات الطبيب بحذافيرها، وأنها، إلى الآن، لا تكاد تذوق طعم النوم إلا لماماً، وذلك كيلا تفوتها الساعة التي تعطي فيها المريضة الأقراص، تلك الأقراص الطفيفة الأذى والموجودة في العلبة المذهبة الصغيرة. وحتى ناتاشا نفسها التي زعمت، عبثاً، أنه ما من علاج قادر على شفائها وأن كل ذلك ليس سوى حماقات، كانت تلتذ برؤية ما يُبذل لها من تضحيات، وبوجوب تناول العلاج في ساعة

١- هذه الأسماء الأربعة أسماء أطباء موسكوفيين، الأول فرنسي والثاني والثالث ألمانيان، والرابع روسي.

محددة، بل إنها كانت تجد لذة، وهي تتهاون بتعليمات الأطباء، في أن تظهر للملأ أنها لا تؤمن بالعلاج وأنها لا تحرص على الحياة.

كان الطبيب يزورها كل يوم، فيجس نبضها، وينظر إلى لسانها، ويمازحها، من غير أن يلقي بالاً إلى وجهها الذي نهكه المرض. ولكن عندما كان ينتقل إلى الغرفة المجاورة كانت الكونتيسة تلحق به على عجل، فيصطنع الجد ويهز رأسه مفكراً ويقول: إنه يعّول بالرغم من الخطر الماثل، على تأثير الدواء الأخير، وأنه لابد من الانتظار والتريث، وأن مرضها، على الأرجح، نفسي لكن.....

وكانت الكونتيسة تدس بيده، خلسة، قطعة ذهبية وتعود إلى جنب المريضة وهي أهدأ نفساً.

أما أعراض مرضها فهي أنها كانت تأكل قليلاً وتنام قليلاً وتسعل وأنها كانت خاملة دائماً. وكان الأطباء يقولون أنه لا يجوز ترك المريضة بدون عناية، ولذلك استبقوها في جو المدينة الخانق. ولم تذهب أسرة «روستوف» إلى الريف في صيف ١٨١٢.

وعلى الرغم من كثرة الأقراص والقطرات والمساحيق التي ابتلعتها «ناتاشا»، والتي كانت معبأة في قماقم وعلب صنعت منها السيدة «شوس»[١]، وهي هاوية لهذا الضرب من الأشياء، مجموعة كبيرة، ورغم حرمانها من الحياة التي تعودتها في الهواء الطلق، فقد كانت الغلبة للشباب: ذلك أن حزن «ناتاشا» كان يتغطى بطبقة من الانفعالات الجديدة، فخفّتْ شدته، وأُلقي به شيئاً فشيئاً في أحضان الماضي، وأخذت «ناتاشا» تتعافى جسدياً.

***

---

١ – السيدة «شوس» مربية ألمانية لدى آل روستوف.

الفصل السابع عشر

غدت «ناتاشا» أهدأ نفساً لكنها لم تغد أكثر مرحاً. فهي لم تكن تتحاشى فقط جميع مناسبات الفرح الخارجية: كالحفلات الراقصة والنزهات والحفلات الموسيقية والمسرح، بل إنها لم تكن تضحك قط إلا ترقرقت الدموع من خلال ضحكتها. و لم تكن تستطيع الغناء أيضاً. فما إن تبدأ بالضحك أو تحاول الغناء، بينها وبين نفسها، حتى تخنقها الدموع: دموع الندم، دموع مسفوحة على الماضي الذي مضى ولن يعود؛ دموع الغيظ لأنها هدرت حياتها الصاعدة الفتية التي كان يمكن أن تكون حافلة بالسعادة. كان الضحك والغناء، على الخصوص، يبدوان لها تدنيساً لحزنها. ثم إنها أعرضت عن الدلال والغنج من غير أن يشق ذلك عليها. كان تزعم وتحس أنها لا تأبه للرجال كما لا تأبه للمهرج «نستاسيا ايفانوفنا». كان صوت ضميرها يحرم عليها كل ألوان الفرح. وشتان بين حياتها الآن وحياتها قديماً، تلك الحياة الخالية من الهموم المليئة بالآمال. وكانت الذكرى التي تعاودها، في معظم الأحيان، والتي تؤلمها أشد الألم، ذكرى أشهر الخريف والصيد والعم وأعياد الميلاد التي قضتها مع «نيقولا» في «أوتدرادنوي». وكم كانت تعطي من أجل أن تُرجع ولو يوماً واحداً من تلك الأيام! لكنها مضت ولا سبيل إلى إرجاعها. و لم يخطئ حدسها حين حدثها أن هذه الحالة من الحرية ومن الاستعداد لجميع الأفراح لن تعود أبداً. لكن، كان يجب أن تعيش.

كانت تستمد بعض العزاء من تلك الفكرة وهي أنها ليست خيراً من الآخرين كما ظنت قديماً. بل إنها أسوأ، أسوأ من الناس جميعاً. لكن هذا العزاء لم يكن كافياً. كانت تعلم ذلك وتتساءل: «وبعد»؟. الحق أنه لم يكن هناك من شيء بعد الذي جرى. فلم تكن الحياة تخبئ لها أي فرح، وكانت الأيام تمضي. وكانت ناتاشا تبذل وسعها فقط لكي لا تثقل على أحد، ولا تضايق أحداً، ولا تطلب شيئاً لنفسها. كانت تعرض عن ذويها ولا تحس بالراحة إلا مع أخيها «بيتيا». وكانت تؤثر صحبته على صحبة الآخرين جميعاً؛ وكانت تضحك أحياناً عندما تخلو إليه، ولم تكن تغادر البيت تقريباً وكانت لا تحب أن ترى سوى بطرس فيمن يأتون زائرين. فلم يكن بمقدور أحد أن يبدي ما أبداه الكونت «بيزوخوف» من حنان ورقة ومن جد، في آن معاً. كانت «ناتاشا» تحس إحساساً غريزياً بهذا الحنان، ولذلك سرت سروراً عظيماً برفقته دون أن تعترف بجميله. إذ خيل إليها أن ما يأتيه بطرس من خير إنما يصدر عنه دون جهد ولا عناء. وبدا لها أنه لا فضل لبطرس حين يحسن إلى الناس جميعاً لأنه قد طبع على الإحسان طبعاً. وكانت «ناتاشا» تلاحظ أحياناً شيئاً من الاضطراب والارتباك عليه في حضرتها، ولاسيما حين يخاف أن يثير الحديث بعض ذكرياتها المؤلمة. كانت تلاحظ ذلك وتعزوه إلى طيب قلبه وإلى خجله الذي كان، في اعتقادها، هو نفسه مع الناس جميعاً. ومنذ تلك الكلمات التي أفلتت منه، في لحظة من لحظاتها العسيرة، عندما ترك نفسه على سجيتها وقال لها: إنه لو كان حراً لسألها يدها وحبها جاثياً على ركبتيه، لم يعد إلى الحديث عن عواطفه؛ وكان جلياً، بالنسبة إليها، أن هذه الكلمات التي شدت من عزيمتها آنذاك قد قيلت كما تقال جميع الكلمات الفارغة لترضية طفل يبكي. لا لأن بطرس متزوج، بل لأن «ناتاشا» أحست إحساساً قوياً بالحواجز النفسية بينهما، وهي حواجز لم تحس بها مع

«كوراجين»، ولأنه لم يخطر ببالها أن علاقاتهما يمكن أن تؤدي إلى الحب من قبلها أو من قبله خاصة، بل ولا إلى تلك الصداقة الرقيقة، الشاعرية، التي قد تقوم بين الرجل والمرأة من غير تحفظ والتي تعرف أمثلة كثيرة منها.

في نهاية صوم القديس بطرس، جاءت إلى موسكو «أجرافينا ايفانوفنا بيلوف»، وهي جارة أسرة روستوف في «أوترادنوي»، لزيارة الأماكن المقدسة الموسكوفية. وعرضت على «ناتاشا» أن تعترف وتتناول معها، فطارت فرحاً بهذا العرض. وبالرغم من أن الأطباء حظروا على «ناتاشا» الخروج مبكرة فقد أصرت على القيام بتلك الواجبات الدينية، لا على طريقة ذويها الذين يقتصرون على ثلاث صلوات في البيت، بل على طريقة «اغرافينا ايفانوفنا» التي لا تفوّت صلاة واحدة من صلوات الليل والسحر والنهار خلال أسبوع كامل.

سرت أمها بهذه الحماسة؛ لقد أمّلت من أعماق قلبها، بعد فشل العلاج الطبي، أن تكون الصلاة أجدى عليها من الأدوية فنزلت عند رغبة ابنتها وعهدت بها إلى السيدة «بيلوف»، في شيء من القلق، مخفية ذلك عن الطبيب. كانت «اغرافينا ايفانوفنا» تأتي لتوقظ «ناتاشا» في الساعة الثالثة صباحاً، فتجدها، في معظم الأحيان مستيقظة خوفاً من أن تفوتها الصلاة. وما إن تسوي زينتها على عجل وترتدي على نحو متواضع، أدنى أثوابها جمالاً، ولفاعاً قديماً حتى تخرج إلى الشوارع الموحشة التي ينيرها ضوء الفجر الشاحب، مرتعشة من برد الليل. وبناء على نصيحة «اغرافينا ايفانوفنا»، لم تكن «ناتاشا» تذهب إلى كنيستها المعهودة بل إلى كنيسة كان كاهنها يعيش، على حد قول السيدة «بيلوف» حياة متقشفة فاضلة. لم يكن يرتاد الكنيسة إلا القليل من المصلين؛ كانت «ناتاشا» والسيدة «بيلوف» تجلسان في مكانهما

المعتاد، أمام أيقونة العذراء، إلى يسار الجوقة، فيستولي عليها إحساس لم تعرفه من قبل، إحساس من الضعة أمام ما هو عظيم وما لا سبيل إلى بلوغه، حين تصغي، في هذه الساعة غير المعتادة، إلى الصلاة التي تجهد في متابعتها وتفهّمها، وهي تحدق في وجه العذراء المسودّ الذي تضيئه الشموع المشعلة أمامه وضوء الصباح المنساب من النافذة. فإذا فهمتها اختلطت صلاتها بعواطفها الصميمية في ظلالها وشياتها الخاصة، وإذا لم تفهمها أحست بفرح أعظم وهي تحدث نفسها بأن الرغبة في فهم كل شيء ضرب من الكبرياء، وأنه لا يمكن فهم كل شيء، وأنه ينبغي لنا فقط أن نؤمن وأن نسلم أمرنا لله الذي كانت تحس، في هذه اللحظات، أنه مالك نفسها. كانت ترسم إشارة للصليب وتنحني خاشعة، وعندما تعجز عن الفهم تكتفي، وقد هالتها خستها، بالتوسل إلى الله أن يغفر لها كل شيء وأن يرأف بها. أما الدعوات التي كانت تؤثر أن تسترسل فيها فكانت دعوات الندم.

وعند عودتها إلى البيت، في ساعة مبكرة جداً، حين تخلو الشوارع إلا من البنائين الذاهبين إلى عملهم، ومن الخادمات اللائي يكنسن قدام المنازل، وحين يكون الناس نياماً في بيوتهم، كانت «ناتاشا» تحس إحساساً لم تعهده من قبل، إحساساً حملها على الاعتقاد بإمكان النهوض من عثرتها، وبحياة جديدة نقية ملؤها السعادة.

كبر هذا الشعور يوماً بعد يوم طوال الأسبوع الذي عاشت فيه هذا اللون من الحياة. وبدت فرحتها بالتناول، أو بالتواصل مع الله كما كان يحلو لاجرافينا ايفانوفنا أن تقول بحماسة وهي تتلاعب بالألفاظ، عظيمة إلى الحد الذي خيل إليها معه أنها لن تتمكن من البقاء إلى ذلك الأحد السعيد.

ثم جاء اليوم السعيد، وعندما عادت «ناتاشا» من التناول في ذلك

الأحد الذي لن تنساه، بثوب الموصلي الأبيض، أحست، لأول مرة بالسكينة تشيع في نفسها وبأن الحياة التي تنتظرها لم تعد عبئاً عليها.

فحص الطبيب الذي جاء في هذا اليوم «ناتاشا» وأمرها بأن تستمر في تناول المسحوق الذي وصفه قبل خمسة عشر يوماً. فقال لها وقد بدا عليه أن وجدانه المسلكي مرتاح للنجاح الذي أحرزه:

- يجب حتماً أن تستمر في تناوله صبحاً ومساء. لكن، بدقة أكبر أرجوك.

وأضاف مداعباً وهو يقبض على القطعة الذهبية في راحته:

- لا تخافي، أيتها الكونتيسة، فعما قليل ستعود إلى غنائها ومرحها. لقد أفادها العلاج الأخير كثيراً، كثيراً جداً، فتحسن وجهها.

ولكي تتفادى الشؤم وتطرد النحس بصقت الكونتيسة وهي تنظر إلى أظفارها ثم عادت إلى القاعة باشة.

***

الفصل الثامن عشر

في مطلع تموز، انتشرت في موسكو شائعات مثيرة للقلق المتزايد عن سير العمليات. فتحدث الناس عن نداء الإمبراطور للشعب وعن قدومه من الجيش. ولما لم يتلقَّ أحد حتى الحادي عشر من تموز بياناً أو إعلاناً فقد راجت شائعات مبالغ فيها بهذا الصدد وبصدد وضع روسيا. كان يقال إن الإمبراطور ترك الجيش لأن الجيش في خطر، وكان يقال إن سمولنسك سقطت، وإن لدى نابليون مليون رجل، وإن المعجزة وحدها قادرة على إنقاذ روسيا.

وفي يوم السبت الحادي عشر من تموز، وصل البيان، لكنه لم يكن مطبوعاً بعد؛ وكان بطرس يزور في هذا اليوم أسرة «روستوف» فوعد أن يأتي إلى الغداء في اليوم التالي، يوم الأحد، وأن يحمل معه البيان والإعلان اللذين سيحصل عليهما من الكونت «روستوبتشين».

في هذا الأحد ذهب آل روستوف، على عادتهم، إلى الصلاة في كنيسة «رازو موفسكي» الخاصة. كان النهار قائظاً. ومنذ الساعة العاشرة، عندما نزلوا من العربة أمام الكنيسة، كان الهواء اللافح، وصرخات الحمالين، وثياب الجمهور الفاتحة، وأشجار الشارع المغبرة، ونغمات الموسيقا، والسراويل البيضاء التي ترتديها كتيبة تقوم بتبديل الحرس، وهدير العربات على البلاط، وحرارة الشمس الساطعة،

كان كل ذلك يبعث على الشعور بالفتور والرضى بما كُتب وبالخيبة وهو شعور يحس به المرء إحساساً عاتياً في مثل هذا النهار الحار من صيف المدينة. كان أشراف موسكو بأسرهم، ومعارف آل روستوف جميعاً، متجمعين في كنيسة «رازوموفسكي» (كثير من الأغنياء الذين اعتادوا أن يذهبوا إلى أملاكهم ظلوا هذه السنة في المدينة، انتظاراً لما قد يحدث). وبينما كانت «ناتاشا» تتبع، إلى جانب أمها، خادماً بثيابه الرسمية يفسح الطريق لهما، سمعت شاباً يتحدث عنها إلى آخر في همس مسموع بعيد عن التحفظ:

– هذه هي الآنسة روستوف التي...

– ما أكثر نحولها، إلا أنها جميلة!

وسمعت أو ظنت أنها سمعت اسمي «كوراجين» و«وبولكونسكي». وعلى كل حال، كان هذا الشعور ملازماً لها. كان يخيل إليها دائماً أن الناس إذا رأوها لم يفكروا بغير ما وقع لها. كانت تسير بثوبها الحريري الخبازي الموشى بتخريمة سوداء، منقبضة الصدر، كعادتها عندما تكون بين الناس، كما تمشي النساء العارفات، مشية فيها من الهدوء والجلال بقدر ما في أعماق قلبها من الإحساس بالشقاء والخجل.

كانت تعلم أنها جميلة، ولم تكن مخطئة. ولكنها لا تبتهج بجمالها الآن كما كانت تبتهج به من قبل. بل إن هذا هو الذي كان يعذبها دون غيره في هذه الآونة الأخيرة، ولاسيما في مثل هذا اليوم القائظ، الساطع من أيام الصيف في المدينة. كانت تقول في نفسها وهي تتذكر أنها جاءت إلى هذا المكان في الأحد السابق: «ها هو ذا أحد آخر يمر، أسبوع آخر يمر، والحياة ماتزال كما كانت وهي لا تُعد حياة –، وظروف

الحياة ماتزال كما كانت، وكان العيش فيها سائغاً من قبل. إنني جميلة وشابة، وقد أصبحت خيرة؛ كنت سيئة من قبل أما الآن فأنا خيرة، إنني أعلم ذلك، وأعلم أن أفضل السنوات تمر هباء منثوراً لا ينتفع بها أحد». وجلست قرب أمها وحيت برأسها بعض معارفها القريبين منها. ثم تفحصت، بحكم العادة، زينة النساء وانتقدت لباس امرأة قريبة منها وطريقتها النابية السريعة في رسم إشارات الصليب، وفكرت بغيظ مرة أخرى في أن الناس كانوا يدينونها مثلما كانت تدينهم هي أيضاً، وفجأة سمعت كلمات القداس فهالتها خستها وهالها أنها فقدت نقاءها القديم مرة أخرى.

كان بين الحاضرين شيخ قصير وقور الطلعة، حسن الهندام، يحتفل بالقداس احتفالاً عليه تلك السكينة المهيبة التي تدخل الأمن والسمو إلى نفوس المؤمنين. ثم أغلقت أبواب المحراب وأسدل الستار ببطء، ووافى من الداخل صوت خافت خفي فامتلأ قلب ناتاشا بالدموع التي لم تعرف لها سبباً وهزتها الانفعالات الفرحة. وابتهلت: «علّمْني ما الذي ينبغي أن أفعله، ماذا أفعل بحياتي، وكيف أصلح نفسي إلى الأبد، إلى الأبد!».

تقدم الشماس إلى المنبر ورفع بإبهامه المنفرجة شعره الطويل من تحت جبته وحرك يده لرسم إشارة الصليب وأخذ يرتل بصوت عال ومهيب كلمات القداس: «بسلام من الرب نطلب» وفكرت «ناتاشا»: «لنُصلِّ جميعنا، من دون تمييز بين الطبقات، من دون كراهية، بل متحدين في الحب الأخوي»[1].

«من أجل السلام في الأعالي ومن أجل خلاص نفوسنا» وتضرعت

١- إن كلمة «مير» تعني في الروسية «السلام» و«العالم». ولذلك فعندما قال الشماس «بسلام من الرب نطلب» فهمت ناتاشا: «في كل العالم».

«ناتاشا»: «من أجل عالم الملائكة وأرواح الكائنات غير المادية التي تعيش فوقنا».

وعندما صلى الكاهن من أجل الجيوش تذكرت أخاها و«دينيسوف» وعندما صلى من أجل المسافرين في البر والبحر تذكرت الأمير آندريه، وصلت له، ودعت الله أن يغفر لها إساءتها له. وعندما صلى من أجل الذين يحبوننا صلت من أجل ذويها، من أجل أمها وأبيها و«صونيا»، وقد أدركت لأول مرة أخطاءها تجاههم وأحست بقوة الحب الذي تكنه لهم. وعندما صلى من أجل الذين يبغضوننا فتشت عن أعدائها لكي تصلي من أجلهم. وعدت من بين الأعداء دائني أبيها والمتعاملين معه، وتذكرت، وهي تفكر بالأعداء وبمن يبغضوننا، «آناتول» الذي أساء إليها كثيراً وصلت له بفرح. كما تصلي للعدو، مع أنه ليس ممن يكرهها. كانت، أثناء الصلاة وحدها، تحس بالشجاعة في أن تستعيد بهدوء وبرباطة جأش ذكرى الأمير آندريه و«كوراجين»؛ وكانت عواطفها إزاءهما آنذاك تمحي أمام خشيتها لله وعبادتها له. وعندما صلى للعائلة الإمبراطورية وللمجمع الكنسي المقدس رسمت إشارة الصليب وانحنت بورع بالغ وقالت في نفسها: إنها وإن لم تفهم ما المجمع المقدس فإنها لا يمكن أن تشك فيه وأنها تحبه على كل حال وتصلي من أجله.

وعندما انتهت الصلاة وضع الشماس صدارته الكهنوتية وقال: «لنسلم نفوسنا وحياتنا للمسيح إلهنا».

ورددت «ناتاشا» في أعماق قلبها: «لنسلم نفوسنا لله. رباه، إنني أسلم نفسي لمشيئتك. لست أريد شيئاً ولا أشتهي شيئاً؛ علمني ما الذي ينبغي أن أفعله وكيف أستخدم إرادتي!

خذني بيديك، خذني!».

قالت ذلك، وفي نفسها حرقة، ودون أن ترسم إشارة الصليب، مسبلة ذراعيها النحيفتين وكأنما كانت تنتظر أن تمسك بها قوة خفية فتخلصها من ذاتها، من أسفها ورغباتها وندمها وآمالها وعيوبها.

وأثناء القداس، ألقتْ الكونتيسة، بالرغم منها، نظرات على وجه ابنتها المستغرق في تأمله، ذي العينين البراقتين، وابتهلت إلى الله أن يكون في عونها.

وفجأة، وفي وسط القداس، حمل خادم الكنيسة مقعداً صغيراً، وهو المقعد الذي تقرأ عنده الصلوات ركوعاً في عيد العنصرة، ووضعه أمام أبواب المذبح، خلافاً لمألوف القداس اليومي الذي تعرفه «ناتاشا» جيداً. وخرج الكاهن، وعلى رأسه قلنسوة من المخمل البنفسجي، فسوى شعره وجثا على ركبتيه بمشقة. واحتذى به المصلون ونظر بعضهم إلى بعض في دهشة. كانت تلك هي الصلاة التي أرسلها المجمع المقدس، من أجل خلاص روسيا التي غزاها العدو.

بدأ الكاهن صلاته بصوت واضح متواضع، خال من التكلف، صوت لا يملكه إلا الكهنة السلافيون، ولا قِبَل للقلوب الروسية بمقاومة تأثيره:

«أيها الرب، القادر على كل شيء، يا إله خلاصنا! إلق اليوم نظرة برحمتك وكرمك على عبيدك المتواضعين واصغ إلينا بحب، احمنا وتحنن علينا. إن العدو الذي يعيث فساداً في أرضك والذي يريد أن يدمر العالم قد هب لمحاربتنا؛ إن هؤلاء الكفرة تجمعوا ليبيدوا ملكك، وليخربوا قدسك المخلصة، روسيا حبيبتك، وليدنسوا معابدك، وليقلبوا مذابحك، وليحرقوا مقدساتك. إلى متى، أيها السيد، إلى متى ينتصر الخطاة؟ إلى متى يستخدمون قوتهم الغاشمة؟

أيها الرب القادر على كل شيء! اصغ لصلواتنا: اسند بقوتك مليكنا العظيم، الورع، الإمبراطور «الكسندر بافلوفتش»؛ تذكر استقامته ووداعته، عاملنا بمثل ما يعاملنا به من حلم ورفق، نحن شعبك الحبيب. بارك قراراته ومشاريعه ومبادراته؛ ودعم ملكه بيمينك القادرة على كل شيء وامنحه النصر على عدوه كما منحت الأنبياء من قبل. احم جيوشه وضع القوس النحاسي في أيدي الذين يحاربون باسمك وحصنهم بقوتك من أجل القتال. احمل سلاحك وترسك وأنجدنا لكي يحل العار والهزيمة بالذين يريدون بنا الشر، وليكونوا أمام جيوشك المخلصة كالغبار أمام الريح، وليخزهم ملاكك القوي وليطاردهم؛ لتحط بهم الحبائل من غير أن يتوهموا ذاك، وليقعوا في الأشراك التي نصبوها؛ ليسقطوا بين أقدام خدامك ولتدسهم جيوشنا. أيها الرب! أنت خلاص الكبير والصغير. أنت الإله، والإنسان عاجز قدامك.

يا إله آبائنا! اذكر كرمك ونعمتك الأبديين، لا تطردنا من وجهك ولا تعرض عنا بسبب دناءتنا وتجاوز عن آثامنا وخطايانا بعظيم رحمتك وآلائك. هبنا قلباً نقياً وجدد في صدرنا روح الاستقامة؛ قونا جميعاً في الإيمان بك، ثبتنا بالرجاء، ألهمنا المحبة الحقة فيما بيننا، سلحنا بالإجماع للدفاع المشروع عن الميراث الذي منحتنا إياه، نحن وآباءنا، ولا يرتفعنّ صولجان الكفار في مقر المصطفين.

أيها الرب إلهنا الذي نؤمن به ونرجوه، لا تخيب رجاءنا لرحمتك، وأنزل علينا آية من آياتك لكي يراها الذين يكرهوننا، نحن وعقيدتنا الأرثوذكسية، ولكي يغشاهم الخزي والهلاك؛ ولتعلم جميع الأمم أنك الرب وأننا شعبك. أظهر نعمتك علينا وامنحنا خلاصك؛ فرّح قلب عبيدك بنعمتك، اضرب أعداءنا وإلق بهم بين أقدام المؤمنين بك. لأنك

أنت الملجأ والعون والنصر للذين وضعوا رجاءهم فيك، نمجّد الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين».

إن الحال التي كانت عليها ناتاشا حينذاك والتي كانت نفسها فيها متفتحة لكل شيء أتاحت لهذه الصلاة أن تهزها هزاً عميقاً. كانت تصغي إلى كل كلمة من كلمات الكاهن وتصلي بحنان وورع امتلأ بهما قلبها؛ لكنها لم تكن تدرك ما الذي تطلبه إلى الله في صلاتها. لقد شاركت بكل جوارحها في الصلاة من أجل أن يهبنا الله روح الاستقامة، ومن أجل تثبيت قلوبنا بالإيمان والرجاء وإلهامها المحبة. إلا أنه لم يكن بوسعها أن تصلي من أجل هلاك أعدائنا، لأنها كانت ترغب، قبل لحظات، في المزيد منهم لكي تحبهم وتصلي لهم؛ و لم يكن بوسعها الشك في صحة الصلاة التي صلاها الناس ركوعاً. كانت تحس في نفسها برهبة مقدسة راعشة أمام العقاب الذي ينزل بالناس جزاء ما اقترفوا من ذنوب، ولاسيما أمام ذنوبها هي، وتطلب إلى الله أن يغفر للجميع ولها، وأن يهب الجميع ويهبها الطمأنينة والسعادة في هذه الحياة. وخيل إليها أن الله كان يسمع دعاءها.

***

الفصل التاسع عشر

منذ اليوم الذي تأمل فيه بطرس ذلك المذنّب في السماء، إذ هو عائد من منزل آل «روستوف» وكان مايزال واقعاً تحت تأثير نظرة «ناتاشا» المتنة، وشعر بشيء جديد ينفتح أمامه، انزاحت عنه تلك المشكلة التي طالما أرّقته: وهي أن كل ما في الأرض باطل وعبث.

إن هذا السؤال الرهيب: «لماذا؟ ما جدوى ذلك؟» الذي كان يبرز في كل من مشاغله، قد أخلى مكانه الآن، لا لسؤال آخر ولا لجواب عن السؤال، بل لصورتها «هي». وسواء أكان يصغي إلى حديث مبتذل أم كان يحدثه هو نفسه، وسواء أكان يقرأ عن دناءة أو حماقة أم كان يعلم بهما، فإن شيئاً من ذلك لم يكن يهوله كسابق عهده. صار لا يتساءل: لماذا يضطرب الناس عندما يكون كل شيء قصيراً، محفوفاً بالشك، لكنه كان يستعيد صورتها كما رآها في آخر مرة فتتلاشى شكوكه، لا لأنها تجيب عن السؤال المطروح عليه، بل لأن صورتها كانت تنقله مباشرة إلى تلك المنطقة المضيئة من الحياة الروحية التي لا يمكن أن يكون فيها عادل ومذنب، ومنطقة الجمال والحب اللذين من أجلهما تستحق الحياة أن نحياها. ومهما تكن الخسة التي كان يلقاها في الحياة فإنه كان يقول في نفسه:

ماذا يهمني من أن يسرق فلان الدولة والقيصر وأن يغدق عليه القيصر

والدولة الأمجاد؛ لقد ابتسمت لي أمس ورجتني أن أعود، وأنا أحبها، ولن يعرف ذلك أحد أبداً

ظل بطرس يرتاد الحفلات العامة ويكثر من الشراب ويحيا حياته العاطلة المنحلة، ذلك أنه كان عليه أن يقضي البقية من وقته، بعد الساعات التي يقضيها عند آل «روستوف»، وأن عاداته وعلاقاته التي أنشأها في موسكو كانت تسوقه سوقاً إلى هذا اللون من الحياة.

ولكن عندما أخذت أنباء الحرب، في الآونة الأخيرة، تنذر بالخطر المتزايد، وعندما لم يبق لدى ناتاشا التي أخذت صحتها تتحسن، ما يثير ذلك الشعور بالشفقة المفعمة بالرعاية، استولى عليه قلق متزايد لم يجد إلى فهمه سبيلاً. كان يحس أن هذه الحياة لا يمكن أن تستمر وأن كارثة خليقة بأن تقلب حياته قلباً تقترب، وكان يسعى إلى اكتشاف إماراتها بفارغ الصبر. وقد أطلعه أحد أخوته الماسونيين على النبوءة التالية المتعلقة بنابليون، والمأخوذة من رؤيا يوحنا اللاهوتي.

جاء في الإصحاح الثالث عشر من الرؤيا، الآية الثامنة عشرة: «هنا الحكمة. من له فهم فليحسب عدد الوحش[1] فإنه عدد إنسان. وعدده ستمائة وستة وستون».

وجاء في الإصحاح نفسه، الآية الخامسة: «وأعطي فماً يتكلم بعظائم وتجاديف وأعطي سلطاناً أن يفعل اثنين وأربعين شهراً».

فلو صنّفنا الأبجدية الفرنسية على أساس حساب الجمل حيث تكون الأحرف العشرة الأولى موازية للآحاد والأحرف العشرة الثانية موازية

١– كانت بعض الحلقات الروسية تعتبر أن نابليون هو وحش الرؤيا اللاهوتية وأنه هو المسيح الدجال.

للعشرات[1]، ثم كتبنا بالأرقام وفق هذه الأبجدية، كلمتي: الإمبراطور نابليون، لوجدنا أن مجموع هذه الأعداد يساوي ٦٦٦، ومن ثم، فإن نابليون هو الوحش الذي تنبأت به الرؤيا. وفضلاً عن ذلك، فلو كتبنا؛ بحسب هذه الأبجدية، كلمة «اثنين وأربعين» وهي الميعاد الذي عين للوحش كي «يتكلم بعظائم وتجاديف» لكان مجموع الأرقام أيضاً مساوياً ٦٦٦، ومن هنا ينتج أن نهاية سلطان نابليون ستكون في سنة ١٨١٢ وهي السنة التي يبلغ فيها امبراطور فرنسا اثنين وأربعين سنة. لقد أدهشت هذه النبوءة بطرس كثيراً، وغالباً ما كان يتساءل عمن يستطيع أن يضع حداً لسلطان الوحش أي نابليون، وكان يحاول أن يجد جواباً للسؤال الذي يشغله بواسطة تمثيل الأحرف بأرقام وحسابها. وكتب أولاً: الإمبراطور الكسندر؟ ثم: الأمة الروسية؟ وجمع الأحرف، لكن المجموع كان أكبر من ٦٦٦ أو أقل. وكتب ذات مرة، وهو منهمك في هذه الحسابات، اسمه: الكونت بطرس بيزوخوف؛ فكان المجموع أيضاً بعيداً عن الرقم المطلوب. وبدل بعض الأحرف فوضع حرف «ز» محل حرف «س» وأضاف علامة الإضافة، ثم أضاف «الـ» التعريف، لكنه لم يحصل على النتيجة المرجوة. وخطر بباله حينئذ أنه إذا كان جواب السؤال في اسمه فيجب أن تذكر جنسيته. وكتب: «الروسي بيزوخوف»، وعندما جمع الأرقام حصل على ٦٧١. أي بفرق ٥، وهذا الرقم ٥ يمثل حرفاً ليناً هو حرف (E) وهو الحرف الذي حذف في كلمة الإمبراطور منعاً لالتقاء الساكنين. وعندما حذفه تجاوزاً حصل

١- والجدول هو التالي:

a	b	c	d	e	f	g	h	i	k	l	m	n
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠
o	p	q	r	s	t	u	v	w	x	y	z	
٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	١١٠	١٢٠	١٣٠	١٤٠	١٥٠	١٦٠	

على الجواب المطلوب: «الروسي بيزوخوف» يساوي ٦٦٦. وهزه هذا الاكتشاف. كيف يرتبط هو بهذا الحدث الكبير الذي تنبأت به الرؤيا، وبأي رباط يرتبط، لقد كان يجهل ذلك. لكنه لم يشك قط في وجود هذا الرباط. إن حبه للآنسة «روستوف»، والمسيح الدجال، وغزو نابليون، والمذنب، والرقم ٦٦٦، والإمبراطور نابليون، والروسي بيزوخوف، كل ذلك سينضج وسينفجر ذات يوم وسينتزعه من هذا العالم المسحور الخسيس، عالم العادات المسكوفية الذي أحس أنه حبيس فيه ليقوده إلى امتحان مجيد وسعادة عظيمة.

في ليلة الأحد الذي تليت فيه الصلاة، كان بطرس قد وعد أسرة «روستوف» أن يحمل إليهم من عند الكونت «روستوبتشين» الذي يعرفه معرفة حسنة النداء إلى روسيا وآخر أنباء الحرب. وفي الصباح مر على الكونت فوجد عنده ناقلاً للبريد وصل لتوه من الجيش.

كان هذا الناقل من الراقصين المواظبين على حضور الحفلات الراقصة في موسكو وممن يعرفهم «بطرس».

قال ناقل البريد:

– هلا خففت عني من حملي، أرجوك. فلدي كيس مملوء بالرسائل للأقارب.

كان بين الرسائل رسالة من «نيكولا روستوف» لأبيه، فأخذها بطرس. ثم إن الكونت «روستوبتشين» أعطاه نداء الإمبراطور لموسكو الذي طبع حديثاً وآخر الأوامر اليومية في الجيش وآخر بيان له. وبينما كان يتصفح الأوامر اليومية رأى في إحدى اللوائح التي تضم أسماء القتلى والجرحى والجوائز الممنوحة، اسم «نيكولا روستوف» الحائز على وسام «سان جورج» من الدرجة الرابعة للبسالة التي أبداها في

معركة «أوستروفنا»، واسم آندريه بولكونسكي الذي عين آمراً لأحد أفواج القناصة. ومع أن بطرس لم يشأ أن يذكر أسرة روستوف باسم «بولكونسكي» إلا أنه لم يستطع أن يمتنع عن إبلاغهم النبأ المفرح، نبأ الوسام الذي مُنحه ابنهم، فحمل إليهم الرسالة والأمر اليومي تاركاً في البيت النداء والإعلان والأوامر اليومية الأخرى، على أمل أن يحملها معه وقت الغداء.

إن حديثه مع الكونت «روستوبتشين»، وما بدا عليه من انهماك وجد، ولقاءه مع ناقل البريد الذي تحدث بغير اكتراث، عن سوء الأحوال في الجيش، وعن شائعة اكتشاف الجواسيس في موسكو، وعن ورقة تناقلها الناس مفادها أن نابليون وعد بأن يكون قبل الخريف في العاصمتين الروسيتين، وعن وصول الإمبراطور قبل الموعد بيوم، كل ذلك ابتعث بقوة في نفس بطرس هذا الانفعال وهذا الترقب اللذين لم يفارقاه منذ ظهور المذنب، ومنذ بداية الحرب خاصة.

كانت فكرة الانخراط في الجيش تراوده منذ زمن بعيد، وكان خليقاً أن يفعل ذلك لولا أن منعه منه انتسابه إلى المحفل الماسوني الذي أقسم يمين الولاء له والذي كان يبشر بالسلم الدائم وبإلغاء الحروب، ولولا خجله من أن يفعل مثلما فعل كثير من الموسكوفيين الذين ارتدوا الزي العسكري وأخذوا يمجدون الوطنية. على أن السبب الرئيسي الذي كان يحول بينه وبين الالتحاق بالجيش كان يكمن في تلك الفكرة الغامضة وهي أنه هو «الروسي بيزوخوف» الذي يمثل عدد الوحش ٦٦٦، وأن مشاركته في العمل الأكبر الذي سيضع حداً لسلطان الوحش «المتلفظ بعظائم وتجاديف» قد تقررت منذ الأزل، وأن عليه ألا يباشر شيئاً بل أن ينتظر ما قدر له أن يتم.

***

الفصل العشرون

كانت أسرة «روستوف» تستقبل على مائدتها كعادتها في كل أحد، بعض الأصدقاء الخلص.

وصل بطرس مبكّراً، ليلقى أفراد الأسرة وحدهم.

لقد ضَخُم كثيراً منذ سنة، وكان سيبدو هائلاً، مُنكراً، لو لم يكن طويلاً، قوياً، عريض المنكبين إلى الحد الذي أتاح له أن يتحمل سمنته بيسر.

صعد السلّم، وهو يلهث ويدمدم بشيء بينه وبين نفسه. ولم يكن حوذّيه يسأل إن كان عليه أن ينتظر. لأنه كان يعلم أن الكونت يظل إلى منتصف الليل عندما يكون في زيارة أسرة «روستوف». هُرع الخدم فرحين ليساعدوه على خلع معطفه وليأخذوا منه عصاه وقبعته، وكان يتركهما في البهو، كما يفعل في النادي.

كانت «ناتاشا» أوّل من رأى في بيت آل روستوف. بل إنه سمعها وهو يخلع معطفه في البهو قبل أن يراها. كانت تتدرب على الغناء في قاعة الرقص. وكان يعلم أنها انقطعت عنه منذ مرضها، ولذلك فقد أحدث رنين صوتها في نفسه مفاجأة سارة. فتح الباب برفق ورأى «ناتاشا» بثوبها الخبازي الذي ارتدته في الصلاة تروح وتجيء وهي تغني. كانت تدير ظهرها فلما استدارت بغتة وشاهدت وجهه الضخم المدهوش احمرت خجلاً وأسرعت إليه قائلة:

– إني أحاول أن أعود إلى الغناء.

وأضافت كالمعتذرة:

– والغناء مشغلة نقضي بها الوقت، على كل حال.

– أنت على حق.

وتابعت كلامها بتلك الحيوية القديمة التي لم يرها فيها منذ زمن طويل:

– كم أنا مسرورة بمجيئك! أنا جد سعيدة اليوم! لقد نال «نيكولا» وسام «سان جورج» وأنا فخورة به.

– أعلم ذلك. فأنا أرسلت إليكم الأمر اليومي. لكني لا أحب أن أزعجك.

قال ذلك واتجه إلى قاعة الاستقبال.

قالت وهي تحمرّ خجلاً وتنظر إليه مستفهمة دون أن ترفع بصرها عنه:

– كونت، أمخطئة أنا إذ أغني؟

– كلا... ولم تخطئين؟ على العكس... لكن لِمَ تسألينني عن ذلك؟

فأجابت «ناتاشا» بحرارة:

– لست أدري، لكني لا أحب أن أفعل ما لا يعجبك؟ إني أثق بك ثقة مطلقة. أنت لا تعلم مدى أهميتك عندي وأهمية كل ما فعلته من أجلي! (كانت تتكلم بسرعة ولم تلاحظ أن بطرس احمرّ خجلاً لهذه الكلمات). رأيت في اللائحة نفسها اسمه أيضاً، «بولكونسكي» (ولفظت هذا الاسم بعجلة وبصوت خفيض) في روسيا، وقد عاد إلى الخدمة.

ثم سألته بحرارة وعجلة خشية أن تخونها قواها:

– ما رأيك؟ هل يصفح عني ذات يوم؟ وهل يظل حاقداً؟ ما رأيك في ذلك؟ ما رأيك؟

قال بطرس:

– رأيي... أنك لم تفعلي ما يستوجب صفحه... ولو كنت مكانه...

وبسبب من تداعي الذكريات انتقل على الفور إلى الفترة التي قال لها فيها وهو يواسيها: إنه لو لم يكن على ما هو عليه، ولو كان خير الناس، ولو كان حراً، إذن لطلب يدها جاثياً، فاستولى عليه نفس – الشعور بالشفقة والحنان والحب واندفعت إلى شفتيه الكلمات نفسها. لكنها لم تمهله كي يقولها.

قالت وهي تصر على لفظة «أنت»:

– نعم، أنت... أنت.... أنت شيء آخر. فأنا لا أعرف شخصاً خيراً منك ولا أكرم منك، ولن يوجد مثل هذا الشخص. ولو لم تكن بقربي آنذاك، ولولا أنك بقربي الآن لما علمت ما عسى أن يحلّ بي، لأن....

وطفرت الدموع فجأة من عينيها، وأشاحت بوجهها وخبّأته بدفتر الموسيقا، ثم عادت إلى الغناء والتمشي في الغرفة.

في هذه اللحظة أقبل «بيتيا» من قاعة الاستقبال مسرعاً.

كان «بيتيا» قد أصبح فتى جميلاً في الخامسة عشرة من عمره، متورّد الخدين، ذا شفتين غليظتين حمراوين، شبيهاً بأخته ناتاشا. كان يستعد لدخول الجامعة لكنه قرر سراً، منذ فترة هو وصديقه «أوبولنسكي» أن ينخرطا في سلك الفرسان.

أسرع «بيتيا» إلى سميه ليحدثه عن قضيته.

كان قد طلب إليه أن يسأل له إن كان مقبولاً في سلاح الفرسان.

وتابع بطرس طريقه دون أن يصغي إلى «بيتيا». فجذبه هذا من ذراعه منبِّهاً له وقال:

– قل لي، بالله عليك، أين أصبحت قضيتي، يا «بطرس كيريليتيش». فأنت أملي الوحيد.

– آه، نعم! قضيتك! الفرسان! سأسعى لك في ذلك، سأسعى في ذلك اليوم.

وسأله الكونت الشيخ:

– هل البيان معك؟ لقد ذهبت الكونتيسة إلى الصلاة في كنيسة آل «رازوموفسكي» واستمعت إلى الصلاة الجديدة. وهي ترى أنها بالغة الجمال.

وأجاب بطرس

– نعم، البيان معي، سيصل الإمبراطور غداً.... وسيُعقد اجتماع غير عادي للنبلاء. ويجري الحديث عن تجنيد عشرة في الألف في الواقع، أهنّئك.

– نعم، نعم، الحمد لله! والحرب، ما أنباؤها؟

أجاب بطرس:

– يبدو أننا تراجعنا أيضاً إلى «سمولنسك».

قال الكونت:

- يا إلهي، يا إلهي! وأين البيان؟

- الإعلان! آه نعم!

وفتّش بطرس في جيوبه فلم يجد الأوراق. وقبّل يد الكونتيسة التي دخلت آنذاك، وهو يتابع جس جيوبه، وألقى حواليه نظرات قلقة، وكأنه ينتظر «ناتاشا» التي كفّت عن الغناء ولم تظهر في القاعة. وقال:

- في الحق، إنني لا أعرف ماذا جرى لتلك الأوراق.

قالت الكونتيسة:

- هذا دأبه، إنه يُضيع دائماً كل شيء.

دخلت «ناتاشا»، وعلى وجهها أمارات الرقة والانفعال، وجلست وهي تنظر إلى بطرس دون أن تقول شيئاً. ومنذ أن دخلت تهللت أسارير بطرس الذي كان مقطباً، ونظر إليها مرات وهو يتابع بحثه عن الأوراق.

- سأذهب للبحث عنها. فلابد أنني نسيتها في البيت. حقاً...

- لكنك ستتأخر عن موعد الغداء.

- آه! نسيت أن الحوذيّ انصرف!

لكن صونيا التي ذهبت لتفتش عن الأوراق في البهو وجدتها في قبعة بطرس حيث كان قد دسها بعناية تحت بطانتها. أراد بطرس أن يبدأ بقراءتها فقال له الكونت الذي بدا عليه أنه يتوقع متعة عظيمة من قراءتها:

- لا، دع قراءتها إلى ما بعد الغداء.

وأثناء الغداء الذي شربوا فيه الشمبانيا على شرف فارس «سان جورج» الجديد، روى «شنشين» أنباء المدينة، ومرض الأميرة الجيورجيّة العجوز واختفاء «ميتيفييه» وقصة ألماني جيء به إلى «روستوتبشين» باعتباره جاسوساً (هذا ما رواه روستوتبشين نفسه) ثم أطلق روستوتبشين سراحه قائلاً للجمهور: إنه ليس جاسوساً بل إنه لا يعدو أن يكون عجوزاً ألمانياً أحمق.

قال الكونت:

إنهم جادون في القبض عليهم، وطالما قلت للكونتيسة ألا تتكلم الفرنسية. فليس هذا أوان الكلام بالفرنسية.

فقال شنشين:

- أتعلمون أن الأمير «جوليَنسين» عيَّن مدرساً يدرسّه اللغة الروسية. أصبح الكلام بالفرنسية في الشوارع مَدْعاة للخطر.

- وأنت، أيها الكونت بطرس كيريليتش[1]، لابد لك من امتطاء جوادك عندما يؤخذ المتطوعون؟

كان بطرس مستغرقاً في صمته وتفكيره طوال الغداء. فلما سمع هذه الكلمات نظر إلى الكونت، وكأنه لم يفهم سؤاله، وقال:

- نعم، نعم، الذهاب إلى الحرب، كلا! سأكون محارباً هزيلاً! كل شيء، على أية حال، غريب، شديد الغرابة، ولست أفقه شيئاً بعد مما يجري. لست أدري، فأنا قليل الميل إلى الأمور العسكرية، ولكن لا يستطيع أحد أن يضمن شيئاً في هذه الأيام.

١- بطرس كيريليتش: صيغة مختصرة وشائعة بدلاً من كيريلوفتش.

بعد الغداء استلقى الكونت على أريكة، ورجا، بلهجة رصينة «صونيا» المعروفة بأنها قارئة ممتازة، أن تقرأ النداء.

أخذت صونيا تقرؤه بصوتها النحيف قراءة متأنية:

«إلى موسكو، عاصمتنا الأولى.

لقد اجتاز العدو الحدود الروسية بقوات ضخمة. إنه يأتي ليدمّر وطننا الغالي...»

كان الكونت يصغي، مغمض العينين، متنهداً عند بعض المقاطع.

وكانت ناتاشا تجلس جلسة معتدلة وتلقي نظرة متفحصة على أبيها تارة وعلى بطرس تارة أخرى.

وكان بطرس يحسّ بنظرتها مستقرة عليه فيسعى ألا يلتفت إليها. وكانت الكونتيسة تهز رأسها استنكاراً واستياء عند العبارات المفخّمة من البيان. ذلك أنها رأت في كل كلمة من كلماتها تأكيداً لبعد المخاطر التي تهدد ابنها عن الانتهاء. أما «شنشين» فقد افترّ فمه عن بسمة ساخرة، وكأنما كان يتهيأ للهزء بطريقة «صونيا» في القراءة، عند أول فرصة تؤاتيه وبما سيقوله الكونت، بل وبالنداء ذاته، إن لم يجد ذريعة أخرى أدعى إلى هزئه.

وبعد أن تلت «صونيا» المقاطع المتعلّقة بالأخطار التي تهدّد روسيا، وبالآمال التي يبنيها الإمبراطور على موسكو، ولاسيما على نبلائها الأمجاد، قرأت الكلمات الأخيرة، وفي صوتها ارتجاف مردّه قبل كل شيء إلى طريقة إصغاء الحاضرين:

«لن نلبث طويلاً حتى نكون في وسط شعبنا، في هذه العاصمة أو

في أماكن أخرى من الإمبراطورية، للتشاور ولقيادة جيوشنا، سواء منها تلك التي تسدّ الطريق اليوم في وجه العدو أم تلك التي سوف تُشكّل لسحقه أينما ظهر. فليْعدْ عليه الشر الذي يبغي أن يلقينا فيه ولتمجّد أوروبا المنعتقة من العبودية اسم روسيا».

هتف الكونت وهو يفتح عينيه المبللتين بالدموع ويُقطّع كلامه بنخيره، وكأنما كان يستنشق شيئاً من الملح:

- هذا كلام في غاية الروعة! ما على الإمبراطور إلا أن يأمر، ولسوف نضحّي بكل شيء غير آسفين عليه.

وثبت «ناتاشا» وسارعت إلى والدها دون أن تتيح لشنشين إلقاء نُكتته التي كان قد أعدّها حول وطنية الكونت:

- ما ألطفك يا والدي!

وألقت على بطرس نظرة جديدة تفيض بذلك الدلال العفوي الذي كان يعود إليها كلما عاد إليها نشاطها.

قال «شنشين»:

- إنها لفتاة وطنية حقاً!

فأجابته «ناتاشا» وقد قرصتها هذه الكلمة:

- لا، ليس الأمر كذلك... إنك تضحك دائماً، وأنا لم أكن أمزح...

واستأنف الكونت كلامه:

لا مجال للمزاح! ليأمر وسوف نهبّ جميعاً... فنحن لسنا بألمان خاملين...

وتدخل بطرس قائلاً:

- هل لاحظتم أنه قد قيل في البيان: «للتشاور».

- الواقع أنه مهما يكن الموضوع...

في تلك اللحظة دنا «بيتيا» الذي لم ينتبه له أحد من أبيه وقال، وقد احمرّ وجهه، بصوت متقلب، خشن حيناً وحاد حيناً آخر.

- والآن، يا أبي، أعلن جازماً، لك ولأمي أيضاً، أشئتما أم أبيتما، أعلن أنه ينبغي عليكما أن تدعاني أتطوع لأنني لا أستطيع... هذا ما أردت أن أقوله...

رفعت الكونتيسة عينيها إلى السماء مروّعة، وضمت يديها والتفتت إلى زوجها مغضبة وقالت:

- هذه هي الطامة الكبرى!

لكن الكونت كبت انفعاله على الفور، وقال:

- كفى، كفى. يا لك من محارب! دعك من هذه الحماقات: فعليك أن تتم دراستك.

- إنها ليست بحماقات، يا أبي. إن «فيديا أوبولنسكي» أصغر مني وسيذهب أيضاً، وأنا على كل حال، لا أستطيع العمل الآن...

وهنا توقف «بيتيا» واحمرّ خجلاً إلى الحد الذي تلألأت فيه قطرات من العرق على وجهه، لكنه ما لبث أن أنهى جملته:

- الآن والوطن في خطر.

- كفى، كفى، إن تلك إلا حماقات.

- لكنك أنت نفسك قلت: إننا سنضحي بكل شيء.

فصرخ الكونت به وهو يلقي نظرة على زوجته التي كانت تحدق في ابنها وقد شحب وجهها:

- بيتيا! قلت لك: اسكتْ.

- وأنا أقول لك.... وبطرس كيريلوفتش «سيقول لك ذلك أيضاً»...

- أكرر لك أن هذه حماقات، يريد أن يصبح جندياً وهو مايزال يرضع! كفى، قلت لك: كفى!

واتجه الكونت إلى الباب حاملاً الأوراق ليقرأها، من غير شك، في مكتبه قبل استراحته، وقال لبطرس:

- يا بطرس كيريلوفتش تعال ندخِّن...

كان بطرس مضطرباً، حائراً: ذلك أن عيني ناتاشا المتألقتين الملتمعتين ببريق غير مألوف، ما فتئتا تلتفتان إليه وتنطقان بما هو أعظم من المودة.

- آن لي أن أعود إلى البيت...

قال الكونت بسذاجة وهو يشير إلى ناتاشا.

- كيف تعود إلى البيت، لكنك كنت تنوي قضاء السهرة معنا... لقد قلّت زياراتك في الآونة الأخيرة. وهذه.... إنها لا تبتهج إلا إذا كنت هنا....

فردّ بطرس بعجلة:

- نعم، لكنني كنت قد نسيت... لابد من العودة... فالأعمال...

قال الكونت وهو يخرج:

- حسناً! إلى اللقاء.

وسألته «ناتاشا» وهي تنظر في عينيه نظرة تحدّ:

- لِمَ تذهب؟ لَمَ اضطربت؟ لمَ؟

أراد بطرس أن يقول: «لأنني أحبك!» لكنه لم يقلها، واحمر حتى أصول شعره وخفض بصره وقال:

- لأن من الأفضل ألا أتردد عليكم كثيراً... لأن... لا، كل ما في الأمر أن لديّ أعمالاً...

وبدأت «ناتاشا» كلامها بحزم:

لماذا؟ قل لي: لماذا...

إلا أنها صمتت فجأة. ونظر كل منهما إلى الآخر وقد استبد بهما الرعب والضيق. وحاول بطرس أن يبتسم لكنه لم يتمكن من ذلك، عكست ابتسامته الألم، فقبّل يدها ومضى دون أن يقول شيئاً.

لقد قرر بطرس ألا يزور آل روستوف بعد الآن.

***

الفصل الحادي والعشرون

بعد أن لقي «بيتيا» ذلك الرفض القاطع انزوى في غرفته وبكى بكاء حاراً. فلما جاء لتناول الشاي واجماً، متجهماً، محمرّ العينين، تظاهر الجميع بأنهم لم يلاحظوا شيئاً.

وصل الإمبراطور في اليوم التالي. واستأذن الكثير من خدم آل «روستوف» في الذهاب لمشاهدته أثناء مروره. في هذا الصباح أنفق «بيتيا» وقتاً طويلاً على ارتداء ملابسه ومشط شعره وتسوية ياقته كما يفعل الكبار. كان، أمام المرآة، يقطّب حاجبيه، ويحرّك يديه، ويهز كتفيه. وأخيراً لبس قبعته وخرج من باب الخدم وهو يسعى ألا يلمحه أحد. لقد صمّم على أن يذهب رأساً إلى مقر الإمبراطور وأن يشرح بدون مواربة لأحد الحجّاب (كان يعلم أن الإمبراطور محاط دائماً بالحجّاب) أنه بالرغم من صغر سنه، يرغب في خدمة وطنه، وأن الشباب لا يمكن أن يحول دون الإخلاص، وأنه مستعد.. كان «بيتيا» قد أعدّ وهو يتهيأ للخروج، كثيراً من الجمل البليغة التي سيقولها للحاجب.

كان واثقاً من نجاح خطوته لدى الإمبراطور وذلك بسبب صغر سنه بالذات (كان يتخيّل دهشة الناس من جرّاء ذلك). إلا أنه كان يتكلّف مظهر الرجل الكهل بتسويته ياقته وبقبعته وتسريحه لشعره وبمشيته المتئدة الوقورة. لكنه كان، كلما سار تلهى بمرأى الجماهير المتوافدة إلى

الكرملين من كل صوب، وتخلّى عن الاتزان والبطء الخليقين بالرجال الناضجين. وعندما اقترب من الكرملين كان لابد له من الاحتراز كيلا يرمي به الجمهور، فباعد بين مرفقيه كمن عزم على التهديد. لكن الجمهور الذي كان يجهل النوايا الوطنية التي دفعته إلى «الكرملين» ألجأه، عند باب الثالوث[1]، إلى الجدار، بالرغم مما وطّد العزم عليه، وشدّه إليه شداً اضطره إلى الوقوف حتى يفسح الطريق لصف من العربات يمر مخلّفاً هديراً رددت القبة أصداءه. وكان بجنبه امرأة من الشعب وخادم وتاجران وجندي متقاعد. وبعد وقفة عن الباب، أراد «بيتيا» أن يستأنف سيره قبل الآخرين، ودون أن ينتظر مرور العربات جميعاً، فأخذ يستخدم مرفقيه بعنف، لكن المرأة التي بدأ بها صرخت به غاضبة:

– ما لك! ما لك تدفع الناس أيها السيد الصغير، ألا ترى الجميع ينتظرون؟ هلا كففت عن محاولتك!

وقال الخادم:

– إذا كان الأمر كذلك فكل واحد يستطيع أن يفعل فعلك.

واستخدم مرفقيه هو أيضاً فحشر «بيتيا» في زاوية نتنة من زوايا الباب.

مسح «بيتيا» العرق الذي سال على وجهه، وأصلح ياقته المرتخية التي عني بتسويتها في البيت على نحو ما يفعل الكبار.

أحسّ أن مظهره لم يعد لائقاً، وخشي ألا يُسمح له بالمثول بين يدي الإمبراطور إذا شاهده الحجّاب في هذه الحالة. وكان من المستحيل

١– باب في برج غربي الكرملين، يفضي إلى الآربات.

عليه، في هذه الزحمة، أن يسوّي زينته وأن يغيّر مكانه. ولمح جنرالاً من معارف أسرته، فأراد أن يطلب معونته، لكنه رأى أن ذلك مخالف لكرامته، كرامة الرجل. وعندما مرّتْ العربات جميعاً انهال الحشد إلى الأمام وحمل معه «بيتيا» إلى الساحة التي اكتظّتْ بالبشر. كان الناس في كل مكان: في الساحة والشرفات والسطوح. وما أن ألقى «بيتيا» نفسه واقفاً هنا حتى سمع بوضوح قرع الأجراس الذي غمر الكرملين، وضوضاء الجمهور الفرحة.

خفّت الزحمة في الساحة فترة من الزمن، ثم إذا بالرؤوس تنحسر فجأة وإذا بالناس يتدافعون إلى الأمام مرة أخرى، وإذا ببيتيا يُضغط بينهم ضغطاً حتى ليتعذّر عليه التنفس، وإذا بالجميع يهتفون: «هورا! هورا! هورا!» وتطاول «بيتيا» على أطراف أصابعه، دافعاً هذا، قارصاً ذاك من جيرانه، لكنه لم يستطع أن يرى شيئاً سوى الجمهور من حوله.

كانت الوجوه تعكس الرقة نفسها والحماسة نفسها. وكانت بجنب «بيتيا» بائعة تنتحب وتردد وهي تكفكف بأصابعها الدموع التي تنسكب من عينيها:

– يا أبانا، يا ملاكنا، يا أبانا!

والجموع تهتف من كل صوب: «هورا!».

وبعد لحظة من التوقف اندفعت الجماهير إلى الأمام مرة أخرى.

واندفع بيتيا معها دون أن يعلم ماذا يفعل، شاداً على أسنانه، فائر العينين، معملاً مرفقيه، وهو يصرخ: هورا! وكأنما كان مستعداً، في هذه اللحظة لأن يقتل نفسه ويقتل الآخرين معه، وإلى جانبه وجوه مسعورة أيضاً تندفع مثله صارخة: «هورا!».

قال «بيتيا» في نفسه:

- «وإذن فهذا هو الإمبراطور! كلا، ليس بوسعي أن أسلمه طلبي شخصياً، سيكون ذلك في منتهى التهور!»

مع ذلك فقد ظل يشق طريقه إلى الأمام كالمجنون، وخلف ظهور الرجال أمامه لمح كلمح البرق ممراً مفروشاً بالجوخ الأحمر، وسط رقعة فارغة، لكن الجمهور في هذه اللحظة ارتد إلى الوراء (كانت الشرطة تدفع الذين جاوزوا الحد في اقترابهم من الموكب، وكان الإمبراطور متجهاً من قصره إلى كنيسة الصعود)، وتلقى بيتيا ضربة شديدة في جنبه وأطبق الناس عليه إطباقاً حتى غامت عيناه فجأة وفقد وعيه. وعندما ثاب إلى نفسه رأى شماساً بجبته الزرقاء الرثة وبغديرة شعره الساقطة على قذاله التي وخطها الشيب، يسنده بيد تحت إبطه ويحميه باليد الأخرى من ضغط الجمهور وهو يقول:

- لقد دهكتم الفتى! مهلاً... لقد دهكتموه، لقد دهكتموه!

دخل الإمبراطور الكنيسة، وسكنت ضوضاء الجمهور، ومضى الشماس ببيتيا، وهو ممتقع اللون، حصير النفس، إلى الموضع الذي نصب فيه «ملك المدافع»[1]. ورق له بعضهم، ثم ما لبث أن التم الناس من حوله وراحوا يتدافعون. وبادر أقربهم منه إلى حل أزرار سترته، وإجلاسه على قاعدة المدفع، وسب الذين دهكوه.

وقال بعضهم:

١- ملك المدافع مدفع ضخم عيار ٨٩سم، صنعه في موسكو آندريه تشيكوف سنة ١٥٨٦؛ لم يستعمل وكان موضوعاً عند أسفل برج أجراس ايفان الأكبر في الكريملين.

- كيف يستطيع مثله أن يبقى حيث كان، هل يتصور العقل هذا! أيقتلون الناس! أترى، لقد غاض الدم من وجهه، هذا الفتى اللطيف. سرعان ما استرد «بيتيا» قواه، وعادت إليه نضارته وزال عنه ألمه. وبفضل هذا الحادث المزعج استطاع أن يحتل مكاناً على المدفع حيث كان يأمل أن يشاهد منه الإمبراطور عند عودته. لقد كف عن التفكير في تقديم طلبه. فحسبه سعادة أن يتمكن من رؤية الإمبراطور!

أثناء القداس في كنيسة الصعود، وهو قداس تُليت فيه صلاة الشكر بمناسبة وصول الإمبراطور وعقْد الصلح مع الأتراك، انقشع الجمهور؛ وشوهد بائعو الشراب والحلوى والقنبز الذي كان «بيتيا» مشغوفاً به، وتبودلت الأحاديث المبتذلة. كانت إحدى البائعات تُري شالها الممزق وتزعم أنه كلفها غالياً، وكانت بائعة أخرى تؤكد أن جميع الأقمشة الحريرية باهظة الثمن. وكان الشماس الذي أنقذ «بيتيا» يُعرّف أحد الموظفين بالشخصيات التي تَخدم القداس مع «غبطته». وكرر مرات كلمة «حَبْرِيّ» التي لم يفهمها «بيتيا». وكان هناك برجوازيان شابان يمازحان خادمتين تقضمان بندقاً. كانت كل هذه الأحاديث، ولاسيما الدعابات بين الشابين والفتاتين، وهي دعابات جديرة أن تجتذب مَنْ كان في سن بيتيا، كان كل ذلك لا يَسْتأثر باهتمامه الآن. لقد جثم على المدفع وهو موله القلب، مشغول اللب بالإمبراطور وبالحب الذي يحمله له. كان الإحساس بالألم وبالخوف الذي انتابه في الزحمة يتلاقى وحماسته فيعزز فيه الشعور بمهابة هذه اللحظة.

وفجأة دوّت طلقات مدفع آتيةٌ من الأرصفة (كانت الطلقات احتفالاً بالصلح مع الأتراك) فاندفع الجمهور إليها من فوره ليتفرج عليها. وأراد «بيتيا» أن يركض أيضاً لكن الشماس الذي تولى حمايته منعه من ذلك. كان المدفع مايزال يدوي عندما خرج من الكنيسة ضباط

وجنرالات وحجاب على عجل، ثم خرج آخرون وهم أقل استعجالاً؛ وانسحرت الرؤوس مرة أخرى وارتد إلى الساحة الذين جروْا لرؤية المدافع. وأخيراً برز أربعة أشخاص ببزاتهم وأوسمتهم عند عتبة الكنيسة فهتف الجمهور مرة أخرى: «هورا! هورا!».

سأل «بيتيا» جيرانه بصوت مفعم بالدمع:

– أيهم هو؟ أيهم؟

فلم يجبه أحد. كان الناس من نشوتهم في شغل شاغل عنه. واختار «بيتيا» شخصاً من الأشخاص الأربعة لم يميّزه جيداً من خلال دموع الفرح التي صعدت إلى عينيه وركز عليه حماسته مع أنه لم يكن هو الإمبراطور، وأطلق صرخة «هورا» مجنونة، وصمم أن يصبح جندياً ابتداء من الغد، مهما يكن الثمن.

جرى الجمهور وراء الإمبراطور ورافقه إلى القصر ثم أخذ يتفرق. مضى الوقت وبيتيا لم يأكل شيئاً، والعرق يتصبب من جبينه، لكنه أبى أن ينصرف ولبث أمام القصر مع الجمهور الذي قلت كثافته وإن ظل وفير العدد، في حين كان الإمبراطور يتناول طعامه، لبث محدّقاً في النوافذ، منتظراً حدوث شيء ما، حاسداً أولئك المدعوين إلى المائدة الإمبراطورية من أصحاب المقامات العالية حسدَه للخدم الذين كان يراهم من النوافذ.

قال «فالوييف»[1] أثناء الطعام، وهو يُلقي نظرة إلى الخارج:

– مازال الجمهور يأمل أن يرى جلالتك.

١– فالوييف: (١٧٤٣–١٨١٤) عالم أثري ورئيس مباني الكريملين وحاجب امبراطوري.

ما إن فرغ الإمبراطور من الطعام حتى نهض وهو يُنهي قطعة من البسكويت ومضى إلى الشرفة. فاندفع إليها الجمهور الذي كان «بيتيا» من عداده.

- يا ملاكنا، يا أبانا! هورا! يا أبانا!

هكذا كان يصرخ الجمهور و«بيتيا» فيه. وبكت النساء مرة أخرى من الفرح كما بكى بعض الرجال الذين يغلبُ عليهم الانفعال، ومن بينهم «بيتيا». وتنكسر قطعة كبيرة من البسكويت في يد الإمبراطور وتسقطُ من الشرفة إلى الأرض. فيهرع إليها حوذي كان أقرب الناس منها ويلتقطها. ويرتمي الناس عليه. ويشاهد الإمبراطور ذلك فيحمل صحناً من البسكويت ويُلقي به من أعلى الشرفة. وتَحتقن عينا «بيتيا» بالدم ويَسْتثيرُه الخطر المحدق فينقض على البسكويت. لم يكن يعلم لماذا، لكنه كان بحاجة إلى قطعة من هذه القطع الواقعة من يد القيصر، وقد آلى على نفسه ألا يتراجع. ألقى «بيتيا» بنفسه إلى الأمام فرمى إلى الأرض بامرأة عجوز كانت تحاول التقاط قطعة منها. لكن العجوز استمرت على محاولتها مع أنها مطروحة أرضاً. (كانت تحاول عبثاً التقاط قطعة). ودفع «بيتيا» ذراعها بضربة من ركبته، واستولى على قطعة البسكويت وصرخ بصوت أجش، وكأنما خاف أن يفوته الوقت: «هورا!»

انصرف الإمبراطور وتفرق الناس جميعاً هذه المرة.

وانبعثت من كل صوب أصوات تقول بفرح:

- لقد نصحت بوجوب الانتظار، وكنتُ على حق.

بالرغم من السعادة التي غمرت «بيتيا» فقد أحس بالحزن لعودته

إلى البيت ولعلمه أن فرح النهار انقضى. و لم يمض، من الكريملين، إلى البيت رأساً، لكنه مر ببيت صديقه «أوبولنسكي» الذي كان في الخامسة عشرة، وكان أيضاً مزمعاً على الانخراط في الجيش. وعندما وصل إلى البيت أعلن لأهله بحزم أنه إنْ لم يَدَعوه وشأنه فسوف يهرب. وفي اليوم التالي ذهب الكونت «إيليا آندربيتش»، مع أنه لم يسلّم بمشيئة ابنه كل التسليم، ليستعلم عن إمكان تعيينه في مكان ما دون أن يعرضه للخطر كثيراً.

***

الفصل الثاني والعشرون

في صباح اليوم التالي، الخامس عشر من تموز، كان يقف أمام قصر «سلوبودسكي» عدد لا يحصى من العربات.

كانت القاعات غاصة بالناس. في القاعة الأولى اجتمع النبلاء ببزاتهم الرسمية، وفي الثانية اجتمع التجار الملتحون بقفطاناتهم الزرقاء وعليها أوسمتهم. كانت قاعة النبلاء تعج بالحركة وبالضوضاء. وعلى طاولة كبيرة، تحت صورة الإمبراطور، جلس أعظم الشخصيات شأناً على مقاعد عالية المساند؛ لكن الباقين كانوا يروحون ويجيئون في القاعة.

كان جميع النبلاء، وهم أنفسهم الذين كان بطرس يراهم كل يوم في النادي تارة وفي منازلهم تارة أخرى، يرتدون اللباس الرسمي من عهد كاترين أو من عهد بول، أو يرتدون البزة الجديدة من عهد الكسندر، أو يرتدون بزة النبلاء العادية[1]. كانت هذه الوحدة في اللباس الرسمي تضفي طابعاً غريباً عجيباً على هذه الوجوه الطاعنة في السن أو الشابة، هذه الوجوه المتنوعة والمألوفة. وكان الشيوخ، بخاصة، مثاراً للدهشة: كانوا قصيري النظر، دردا، صلعاً، منتفخين بالشحم الأصفر

---

١ – كان معظم النبلاء من الملاك، الضباط المتقاعدين يلبسون بزاتهم القديمة، أما الذين لم يخدموا في الجيش فقد كان يحق لهم أن يلبسوا لباساً خاصاً في المناسبات الرسمية.

أو متغضنين مهزولين، وكانوا يظلون جالسين في أماكنهم، فإذا أرادوا التمشي أو التحدث توخوا رفقة من هم أصغر منهم سناً. كانت الوجوه هنا، كما كانت في الساحة التي وجد عليها «بيتيا»، مذهلة بما تعبر عنه من هموم متناقضة: فمن خلال ذلك الانتظار المشترك لأمر جلل برزت الهموم اليومية الصغيرة، كلعبة الباصرة، والطباخ «بيتروشكا»، وصحة «زينايدا دميتريفنا» الخ... كان بطرس في القاعة، وقد حزم نفسه منذ الصباح الباكر ببزة النبلاء التي ضاقت عليه أشد الضيق. كان منفعلاً: فهذا الاجتماع غير العادي للنبلاء وللتجار ولمختلف الفئات والطبقات أيقظ فيه فيضاً من الأفكار أهملت منذ زمن بعيد، لكنها ظلت راسخة في فكره، وهي تدور حول «العقد الاجتماعي» والثورة الفرنسية. وكانت كلمات «البيان» التي استوقفته والتي تقول إن الإمبراطور قادم إلى العاصمة ليشاور شعبه، تعزز شعوره ذاك. وإذ كان يقدر أن أمراً عظيماً يوشك أن يقع في هذا الاتجاه، أمراً انتظره منذ زمن بعيد، فإنه كان يروح ويجيء ويراقب ويصيخ السمع للأحاديث، فلا يجد حوله من صدى للأفكار التي تشغله.

قرئ بيان الإمبراطور فأثار الحماسة، ثم تكونت الجماعات مرة أخرى واستؤنفت الأحاديث. فسمع بطرس، فضلاً عن الموضوعات المعتادة، نقاشاً حول المكان الذي يجب أن يحتله مارشالات طبقة النبلاء عند دخول الإمبراطور، وحول الموعد الذي ينبغي أن تقام فيه الحفلة الراقصة على شرفه، وحول أنسب الطرق للاجتماع: باسم المقاطعة أم باسم الإقليم الخ.، لكن ما إن تتطرق الأحاديث إلى الحرب وإلى الغرض الذي من أجله اجتمع هؤلاء الأشراف حتى تغدو مترددة، غامضة. كان الحاضرون يؤثرون الإصغاء على الكلام.

في إحدى القاعات شاهد بطرس رجلاً وسيم الطلعة، طاعناً في

السن، رجولي المظهر، في بزة ضابط بحري متقاعد، يتحدث في جماعة من الحاضرين، فدنا منه وأصاخ السمع. وكان الكونت «ايليا آندرئتش» بقفطان حاكم المقاطعة القديم يتمشى باشاً وسط الجمهور الذي يعرف أفراده جميعاً، فدنا هو أيضاً وأخذ يصغي، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة، كما كان يصغي دائماً، هازاً رأسه للموافقة على كلام الخطيب. كان البحار يخوض في أحاديث بالغة الجرأة؛ وكان ذلك واضحاً مما تنطق به وجوه مستمعيه ومن أن بعضهم، وكان بطرس يعلم أن هؤلاء أشد الناس انقياداً وهدوءاً، انصرفوا مستنكرين أو تصدوا له مناقضين. وشق بطرس طريقه إلى قلب الجماعة وتبين أن المتحدث ليبيرالي ولكن في اتجاه آخر غير اتجاهه. كان البحار يتكلم بصوت جهير، رخيم كأصوات النبلاء، يلثغ لثغاً مليحاً ويختطف الأحرف الساكنة، صوت رجل ماجن تعود إصدار الأوامر:

– وماذا يهمنا إن عرض نبلاء سمولنسك المتطوعين على الإمبراطور؟ أمن حقهم أن يسنوا لنا القوانين؟ وإذا رأى نبلاء مقاطعة موسكو الجزيلو الاحترام أن من الضروري إبداء إخلاصهم للإمبراطور فإنهم يستطيعون ذلك بوسائل أخرى. وهل نسينا متطوعي ١٨٠٧! كانت سبيلاً إلى إثراء أبناء الكهنة[1] والنشالين.

ابتسم الكونت ايليا آندرئتش ابتسامة عذبة وهز رأسه موافقاً.

– هل أفادت البلاد من المتطوعين؟ كلا! لقد خربوا أراضينا. التجنيد أفضل من ذلك.... وإلا فلن يعودوا إلينا جنوداً أو فلاحين بل رجالاً متهتكين. النبلاء مستعدون لبذل دمهم؛ سوف نمضي إلى القتال حتى آخر رجل وسنأخذ معنا مجندين جدداً.

١– أبناء الكهنة: أي صغار الموظفين ومعظمهم من أبناء الكهنة.

وأضاف الخطيب بحماسة:

– ما على الإمبراطور إلا أن يدعونا ولسوف نموت جميعاً من أجله.

ابتلع «ايليا آندرئتش» ريقه من السرور، ولكز بطرس بمرفقه، لكن بطرس كان يرغب في الكلام أيضاً. تقدم بطرس في حركة نزقة، وهو لا يعلم بعد ما سيقوله. ولم يكد يفتح فمه حتى أوقفه شيخ من مجلس الشيوخ أدرد تام الدرد، ذكي الملامح، غاضب الوجه، كان يقف على مقربة من الخطيب، وقال بصوت خفيض، متميز، وكأنه صوت من تعود إدارة المناقشات:

– أقدر، يا سيدي، أننا لم ندع إلى هذا المكان لنناقش أيهما أجدى على البلاد في الظروف الراهنة: التجنيد أم التطوع. وإنما دعينا استجابة للنداء الذي شرفنا به جلالة الإمبراطور. أما تقرير ما هو أجدى، التجنيد أم التطوع فنحن ندعه للسلطة العليا...

وجد بطرس فجأة مخرجاً لتحفزه. فانتابه الغضب على هذا الشيخ الذي يريد أن يدخل على مداولات النبلاء هذه النظرات الشرعية، الضيقة. تقدم إلى الأمام وقاطعه. لم يكن يعلم ما سيقول، لكنه أخذ يتكلم بحدة وبلغة روسية كتبية تتخللها عبارات فرنسية.

بدأ قائلاً:

– معذرة، يا صاحب السعادة، (كان يعرف جيداً هذا الشيخ إلا أنه رأى من الضروري أن يخاطبه هنا باللهجة الرسمية)، مع أنني لا أوافق السيد (تردد بطرس، كان يريد أن يقول: السيد الجزيل الاحترام الذي سبقني إلى إبداء رأيه) السيد... الذي ليس لي شرف معرفته، إلا أنني أقدر أن الطبقة النبيلة لم تدع فقط لإظهار تعاطفها وحماستها، بل وأيضاً لبحث التدابير التي يمكن اتخاذها لنجدة الوطن.

وتابع كلامه وقد ازداد حماسة:

– أقدر أن الإمبراطور نفسه سيمتعض إن لم يجد فينا سوى ملاكين للفلاحين الذين نقدمهم له.... للجنود أو للحم المدفع... إن لم يجد فينا... مجلساً استشارياً...

ابتعد عن الجماعة أشخاص كثيرون وهم يرون ابتسامة الشيخ المزدرية ويسمعون كلام بطرس الذي لا يتحرج من شيء؛ «إيليا آندرئتش» وحده ارتاح إلى كلامه، كما ارتاح إلى كلام البحار، وإلى كلام الشيخ، وكما يرتاح، على العموم، إلى كل ما يسمعه.

وتابع بطرس:

– أقدر أنه ينبغي لنا، قبل مناقشة هذه المسائل، أن نطلب إلى الإمبراطور، أن نرجو جلالته بكل احترام، إطلاعنا على عدد قواتنا، ووضع جيوشنا، وعندئذ...

لكن بطرس لم يتمكن من إتمام كلامه، لأنه هوجم من جهات ثلاث معاً.

وكان أشد خصومه تحاملاً عليه هاوياً من هواة «الباصرة» يعرفه بطرس منذ زمن بعيد ويعرف إخلاصه له، هو «ستيبان ستيبانوفتش أدراكسين»[1]. كان يرتدي بزته الرسمية، ولهذا السبب أو لغيره رآه بطرس رجلاً آخر، مختلفاً كل الاختلاف. صرخ به «ستيبان ستيبانوفتش»، وقد تقلصت قسمات وجهه من غضب الشيخوخة:

– دعني أقل لك، قبل كل شيء، أنه لا حق لنا في طلب ذلك من الإمبراطور، وحتى لو كان للطبقة النبيلة الروسية هذا الحق فليس بوسع

١– شخصية خيالية جعل المؤلف اسمها مشابهاً لاسم أبراكسين.

الإمبراطور أن يجيبنا. ذلك أن حركات الجيوش تابعة لحركات جيوش العدو، وعددها ينقص ويزيد...

وارتفع صوت آخر مقاطعاً «أدراكسين»، صوت رجل ربعة، في الأربعين من عمره، كان بطرس يلقاه عند الغجر قديماً، وكان يعلم أنه غشاش في اللعب؛ لقد تبدل هو أيضاً شخصاً آخر من جراء بزته. أقبل على بطرس قائلاً له:

– على كل حال، ليس الوقت وقت نقاش، وإنما يجب العمل: فالحرب على أرضنا، والعدو يتقدم ليدمر روسيا، وليدنس قبور أجدادنا، وليقتاد نساءنا وأطفالنا.

ثم ضرب صدره بيده، وصرخ وقد جحظت عيناه المحتقنتان بالدم: سوف نهب جميعاً، وسنمضي جميعاً إلى آخر رجل فينا، من أجل أبينا القيصر.

وانبعثت من الجمهور بعض الأصوات المؤيدة.

– نحن روس مستعدون لبذل الدم في سبيل الدفاع عن العقيدة والعرش والوطن. أما الترهات فلندعها جانباً إذا كنا أبناء للوطن جديرين به. ولسوف نري أوروبا كيف تهب روسيا من أجل الذود عن روسيا.

أراد بطرس أن يرد عليه، لكنه لم يستطع أن يفوه بكلمة. لقد أحس أن كلماته ستكون، بغض النظر عن الفكرة التي تعبر عنها، أدنى تأثيراً من كلمات هذا النبيل المتحمس.

كان «آندرئتش» خلف الجماعة يؤيد الخطيب؛ وكان بعضهم يلتفت إليه في نهاية الجمل ويقول بغطرسة:

– أصبت، أصبت! رائع!

أراد بطرس أن يقول: إنه مستعد للتضحيات بالمال وبالرجال، مستعد للتضحية بنفسه، لكن علاج موقف ما يقتضينا معرفته؛ و لم يقل شيئاً بعد ذلك. كان الأكثرون يتحدثون ويصرخون معاً إلى الحد الذي عجز معه «إيليا آندرئتش» عن تأييد الجميع برأسه. وكان الجمع يعظم، ثم يتفرق، ثم يلتئم شمله، ثم يتجه كله في آخر الأمر إلى المائدة الكبرى في القاعة الرئيسية، وهو يعج بأصوات المتحدثين والصارخين. لم يكن بطرس عاجزاً عن إلقاء كلمة فحسب، بل إن الناس قاطعوه بفظاظة وصدوه بغلظة وأعرضوا عنه كما يعرضون عن العدو المشترك. لا لأنهم استاؤوا من كلامه، فقد نسوه بعد أن تتابع المتكلمون بعده، بل لأن هياج الجمهور بحاجة إلى غرض محسوس يجسد حبه وكرهه. وكان بطرس قد غدا غرضاً لكرهه. لقد تكلم خطباء عديدون بعد النبيل المتحمس، تكلموا على وتيرة واحدة، فأجاد الكثير منهم وكان كلامهم بليغاً أصيلاً. وقال مدير «الرسول الروسي»، «غلنكا»[1] (الذي عرفه الجمهور وهتف له: «الكاتب، الكاتب»). إنه يجب أن ندفع الجحيم بالجحيم، وأنه رأى طفلاً يبتسم على ضوء البروق وقصف الرعود، لكننا لن نكون ذلك الطفل.

فردد الناس في الصفوف الخلفية مستحسنين:

– نعم، نعم، على قصف الرعود!

اقترب الجمهور من المائدة الكبرى التي جلس حولها ذوو المراتب العليا، ببزاتهم الموشحة بالأوسمة، وهم من أبناء السبعين شيب، صلع، يعرفهم بطرس لأنه رآهم في بيوتهم بين مهرجيهم أو في النادي يلعبون

١- «غلنكا» كاتب أسس في سنة ١٨٠٨ مجلة الرسول الروسي ذات النزعة القومية التي لقيت نجاحاً كبيراً واستمرت حتى سنة ١٨٢٤. ثم استؤنفت في سنة ١٨٥٨ عندما أنشأ ميشيل كاثوف مجلة بهذا الاسم وبنفس الاتجاه.

بالباصرة. اقترب الجمهور من المائدة دون أن يكف عن لغوه. وكان الخطباء يتكلمون واحداً إثر واحد أو اثنين معاً في بعض الأحيان، وقد لزهم الجمهور الضاغط إلى مساند الكراسي. وكان الذين يقفون في الخلف يسجلون ما لم يقله الخطيب ليبادروا إلى قوله بدورهم. وآخرون يعصرون رؤوسهم، في هذه الحرارة وهذه الزحمة، بحثاً عن فكرة جديدة يسرعون إلى إذاعتها. أما ذوو المراتب الذين يعرفهم بطرس فكانوا يلقون بنظراتهم إلى هذا تارة، وإلى ذاك تارة أخرى، ووجوه معظمهم لا تعبر إلا عن الشعور بالحرارة. على أن بطرس أحس بالانفعال، واجتاحته تلك الرغبة العامة في إظهار أن لا شيء يمكنه الوقوف في وجهنا، تلك الرغبة التي كانت تنعكس في رنين الأصوات وتعبير الوجوه أكثر مما تنعكس في معنى الكلام. لم يكن ينكر أفكاره لكنه أحس إحساساً مبهماً بذنبه وأراد أن يبرئ نفسه، فصرخ وهو يحاول أن يغطي بصوته على الأصوات الأخرى:

– كل ما قلته هو أن بذل التضحيات سيكون أيسر علينا إذا عرفنا ما نحتاج إليه.

التفت إليه شيخ قصير ملاصق له، لكنه ما لبث أن شغل عنه بصرخات التعجب التي علت في الجانب الآخر من المائدة.

صرخ أحدهم:

– نعم، ستهجر موسكو! ستكون هي الفادية!

وصرخ آخر:

– إنه عدو الجنس البشري! دعوني أتكلم... لقد سحقتموني يا سادة!...

***

الفصل الثالث والعشرون

في هذه اللحظة، دخل الكونت «روستوبتشين» مرتدياً بزة الجنرال، متقلداً الوشاح الأكبر، ناتيء الذقن، حاد النظرات، حاثاً خطاه حتى وصل إلى وسط الجمهور الذي أفسح له المكان فقال:

– سيصل بعد قليل جلالة الإمبراطور، وأنا آت من القصر. وأظن أنه لا مجال للنقاش كثيراً، في الوضع الذي نحن فيه. لقد شرفنا الإمبراطور بأن جمعنا كما جمع التجار. سوف تسيل الملايين من هناك (وأشار إلى قاعة التجار)، أما نحن فدورنا يقوم على تقديم المتطوعين وعلى عدم مراعاة أنفسنا... هذا أقل ما نستطيع فعله!

تشاور أصحاب الرتب الجالسون حول المائدة فيما بينهم. وجرى ذلك كله بصوت خافت أشد الخفوت. وقد بدا محزناً سماع أصوات الشيوخ هذه وهي تقول الواحد تلو الآخر، بعد تلك الضوضاء: «أنا موافق» أو تقول بصيغة أخرى: «وأنا أيضاً من الرأي ذاته»، الخ...

تلقى المقرر أمراً بتحرير قرار نبلاء موسكو، ومداره أن الموسكوفيين يتبرعون، على غرار أشراف «سمولنسك»، بعشرة رجال في الألف[١] مع التجهيز الكامل. ونهض الأعيان وكأنما استراحوا من عنائهم،

١ – أي عشرة مجندين لكل ألف قن.

ودفعوا مقاعدهم بصخب، وانتشروا في القاعة لتحريك أرجلهم، ممسكين بالبعض من أذرعهم ليشرعوا في الحديث.

وفجأة صرخ بعضهم في القاعات: الإمبراطور! الإمبراطور!. فهرع الجميع إلى المدخل.

سار الإمبراطور إلى القاعة على طول ممر عريض يحيط به الأشراف من جانبيه. وكانت الوجوه جميعاً تعكس ضرباً من الفضول المصطبغ بالإجلال والتخوف. كان بطرس بعيداً ولم يتمكن من سماع خطبة الإمبراطور. وكل ما فهمه أنه كان يتحدث عن الخطر المحدق بالوطن وعن الآمال التي يبنيها على نبلاء موسكو. ورد عليه صوت منهياً إليه القرار الذي اتخذ قبل حين.

فقال الإمبراطور بصوت متهدج: أيها السادة!

فسرت في الجمهور رعشة، ثم سكن كل شيء وسمع بطرس بجلاء صوت الإمبراطور، صوتاً إنسانياً عذباً منفعلاً يقول:

– لم أشك قط في نخوة الطبقة الروسية النبيلة. لكنها فاقت توقعي، هذا اليوم. أشكركم باسم الوطن. أيها السادة، لنعمل، فالوقت ثمين...»

صمت الإمبراطور فأقبل الجمهور عليه وعلت، من كل جانب، الهتافات الحماسية.

وارتفع من الصفوف الخلفية صوت «إيليا آندرئتش»، وهو ينتحب، هذا مع أنه لم يسمع شيئاً، وإن كان يفهم كل شيء على طريقته:

– نعم، أثمن شيء... كلام القيصر.

ومن قاعة النبلاء انتقل الإمبراطور إلى قاعة التجار. ولبث فيها

ما يقرب من عشر دقائق. ورآه بطرس يخرج منها بعد عشر دقائق مختلطاً بالآخرين، ودموع الحنان في عينيه. وقد علم فيما بعد أنه لم يكد يبدأ خطابه في التجار حتى انبجست الدموع من عينيه وأنهاه بصوت متهدج. كان يصحبه تاجران، عندما رآه بطرس. وعرف بطرس أحدهما، وهو ملتزم كبير للدولة. أما الآخر ذو الوجه المهزول الشاحب واللحية الدقيقة فكان العمدة. كان كلاهما يبكي: اغرورقت عينا المهزول بالدمع، وراح الآخر ينتحب كالطفل وهو لا يفتأ يردد:

- خذ حياتنا وأموالنا، يا صاحب الجلالة.

لم يشعر بطرس في هذه اللحظة إلا بالرغبة في أن يظهر أن لا شيء يقف في طريقه وأنه مستعد للتضحية بكل شيء. ولام نفسه على خطابه ذي الميول الدستورية: فراح يبحث عن الفرصة لإصلاح ذلك الخطأ. وعندما علم أن الكونت «مامونوف»[1] قدم فوجاً، أعلن، من فوره، للكونت «روستوبتشين» أنه يقدم ألف رجل ويتكفل بنفقتهم.

لم يستطع «روستوف» العجوز أن يحبس دموعه وهو يقص على امرأته ما جرى، وما لبث أن أذعن لإلحاح «بيتيا»، وذهب بنفسه ليسجله في عداد المتطوعين.

انصرف الإمبراطور، في اليوم التالي. وخلع جميع النبلاء المدعوين بزاتهم الرسمية، وعادوا إلى ما كانوا عليه في بيوتهم وفي النوادي، وأصدروا أوامرهم إلى وكلائهم بصدد المتطوعين، وهم يتأففون، وقد أخذتهم الدهشة من كل ما فعلوه.

***

١- الكونت ماتيو ديمتري مامونوف (١٧٨٨-١٨٦٣) الابن الوحيد لإحدى محظيات كاترين الثانية، كان عظيم الثروة. وكان نائباً في مجلس الشيوخ، تطوع سنة ١٨١٢ ورفع إلى رتبة جنرال وعين قائداً لفوج من أفواج الخيالة جهزه على نفقته.

الجزء الثاني

الفصل الأول

شن نابليون الحرب على روسيا لأنه لم يكن بوسعه ألا يذهب إلى «درسدن»، وألا يثمل بخمرة المجد، وألا يرتدي البزة البولونية، وألا ينقاد لإغراء صبيحة من حزيران، ولأنه لم يستطع أن يكبح جماح غضبه بحضور «كوراجين»، ثم بحضور «بالاشيف».

وكان الكسندر يرفض جميع أنواع المفاوضات لأنه اعتبر نفسه قد أهين شخصياً. وكان «باركلي دي تولي» يسعى جهده في قيادة الجيش أحسن قيادة ليؤدي واجبه وليبلغ شهرة القائد العظيم. واندفع «روستوف» إلى مهاجمة الفرنسيين لأنه لم يستطع أن يقاوم شهوة الجري في الأرض المكشوفة. وهكذا فعل من لا يحصى عددهم من الأفراد الذين شاركوا في هذه الحرب، على حسب استعداداتهم الشخصية، وعاداتهم، وشروط حياتهم، ومآربهم. كانوا يخافون، ويختالون، ويفرحون، ويسخطون، ويتفكرون، وهم يظنون أنهم يعلمون ما يفعلون وأنهم يفعلونه لأنفسهم، في حين أنهم كانوا أدوات غير واعية في يد التاريخ، وأنهم كانوا ينجزون عملاً حجب عنهم معناه، وأدركنا نحن هذا المعنى الآن. ذلك هو المصير الثابت الدائم لجميع الرجال الفاعلين. وكلما عظم شأن هؤلاء الرجال في السلم البشري تناقصت حريتهم.

إن ممثلي أحداث ١٨١٢ تركوا خشبة المسرح منذ زمن بعيد، واختفت مصالحهم الشخصية من غير أن تخلّف وراءها أثراً، وبقيت ماثلة أمامنا النتائج التاريخية وحدها لتلك الحقبة من الزمن.

ولنسلّم بأنه كان ينبغي لهؤلاء الرجال من أوروبا أن يوغلوا في قلب روسيا، بإمرة نابليون، وأن يهلكوا فيها فإن سلوك المقاتلين في هذه الحرب، وهو سلوك طائش، متناقض، وحشي، يغدو مفهوماً لدينا.

إن العناية الإلهية أكرهت هؤلاء الرجال جميعاً على أن يسهموا وهم يلاحقون الأهداف الشخصية، في خلق نتيجة واحدة، عظيمة، لم تخطر ببال أحد منهم. (لا نابليون، ولا الكسندر، ولا أي من المحاربين).

نحن نرى بوضوح، اليوم، ما الذي أدى في سنة ١٨١٢ إلى دمار الجيش الفرنسي. فلن يجادل أحدٌ في أن السبب كان، من جهة أولى، الدخول الشديد التأخر، إلى قلب روسيا دون استعداد لمعركة الشتاء، ومن جهة ثانية، الطابع الذي اكتسته الحربُ من جراء حرق المدن وما أثار ذلك لدى الشعب الروسي من حقد على العدو. لكن أحداً لم يكن يتوقع آنذاك أن هذا السبب وحده (وهو ما يبدو بديهياً اليوم) كفيل بتدمير جيش من ثماني مائة ألف رجل، خير جيش في العالم يقوده أعظمُ قائد في العالم، في وجه جيش أضعف منه مرتين، لا خبرة له، يقوده قادة لا خبرة لهم أيضاً؛ ولم يقتصر الأمر على أن أحداً لم يكن يتوقع ذلك، بل إن كل شيء كان يجري، في الجانب الروسي، للحيلولة دون ما يمكنه وحده إنقاذ روسيا، وكانت كل الجهود، في الجانب الفرنسي، تتجه، بالرغم من تجربة نابليون وعبقريته العسكرية المزعومة، إلى بلوغ موسكو في نهاية الصيف، أي إلى الإقدام بالضبط على ما سوف يؤدي إلى دمار الفرنسيين.

يطيب للمؤلفين الفرنسيين، في مؤلفاتهم التاريخية عن ١٨١٢، أن يبرهنوا على أن نابليون أحس بخطر امتداد خطوطه، وأنه كان يسعى إلى القتال، وأن قادته أشاروا عليه بالتوقف عند «سمولنسك». وهم يحتجون بحجج أخرى مشابهة ترمي إلى إثبات ذلك الإحساس بالخطر؛ بينما يطيب للمؤلفين الروس أن يتحدثوا عن وجود خطة حربية بارعة، منذ بداية الحرب، قوامُها اجتذاب الفرنسيين إلى قلب روسيا، وينسبون هذه الخطة إلى «بفويل» تارة وإلى أحد الفرنسيين تارة أخرى، وينسبُها بعضهم إلى «تول»، وربما نسبها بعضهم إلى الإمبراطور الكسندر نفسه، مستندين في ذلك إلى المذكرات والمشاريع والرسائل التي تتضمن، في الواقع، إشارات إلى تلك الخطة الحربية. لكن هذه الإشارات إلى توقع ما قد حدث، سواء أكان ذلك من الجانب الروسي أم من الجانب الفرنسي، لا يعتدُّ بها اليوم إلا لأن الأحداث برهنت على صحتها. ولو أن الحدث لم يحدث لنُسيت هذه الإشارات كما نُسيت، اليوم، آلافُ الإشارات والفرضيات الرائجة آنذاك والتي اتضح بطلانُها (وأصبحت من ثم نسياً منسياً). إن نتيجة الحدث الجاري تفسح المجال لكثير من الفرضيات حتى أننا لا نعدم أناساً يؤكدون لنا في كل مرة، ومهما تكن النتيجة: «لقد تنبأنا بهذا من قبل»، ناسين تماماً أن بين هذه الفرضيات التي يتقدمون بها والتي لا حصر لها، عدداً يناقضها تماماً.

إن شعور نابليون بالخطر الناجم عن امتداد خط القتال. ثم خطة استدراج العدو إلى قلب روسيا، من الجانب الروسي، فرضيتان تنتميان، من غير شك، إلى تلك الفرضيات الآنفة الذكر، ولابد للمؤرخين من أن يحرّفوا الأحداث إذا أرادوا أن يعزوا هذه الاعتبارات لنابليون وقادته، وهذه الخطط للقادة العسكريين الروس. ذلك أن جميع الأحداث تناقض هذه الفرضيات بجلاء. فالروس لم يمتنعوا، طوال الحرب، عن اجتذاب الفرنسيين إلى داخل البلاد فحسب، بل إنهم بذلوا وسعهم

لإيقافهم منذ دخولهم؛ ونابليون لم يكن مطمئناً إلى امتداد خط القتال فحسب، بل إنه كان يبتهج بكل خطوة يخطوها إلى الأمام كما يبتهج بالنصر، ويسعى إلى القتال بتراخٍ، على عكس حملاته السابقة تماماً.

لقد شُطرت جيوشُنا منذ بداية الحرب، وكان جمعُها هو الهدف الوحيد الذي نرمي إليه، على حين أن التراجع واستدراج العدو إلى أعماق البلاد لا يفيدُهما اتصال الجيوش في شيء. وكان الإمبراطور في الجيش ليشجعه على الدفاع عن كل شبر من الأرض الروسية، لا ليشجعه على التراجع. ويُنظِّم معسكر «دريسا» الكبير وفق خطة «بفويل» لكي لا يفكر أحدٌ بالتقهقر إلى ما وراءه. ويوجه الإمبراطور اللوم إلى القادة على كل خطوة يخطونها إلى الوراء. ولم يدر بخلده إمكان إحراق موسكو بل ولا إمكان التخلي عن «سمولنسك»؛ وعندما تتصل الجيوش بعضها ببعض يسخط لرؤية «سمولنسك» تسقط في أيدي العدو وتُحرق من غير أن تدور تحت جدرانها معركةٌ شاملة.

كذلك كان يفكر الإمبراطور. لكن القادة العسكريين الروس والشعب الروسي بأسره كانوا أشد سخطاً على فكرة تقهقر جيوشنا إلى داخل البلاد.

توغل نابليون إلى داخل البلاد، بعد أن شطر جيوشنا، وفوَّت فرصاً كثيرة للقتال. وفي شهر آب بلغ «سمولنسك» ولم يكن له من همٍّ سوى التقدم إلى الأمام، مع أن هذا الزحف كان، كما نرى اليوم، وبالاً عليه. وتثبتُ الوقائع بجلاء أن نابليون لم يكن يتوقع الخطر من زحفه على موسكو وأن الكسندر والقادة العسكريين لم يكونوا يفكرون في استدراج نابليون وإنما كانوا يقصدون إلى عكس ذلك. فاستدراج نابليون إلى داخل البلاد لم يتم وفقاً لخطة مرسومة (ما من أحد ظن ذلك ممكناً) لكنه تم من جراء عمل مجموعة بالغة التعقيد من الدسائس

والمصالح والرغبات التي حملها الرجال المشاركون في هذه الحرب، ممن لم يكونوا يتنبؤون بما سوف يقع، بما سوف يكون السبيل الوحيد لخلاص روسيا. لقد جرى كل شيء مصادفةً واتفاقاً. ذلك أن جيوشنا شُطرت في بداية المعركة وجهدْنا نحن في جمعها بغية الشروع في المعركة واحتواء تقدم العدو، وفي أثناء هذه المحاولة جررنا الفرنسيين إلى «سمولنسك» ونحن نتحاشى قتال عدو أقوى بكثير منا، ونتراجع بالرغم منا على زاوية حادة. بل ليس يكفي أن نقول: أننا نتراجع على زاوية حادة لأن الفرنسيين تقدموا بين الجيشين فغدت الزاوية أشد حدة وأمعنا في التقهقر لأن «باركلي دي تولي» هذا الألماني الذي لم يكن الشعب راضياً عنه قد كان «باغراتيون» قائد الجيش الثاني (وهو مرؤوسه) يكرهه ويحاول جهده تأخير الاتصال به لكي لا يضع نفسه تحت إمرته. لقد تأخر «باغراتيون» طويلاً عن القيام بحركة الاتصال (مع أنها الهدف الرئيسي للقيادة بأسرها) لما خُيل إليه من أنه يُعرض جيشه للخطر بهذه الحركة وأن من الأجدى عليه أن يزيد من تراجعه إلى اليسار وإلى الجنوب وهو يُزعج جناح العدو ومؤخراته، وأن يستكمل ملاكاته في اكرانيا. ومع ذلك فنحن نشعر أنه اختلق ذلك لأنه لا يريد أن يضع نفسه تحت إمرة الألماني «باركلي» الذي يكرهه والذي هو أحدثُ رتبةً منه.

ويجيء الإمبراطور إلى الجيش ليحثه على القتال، لكن وجوده نفسه وتردده وكثرة المستشارين والخطط المطروحة، كل ذلك يلاشي القوة الهجومية في الجيش الأول ويَحمله على الانسحاب.

ثم توضع الخطةُ التي تقضي بأن يتوقف الجيش في معسكر «دريسا»؛ ولكن إذا بـ «بولوكشي» الذي يطمع في القيادة العليا يؤثر، بما له من قوة، في الإمبراطور، وإذا بخطة «بفويل» تُهجر ويُعهد بكل

شيء إلى «باركلي». على أن «باركلي» لا يوحي بالثقة، فيجري الحدُّ من سلطانه.

وإذن فالجيوش مجزأةٌ، ولا وحدة في القيادة، و«باركلي» معدوم الشعبية؛ ولكن عن هذا التشوش، وعن ذلك التجزؤ، وعن عدم شعبية القائد العام الألماني، ينجم، من جهة، التردد في خوض المعركة ثم رفض خوضها (وهي معركة لم يكن بالإمكان تفاديها لو أن الجيوش كانت مجتمعة ولو أن القائد العام كان غير «باركلي»)، وينجم عنه من جهة ثانية، سخطٌ متزايد على الغرباء وتنامي الشعور القومي.

وأخيراً، يترك الإمبراطور الجيش، ويُبرر ذهابه بذريعة واحدة ملائمة دون غيرها، وهي ضرورة إذكاء حماسة العاصمتين لحرب قومية. فيضاعف رحيل الإمبراطور قوى الجيش الروسي ثلاث مرات.

ترك الإمبراطور الجيش لكي لا يُعيق حرية عمل القائد العام وأمل أن تُتخذ تدابير أشد حزماً؛ لكن وضع قيادة الجيوش استمر على تعقده وضعفه. ولبث في الجيش «بينيغسن» والدوق الأكبر وطائفةٌ من الجنرالات المساعدين العسكريين ليراقبوا القائد العام وليحفزوا طاقته على العمل؛ لكن «باركلي» أحس بأن حريته تضاءلت أمام مراقبة «عيون الإمبراطور» فضاعف من حذره وراح يتحاشى المعركة.

لزم «باركلي» جانب الحذر. وأطلق ولي العهد كلمة خيانة وأصر على المعركة الشاملة. ويُضخم «لوبوميرسكي» و«براينكي» و«ولوكي»[1] تلك الشائعة التي مفادها أن «باركلي» يتخلص من الجنرالات المساعدين

١– لوبوميرسكي، براينكي، وكولي؛ من كبار النبلاء البولونيين الذين كانوا في خدمة الكسندر الأول بصفة جنرالات مرافقين عسكريين.

العسكريين البولونيين ويبعث بهم إلى بطرسبرج، بحجة إرسال الوثائق الرسمية إلى الإمبراطور، ويدخل في صراع مكشوف ضد بينيغسن والدوق الأكبر.

وأخيراً يلتقي الجيشان في «سمولنسك»، بالرغم من اشمئزاز «باغراتيون».

ويصل «باغراتسيون» إلى منزل «باركلي» في عربة. فيلاقيه «باركلي» مرتدياً وشاحه ويقدم إليه تقريره باعتباره أقدم منه رتبة. لكن «باغراتسيون» تهزه الأريحية فيضع نفسه بالرغم من قدمه تحت إمرة باركلي؛ ثم لا يلبث الخلاف أن يتفاقم بينهما. وبناءً على أمر الإمبراطور، يرسل «باغراتسيون» تقاريره مباشرة إليه. ويكتب لـ «آراكتشيف»: «أنا آسفٌ إزاء الإمبراطور، فلست أستطيع الاتفاق والوزير «باركلي». انقلني، بحق السماء، إلى حيث تشاء، ولو إلى قيادة فوج. إن مركز القيادة العامة مملوءٌ بالألمان إلى الحد الذي يصعب معه على الروسي أن يعيش فيه، كما أنه لا جدوى من بقائه فيه. كنت أتصور أنني أخدم الإمبراطور والوطن حقاً، ولكن تبيّن لي، بعد إنعام النظر، أنني أخدم «باركلي». أعترف لك أنني لا أريد ذلك.». ثم إن جماعة «براينكي» و«ونتزنجيرود» وآخرين تُسمم العلاقات بين القادة وتتراخى وحدة القيادة أكثر من أي وقت مضى. ويقوم الاستعداد لمهاجمة الفرنسيين أمام «سمولنسك». فيرسل جنرالٌ لتفتيش المواقع. ويذهب هذا الجنرال الذي يكره «باركلي» إلى منزل أحد الأصدقاء من قادة الفرق، ويعود، بعد أن يقضي النهار عنده، لنقد ساحة المعركة التي لم يرها، نقطة نقطة.

وفي الحين الذي نتخاصم فيه ويكيد بعضنا لبعض بصدد ساحة القتال المقبلة، وفي الوقت الذي نبحث فيه عن الفرنسيين ونخطئ في

تحديد مواقعهم، يصطدم الفرنسيون بفرقة «نيفيروسكي»[1] ويتقدمون إلى جدران «سمولنسك» ذاتها.

لم يكن بدٌّ من خوض معركة ليست في الحسبان، أمام سمولنسك، لانقاذ خطوط المواصلات. وتدور المعركة فيسقط آلاف القتلى من الجانبين.

ويترك الروس «سمولنسك» خلافاً لإرادة الإمبراطور والشعب بأسره. وتُحرق «سمولنسك» على أيدي سكانها أنفسهم الذين خدعهم حاكمهم، ويذهب هؤلاء المنكوبون الذين غدوا مثالاً يحتذيه الروس الآخرون، إلى موسكو، وهم لا يفكرون إلا في خسائرهم، وقد تأججت في نفوسهم نارُ الحقد على العدو. ويتابع نابليون تقدمه ونتقهقر نحن، ويبلغ نابليون ما سوف يؤدي إلى هزيمته.

***

١- ديمتري نيفيروسكي (١٧٧١-١٨٣١) جنرال، كان يقود فرقة المشاة السابعة والعشرين التي صمدت أمام الفرنسيين أثناء قتال كراسنوي، أمام سمولنسك.

الفصل الثاني

استدعى الأمير «نيكولا آندريتيش»الأميرة ماريا، غداة رحيل ابنه وقال لها:

– حسناً! أنت الآن مسرورة؟ أفسدت ما بيني وبين ابني، فهل أنت مسرورة؟ هذا كل ما كنت تبغينه! هل سررت؟... إن ذلك يشق علي... أنا عجوز ضعيف، وهذا هو ما كنت تبغينه. افرحي اذن، افرحي...

بعد ذلك لم تر الأميرة ماريا أباها طوال الأسبوع. كان مريضاً و لم يكن يخرج من مكتبه.

ولشد ما دهشت الأميرة ماريا عندما رأت أن أباها لم يكن يقبل بدخول الآنسة «بورين» عليه أثناء مرضه. كان «تيخون» وحده هو الذي يعنى به.

في مدى ثمانية أيام، عاد الأمير إلى الظهور، واستأنف حياته القديمة، وبدا جم النشاط بصدد البناء وغرس الأشجار، وتبدل كلياً مع الآنسة «بورين». وكان شكله ولهجته الباردة التي يصطنعها مع ابنته كأنما يقولان: «أرأيت، لقد لفقت كل شيء، ووشيت بي إلى الأمير آندريه حول علاقاتي بهذه الفرنسية فأفسدت ما بيني وبينه، وها أنت ذي ترين أنني لست بحاجة إليك ولا إلى الفرنسية».

كانت الأميرة ماريا تقضي نصف نهارها قرب «نيكولا» الصغير وتشرف على دروسه، وتعطيه دروساً في اللغة الروسية والموسيقا وتتحدث مع «ديسال»؛ أما النصف الثاني فتقضيه في القراءة، ومع مربيتها العجوز، ومع «رجال الله» الذين يأتون لرؤيتها أحياناً من مدخل الخدم.

أما رأي الأميرة ماريا بالحرب فكان كرأي جميع النساء. كانت قلقة على أخيها الذي كان هناك، وكانت تستفظع، من غير فهم، وحشية البشر التي دفعتهم إلى أن يقتل بعضهم بعضاً؛ لكنها لم تكن تدرك أهمية هذه الحرب التي بدت لها كغيرها من الحروب السابقة. لم تكن تدركها مع أن «ديسال» محدثها المعتاد الذي كان يتابع بشغف سير العمليات حاول أن يشرح لها وجهات نظره، ومع أن «رجال الله» الذين كانوا يزورونها تحدثوا بخوف، وكل على طريقته، عن الشائعات الشعبية وعن غزو المسيح الدجال، ومع أن «جوليا» التي غدت الأميرة «دروبتسكوي» والتي استأنفت مراسلتها من موسكو كتبت إليها رسائل وطنية. كانت جوليا تقول لها في أحد رسائلها:

«أكتب إليك، يا صديقتي، باللغة الروسية لأنني أشعر بالكره لجميع الفرنسيين وللغتهم التي لا أطيق سماعها بعد الآن... نحن في موسكو نطير حماسة لإمبراطورنا المعبود».

«إن زوجي المسكين يقاسي المشقات والجوع في أَنْزال اليهود؛ لكن الأنباء التي بلغتني تزيد من اشتعال حماستي».

«لابد أنك سمعت بمأثرة «رايفسكي» البطولية وهو يعانق ولديه ويقول: «نموت معاً ولا نذل». والواقع أن العدو كان أقوى منا مرتين، ولم نذل. إننا نمضي وقتنا كيفما اتفق لنا، وكما تتطلب الظروف.

وتلازمني الأميرة «آلينا» و«صوفيا» أياماً بكاملها فنتحدث كأرامل لأزواج أحياء، أحاديث رائعة ونحن نشتغل في صنع نسالات الضماد، ونحن مشتاقات إليك... الخ».

كان السبب الرئيسي الذي حال دون فهم الأميرة ماريا لأهمية الحرب هو أن الأمير الشيخ لم يتطرق إلى الحرب بكلمة، متغافلاً عنها، هازئاً، على المائدة، من «ديسال» الذي يتحدث عنها. كانت لهجة الأمير هادئة واثقة، إلى الحد الذي جعل ماريا تثق به دون أن تطرح عليه أسئلة.

بدا الأمير الشيخ، طوال شهر تموز، في غاية النشاط والحيوية. فأمر بغرس حديقة جديدة وببناء ملحق جديد للخدم. لكن شيئاً واحداً أقلق الأميرة «ماريا»: ذلك أنه كان قليل النوم وأنه تخلى عما اعتاده من نوم في مكتبه، فكان يبدل في كل ليلة منامه. كان ينصب سرير الميدان في الرواق، تارة، وكان تارة أخرى، ينام على أريكة، أو على مقعد من طراز «فولتير»، في ثيابه، والفتى «بيتروشا» يقرأ له بدلاً من الآنسة «بورين». وربما قضى الليل أحياناً في غرفة الطعام.

في الأول من آب، وصلت من الأمير آندريه رسالة ثانية. وفي الرسالة الأولى التي وصلت بعد فترة قصيرة من رحيله، التمس بخضوع صفح أبيه عما بدر منه ورجاه أن يعود إلى سابق حبه له. فأجابه الأمير الشيخ برسالة ملؤها الحب، ومنذ ذلك الوقت أبعد الآنسة الفرنسية عنه. أما الرسالة الثانية التي كتبها الأمير آندريه من ضواحي «فيتبسك» بعد احتلال الفرنسيين لهذه المدينة، فتحتوي على وصف موجز للمعركة مع مخطط مرسوم في الرسالة نفسها، كما تحتوي على بعض الملاحظات حول تطور العمليات المقبل. وقد صور الأمير آندريه لأبيه مساوئ البقاء على مقربة من مسرح الحرب، على خط تحركات القطعات نفسه، وأشار عليه بالانتقال إلى موسكو.

أثناء الغداء، في هذا اليوم، تذكر الأمير الشيخ هذه الرسالة عندما أنبأهم «ديسال» أن «فيتيبسك» أصبحت في أيدي الفرنسيين، على ما يبدو، وقال للأميرة ماريا:

– تلقيت رسالة من الأمير آندريه، ألم تقرئيها؟

أجابت الأميرة مذعورة:

– لا يا أبي.

وكيف يمكنها أن تقرأ رسالة تجهل وصولها ذاته.

قال الأمير وهو يتبسم ابتسامة استخفاف غدت عادة له عندما يتطرق إلى هذا الموضوع:

– إنه يتحدث عن هذه الحرب.

فقال «ديسال»:

– لابد أن يكون ذلك شائقاً جداً. ففي مقدور الأمير أن يعلم...

وقال الآنسة «بوريين»:

– آه! نعم، شائق جداً.

فقال لها الأمير الشيخ:

– ائتيني بها فهي على الطاولة الصغيرة تحت المثقلة. فوثبت الآنسة على قدميها بفرح.

ثم صرخ وقد تجهم وجهه:

– آه! كلا. اذهب أنت يا «ميشيل ايفانتش»

نهض «ميشيل ايفانتش» وذهب إلى مكتب العمل. لكنه لم يكد يخرج حتى رمى الأمير الشيخ بفوطته، وهو ينظر حوله نظرات قلقة، وذهب بنفسه:

–هؤلاء الناس لا يحسنون شيئاً، وقد يفسدون كل شيء.

أثناء غيابه تبادل الجميع النظرات بصمت. ثم عاد الأمير بخطى سريعة يصحبه «ميشيل ايفانيتش»، ومعه الرسالة والمخطط اللذان وضعهما بجانبه، دون أن يسمح لأحد بقراءتهما أثناء الغداء.

ولما انتقلوا إلى قاعة الاستقبال سلم الرسالة إلى الأميرة ماريا، وطلب إليها، وهو ينشر أمامه مخطط البناء الجديد الذي حدق فيه، أن تقرأ بصوت عال. وبعد أن قرأت الرسالة ألقت الأميرة ماريا على أبيها نظرة مستفهمة. كان يتفحص المخطط، وكان واضحاً أنه مستغرق في تأملاته.

وأباح «ديسال» لنفسه أن يسأل:

– ما رأيك في هذا كله، أيها الأمير؟

أجاب الأمير، دون أن يرفع بصره عن المخطط، وكأنما كان يستيقظ من نومه على مضض:

– أنا؟ أنا؟...

– قد يقترب مسرح العمليات منا اقتراباً شديداً...

فقال الأمير:

–ها! ها! ها! مسرح العمليات! لقد قلت دائماً وأعيد القول أن مسرح العمليات هو «بولونيا» وأن العدو لن يتجاوز «النييمين».

نظر «ديسال» بدهشة إلى الأمير الذي كان يتحدث عن «النييمين»،

في حين أن العدو بلغ «الدنيبر»؛ لكن الأميرة ماريا التي نسيت موقع «النييمين» الجغرافي رأت أن أباها على حق.

وأضاف الأمير وقد خطرت بباله حملة ١٨٠٧ التي بدت له حديثة العهد:

–سيغرقون في مستنقعات بولونيا أثناء ذوبان الثلوج. وهم وحدهم عمي عن ذلك. كان على «بينيغسن» أن يدخل إلى بروسيا قبل ذلك، اذن لاتخذت الأشياء وجهاً آخر...

– لكن الرسالة تتحدث، أيها الأمير، عن «فيتيبسك»

قال الأمير وهو ممتعض:

– آه! الرسالة؟ نعم...

اكفهر وجهه فجأة وصمت لحظة وأضاف:

– نعم، لقد كتب أن الفرنسيين كسروا، قرب أي نهر كان ذلك؟

خفض «ديسال» بصره وقال بصوت خفيض:

– لم يذكر الأمير شيئاً بهذا الصدد.

– حقاً؟ لكني لا أستطيع اختراع ذلك كله.

ران الصمت. ثم استأنف الأمير كلامه على حين غرة وهو يرفع رأسه ويشير إلى المخطط:

– نعم، نعم... قل لي يا «ميشيل ايفانيتش» كيف ستعدل هذا....

دنا «ميشيل ايفانيتش» منه. وبعد أن حدثه الأمير عن مخطط البناء الجديد حدج الأميرة «ماريا» و«ديسال» بنظرة سريعة غاضبة وانصرف إلى غرفته.

رأت الأميرة ماريا ما في نظرة «ديسال» إلى أبيها من ضيق ودهشة، ولاحظت صمت أبيها، وذهلت اذ شاهدت أباها ينسى رسالة ابنه على المائدة؛ لكنها لم تكن تخاف أن تكلم «ديسال» وأن تسأله عن سبب ارتباكه وصمته فحسب، بل إنها كانت تخاف التفكير ذاته في ذلك أيضاً.

وفي المساء، جاء «ميشيل ايفانيتش» إلى غرفة الأميرة ماريا يسألها من قبل الأمير، عن رسالة الأمير آندريه المنسية في قاعة الاستقبال. فأعطته إياها، وأجازت لنفسها أن تسأله، مهما بدا سؤالها كريهاً، عما كان يفعله أبوها.

فأجابها «ميشيل ايفانيتش» وعلى وجهه ابتسامة سخرية مغشاة بالاحترام شحب لها وجه الأميرة ماريا:

- إنه يعذب نفسه كعادته. فهو يحمل نفسه هموماً ثقالاً بسبب المبنى الجديد.

وأضاف «ميشيل ايفانيتش» وهو يغض من صوته:

لقد قرأ قليلاً ولا ريب أنه مشغول الآن بوصيته في مكتبه. (من المشاغل المفضلة التي انكب عليها الأمير منذ زمن تكديس الأوراق التي يريد تركها بعد موته والتي يسميها وصيته).

وسألت الأميرة ماريا:

- وهل ينوي أن يرسل «ألباتيتش»[1] إلى سمولنسك؟

- بالتأكيد، فهو ينتظر منذ زمن طويل.

***

١- الباتيتش: ابن الباب (صورة مشوهة للإسم اليوناني أوباتوس)، عندما يخاطب الفلاحون فإنهم يدعون باسم العائلة فقط.

الفصل الثالث

عندما عاد «ميشيل ايفاينتش» بالرسالة، كان الأمير جالساً إلى مكتبه المفتوح، ونظارتاه على أنفه، وعاكس النور أمام عينيه وعلى الشموع، ممسكاً بالأوراق بعيداً عن عينيه في حركة عليها شيء من المهابة. كان يقرأ هذه الأوراق (أو الملاحظات كما سماها) التي ينبغي ايصالها إلى الإمبراطور بعد موته.

وحين دخل عليه «ميشيل ايفاينتش»، كانت عيناه مبللتين بالدمع على ذكرى الزمان الذي كتب فيه ما يقرؤه الآن.

فأخذ الرسالة منه ودسها في جيبه ورتب أوراقه واستدعى «الباتيتش» الذي كان ينتظر منذ زمن طويل.

كان قد سجل على ورقة ما ينبغي أن يشتريه من «سمولنسك»، فأخذ يلقي أوامره إلى «ألباتيتش» الذي كان ينتظره قرب الباب، وهو يروح ويجيء في الغرفة:

-اشتر لي قبل كل شيء ورقاً للرسائل، أتسمع، ثماني رزم من هذه العينة، مذهبة الأطراف... مطابقة لهذه العينة بالذات، وطلاء وشمعاً للختم، حسب قائمة «ميشيل ايفاينتش».

ثم خطا خطوات في الغرفة ونظر نظرة خاطفة إلى مذكرته وقال:

- وسلم بنفسك إلى الحاكم رسالتي هذه بشأن التجنيد.

ولابد من أقفال لأبواب المبنى الجديد، من النوع الذي اخترعه هو بالذات، ولابد من محفظة خاصة تودع فيها الوصية.

دامت أوامره قرابة ساعتين. ولم يدع «الباتيتش» يذهب. ثم جلس وأخذ يفكر وأغمض عينيه وغفا. وأتى «الباتيتش» حركة، فقال له الأمير:

- حسناً! انصرف، انصرف، سأدعوك إن احتجت إلى شيء.

خرج «الباتيتش»، وعاد الأمير إلى مكتبه وألقى عليه نظرة سريعة ومر بيده على أوراقه، وأغلق الباب، وجلس إلى الطاولة ليكتب إلى الحاكم.

عندما نهض بعد أن ختم الرسالة بالشمع، كان الوقت متأخراً، وكان النعاس يرنق في عينيه، لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع النوم، وأن أشد الأفكار سواداً هي التي تلم به في سريره. فدعا إليه «تيخون» وجاب الغرف معه ليدله على المكان الذي ينصب فيه سريره لهذه الليلة. كان يتفحص بعناية كل زاوية.

لم يعجبه مكان من الأمكنة. لكن أسوأها كان المقعد الذي يستلقي عليه في مكتبه. كان هذا المقعد يخيفه، بسبب الأفكار المقلقة التي انتابته عليه، ولا ريب. ولم يرتح إلى أي مكان. بيد أن أفضل ما وقع عليه ركن صغير وراء المعزف لم ينم فيه من قبل.

حمل «تيخوف» السرير بمساعدة أحد الخدم وأخذ يركزه هناك.

فصرخ الأمير:

- لا تضعه هكذا، لا تضعه هكذا؟

وأبعد السرير عن الزاوية قليلاً ثم قربه منها.

ثم حدث الأمير نفسه وتيخوف يخلع عنه ملابسه:

«ايه! فرغت أخيراً، من كل شيء. وسوف أستريح الآن».

تقبض وجه الأمير غيظاً من الجهد الذي اقتضاه نزع القفطان والسراويل، وخلع ملابسه وتهالك على السرير، وبدا مستغرقاً في تأملاته وهو ينظر بازدراء إلى ساقيه الصفراوين المعروقتين. لم يكن يفكر لكنه كان متردداً أمام الجهد الذي ينبغي أن يبذله لرفع ساقيه وللاستلقاء على السرير. وكان يحدث نفسه وهو يزم شفتيه: «أوه! ما أصعب هذا! أوه! ليت هذه الآلام تنتهي قريباً، وليتكم تتركونني أمضي!». ثم بذل ذلك الجهد بعد عشرين ألف مرة واستلقى على فراشه. لكنه لم يكد يضطجع حتى أخذ السرير يهتز تحته بانتظام من الأمام إلى الخلف، وكأنه كان يتنفس بجهد وهو يدفعه. كان ذلك يقع له كل ليلة تقريباً. وعاد ففتح عينيه اللتين أغمضهما لحظة.

وهمهم وكأنه يثور على أحد الناس إزاءه:

- لا سبيل إلى الراحة، أيها الملاعين! نعم، نعم، إن هناك شيئاً مهماً، شيئاً مهماً جداً احتفظت به لهذه الليلة في سريري. الأقفال؟ كلا، فهذه تكلمت عنها. إنه شيءٌ وقع في قاعة الاستقبال. لقد روت الأميرة ماريا حماقات، وكان «ديسال»، هذا الغبي، يتحدث عن شيء ما. في جيبي شيءٌ لا أذكر ما هو.

- تيشكا[1]! عمّ تكلمنا على المائدة؟

- عن الأمير «ميشيل»...

وضرب الأمير الطاولة بيده:

1- تيشكا: تصغير تيخون، للتحقير.

– اسكت، اسكت. نعم، عرفت، إنها رسالة الأمير آندريه. قرأتها الأميرة ماريا، وقال «ديسال» شيئاً بشأن «فيتبسك». سأقرؤها الآن.

وأمر بالرسالة وبتقريب المنضدة وعليها كأس من عصير الليمون وشمعة حلزونية، ثم وضع نظارتيه وأخذ يقرأ. حينذاك فقط، أدرك، في سكون الليل، وهو يقرأ الرسالة على الضوء الضعيف الذي كان يبعثه عاكسٌ أخضر، أدرك، للحظة من الزمن، مدى أهمية هذه الرسالة.

«الفرنسيون بلغوا «فيتبسك»، ويمكن أن يصلوا إلى «سمولنسك» بعد أربع مراحل؛ ولعلهم فيها الآن».

– تيشكا! –هب تيخون واقفاً– لا، لا داعي لذلك، لا داعي!...

وضع الرسالة تحت الشمعدان وأغمض عينيه. فتراءى له الدانوب في ظهيرة مشرقة، والقصبُ، والمعسكر الروسي، وتراءى لنفسه جنرالاً فتى، نضر الوجه، رشيق الحركة، مرح النفس، غضّ الإهاب، يدخل إلى خيمة «بوتمكين» المزينة. فاستولى عليه شعورٌ لاذع من الغيرة إزاء محظي الإمبراطورة، شعورٌ عارم كشعوره آنذاك. وتذكر جميع الكلمات التي تبادلاها أثناء هذه المقابلة الأولى. ورأى أمامه امرأة قصيرة، بدينة، سمينة الوجه، صفراء اللون –أمنا الإمبراطورة– رأى ابتسامتها، وسمع كلماتها الحلوة التي قالتها، وهي تستقبله لأول مرة، وتذكر الوجه نفسه في النعش ونزاعه مع «زوبوف»[1] أمام هذا النعش حول حق تقبيل يدها.

«آه! ليتني أعود إلى ذلك الزمن، وليت كل ما هو موجود الآن يمحي بأقصى سرعة؛ ليدعوني وشأني!».

***

١– ربما كان هذا النزاع مع آخر محظي للإمبراطورة الكونت افلاطون زوبوف (١٧٦٧–١٨٢٢).

الفصل الرابع

تقع «ليسييه خوري» ملك الأمير «نيكولا اندرئتش بولكونسكي» على ستين فرسخاً وراء سمولنسك وعلى ثلاثة فراسخ عن طريق موسكو.

وفي المساء نفسه الذي أصدر فيه الأمير تعليماته إلى «الباتيتش» طلب «ديسال» مقابلة الأميرة وقال لها: بما أن صحة الأمير غير حسنة وأنه لم يتخذ أي تدبير أمني، في حين أن الإقامة في «ليسييه خوري» لا تخلو من الخطر على حسب ما يظهر في رسالة الأمير آندريه، فهو يُشير عليها بكل احترام أن تبعث مع «الباتيتش» برسالة إلى حاكم المقاطعة في «سمولنسك» ترجوه فيها أن يُطلعها على حقيقة الوضع، وأن يُخبرها إلى أيّ حد كانت «ليسييه خوري» معرضة للخطر. وكتب «ديسال» الرسالة التي وقعتها وعهدت بها إلى «الباتيتش» مع أمر تسليمها إلى الحاكم يداً بيد، والعودة بأسرع ما يمكن، في حالة الخطر.

بعد أن تلقى «الباتيتش» هذه التعليمات مضى، وفي صحبته بطانتُه التي جاءت لوداعه، وعلى رأسه قبعة من فرو القندس الأبيض «هدية من الأمير»، وفي يده عصا كالتي يحملها سيده، واتخذ له مكاناً في عربة صغيرة ذات غطاء جلدي تجرها ثلاثة جياد مُحكمة الخلق.

عُلق الجرسُ الصغير وغُطيت الجلاجل بالورق. وكان الأمير لا

يسمح لأحد باستعمالها في «ليسييه خوري»؛ لكن «الباتيتش» كان يحب سماع الجلاجل في رحلاته الطويلة. وجاءت بطانتُه: الكاتب والمحاسب وطاهية الأمير وطاهية الخدم وامرأتان عجوزان وصبي والسائقون وبعض الخدم، جاءت بطانته هذه تتمنى له سفراً ميموناً.

وضعت ابنته على المسند والمقعد وسائد من ريش مغطاة بالنسيج الهندي. ودست أخت زوجه العجوز رزمة صغيرة خِفْية. وساعده أحد الخدم على الصعود وهو يسنده تحت ذراعيه.

قال «الباتيتش» وهو ينفخ، ويصطنع اللهجة السريعة التي يتكلم بها الأمير الشيخ:

– ايه! ايه! من أُهبة العجائز! العجائز! العجائز!

واستقر في العربة. وبعد أن أعطى آخر تعليماته بصدد الأعمال، حسر عن رأسه الأصلع، ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات، متخلياً عن تقليد سيده هذه المرة.

صاحت به امرأته ملمحة إلى الشائعات التي تتردد حول الحرب والعدو:

– إذا ما حدث شيء... فارجع يا «اياكوف ألباتّيتش». اشفق علينا، بجاه الله.

غمغم «الباتيتش» بينه وبين نفسه: «الله، من هؤلاء العجائز! من أهبة العجائز!».

وهو يتأمل ما حوله من الشيلم الذي اصفرّ هاهنا، ومن الشوفان الملتف الأخضر ها هناك، ومن الحقول السوداء التي بُديء بفلاحتها.

كان معجباً بهذا النمو البديع لقمح الربيع، وكان يتفحص حقول الشيلم التي حُصد بعضها، ويفكر بالبذار والحصاد، ويتساءل إن كان لم ينس شيئاً من أوامر الأمير.

بعد أن أطعم الخيل مرتين أثناء الطريق، وصل إلى المدينة في مساء الرابع من آب.

وقد صادف في طريقه قوافل وقطعات وتجاوزها. وعندما دنا من «سمولنسك» سمع طلقات نارية بعيدة، لكنه لم يُلق إليها بالاً على أن أكثر ما أدهشه هو أنه رأى، على مشارف المدينة، حقلاً بديعاً من الشوفان يحصده جنودٌ خيموا عنده، ولاشك أنهم سيتخذونه علفاً لخيولهم: أدهشه هذا الأمر لكنه ما لبث أن نسيه حين أخذ يفكر بما يتعيّن عليه أن يفعله.

كان كل ما يعني «الباتيتش» من الحياة محصوراً، منذ ثلاثين عاماً، بإرادة الأميرة وحدها. فلم يكن يخرج من هذه الدائرة. أما ما لا يتعلق بتنفيذ أوامر سيده فلم يكن بعيداً عن اهتمامه فحسب بل أنه لم يكن موجوداً بالنسبة إليه.

حين وصل «الباتيتش» إلى سمولنسك في مساء الرابع من آب، نزل عند الضفة الأخرى من الدنيبر، بضاحية «غاتشا»، في نَزل يديره بوابٌ قديم هو «فيرابونتوف» تعود أن ينزل عنده منذ ثلاثين عاماً. كان «فيرابونتوف» قد اشترى قبل اثني عشر عاماً، بناءً على مشورة «الباتيتش»، غابةً من الأمير، واتجر بها حتى أصبح يملك الآن بيتاً ونَزلاً ومخزناً للطحين. كان رجلاً ضخم الجثة، محمّر الوجه، في الأربعين من عمره، أسود الشعر، غليظ الشفتين، ذا أنف كبير منتفخ وحدبتين فوق حاجبيه الأسودين المقطبين، وبطن عظيم.

كان يقف أمام دكانه المطلة على الشارع، بصدرة من القماش الهندي. فلما شاهد «ألباتيتش» أقبل عليه قائلاً:

– أهلاً بك يا «اياكوف ألباتيتش». الناسُ يتركون المدينة، وأنت قادمٌ إليها.

فسأله «ألباتيتش»:

– ولِمَ يتركون المدينة؟

– هذا ما أسأل عنه أنا نفسي. الناسُ حمقٌ. إنهم يخافون الفرنسيين.

فرد «ألباتيتش»:

– حكايات عجائز! حكايات عجائز!

– وهذا هو رأيي، يا «إياكوف ألباتيتش». إنني أقول: مادام الأمرُ يمنعهم من الدخول قد صار فليس هناك ما يبعث على الخوف. ثم إن الناس يطلبون ثلاث روبلات أجرة العربة الواحدة، ناسٌ لا وجدان لهم!

كان «إياكوف ألباتيتش» يصغي بانتباه. ثم طلب سماوراً وعلفاً لخيله، وبعد أن شرب الشاي أوى إلى فراشه.

ظلت القطعات تمر في الشارع، أمام النزل، طوال الليل. وفي اليوم التالي ارتدى «ألباتيتش» معطفه الرسمي الذي لم يكن يلبسه إلا في المدينة ومضى لإنهاء أعماله. كانت الصبيحة مشمسة، ولم تأت الساعة الثامنة حتى غدا الجو حاراً. وقال في نفسه: ما أحسن هذا اليوم للحصاد. ومن وراء المدينة ترامت إلى الأسماع، منذ الصباح الباكر، أصوات التراشق بالبنادق.

بدءاً من الساعة الثامنة انضمت أصوات المدافع إلى طلقات البنادق.

وامتلأت الشوارع بالجنود والناس المسرعين. لكن العربات ظلت تجري، كعادتها، وظل التجار على أبواب دكاكينهم، وظلت الصلوات تُتلى في الكنائس. وقد ذهب «ألباتيتش» إلى الدكاكين، والإدارات العامة، والبريد، وإلى دار الحاكم فوجد الناس جميعاً يتحدثون فيها عن الجيش، وعن العدو الذي يهاجم المدينة، ووجدهم يتساءلون عما يجب عمله، وكانوا جميعاً يجهدون في أن يدخلوا الأمن والطمأنينة بعضُهم إلى قلوب بعض.

ألفى «ألباتيتش» أمام دار الحاكم كثيراً من الناس، وقوزاقاً، وعربة الحاكم. ولقي على الدرج سيدين يعرف أحدهما. كان هذا رئيساً قديماً لشرطة المقاطعة، وكان يتكلم بحماسة نارية:

– لم يعد الأمر مزاحاً. والأمرُ محمولٌ لمن كان وحده. إذا كان للمرء رأس واحد فهو لا يبكي سوى مرة واحدة عندما تلمّ به المصائب، أما إذا كانت له عائلة من ثلاثة عشر شخصاً، وإذا كانت له أملاكٌ... هل رأى الناس مثل هؤلاء القادة!... لقد أفضى سوءُ تدبيرهم إلى هلاكنا جميعاً. آه...! لو كان الأمر بيدي لشنقتهم عن بكرة أبيهم، هؤلاء اللصوص الأشقياء... قال له رفيقه:

– ما لك، هلا هدأت.

فرد عليه قائدُ الشرطة القديم:

– وماذا يضيرني لو سمعوا! لسنا كلاباً، على كل حال.

وعندما التفت شاهد «ألباتيتش».

–آه! «اياكوف ألباتيتش»، ماذا جئت تفعل هنا؟

فأجاب «ألباتيتش» وهو يشمخ بأنفه ويدخل يده من خلال فتحة المعطف، وذلك ما كان يفعله دائماً عندما يتكلم عن سيده:

- إنني ذاهب إلى الحاكم بأمر من سموه... لقد تفضل فكلفني الاستعلام عن الوضع.

فصرخ به النبيل الريفي:

- طيب! استعلم عن الوضع إذن! لقد رتبوا شؤونهم بحيث لم تبق عربات، لم يبق شيء!...

وأضاف وهو يشير إلى الجهة التي تنبعث منها أصوات الانفجارات:

- ها هو ذا الوضع، هل تسمع؟

وكرر قائلاً وهو يهبط الدرج:

- لقد أفضى سوء تدبيرهم إلى هلاكنا جميعاً... اللصوص الأشقياء!

هز «ألباتيتش» رأسه وصعد الدرج، وفي غرفة الانتظار كان التجار والنساء والموظفون يتبادلون النظرات بصمت. ثم فتح باب المكتب فنهض الجميع وتقدموا. وخرج منه موظف على عجل، وقال شيئاً لأحد التجار، ونادى موظفاً ضخماً يحمل وساماً حول عنقه كي يتبعه وعاد فاختفى خلف الباب متوارياً عن الأنظار المتجهة إليه متملصاً من الأسئلة جميعاً. تقدم «ألباتيتش»، وعندما ظهر الموظف مرة أخرى خاطبه، وهو يمد له الرسالتين، وقد أدخل يده في معطفه المزرر.

- إلى سيادة البارون «آشن» من قبل الجنرال الأعلى الأمير بولكونسكي[1].

قال ذلك بلهجة رسمية، مهيبة، حملت الموظف على أن يلتفت إليه

١- الجنرال الأعلى: لقب فخري كان بعض الجنرالات ينالونه في القرن الثامن عشر ويحتفظون به بعد تقاعدهم.

وأن يتناول الرسالتين. وبعد لحظات استقبل الحاكم «ألباتيتش» وأعلن له بسرعة:

- أبلغْ الأمير والأميرة أنني لم أطلع على شيء، وأنني تصرفت بمقتضى الأوامر العليا.

وناوله ورقة وقال:

- خذْ هذه. على كل حال، بما أن الأمير عليل، فأنا أنصحه بالسفر إلى موسكو. وها أنا ذا ذاهب إليها من فوري. قل له...

لكن الحاكم لم يتم كلامه، إذ اقتحم الغرفة ضابط يتصبب عرقاً، مغطى بالغبار وكلمه بالفرنسية. فارتسم الذعر على ملامح الحاكم. وقال لألباتيتش وهو يصرفه بإشارة من رأسه:

- اذهب.

وراح يُسائل الضابط.

عندما خرج «ألباتيتش» من مكتب الحاكم اتجهت إليه نظرات متعطشة ملأى بالخوف والجزع. فأسرع بالعودة إلى النزل وهو يصيخ السمع إلى الانفجارات التي غدت أقرب وأشد. كان مضمون الورقة التي سلمه إياها الحاكم كما يلي:

«أؤكد لك أن مدينة سمولنسك لا تتعرض لأدنى خطر، وليس محتملاً أن يتهددها مثل ذلك الخطر. إن الأمير «باغراتيون» من جهة، وأنا، من جهة أخرى، نزحف لنحقق الاتصال أمام سمولنسك، في الثاني والعشرين من هذا الشهر. وسوف يدافع الجيشان بكل قواهما عن مواطنيهم في المقاطعة الموكلة إليك إلى أن تُبعد جهودهما الأعداء

من الوطن، أو يسقط آخر جندي في الصفوف الباسلة. أنت ترى إذن أن لك ملء الحق في طمأنة سكان سمولنسك، ذلك أنه عندما يدافع عنهم جيشان بهذه البسالة، فيمكنهم أن يثقوا بالنصر». (أمر يومي من «باركلي» إلى حاكم سمولنسك المدني، البارون «آش»، ١٨١٢).

كان الأهلون يطوفون الشوارع قلقين.

وكانت العربات المحملة بالأواني والكراسي والخزائن الصغيرة تخرج دون انقطاع من أفنية البيوت وتدلف إلى الشوارع. وأمام البيت المجاور لنزل «فيرابونتوف» كان هناك أيضاً عربات؛ وكانت النسوة يُعولن وهن يودعن بعضهن بعضاً. وراح كلب صغير ينبح بين قوائم الخيول المقرونة.

دخل «ألباتيتش» إلى فِناء النزل بخطى أسرع من عادته واتجه رأساً إلى السقيفة التي أودع فيها خيله وعربته. كان الحوذي نائماً، فأيقظه ليجهز العربة ودخل إلى المنزل. وتراءى إلى سمعه من غرفة أصحاب النزل، نشيج طفل، ونحيب امرأة يمزق القلب، وصرخات فيرابونتوف الهائجة الجشاء. كانت الطاهية تضطرب في الممر كالدجاجة المذعورة عندما دخل «ألباتيتش».

- لقد قتلها، لقد قتل السيدة!... لَكَمْ ضربها وجرها على الأرض!...

سألها «ألباتيتش»:

ولَمَ ذلك؟

طلبت إليه الذهاب. إنها امرأة، ومن السهل أن نفهم طلبها! قالت

له: خذني ولا تدعني أموت مع صغاري؛ لقد رحل الناس جميعاً فماذا ننتظر؟ عند ذاك بدأ يضربها... لكم ضربها وجرها!

هز «ألباتيتش» رأسه كأنه يوافق على هذه الكلمات، واتجه، وهو يأبى أن يسمع المزيد، إلى الباب المواجه، باب غرفة أصحاب النزل، حيث ترك مشترياته.

في هذه اللحظة صرخت امرأة نحيلة شاحبة وهي تُفلت من الغرفة وتُهرع إلى الدرج المؤدي إلى الفناء، وعلى ذراعها ابنها، وقد كاد يسقط شالها عن رأسها:

- مجرم، سفاك.

وخرج «فيرابونتوف» بدوره، فلما رأى «ألباتيتش» سوى صدرته وشعره وتثاءَب ولحق به إلى الغرفة، وسأله:

- ماذا: أتنوي الرحيل؟

ودون أن يجيبه «ألباتيتش» وأن ينظر إليه، سأله عن الحساب.

- لن نختلف على ذلك! وإذن فقد ذهبت إلى الحاكم؟ ماذا تَقَرّر؟

رد «ألباتيتش» بأن الحاكم لم يقل له شيئاً، على الإطلاق.

قال «فيرابونتوف»:

- كيف يمكن نقل متاع كمتاعي؟ إنهم يطلبون سبعة روبلات، أجرة العربة إلى «دوروجوبوج» وحدها. أؤكد لك أنهم ناس لا وجدان لهم!

ثم أضاف قائلاً:

- أما «سيليفانوف» فكانت صفقته رابحة: لقد باع طحينه إلى

الجيش، يوم الخميس، كل كيس بتسعة روبلات. ألا تريد أن تتناول الشاي؟

وبينما كان الحوذي يُعد العربة، تناول الرجلان الشاي وهما يتحدثان عن سعر القمح وعن الغلة وعن الوقت المناسب للحصاد.

ولاحظ «فيرابونتوف» الذي نهض بعد أن أفرغ ثلاثة أقداح من الشاي:

-كأنما عاد الهدوء. ربما كانت الغلبة لرجالنا. لقد قيل لنا: إنهم لن يسمحوا للعدو بالدخول. نحن إذن، أقوى... يبدو أن «ماتفي ايفانيتش بلاتوف» القى بهم منذ أمد قريب في «المارينا»[1]، وغرق في يوم واحد ما يقرب من ثمانية عشر ألفاً.

لمَّ «ألباتيتش» مشترياته، وسلمها إلى الحوذي، ثم دفع إلى صاحب النزل حسابه. ومن البوابة وافى صوت عجلات العربة الصغيرة التي كانت تخرج، ووقع الحوافر ورنين الجلاجل.

كان الوقت عصراً، فجانب من الشارع غارق في الظلمة وجانب تنيره الشمس على نحو باهر. ألقى «ألباتيتش» نظرة من النافذة ويمَّم شطر الباب. وإذا بصفير غريب يُسمع فجأة من بعيد وبصوت شيء يسقط، ثم دوى بعدهما قصف مدفعي متصل هز الزجاج.

خرج «ألباتيتش» إلى الشارع؛ مرّ رجلان وهما يركضان باتجاه الجسر. كان يُسمع من كل صوب صفير القذائف ورجها، وانفجار القنابل الساقطة في المدينة. لكن هذه الأصوات لم تكن شيئاً مذكوراً، ولم تكد تلفت انتباه الأهلين، بجنب القصف المدفعي الذي كان يدوي

١- بلاتوف: جنرال قوزاق الدون. والمارينا نهر صغير يصب في الدنيبير.

في ضواحي المدينة. كان هذا هو القصف الذي باشره نابليون على سمولنسك، منذ الساعة الخامسة، بمئة وخمسين مدفعاً. ولم يدرك الأهلون، للوهلة الأولى، جليّة الأمر.

لم يُثر صوت القنابل والقذائف المتساقطة سوى الفضول، بادئ ذي بدء. فزوجة «فيرابونتوف» التي لم تكف عن النحيب، حتى هذه اللحظة، سكتت وذهبت إلى البوابة، وابنها على ذراعها، لتتطلع بصمت إلى المارة ولتصيخ السمع إلى أصوات القذائف.

وانضم إليها الطاهية وصاحب الحانوت. كانوا جميعاً يحاولون، بفضول فرح، مشاهدة القذائف التي تمر فوق رؤوسهم. وظهر بعض الرجال في زاوية الشارع وهم يتحادثون بحرارة. قال أحدهم.

– ما أشدَّ قوتها! طار السقف والسطح مزقاً.

وقال آخر:

– لقد فلحت الأرض فلحاً كما يفعل الخنزير بخطمه.

وأضاف ضاحكاً:

– عجيبة، إنها تشد من عزيمة المرء! من حسن الحظ أنك قفزت جانباً، وإلا لسحقتك سحقاً.

سأل الناس هؤلاء الرجال عما يجري. فوقف هؤلاء ورووا لهم أن قذيفة سقطت على منزل قريب منهم. على أن القذائف ظلت تمر فوق رؤوسهم: كرات المدافع بصفيرها السريع الكالح والقنابل بصفيرها الخفيف الرخيم، لكنها لم تكن تسقط في الأمكنة القريبة. كان «ألباتيتش» يصعد إلى العربة، وصاحب النزل يقف على عتبة الباب.

وصرخ هذا مخاطباً الطاهية ذات التنورة الحمراء التي اقتربت من زاوية الشارع لتسمع ما يقال، وقد شمرت كميها وخطرت بمرفقيها العاريين:

– علام تتفرجين؟

فقالت:

– إن ما يجري مذهل!

لكنها حين سمعت صوت معلمها رجعت أدراجها وهي تشد تنورتها المشمرة.

وانطلق صفير من شيء قريب هذه المرة، وكما يهوي عصفور من عل، انبعث بريق في وسط الشارع، ودوى انفجار، وتغطى كل شيء بالدخان.

صرخ صاحب النزل وهو يُهرع نحو الطاهية:

– ماذا فعل، الآثم؟

وفي اللحظة نفسها علت صرخات النساء المعولات من جهات شتى، وأخذ طفل مذعور يبكي، واحتشد الناس حول الطاهية، صامتين شاحبين. وكان أنينها وصيحات توجعها تطغى على الأصوات الأخرى:

– أوه، أوه، أوه! أصحابي! يا أصحابي الطيبين! لا تدعوني أموت! يا حماماتي البيضاء!...

في غضون خمس دقائق لم يبق أحد في الشارع. ونُقلت الطاهية التي كسر وركها بشظية قذيفة إلى مطبخها. ولجأ «ألباتيتش» وسائقه

وزوجة «فيرابونتوف» وأولادها والحارس إلى القبو وراحوا يصيخون السمع. ولم ينقطع لحظة واحدة قصف المدافع وصفير القذائف وتأوهات الطاهية المثيرة للشفقة التي طغت على الأصوات جميعاً. وكانت زوجة صاحب النزل تهدهد ابنها وتهدئه تارة، وتارة أخرى تسأل جميع النازلين إلى القبو عن زوجها الذي بقي في الشارع. قال لها الحانوتي أنه لحق بالجمهور إلى الكنيسة حيث شُرع في رفع أيقونة «سمولنسك» العجائبية[1].

سكن القصف المدفعي، عند الغسق. فخرج «ألباتيتش» من القبو ووقف على عتبة الباب. وأظلمت السماء من الدخان بعد أن كانت صافية. ومن خلال هذا الدخان، أرسل الهلال من كبد السماء خيوطاً من الضوء الغريب. وبعد قعقعة المدافع الرهيبة، بدت المدينة كأنما يلفها صمت لا تعكره سوى ضوضاء مخنوقة منتشرة في كل مكان من خطوات الناس وتأوهاتهم وصرخاتهم البعيدة ومن طقطقة الحرائق. وتوقف أنين الطاهية. وصعدت فوق الحرائق أعمدة سوداء من الدخان وامتدت على جانبيها. وفي الشارع كان الجنود، ببزاتهم المتباينة، يسيرون أو يركضون في كل الاتجاهات، لا في صفوف منتظمة، بل كما يدب النمل الذي خُرّبت قريته. ودلف بعضهم إلى فناء نزل «فيرابونتوف» على مرأى من «ألباتيتش» سار «ألباتيتش» إلى البوابة الخارجية. وإذا بفوج يتدافع ويُسرع ويزحم الشارع، وهو يتراجع. فقال له ضابط حين شاهده:

امض، امض، فسوف تُخلى المدينة.

١- أيقونة كبيرة لمريم العذراء كانت تحفظ في كنيسة سمولنسك منذ القرن الرابع عشر وتعتبر عجائبية.

ثم نظر الضابط إلى الجنود وهو يصرخ:

–سأعلمكم كيف تدخلون الأفنية!

عاد «ألباتيتش» إلى النزل ودعا الحوذي وأمره أن يستعد للرحيل. ثم خرج في إثرهما جميع من في النزل. فلما رأت النسوة دخان الحرائق وألسنة اللهب التي أمكن رؤيتها في الغسق أخذن ينحْن، وكن من قبل صامتات. وجاوبهن من أطراف الشارع نواح كأنه صدى لنواحهن. وفي ظل الإفريز، كان «ألباتيتش» يساعد حوذيّه، بيديه المرتجفتين، على تخليص الأعنة والمقاود التي تداخلت، بعضها من بعض.

بينما كانت العربة تعبر البوابة لمح في دكان «فيرابونتوف» المفتوحة حوالي عشرة جنود يملؤون أكياسهم بالطحين وبزر دوار الشمس. وفي هذه اللحظة بالذات دخل «فيرابونتوف» عائداً من الشارع. فلما رأى الجنود أراد أن يصرخ، لكنه توقف فجأة وأمسك شعره بيديه وانفجر في ضحك مملوء بالنحيب. وصاح بهم، وهو يَعْتل الأكياس بنفسه ويرميها في الشارع:

– خذوا كل شيء، يا شباب! لا تدعوا شيئاً لهؤلاء الشياطين!

ففر بعض الجنود خوفاً، وظل بعضهم الآخر يملؤون أكياسهم.

وحين رأى «فيرابونتوف» «ألباتيتش» التفت إليه وصاح:

لقد قُضي على روسيا! قضي عليها! سأحرق كل شيء بنفسي، قضي عليها!...

واندفع مسرعاً إلى الفناء.

كان الجنود يتدفقون أمواجاً متصلة في الشارع الذي سدوه بأكمله

حتى أن «ألباتيتش» عجز عن المرور واضطُر إلى الانتظار، كما أن زوجة «فيرابونتوف» كانت تنتظر أيضاً هي وأطفالها، في عربة، كي يتسنى لها المرور.

خيم الليل. وفي السماء المُنجمة، كان الهلال يلتمع، بين الحين والحين، خلال ستار من الدخان. وعند منحدر «الدنيبر» اضطُرت عربتا «ألباتيتش» وزوجة صاحب النزل إلى التوقف، وكانتا تجريان ببطء وسط صف من العربات والجنود. وغير بعيد عن المفترق الذي توقفتا فيه، كانت النار تشتعل في أحد البيوت وفي دكاكين على شارع هناك. وقد أشرف الحريق على نهايته. فكانت النار تخبو وتتلاشى في الدخان الأسود تارة، وتارة أخرى تُطلق على حين بغتة، حزمة من لهب يُضيء وجوه الذين يزدحمون عند المفترق بوضوح غريب. ونزل «ألباتيتش» من عربته، فلما أيقن أنه لن يُتاح له المرور في الحال مال إلى الشارع ليرى الحريق عن قرب. كان الجنود يروحون ويجيئون بغير انقطاع أمام الجمر، ورأى «ألباتيتش» اثنين منهم يساعدهم رجل ذو معطف مقصب يجرّون إلى فناء مجاور، عبر الشارع، جسوراً خشبية محترقة، ورأى آخرين يحملون أغماراً من القش.

دنا «ألباتيتش» من جمهور عظيم احتشد أمام مستودع عال اجتاحه الحريق. كانت الجدران نهباً للنيران، وقد انهار الجدار الخلفي، وتداعى السقف الخشبي، والتهبت الجسور الخشبية. كان الجمهور ينتظر، على ما يبدو، اللحظة التي ينهار فيها السقف. وذلك ما كان ينتظره «ألباتيتش».

وفجأة، صاح به صوت معروف:

- «ألباتيتش»

فرد «ألباتيتش» وقد عرف، من فوره، صوت الأمير الشاب:

- يا إلهي، سعادتك!

كان الأمير آندريه، خلف الجمهور، ينظر إليه وهو يتدثر بردائه، ويمتطي حصاناً أسود. سأل «ألباتيتش»:

- ماذا تفعل هنا؟

فأجاب «ألباتيتش» وقد انفجر باكياً:

- يا صاحب السعادة...، يا صاحب السعادة...، هل هُزمنا حقاً؟

وكرر الأمير آندريه:

- ماذا تفعل هنا؟

هبت النار فأضاءت وجه سيده الشاب، ذلك الوجه الشاحب المنهوك.

وقص عليه «ألباتيتش» كيف أرسل إلى «سمولنسك» وكيف تعسر عليه الرجوع. ثم كرر سؤاله:

وهل هزمنا حقاً، يا صاحب السعادة؟

أخرج الأمير آندريه دفتراً صغيراً، دون أن يجيبه، وكتب فوق ركبته المرفوعة، كلمات بالقلم الرصاص على ورقة انتزعها. كتب مايلي لأخته: «سوف تُخلى سمولنسك. وسوف يحتل العدو «ليسييه خوري» في مدى ثمانية أيام. اذهبوا من فوركم إلى موسكو. أخبريني فور رحيلكم برسالة إلى «أوسفياج»».

وبعد أن سلم الرقعة إلى «ألباتيتش» أصدر إليه تعليماته شفهياً بشأن

سفر الأمير والأميرة وابنه ومربيه، وبشأن الجواب الذي يجب أن يُرسل إليه مباشرة. ولم يكد يُنهي كلامه حتى أقبل نحوه ضابط ركن، على حصانه ووراءه تبعه، وصرخ بلهجة ألمانية وبصوت ألفه الأمير آندريه:

– أنت عقيد؟ المنازل تُحرق بحضورك، ولا تحرك ساكناً؟ ما معنى هذا؟ ستتحمل تبعة ذلك.

هكذا صرخ «بيرج» الذي غدا نائب رئيس أركان الجناح الأيسر في مدفعية الجيش الأول، وهو مركز لطيف مرموق، على حد قوله.

نظر إليه الأمير آندريه واستمر، دون أن يرد عليه، على حديثه مع «ألباتيتش».

– قل لهم إذن أنني أنتظر الجواب في العاشر من هذا الشهر، وإذا لم أتلق في هذا التاريخ رسالة تُشعرني بأن كل من في «ليسييه خوري» قد سافر، فسوف أُضْطر إلى أن أترك كل شيء وإلى أن أذهب بنفسي إلى «ليسييه خوري».

قال «بيرج» وكأنما أراد أن يُبرّئ نفسه بعد أن عرف الأمير آندريه:

– إذا كنت أتكلم على هذا النحو، أيها الأمير، فذلك لأن عليَّ أن أنفذ الأوامر، أن أنفذها بحذافيرها... أرجو المعذرة.

سُمع صوت تقصّف وسط اللهب. وهدأت النار لحظة، وانطلقت من السقف أعمدة الدخان الأسود. ثم علا صوت تقصّف أشد وانهارت كتلة ضخمة من المستودع.

وهدرت الجماهير: «هو – هو – هو»، محيّية بذلك انهيار سقف المستودع الذي انبعثت منه رائحة الخبز المحروق. وهب اللهب

وأضاء الوجوه المنهوكة التي تفيض بفرح جماعة متحلّقين حول جمر الموقد.

صاح الرجل ذو المعطف الصوفي الغليظ، وهو يرفع يده إلى الفضاء:

– عظيم! إنه يلتهب برمته! رائع، يا شباب!

قالت أصوات:

– هذا مالك المستودع ذاته.

قال الأمير آندريه لألباتيتش:

– فهمت؟ كرّرْ لهم ما قلت لك وكما قلته لك.

وهمز حصانه وتوارى في الشارع دون أن يرد بكلمة على «بيرج» الذي كان يقف بجنبه صامتاً.

***

الفصل الخامس

بعد «سمولنسك» ظلت القوات تتراجع، والعدو يلحق بها. وفي العاشر من آب مرّ الفوج الذي يقوده الأمير آندريه على الطريق الكبرى أمام الطريق التي تفضي إلى «ليسييه خوري». كان الجفاف والحرارة مستمرين منذ أكثر من ثلاثة أسابيع. وكانت الغيوم البيضاء كقطعان الغنم تجري في السماء كل يوم، وتغطي الشمس بين الحين والآخر، لكنها كانت تتبدد في المساء، فتغيب الشمس في ضباب أحمر تشوبه سمرة. كان ندى الليل الوفير وحده هو الذي يندي الأرض. وقد احترق القمح القائم وتساقط حبُّه، وجفّت المستنقعات وجأرت الدواب من الجوع حين لم تجد ما تغتذي به في المروج المتكلّسة من جراء الشمس. كانت النداوة تلم بالغابات في الليل وحده، وتستمر ما استمرت قطرات الندى. أما على الطريق، على الطريق الكبرى التي يسلكها الجند، فلم يكن هناك نداوة، حتى في الليل وحتى أثناء عبور الغابات. ذلك أن الندى كان يتبدد في غبار الطريق الرملي، المثار إلى عمق نصف قدم. فمنذ الفجر، تبدأ الحركة. وتسير القوافل والمدفعية بلا ضجيج، إذ تغوص، المدافع حتى قبّها، ويغوص المشاة حتى كعابهم، في هذا الغبار الملتهب، الرخو، الخانق الذي لم يكن يبرد في الليل. كان بعضه مما تثيره الأقدام والعجلات، وكان البعض الآخر يعلو على شكل سحابة فوق القطعات وينفذ إلى العيون والشعور والآذان والأنوف ولاسيما

إلى رئات الرجال والخيل. كانت السحابة تعلو كلما ارتفعت الشمس، ومن خلال هذا الغبار الدقيق المحرق، كان من الممكن للمرء أن يرى بالعين المجردة الشمس التي لا تغطيها أية غيمة والتي كانت تبدو مثل كرة أرجوانية ضخمة. كان الناس يختنقون في هذا الجو الساكن الذي لا ريح فيه ويسيرون وقد غطّوا أفواههم وأنوفهم بمناديلهم. فإذا مروا بالقرى تراكضوا إلى الآبار، وتقاتلوا على الماء، واستنزفوا ماءها حتى وحلها.

كان الأمير آندريه يقود فوجاً، وكانت إدارة ذلك الفوج، وراحة رجاله وضرورة تلقي الأوامر وإصدارها تستأثر به. وقد ترك فيه حريق سمولنسك والتخلّي عنها أثراً لا يمحى. وأنساه حزنه شعور جديد من الغضب الحاقد على العدو. كان يستفرغ جهده في سبيل فوجه وكان يفيض أنساً ورفقاً إزاء جنوده وضباطه. فكانوا يسمّونه «أميرنا» ويفخرون به ويحبّونه. لكنه لم يكن رفيقاً واسع الصدر إلا مع رجال فوجه، مع تيموخين والآخرين، وهم ناس جدد كل الجدة عليه، ينتسبون إلى وسط آخر، ولا يمكنهم أن يعرفوا ماضيه أو يفهموه، أما إذا لقي أحد زملائه القدماء، من جماعة الأركان تنمّر من فوره وغدا فظّاً ساخراً، مستخفاً. كان ينفر من كل ما يربطه بذكريات الماضي، ولذلك كان همه الوحيد، في علاقاته بوسطه القديم ألا يجور على أحد وأن يؤدي واجبه.

في الحقيقة، كان كل شيء يبدو، في نظر آندريه مظلماً، ولاسيما منذ التخلي عن «سمولنسك» (التي كان يمكن ويجب الدفاع عنها، برأيه)، ومنذ أن اضطر أبوه المريض إلى اللجوء إلى موسكو، وترك «ليسييه خوري» التي أحبها كثيراً وبناها وعمرها، هدفاً للنهب والسلب؛ على أن انشغاله بفوجه كان يمكن أن يحوّله عن التفكير في هذه المشاغل

العامة. وفي العاشر من آب وصل الرتل الذي فوجه جزء منه، إلى حذاء «ليسييه خوري». وكان الأمير قد تلقى قبل يومين نبأ رحيل أبيه وابنه وأخته إلى موسكو. ومع أنه لم يكن لديه ما يفعله في «ليسييه خوري»، فقد عزم على المرور بها تلبية لرغبة كامنة فيه وهي أن ينكأ جراحه القديمة.

أمر بحصان فأُسرج، ومن المرحلة التي توقف فيها الفوج، مضى إلى أملاك أبيه التي ولد فيها وقضى فيها طفولته. وعندما سار بحذاء المستنقع حيث كانت النسوة من قبل يخبطن غسيلهن ويقلّبنْه في الماء وهن يثرثرن، شاهد أنه لم يكن هناك أحد وأن الرمث الصغير الذي انفصل عن الشاطئ، والذي غاص نصفه في الماء، مازال عائماً في وسط المستنقع. اقترب من بيت الحارس، ولم ير أحداً قرب البوابة الحجرية الكبيرة، وكان الباب مفتوحاً. وقد طلع العشب في ممرات الحديقة، وكانت العجول والخيل ترعى في الحديقة المصنوعة على الطراز الإنكليزي. اتجه نحو البيوت الزجاجية: كان الزجاج محطّماً. وكانت الأشجار المغروسة في صناديق، مقلوبة أو جافة. ونادى البستاني «تاراس» فلم يجبه أحد. طاف بالبيوت الزجاجية حتى انتهى إلى المصطبة فرأى أن السقيفة الخشبية مدمّرة، وأن الذين أرادوا قطف الخوخ نزعوا الأغصان بخوخها. وكان فلاح شيخ (طالما رآه آندريه في طفولته قرب البوابة) جالساً على المقعد الأخضر يحيك جورباً.

كان الشيخ أصم فلم يشعر باقترابه. وكان يجلس على المقعد الذي كان الأمير الشيخ يحب أن يجلس عليه وقد علّق كبّة خيوط على غصن مكسر من شجرة منغولية جافة.

اقترب الأمير آندريه من المنزل. كانت بعض أشجار الزيزفون في الحديقة القديمة قد قطعت، وكانت هناك فرس بلقاء تسرح مع مهرها

أمـام البيت بالذات، بين شجيرات الـورد. وقد سمّرت المصاريع بالمسامير إلا نافذة واحدة ظلت مفتوحة. واندفع صبيّ إلى المنزل لدى رؤية الأمير آندريه.

بقي «ألباتيتش» وحده في «ليسييه خوري» بعد أن رحّل عائلته؛ كان في البيت يطالع «حياة القديسين»، فلما علم بوصول الأمير آندريه خرج وهو يزرّر ثيابه ودنا منه بسرعة، ونظارتاه على أنفه، وانفجر باكياً وهو يقبّل ركبتيه دون أن يقول شيئاً.

ثم أشاح بوجهه وقد نقم على نفسه ضعفها، وشرح له الوضع: لقد نقلت كل الأشياء الثمينة إلى «بوغوتشاروفو». كما نقل ما يقرب من مئتين وخمسين كنتالاً من القمح، أما الكلأ وقمح الربيع، ذلك المحصول النادر المثيل، على حد قوله، فاستولت عليه وحصدته القطعات وهو أخضر. ونُكب الفلاحون فنزح بعضهم إلى «بوغو تشاروفو»، ومكث هنا قلة قليلة.

سأله الأمير آندريه دون أن يتيح له إنهاء كلامه:

– متى ذهب والدي وأختي؟

قصد آندريه ذهابهما إلى موسكو، وظن «ألباتيتش» أنه يسأل عن ذهابهما إلى «بوغو تشاروفو» فأجاب بأنهما ذهبا في السابع من الشهر وأفاض في الحديث عن الأعمال وطلب تعليماته. وسأله:

– هل ينبغي تسليم الشوفان للقطعات مقابل إيصال؟ بقي لدينا ألف ومئتا كنتال.

وفكّر الأمير آندريه: «بماذا أجيبه»؟ وهو ينظر إلى صلعة الشيخ الملتمعة في الشمس ويقرأ في وجهه أنه يدرك عدم مناسبة هذه

الأسئلة لمقتضى الحال وأنه إنما يطرحها لكي يخنق حزنه. قال الأمير آندريه:

- نعم، افعل ذلك.

وقال «ألباتيتش»:

- إذا كنت لاحظت الفوضى في الحديقة فذلك لأنه كان من المتعذّر الحيلولة دونها، ذلك أن ثلاثة أفواج قضت الليل هنا، ومعظمهم من الفرسان. وقد سجلت رتبة القائد واسمه لأتقدم بالشكوى.

سأله الأمير آندريه:

- وأنت، ماذا ستفعل؟ أتنوي البقاء هنا إن جاء العدو؟

أقبل «ألباتيتش» عليه بوجهه، ونظر إليه، ورفع فجأة يده إلى السماء بحركة مهيبة وقال:

- إنه مخلّصي، فلتكن مشيئته!

تقدم من الأمير آندريه على الأرض المعشبة جماعة من الفلاحين والخدم، حاسري الرؤوس.

قال الأمير آندريه لألباتيتش وهو يميل إليه:

- الوداع! اذهب أنت أيضاً واحمل كل ما تستطيع حمله وقل لهؤلاء الناس أن يذهبوا إلى أملاكنا في «ريازان» أو في ضواحي موسكو.

ألصق «ألباتيتش» نفسه بساق الأمير آندريه وطفق ينتحب، فنحّاه الأمير آندريه برفق ثم أرسل حصانه عدواً ونزل الممر.

على المصطبة أمام البيوت الزجاجية، كان الشيخ يعالج جوربه المثبت

فوق قالب، غير مكترث بما يجري حوله كذبابة على وجه ميت عزيز. واصطدمت بالأمير آندريه فتاتان كانتا تركضان وقد رفعتا تنورتيهما اللتين ملأتاهما بالخوخ من أشجار البيوت الزجاجية. فلما رأتا الأمير الشاب أمسكت كبراهما وهي مذعورة، بيد الصغرى واختبأتا خلف شجرة بتولة دون أن تلمّا الخوخ الفج الذي تدحرج على الأرض.

لوى الأمير آندريه رأسه بسرعة كيلا يريهما أنه شاهدهما. وأخذته الشفقة على تلك الفتاة الجميلة المذعورة. كان يخشى أن ينظر إليها لكنه كان، في الوقت نفسه، يرغب في ذلك رغبة جامحة. واستولى عليه شعور جديد، شعور يشد من عزيمته ويُدخل الأمن إلى نفسه عندما أدرك، وهو يرى هاتين الفتاتين، وجود اهتمامات أخرى في الحياة غريبة كلياً عن اهتماماته، ومشروعة مثلها. كان واضحاً أن هاتين الفتاتين شُغفتا بشيء واحد وهو أن تحملا هذا الخوخ الفج وأن تأكلاه من غير أن يقبض عليهما أحد، وكان الأمير آندريه يتمنى معهما نجاح مشروعهما. فلم يتمالك من أن يُلقي عليهما نظرة أخرى. لقد تركتا مخبأهما إذ اعتقدتا أنهما بمنجى من الخطر، وراحتا تزقزقان بصوتيهما النحيفين، وكل منهما تمسك بطرف تنورتها، وهما تركضان فرحتين متوثبتين على عشب المرج، بساقيهما الصغيرتين، العاريتين اللتين لوحتهما الشمس.

تبرَّد الأمير آندريه قليلاً حين ترك غبار الطريق التي تسير عليها القوات. لكنه عاد إليها غير بعيد عن «ليسييه خوري»، وأدرك فوجه الذي كان متوقفاً قرب سدّ مستنقع صغير. كانت الساعة هي الثانية بعد الظهر، والشمس كرة حمراء في الغبار، تحرق الظهور من خلال الستر السوداء، على نحو لا يطاق، والغبار باق على حاله، يحوّم ساكناً فوق الجند الذين توقفوا وقد ضجّ بلغطهم المكان، والريح ساكنة. وعندما حاذى الأمير آندريه السدَّ أحس برائحة الوحل وبنداوة

المستنقع. فاشتهى أن يغطس في الماء على ما في الماء من وسخ. وأدار رأسه إلى المستنقع الذي وافت منه الصرخات والضحكات. بدا له هذا المستنقع الصغير المعكّر، المغطّى بالطحلب، كأنما ارتفعت مياهه إلى نصفه وكأنما يريد أن يغمر السد، وذلك لأنه كان ممتلئاً بأجساد الجنود العارية البيضاء. كان الجنود يتخبطون في الوحل وقد اصطبغت أيديهم ووجوههم وأعناقهم باللون الأحمر القرميدي. ووسط الضحكات والصرخات كانت الأجساد البشرية العارية البيضاء تتخبط في هذه البركة الآسنة كالسمك المكوّم في مسقاة. كان هذا الاستحمام مشبعاً بالبهجة، وذلك ما أسبغ عليه حزناً خاصاً.

هذا جندي شاب أشقر، من الفوج الثالث، على ربلة ساقه سير من جلد، يعرفه الأمير آندريه، قد تراجع وهو يرسم إشارة الصليب لكي يتحفز للوثب ويغطس. وذاك ضابط صف أسمر الوجه، أشعث الشعر، غارق في الماء إلى وسطه، يهزّ جذعه القوي العضلات، وينتفض فرحاً وهو يصبُّ الماء على رأسه بيديه السوداوين حتى المعصم. وكانت تُسمع ضوضاء الاصطفاق، والصرخات الحادة، وصيحات التعجب.

على ضفاف المستنقع، وفوق السد، وفي المستنقع، انتشرت هذه الأجساد البيضاء، السليمة القوية العضلات. وكان تيموخين الضابط ذو الأنف الأحمر، يجفّف جسده فوق السد، بمنشفة، فلما رأى الأمير آندريه ارتبك، لكنه قال له:

- إن هذا نافع، ليتك تجرّب يا صاحب السعادة!

قال الأمير آندريه مكشراً:

- الماء وسخ.

- سوف ننظفه لك على الفور.

وركض «تيموخين»، وهو عار، إلى المستحمين يقول لهم:

- الأمير يرغب في أن يستحم.

فهتفت أصوات كثيرة:

- أيّ أمير؟ أميرنا؟

وأقبلوا جميعاً عليه حتى أنه وجد مشقة كبيرة في تهدئتهم.

وقرر أن يغتسل في العنبر.

قال في نفسه، وهو ينظر إلى جسمه العاري: «ذلك هو الجسد جسد الجندي، «لحم المدفع»، ولم يرتعد من البرد قدر ارتعاده من شعور الاشمئزاز والهول، وهو شعور استولى عليه لدى رؤية هذه الأجساد المتخبطة في المستنقع الوحل، واستعصى عليه فهمه.

في السابع من آب كتب الأمير باغراتيون من معسكره في ميخايلوفكا على طريق سمولنسك، مايلي:

سيدي الكونت «ألكسي اندريفتش»

(كان يكتب إلى «آراكتشيف» لكنه كان يعلم أن الإمبراطور سيقرأ رسألته، ولذلك كان يزن كل كلمة من كلماتها، جهد المستطاع).

«أعتقد أن الوزير[1] أعلمكم بالتخلي عن «سمولنسك» للعدو. وهو شيء مؤلم ومحزن. إن الجيش بأسره مغتم لأن أعظم مواقعنا شأناً تُرك بلا ضرورة. ولقد ألححت عليه إلحاحاً شديداً، كما أنني كتبت إليه

١- الوزير هو قائد الجيش الأول، وزير الحرب: باركلي دي تولي.

بهذا الصدد، لكن ذلك كله لم يثنه عن عزمه. إنني أقسم لك بشرفي أن نابليون كان في جيب لم ير مثله قط، وأنه كان جديراً أن يخسر نصف جيشه قبل أن يتمكن من الاستيلاء على «سمولنسك». إن قطعاتنا قاتلت وما تزال تقاتل قتالاً منقطع النظير. فبخمسة عشر ألف رجل أوقفت تقدّم العدو خلال أكثر من خمس وثلاثين ساعة وهزمته، لكنه هو لم يشأ أن يصمد أكثر من أربع عشرة ساعة. إن ذلك لعار على جيشنا ووصمة لحقت به، أما هو فيخيل إلي أنه غير أهل للحياة. وحين يُعلن أن الخسائر فادحة فكلامه غير صحيح، ربما كانت أربعة آلاف رجل، لا أكثر، بل لعلها دون ذلك، وحتى لو كانت عشرة آلاف رجل، ما حيلتنا؟ إنها الحرب! وفي المقابل تكبّد العدو خسائر لا تحصى...

ما ضرّه لو ثبت يومين آخرين؟ على الأقل، كانوا سينصرفون من تلقاء أنفسهم لأن ماءهم وماء خيلهم نفد، لقد كان وعدني أنه لن يتراجع ولكن إذا به يُرسل إليّ على حين غرة، ترتيباً قتالياً ينبئني فيه أنه سيرتحل في الليل. لا يمكن أن نخوض الحرب على هذا النحو ولن يطول بنا الأمر حتى نأتي بالعدو إلى موسكو.

راجت الشائعات عن أنكم تفكرون في الصلح. العياذ بالله من عقد الصلح! أبعد كل تلك التضحيات وكل تلك التراجعات النكراء يُعْقد الصلح! ستستعدون روسيا كلها عليكم، وسيعدُّ كل واحد منا ارتداء البزة العسكرية عاراً. بما أننا وصلنا إلى هذا الحد فينبغي أن نقاتل مادامت روسيا قادرة على ذلك، وما دام الرجال يقفون على أقدامهم...

يجب أن يكون هناك قائد واحد لا اثنان. ربما كان وزيركم صالحاً في وزارته، أما من حيث هو قائد فإنه ليس رديئاً فحسب، بل إنه ممقوت، وإليه إنما عهدتم بمصير وطننا... إني لأفقد صوابي من الغيظ، فاغفر لي جسارتي فيما أكتب. إن كل من يشير بعقد الصلح وبإبقاء الوزير قائداً

للجيش كاره لإمبراطوره راغب في هلاكنا جميعاً. أقول لكم الحقيقة: شكلوا فرق المتطوعين. لأن الوزير يصطحب ضيفه إلى العاصمة بأنسب الطرق اللائقة بمقامه. أما مساعده العسكري «ولزوجين» فإنه يوحي بشكوك جسيمة في الجيش بأسره. ويقال أنه يخدم نابليون أكثر مما يخدمنا، وهو الذي يشير على الوزير بكل ما يفعله. وأما أنا فإنني لا ألتزم باللطف والأدب معه فحسب بل إني أطيعه كما يطيع العريف رئيسه، مع أني أقدم منه. إن هذا مؤلم ولكنني أذعن حباً بوليّ نعمتي وبإمبراطوري. إنني آسف فقط لأن امبراطورنا أوكل أمر جيشنا المجيد إلى مثل هؤلاء الناس. تصوَّر أننا خسرنا بانسحابنا ما يزيد على خمسة عشر ألف رجل من الإنهاك وفي المستشفيات، ولو أننا تقدمنا لما وقع ذلك كله. قل لي، بحق السماء، ماذا ستقول روسيا، أمُّنا، وهي ترى الخوف يبلغ بنا هذا المبلغ، وترانا نُسلم هذا الوطن الخيّر المقدام إلى الأوباش، ونبعث في نفس كل مواطن الكره والعار؟ لماذا نخاف وممن نخاف؟ ليست خطيئتي إن كان الوزير متردداً، جباناً، مغفلاً، بليداً، وإن كان يجمع كل العيوب في ذاته. الجيش مجمع على البكاء وعلى لعنه بدون شفقه...

***

الفصل السادس

بين ما لا يحصى من أنماط الحياة، يمكن أن نميّز تلك التي يغلب عليها المضمون، وتلك التي يغلب عليها الشكل. وفي عداد الأنماط التي يغلب عليها الشكل نستطيع أن نضع الحياة في بطرسبرج ولاسيما حياة المنتديات فيها خلافاً للحياة في الريف وفي المقاطعة وفي الإقليم وحتى في موسكو. إن تلك الحياة لا تتحول ولا تتغير.

فمنذ ١٨٠٥ ونحن نتصالح ونتخاصم مع «بونابرت»، وننشئ الدساتير ونلغيها، لكن منتدى «آناباڤلوفنا» ومنتدى «هيلين» ظلاّ على ما كانا عليه بدقة، الأول قبل سبع سنين، والثاني قبل خمس سنين. ما انفك الناس يتحدثون بدهشة، لدى «آنا باڤلوفنا» عن نجاحات «بونابرت»، ويرون في نجاحاته وفي محاباة ملوك أوروبا له مؤامرة غادرة ترمي فقط إلى تكدير هذه الجماعة من البلاط التي كانت «آنا باڤلوفنا» ممثّلة لها وإلى ازعاجها. أما لدى «هيلين» التي كان روميانتسيف يكرّمها بزياراته ويعتبرها امرأة موفورة الذكاء، فكانوا يتحدثون في سنة ١٨١٢ كما كانوا يتحدثون في سنة ١٨٠٨ بالحماسة نفسها عن الأمة العظيمة والرجل العظيم، ويأسفون للقيطعة مع فرنسا، وهي قطيعة يجب أن تنتهي بالصلح، في رأي المترددين على هذا المنتدى.

في الآونة الأخيرة، وبعد عودة الإمبراطور من الجيش شهد هذان

المنتديان المتعارضان شيئاً من الإضطراب وظهرت بينهما بعض البوادر العدائية، لكن اتجاهيهما استمرا على حالهما. ففي مجلس «آنا بافلوفنا» لم يكن يقبل، من الفرنسيين، سوى عتاة المدافعين عن الشرعية، وفيه كان يُشاد بالفكرة الوطنية التي مفادها أنه لا ينبغي التردد على المسرح الفرنسي[1] الذي يكلف من النفقات ما يكفي فيلقاً بأسره، وفيه كانت تُتتبع الأحداث العسكرية بنهم وتنشر أفضل الشائعات عن الجيش. أما في مجلس «هيلين»، مجلس «روميانتسيف مجلس مناصري فرنسا، فكانت تُكذب الشائعات التي تتناقل وحشية العدو والحرب، وتناقش جميع محاولات التصالح التي قام بها نابليون. كان اللوم ينصب هنا على الذين يُشيرون، متسرعين، باجلاء البلاط ومؤسسات تعليم البنات الموضوعة تحت رعاية الإمبراطورة الأم، إلى «كازان». وعلى وجه العموم، لم تكن العمليات العسكرية تعتبر، في منتدى «هيلين»، سوى تظاهرة تافهة ستؤدي قريباً إلى الصلح، وكان رأي طبيبلين» الذي غدا في بطرسبرج من رواد هذا المنتدى (من واجب كل رجل ذكي أن يشارك في هذا المنتدى)، ملزماً، ورأيه أن البارود لن يحسم المشكلة، وإنما يحسمها الذين خلقوها. وكان رواد هذا المنتدى يسخرون بكثير من البراعة، وبشيء من الحذر، من حماسة موسكو التي بلغت أنباؤها بطرسبرج عند عودة الإمبراطور.

أما حلقة «آنا بافلوفنا» فكانت على العكس، تعجب بهذه الحماسة وتتحدث عنها كما يتحدث باوتارك عن الأقدمين. وكان الأمير «فاسيلي الذي مازال يشغل نفس المراكز الهامة، صلة الوصل بين هاتين الجماعتين. فهو يذهب إلى منتدى «صديقتي الطيبة» «آنا بافلوفنا»،

١- كانت هناك فرقة مسرحية دائمة تتألف من ممثلين فرنسيين تعرض مسرحياتها في بطرسبرج حتى أثناء الحرب.

كما يذهب إلى منتدى ابنتي «الدبلوماسي»، وغالباً ما كان يخطئ في هذا التنقّل المستمر بين الفريقين - فيقول في منزل «هيلين» ما كان ينبغي أن يقوله في منزل «آنا بافلوفنا»، أو العكس.

بعد عودة الإمبراطور بقليل، حمل الأمير فاسيلي، في حديثه لدى «آنا بافلوفنا» عن الحرب، على «باركلي دي تولي»، وبدا حائراً فيمن سيُختار للقيادة العامة. وقد روى أحد المدعوين الذي أطلق عليه اسم: الرجل الفاضل، أنه شاهد في اليوم نفسه «كوتوزوف» الذي انتخب قائداً للمتطوعين في بطرسبرج، يترأس في ديوان المالية استقبال المتطوعين، ومضى إلى القول: إن «كوتوزوف» قد يكون الرجل المناسب لمتطلبات الوضع.

ابتسمت «آنا بافلوفنا» ابتسامة حزينة ولفتت نظره إلى أن «كوتوزوف» لم يخلق سوى المتاعب للإمبراطور.

فقاطعها الأمير «فاسيلي» قائلاً:

لقد قلت ذلك وكررته لمجلس النبلاء. فلم يصغ إلي أحد. قلت أن انتخابه قائداً لجيش المتطوعين لا يطيب للإمبراطور، فلم يصغوا إلي.

وأضاف:

- إنهم مولعون دائماً بالنقد. وأمام من؟ كل ذلك لأننا نريد أن نقلد حماسة الموسكوفيين الرعناء.

قال ذلك وقد اختلط عليه الأمر لحظة ونسي أنه إنما ينبغي أن يسخر من حماسة موسكو في منزل هيلين، وأن يشيد بها في منزل «آنا بافلوفنا». ثم استدرك من فوره:

- أمن المناسب أن يقيم الكونت «كوتوزوف» وهو أقدم الجنرالات الروس، هناك، فيذهب جهده أدراج الرياح! أمن الجائز أن يكون القائد العام رجلاً يعجز عن ركوب الجواد، وينام في المجلس، رجلاً من أسوأ الناس أخلاقاً! لقد ترك سمعة حسنة في بوخارست! إنني لا أتحدث عن ميزاته كجنرال، لكن أمن الجائز حقاً، في هذه اللحظة، تعيين رجل عاجز وأعمى، أعمى بكل بساطة؟ جنرال أعمى، سيكون ذلك ظريفاً! إنه لا يرى شيئاً. أولى به أن يلعب لعبة الاستغماء... إنه لا يرى شيئاً على الإطلاق!

ولم يعترض عليه أحد.

في الرابع والعشرين من تموز، كان هذا الكلام مشروعاً تماماً، لكن «كوتوزوف» مُنح في التاسع والعشرين من تموز لقب أمير. وذلك قد يعني الرغبة في التخلص منه، وفي هذه الحالة يظل رأي الأمير «فاسيلي» مشروعاً، مع أنه لم يتعجل في إبدائه. بيد أن لجنة مؤلفة من المارشال «سالتيكوف» و«آراكتشيف» و«فيازميتينوف» و«ليبوكين» و«كوتشوبي»)، اجتمعت، في الثامن من آب للتشاور في أمر الحرب، وانتهت إلى أن الفشل ينبع من ازدواجية القيادة، فاقترحت، بعد مشاورة قصيرة، تعيين «كوتوزوف» قائداً عاماً، مع علمها أن «كوتوزوف» لم يكن ذا حظوة لدى الإمبراطور. وفي اليوم نفسه عُين «كوتوزوف» قائداً عاماً للجيوش ولجميع المناطق التي تحتلها.

في التاسع من آب، التقى الأمير «فاسيلي» في منزل» آنا بافلوفنا» و«الرجل الفاضل» مرة أخرى. كان «الرجل الفاضل» الذي يطمع في منصب القيّم على مؤسسة للفتيات، يُغازل «آنا بافلوفنا». دخل الأمير «فاسيلي» كما يدخل الرجل الظافر الذي تحققت رغباته، وقال وهو يُنقّل الحاضرين نظرات صارمة:

- هل علمتم بالنبأ العظيم؟ أصبح الأمير «كوتوزوف» مارشالاً. انتهت الخلافات. وأنا جدُّ مسرور لذلك، جدُّ سعيد. وأخيراً، هوذا رجل!

لم يتمالك «الرجل الفاضل» نفسه، بالرغم من رغبته في الحصول على ذلك المركز، من تذكير الأمير «فاسيلي» بأن رأيه كان مختلفاً من قبل (كان ذلك خروجاً منه على اللياقة إزاء الأمير «فاسيلي» في منزل «آنا بافلوفنا» وإزاء «آنا بافلوفنا» ذاتها التي استقبلت النبأ بفرح جم، لكنه لم يتمالك نفسه.)

قال وهو يذكر الأمير «فاسيلي» بكلماته نفسها:

- لكن يُقال أنه أعمى، يا سيدي الأمير.

فأجابه الأمير محتداً، بصوته الخفيض، وهو يسعل سعالاً خفيفاً يحسم به كل الصعوبات:

- دعك من ذلك، فهو يرى ما فيه الكفاية، يرى ما فيه الكفاية. وما يسرني بخاصة هو أن الإمبراطور أطلق صلاحيته في الجيوش كلها وفي المنطقة بأسرها، وهي صلاحية لم يظفر بها قائد قط.

وختم كلامه وهو يبتسم ابتسامة المنتصر.

- إنه عاهل ثان مطلق الصلاحية.

فقالت «آنا بافلوفنا»:

- إن شاء الله، إن شاء الله.

قال «الرجل الفاضل» الذي كان حديث العهد بعالم البلاط، وراغباً في تملّق «آنا بافلوفنا» وهو يسوّغ رأيه القديم:

–يبدو أن الإمبراطور لم يقلده هذه السلطة إلا كارهاً. ويزعمون أنه احمر خجلاً عندما قيل له: «إن المليك والوطن يمنحانك هذا الشرف»، كما تحمر فتاة قرئت عليها حكاية «جوكوندا[1]».

فقالت «آنا بافلوفنا»

– لعله لا دخل للقلب في ذلك.

هتف الأمير «فاسيلي» بحرارة:

– أوه! كلا، كلا! كلا هذا غير ممكن، إن الإمبراطور عرف كيف يُقدر فضله.

لم يعد بوسع الأمير «فاسيلي» أن يتخلى عن «كوتوزوف». وفي رأيه أن «كوتوزوف» لم يكن كاملاً فحسب، بل إن كل الناس كانوا يعبدونه.

قالت «آنا بافلوفنا»:

– عسى أن يتسلم الأمير «كوتوزوف» السلطة بيده، وألا يسمح «لأحد» بوضع العصي في العجلات.

فهم الأمير «فاسيلي» على الفور من المقصود بقولها «أحد» وقال فيما يشبه الهمس:

– علمت من مصدر موثوق أن «كوتوزوف»اشترط ألا يكون ولي العهد[2] في الجيش. أتعلمون ماذا قال للإمبراطور؟ وكرر الأمير

١– حكاية غزلية من حكايات لافونتين بناها على موضوع مأخوذ من «رولان الهائج» لآريوست (النشيد الثامن والعشرون).

٢– أخو الإمبراطور.

«فاسيلي» الكلمات التي لعل «كوتوزوف» قالها للإمبراطور: «ليس بوسعي معاقبته إن أساء ولا مكافأته إن أحسن». ثم قال:

- أوه! الأمير «كوتوزوف» أعظم الناس ذكاء، وأنا أعرفه منذ زمن طويل.

وعلق «الرجل الفاضل» الذي تنقصه لباقة أفراد الحاشية قائلاً:

- ويقال أيضاً أن صاحب السمو اشترط أيضاً ألا يأتي الإمبراطور نفسه إلى الجيش.

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى انصرف عنه الأمير «فاسيلي» و«آنا بافلوفنا»، وتبادلا نظرة استياء وهما يتأوهان من سذاجته.

***

الفصل السابع

بينما كان ذلك كله يجري في موسكو، كان الفرنسيون قد تجاوزوا «سمولنسك» وأخذوا يقتربون من موسكو. إن مؤرخ نابليون «تيير» يذهب، ككل المؤرخين الآخرين، بغية تبرئة بطله، إلى أن نابليون اجتُذب بالرغم منه إلى جدران موسكو. و«تيير» على حق كما أن جميع المؤرخين الذي يحاولون تفسير الحوادث التاريخية من خلال مشيئة رجل واحد على حق؛ إنه على حق كمثل المؤرخين الروس الذين يؤكدون أن نابليون استُدرج إلى موسكو ببراعة الجنرالات الروس. ونحن نجد هنا، فضلاً عن قانون الارتداد إلى الماضي الذي يعرض الماضي كله وكأنه إعداد لحدث منجز تام، تداخلاً يخلط الأشياء بعضها ببعض. إن اللاعب الماهر الذي يخسر مباراة الشطرنج قانع بصدق أنه إنما خسرها من جراء خطأ ارتكبه، فهو يبحث عنه في بداية اللعبة، ناسياً أنه ارتكب أخطاء أخرى أثناء اللعب، وأن كلاً من حركاته لم يكن كاملاً. وهو لا يلاحظ الخطأ الذي استأثر بانتباهه إلا لأن خصمه استفاد منه. فما بالك بلعبة الحرب التي تفوق لعبة الشطرنج تعقيداً والتي تجري في ظروف زمنية لا تدير فيها إرادة مفردة الآلات الصماء وإنما يتبع كل شيء من تلاقي مالا تحصى من الإرادات الفردية.

بعد «سمولنسك» سعى نابليون إلى إنشاب المعركة وراء «دوروجوبوج»، أمام فيازما، ثم أمام «تزاريفوزايميتشه»؛ لكن الروس

لم يكن بمقدورهم خوض المعركة قبل «بورودينو» على بعد حوالي مئة واثني عشر فرسخاً من موسكو، من جراء ظروف لا حصر لها. وبعد «فيازما» أصدر نابليون تعليماته بالزحف مباشرة على موسكو.

موسكو، العاصمة الآسيوية لهذه الإمبراطورية العظيمة، المدينة المقدسة لشعوب الكسندر، موسكو بكنائسها العديدة على شكل المعابد الصينية! موسكو هذه كانت تراود أبداً خيال نابليون. كان يمتطي، أثناء المرحلة بين «فيازما» و«تزاريفو زايميتشه»، حصاناً هجيناً، أبيض فيه كدرة يجري هملجة، أو كان يرافقه الحرس وموكب من الغلمان والمساعدين العسكريين. أما «بيرتييه» رئيس الأركان فقد تخلف ليستجوب روسيّاً أسره الفرسان. ثم أدرك نابليون خبباً وبصحبته الترجمان «ليلورم ديدفيل»، وأوقف حصانه وهو متهلل الأسارير.

فقال له نابليون:

– ما بك؟

– إن قوزاقياً من فيلق «بلاتوف» يقول إن فيلق «بلاتوف» يعمل على الاتصال بمعظم الجيش، وأن «كوتوزوف» عين قائداً عاماً. هو جد ذكي وثرثار!

ابتسم نابليون وأمر بإعطاء هذا القوزاقي حصاناً وبإحضاره. لقد كان يرغب في محادثته شخصياً. فمضى عدد من المساعدين خبباً، وبعد ساعة، دنا من نابليون «لافروشكا» القن الذي تخلى عنه «دينيسوف» لروستوف، وهو يرتدي سترة الخدم، ويمتطي جواداً فرنسياً، وعلى وجهه أمارات المكر والثمل والمرح. أمره نابليون أن يسير بجنبه وسأله:

– أنت قوزاقي؟

- نعم، يا صاحب النبالة؟

«تبسط القوزاقي في حديثه عن شؤون الحرب الدائرة إلى أقصى درجات التبسط لجهله الشخصية التي كان يسير بجنبها، ذلك أن بساطة نابليون لم يكن فيها ما يمكن أن يوحي إلى هذا الخيال الشرقي بوجود ملك» هذا ما قاله «تيير» وهو يروي هذه الحادثة. والحقيقة أن «لافروشكا» الذي أخذت فيه الخمر، البارحة، وترك سيده بدون غداء قد جلد ثم أرسل إلى القرية بحثاً عن الدجاج فظل يتسكع فيها متلصصاً حتى أسره الفرنسيون. كان واحداً من أولئك الخدم الأجلاف الوقحين الذين ذاقوا الأمرين في حياتهم فرأوا من واجبهم أن يسلكوا في كل شيء سبيل الدناءة والخداع، ووطنوا أنفسهم على خدمة أسيادهم في كل ما يطلبونه، مستشفين بحذق نواياهم الخبيثة ولاسيما تلك التي يوحي بها الغرور والخسة.

ولما مثل «لافروشكا» بين يدي نابليون عرفه جيداً وبسهولة و لم ينفعل في شيء لكنه جهد من كل قلبه في أن يرضي أسياده الجدد.

كان يعلم حق العلم أنه أمام نابليون بلحمه ودمه، لكن حضور نابليون لم يكن جديراً بأن يبعث الاضطراب في نفسه، شأنه شأن حضور «روستوف» أو العريف المكلف بجلده، إذ ليس للعريف ولا لنابليون من سلطان عليه.

أفرغ «لافروشكا» كل ما في جعبته مما يدور بين الخدم. وكان الكثير منه صحيحاً. ولكن عندما سأله نابليون إن كان الروس يعتقدون أنهم سيغلبون «بونابرت» زوى بين حاجبيه وراح يفكر.

رأى في هذا السؤال فخاً لطيفاً، كما يرى الناس من جبلته مثل هذا الفخ أينما كانوا، فاكفهر وأخلد إلى الصمت. ثم قال وهو يعمل فكره:

- أعني أنه إذا وقعت المعركة في القريب العاجل فسيكون الأمر على مايرام. أما إذا انقضت ثلاثة أيام، وبعد هذا التاريخ فذلك يعني أن المعركة ستطول.

وترجم كلامه هذا لنابليون على النحو التالي: «إذا نشبت المعركة قبل ثلاثة أيام فسوف يكسبها الفرنسيون، أما إذا نشبت بعد ذلك فالله أعلم بما سيجري». ابتسم «ليلورم ديدفيل» عندما ترجم ذلك، لكن نابليون لم يتبسم، مع أنه كان منبسط النفس، وأمر أن تعاد هذه الكلمات على مسمعه.

أحس «لافروشكا» بذلك وأراد أن يسري عنه، فقال وهو يتظاهر بأنه يجهل من هو:

- نحن نعلم أن لديكم «بونابرت»، لقد هزم الناس جميعاً، أما معنا فسيكون الأمر مختلفاً...

لم يعرف كيف ولا لماذا انسلت هذه الوطنية المتباهية إلى كلماته. وترجمها المترجم مهملاً آخرها، فابتسم نابليون. قال «تيير»: «إن القوزاقي الشاب جعل محدثه العظيم يبتسم». وبعد أن خطا نابليون بضع خطوات بصمت التفت إلى «بيرتييه» وقال له إنه يريد أن يرى الأثر الذي سيحدثه في نفس «ابن الدون هذا» إعلامه أن الرجل الذي حادثه إنما هو الإمبراطور بذاته، ذلك الإمبراطور الذي نقش على الأهرامات اسمه المظفر الخالد.

نقل المترجم هذا النبأ إليه.

وفي الحال، تصنع «لافروشكا»، (الذي فهم أن المراد إحراجه وأن نابليون يعتقد أنه أدخل الرعب على قلبه)، إرضاءً لسادته الجدد،

الدهشة والذهول، وحملق فيه وتكلف تلك الهيئة التي يتخذها عادة حين يؤخذ ليجلد.

قال «تيير»: «ما كاد المترجم يتكلم حتى أصيب القوزاقي بضرب من الانشداه، فلم يتفوه بكلمة، ومشى وعيناه معلقتان أبداً بهذا الفاتح الذي جاب اسمه سهوب روسيا ليبلغ مسامعه. لقد توقفت ثرثرته على حين غرة ليحل محلها شعور بالإعجاب الساذج الصامت. وبعد أن كافأه نابليون خلى سبيله كما يخلى سبيل عصفور أعيد إلى الحقول التي شهدت مولده».

تابع نابليون طريقه، وهو يحلم بموسكو هذه التي أسرت خياله، على حين أخذ «العصفور الذي أعيد إلى الحقول التي شهدت مولده» يعدو نحو المخافر الأمامية وهو يتخيل أشياء لم تقع له ليرويها على زملائه. أما ما وقع له فعلاً فكان يأنف من روايته لأنه غير جدير، في رأيه، بأن يروى. التحق بالقوزاق وسأل عن فوجه التابع لقطعات «بلاتوف»، وفي المساء، لقي سيده «نيكولا روستوف» الذي كان يعسكر في «ايانكوفو» ممتطياً صهوة جواده ليقوم مع «إيلين» بنزهة في القرى المجاورة. فأمر بإعطاء «لافروشكا» جواداً آخر وأخذه معه.

***

الفصل الثامن

لم تكن الأميرة «ماريا» في موسكو في منجى من الخطر كما كان يعتقد الأمير آندريه.

عند عودة «ألباتيتش» من «سمولنسك» بدا الأمير الشيخ كأنما استفاق فجأة من حلم. فأمر بتجنيد المتطوعين في القرى وبتسليحهم، وكتب للقائد العام يعلمه بعزمه على البقاء في «ليسييه خوري» وعلى الدفاع عن نفسه إلى آخر نفس، ويترك له أمر اتخاذ التدابير من أجل حماية الأملاك التي سيؤسر أو يقتل فيها أحد أقدم الجنرالات الروس؛ ثم أنبأ خاصته بأنه باق في مكانه.

لكن الأمير، مع بقائه في «ليسييه خوري» دبر ترحيل الأميرة و«ديسال» والأمير الصغير إلى «بوغو تشاروفو» ومنها إلى موسكو. بيد أن الأميرة «ماريا» خوّفها من أبيها هذا النشاط المحموم الذي أعقب خموله الحديث العهد فأبت أن تتركه وحده، واستجازت أن تعصي أمره لأول مرة في حياتها. رفضت أن ترحل وكان عليها أن تتعرض لعاصفة هوجاء من غضب الأمير. ذكرها بسيئاتها القديمة التي رماها بها ظلماً وتجنياً، وألصق بها شتى التهم، قال لها أنه تحمله فوق طاقته، وأنها أفسدت ما بينه وبين ابنه، وأنها تظن به ظن السوء، وأن همها الوحيد تسميم حياته، وطردها من مكتبه قائلاً لها: إن ذهابها

وبقاءها سيان عنده. وأضاف أنه لن يبالي بها بعد الآن. وأخطرها بعدم الظهور أمامه أبداً. ولقد خفف من ألم الأميرة ماريا أنه لم يرغمها على الرحيل بالقوة وأنه اقتصر على منعها من الظهور أمامه. كانت تعلم أن ذلك دليل على سرور أبيها، في أعماقه، من بقائها في البيت.

في اليوم التالي لرحيل «نيكولا الصغير» ارتدى الأمير الشيخ ثيابه الرسمية وتهيأ للذهاب إلى مقر القائد العام. كانت العربة معدة، ورأته الأميرة «ماريا» خارجاً ببزته وأوسمته، سالكاً طريق الحديقة ليستعرض الفلاحين والخدم المسلحين. كانت تصيخ السمع وهي جالسة قرب النافذة، إلى صوته الآتي من الحديقة. وفجأة أطل بعض الخدم من الممر راكضين والذعر على وجوههم.

اندفعت «ماري» من على درج المدخل إلى الطريق بين شجيرات الورد حتى بلغت الممر. وإذا بجمهور من المتطوعين والخدم يقبلون عليها، ووسط هذا الجمهور كان الشيخ القصير يجر جراً من تحت ذراعيه وهو في بزته المزدانة بالأوسمة. جرت الأميرة ماريا نحوه، و لم تستطع أن تتبين، في التماع الضوء الذي كان يلقي بقعاً صغيرة مدورة من خلال ظل أغصان الزيزفون، تغير ملامحه. الشيء الوحيد الذي رأته هو أن ملامح القسوة والحزم القديمة تحولت إلى ملامح خوف وتواضع. ولدى رؤيته ابنته، حرك شفتيه العاجزتين وبعث بأصوات مبحوحة. لم يكن من الممكن معرفة ما يريد أن يقوله، فحمل من وسطه ونقل إلى مكتبه ووضع على تلك الأريكة التي كان يخافها كثيراً منذ بعض الوقت.

قصده الطبيب الذي استدعي في الليل وأعلن أن الأمير أصيب بالشلل في جنبه الأيمن.

غدت الإقامة في «ليسييه خوري» مدعاة لخطر أشد، وفي اليوم التالي نقل الأمير إلى «بوغو تشاروفو» وصحبه الطبيب.

فلما وصلوا إليها كان «ديسال» والأمير الصغير «نيكولا» قد سافرا إلى موسكو.

قضى الأمير الشيخ المشلول ثلاثة أسابيع[1] في «بوغو تشاروفو» في المنزل الذي بناه حديثاً الأمير آندريه، وهو على حاله لا يتقدم ولا يتأخر. كان فاقد الوعي، مسجى كالجثة المشوهة، لا يكف عن الغمغمة وهو يحرك حاجبيه وشفتيه، وكان من المتعذر معرفة ما إذا كان يعي شيئاً مما حوله أم لا. الشيء المؤكد هو أنه كان يتألم ويشعر بالحاجة إلى أن يقول شيئاً لم يقله بعد. أما ما هو هذا الشيء فلم يفلح أحد في فهمه: أهو نزوة جديدة من مريض يهذي، أله علاقة بالأحداث الجارية أو بشؤون الأسرة؟

كان الطبيب يقول: إن القلق الذي يبديه لا يعني شيئاً، وأن له أسباباً جسدية خالصة؛ لكن الأميرة ماريا كانت تعتقد (ومما أيد اعتقادها أن قلقه كان يزداد أبداً بحضورها) أنه يريد أن يقول لها شيئاً كان يتألم بدون ريب، جسدياً ونفسياً.

لم يكن هناك من أمل في شفائه، وكان نقله متعذراً. «وماذا نفعل لو مات في الطريق؟ أليس من الأفضل أن ينتهي كل شيء، أن ينتهي كل شيء تماماً». هكذا كانت تحدث الأميرة ماريا نفسها أحياناً. كانت تراقبه ليل نهار، ولا يكاد يغمض لها جفن، وكانت تفعل ذلك غالباً، وهو شيء رهيب، لا على أمل أن تشهد تحسناً، بل متمنية أن تكتشف أمارات النهاية القريبة.

١- خطأ غريب من تولستوي الذي يشير بوضوح في النص إلى أن الأمير الشيخ وقع مريضاً في ليسييه خوري في ٦ آب ومات في ١٥ من الشهر نفسه.

كان هذا الشعور قائماً في نفسها مهما بدا لها الاعتراف به غريباً منكراً. وأرهب من ذلك أن جميع رغباتها وآمالها الشخصية الغافية، المنسية، استيقظت فيها منذ مرض أبيها (ولعلها استيقظت قبل ذلك، عندما بقيت معه في انتظار شيء ما). إن الفكرة التي لم تخطر ببالها منذ سنوات، فكرة الحياة الحرة المنعتقة من سطوة أبيها، بل وإمكان الحب والسعادة الزوجية، أخذت تستبد بخيالها وكأنها إغواء الشيطان. وغدت معرفة الطريقة التي ستنظم بها حياتها الآن، «بعد وقوع ذلك الأمر»، مسألة تراود فكرها أبداً، مهما فعلت لإبعادها. كان ذلك من إغواء الشيطان، وكانت الأميرة ماريا تعلم ذلك، وتعلم أن الصلاة هي السلاح الوحيد «ضده». وتحاول أن تصلي، وتتخذ وضع الصلاة، وتحدق في الإيقونات، وتتلو كلمات الصلاة، لكنها تعجز عن الصلاة. أحست أن عالماً آخر يتلقفها، عالم الفعل، عالماً شاقاً حراً مناقضاً كل المناقضة للعالم النفسي الذي ظلت حبيسته حتى هذه اللحظة والذي كانت الصلاة خير ملاذ فيه. لم يعد بمقدورها أن تصلي ولا أن تبكي، واجتاحتها الحياة اجتياحاً.

غدا البقاء في «بوغو تشاروفو» مدعاة للخطر. فأينما توجه المرء سمع الناس يتحدثون عن اقتراب الفرنسيين. وقد نهب لصوصهم الأملاك في قرية على بعد أربعة أميال.

أصر الطبيب على ضرورة نقل المريض بعيداً؛ وأرسل أمير الأشراف إلى الأميرة ماريا موظفاً ليحملها على السفر بأسرع ما يمكن؛ وجاء قائد الشرطة بذاته يلح عليها في ذلك قائلاً أن الفرنسيين على أربعين فرسخاً، وأن نداءاتهم تتناقل في القرى، وأنها إن لم تسافر مع أبيها قبل الخامس عشر فلن يتحمل تبعة شيء.

قررت الأميرة أن تسافر في الخامس عشر. وشغلت طوال هذا اليوم

بالاستعدادات والأوامر التي تصدرها لأن الجميع كانوا يتوجهون إليها بالسؤال. وقضت ليلة ١٤-١٥، كعادتها، دون أن تخلع ثيابها، في غرفة مجاورة لغرفة الأمير الشيخ. واستيقظت عدة مرات وسمعت أباها يئن ويغمغم، وسمعت صرير السرير وخطى «تيخوف» والطبيب اللذين كانا يغيران وضعيته في الفراش. وذهبت عدة مرات إلى الباب تصيخ السمع، وبدا لها أنه يئن في هذه الليلة ويضطرب فوق عادته. لم تستطع أن تنام، ودنت من الباب غير مرة وهي تتنصت وترغب في الدخول من غير أن تجرؤ على ذلك. ومع أنه كان عاجزاً عن الكلام إلا أنها كانت ترى وتعلم إلى أي حد يسوؤه ما تبديه من قلق بشأنه. لقد لاحظت أنه يبادر إلى الإشاحة بوجهه عنها كلما لقي نظرتها التي لم تكن تملك نفسها أحياناً من إلقائها عليه بلجاجة. كانت تعلم أن زيارتها له، في الليل، في هذه الساعة غير المألوفة، ستثير غضبه.

لم تشعر قط بمثل هذا الغم وبمثل هذا الخوف من أن تفقده. كانت تستعرض حياتها كلها معه فتجد في كل كلمة من كلماته وفي كل حركة من حركاته دليلاً على حبه لها. وبين الحين والحين كانت تنسل في ثنايا هذه الذكريات إغواءات الشيطان، فتفكر فيما سيكون بعد موته، وكيف ستنتظم حياتها الجديدة الحرة. لكنها كانت تطرد هذه الأفكار باشمئزاز. وعند الصباح هدأ أبوها فنامت.

استيقظت متأخرة. فكشف لها الصدق الذي يرافق اليقظة فجأة عما كان يشغلها أكثر من غيره أثناء مرض والدها. استيقظت وذهبت تتنصت على بابه، فلما سمعت أناته قالت لنفسها وهي تتنهد: لم يتغير شيء. ثم هتفت وقد اشمأزت من ذاتها:

- لكن ماذا يمكن أن يقع؟ بماذا كنت أرغب؟ أأرغب في موته؟

ارتدت ثيابها وسوت زينتها وتلت صلاتها وخرجت إلى درج المدخل. وهناك وقفت العربات التي لم تقرن بخيولها بعد والتي كانت تحمل بالمتاع.

كان الصباح حاراً، مغبراً. بقيت الأميرة ماريا لحظة على درج المدخل وقد ملأها الهول من انحطاطها الأخلاقي وحاولت أن تستعيد روعها قبل أن تذهب لرؤيته.

هبط الطبيب الدرج وأقبل عليها قائلاً:

تحسنت حاله قليلاً اليوم. كنت أبحث عنك. من الممكن فهم ما يقول نوعاً ما، فهو أصحى ذهناً. تعالي، إنه يطلبك...

عند سماع هذا النبأ، خفق قلب ماري بشدة حتى أنها شحبت واضطرت أن تستند إلى الباب كي لا تقع. أن تراه وتحدثه وتواجه نظرته الآن ونفسها ملأى بهذه الإغواءات الرهيبة المجرمة، كان ذلك يخيفها ويسبب لها فرحاً مؤلماً.

وكرر الطبيب: تعالي.

دخلت الأميرة ماريا إلى غرفة أبيها ودنت من السرير. كان مضطجعاً على ظهره وقد رفع نصفه الأعلى عن الفراش، واستلقت على الغطاء يداه الخشبيتان بعروقهما البنفسجية الكثيرة العقد، وشخصت عينه اليسرى إلى أمامه وزاغت عينه اليمنى، وتجمد حاجباه وشفتاه. كان ناحلاً، صغيراً، مثيراً للشفقة. بدا وجهه كأنما جف وذاب، وقسماته كأنما دقت ونحفت. دنت منه الأميرة ماريا وقبلت يده. فشد بيده اليسرى على يدها ليفهمها أنه كان ينتظرها منذ أمد بعيد، وهز يدها فتقلص حاجباه وشفتاه بشيء من الغضب.

كانت تنظر إليه وهي خائفة، محاولة أن تستشف ما يريده منها. وعندما غيرت وضعها بحيث يراها بعينه اليسرى هدأ قليلاً دون أن يرفع بصره عنها. ثم اضطربت شفتاه وتحرك لسانه، وأخذ يتكلم، وهو ينظر إليها نظرة وجلة مستعطفة، وبه خوف ظاهر من أن لا تفهم ما يقول.

نظرت إليه الأميرة ماريا مركزة كل انتباهها. وقد حملتها المجهودات المضحكة التي بذلها ليحرك لسانه على أن تغض بصرها، ولم تحبس زفراتها التي تصاعدت إلى حنجرتها إلا بعد لأي. قال شيئاً وكرر الألفاظ نفسها عدة مرات، فلم تفهم الأميرة ماريا شيئاً. وبذلت وسعها لتحزر ما يقول ورددت مستفهمة الألفاظ التي ظنت أنها فهمتها.

ردد مرات: آآ ... مـ.....مـ. كان من المتعذر فهم هذه الألفاظ.

ظن الطبيب أنه فهم وسأله: «هل الأميرة خائفة؟». فنفى ذلك بإشارة من رأسه وكرر الشيء نفسه عدة مرات.

وتنبأت الأميرة ماريا بما يقصد فقالت:

- إن روحه تتألم.

فوافق على ذلك غمغمة وأمسك بيدها وشدها على مواضع مختلفة من صدره وكأنما يبحث عن مكانها الحقيقي. ثم استقام له النطق على نحو أيسر وأوضح ولاسيما بعد أن وثق من فهمها له عندما قال:

- كل أفكاري! من أجلك... أفكاري...

أسندت الأميرة ماريا رأسها على يد أبيها محاولة أن تخفي نحيبها ودموعها.

مر بيده على شعرها وقال:

-.ناديتك طوال الليل...

فأجابته من خلال عبراتها:

- ليتني عرفت... ما كنت أجرؤ على الدخول.

فشد على يدها:

- أما كنت تنامين؟

- لا، ما كنت أنام.

قالت ذلك وأرفقته بإشارة نفي من رأسها. لقد غدت تحاول أن تقلد أباها بالرغم منها فتتحدث بالإشارات دون الكلام الصريح، وكأنما كانت هي أيضاً تحرك لسانها بصعوبة.

- ولم لم تأتي، يا روحي الغالية...؟

لم تستطع الأميرة ماريا أن تتبين إن كان قد قال: يا روحي الغالية، أو: يا صديقتي الغالية، لكنها تبينت أنه قال حقاً كلمة تنم على الحنان والحب، كلمة لم يقل لها مثلها من قبل. وقالت في نفسها: «وأنا التي تمنّت موته، نعم، تمنت موته!».

صمت أبوها لحظة ثم قال:

شكراً لك... يا بنتي، يا صديقتي... مغفرة... شكراً... مغفرة... شكراً!..

وانسابت الدموع من مآقيه ثم قال فجأة:

- استدعي «اندريوشا»[1].

١- اندريوشا: تصغير آندريه للتحبب.

وعندما طلب هذا الطلب ارتسم على وجهه شيء من الطفولة والحياء والوجل. وكأنما كان يعلم أن ما يطلبه لا معنى له. ذلك ما شعرت به الأميرة ماريا، على الأقل. فأجابته:

- تلقيت رسالة منه.

فنظر إليها بدهشة وحياء:

- وأين هو إذن؟

- إنه في الجيش، يا والدي، في سمولنسك.

لزم الصمت طويلاً، وعيناه مغمضتان؛ ثم أومأ برأسه موافقاً، وكأنه بإيماءته يبدد شكوكه الخاصة ويؤكد أنه فهم كل شيء وتذكر كل شيء. وفتح عينيه وقال بصوت خافت واضح:

-لقد قضي على روسيا! لقد قضوا عليها!

وأجهش بالبكاء وفاضت دموعه. ولم تتمالك الأميرة ماريا نفسها فراحت تبكي أيضاً وهي تنظر إلى وجهه.

عاد فأغمض عينيه، وهدأ نحيبه. وأشار إلى عينيه بيده، ففهم «تيخون» رغبته وجفف دموعه.

ثم عاد وفتح عينيه وقال شيئاً لم يفهمه أحد سوى «تيخون». حاولت الأميرة ماريا أن تؤول كلامه بالاتجاه الذي تحدث فيه قبل قليل. ظنت حيناً أنه يتحدث عن روسيا، وظنت حيناً آخر أنه يتحدث عن الأمير آندريه، أو عنها، أو عن حفيده، أو عن موته. ولذلك لم تستطع أن تحزر شيئاً إلى أن قال:

- ارتدي ثوبك الأبيض، إنني أحبه.

وعندما أدركت الأميرة ماريا قصده ازداد نحيبها، فأخذها الطبيب بيدها وقادها إلى الشرفة وناشدها الهدوء والتأهب للسفر. ولما خرجت الأميرة ماريا رجع الأمير إلى الكلام على ابنه وعلى الحرب والإمبراطور، وقطب حاجبيه بغضب، ورفع صوته الأجش، ولم يلبث أن أصيب بنوبته الثانية والأخيرة.

بقيت الأميرة ماريا في الشرفة، وقد صحت السماء وسطعت الشمس وغدا الجو حاراً. لم يكن بوسعها أن تفهم شيئاً، أو أن تفكر في شيء، أو أن تحس بشيء سوى حبها الجياش لأبيها، هذا الحب التي بدا لها أنها كانت تجهله حتى هذه اللحظة. ثم مضت إلى الحديقة وانحدرت إلى المستنقع وهي تنتحب، على طول الممرات الحديثة المحفوفة بأشجار الزيزفون التي غرسها الأمير «آندريه».

كانت تهمس بينها وبين نفسها، وهي تجتاز الحديقة بخطى حثيثة، وتضغط بيدها صدرها الذي كانت تنطلق منه زفرات متشنجة:

- نعم... إني... إني... تمنيت موته! نعم، تمنيت أن ينتهي كل شيء بأقصى سرعة... كنت أشتهي أن أخلد إلى الراحة... وماذا سيحل بي الآن؟ ما جدوى الراحة بعد موته!

بعد أن طافت بالحديقة عادت إلى البيت فشاهدت الآنسة «بورين» مقبلة عليها (مكثت الآنسة «بورين» في «بوغو تشاروفو» وأبت أن ترحل) ومعها شخص غريب هو نقيب أشراف المقاطعة الذي جاء بذاته يحث الأميرة على الرحيل. أصغت إليه الأميرة ماريا من غير أن تفهم شيئاً، ودعته إلى البيت وقدمت له الغداء وجلست معه. ثم اعتذرت وذهبت إلى غرفة الأمير الشيخ. خرج الطبيب منها بادي الهم وأنبأها أنها لا تستطيع الدخول:

- امضي، يا أميرة، امضي، امضي!

عادت الأميرة ماريا إلى الحديقة، وجلست على العشب، قرب المستنقع، في موضع منخفض لا يراها فيه أحد. لم تكن تعلم كم مكثت هناك. وأخرجتها من حالتها خطى حثيثة لامرأة في الطريق. فنهضت ورأت «دونياشا» وصيفتها التي هرعت للبحث عنها فلما رأت سيدتها وقفت مرعوبة. وقالت لها بصوت متهدج:

- تفضلي، يا أميرة... إن الأمير....

فقالت الأميرة بعجلة دون أن تتيح لها إتمام جملتها:

- أنا ذاهبة، أنا ذاهبة.

وركضت إلى البيت متحاشية نظر «دونياشا».

قال لها نقيب الأشراف وهو يلاقيها إلى باب المدخل:

- مشيئة الله تتم، فأعدي نفسك لكل شيء، أيتها الأميرة.

فصرخت بغضب:

- دعني، هذا غير صحيح. وأراد الطبيب أن يوقفها فدفعته وركضت إلى الباب: «لم يوقفني هؤلاء الناس بوجوههم المرعوبة؟ لست بحاجة إلى أحد! وماذا يفعلون هنا؟». فتحت الباب فامتلأت رعباً من ضياء النهار المتوهج الذي غمر الغرفة بعد أن كانت نصف مظلمة. كانت في الغرفة مربيتها العجوز ونساء أخر. فتنحين عن السرير كي تمر. كان مضطجعاً أبداً في الوضع نفسه؛ لكن رصانة وجهه أوقفت الأميرة ماريا عند عتبة الباب.

قالت في نفسها: «كلا، إنه لم يمت، هذا غير ممكن!»؛ ودنت منه

وتغلبت على الخوف الذي تملكها فوضعت شفتيها على خده. لكنها ما لبثت أن تراجعت، من فورها، وتبدد الحنان الذي كانت تحس به نحوه وحل محله شعور بالهول إزاء ما تراه أمامها. «لقد قضى! لقد قضى، وهنا، في الموضع الذي كان فيه، شيء غريب، معاد، وسر رهيب يملؤنا رعباً ويصدنا صداً!» ثم أخفت رأسها بيديها وتهاوت بين ذراعي الطبيب الذي سندها.

غسلت النساء، بحضور «تيخون» والطبيب، ذاك الذي كان الأمير الشيخ، وربطن منديلاً تحت ذقنه ليظل الفك مطبقاً، وربطن بمنديل آخر ساقيه المتباعدتين، ثم ألبسته بزته المزدانة بالأوسمة وسجين على الطاولة الجثمان الصغير المهزول. الله أدرى بمن عني بذلك كله ومتى عني به، لكن كل شيء بدا وكأنما يتم من تلقاء ذاته. وفي الليل أضيئت الشموع حول النعش المغطى ببساط الرحمة، ونثرت على الأرض أغصان العرعر، ودست تحت رأس الميت المعروف صلاة مطبوعة[1]، وراح المرتل يتلو المزامير في زاوية من الغرفة.

وكما تتوثب الجياد وتتجمع وتحمحم حول جواد ميت، كذلك كان الجمهور يزدحم في القاعة حول النعش وفيهم الأقرباء والغرباء ونقيب الأشراف والقيم الأميري ونساء قرويات، وكلهم شاخص العينين، ممتلئ ذعراً، يرسم إشارة الصليب وينحني ويقبل يد الأمير الشيخ الباردة المتصلبة.

***

١- الصلاة المطبوعة ورقة تحتوي صلاة تطوى وتوضع على جبين الميت أو تحت رأسه في النعش المفتوح.

الفصل التاسع

كانت «بوغو تشاروفو»، قبل أن يقيم فيها الأمير آندريه، ملكاً أهمله أصحابه. كان فلاحوها مختلفين كل الاختلاف عن فلاحي «ليسييه خوري»، وكانوا يتميزون عنهم بلغتهم وثيابهم وعاداتهم. وكانوا يدعون: جماعات السهوب. وكان الأمير الشيخ معجباً بجلدهم على العمل حين يأتون إلى «ليسييه خوري» للمساعدة في الحصاد أو لحفر المستنقعات والحفر، لكنه لم يكن يحبهم بسبب توحشهم.

و لم تُلطِّف أخلاقهم إقامةُ الأمير آندريه الأخيرة في «بوغو تشاروفو» ولا تجديداته: المستشفيات والمدارس وتخفيف الإتاوة، بل إنها فاقمت من سمات طبعهم هذا الذي وصفه الأمير الشيخ بالتوحش. وكانت تشيع بينهم أبداً شائعات مبهمة تقول أنهم سيُحولون إلى قوزاق أو أنهم سيُحملون على اعتناق دين آخر، وكانوا يتحدثون تارة عن أمر القيصر، وعن اليمين الذي أقسموه للإمبراطور «بول» سنة ١٧٩٧ (الذي تعهد فيه الأسيادُ، على حد زعمهم، بتحرير الأقنان لكنهم حرموهم هذا الحق)، وتارة عن مجيء بيير الثالث[1]، في غضون سبع سنين؛ وفي عهده سيغدو جميع الناس أحراراً وسيغدو كل شيء بسيطاً بحيث لا يقع شيءٌ

١- أن المنكود الحظ بيير الثالث (١٧٦١-١٧٦٢) قد ترك ذكرى حسنة بين الفلاحين والمؤمنين القدامى الذين منحهم بعض الحريات؛ ولذلك فإن زعيم ثورة ١٧٧٣ ايفان بوغاتشوف أوهم الناس بأنه بيير الثالث الذي نجا من القتل.

بعد ذلك. وكانت أنباءُ الحرب وبونابرت وغزوه تختلط عندهم بمفاهيم غامضة عن المسيح الدجال وعن نهاية العالم وعن الحرية المطلقة.

في ضواحي «بوغو تشاروفو» قرى كبيرة تملكها الدولة أو يملكها الأفراد، ويسكنها فلاحون يدفعون الإتاوة. كان الملاكون المقيمون في هذه المنطقة قلّةً قليلة؛ وكان الفلاحون والخدم الذين يعرفون القراءة قلّةً قليلة أيضاً، وكانت تيارات الحياة الشعبية الروسية التي يكتنفها الخفاءُ والتي يستعصي فهمُ أسبابها ومعانيها على المعاصرين أظهر وأقوى هنا منها في أي مكان آخر. وهكذا، حدثت بينهم، قبل عشرين سنة، حركة هجرة إلى أنهار مياهها دافئة[1]. لقد باع مئات الفلاحين، ومن بينهم فلاحو «بوغاتشوروفو» ماشيتهم فجأة، ونزحوا مع عائلاتهم إلى مكان ما في الجنوب الشرقي. وكما تطير الطيور المهاجرة إلى ما وراء البحار، يمَّم هؤلاء الناس مع زوجاتهم وأولادهم شطر مناطق لم يطأها إنسان بينهم من قبل، معتقين أنفهسم بأموالهم، أو لائذين بالفرار، متجهين في قوافل، أو على الأقدام، أو في عربات إلى هناك، إلى المياه الدافئة. وعوقب كثيرٌ منهم، ونفوا إلى سيبيريا، ومات كثير منهم جوعاً وبرداً في الطريق، ورجع كثير منهم بملء اختيارهم، وهدأت الحركة من تلقاء ذاتها كما وُلدت، دون سبب ظاهر. لكن التيارات الكامنة لم تنضب عند هؤلاء الناس، بل إنها كانت تتخذ قوة جديدة ستتجلى في شكل غريب، مفاجئ، شكل بسيط، طبيعي وقوي، في الوقت نفسه. والذين كانوا، في سنة ١٨١٢، على اتصال وثيق بالشعب أحسوا إحساساً عميقاً بما يعتمل فيه من تيارات كامنة مستعدة للظهور.

عندما وصل «ألباتيتش» إلى «بوغو تشاروفو»، قبل وفاة الأمير الشيخ

١- ظهرت حركة المهاجرة هذه، وهي حركة غير منتظمة اتجهت إلى آسيا الوسطى، في أواخر القرن الثامن عشر.

بزمن قليل، شهد شيئاً من الحركة والاضطراب بين الفلاحين ولاحظ أنهم كانوا، كما يقال، على صلة بالفرنسيين، وأنهم يتلقون منهم بعض الأوراق التي يتداولونها، وأنهم يمكثون في أماكنهم، على عكس ما كان يجري في منطقة «ليسييه خوري» حيث كان الأهلون ينزحون من دائرة قطرها ستون فرسخاً إلى منطقة السهوب، تاركين قراهم نهباً للقوزاق. وعلم من بعض الخدم المخلصين أن شخصاً يدعى «كارب»، وهو فلاح واسع النفوذ في الناحية قاد حديثاً قافلة من العربات التي صادرتها السلطات، قد عاد وراح يذيع نبأ مفاده أن القوزاق ينهبون القرى التي يهجرها أهلها، في حين أن الفرنسيين لا يمسون شيئاً منها. وعلم أن فلاحاً آخر حمل البارحة من بلدة «يسلوخوفو» التي يحتلها الفرنسيون نداءً من الجنرال الفرنسي يعلن فيه للأهلين أنه لن يصيبهم سوءٌ وأنهم إن بقوا في أماكنهم فسيدفع لهم ثمن ما يؤخذ منهم. وتأييداً لذلك حمل معه من «فيسلوخوفو» ورقة بمئة روبل (لم يكن يعلم أنها مزيفة) استلفها ثمناً لعلفه.

وأهم من ذلك كله أن «ألباتيتش» علم بانعقاد مجلس الناحية في صبيحة اليوم نفسه الذي أصدر أمره فيه إلى قيم الأملاك بإعداد العربات من أجل نقل متاع الأميرة، وفي هذا المجلس تقرر التريث وعدم الانصياع للأمر. على أن الوقت كان يمر. ففي ١٥ آب، يوم موت الأمير، ألح نقيب الأشراف على الأميرة ماريا أن ترحل في اليوم نفسه لأن الوضع أصبح ينذر بالخطر. وقال: إنه لن يكون مسؤولاً عن شيء بعد ١٦ آب. وسافر في المساء، لكنه وعد بأن يعود في اليوم التالي ليحضر الدفن. بيد أنه لم يعد لأنه تلقى نبأ تقدم مفاجيء من جانب الفرنسيين ولم يجد من الوقت إلا ما يكفي لنقل عائلته ولنقل أثمن المتاع من ممتلكاته.

منذ ثلاثين سنة وإدارة «بوغو تشاروفو» بين يدي القيِّم «درون» الذي كان الأمير الشيخ يدعوه «درونوشكا».

كان واحداً من أولئك الفلاحين الأشداء جسدياً ونفسياً، من أولئك الفلاحين الذين إذا كبروا تركوا لحاهم على طبيعتها وظلوا كذلك دون أن يتبدل فيهم شيءٌ حتى الستين أو السبعين، دون أن تبيض لهم شعرةٌ أو يسقط لهم سن، منتصبي القامة، أصلاب العود في الستين كما كانوا في الثلاثين.

بعد زمن قليل من الهجرة إلى المياه الدافئة، وهي الهجرة التي شارك فيها كغيره من الناس، عُيّن درون قيّماً أميرياً على «بوغوتشاروفو» وقام بمهماته خير قيام. كان الفلاحون يخافونه أكثر مما يخافون سيدهم. وكان الأسياد والأمير الشيخ والأمير الشاب والوكيل يقدرونه ويسمونه، على سبيل الدعابة، وزيراً. لم ير، طوال هذه المدة، ثملاً قط ولا مريضاً قط؛ ولم تبدر منه أدنى بادرة تنم على التعب، لا في أعقاب الليالي البيضاء ولا بعد العمل المضني، ومع جهله بالقراءة فإنه لم يخطئ قط في حساباته المالية ولا في عدد أكياس الطحين التي كان يبيعها بكميات ضخمة، ولا في عدد حزم القمح التي ينتجها كل هكتار من حقول «بوغو تشاروفو».

إن «درون» هذا هو الذي استقدمه «ألباتيتش» عندما وصل من «ليسييه خوري» المخربة يوم مأتم الأمير، وأمره بإعداد اثني عشر جواداً لعربات الأميرة وثماني عشرة عربة لنقل المتاع الذي سيحمل من «بوغوتشاروفو». ومع أن الفلاحين كانوا يدفعون الإتاوة، إلا أن هذا الأمر ما كان يمكن أن يواجه صعوبة، لأن «بوغوتشاروفو» كانت تعد مئتي بيت وكان الأهلون ميسورين. لكن القيِّم «درون» خفض بصره عند تلقي الأمر. وسمى له «ألباتيتش» بعض الفلاحين الذين يعرفهم والذين يمكن أن يقودوا العربات.

أجـاب «درون» بـأن جياد هـؤلاء الفلاحين غائبة. فسمى له «ألباتيتش» فلاحين آخرين. فرد عليه «درون» بأن هؤلاء أيضاً لا يملكون جياداً: لقد زعم أن بعض الجياد صودر، وأن بعضها التهبت حوافرها، وأن البعض الآخر هلك بسبب عدم وجود العلف. وذهب إلى أنه ليس بالإمكان توفير الجياد لعربات الركاب، بله عربات النقل.

نظر إليه «ألباتيتش» بإمعان وقطب حاجبيه. وإذا كان «درون» قيّماً نموذجياً فقد كان «ألباتيتش» وكيلاً نموذجياً جديراً بإدارة أملاك الأمير منذ عشرين عاماً. كان قادراً، إلى أعلى حد، على أن يفهم بحدسه حاجات الناس الذين يتعامل معهم وغرائزهم، ولذلك كان وكيلاً ممتازاً. إن نظرة خاطفة ألقاها على «درون» كشفت له، على الفور، أن أجوبته لا تعكس أفكاره الخاصة لكنها تعكس العقلية العامة لناحية «بوغوتشاروفو»، العقلية التي خضع القيم لتأثيرها. لكنه كان يعلم، في الوقت نفسه، أن «درون» الذي أثرى والذي كرهه الفلاحون، لابد له من أن يتردد بين معسكرين، معسكر الأسياد ومعسكر الفلاحين. وقرأ «ألباتيتش» هذا التردد في نظرته فتقدم نحوه مقطب الجبين، وقال له:

– اصغ إلي جيداً، يا «درون»، ولا ترو لي سخافاتك. إن سعادة الأمير «آندريه نيكوليتش» أمرني شخصياً بترحيل الناس جميعاً وبألا أدع أحداً بين يدي العدو. وهناك أيضاً أمرٌ من القيصر بهذا الشأن. ومن يبق فهو خائن للقيصر. أتسمع؟

أجاب «درون» دون أن يرفع بصره:

– إنني أسمع.

لم يرض «ألباتيتش» عن هذا الجواب فقال وهو يهز رأسه:

– يا «درون»، ستسوء الأمور!

قال «درون» بحزن:

– كما تشاء!

وردد «ألباتيتش» وهو يسحب يده من فتحة ردائه ويصوبها بحركة مهيبة إلى الأرض، عند قدمي «درون»:

– يا «درون»، دعك من هذا! إني لا أكشف ما في نفسك فحسب، بل إني أرى إلى عمق ثلاثة أقدام تحتك.

اضطرب «درون» ورمى «ألباتيتش» بنظرة عجلى ثم خفض بصره مرة أخرى.

– دعك من هذه الحماقات، وقل للناس أن يستعدوا للرحيل إلى موسكو وأن يأتوا غداً صباحاً بالعربات لنقل متاع الأميرة. وأنت لا تذهب إلى الاجتماع. أتسمع؟

ارتمى «درون» فجأة عند قدميه:

– يا «إياكوف ألباتيتش»، اعفني من عملي! خذ المفاتيح واعفني، بالله عليك!

قال «ألباتيتش» بقسوة:

– دعك من هذا! إني أرى على عمق ثلاثة أقدام تحتك.

ولقد كرر هذه الجملة لعلمه أن حذقه في تربية النحل، وكفاءته في شؤون البذار، وكونه استطاع، خلال عشرين عاماً، إرضاء الأمير الشيخ، لعلمه أن كل ذلك أكسبه لقب ساحر وأن الناس ينسبون إلى السحرة القدرة على أن يروا إلى عمق ثلاثة أقدام تحت قدمي الرجل.

نهض «درون» وأراد أن يقول شيئاً، لكن «ألباتيتش» لم يترك له مجال الكلام وقال:

– ماذا يدور في رأسك؟ ماذا؟.... وبم تفكر؟ قل لي؟

فأجاب «درون»:

– ماذا بوسعي أن أفعل بهؤلاء الناس؟ إنهم هائجون. وعبثاً قلت لهم...

– قلت لهم... أكانوا يشربون؟

– إنهم هائجون، يا «إياكوف ألباتيتش»، وقد بدؤوا بالبرميل الثاني.

– اصغ إذن. سأذهب أنا إلى قائد الشرطة، وقل لهم أنت أن ينصرفوا عما هم فيه وأن يحضروا العربات.

أجابه درون:

– أنا رهن أوامرك.

لم يصر «ألباتيتش» أكثر من ذلك. لقد علمته قيادة الناس أن خير وسيلة لانصياعهم هي ألا نضع طاعتهم موضع الشك. وعندما لقي ذلك الانصياع في جوابه قنع به، مع يقينه أن العربات لن تقدم دون تدخل القوة المسلحة.

والحقيقة أن المساء جاء و لم تأت العربات. وجرى في القرية اجتماع جديد، أمام دكان الخمور، تقرر فيه أخذ الخيول إلى الغابات وعدم إعطاء العربات. لم يقل «ألباتيتش» شيئاً من ذلك للأميرة، وأنزل أمتعته الشخصية من العربات التي جاء بها من «ليسييه خوري»، وأمر أن تربط جياده بعربات الأمير، ثم ذهب بنفسه إلى مقابلة السلطات.

***

الفصل العاشر

اعتكفت الأميرة ماريا في غرفتها، بعد دفن أبيها، وأبت أن تستقبل أحداً. وطرقت خادمة بابها لتقول لها أن «ألباتيتش» ينتظر أوامرها للرحيل. (كان ذلك قبل حديثه مع «درون»). فاستوت الأميرة على أريكتها التي كانت مستلقية عليها، وأجابت عبر الباب المغلق بأنها لا تفكر بالرحيل وأنها تطلب أن يدعوها وشأنها.

كانت نوافذ حجرتها تطل على المغرب. وكانت مستلقية على الأريكة ووجهها إلى الجدار، ويداها تعبثان بأزرار الوسادة الجلدية؛ لم تكن ترى سوى هذه الوسادة، وقد تركزت أفكارها المشوشة على شيء واحد: كانت تفكر في حتمية الموت وفي انحطاطها الأخلاقي الذي جهلته حتى هذا الزمن والذي انكشف لها بعد مرض أبيها. أرادت أن تصلي فلم تجرؤ، لم تجرؤ أن تتوجه إلى الله وهي في مثل هذه الحالة النفسية. وبقيت زمناً طويلاً على هذا النحو.

كانت الشمس تهبط في الجانب الآخر من البيت، ومن النافذة المفتوحة أضاءت أشعتها المائلة الحجرة وجزءاً من الوسادة الجلدية التي كانت تنظر إليها. وإذا بمجرى أفكارها ينقطع، وإذا بها تنهض بحركة آلية، وتسوي شعرها، وتقترب من النافذة، وتستنشق، بالرغم منها، نسيم المساء العليل، وتقول في نفسها:

«نعم، تستطيعين الآن أن تتأملي المساء على هواك! لقد قضى، ولن يزعجك أحد بعد الآن». وتهالكت على كرسي، ووضعت رأسها على متكأ النافذة.

ناداها من الحديقة شخص بصوت رقيق، عذب وقبل رأسها. فالتفتت وإذا بالآنسة «بورين» في ثوب أسود واسع الأكمام. لقد اقتربت برفق من الأميرة ماريا، وقبلتها وهي تتنهد، وما لبثت أن انهمرت دموعها. حدجتها الأميرة ماريا بنظرة، وعادت إلى ذهنها نزاعاتهما القديمة وغيرتها منها. وتذكرت أيضاً كم تبدل الأمير إزاءها في الآونة الأخيرة، وكيف أنه لم يطق رؤيتها وخلصت إلى أن ما أضمرته في أعماق نفسها من لوم للآنسة بورين كان ظالماً جداً، وفكرت في نفسها: «وهل لي أنا، وقد تمنيت موت أبي، أن أدين الآخرين؟»

تمثل لها بقوة وضع الآنسة «بورين» تابعة لها مجبرة على العيش عند الآخرين، مهملة منذ زمن، فأخذتها الشفقة وألقت عليها نظرة مستفهمة مفعمة بالرقة ومدت لها يدها. فأخذت الآنسة «بورين» تبكي وقبلت يدها وتحدثت عن المصاب الذي نزل بالأميرة والذي تشاركها فيه. قالت لها إن عزاءها الوحيد عن حزنها هو أن تسمح لها الأميرة بمشاركتها هذا الحزن. وقالت إن جميع الخلافات القديمة يجب أن تزول أمام هذا الألم العظيم، وأنها تشعر ببراءتها إزاء الناس جميعاً، وأنه كان يرى من فوق حنانها وعرفانها بالجميل. كانت الأميرة تصغي إليها دون أن تعي ما تقول، لكنها كانت تلقي عليها نظرة، بين الحين والحين، وتستمع إلى رنين صوتها.

استأنفت الآنسة «بورين» كلامها بعد صمت قصير:

– إن موقفك رهيب مرتين، أيتها الأميرة العزيزة. وأنا أفهم أنك لم

تستطيعي ولا تستطيعين الآن التفكير بنفسك؛ لكن الحب الذي أحمله لك يرغمني على أن أنوب عنك في ذلك... هل رأيت «ألباتيتش»؟ وهل حدثك عن الرحيل؟

لم تجب الأميرة ماريا. لم تكن تدرك من الذي سيسافر، وإلى أين سيسافر. «هل يمكن الآن الشروع في شيء أو التفكير في شيء؟ أليست جميع الأشياء سواء»؟

وقالت الآنسة «بورين»:

- أتعلمين، يا ماريا العزيزة، إننا في خطر، وأن الفرنسيين يحيطون بنا؟ فمن الخطر أن نسافر الآن. ولو سافرنا فأكبر الظن أننا سنقع أسرى بين يدي العدو، والله أعلم...

نظرت الأميرة ماريا إلى رفيقتها دون أن تفهم ما قالته لها. وقالت:

- آه! ليت الناس يعلمون كيف استوت لدي الأشياء جميعها الآن. والحق أنني لا أحب أن أفارقه في أية حال من الأحوال... لقد قال لي «ألباتيتش» شيئاً عن الرحيل... تدبري الأمر معه، فأنا لا أستطيع شيئاً ولا أريد شيئاً.

- لقد حدثته في ذلك. وهو يأمل أن نتمكن من السفر غداً؛ لكني أعتقد أن من الأفضل لنا أن نبقى هنا. فسيكون فظيعاً، وأرجو أن توافقيني على ذلك أيتها الأميرة العزيزة، أن نقع بين أيدي الجنود أو الفلاحين المتمردين. وأخرجت الآنسة «بورين» من حقيبة يدها نداء (على ورق غير ورق الوثائق الروسية) من الجنرال الفرنسي «رامو» يدعو فيه الأهلين إلى عدم مغادرة بيوتهم، مؤكداً أن السلطات الفرنسية ستوليهم الحماية اللازمة، ومدته إلى الأميرة وقالت لها:

- أعتقد أن من الأفضل لنا الاتصال بهذا الجنرال، وأنا واثقة من أنه سيبدي لك ما تستحقينه من إكرام.

قرأت الأميرة ماريا النداء فتشنج وجهها من زفرات لا دموع فيها. وسألتها:

- ومن أين لك هذا؟

فأجابت الآنسة «بورين» وقد تضرج وجهها خجلاً:

- لابد أنهم عرفوا من اسمي أنني فرنسية.

ابتعدت الأميرة ماريا عن النافذة والورقة بيدها، ومضت، وهي شاحبة، إلى مكتب عمل الأمير آندريه، وقالت:

- يا «دونياشا»، ادعي لي «ألباتيتش أو درون» أو أي أحد!

وأضافت عندما سمعت صوت الآنسة «بورين»:

- وقولي لاميلي كارلوفنا[1] ألا تدخل علي.

وقالت في نفسها وقد امتلأت رعباً من فكرة إمكان وقوعها بين أيدي الفرنسيين: يجب أن نسافر! يجب أن نسافر بأسرع ما يمكن! بأسرع ما يمكن!

«لو عرف الأمير آندريه أنها في قبضة الفرنسيين! لو عرف أنها، وهي ابنة الأمير «نيكولا اندريفيتش بولكونسكي»، ترجو الجنرال «رامو» أن يرعاها، وأنها تنعم بنعمه!» كانت هذه الفكرة تملؤها هولاً وتنزل بها رعدة، وتحملها على الخجل، وتثير فيها الغضب والكبرياء

١- أي الآنسة بورين، سُميت كذلك نسبة إلى أبيها شارل.

اللذين لم تعرفهما من قبل. تجلى لها الآن ما في وضعها من إيلام ومن إذلال، على الخصوص. «سيحل الفرنسيون في هذا البيت، وسيشغل الجنرال» «رامو» مكتب عمل الأمير «آندريه»»، وسوف يتسلى بقراءة رسائله وأوراقه، وستقوم الآنسة «بورين» بواجبات الضيافة، وسوف يتصدقون علي بغرفة صغيرة، وسوف يدنس الجنود قبر أبي الذي لم يجف ترابه بعد لكي ينتزعوا منه أوسمته، وسوف يقصون علي انتصاراتهم على الروس، وسوف يواسونني في حزني مواساة مرائية؟...» هذا ما كانت تفكر فيه الآنسة «ماريا»، ولم تكن هذه الأفكار من عند نفسها بقدر ما كانت أفكار أبيها التي أحست أنه ينبغي لها التزاماً. لم يكن يهمها، شخصياً، أين تكون ولا ما قد يقع لها؛ لكنها كانت تشعر بأنها تمثل أباها الراحل وأخاها الأمير آندريه. لقد اعتنقت، بالرغم منها، أفكارهما ومشاعرهما، ورأت من واجبها أن تقول وتفعل ما كانا سيقولانه ويفعلانه في هذه اللحظة.

دخلت مكتب عمل الأمير، وجهدت في أن تتشبع بأفكاره، وراحت تفكر في وضعها.

لقد برزت أمامها متطلبات الحياة التي ظنت أنها زالت منذ موت أبيها بقوة جديدة لم تعهدها من قبل، واستحوذت عليها كلياً.

كانت تذرع الغرفة وهي منفعلة، محمرة الوجه، طالبة بين الحين والآخر «ألباتيتش» أو «ميشيل ايفانوفيتش» أو «تيخوف» أو «درون». ولم تستطع «دوبناشا» ولا المربية العجوز ولا الخادمات أن يقلن لها شيئاً يؤكد أو ينفي مزاعم الآنسة «بورين». كان ألباتيتش غائباً لأنه ذهب لمقابلة السلطات. ولم يستطع المهندس «ميشيل ايفانوفتش» الذي مثل أمامها والنوم يغشي عينيه، أن يقول لها شيئاً. لقد أجاب بابتسامته الموافقة التي اصطنعها طوال خمسة عشر عاماً ليجيب الأمير الشيخ

دون أن يعبر عن رأيه، أجاب عن أسئلة الأميرة «ماريا» بما لا يمكن للمرء أن يستخلص منه شيئاً محدداً. فلما دعي بدوره الخادم العجوز «تيخوف» ذو الوجه الناحل الذي تحمل قسماته المشدودة آثار حزن لا سبيل إلى شفائه، أجاب عن أسئلتها جميعاً بقوله: «أنا رهن أوامرك»، وكان يجد مشقة في كبح نحيبه عندما ينظر إليها.

وأخيراً دخل القيم «درون»، وبعد أن حياها وبالغ في التحية جمد عند إطار الباب.

خطت الأميرة ماريا خطوات في الغرفة ووقفت أمامه، ثم قالت، وهي واثقة من أنها تحدث صديقاً، من أنها تحدث «درونشكا» ذاته، ذاك الذي كان يحمل إليها من رحلته السنوية إلى معرض «نيجني» حلوى خاصة يمدها لها وهو يبتسم:

– يا «درونشكا»، بعد المصاب الذي حل بنا...

ثم سكتت وقد خذلتها قواها عن متابعة كلامها.

فرد وهو يتنهد:

– نحن بين يدي الله، يفعل بنا ما يشاء.

قالت بعد صمت قصير:

– يا «درونشكا»، إن «ألباتيتش» غائب، وليس هناك من أتوجه إليه بالخطاب.

يبدو أنني لا أستطيع الرحيل. هل هذا صحيح؟

قال درون:

– ولم لا تستطيعين الرحيل، يا صاحبة السعادة، بل الرحيل ممكن.

– قيل لي أن السفر يعرض للخطر بسبب العدو. أنا لا أستطيع شيئاً، يا عزيزي، ولا أفقه شيئاً، وليس بجانبي أحد. لابد من أن أسافر هذه الليلة أو غداً في الصباح الباكر.

صمت «درون» وهو يختلس النظر إليها، وقال:

– ليس لدينا جياد. وقد قلت ذلك لاياكوف ألباتيتش.

قالت الأميرة:

– و لم ذاك؟

قال درون:

– كل ذلك من نقمة الله علينا. فمن الخيول الموجودة ما صودر على يد القوات ومنها ما هلك. إنها لسنة بائسة! ليس لدينا ما نأكله نحن أنفسنا فضلاً عن إطعام الخيل. فهناك من لم يطعم شيئاً منذ ثلاثة أيام. لم يبق شيء، والفلاحون معدمون!

أصغت إليه الأميرة ماريا بانتباه ثم سألته:

– الفلاحون معدمون؟ أليس لديهم حنطة؟

– إنهم يموتون جوعاً.. فكيف تريدين أن يقدموا العربات...

– و لم لم تذكر شيئاً عن ذلك، يا «درون»؟ أليس في وسعنا مد يد المعونة إليهم؟ سأفعل كل ما أستطيع...

في هذه اللحظة التي كان يتأكلها فيها حزن عميق، استغربت الأميرة أن يكون هناك أغنياء وفقراء، وألا يفكر الأغنياء في مد يد المعونة إلى الفقراء. وكانت قد سمعت، على نحو غامض، بالحنطة التي تدخر

للسادة والتي تعطى أحياناً للفلاحين. وكانت تعلم أن أخاها وأباها ما كانا ليرفضا مساعدتهم، لكنها كانت تخشى ألا تجد الكلمات المناسبة للأمر بتوزيع تلك الحنطة. وسرها أن تجد ذريعة لبذل رعايتها، وهي ذريعة لم تكن تتحرج أن تنسى حزنها من أجلها. فسألت درون عن تفاصيل حاجات الفلاحين وعن مدخرات «بوغوتشاروفو»:

– لدينا حنطة، حنطة أخي، أليس كذلك؟

أجاب «درون» بفخر:

– حنطة «السادة» لم تمسسها يد، ذلك أن الأمير لم يأمرنا ببيعها.

قالت الأميرة ماريا.

– أعطها للفلاحين، أعطهم كل ما يحتاجون إليه، إني آذن لك باسم أخي.

فلم يجب «درون» بشيء وأرسل تنهداً عميقاً.

– وزعها عليهم إن كانت تكفيهم. وزع كل شيء. آمرك بذلك باسم أخي، وقل لهم أن مالنا هو لهم، وأننا لن ندخر شيئاً في سبيل مساعدتهم. أنبئهم بذلك كله.

كان «درون» يحدق في الأميرة ماريا وهي تتكلم. وقال:

– اعفني، يا أميرة، بالله عليك. مري أن تسترد المفاتيح مني لقد خدمت ثلاثاً وعشرين سنة و لم أسئ في شيء، اعفني، بحق السماء.

لم تفهم الأميرة ماريا ماذا يريد منها وممَ يريد أن تعفيه. فأجابته أنها لم ترتب في إخلاصه قط وأنها مستعدة أن تفعل كل شيء من أجله ومن أجل الفلاحين.

***

الفصل الحادي عشر

بعد ساعة جاءت «دويناشا» لتقول للأميرة أن «درون» عاد، وأن الفلاحين تجمعوا، بناء على أمرها، قرب مخزن الحبوب وأنهم يرغبون في الكلام إليها.

قالت الأميرة ماريا:

لكنني لم أستدعهم، وإنما قلت لدرون أن يوزع الحنطة عليهم.

قالت دونياشا:

- اطرديهم، بالله عليك، يا أميرة، ولا تذهبي لمقابلتهم. إنما ذلك كله خدعة. سوف يرجع «إياكوف ألباتيتش» وسوف نسافر... لكن لا تذهبي...

فسألتها الأميرة مدهوشة:

- أية خدعة يمكن أن تكون في الأمر؟

- إنني أعلم ما أقول، استمعي إلي، بالله عليك، واسألي المربية. يقولون أنهم لا يوافقون على الذهاب كما أمرت.

قالت الأميرة ماريا:

- أنت مخطئة، فأنا لم آمرهم بالذهاب قط... ادعي لي «درون».

أيد «درون» أقوال «دويناشا»: لقد جاء الفلاحون بناء على أمر الأميرة.

فأجابت هذه:

- لكني لم أطلب إليهم المجيء. لا ريب أنك لم تحسن التعبير. كل ما قلته لك هو أن توزع عليهم الحنطة.

تنهد «درون» دون أن يجيب، ثم قال:

- سينصرفون إذا ما أمرت بانصرافهم.

- كلا، كلا، سأذهب لأراهم.

خرجت الأميرة ماريا إلى درج المدخل بالرغم من توسلات «دونياشا» والمربية العجوز، وتبعها «درون» و«دونياشا» والمربية العجوز و«ميشيل ايفانوفتش».

قالت الأميرة في نفسها وهي تدنو عند الغسق من الجمهور الذي تجمع في المرعى قرب مخزن الحبوب: «إنهم يظنون، بلا ريب، أني أمنحهم القمح بشرط أن يبقوا، وأني سأذهب وأتركهم لمشيئة الفرنسيين. سأعدهم بجراية شهرية وبمأوى في أملاكنا بضواحي موسكو، وأنا واثقة من أن آندريه لو كان مكاني لفعل أكثر مما فعلت».

تراص الجمهور واضطرب وحسرت الرؤوس على عجل. دنت منهم الأميرة ماريا بحيوية، خافضة عينيها، متعثرة بثيابها، وقد شخصت إليها كثير من العيون، عيون الشباب وعيون الشيوخ، واتجهت إليها كثير من الأوجه حتى أنها لم تميز وجهاً واحداً بينها وحتى أنها لم تعلم ماذا تفعل

حين رأت نفسها مضطرة إلى مخاطبة الجميع دفعة واحدة. لكن شعورها بأنها تمثل أباها وأخاها منحها القوة فبدأت خطبتها بشجاعة. قالت وقد رفعت بصرها وأحست قلبها يدق دقاً سريعاً وعنيفاً:

-أنا جد مسرورة من مجيئكم. لقد قال لي «درون» إن الحرب خربت بيوتكم. المصيبة مشتركة ولن أدخر وسعاً في سبيل معونتكم. سوف أرحل لأن في البقاء هنا خطراً علي... ولأن العدو قريب.. لأن... إني أعطيكم كل شيء، يا أصدقائي، وأرجوكم أن تأخذوا كل شيء، خذوا حنتطنا كيلا تذوقوا العازة. وإذا قيل لكم إنني أهبكم الحنطة لكي تبقوا هنا فلا تصدقوا. بل إني أطلب إليكم أن تذهبوا مع كل ما تملكونه إلى أملاكنا في ضواحي موسكو، وهنا سآخذ كل شيء على عاتقي، وأنا أعدكم ألا يصيبكم العوز هناك وأن يقدم لكم المأوى والطعام. توقفت الأميرة. ولم يسمع من الجمهور سوى التنهدات. ثم استأنفت كلامها:

– إني لا أفعل ذلك باسمي، بل باسم المرحوم أبي الذي كان سيداً صالحاً لكم، وباسم أخي وباسم ابنه.

وتوقفت ثانية، فلم يقطع الصمت أحد. ثم قالت وهي تتفحص الوجوه أمامها:

– إن مصيبتا مشتركة سوف نتقاسم كل شيء مناصفة، فكل ما هو لي هو لكم.

كانت جميع العيون شاخصة إليها، حاملة معنى واحداً لم تدرك كنهه. أكان فضولاً أو إخلاصاً أو عرفاناً أو خوفاً أو حذراً. كان واحداً على جميع الوجوه.

قال صوت من الصفوف الأخيرة:

- نحن جد مسرورين من أفضالك، إنما لا يليق بنا أخذ حنطة السادة. وسألته الأميرة:

و لَم ذاك؟

فلم يجبها أحد، ولاحظت الأميرة ماريا أن أبصارهم لا تلبث أن تنكس كلما واجهت نظرتها. وسألتهم ثانية:

- و لَم لا تريدون أخذها؟

أخذ الصمت يضايقها، وحاولت أن تتصيد إحدى النظرات. سألت شيخاً كان يقف أمامها مستنداً إلى عصاه. فقالت وهي تنظر في عينيه:

- لَم لا تقول شيئاً؟ تكلم إن كنت تعتقد أنكم بحاجة إلى شيء آخر. سأفعل ما تطلبون.

وكأنما استاء الشيخ مما قالته فأطرق رأسه وقال:

- و لَم نقبل، لسنا بحاجة إلى الحنطة.

وانبعثت من جهات شتى في الجمهور أصوات تقول:

- تطلبين منا أن نترك كل شيء. لن نقبل بهذا. لن نعطي موافقتنا. إننا نرثي لك، لكننا لا نوافق. اذهبي وحدك...

وعاد إلى الوجوه مرة أخرى ذلك التعبير نفسه، لكنه لم يكن فضولاً أو عرفاناً بل إنه كان عزماً عدوانياً.

قالت الأميرة ماريا وعلى وجهها ابتسامة حزينة:

لا ريب أنكم لم تحسنوا فهمي. لم لا تريدون أن تذهبوا. إني أعدكم بالمأوى والغذاء. والعدو هنا سيخرب بيوتكم...

لكن أصوات الجمهور غطت على صوتها:

- لن تحصلي على موافقتنا، ليخرب بيوتنا! لن نقبل حنطتك، لن تحصلي على موافقتنا!

حاولت الأميرة ماريا أن تلتقي إحدى النظرات في ذلك الجمهور فلم تجد نظرة متجهة إليها، لقد تحاشتها العيون جميعاً، فأحست بضعف شديد.

علت من الجمهور أصوات تقول:

- أرأيتم نصائحها، هي تريد أن نتبعها في عبوديتنا! ندع بيوتنا تخرب ونقبل بالعبودية! صدقت! سأعطيكم حنطة!

خفضت الأميرة ماريا رأسها وخرجت من الجماعة وعادت إلى بيتها. وبعد أن كررت لدرون أنها بحاجة إلى الخيل كي تسافر في اليوم التالي، أوت إلى غرفتها وبقيت وحدها مع أفكارها.

***

الفصل الثاني عشر

ظلت الأميرة ماريا زمناً طويلاً، في هذه الليلة، جالسة إلى نافذتها المفتوحة تصيخ السمع إلى ضجيج أصوات الفلاحين المتصاعد من القرية، وإن لم تفكر فيهم. كانت تحس أنها لن تجد سبيلاً إلى فهمهم، بالرغم مما تبذله من جهد. لم تكن تفكر إلا في شيء واحد، في حزنها الذي غدا الآن، بعدما ألهتها عنه هموم الحاضر، جزءاً من الماضي بالنسبة إليها. تستطيع الآن أن تتذكر وتبكي وتصلي. سكنت الريح مع غروب الشمس. وكان الليل هادئاً ندياً وسكتت الأصوات شيئاً فشيئاً نحو منتصف الليل، وصاح ديك، وطلع البدر فوق أشجار الزيزفون، وعلا ضباب رطب مائل إلى البياض وخيم الصمت على القرية وعلى البيت.

استرجعت صور الماضي القريب، واحدة بعد الأخرى: مرضَ أبيها ولحظاته الأخيرة. وكانت تقف عندها الآن بفرح كئيب إلا الأخيرة منها، وهي لحظة الموت، فكانت تدفعها عنها مرتاعة، لأنها لم تكن تجرؤ على تأملها حتى في خيالها، في هذه الساعة من الليل، التي تلفها السكينة وتكتنفها الأسرار. وكانت هذه الصور تمثل لها بكثير من الوضوح والتفاصيل خيِّل إليها معها أنها حقيقية، وأنها تعرض الماضي حيناً والحاضر أو المستقبل حيناً آخر.

استرجعت بشدة تلك اللحظة التي صرعته فيها النوبة القلبية: لقد كانوا يعودون به من حديقة «ليسييه خوري» وهم يرجونه من تحت ذراعيه، وهو يغمغم شيئاً بلسانه العاجز، ويقطب حاجبيه الأبيضين وينظر إليها بخجل وقلق.

وحدثت نفسها قائلة: «منذ ذلك الحين، كان يريد أن يقول لي ما قاله يوم موته. لقد كان دائماً يردد في فكره ما قاله لي.» وحينذاك عادت إليها بجميع تفاصيلها ذكرى ليلة «ليسييه خوري»، الليلة التي سبقت النوبة، عندما توجست مكروهاً فبقيت بجنبه، وهي كارهة. لم تستطع النوم آنذاك، فنزلت على أطراف أصابعها، ودنت من باب حديقة الشتاء حيث كان يقضي تلك الليلة، وأصغت إلى صوته. كان يحدث «تيخون» بصوت متعب عن القرم، وعن الليالي الدافئة، وعن الإمبراطورة. كان من الواضح أنه يشتهي الكلام. وأخذت تفكر الآن كما فكرت آنذاك: «لِمَ لَمْ يدعوني إليه؟ لِمَ لَمْ يسمح لي أن أجلس مكان تيخون»؟ لن يقول لأحد بعد الآن كل ما كان يدور في نفسه. لن تعود أبداً، لا بالنسبة إلي ولا بالنسبة إليه، تلك اللحظة التي كان سيقول فيها كل ما يريد أن يقوله، والتي كنت سأستمع إليه فيها وسأفهمه أنا، بدلاً من «تيخون». لِمَ لَمْ أدخل آنذاك؟ فلربما قال في تلك اللحظة ما قاله يوم مماته. وحتى عندما كان يحدث «تيخون» استفسر عني مرتين. كان يشتهي أن يراني، وكنت هنا، خلف الباب. كان يشعر بالحزن ويتألم من أن يحدث «تيخون» الذي لم يكن يفهمه. أذكر أنه حدثه عن «ليز» كما لو كانت حية: نسي أنها ميتة، وذكره «تيخون» بذلك فصرخ به: «يا غبي!». كان يتألم. سمعته من خلال الباب يتأوه، وهو يتمدد على سريره، ويصرخ: «يا إلهي!» لِمَ لَمْ أدخل آنذاك؟ ما الذي كان سيفعله بي؟ بِمَ كنت سأجازف؟ لعله كان سيهدأ منذ تلك اللحظة ويقول لي تلك الكلمة. ولفظت الأميرة ماريا بصوت عال تلك الكلمة الحنونة

التي قالها لها يوم موته: «يا روحي الغالية»، وكررتها، وانفجرت باكية تسكب الدموع التي تعزي القلب. كانت ترى الآن وجهه أمامها. لا هذا الوجه الذي عرفته ورأته دائماً عن بعد، بل هذا الوجه الخجل، الضعيف الذي تأملته لأول مرة، عن قرب، بكل تجاعيده وتقاطيعه عندما انحنت على فمه لتحسن سماع ما كان يقوله.

وكررت: «يا روحي الغالية». وتساءلت فجأة: «بم كان يفكر عندما قال هذه الكلمة؟ وبما يفكر الآن؟ وجواباً عن هذا السؤال رأته أمامها وعلى وجهه تلك المعاني التي رأتها عليه وهو في النعش محاطاً بمنديل أبيض. واستولت عليها الآن مرة أخرى تلك الرهبة التي كانت قد أصابتها عندما تبينت بعد أن لمسته أنه لم يكن هو نفسه، بل أن ما كان أمامها شيء تحيط به الأسرار، شيء منفر. أرادت أن تفكر في شيء آخر، أرادت أن تصلي، فلم تقو على شيء. كانت تحدق في ضوء القمر وفي الظلال، وتنتظر، في كل لحظة، ظهور وجهه الميت، وتحس كأنها مقيدة بالصمت الذي خيم على البيت.

وهمست:

- دونياشا!

ثم صرخت بصوت مذعور:

- دونياشا!

وانتزعت ذاتها من الصمت واندفعت إلى غرفة الخادمات، نحو المربية والنساء اللائي هرعن إليها.

***

الفصل الثالث عشر

في ١٧ آب ذهب «روستوف» و«إيلين» وبصحبتهما «لافروشكا» الذي عاد لتوه من الأسر وأحد الخيالة. في نزهة من مخيمهم في «إيانكوفو» على خمسة عشر فرسخاً من «بوغوتشاروفو» لتجريب الحصان الذي اشتراه ايلين وللبحث عن العلف في القرى.

كانت «بوغوتشاروفو»، منذ ثلاثة أيام، بين الجيشين المتعاديين، وكان يمكن أن تحتلها بسهولة مؤخرة الجيش الروسي أو طليعة الجيش الفرنسي. ولذلك أراد «روستوف»، بوصفه رئيس كوكبة يقظ، أن يستولي قبل الفرنسيين على ما قد تبقّى من الأرزاق.

كان «روستوف» و«إيلين» منبسطين أشد انبساط. وكانا، وهما في طريقهما إلى هذا الملك الأميري الذي أملا أن يجدا فيه خدماً كثيراً بينهم فتيات جميلات، يسألان «لافروشكا» عن نابليون ويضحكان من حكاياته. أو يجريان لتجريب حصان «إيلين».

ولم يخطر ببال «روستوف» أن الأملاك التي يقصد إليها تخص «بولكونسكي» الذي كان خطيب أخته.

أطلق هو و«إيلين» جوْاديهما للمرة الأخيرة أمام «بوغاتشاروفو»، وسبق «روستوف» «إيلين» ودخل شارع القرية قبله عدواً.

قال «إيلين» وهو محمر الوجه:

– لقد سبقتني.

فأجاب «روستوف» وهو يربت بيده جواده «الدوني» الذي علاه الزبد:

– أنا سباق دائماً، في الأرض المنبسطة وفي هذه الأرض.

قال «لافروشكا»:

– وأنا كنت قديراً أن أسبقك، يا صاحب السيادة، على جوادي الفرنسي الأصيل – وكان يسمي كذلك فرسه الصالحة للجر –، لكنني لم أشأ أن أخجلك.

اقتربوا من مخزن للحبوب تجمع أمامه جمهور غفير من الفلاحين.

حسر بعضهم على رؤوسهم واكتفى الآخرون بالنظر إلى القادمين. اقترب من الضابطين عجوزان طويلان تجعد وجهاهما وخف شعر لحيتهما، خرجا من الخمارة وهما يبتسمان ويترنحان ويدندنان لحناً ناشزاً.

قال «روستوف» وهو يضحك:

يا لهما من مستهترين أفي القرية علف؟

قال إيلين:

– وما أشد الشبه بينهما...

كان أحد العجوزين يغني، وعلى وجهه ابتسامة الغبطة.

– يا ما... أحيلى.... اللـ... قاء...

شق الجمهور فلاح وتقدم من «روستوف» وسأل:

– من أنتم؟

أجاب «إيلين» وهو يضحك:

– فرنسيون، وهذا هو نابليون بعينه!

قال ذلك وأشار إلى «لافروشكا».

وسأل الفلاح أيضاً:

– أنتم روس إذن؟

وسأله فلاح آخر، قصير، وهو يدنو منه:

– وهل معكم قوة؟

فأجاب روستوف:

– لاشك، لاشك. لكن لم تجمعتم هنا؟ هل اليوم يوم عيد؟

أجاب الفلاح وهو ينأى:

– لقد اجتمع الشيوخ لبحث شؤون الناحية.

في هذه اللحظة، ظهر على الطريق التي تفضي إلى بيت الأمير، امرأتان ورجل بقبعة بيضاء يتجهون إلى الضابطين.

قال «إيلين» لدى مرأى «دونياشا» التي أقبلت عليه بخطى ثابتة:

– ذات الثوب الوردي لي، فإياك أن تختطفها مني!

قال لافروشكا وهو يغمز بعينه:

- سوف ننالها!

سألها «إيلين» مبتسماً:

- ماذا تريدين، يا حسنائي؟

- الأميرة تسأل عن فوجكم وأسمائكم.

- هذا الكونت «روستوف» قائد الكوكبة، وأنا خادمك المتواضع.

كان العجوز الثمل يغني أغنيته وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة عندما رأى «إيلين» يخاطب الخادمة. ووصل «ألباتيتش» في أثر «دونياشا»، ودنا من «روستوف» حاسراً على رأسه من بعد، وقال بشيء من الاحترام الذي يشوبه الازدراء لشباب هذا الضابط، وقد أدخل يده في صدرته:

- أأجرؤ على إزعاجك، يا صاحب النبل. إن سيدتي، ابنة الجنرال القائد الأمير «نيكولا انريفيتش بولكونسكي» المتوفى في الخامس عشر من هذا الشهر، ترجوك أن تتكرم بالمجيء لأنها تجد نفسها في ضيقةٍ بسبب جهل هؤلاء الناس...

وأشار بيده إلى الفلاحين، ثم أضاف وعلى وجهه ابتسامة حزينة، وهو يشير إلى الفلاحين اللذين كانا يدوران، في الخلف، حوله كما تدور النُعرُ حول الخيل:

- هل تسمحان بالتنحي قليلاً، فليس من المناسب، بحضور هؤلاء...

قال الفلاحان وهما يبتسمان بفرح:

- آه!... ألباتيتش... آه! اياكوف ألباتيتش!... رائع! سامحنا، بالله عليك. رائع!

قال «إياكوف ألباتيتش» بلهجة رصينة وهو يشير بيده الطليقة إلى الشيخين:

- ما لم يكن ذلك مسلياً لسعادتك.

قال «روستوف» وهو يبتعد:

- كلا، تلك تسلية هزيلة.

ثم سأله:

- ما الأمر؟

- إني أسمح لنفسي أن أخبر سعادتك بأن الفلاحين الأفظاظ هنا لا يريدون أن يدعوا سيدتي تترك هذا المكان. وهم يهددون بحل الخيول، حتى أن كل شيء محزوم منذ الصباح لكن الأميرة لا تستطيع الرحيل.

هتف «روستوف»:

- هذا غير ممكن!

فكرر «ألباتيتش»:

- لي الشرف أن أخبرك بالحقيقة الخالصة.

ترجل «روستوف» وسلم جواده لتابعه، واتجه إلى البيت بصحبة «ألباتيتش» الذي سأله عن تفصيلات القضية. والواقع أن عرض الأميرة للقمح، واستفسارها «درون» وجمعية الفلاحين، كل ذلك أفسد الأشياء إلى الحد الذي دفع «درون» إلى إعادة مفاتيحه نهائياً والانضمام

إلى الفلاحين وعدم الاستجابة لدعوات «ألباتيتش». وعندما أمرت الأميرة، في الصباح، بربط الخيل استعداداً للرحيل، تجمع الفلاحون في جمهور غفير قرب مخزن الحبوب وأرسلوا من يقول أنهم لن يدعوها تذهب وأن هناك أمراً بعدم الرحيل وأنهم سيحلون الخيل. وذهب «ألباتيتش» ليردهم إلى جادة الحق، لكنهم أجابوه (كان «كارب» أكثر من تكلم، لأن «درون» اختفى بين الجمهور و لم يظهر) بأنهم لن يسمحوا للأميرة بالذهاب، وأن هناك أوامر بهذا الصدد؛ ما عليها إلا أن تبقى وسوف يخدمونها كسابق عهدهم وسوف يطيعونها في كل شيء.

في اللحظة التي كان فيها «روستوف» و«إيلين» يعدوان على الطريق، أصدرت الأميرة «ماريا» التي أصمت أذنيها عن سماع ملامة «ألباتيتش» والمربية والخادمات، أمرها بربط الخيل وبالتهيؤ للسفر، لكن الحوذيين ولوا هاربين، لدى رؤية الخيالة الذين ظنوهم فرنسيين، وعلا بكاءُ النساء في البيت.

وعندما اجتاز «روستوف» الرواق هتفت بعض الأصوات الرقيقة:

– أيها السيد الكريم! يا منقذنا! الله هو الذي أرسلك!

كانت الأميرة «ماريا» التي أحست بالحيرة والعجز، في قاعة الاستقبال عندما أُدخل «روستوف». لم تكن تعرف من هو، ولا لَمَ كان هناك، ولا ما سوف يقع. وعندما تبينت من خلال وجهه الروسي ومشيته والكلمات الأولى التي قالها أنه رجلٌ من عالمها، ألقت عليه نظرة مستأنية ومشرقة، وخاطبته بصوت متهدج، راجف من الانفعال. رأى «روستوف»، على الفور، شيئاً من الخيال الروائي في هذا اللقاء. «فتاةٌ لا حامي لها، يرهقها الحزن، وحيدةٌ تحت رحمة الفلاحين

الأفظاظ المتمردين! أي قدر غريب قادني إلى هذا المكان! وما أعذب وأنبل قسماتها وتعبيرها!» كذلك كان يفكر وهو ينظر إليها ويصغي إلى قصتها التي روتها على استحياء.

وعندما بلغت في قصتها قولها أن ذلك كله جرى غداة دفن أبيها، ارتعش صوتها وأشاحت بوجهها، ثم خشيت أن يحمل «روستوف» كلماتها على محمل الرغبة في إثارة عطفه، فنظرت إليه نظرة مستفهمة خائفة. اغرورقت عينا «روستوف» بالدموع، ولاحظت الأميرة «ماريا» ذلك، فرمته بنظرة ملؤها العرفان بالجميل، نظرة مشرقة تنسي ما في وجهها من بعد عن الجمال.

قال «روستوف» وهو ينهض:

- ليس بوسعي، أيتها الأميرة، أن أعرب عن مدى سعادتي لمروري من هنا مصادفة ولاستطاعتي أن أضع نفسي تحت تصرفك. اذهبي، وأنا كفيلٌ لك بشرفي أن أحداً لن يجرؤ على إزعاجك، لو سمحت لي بمرافقتك.

ثم انحنى باحترام كما ينحني المرءُ أمام الأميرات الخالصات النسب، واتجه إلى الباب.

كان «روستوف»، بهذا الإكرام لها، كأنما يريد أن يظهر أنه يأبى استغلال بؤسها ليفرض وجوده عليها، مع أنه كان سيكون سعيداً لو ازداد بها معرفة.

أدركت الأميرة ذلك ووقع منها موقعاً حسناً، فقالت له بالفرنسية:

- أنا جدُّ، جدّ شاكرةٌ لك جميلك، لكني أرجو ألا يكون ذلك كله سوى سوء تفاهم لا نجد فيه مذنباً.

وانهمرت دموعها فقالت:

- معذرة.

قطب «روستوف» حاجبيه وحياها تحية ثانية عميقة وخرج.

***

الفصل الرابع عشر

ماذا أهي لطيفة؟ أما فتاتي ذات الثوب الوردي فهي فاتنة يا عزيزي، واسمها «دونياشا»...

لكن «إيلين» صمت لدى مرأى وجه «روستوف». أدرك أن بطله وقائده في حالة ذهنية مختلفة.

رشقه «روستوف» بنظرة غضبى واتجه، دون أن يجيبه، إلى القرية، بخطى سريعة، وقال بينه وبين نفسه:

– هؤلاء الأوغاد، سيذوقون الأمرين. وسيرون ما قدرتي.

وجد «ألباتيتش» الذي أوسع خطاه كي لا يركض، مشقة في اللحاق به. وعندما أدركه سأله:

– ما القرار الذي أمرتم باتخاذه؟

وقف «روستوف» وضم قبضته وتقدم نحو «ألباتيتش» مهدداً وصرخ به.

– القرار؟ أي قرار؟ أيها العجوز الخرف! أليس لك عينان ترى بهما؟ أجب؟ يتمرد القرويون ولا تستطيع أن تردهم عن غيهم؟ لست سوى خائن. أنا أعرفكم جميعاً، وسأسلخ جلودكم... وكأنما خشي أن يبدد

ما اختزنه من غضب، فترك «ألباتيتش» مكانه وتابع طريقه مسرعاً. وأغضى «ألباتيتش» على الإهانة فتبعه وهو يوسع الخطى وجعل يعرضُ عليه ملاحظاته. قال: إن الفلاحين ممعنون في عنادهم، وأنه لمن الطيش أن يتصدى المرءُ لهم الآن بدونْ مساندة القوة المسلحة، وأنه قد يكون من الأفضل استدعاؤها قبل كل شيء.

– سأريهم القوة المسلحة... سأعلّمهم...

هذا ما كان يردده «نيكولا» دون أن يعلم ما يقول، مختنقاً بغضب جنوني، حيواني، وبالحاجة إلى أن يصبه صباً. وسار آلياً إلى الجمهور بخطوات سريعة، حازمة، وهو لا يعلم ما سيفعل. وكلما اقترب أحس «ألباتيتش» بأن فعلته الطائشة يمكن أن تعود بنتيجة حسنة. وأحس الفلاحون بذلك أيضاً وهم يرون مشيته السريعة ووجهه المصمم، المتشنج.

عندما دخل الخيالة إلى القرية وذهب «روستوف» لرؤية الأميرة، أصيب الجمهور بشيء من الذعر ووقعت فيه خلافات. قال بعضهم: إن القادمين الجدد روس وأنهم قد يغتاظون من أننا لم ندع الأميرة تذهب. وكان «درون» من هذا الرأي، لكنه ما إن أعلنه حتى انبرى له «كارب» وفلاحون آخرون. صرخ به «كارب»:

– من كم سنة وأنت تمتص دم الناحية؟ لا فرق عندك! ستطلع مالك المدفون وتهرب به، وماذا يهمك إن خربت بيوتنا؟

وصرخ به آخر:

– لقد أُمرنا بالنظام وبألا يتحرك أحد. ينبغي ألا يؤخذ شيءٌ مما هنا، هذا كل شيء.

وصاح شيخ قصير مهاجماً «درون» أيضاً:

– كان دور ابنك في الذهاب إلى الجندية، لكنك أجلت ابنك الضخم وأرسلت ابني «فانكا» ليأكل في القصعة! سنموت جميعاً!

– و لَم سنموت جميعاً؟

قال «درون»:

– لن أفارق الناحية.

– طبعاً، لقد استطعت أن تملأ بطنك جيداً!...

كان الشيخان الطويلان يتحدثان من ناحيتهما. وما إن اقترب «روستوف» من الجمهور وبرفقته «إيلين» و«لافروشكا» و«ألباتيتش»، حتى تقدم «كارب» مبتسماً ابتسامة خفيفة، ويداه في حزامه، على حين التجأ «درون» إلى الصفوف الخلفية وتراص الجمهور.

صرخ «روستوف» وهو يقترب بخطى سريعة:

– ايه! أيكم القيّم؟

فسأله «كارب»:

– القيم؟ وماذا تريد منه؟

لكنه لم يكد يتم كلامه حتى طارت قبعته في الهواء وترنح رأسه بفعل ضربة عنيفة.

وصرخ «روستوف» بصوت جهوري:

– انزعوا قبعاتكم، أيها الخونة.

ثم زعق بأعلى صوته:

– أين القيّم الأميري؟

وبادرت بعض الأصوات المذعنة هنا وهناك إلى القول، في حين حسرت الرؤوس:

– أين القيّم، إنه يريد القيّم... يا «درون زاكاريتش»، إنه يدعوك.

وقال كارب:

– نحن لا حق لنا في التمرد، وإنما نراعي الأنظمة.

وفي اللحظة نفسها تكلمت عدة أصوات، من الخلف، معاً:

– إننا نفعل ما يقرره الشيوخ، هناك سلطات كثيرة مثلك...

زمجر «روستوف» بصوت جنوني منكر، وهو يشد «كارب» من ياقته:

– أتناقشون؟... هذا عصيان!... أيها اللصوص والخونة! أوثقوه، أوثقوه!

هذا، مع أنه لم يكن هناك من يوثقه سوى «لافروشكا» و«ألباتيتش».

وأسرع «لافروشكا» وأمسك بيديه من الخلف، وصرخ:

– هل ينبغي أن ندعو رفاقنا من تحت؟

وأشار «ألباتيتش» إلى اثنين من الفلاحين باسميهما لكي يشدا وثاق «كارب»، فخرجا من الجمهور بخضوع ونزعا نطاقيهما.

ثم صرخ «روستوف»:

أين القيّم؟

خرج «درون» من الجمهور شاحب الوجه، متجهماً.

فصاح به «روستوف»:

أنت القيّم؟ أوثقه يا «لافروشكا».

وكان تنفيذ أمره لا يمكن أن يجد عائقاً أيضاً. وبالفعل فإن فلاحين آخرين عمدا إلى شد وثاق درون الذي ساعدهما ففك حزامه ومده لهما.

قال «روستوف» للفلاحين:

– أما أنتم جميعاً فاصغوا إلي: امضوا بسرعة، هيا إلى بيوتكم. ولا أسمعن لأحد صوتاً.

راحت بعض الأصوات تنحي باللائمة بعضها على بعض وتقول:

– لم نأت شراً، إلا ما كان عن غباء. كان الأمر مزحة... قلت لكم إن ذلك مخالف للنظام...

تدخل «ألباتيتش» وقد استعاد سلطانه:

– نبهتكم على ذلك من قبل، هذا عملٌ غير صالح، يا شباب!

أجابته أصوات:

– كنا أغبياء، يا «اياكوف ألباتيتش».

وما لبث الجمهور أن تفرق وانتشر في القرية.

اقتيد الفلاحان الموثقان إلى دار الأمير وتبعهما الشيخان الثملان.

قال أحد الشيخين لكارب:

– ايه! يعجبني شكلك! أيجوز أن نخاطب الأسياد هكذا! ماذا دهاك؟

وأيدّه الآخر:

– إنه غبي. غبيّ حقاً!

بعد ساعتين كانت العربات تقف في الفناء، وكان الفلاحون ينقلون إليها بنشاط متاع سادتهم ويرتبونها فيها، وكان «درون»، بعد أن أطلق سراحه من الحجرة الضيقة التي حبس فيها، بناءً على طلب الأميرة، يلقي عليهم أوامره.

قال فلاحٌ مديدُ القامة، مدور الوجه، ابتسم وهو يتناول علبة من يد إحدى الوصيفات:

– لا تضعها هكذا! إن لها ثمنها، ولا يجوز أن نرمي بها كيفما اتفق، أو أن نحشوها تحت الحبل، فهذا يُتلفها ألا أحبُّ ذلك! يجب أن يكون العمل شريفاً، وبحسب النظام. هكذا، ضعها تحت الحصير وغطها بالقش، رائع!

قال آخر وهو ينقل مكتبة الأمير آندريه:

ما أكثر الكتب فيها! لا تعلق بي! ما أثقلها، يا شباب، تلك الكتب الرهيبة!

قال الفلاح الطويل، المدور الوجه وهو يشير إشارة العارف إلى المعاجم الضخمة:

– الذين كتبوا هذه الكتب ما كانوا يتسكعون!

لم يشأ «روستوف» أن يفرض نفسه على الأميرة، فلم يرجع ليراها، لكنه بقي في القرية حتى سفرها. فلما تحركت العربات، ركب جواده وصحبها إلى الطريق التي تحتلها قواتنا على اثني عشر فرسخاً من «بوغوتشاروفو». فلما وصلوا إلى نزل «ايانكوفو» استأذنها باحترام وأجاز لنفسه أن يقبل يدها لأول مرة.

أجاب الأميرة ماريا التي كانت تشكره على إنقاذه لها (كما كانت تقول) وقد احمر خجلاً:

– لقد أخجلتني، أي دركي بمقدوره أن يفعل ما فعلت.

وأضاف، وقد تضايق وحاول أن يغير الحديث:

–لو لم يكن علينا سوى محاربة الفلاحين لما تركنا العدوَّ يتقدم إلى هذا الحد. على أنني سعيد أن أُتيحت لي فرصة التعرف إليك. وداعاً يا أميرة، أتمنى لك السعادة والعزاء، وأتمنى أيضاً أن ألقاك في مناسبات أسعد. إذا شئت ألا تخجليني فلا تشكريني، أرجوك.

لكن الأميرة، إن لم تشكره بالكلام، فقد شكرته بتعابير وجهها التي كانت تشعُّ عرفاناً وحناناً. لم يكن بوسعها أن تصدق أنها لا تدين له بالشكر. وكانت لا تشك، على العكس من ذلك، بأنها كانت ستكون، لولاه، ضحية الفلاحين المتمردين أو الفرنسيين، وبأنه تعرض، من أجل إنقاذها لأوضح المخاطر وأرهبها. هذا إلى جانب أنه رجلٌ ذو نفس رفيعة نبيلة، استطاع أن يفهم وضعها وحزنها. وكانت صورة عينيه اللتين تفيضان طيبة ونبلاً واللتين اغرورقتا بالدموع عندما راحت تبكي وهي تتحدث عن مصيبتها لا يفارق ذهنها.

أحست الأميرة ماريا فجأة، عندما ودعها وظلت وحدها، أن عينيها

تفيضان بالدمع، و لم تكن هذه المرة هي المرة الأولى التي يطرح فيها هذا السؤال الغريب عليها: هل تحبُّه، يا ترى؟

أثناء سفر الأمـيرة إلى موسكو، ومع أن وضعها لا يحمل على الابتهاج، لاحظت «دونياشا» التي كانت تصحبها في عربتها، غير مرة، أنها كانت تخرج رأسها من باب العربة وتبتسم ابتسامة تنم على السعادة والكآبة معاً.

وتساءلت الأميرة ماريا: «وحتى لو أحببته».

ومهما يكن الخجل الذي أحست به لدى اعترافها لنفسها بأنها تحب رجلاً قبل أن يحبها، ولعله لن يحبها أبداً، فقد كانت تتعزى بأنه لن يطلع على هذا الحب أبداً، وأنها لا ترتكب خطيئة إن أحبت بصمت إلى آخر أيامها ذاك الذي سيكون أول حب وآخر حب لها.

وبين الفينة والفينة، كانت نظراته وكلماته وبوادر عطفه التي أبداها لها في حزنها، تعود إلى ذاكرتها، فتبدو لها السعادة غير مستحيلة. وفي هذه الأثناء كانت «دونياشا» تلاحظ أنها تنظر من باب العربة وهي تبتسم.

فكرت في نفسها: «كان لابد أن يأتي إلى «بوغوتشاروفو»، وفي تلك اللحظة بالذات! وكان لابد لأخته أن تتخلى عن العهد الذي قطعته على نفسها لآندريه!». ورأت في ذلك كله يد العناية الإلهية.

أما «روستوف» فقد كانت الذكرى التي حملها عن الأميرة ماريا ذكرى حلوة جداً. فإذا فكر فيها أحس أنه أكثر بهجة، وإذا مازحه زملاؤه الذي علموا بمغامرته في «بوغوتشاروفو» قائلين: إنه ذهب للبحث عن العلف فوقع على واحدة من أغنى الوريثات في روسيا،

غضب. وإنما كان يغضب لأن فكرة الزواج بالأميرة ماريا الوادعة، العذبة، التي تملك ثروة ضخمة قد خطرت بباله، غير مرة، بالرغم منه. لم يكن، شخصياً، يتمنى زوجة أفضل: فهذا الزواج يسعد الكونتيسة والدته ويصلح شؤون والده، بل إنه يسعد -وكان «نيكولا» يحس بذلك- الأميرة ماريا.

و«صونيا»؟ والعهد المقطوع؟ من أجل ذلك كان «روستوف» يغضب عندما يضايقه زملاؤه بشأن الأميرة ماريا.

***

الفصل الخامس عشر

عندما تولى «كوتوزوف» قيادة الجيوش تذكر الأمير آندريه واستدعاه إلى مقر القيادة العامة.

وصل الأمير آندريه إلى «تساريفو - زليتشه» في نفس اليوم الذي كان يستعرض فيه «كوتوزوف القطعات أول استعراض. وتوقف في القرية قرب بيت الكاهن الذي كانت تقف أمامه عربة القائد العام، وجلس على المقعد قرب البوابة ينتظر «صاحب الرفعة»، كما صار الناس يسمون «كوتوزوف». ومن الأرض التي تقع خلف القرية كانت تصل أحياناً أنغام موسيقى عسكرية. وأحياناً أخرى هدير ما لا يحصى من الأصوات الهاتفة «هورا» ترحيباً بالقائد الأعلى. وعلى عشر خطوات من الأمير آندريه استغل الخادمان والتابع ورئيس الخدم غياب الأمير ليتمتعوا بالطقس الجميل. وجاء عقيد من الخيالة له شاربان وعارضان طويلان أسمر، قصير، وأوقف جواده أمام البوابة، وألقى نظرة على الأمير آندريه وسأل إن كان صاحب الرفعة يقيم هنا، وإن كان سيعود بعد حين.

أجاب الأمير آندريه بأنه ليس من أركان صاحب الرفعة وأنه وصل قبل قليل. فخاطب الفارس أحد الخادمين الأنيقين فأجابه هذا بضرب من التعالي الذي يصطنعه خدم القادة وهم يكلمون الضباط:

- صاحب الرفعة[1]؟ سيكون هنا بين لحظة وأخرى. ما الذي تريده منه؟

ابتسم العقيد وترجل وعهد بجواده إلى خادم واقترب من «بولكونسكي» وحياه تحية خفيفة. ففسح له «بولكونسكي» في المقعد. وجلس الآخر قربه. وسأله:

- وأنت أيضاً، تنتظر القائد العام؟ يبدو أنه يستقبل جميع الناس. الحمد لله؛ كنا في مصيبة ونحن مع أكلة النقانق! لم يطلب «ايرمولوف» ترفيعه إلى «الماني» لسبب زهيد! نرجو أن يتمكن الروس الآن من أن يقولوا كلمتهم. وإلا أفسدوا كل شيء! ما كانوا يعرفون سوى التراجع، التراجع دائماً. هل خضت القتال؟

أجاب الأمير آندريه:

- لقد سرني أنني لم أشارك في هذا التراجع فحسب بل وأيضاً أنني فقدت فيه، فضلاً عن أملاكي وبيت طفولتي، كل ما كان عزيزاً علي... والدي الذي مات حزناً. أنا من المقاطعة، من «سمولنسك».

- آه؟... أنت الأمير «بولكونسكي»؟ يسرني أن أتعرف إليك. أنا العقيد «دينيسوف» المعروف باسم «فاسكا». لقد سمعت عنك.

قال ذلك وشد على يد الأمير آندريه وتفحص وجهه بعناية تنم على المحبة القلبية، وأضاف، بعد صمت، بلهجة متوددة:

- ها هي ذي إذن تلك الحرب السكيتية وكل ما فيها على ما يرام؛

١- صاحب الرفعة هو الجنرال كوتوزوف الذي كان كونتاً منذ ١٨١١ ومنح لقب أمير في ٢٩ تموز ١٨١٢، وأصبح يتمتع بلقب «اسفييتلوست» أي ما يمكن ترجمته إلى العربية بصاحب الرفعة أو السمو.

إلا على الذين يدفعون تكاليفها! أنت الأمير «آندريه بولكونسكي» إذن؟

وهز رأسه وكرر وهو يشد على يده مرة أخرى ويبتسم ابتسامة حزينة:

– يسعدني، أيها الأمير، يسعدني أن أتعرف إليك.

كان الأمير آندريه يعرف «دينيسوف» من خلال ما حدثته «ناتاشا» عن أول طالبيها. قادته هذه الذكرى الرقيقة والشاقة إلى تلك المشاعر المؤلمة التي لم يفكر فيها منذ زمن طويل، وإن كانت ماثلة في نفسه. لقد عاش، في الآونة الأخيرة، حوادث أخرى كثيرة وخطيرة، من مثل التخلي عن «سمولنسك»، وزيارته «ليسييه خوري»، ونبأ موت أبيه، حوادث منعت تلك الذكريات من أن تستولي على فكره، منذ زمن بعيد، فلما عادت تلك الذكريات لم تهزه بمثل سابق عهدها من العنف. أما بالنسبة إلى «دينيسوف» فإن اسم «بولكونسكي» أيقظ أيضاً ذكريات ماض بعيد وشاعري، وذلك عندما باح، بعد العشاء وبعد أغنية «ناتاشا»، وهو لا يعلم كيف، بحبه لتلك الفتاة البالغة خمسة عشر عاماً. وابتسم لهذه الذكريات القديمة ولحبه «ناتاشا»، ثم ما لبث أن عاد إلى الهم الوحيد الذي كان يشغله بشغف دون غيره. كان همه خطة لمعركة تخيلها عندما كان، أثناء الانسحاب، في المراكز الأمامية. وقد عرضها على «باركلي دي تولي»، وهو ينوي الآن عرضها على «كوتوزوف». وتنطلق الخطة من الفكرة التالية وهي أن خط عمليات الفرنسيين مفرط الامتداد وأنه يجب العمل ضد مواصلاتهم. وبدلاً من مواجهتهم بسد الطريق عليهم، أو مع هذه المواجهة، وشرع يعرض تلك الخطة للأمير آندريه:

- لا يمكنهم المحافظة على كل هذا الخط. مستحيل، وأنا آخذ خرقه على عاتقي. أعطني خمسمئة رجل ولسوف أقطعه. هذا مؤكد الأسلوب الوحيد الصالح هو حرب الأنصار.

نهض «دينيسوف» وشرح خطته لبولكونسكي وهو يلوح بيديه. وأثناء كلامه. كانت هتافات الجيش التي غدت أشد تنافراً واتساعاً واختلاطاً بالموسيقا والأغاني، تصل من مكان العرض. ثم سمع وقع الحوافر والصرخات في القرية.

صاح قوزاقي قرب البوابة:

- لقد وصل، ها هو ذا!

اقترب «بولكونسكي» و«دينيسوف» من البوابة التي كانت تقف أمامها جماعة من الجنود (حرس الشرف) وشاهدا «كوتوزوف» قادماً على جواد كميت، تصحبه حاشية كبيرة من الجنرالات. وكان «باركلي» بجنبه تقريباً، وخلفهم ومن حولهم جمهور من الضباط كانوا يجرون وهم يهتفون «هورّا»!

تقدم المساعدون العسكريون ودخلوا إلى الفناء. وكان «كوتوزوف» يهمز بشيء من نفاد الصبر، جواده الذي ناء بحمله وأخذ يهملج هملجة. كان يحني رأسه بلا انقطاع، ويرفع يده إلى عمرته البيضاء «وهي عمرة يضعها الحرس الفرسان، حاشيتها حمراء ولا مقدمة واقية لها». وعندما صار بحذاء حرس الشرف المؤلف من رماة أشداء يحمل معظمهم أوسمة، أمعن النظر فيهم، وهم يقدمون السلاح، نظر القائد الثاقب، ثم التفت إلى جمهور الجنرالات والضباط المحيطين به. وفجأة اصطبغ وجهه بتعبير ماكر، فهز كتفيه هزة تنم على الحيرة، وقال:

- أمثل هؤلاء الفتيان الأشداء تراجعنا ومازلنا نتراجع!

وأضاف وهو يسوق جواده إلى البوابة ماراً أمام الأمير آندريه و«دينيسوف»:

- هيا! إلى اللقاء، يا جنرال.

وارتفعت من خلفه الهتافات: «هورا! هورا! هورا!».

رأى الأمير آندريه أن «كوتوزوف» غدا، منذ آخر مرة شاهده فيها، أضخم. وأكثر ترهلاً، غدا غارقاً في شحمه. لكن عينه البيضاء وندبته التي يعرفها جيداً، ومظاهر التعب على وجهه وشخصه، بقيت على ما كانت عليه. كان لابساً سترة طويلة، متقلداً سوطاً علق بسير جلدي رقيق، متهالكاً على جواده الصغير، السلس القياد، متهادياً عليه بثقل، صافراً بنفسه صفيراً رفيقاً، وهو يدخل إلى الفناء. وكان وجهه يعكس الرضى، رضى رجل ينوي أن يستريح بعد سخرة. سحب قدمه اليسرى من الركاب، ورفع بمشقة ساقه من فوق السرج، مرنحاً جسده، ومكشراً من جراء الجهد الذي بذله ليتكئ على ركبته، وتهاوى، وهو يئن، بين أيدي القوزاق والمساعدين العسكريين الذين أخذوا يسندونه.

انتصب، وسرح حوله عينيه المكسرتين، ونظر إلى الأمير آندريه الذي لم يعرفه، على ما يظهر، واتجه بمشيته الغائصة، إلى درج المدخل. ثم ألقى نظرة ثانية، على الأمير آندريه وهو يصفر بنفسه. كان لابد له من بضع ثوان (كما هي الحال غالباً، لدى الشيوخ) لكي يضع اسماً لهذا الوجه. وقال بصوت مجهد وهو يلتفت:

- آه، مرحبا يا أمير، مرحبا يا عزيزي، تعال....

وصعد بخطى ثقيلة درجات المدخل التي كانت تصر تحت وطأة ثقله. فك أزراره وجلس على مقعد صغير فوق سطح الدرج.

- وكيف حال أبيك؟

قال آندريه باقتضاب:

- تلقيت البارحة نبأ وفاته.

تطلع إليه «كوتوزوف» بعينين مروعتين، محملقتين، ثم نزع عمرته ورسم إشارة الصليب: «تغمده الله برحمته! ولتتم مشيئة الله فينا جميعاً!» وأطلق زفرة من أعماق صدره وصمت لحظة، واستأنف قائلاً «كنت أحبه وأحترمه، وأنا معك من كل قلبي». وضم الأمير آندريه وشده إلى صدره السمين وظل زمناً طويلاً هكذا. فلما أرخاه رأى الأمير آندريه شفتيه الرخوتين ترتعشان وعينيه تغرورقان بالدموع. تنهد واستند بيديه إلى المقعد لكي ينهض. وقال: «تعال، تعال إلى غرفتي لكي نتحدث...».

غير أن «دينيسوف» الذي لا يحس بالرهبة أمام القادة كما لا يحسها أمام الأعداء، صعد، في تلك اللحظة، درج المدخل بخطى ثابتة وهو يُرن مهمازيه، على كره من المساعدين العسكريين الذين حاولوا إيقافه، عند أسفل الدرج، بصوت خافت وغاضب. نظر إليه «كوتوزوف» الذي مازالت يداه متكئتين على المقعد، نظرة استياء. عرف «دينيسوف» بنفسه وأعلن أنه ينقل إلى سموه قضية شديدة الأهمية من أجل مصلحة الوطن. حدجه «كوتوزوف» بنظرة متعبة، وشبك يديه على بطنه بحركة مغتاظة، وردد: «من أجل مصلحة الوطن؟ هيا، ما الأمر؟ تكلم» احمر وجه «دينيسوف» كما يحمر وجه الفتاة (إن رؤية وجهه المسن، ذي الشاربين، وجه المدمن وهو يحمر لتحدث

انطباعاً غريباً) وجعل يعرض بجرأة خطته لقطع خط عمليات العدو بين «سمولنسك» و«فيازما». لقد قطن في هذه المنطقة وهو يعرفها جيداً. كانت خطته تبدو حسنة بلا مراء، ولاسيما بقوة الإقناع التي وضعها في كلماته. أما «كوتوزوف» فكان ينظر عند قدميه ويلقي بين الحين والحين نظرة خاطفة إلى فناء البيت المجاور، وكأنما كان يتوقع أن يطلع منه ما يكدر. وبالفعل، فإن جنرالاً خرج من البيت الذي كان ينظر إليه، أثناء عرض «دينيسوف» لخطته، وتحت ذراعه محفظة.

قال «كوتوزوف» وهو يقاطع «دينيسوف»:

– كيف؟ هل انتهيت من استعدادك؟

قال الجنرال:

– نعم، يا صاحب السمو.

هز «كوتوزوف» رأسه وكأنه يريد أن يقول: «كيف يفلح رجل واحد في صنع ذلك كله». ثم عاد فأعار «دينيسوف» أذناً صاغية.

قال «دينيسوف»:

– أعدك بشرفي، شرف الضابط الروسي، أن أقطع مواصلات نابليون.

قاطعه «كوتوزوف» قائلاً:

– ما القرابة بينك وبين «كيريل اندريفيتش دينيسوف»، المعتمد العام؟

– هو عمي، يا صاحب السمو.

قال «كوتوزوف» بابتهاج:

-أوه! لقد كنا أصدقاء. حسناً، حسناً، يا عزيزي، ابق هنا في الأركان، وسوف نتحدث عن ذلك غداً. وإذ أومأ إليه برأسه التفت إلى «كونوفنتزين» ومد يده إلى الأوراق التي حملها إليه.

قال الجنرال المناوب بصوت خال من الرضى:

– هل تتفضل بالدخول، يا صاحب السمو. إذ لابد من النظر في بعض المخططات ومن توقيع بعض الأوراق.

وخرج من البيت مساعد عسكري وأعلن أن كل شيء جاهز. لكن «كوتوزوف» لم يكن يشتهي الدخول قبل أن يتخلص من أعماله. وتقبض وجهه... وقال:

– لا، يا عزيزي، مر لي بطاولة، وسأنظر في ذلك كله هنا...

وقال للأمير آندريه:

– لا تذهب.

ظل الأمير آندريه على درج المدخل يتنصت إلى ما يقوله الجنرال المناوب.

أثناء التقرير، سمع خلف باب المدخل همس امرأة وحفيف ثوب حريري. وعندما التفت إلى تلك الناحية لمح، عدة مرات، خلف الباب، امرأة جميلة، قوية البنية، غضة الإهاب، في ثوب وردي وخمار من الحرير الخبازي، تحمل بيدها طبقاً وكأنها تنتظر القائد العام. أوضح مساعد «كوتوزوف» العسكري للأمير آندريه، بصوت خفيض، إنها ربة المنزل، زوجة الكاهن، وهي تستعد لتقديم الخبز والملح لسمو صاحب الرفعة. لقد استقبل زوجها صاحب الرفعة في الكنيسة

والصليب في يده، وهي تريد أن تستقبله، من جهتها، في البيت...
وأضاف باسماً: «إنها جميلة جداً».

عند هذه الكلمات، أدار «كوتوزوف» رأسه. كان يصغي إلى تقرير الجنرال المناوب (وموضوعه الرئيسي نقد موقع «تساريفو - زايميتشه») كما أصغى إلى «دينيسوف»، وكما أصغى، قبل سبع سنوات، إلى المناقشات في مجلس «أوسترلتس» الحربي. الظاهر أنه ما كان يصغي إلا لأن له أذنين ليس بوسعهما إلا أن تصغيا، رغم الصمام الذي يسد إحداهما، وكان واضحاً أن لا شيء مما يقوله الجنرال المناوب يمكن أن يثير دهشته أو اهتمامه، بل أنه كان يعرف مسبقاً كل ما يمكن أن يقال له، فلا يصغي إلى ذلك كله إلا على سبيل الواجب، كما يجب أن يصغي إلى القداس في الكنيسة. كل ما قاله له «دينيسوف» خطير وذكي، وما قاله الجنرال المناوب أشد خطراً وذكاء، لكن من الواضح أن «كوتوزوف» كان يحتقر المعرفة والعقل جميعاً، وأنه كان يعلم أن شيئاً آخر هو الذي سيحسم الأمور، شيئاً مستقلاً عن المعرفة والعقل. كان الأمير آندريه يراقب بانتباه وجه القائد العام، والمعاني الوحيدة التي قرأها فيه كانت معاني الضجر والفضول الذي أثاره همس تلك المرأة خلف الباب، والرغبة في مراعاة اللياقة الاجتماعية. كان من الواضح أن «كوتوزوف» يحتقر العقل والمعرفة، بل والعواطف الوطنية التي أبداها «دينيسوف». لكن هذا الاحتقار لم يكن يأتي من عقله ولا من عاطفته ولا من معرفته (لأنه لم يكن يسعى إلى إظهارها)، وإنما يأتي من شيء آخر.

يأتي من سنه ومن تجربته في الحياة. والتدبير الوحيد الذي اتخذه شخصياً على أثر هذا التقرير يتعلق بالنهب الذي تمارسه القطعات الروسية. لقد قدم له الجنرال المناوب، بعد انتهائه من تلاوة تقريره،

أمراً ليوقع عليه، أمراً يجعل قادة القطعات مسؤولين عن الأضرار التي يحدثها رجالهم، إذا ما تقدم الملاك الذي حصد زرعه بطلب.

صفر «كوتوزوف» صفيراً خفيفاً وهز رأسه وقال:

– إلى الموقد... إلى النار. أقول لك من مرة: ارم بهذه الأمور إلى النار. ليحصدوا الزرع وليحرقوا الخشب ما شاؤوا. إني لا أحرم ذلك ولا أبيحه، لكني لا أستطيع أن آمر بعقاب الناس.

فتلك أعمال لا مناص منها... ولسنا نستطيع أن نصنع عجة من البيض دون كسر البيض.

ثم ألقى نظرة خاطفة أخرى على الورقة وختم كلامه وهو يهز رأسه أوه! يا لهذه الدقة الألمانية!

***

الفصل السادس عشر

قال «كوتوزوف» وهو يوقع آخر ورقة:

- حسناً! هذا كل شيء، الآن.

نهض بمشقة في حين أمحت التجاعيد من عنقه الأبيض الغليظ، واتجه إلى الباب وقد ازداد وجهه حبوراً.

أمسكت امرأة الكاهن، وهي مضرجة الوجه، بالطبق الذي لم تستطع تقديمه في الوقت المناسب، بالرغم من استعداداتها الطويلة، وقدمته لكوتوزوف بعد أن حيته تحية عميقة.

غضن «كوتوزوف» عينيه وتبسم وأمسك بذقنها وقال:

جمال رائع! شكراً يا عزيزتي.

وأخرج من جيبه قطعاً ذهبية ووضعها على الطبق، وقال وهو يمضي إلى الغرفة المعدة له:

- كيف الحال؟

وتبعته إليها زوجة الكاهن والابتسامة تحفر غمازتين على وجهها المتورد وجاء المساعد العسكري إلى درج المدخل ليدعو الأمير آندريه إلى الغداء. وبعد نصف ساعة جاء من يدعوه لمقابلة «كوتوزوف».

كان «كوتوزوف» مستلقياً على أريكة وهو مايزال في سترته المحلولة الأزرار، وفي يده كتاب فرنسي أغلقه لدى دخول الأمير آندريه مشيراً إلى الصفحة بقطاعة الورق. كان الكتاب: «فرسان التم» لمدام دي جنليس كما قرأه الأمير آندريه على الغلاف.

قال «كوتوزوف» له:

– هيا! اجلس اجلس هنا، ولنتحدث. إنه لأمر محزن، جد محزن. لكن تذكر يا صديقي، أنني أب لك، أب ثان...

وقص عليه الأمير آندريه كل ما كان يعلمه عن اللحظات الأخيرة لأبيه وعما رآه لدى مروره في «ليسييه خوري».

قال «كوتوزوف» فجأة بصوت منفعل، ولا ريب أنه تمثل بوضوح حالة روسيا من خلال قصة الأمير آندريه:

– انظر... انظر إلى أين أوصلونا!

وأضاف وهو غاضب:

– صبراً، صبراً.

وكأنما كان زاهداً في متابعة هذا الحديث الذي هزه، فقال:

– انما استدعيتك لأستبقيك بجنبي.

أجابه الأمير آندريه:

– أشكر سموك.

ثم أضاف وعلى وجهه ابتسامة لمحها «كوتوزوف»:

- وأخشى ألا أكون صالحاً للعمل في الأركان.

نظر إليه «كوتوزوف» نظرة مستفهمة، فاستأنف آندريه قائلاً:

- ثم إنني ألفت فوجي وتعلقت بضباطه، كما أن الرجال يحبونني أيضاً، فيما أعتقد. ولسوف آسف على فراقهم. فلئن رفضت شرف البقاء معكم، إني لأرجو أن تعتقد...

- أنا آسف، فقد أحتاج إليك، الحق معك، الحق معك. لسنا بحاجة إلى الرجال هنا. الناصحون كثر دائماً لكن الرجال قلة. لو كان الناصحون يخدمون كما تخدم لما كانت الأفواج على ما هي عليه. إني أذكرك منذ «أوسترليتس»... أذكرك، والعلم في يدك...

احمر الأمير آندريه فرحاً بهذه الذكرى. جذبه «كوتوزوف» من ذراعه وقدم له خده، ورأى الأمير آندريه مرة أخرى، الدموع في عيني الشيخ. ومع أنه كان يعلم أن كوتوزوف سخي الدمع وأنه يبدي عطفاً خاصاً إزاءه لأنه يريد أن يظهر مشاركتنا له في مصابه، إلا أن هذا التذكير باوسترليتس ملأه سروراً ورضى.

- سر في طريقك والله معك. أنا واثق أنها طريق الشرف.

وصمت ثم قال:

- أفتقدك في «بوخارست». كنت سأعهد إليك بمهمات...

وغير الحديث فتحدث عن حملة تركيا وعن الصلح المعقود وقال:

- نعم، لقد أوسعوني لوماً على الحرب وعلى السلم... بيد أن كل شيء جاء في وقته. كل شيء يأتي في أوانه عند من يحسن الانتظار.

وتابع حديثه وهو يعود إلى ذلك الموضوع الذي بدا أنه يشغله:

– الناصحون هناك لم يكونوا أقل عدداً مما هم هنا... أوه! الناصحون، الناصحون! لو كنا نصغي إليهم جميعاً لكنا الآن في تركيا، ولما كنا عقدنا الصلح أو أنهينا الحرب. يريدون منا أن نستعجل، لكن رب عجلة تهب ريثا. لو لم يمت كامنسكي لأبيد. كان يلزمه ثلاثون ألف رجل للاستيلاء على الحصون. الاستيلاء على حصن ليس صعباً، الصعب هو الانتصار في المعركة. ومن أجل ذلك ليس من الضروري الانقضاض أو الهجوم مايلزم هو الصبر والزمن. لقد حمل «كامنسكي» بجنوده على «روستشوف»[1]، واحتللت أنا بهما (الصبر والزمن) حصوناً أكثر منه، وألجأت الترك إلى أكل لحم الخيل. وسيأكل الفرنسيون منه أيضاً! صدقني سألجئهم إلى أكل لحم الخيل!

قال ذلك بعد أن هز رأسه وانتعش وضرب صدره بيده، وتلألأت الدموع في عينيه مرة ثانية.

قال الأمير آندريه:

– لكن لابد مع ذلك، من قبول المعركة؟

– لابد من ذلك إذا قبل الناس جميعاً بها، لا مفر منها... لكن صدقني، يا عزيزي، أن ليس أبسل من هذين: الصبر والزمن. هما اللذان يتغلبان على كل شيء، أما الناصحون فلا يفهمون الأمور على هذا النحو، وهذه هي المصيبة. بعضهم يريد، وبعضهم لا يريد.

وسأل منتظراً الجواب:

– ما العمل إذن؟

١– في ٢٢ تموز سنة ١٨١٠ أراد الكونت الشاب نيكولا رامنسكي أن يأخذ بالانقضاض مدينة روستشوف المحصنة على الدانوب، لكنه صُدَّ. (انظر إلى ما قيل عنه في الفصل الثامن من الجزء الأول).

وردد، وقد التمعت عيناه بتعابير عميقة ذكية:

نعم، ما العمل في رأيك؟

ولما لم يجب الأمير آندريه، استأنف كلامه:

سأنبئك بما ينبغي عمله، وبما أعمله.

وقال ببطء متمهلاً عند مقاطع الكلام:

«توقَفْ عن الشبهة»، يا عزيزي.

وأضاف:

– حسناً! الوداع، يا صديقي؛ تذكر أنني أشاركك مصابك من كل قلبي وأنني لست بالنسبة إليك صاحب رفعة ولا أميراً ولا قائداً عاماً. إنما أنا أب لك. وإذا احتجت إلى شيء فتعال إلي مباشرة.

الوداع، يا عزيزي.

وضمه مرة أخرى بين ذراعيه وعانقه. و لم يكد الأمير آندريه يخرج حتى «تنهد كوتوزوف» تنهد المرتاح، وتناول الرواية التي بدأ قراءتها: «فرسان التم».

كيف حدث ذلك و لِمَ حدث، هذا ما لن يستطع الأمير آندريه تفسيره؛ لكنه عاد إلى فوجه بعد حديثه مع «كوتوزوف» وهو مطمئن إلى سير العمليات العام وإلى الشخص الذي عُهدت إليه تلك العمليات. لقد كان يزداد ثقة بأن كل شيء يسير سيراً حسناً كلما شاهد غياب العنصر الشخصي لدى هذا الشيخ الذي لم يحتفظ، كما يبدو، بغير العادات العاطفية وحدها، والذي استبقى، بدلاً من العقل (الذي يجمع الأحداث ويستخلص منها النتائج) القدرة على تأمل سير الأحداث

بكلٍ هدوء وسكينة. وحدّث الأمير آندريه نفسه عنه: «إنه لن يُدخل شيئاً شخصياً، ولن يبتكر، ولن يباشر شيئاً، لكنه سيصغي إلى كل شيء، وسيتذكر كل شيء، وسيضع كل شيء في مكانه المناسب، وهو لن يحول دون شيء نافع، ولن يسمح بشيء ضار. إنه يدرك أن هناك ما هو أعظم قوة وخطراً من إرادته، وهو مجرى الأحداث الذي لا مهرب منه. وهو يُحسن رؤية تلك الأحداث، ويُحسن إدراك مدى أهميتها، والتخلي من أجل ذلك عن التدخل فيها، والتنازل عن إرادته التي يوجهها إلى شيء آخر. والناس يثقون به خاصة لأنه روسي، بالرغم من رواية «مدام دي جنليس» ومن الأمثال الفرنسية، لأن صوته ارتجف وهو يقول: «انظر إلى أين أوصلونا!» ولأنه بكى وهو يؤكد أنه سيُلجئهم إلى أكل لحم خيولهم».

على هذا الشعور الذي شارك فيه الجميع مشاركة مبهمة على نحو من الإنحاء، قام ذلك القبول الإجماعي وتلك الموافقة العامة اللذان قاد إليهما الاختيار القومي لكوتوزوف قائداً عاماً، خلافاً لاعتبارات البلاط.

***

الفصل السابع عشر

سارت الحياة في موسكو بعد ذهاب الإمبراطور، سيرتها الأولى العادية حتى غدا من الصعب تذكر الحماسة والاندفاعة الوطنيتين في الأيام الأخيرة، وغدا من الصعب الاعتقاد بأن روسيا في خطر حقاً، وبأن أعضاء النادي الإنكليزي من أبناء الوطن. الشيء الوحيد الذي كان يذكّر بهذه الحماسة الوطنية الحديثة العهد هو تغطية الهبات بالرجال وبالمال، وهي هبات ما إن قُدمت حتى اتخذت شكلاً شرعياً، رسمياً وبدت أمراً لا مفر منه.

عند اقتراب العدو، لم ينظر الموسكوفيون إلى وضعهم بقدر أكبر من الجد، بل لقد غدوا، على العكس، أقل اكتراثاً، كما يقع دائماً للذين يرون الخطر الجسيم يُحدق بهم. في هذه اللحظات يُسمع في النفس صوتان يتساويان قوة؛ أحدهما يدعو دعوة حكيمة إلى إدراك طبيعة الخطر وإلى التفكير في وسائل الخلاص منه؛ والآخر يدعو دعوة أكثر حكمة قائلاً: إن التفكير في الخطر شاق أبلغ المشقة، مؤلم أشد الألم، لأنه ليس في مقدور الإنسان التنبؤ بكل شيء والإفلات من سير الأحداث، وأن الأجدى عليه أن يدير ظهره للأمور المنغصة مادامت لم تقع بعد، وأن يفكر في ما هو سار دون غيره. والإنسان، في وحدته، يطيع، في الأغلب، الصوت الأول، وفي المجتمع، يطيع على العكس، الصوت الثاني.

كذلك كان الأمر بالنسبة إلى سكان موسكو. فلم يَلهوا منذ زمن طويل كما لهوْا هذا العام.

إن إعلانات «روستوبتشين»[1] التي ترسم في أعلاها، صورة حانة وصاحبها وبرجوازي موسكوفي صغير هو «كاربوشكا تشيجرين» الذي «تطوع مع المتطوعين وأفرط في الشراب، وسمع أن نابليون يريد أن يزحف على موسكو فغضب ونعت الفرنسيين بشتى الأوصاف، وخرج من الحانة وألقى تحت اللافتة في الشعب المحتشد خطبة، إن هذه الإعلانات كانت تُقرأ وتُشرح شأنها شأن المقطعات الشعرية التي يصنعها «فاسيلي لفوفتش بوشكين» على قواف مسبقة[2].

أما في النادي فكانوا يجتمعون لقراءة هذه الإعلانات في الغرفة التي في الزاوية، وكان بعضهم يحب الطريقة التي يسخر بها «كاربوشكا» من الفرنسيين حين يقول: «إن الملفوف ينفخهم والبرغل يفجرهم وعسر الهضم يخنقهم، وإنهم جميعاً أقزام، وإن امرأة قوية بوسعها أن ترمي بضربة مذراة ثلاثة منهم في الهواء.». وكان آخرون ينكرون هذا الأسلوب ويقولون: إنه أسلوب سوقي سخيف. وكان يُرى أن «روستوبتشين» طرد من موسكو الفرنسيين وجميع الأجانب، وبينهم جواسيس وعملاء لنابليون؛ وكان ذلك يُروى، بخاصة، للاستشهاد بالكلمة البارعة التي عملها «روستوبتشين» وخاطبهم بها ساعة رحيلهم. فبينما كان الأجانب يُنقلون إلى «نيجني» بالقوارب، قال لهم «روستوبتشين»: «عودوا إلى أنفسكم، وادخلوا إلى القارب، ولا

١- كان حاكم موسكو الكونت فيدور روستوبتشين يوجه إلى سكان موسكو إعلانات مكتوبة بأسلوب شعبي، وذلك لكي يستثير وطنيتهم.

٢- كان فاسيلي بوشكين (١٧٦٧-١٨٣٠)، وهو عم الشاعر الكبير ألكسندر بوشكين معنياً بتأليف الأشعار الهازلة.

تجعلوا منه قارباً لربان الجحيم[1]». وكانوا يروون أن جميع الإدارات في موسكو قد أخليت، ويضيفون إلى ذلك كلمة «شنشين» الذي قال: من أجل هذا وحده، يجب أن تشكر موسكو نابليون. ويروون أن فوج «مامونوف» يكلفه ثمانمئة ألف روبل، وأن «بيزوخوف» أنفق فوق ذلك على متطوعيه، وأحلى من ذلك أن «بيزوخوف» نفسه سيرتدي البزة العسكرية وسيمتطي جواده على رأس فوجه، وأنه لن يطلب أجرة ممن يأتون ليتأملوه.

قالت «جوليا دروبتسكوي» وهي تلمّ قبضة من النُسالة[2] وتضغطها بين أصابعها النحيفة المغطاة بالخواتم:

- إنك لا تُعفي أحداً من لسانك.

كانت جوليا تنوي أن تسافر في اليوم التالي وقد أقامت سهرة وداع:

- «بيزوخوف» مضحك، لكنه طيب جداً، لطيف جداً، ما اللذة التي تجدها في أن تكون لاذعاً، على هذا النحو؟

قال شاب في زي الجيش الشعبي، كانت «جوليا» تدعوه: فارسي وكان سيرافقها إلى «نيجني»:

- الغرامة عليك!

كان قد تقرر في منتدى «جوليا» وفي غيره من المنتديات في موسكو، ألا يتكلم أحد غير الروسية، وكل من يغلط ويلفظ كلمة فرنسية يدفع غرامة لحساب لجنة الإنقاذ.

١- هذه الكلمات التي يقولها روستوتبشين بالفرنسية قد استشهد بها تاستيفان في «تاريخ الجالية الفرنسية في موسكو منذ بداياتها وحتى سنة ١٨١٢».

٢- أخذت نساء المجتمع الراقي يمزقن الخرق ليصنعن منها نسالات من أجل الجرحى.

وقال أحد الكتاب وكان حاضراً:

– وغرامة ثانية للتعبير الدخيل. فقولُها: «ما اللذة التي تجدها، تعبير غير روسي».

– قالت «جوليا» مخاطبة المتطوع دون أن تكترث لملاحظة الكاتب:

– إنك لا تُعفي أحداً من لسانك. أعترف بغلطي لاستعمال كلمة «لاذع» بالفرنسية، وسوف أدفع الغرامة عنها، وأنا مستعدة أن أدفع أيضاً للذة التي أجدها في قول الحقيقة؛ أما التعبير الدخيل فإني لا أتحمل تبعته. إذ ليس لدي الوسائل الكافية ولا الوقت الكافي لأن أضع مدرساً، كما يفعل الأمير «غوليتزين» وأن أتعلم الروسية. آه! ها هوذا. عندما... ثم توقفت بعد أن كادت تذكر مثلاً فرنسياً، وقالت للمتطوع:

– كلا، كلا، لن تضبطني وأنا أتكلم الفرنسية بعد الآن.

وقالت ربة المنزل وهي تبتسم لبطرس ابتسامة لطيفة: عندما نذكر الشمس نرى أشعتها.

وأضافت وهي تكذب ذلك الكذب السهل الذي برعت فيه نساء المجتمع الراقيات:

– كنا نتحدث عنك ونقول: إن فوجك سيتفوق، من دون شك، على فوج «مامونوف».

أجاب بطرس وهو يقبل يد ربة المنزل ويجلس بجنبها:

– آه! لا تذكري لي هذا الفوج. لقد مللت من الكلام عليه!

قالت «جوليا» وهي تبادل المتطوع نظرة ساخرة.

– لاشك أنك ستقوده بنفسك.

لم يكن المتطوع «لاذعاً» بحضرة بطرس، وبدا عليه أنه يتساءل عن معنى ابتسامة «جوليا». ذلك أن شخصية بطرس، بالرغم من شروده وطيبة قلبه، تقطع الخطَّ على كل محاولة تهكم بحضرته.

رد بطرس وهو يضحك ويلف بنظرته شخصّه الطويل الضخم:

– كلا! سأكون دريئة يسهل على الفرنسيين إصابتها، ثم إنني أخشى ألا أتمكن من امتطاء الجواد...

وبعد أن تناولت «جوليا» الكثيرين لتجد موضوعاً لحديثها، تطرقت إلى آل روستوف، قالت:

– يبدو أن أحوالهم تسوء. والكونت لا يُحسن التدبير. لقد أراد آل «رازموفسكي» شراء قصرهم وممتلكاتهم قرب موسكو، لكن القضية طالت. إنه يطلب ثمناً باهظاً.

قال أحدهم:

– كلا، أعتقد أن البيع سيتم في هذه الأيام. مع أنه من الجنون أن يشتري المرء شيئاً في موسكو، في الوقت الحاضر.

سألت «جوليا»:

– ولماذا؟ أتظن أن موسكو في خطر حقاً؟

– و لِمَ تسافرين إذن؟

– أنا؟ يا له من سؤال غريب! إني أسافر لأن... لأن كل الناس يسافرون، ثم إنني لستُ «جان دارك» ولا محاربة من المحاربات الأمازونيات.

- نعم، بالتأكيد. أعطني أيضاً خرقاً أخرى.

وتابع المتطوع حديثه عن «آل روستوف»:

- إن أحسن التصرف استطاع دفع ديونه جميعاً.

قالت «جوليا» بابتسامة ماكرة:

- إنه شيخ طيب القلب، لكنه «سيد» فقير. لَمِ يبقون هنا كل هذا الوقت؟ لقد كانوا ينوون العودة إلى الريف منذ زمن طويل. أعتقد أن «ناتاليا» أبلّت من مرضها.

قال بطرس:

- إنهم ينتظرون ابنهم الأصغر الذي تطوع في فوج قوزاق «أوبولنسكي» وسافر إلى «بيلاتسيركوف[1]» حيث يتم تشكيل الفوج، وقد نقلوه الآن إلى فوجي وهم ينتظرونه بين يوم وآخر. كان الكونت يريد الذهاب منذ أمد بعيد، لكن الكونتيسة تأبى مغادرة موسكو قبل وصول ابنها.

- رأيتهم أول أمس في منزل «أركاروف». ازدادت «ناتالي» جمالاً، وغدت أمرح، وغنّت أغنية عاطفية. كيف تمر الأشياء بسهولة لدى بعض الناس!

فسألها بطرس مستاء:

- ما الذي يمرّ بسهولة؟

ابتسمت «جوليا» وقالت:

١- مدينة صغيرة جنوبي كييف، وفيها الأملاك الفخمة التي تخص كونتات آل برانيكي والتي ورثوها عن الأمير بونمكين في سنة ١٧٩١.

– أتعلم، يا كونت، أننا لا نجد فرساناً مثلك إلا في روايات «مدام سوزا».

سألها بطرس وهو يحمرّ:

– أي فرسان؟ لماذا؟

– مالك، أيها الكونت! إنها حكاية على لسان موسكو بأسرها. لعمري، إني أستغرب أمرك.

قال المتطوع:

– الغرامة! الغرامة!

– حسناً! فليكن. لم يعد بوسع الإنسان أن يتكلم؛ إن هذا لمما يضايق!

سألها بطرس متجهماً، وهو ينهض:

– ما الحكاية التي على لسان موسكو؟

– دع عنك هذا، أيها الكونت، أنت أعلم بذلك!

– إني لا أعلم شيئاً.

– أما أنا فأعلم أنك كنت مرتبطاً بناتالي، ومن ثَمَّ... وكنت أنا، مرتبطاً بـ «فيرا». «فيرا» الغالية!

قال بطرس باستياء:

– كلا، يا سيدتي، إني لم أقم بدور الفارس الخادم للآنسة روستوف، ولم أضع قدمي في بيتها منذ شهور. لكني لا أفهم القسوة...

قالت «جوليا» وهي تبتسم وتحرك نسالتَها:

– الاعتذار إقرار.

– وأرادت أن تكون الكلمة الأخيرة لها، فبادرت إلى تغيير الحديث:

– أتعلم ما الذي بلغني اليوم؟ وصلت المسكينة «ماري بولكونسكي» إلى موسكو أمس. أتعلم أنها فقدت والدها؟

قال بطرس:

– صحيح! وأين هي؟ أود كثيراً لو أراها!

– قضيت السهرة معها البارحة. وهي ذاهبة اليوم أو غداً مع ابن أخيها إلى أملاكهم في ضواحي موسكو.

سألها بطرس:

– و... كيف حالها؟

– لا بأس، إنها حزينة. لكن، أتعلم من الذي أنقذها؟ نيكولا روستوف. وقصتها قصة طويلة. لقد حوصرت وأُريد قتلُها وجُرح رجالها، فانقض «نيكولا» وأنقذها...

قال المتطوع:

– وهذه قصة أخرى. فلاشك أن هذا النزوح العام يبدو كأنما صُنع لكي يتيح للعانسات أن يتزوجن. تزوجت «كاتيش» أولاً، وجاء الآن دور الآنسة «بولكونسكي».

– أتعلم أنني أظنها «مغرمة قليلاً بذلك الشاب».

– الغرامة! الغرامة! الغرامة!

– لكن، كيف نقول هذا بالروسية؟

***

الفصل الثامن عشر

عندما عاد بطرس إلى بيته، حُمل إليه إعلانان من «روستوبتشين» وصلا في اليوم نفسه.

وكان أحدهما يقول: إن الكونت «روستوبتشين» لم يمنع الناس من مغادرة موسكو، كما أشيع، بل أنه سيكون سعيداً أن يرى نساء الطبقة الراقية ونساء التجار يرحلن. «وهكذا سيقل الخوف وستقل الشائعات، وأنا كفيل بحياتي أن الأثيم لن يبلغ موسكو». هذا ما جاء في الإعلان. ولأول مرة، أظهرت هذه الكلمات بوضوح لبطرس أن الفرنسيين سيبلغون موسكو. وكان الإعلان الآخر يقول: إن القيادة العامة كانت في «فيازما»، وأن الكونت «ويتجنستن»[1] هزم الفرنسيين، ولكن بما أن السكان يرغبون في التسلّح فإن الأسلحة في مستودع الأسلحة بمتناول أيديهم: السيوف والمسدسات والبنادق، وأنهم يستطيعون الحصول عليها بأثمان زهيدة، وكانت لهجة الإعلانين أقل مرحاً من أحاديث «تشيجيرين». وقد حملا بطرس على التفكير. فمما لا شك فيه أن سحابة العاصفة الرهيبة التي كان يدعوها بكل جوارحه والتي كانت توحي إليه بالرهبة، تلك السحابة كانت تقترب.

١- بيير دي ويتجنستن (١٧٦٨-١٨٤٢) جنرال، تميز في حروب ١٨٠٥-١٨٠٧، أصبح في سنة ١٨١٢ قائداً للفيلق الأول الذي دافع ببسالة في بولونسك عن طريق بطرسبرج في وجه الفرنسيين الذين كان يقودهم المارشال مارمون.

وسأل نفسه للمرة المئة: هل ينبغي أن أتطوع وألتحق بالجيش أو أنتظر؟ وتناول عن الطاولة ورق لعب وأخذ «يُبصّر» به. قال في نفسه بعد أن خلط الورق ورفع عينيه إلى السماء: إذا فتحت اللعبة فذلك يعني... ماذا يعني؟ وقبل أن يقرر ماذا يعني سُمع صوت كبرى الأميرات خلف الباب تسأل إن كانت تستطيع الدخول.

قرر بطرس بينه وبين نفسه:

سيعني ذلك أنني ينبغي أن ألتحق بالجيش.

وأضاف بصوت عال:

– ادخلي، ادخلي.

(كبرى الأميرات التي لها جذع طويل ووجه متحجر، هي وحدها التي بقيت في منزل بطرس، فأختاها الصغيرتان تزوجتا).

قالت بصوت متأثر وبلهجة الملامة:

– اعذرني، يا بن عمي، على مجيئي. لابد من اتخاذ قرار. ما الذي سيجري؟ فالناس جميعاً قد رحلوا والشعب يثور. فما الذي ننتظره إذن؟

أجاب بطرس بتلك اللهجة المازحة التي اتخذها إزاءها ليخفي الضيق الذي سببه له دوره كمحسن إليها:

– أظن أن الأمور على خير مايرام، يا بنة عمي، خلافاً لما تقولين

– نعم، كل شيء يسير سيراً حسناً... يا لها من فكرة مضحكة لقد روت لي قبل برهة «فارفارا ايفانوفنا» كيف يستبسل جندنا. ويمكن القول: إن ذلك يكسبهم أعظم الشرف. والشعب يثور تماماً ويخرج

على الطاعة، حتى أن خادمتي نفسها تغدو فظّة. وإذا استمر ذلك فلن يلبثوا أن يعنفوا بنا. لا يستطيع المرء أن يظهر خارج بيته. ثم إن الفرنسيين سيكونون هنا اليوم أو غداً، فما الذي ننتظره إذن! لست أطلب منك إلا شيئاً واحداً، يا بن عمي، مُر بأخذي إلى «بطرسبرج»، مهما تكن قيمتي فلن أقبل بالعيش تحت سيطرة بونابرت

– مهلاً، يا بنة عمي، من أين تستقين معلوماتك؟ على العكس...

– لن أرضخ لنابليونك. ليفعل الآخرون ما شاؤوا... إذا كنت لا تريد أن تفعل ما أطلبه منك...

– بلى، سأصدر أوامري على الفور.

بدا على الأميرة أنها اغتاظت لكونها لم تستطع أن تجد مأخذاً على أحد. فجلست على الكرسي وهي تتمتم بشيء.

قال لها بطرس بعد أن أراها الإعلانين:

– المعلومات التي تنقل إليك خاطئة. كل شيء هادئ في المدينة، وليس هناك أي خطر. لقد قرأت قبل هنيهة هذين الإعلانين.

والكونت يكتب أن العدو لن يبلغ موسكو، وهو كفيل لذلك بحياته.

قالت الأميرة بغضب:

– آه من «كونتك»! إنه منافق، أثيم «دفع بنفسه الشعب إلى التمرد. ألم يقل في إعلاناته السخيفة: إنه ينبغي جر الناس –مهما يكن شأنهم– من شعرهم إلى المخفر. (يا له من غباء!) ومن يقبض على واحد فالشرف والمجد له. قالت لي «فارفارا ايفانوفنا» أنها كادت تُقتل لأنها تكلمت بالفرنسية...

قال بطرس وهو يعاود «التبصير» مرة أخرى:

– ليس ذلك بذي بال... وأنت تتأثرين بكل شيء أكثر مما ينبغي.

ومع أن «التبصيرة» نجحت، إلا أن بطرس لم يسافر إلى الجيش ومكث في موسكو التي هجرها أهلها، منتظراً بذلك المزيج من القلق والتردد والخشية والفرح ذلك الشيء الرهيب.

في مساء اليوم التالي، سافرت الأميرة، وزاره وكيله العام الذي أنبأه بأنه إذا لم يبع أحد أملاكه فمن المتعذر الحصول على المال اللازم لتجهيز الفوج. وأظهر له، على وجه العموم، أن هذه النزوات ستفضي إلى دماره. لم يكن بوسع بطرس إخفاء ابتسامته وهو يصغي إليه، وقال له:

– حسناً! بعْ. ما العمل، إني لا أستطيع الرجوع عن كلامي الآن.

كان بطرس كلما تدهورت الأوضاع العامة وساءت أحواله الشخصية ازداد فرحاً وبدا له أن الكارثة التي ينتظرها غدت وشيكة. لم يبق في المدينة الآن أحد من معارفه. ومن بين الأصدقاء الحميمين الذين بقوا آل روستوف، لكن بطرس كفّ عن الذهاب إليهم.

في ذلك اليوم، قصد بطرس، على سبيل التسلية، إلى قرية «فورونتزوفو» ليتفرّج على المنطاد الذي بناه «ليبيك»[1]، لكي يُبيد العدو، وعلى المنطاد التجريبي الذي سيطلق في اليوم التالي. لم يكن المنطاد جاهزاً بعد، لكن بطرس أُخبر أنه كان يُركب بناء على أمر الإمبراطور. وقد كتب الإمبراطور بصدده إلى روستوبتشين مايلي:

١– فورونتزوفو قرية في جوار موسكو. أما ليبيك فهو مخترع هولندي اقترح على الحكومة الروسية بناء منطاد هائل لإبادة الجيش الفرنسي، ولم يطر هذا المنطاد البتة.

«حالما يصبح «ليبيك» جاهزاً، شكلْ له فريقاً لسلّة المنطاد من الرجال الثقات الأذكياء، وأرسل رسولاً إلى «كوتوزوف» يُخطره بذلك. فقد أطلعته على الأمر.

«أرجوك أن توصي «ليبيك» بأن يتنبه للمكان الذي سينزل فيه للمرة الأولى، كي لا يخطئ ويقع بين أيدي العدو. ولابد له أن ينظّم حركاته مع القائد العام.»

رأى بطرس عند عودته من «فورونتزوفو» من ساحة المستنقع جمهوراً بالقرب من عمود التشهير. فتوقف ونزل من العربة. كان الناس يحتشدون حول طبّاخ فرنسي عوقب لاتهامه بالتجسس. كان العقاب قد انتهى، وكان الجلاّد يفك من منصبة التعذيب رجلاً ضخماً أشقر السالفين، ذا سترة خضراء وجوربين أزرقين، يئن شاكياً. وكان إلى جنبه متّهم آخر ناحل شاحب، وكان وجهاهما يدلان على أنهما فرنسيان. شقّ «بطرس» طريقاً له خلال الجمهور بوجه مذعور متألم كوجه الفرنسي الناحل. وسأل:

– ما هذا؟ من هذان؟ ماذا صنعا؟.

لكن انتباه الجمهور –من الموظفين والبرجوازيين الصغار، والتجار، والفلاحين والنساء في معاطفهن الطويلة أو المبطنة بالفرو– كان منصبّاً بلهفة على المشهد حتى أن أحداً لم يجبه. ونهض الرجل الضخم، وهزّ كتفيه، وقطّب حاجبيه، وكأنما أراد أن يدلل على جلده فعمد إلى لبس سترته دون أن يلقي نظرة حواليه؛ لكن شفتيه ما لبثتا أن ارتعشتا، وانفجر باكياً، ناقماً على نفسه، كما يبكي الرجال من ذوي المزاج الدموي. وراح الناس يتحدثون بصوت عال، وخُيِّل إلى بطرس أنهم يفعلون ذلك ليخنقوا في نفوسهم الشعور بالشفقة.

– هذا طباخ أحد الأمراء...

قال موظف صغير متغضن، بجنب بطرس، عندما رأى الفرنسي يبكي:

– إذن يجب أن تعلم، يا سيد، أن المرق الروسي شديد الحموضة بالنسبة إلى فرنسي... إنه يُضرس أسنانك.

وألقى حواليه نظرة كمن يتوقع أن تفعل نكتته فعلها. وانفجر بعضهم ضاحكاً، واستمر الآخرون في النظر بذعر إلى الجلاد الذي كان ينزع ثياب المتهم الثاني.

نفخ بطرس من أنفه بقوة، وتشنج وجهه، واستدار فجأة، وعاد إلى عربته، مغمغماً بينه وبين نفسه وهو يمشي ليستقل عربته. وأثناء الطريق، ارتعش غير مرة واستعجب بصوت قوي حمل الحوذي على أن يسأله:

– ماذا تقول؟

صرخ به بطرس حين رآه يدلف إلى الساحة.

– إلى أين تذهب؟

فأجابه الحوذي:

– لقد قلت لي أن أذهب إلى منزل الحاكم.

صاح بطرس وهو يسبّه، الأمر الذي قلما وقع له:

– يا غبي! يا حيوان! قلت لك أن ترجع إلى البيت، يا أبله!

وقال بينه وبين نفسه:

– ينبغي أن أسافر في هذا اليوم بالذات.

بعد أن رأى بطرس الفرنسي يعاني التعذيب، ورأى الجمهور الذي احتشد حوله، قرر نهائياً أنه لن يستطيع البقاء أكثر من ذلك في موسكو، وأنه سيلتحق في اليوم نفسه بالجيش، وخيّل إليه أنه قال ذلك للحوذي، أو أنه كان يجب على الحوذي أن يعلم بذلك دون أن ينبهه إليه.

ما إن وصل بطرس إلى بيته حتى دعا حوذيه «ايفستافيفتش» الذي كان يعلم كل شيء، ويعرف جميع الناس في موسكو، وتعرفه موسكو بأسرها، وأنبأه بأنه سيرحل في الليل ليلتحق بالجيش في «موجايسك»، وأنه يريد أن ترسل إلى هناك خيله الصالحة للركوب. بيد أنه لم يكن بالمستطاع عمل ذلك كله في اليوم نفسه، ولذلك اضطر بطرس أن يؤجل رحيله، بناء على مشورة «ايفستافيفتش»، ليتسنى تجهيز خيول البدل.

في الرابع والعشرين صفا الجو، وغادر بطرس موسكو بعد الغداء. وفي الليل بينما كان يبدل الخيول في «بيركوشكوفو»، علم أن معركة كبيرة دارت هذا المساء. وأنبئ أن القصف المدفعي هزّ الأرض حتى في «بيركوشكوفو». وسأل من المنتصر، فلم يستطع أحد أن يجيبه (كانت المعركة معركة «شيفاردينو»[1]، في الرابع والعشرين). وعند الفجر، كان بطرس يقترب من «موجايسك».

كان الجند يحتلون جميع البيوت في «موجايسك». ولم يجد مكاناً في النزل الذي كان ينتظره فيه سائسه وحوذيه، ذلك أن الضباط استولوا على جميع الغرف.

في «موجايسك» وما وراءها لم يكن يرى سوى الجند الذين

١- شيفاردينو قرية جنوبي بورودينو أقيم فيها معقل استولى عليه الفرنسيون بالانقضاض قبل المعركة الحاسمة بليلة.

يعسكرون أو يمرون. كان يرى حيثما تطلّع القوازق والمشاة والخيالة وعربات النقل والصناديق والمدافع. وكان يستعجل لكي يتقدم إلى الأمام، وكلما ابتعد عن موسكو، وكلما أوغل في هذا البحر من الجند أحسّ بتزايد قلقه واضطرابه وشعوره بذلك الحبور الذي لم يحسّه من قبل. كان شعوراً يذكر بما أحسه في قصر «سلوبودسكي» أثناء إقامة الإمبراطور، شعوراً بضرورة الإقدام على أمر ما والقيام بتضحية ما. كان يعلم الآن برضى أن كل ما يصنع سعادة الإنسان: مسرات الحياة والثروة وحتى الحياة ذاتها، كل ذلك ليس شيئاً، كل ذلك يسهل أن نرمي به عرض الفضاء تجاه شيء ما... هذا الشيء لم يستطع أن يحدده و لم يكن يحاول، على كل حال، أن يتبين لمن ولماذا يجد فرحاً خاصاً في أن يضحي بكل شيء. لم يكن المهم عنده أن يعلم لماذا يريد أن يقوم بهذه التضحية بل كان المهم هو التضحية ذاتها التي توفر له شعوراً جديداً من الحبور الشديد.

***

الفصل التاسع عشر

في الرابع والعشرين كانت معركة معقل «شيفاردينو». وفي الخامس والعشرين لم تُطلق رصاصة من هذا الجانب أو ذاك، وفي السادس والعشرين دارت معركة «بورودينو».

لم وكيف نشبت معركتا «شيفاردينو» و«بورودينو» وقبل بهما الطرفان؟ لم نشبت معركة بورودينو، على وجه الخصوص؟ لم يكن لها من معنى لا بالنسبة إلى الفرنسيين ولا بالنسبة إلى الروس. كانت نتيجتها المباشرة التي سبقت غيرها من النتائج والتي كان لابد لها من أن تكون، التعجيل بضياع موسكو، بالنسبة إلى الروس، (وهو أكثر ما كنا نخشاه)، والتعجيل بضياع الجيش الفرنسي بالنسبة إلى الفرنسيين (وهو أكثر ما كان يخشاه الفرنسيون أيضاً). كانت هذه النتيجة واضحة أشد الوضوح آنذاك. ومع ذلك خاض نابليون المعركة وقبل «كوتوزوف» بها.

ولو أن قائدي الجيشين انقادا لصوت العقل، لكان على نابليون أن يرى بجلاء أنه حين يتقدم خمسمئة ميل ويخوض معركة يُعرّض فيها ربع جيشه للدمار فإنما يسير إلى كارثة محققة، وكان على كوتوزوف أن يرى بجلاء أيضاً أنه حين يَقبل بالمعركة ويتعرض لفقد ربع جيشه فإنما يفقد موسكو من دون شك. كانت القضية، بالنسبة إلى كوتوزوف،

بديهية رياضية كما أنه من البديهي في لعبة الداما أن أخسر وأن يكون علي، من ثم أن أكفّ عن اللعب إذا كنت أقل من خصمي ببيدق وإذا تداولنا «الأكل».

إذا كان لدى الخصم أربعة عشر ولدي أربعة عشر فأنا أضعف منه بثُمن، ولكن عندما أفقد ثلاثة عشر ويفقد مثلها فسيكون أقوى مني بثلاث مرات.

كانت النسبة بين قواتنا وقوات الفرنسيين قبل معركة «بورودينو» كنسبة خمسة إلى ستة، أما بعد المعركة فغدت كنسبة واحد إلى اثنين، أي مائة ألف ضد مائة وعشرين قبل المعركة، وخمسين ضد مائة بعد المعركة. ومع ذلك فإن «كوتوزوف» ذلك الذكي المحنّك، قد قبل بالمعركة، ونابليون ذلك القائد العبقري، كما يُدعى، خاض معركة أفقدته ربع جيشه ومدت خطوط قتاله. فإذا قيل: لقد كان يعتقد أنه باحتلاله لموسكو، سيضع حداً للحرب، كما جرى بعد استيلائه على «فيينا»، فإن أدلة كثيرة تُبرهن على العكس. ويروي مؤرخو نابليون أنه منذ، «سمولنسك»، كان يعلم خطر امتداد خطوطه ويعلم أن احتلال موسكو لا يضع حداً للقتال، لأنه كان يرى منذ «سمولنسك» في أي وضع كانت تُترك له المدن، ولأنه لم يكن يتلقى جواباً عن محاولاته المتكررة للشروع في المحادثات.

وحين يخوض نابليون معركة «بورودينو» ويقبل بها هو و«كوتوزوف» فإنهما لم يكونا حرّين فيما عملا، ولم يهتديا بهدي العقل. على أن المؤرخين يستدلون، بعد فوات الحدث، بأدلة معقدة بارعة، مناسبة لذلك الحدث، على تنبؤ القائدين وعبقرية هذين القائدين اللذين كانا، بين الأدوات اللاواعية للحوادث العالمية، أشدها عبودية وأقلها حرية.

لقد ترك لنا الأقدمون. نماذج من القصائد البطولية التي يكون فيها الأبطال مدار اهتمام التاريخ، وليس بوسعنا حتى الآن أن نألف هذه الفكرة وهي أنه لا معنى لهذا المفهوم في عصرنا، عصر الرجال.

وحـول المسألة الثانية، وهي كيف دارت معركة «بورودينو» ومعركة «شيفاردينو» التي سبقتها، رأي دقيق ومعروف لكنه خاطئ تماماً. جميع المؤرخين يصفون الأشياء على النحو التالي:

«إن الجيش الروسي فتش، أثناء انسحابه من «سمولنسك»، عن أمنع موقع من أجل معركة عامة، ووجد ذلك الموقع في «بورودينو». «لقد حصّن الروس سلفاً هذا الموقع، إلى يسار الطريق (من موسكو إلى مسولنسك) وعلى زاوية قائمة تقريباً مع هذا الطريق، من «بورودينو» إلى «أوتيتزا»، في المكان نفسه الذي وقعت فيه المعركة.

وفي مقدمة هذا الموقع أقاموا، لمراقبة العدو، مركزاً أمامياً محصناً على معقل «شيفاردينو». وفي الرابع والعشرين هاجم نابليون هذا المركز الأمامي واستولى عليه، وفي السادس والعشرين هاجم الجيش الروسي بأسره الذي اتخذ موقعه على سهل «بورودينو»».

هذا ما تقوله المؤلفات التاريخية، وكله غير صحيح، وسيقنع ببطلانه من شاء أن يتعمق المسألة.

فالروس لم يفتّشوا عن أمنع موقع، بل أنهم، على العكس، تركوا خلفهم أثناء تراجعهم، عدداً من المراكز أفضل من «بورودينو». ولم يتوقفوا عند أي منها: لأن «كوتوزوف» لم يشأ أن يقبل بوضع لم يختره بنفسه، ولأن ضرورة خوض معركة قومية لم تكن تفرض ذاتها فرضاً قوياً، ولأن «ميلورادوفيتش» لم يكن هنا مع المتطوعين ولأسباب كثيرة أخرى. الصحيح أن المواقع الأخرى كانت أمنع، وأن موقع «بورودينو»

(حيث جرت المعركة) لم يكن أضعف فحسب بل إنه لم يكن أفضل من أية نقطة أخرى في الإمبراطورية الروسية يشار إليها عرضاً بدبوس على الخريطة.

و لم يقتصر الروس على أنهم لم يحصّنوا موقع «بورودينو»، إلى اليسار وبزاوية قائمة على الطريق (أي في المكان الذي دارت فيه المعركة) بل أنهم لم يخطر ببالهم قط قبل الخامس والعشرين من آب أن معركة يمكن أن تنشب في هذا الموضع. والدليل على ذلك أولاً أنه لم يكن في الخامس والعشرين من تحصينات في هذا الموضع، بل أن التي شُرع بها في الخامس والعشرين لم تنته في السادس والعشرين؛ وثانياً، موقع معقل «شيفاردينو» ذاته: فهذا المعقل المتقدم على الموقع الذي دارت فيه المعركة، لم يكن له من معنى. لَم حصِّن أكثر من أية نقطة أخرى؟ و لم بذل الروس قصاراهم للدفاع عنه في الرابع والعشرين إلى ساعة متأخرة من الليل وخسروا ستة آلاف رجل؟ كانت دورية من القوزاق كافية لمراقبة العدو. والدليل الثالث هو أن الموقع الذي جرت عليه المعركة لم يكن مُعّداً لذلك وأن «باركلي دي تولي» و«باغراتيون» كانا مقتنعين بأن معقل «شيفاردينو» يُشكّل الجناح الأيسر من الموقع، وأن «كوتوزوف» يدعوه في تقريره الذي حرره تحت وطأة الانفعال المتوهج بعد المعركة، جناح الموقع الأيسر. وفيما بعد فقط، وفي التقارير التي حررت على مهل جرى (وذلك، من غير شك، لتبرير أخطاء القيادة التي كان ينبغي أن تكون معصومة من الخطأ) اختلافُ هذا الزعم الخاطئ الغريب وهو أن معقل «شيفاردينو» كان موقعاً أمامياً (في حين أنه لم يكن سوى نقطة محصنة من الجناح الأيسر) وأننا قبلنا بمعركة «بورودينو» في موقع محصن اخترناه مسبقاً، في حين أنها جرت في موضع غير محصّن لم يكن في الحسبان البتة.

ليس من شك في أن الأمور جرت على النحو التالي: اختير موقع على نهر «كولوتشا» الذي يقطع الطريق الرئيسية بزاوية حادة لا بزاوية قائمة، بحيث كان الجناح الأيسر في «شيفاردينو» والأيمن قرب قرية «نوفوي»)، والأوسط في «بورودينو» عند ملتقى نهري «كولوتشا» و«فوينا»). ومزايا هذا الموقع الذي يغطيه نهر كولوتشا بالنسبة إلى جيش يهدف إلى إيقاف العدو الزاحف على طول الطريق من «سمولنسك» إلى «موسكو»، تتضح لكل من يفحص ساحة المعركة في «بورودينو»، متناسياً كيف جرت تلك المعركة.

لم ير نابليون (كما يزعم المؤرخون) وهو يمضي في الرابع والعشرين إلى «فالويفو» الموقع الرسمي من «اوتيتزا» إلى بورودينو، (لم يره لأنه لم يكن موجوداً) ولم ير المركز الأمامي للجيش العدو، لكنه إنما اصطدم بالجناح الأيسر للموقع الروسي، بمعقل شيفاردينو وعبرَ بقواته نهر «كولوتشا»)، أثناء ملاحقته المؤخرة، خلافاً لتوقعات الروس. فأعاد الروس الذين حيل بينهم وبين خوض المعركة العامة جناحهم الأيسر من الموقع الذي كانوا ينوون احتلاله إلى موقع لم يكن في الحسبان ولم يكن محصناً.. لقد نقل نابليون، بعبوره إلى الضفة اليسرى لنهر «كولوتشا» على يسار الطريق، المعركة المقبلة من اليمين إلى الشمال «من جهة الروس»)، نقلها إلى الأرض الواقعة بين «اوتيتزا»)، سيمينوفسكوي، و«بورودينو» (وليس لهذا الموضع من حيث هو موقع مزية يمتاز بها عن أي موضع آخر في روسيا). هاهنا دارت معركة السادس والعشرين.

ولو أن نابليون لم يسر إلى «كولوتشا» في مساء الرابع والعشرين ولم يأمر بالهجوم على المعقل في المساء نفسه، ولو أنه لم يقذف بهجومه في صباح اليوم التالي، لما شكّ أحد في أن معقل «شيفاردينو» كان الجناح الأيسر لموقعنا، ولجرت المعركة كما كنا نتوقع. ولعلنا كنا في

هذه الحالة سندافع بضراوة أشد عن معقل «شيفاردينو» جناحنا الأيسر، ونهاجم نابليون في الوسط واليمين، وكانت المعركة العامة ستدور في الرابع والعشرين، في الموقع الذي حُصّن وأعد لها. ولكن بما أن الهجوم على جناحنا الأيسر وقع في المساء، عقب انثناء مؤخرتنا، أي بعد معركة «غريد نيفايا» مباشرة، وبما أن القادة الروس لم يشاؤوا أو لم يستطيعوا أن يشرعوا في المعركة العامة مساء الرابع والعشرين، فقد ضاعت المرحلة الرئيسية من معركة «بورودينو» منذ الرابع والعشرين، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى هزيمة السادس والعشرين.

بعد فقدان معقل «شيفاردينو»، ألفينا أنفسنا، في صباح الخامس والعشرين محرومين من أي موقع في الجناح الأيسر ومكرهين على ثني جناحنا الأيسر وتحصينه بسرعة في أي موضع كان.

ولكن إذا كان القطعات الروسية، في السادس والعشرين، غير محمية إلا بتحصينات ضعيفة ناقصة، فقد تفاقم سوء هذا الوضع أيضاً، لأن الجنرالات لم يحسبوا حساباً للأمر الواقع (فقدان الجناح الأيسر موقعه وانتقال مجموع ساحة القتال المقبلة من اليمين إلى اليسار) فاحتفظوا بوضعهم الممتد طولاً من قرية «نوفوي» إلى «أوتيتزا»، مما أجبرهم، والمعركة على أشدها، أن يدفعوا بقطعاتهم من اليمين إلى الشمال. وهكذا لم يستطع الروس أثناء المعركة أن يواجهوا مجموع الجيش الفرنسي الموجه إلى جناحنا الأيسر إلا بقوى أضعف منه مرتين[1] (كانت عمليات «بونيا توبسكي» ضد «اوتيتزا» وعمليات «اوفاروف» ضد جناح الفرنسيين الأيمن معارك مستقلة عن سير المعركة العام.)

١- تولستوي يبالغ. ذلك أن نابليون لم يدفع إلى بورودينو إلا بمائة وثلاثين ألف رجل (من جيشه المؤلف من ٦٠٠٠٠٠ رجل). وكانت القوات الروسية تزيد على مائة ألف رجل، كما ذكر المؤلف في بداية هذا الفصل.

وهكذا إذن، جرت معركة «بورودينو» على نحو مخالف للصورة التي تُصوَّر بها (لإخفاء أخطاء جنرالاتنا، الأمر الذي قاد إلى التقليل من أمجاد الجيش والشعب الروسيين). لم تقع معركة «بورودينو» في موقع مختار ومحصن، وبقوى أضعف قليلاً في الجانب الروسي فحسب، بل إنها دارت في أرض مكشوفة غير محصنة تقريباً، على أثر فقدان معقل «شيفاردينو» وبقوى أضعف مرتين من قوى الفرنسيين، أي في ظروف لا يتعذر عليها فقط القتال عشر ساعات تجعل فيها المعركة مترجّحة، بل يتعذر عليها الصمود ثلاث ساعات متواليات، دون أن تصاب بهزيمة كلية.

***

الفصل العشرون

في صباح الخامس والعشرين، غادر بطرس موجاييسك. وعند منحدر الشارع الوعر المتلوي المفضي إلى خارج المدينة، والمار أمام الكنيسة الواقعة على يمينه، والتي كانت تقام فيها الصلاة، وكانت أجراسها تقرع، ترك عربته وترجل. ومن ورائه سار فوج من الخيالة يتقدمه المنشدون. وفي مواجهته، راحت قافلة من جرحى معركة الأمس تصعد المرتفع. وكان الفلاحون الذين يقودون عرباتهم وهم يوسعون الخيل صراخاً وسياطاً، يَجْرون أبداً من جانب إلى جانب آخر من الطريق. وكانت العربات التي تُقل كل منها ثلاثة جرحى أو أربعة من الجنود المضطجعين أو الجالسين، تثبُ على الحجارة المرمية هنا وهناك لرصف للطريق على طول المرتفع الوعر. وكان الجرحى يتشبثون بالقوائم ويتهزهزون ويتصادمون في العربات، وهم مغطون بأسمال رثة، شاحبو الوجوه، مزمومو الشفاه، مقطبو الحواجب. وكانوا جميعاً يتطلعون باستغراب صبياني إلى قبعة بطرس البيضاء ولباسه الأخضر.

صرخ حوذيّ بطرس غاضباً بالرتل لكي يتنحى جانباً. لكن فوج الخيالة الذي كان ينزل المنحدر وهو يغني، زحمَ عربته وقطع عليه الطريق. فوقف بطرس ولزم حافة الطريق المحفور في الهضبة. وكان السفح يمنع الشمس من أن تصل إلى الطريق المنخفضة، فظلت باردة رطبة. ومن فوق رأس بطرس كانت الصبيحة صبيحة مشرقة من شهر

آب وكان رنين الأجراس ينتشر ببهجة. وقفت إحدى عربات الجرحى على حافة الطريق قريباً من بطرس. وهُرع سائقها بخفّه الكتاني، وهو يلهث فدس حجراً تحت العجلة الخلفية التي ذهب عنها طوقها وأصلح عدة فرسه.

وكان يتبع العربة أحد الجرحى، وهو جندي مسن، يده مربوطة إلى عنقه، فتعلق بها بيده السليمة، ونظر إلى بطرس وقال:

– قل لي، أيها المواطن هل يتركوننا هنا أم ينقلوننا إلى موسكو؟

كان بطرس مستغرقاً في أفكاره إلى الحد الذي لم يسمع معه السؤال. وكان ينظر تارة إلى فوج الخيالة الذي بلغ سوية قافلة الجرحى، وتارة أخرى إلى العربة بجنبه التي جلس فيها جنديان واضطجع جندي ثالث. وكان أحد الجالسين مصاباً في خده، على ما يبدو، فلف رأسه بخرق بالية، وتورم أحد خديه حتى صار بحجم رأس الطفل، واعوج فمه وأنفه. وكان ينظر إلى الكنيسة ويرسم إشارة الصليب. أما الجندي الثاني، وهو فتى، غر، أشقر، ممتقع اللون، وكأنما ليس في وجهه النحيف قطرة دم، فكان ينظر إلى بطرس وقد تجمدت على شفتيه ابتسامة رقيقة. وكان الثالث مستلقياً على بطنه ولا سبيل إلى رؤية وجهه. ومر المنشدون من فوج الخيالة أمام العربة وهم يغنون أغنية من أغاني الرقص:

آه! لقد أصيب... رأس القنفذ[1]... بعيداً عن مسقط رأسه...

وكان رنين الأجراس ينتثر في الأعالي وكأنه رجع الصدى وإن كان على وتر آخر من الفرح. وكانت أشعة الشمس الدافئة تنصب، في نوع آخر من الفرح أيضاً، على السفح الآخر من الهضبة. أما في أدنى

١– اشارة إلى رؤوس الجند الحليقة خلافاً لرؤوس الفلاحين الطويلة الشعور.

الهضبة، حيث كان بطرس، قرب عربة الجرحى والفرس اللاهثة، فكان الجو رطباً، معتماً وحزيناً.

نظر الجندي ذو الخد المتورم إلى المنشدين غاضباً وقال لائماً:

– أوه! يا لهؤلاء الفتية الماجنين!

قال الجندي الذي يقف خلف العربة مخاطباً بطرس، وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

– إننا لا نرى الجنود وحدهم، اليوم، بل والفلاحين أيضاً! حتى الفلاحين يسحبونهم. يريدون أن يحاربوا بالشعب كله، ليست موسكو شيئاً قليلاً. المهم أن ننتهي من ذلك بالمرة.

وبالرغم من غموض كلمات الجندي فقد فهم بطرس كل ما أراد أن يقوله وأومأ برأسه إيماءة الموافقة.

عادت الطريق سالكة، فصعد بطرس بعربته، من أسفل المنحدر، وتابع طريقه.

كان يُنقّل بصره على جانبي الطريق، باحثاً عن وجوه يعرفها، فلا يجد سوى عسكريين لا يعرفهم، عسكريين من مختلف الأسلحة ينظرون بنفس الاستغراب إلى قبعته البيضاء ولباسه الأخضر.

وبعد نحو من أربعة فراسخ التقى أول شخص يعرفه فاستفهمه الأمور بفرح. كان من رؤساء أطباء الجيش وبرفقته طبيب شاب. وكانت عربته تسير في اتجاه معاكس لعربة «بطرس». فلما عرف بطرس أمر القوزاقيَّ الذي كان حوذياً له أن يقف، وسأل بطرس:

– كونت ماذا تعمل هنا، يا صاحب السعادة؟

– الحقيقة، أني اشتهيت النظر...

– نعم، نعم، سيكون هناك الكثير مما يستحق النظر...

نزل بطرس وأوضح له أنه ينوي حضور المعركة.

فأشار عليه الطبيب أن يتوجه مباشرة إلى صاحب الرفعة. وقال وهو يبادل زميله النظر:

– لماذا تُلقي بنفسك، أثناء المعركة، في مكان لا يعلمه إلا الله، دون أن يعرفك أحد: في حين أن صاحب الرفعة يعرفك وسيستقبلك بالترحاب. هذا ما ينبغي أن تفعله.

كان الطبيب بادي التعب والاستعجال.

قال بطرس:

– أتظن... أردت أن أسألك أيضاً عن الموقع بالذات، أين هو؟

فأجاب الطبيب:

– الموقع؟ ليس هذا من اختصاصي. إذا ما تجاوزت «تاتارينوفو» فسوف ترى؛ الحَفْرُ يجري على قدم وساق هناك. اصعد الأكمة: من هناك ترى.

– حقاً!... لو أنك...

لكن الطبيب قاطعه واتجه إلى عربته وقال:

– سأدلك على الطريق، لكني أقسم لك أنني أختنق غيظاً (وأشار إلى حنجرته)، وهأنذا أجري مسرعاً إلى قائد الوحدة. أتعلم، يا كونت، كيف تجري الأمور عندنا؟... سنخوض المعركة غداً: من مائة ألف

رجل، يجب أن نعدّ، على الأقل، عشرين ألف جريح؛ وليس لدينا نقّالات ولا أسرة ولا ممرضون ولا أطباء. صحيح أن لدينا عشرة آلاف عربة، لكننا بحاجة أيضاً إلى أشياء أخرى؛ وعلينا أن نتدبر الأمر كما يحلو لنا.

أذهلت بطرس هذه الفكرة الغريبة وهي أن بين هؤلاء الآلاف من الرجال الأحياء، الأصحاء، الشباب والكهول الذين كانوا يتطلعون إلى قبعته باستغراب مُسلّ، عشرين ألفاً كُتب عليهم أن يلقوا الجراحات والموت المحقّق (ولعلهم هؤلاء الذين رآهم بالذات).

«لعلهم سيموتون غداً، فلمَ يفكرون في غير الموت؟» وفجأة، تمثل، بفعل تداع للأفكار غريب، منحدر «موجايسك» والعربات المحمّلة بالجرحى، وأصوات الأجراس، وأشعة الشمس المائلة، وأغنية الخيالة.

وحدث نفسه وهو يتابع طريقه إلى «تاتارينوفو»:

«هؤلاء الفرسان الذين يمضون إلى نار المعركة يلتقون الجرحى، فلا يفكرون لحظة فيما ينتظرهم، لكنهم يمرون ويغمزونهم بأعينهم. إن بين هؤلاء الناس، عشرين ألفاً كُتب عليهم الموت، ومع ذلك فقبعتي تُدهشهم! غريب!».

بالقرب من منزل أحد النبلاء على الجانب الأيسر من الطريق، وقفت العربات وعربات النقل وجمهور من الخدم والحراس. في هذا المنزل يُقيم صاحب الرفعة. ولكنه كان غائباً عندما وصل بطرس. فقد كان هو ومعظم أفراد هيئة الأركان. يحضرون الصلاة.

وتابع بطرس طريقه نحو «غوركي».

وبعد أن تسلّقتْ عربته سفحاً ودلفت إلى شارع القرية الصغير، رأى

لأول مرة، فلاحين متطوعين بستراتهم البيضاء، مع صليب على قبعاتهم، يشتغلون إلى يمين الطريق، على أكمة ضخمة اجتاحتها الأعشاب، وهم يضحكون ويتكلمون عالياً، وقد امتلؤوا نشاطاً، وتصببوا عرقاً.

كان بعضهم يحفر الخنادق بالرفوش، وبعضهم ينقل التراب في نقالات عليها ألواح، ووقف آخرون من دون عمل يعملونه.

وفوق الأكمة، وقف ضابطان يُلقيان عليهم الأوامر. فلما رأى بطرس هؤلاء الفلاحين الذين بدا عليهم أن وضعهم الجديد يُسليهم، تذكر جرحى «موجايسك» وأدرك ما يَعنيه الجندي الذي قال: «يريدون أن يحاربوا بالناس جميعاً». إن منظر هؤلاء الفلاحين الملتحين، وهم يشتغلون في ساحة القتال، بأحذيتهم الغريبة التي أربكتهم، وبقذالاتهم المتصببة عرقاً، وبياقاتهم المفتوحة أحياناً، التي تكشف عن تراقي لوحتها الشمس. دلّه دلالة أقوى من كل ما رأى وما سمع حتى الآن، على جلال الساعة وخطورتها.

***

الفصل الحادي والعشرون

نزل بطرس من العربة، ومر أمام المتطوعين العاكفين على العمل، وصعد الأكمة التي يستطيع المرء أن يشاهد منها ساحة المعركة، على ما قال الطبيب.

كانت الساعة هي الحادية عشرة صباحاً. وكانت الشمس، من وراء ظهره، وإلى يساره قليلاً، تضيء، عبر الهواء النقي والرقيق، المشهد العريض الشامل الذي انكشف أمامه على شكل مدرج.

كانت طريق «سمولنسك» الكبرى تقطع هذا المدرج من يساره، وتتلوى صاعدة عبر قرية كنيستها بيضاء، على خمسمئة خطوة أمام الأكمة، وفي مستوى أدنى منها. (كانت القرية «بورودينو»). كانت هذه الطريق تمر تحت القرية، فوق جسر، وترتفع، بنزلات وطلعات، شيئاً فشيئاً نحو «فالويفو» التي كانت تشاهد من نحو ستة فراسخ (وفيها كان يعسكر نابليون). وفيما وراء «فالويفو»، تختفي الطريق في غابة تشكل بقعة صفراء في الأفق. وفي هذه الغابة من السندر والصنوبر، على يمين اتجاه الطريق، كان صليب دير «كولوتسكي» وقبة الجرس فيه يلتمعان في الشمس.

وفي ذلك المكان القصي الأزرق، على يمين الغابة والطريق وعلى يسارهما، كان يظهر في مواضع شتى دخان نيران المعسكرات وكتل

غير متميزة من الجند، جندنا وجند العدو، وإلى اليمين، على طول «الكولوتشا» والمسكوفا، كانت الأرض وعرة تقطّعها الوهاد. وبين الوهاد كانت تبدو، على البعد، قريتا «بيزيبوفو» و«زاكاينو». وإلى اليسار، كانت الأرض أكثر استواء، وكانت تشاهد فيها حقول القمح وأنقاض مدخّنة لقرية محروقة هي «سيمينوفسكوي».

كل ما رآه بطرس على اليمين وعلى الشمال كان مبهماً أشد إبهام لا يتوافق تماماً مع الصورة التي تصورها من قبل. فحيثما تطلع رأى أراضي محروثة ومراعي وغابات وجنداً ونيران المعسكرات وقرى وهضاباً وسواقي، ولم ير ساحة القتال التي كان يُقدّر أن يراها؛ وبالرغم من الجهود التي بذلها فإنه لم يتوصل إلى اكتشاف الموقع، في هذا المنظر الحي، بل إنه لم يتوصل إلى تمييز قطعاتنا من قطعات العدو.

قال في نفسه «يجب أن أسأل مختصاً»، واقترب من ضابط كان ينظر باستغراب إلى شخصه الضخم الذي يعوزه الطابع العسكري، وقال له:

– أتسمح بأن أسألك عن اسم تلك القرية التي هي قبالتنا؟

فأجابه الضابط وهو يلتفت إلى زميله:

– بوردينو، ما اسمها؟

فصحح له زميله:

– بورودينو.

ودنا الضابط من بطرس وكأنما سرّه أن يجد مناسبة للثرثرة.

سأله بطرس:

– أهي قطعاتنا، تلك التي نراها هناك؟

قال الضابط:

– نعم، وأبعد من ذلك قليلاً، هناك، الفرنسيون. ها هم أولاء، إنني أراهم.

فسأله بطرس:

– أين؟

– يمكن رؤيتهم بالعين المجردة. انظر!

وأشار الضابط إلى الدخان الذي كان يتصاعد إلى اليسار، وراء النهر، واكتسى وجهه ذلك الطابع القاسي الرصين الذي رآه بطرس على وجوه جميع الذين لقيهم.

– آه! هؤلاء هم الفرنسيون! وهناك؟....

وأشار بطرس إلى اليسار، إلى أكمة كانت القطعات قريبة منها.

– هذه قطعاتنا.

– آه! قطعاتنا! هناك؟...

وأشار إلى أكمة أخرى، أبعد، تتوَجُها شجرة ضخمة قرب قرية في منخفض من الأرض، وبجنبها كان يتصاعد دخان نيران المعسكرات ويبدو شيء أسود.

قال الضابط:

– و «هو» أيضاً هناك. (كان ذلك معقل «شيفاردينو») بالأمس كان لنا واليوم أصبح «له».

– لكن أين موقعنا؟

قال الضابط وعلى وجهه ابتسامة الرضى:

– الموقع؟ أستطيع أن أشرح لك ذلك بوضوح، لأنني أنا بنيت جميع تحصيناتنا. انظر، أنت ترى أن مركزنا يقع في «بورودينو»، هناك. (وأشار إلى القرية ذات الكنيسة البيضاء، أمامهم مباشرة.) وهناك، حيث نُضِّد في المنخفض الحشيش المحصود، هناك الجسر.

هذا هو مركزنا. أما جناحنا الأيمن فهو هناك (وأشار إلى نقطة في أقصى اليمين، بعيدة في الوادي)، من هناك يسيل الموسكوفا وقد بنينا عليه ثلاثة معاقل منيعة جداً. وأما جناحنا الأيسر... (وهنا توقف الضابط). الواقع أن من الصعب شرح ذلك... بالأمس كان جناحنا الأيسر هناك، في («شيفاردينو» حيث ترى شجرة السنديان؛ والآن سحبنا جناحنا الأيسر إلى الوراء، فأصبح هناك، حيث ترى القرية والدخان، وهي قرية «سيمينوفسكوي»، ثم هناك (وأشار إلى أكمة «رايفسكي»[1]) لكن من المشكوك فيه أن تدور المعركة هنا، ولئن مرّر قطعاته من هنا، إنها لخدعة. ولاشك «أنه» سيلتف حولنا من على يمين الموسكوفا. لكن، مهما يكن من أمر فسوف يغيب الكثيرون عن التفقد غداً!

اقترب منه ضابط صف مسن أثناء حديثه وانتظره بصمت حتى ينهي حديثه؛ لكنه لما بلغ هذا الموضع من كلامه قاطعه وقد استاء، على ما يظهر، من ملاحظته الأخيرة، وقال بقسوة:

١– أكمة رايفسكي: أكمة محصنة في وسط الموقع الروسي، دافع عنها الفيلق السابع الذي يقوده الجنرال رايفسكي.

- لابد من إحضار القُفف.

وبدا الاضطراب على الضابط، وكأنه أدرك أن غياب الكثيرين عن تفقد الغد قد يمر بالبال، ولكن لا يليق بنا الكلام عليه. فقال مستعجلاً:

- صحيح، أرسلْ السرية الثالثة مرة أخرى.

وسأل بطرس:

- وأنت، من أنت؟ لعلك طبيب؟

فأجاب بطرس:

- كلا، وإنما أنا هنا هكذا...

وانحدر بطرس ماراً ثانية أمام المتطوعين.

قال الضابط وهو يسد أنفه ويحث خطاه ليسبق رجاله الذين يعملون:

- آه! الملاعين!

وهتفت فجأة أصوات شتى:

-ها هم أولاء!... إنهم يحملونها، لقد وصلوا... ها هي ذي!... سيصلون..

وهُرع إلى الطريق الضابط والجنود المتطوعون.

كان الموكب الديني من «بورودينو» يصعد الهضبة. ويتقدمه المشاة، وهم يسيرون بنظام، على الطريق المغبرّة، حاسري الرؤوس، خافضي السلاح. وخلف المشاة علت التراتيل الكنسية.

ركض الجنود والمتطوعون، حاسري الرؤوس، وتجاوزوا بطرس لملاقاة القادمين.

– إنهم يحملون أمنا! حاميتنا!... عذراء ايبيريا!...

فصحح أحدهم:

– عذراء «سمولنسك».

وانطلق المتطوعون الذين كانوا في القرية والذين كانوا يعملون في مرابض البطارية، وقد ألقوا بمعاولهم، إلى ملاقاة الموكب الديني. وفي أثر كتيبة المشاة التي كانت تسير على الطريق المغبرة، تقدّم الكهنة بحللهم الكهنوتية، وبينهم شيخ قصير يضع على رأسه كمة، ومن حوله الشمامسة والمرتلون. ومن خلفهم، حمل الجنود والضباط أيقونة كبيرة مسودة الوجه وموشّاة بزينتها. كانت هذه هي الأيقونة التي جيء بها من «سمولنسك» والتي ظلت، منذ ذلك الحين، تتبع الجيش في تحركاته[1]. وخلفها، وأمامها وحواليها، راح جمهور من العسكريين الحاسري الرؤوس يسير أو يركض أو ينحني خاشعاً.

توقفت الأيقونة في قمة الهضبة، وتناوب على حملها الحاملون في قطع من النسيج الكتاني، وأشعل خدام القُداس مباخرهم، وبدأت الصلاة. كانت أشعة الشمس الحارة تسقط عمودية، وراحت نسمة خفيفة تتلاعب بشعور الرؤوس الحاسرة والأشرطة التي تزين الأيقونة؛ وتصاعدت التراتيل في الفضاء برفق. وأحاط بالأيقونة جمهور من الضباط والجنود والمتطوعين حاسري الرؤوس. وخلف الكاهن

١– هذه الأيقونة هي أيقونة سمولنسك التي كانت تصحب الجيش الروسي في تراجعه.

والشماس، وقف الضباط الكبار في مكان تُرك خالياً. وخلف الكاهن بالضبط وقف جنرال أصلع، في عنقه وسام القديس جاورجيوس، كان ينتظر بصبر نهاية القدّاس، دون أن يرسم إشارة الصليب (كان ألمانياً من غير شك)، ولعله رأى من الضروري حضور القداس لأنه سيذكي وطنية الشعب الروسي. ووقف جنرال آخر وقفة عسكرية وراح يرسم إشارة الصليب بحركة آلية سريعة وهو يلقي النظر من حوله. وفي هذا الحشد من الشخصيات، اكتشف، «بطرس» الذي اختلط بجمهور الفلاحين، كثيراً من معارفه؛ لكنه لم يكن ينظر إليهم: كان انتباهه منصباً على ما في وجوه جمهور الجنود والمتطوعين من جدّ وصرامة وهم يتطلعون إلى الأيقونة بلهفة واحدة. وما إن رتّل المرتلون المتعبون (كان هذا هو فرضهم العشرين) بكسل وآلية ترتيلهم: «خلصي، يا أم الله، خدامك، من البلاء»، واستأنف الكاهن والشماس دعاءهما: «لأننا نلجأ جميعاً إلى شفاعتك كما نلجأ إلى جدار لا يتزعزع»، حتى عكست جميع الوجوه مرة أخرى نفس الشعور بجلال الساعة، وهو الشعور الذي لاحظه عند منحدر «موجايسك»، ولاحظه، خطفاً، على كثير من الوجوه التي شاهدها، في الصباح. كانت الرؤوس تنحني فيلعب النسيم بشعرها وتسمع زفراتها كما تسمع ضربات الأصابع على الصدور وهي ترسم إشارة الصليب.

وفجأة تراجع الجمهور الذي يحيط بالأيقونة ودفع ببطرس دفعاً قوياً. وتبين من العجلة التي اصطف بها الناس في طريق القادم أنه شخصية عظيمة الشأن تدنو من الأيقونة.

كان القادم «كوتوزوف»، وكان عائداً من تفقده للموقع. جاء ليحضر القداس، وهو في طرْيق عودته إلى «تاتارينوفو». لقد عرفه بطرس، على الفور، من شخصه المتميز.

تقدم «كوتوزوف» ضخم الجثة، في سترة طويلة، محدودب الظهر، أشيب الشعر، حاسر الرأس، عينه البيضاء الميتة، في وجهه المترهل، تقدم بمشيته الغائصة، المتهادية، ووقف خلف الكاهن، ورسم إشارة الصليب بحركة ثابتة، فلامس الأرض بيده وحنى رأسه الأبيض وهو يطلق زفرة عميقة. وخلفه جاء «بينيجسن» وحاشيته. وبالرغم من حضور القائد العام الذي استأثر بانتباه كبار الضباط، إلا أن الجنود والمتطوعين ظلوا يصلون دون أن ينظروا إليه.

فلما انتهى القداس، اقترب «كوتوزوف» من الأيقونة، وجثا بمشقة، وانحنى حتى لامس الأرض، وظل كذلك زمناً دون أن يستطيع النهوض بسبب ضعفه وثقله. كان رأسه الأبيض يرتجف من الجهد. وأخيراً أفلح في النهوض، وقرب شفتيه من الأيقونة، على نحو ساذج، طفولي، وقبلها، ثم انحنى مرة أخرى ولمس الأرض بيده. وحذا الجنرالات حذوه، ثم الضباط، ثم الجنود والمتطوعون وهم يتزاحمون ويلهثون ويتدافعون، وقد علا التأثر وجوههم.

***

الفصل الثاني والعشرون

كان بطرس ينظر حوله وأمواج الجمهور تتقاذفه بينها.

وهتف به صوت:

- كونت، «بطرس كيريلوفتش»، أأنت هنا؟

والتفت بطرس فإذا «بوريس دروبتسكوي» يقبل عليه باسماً، وهو ينفض الغبار عن ركبتيه (اللتين لعله وسخها وهو يجثو أمام الأيقونة). كان يرتدي ثياباً أنيقة عليها مسحة حربية، لائقة بميدان المعركة. وكان يلبس سترة طويلة ويتقلد سوطاً، مثل «كوتوزوف».

في هذه الأثناء، كان «كوتوزوف» قد عاد إلى القرية، وجلس في ظل أقرب بيت، على مقعد حمله أحد القوزاق وهو يركض، وبادر آخر فغطاه بسجادة. وأحاطت بالقائد العام حاشية لامعة كثيرة العدد.

استأنفت الأيقونة مسيرتها يصحبها الجمهور. ووقف بطرس على نحو ثلاثين خطوة من «كوتوزوف» يتحدث مع «بوريس».

وأنبأه برغبته في أن يشهد المعركة ويزور الموقع.

قال بوريس:

- دونك ما ينبغي أن تفعله: سأرحب بك وسأقوم بواجبات الضيافة

في المعسكر. أفضل مكان تشاهد منه كل شيء هو أن تكون حيث يكون الكونت «بينيجسن». أنا ملحق به. وسأكلمه في ذلك. وإذا شئت أن تجوب الموقع فتعال معنا: لأننا ماضون الآن إلى الجناح الأيسر. وعند عودتنا، أسعدني بقبول ضيافتي لهذه الليلة. سنقضي السهرة معاً. أنت تعرف «ديمتري سيرجيفتش»، أليس كذلك؟ انظر، ها هو ذا مسكنه.

وأشار إلى البيت الثالث في غوركي.

قال بطرس:

– كنت أود رؤية الجناح الأيمن، يبدو أنه منيع جداً. كنت أود أيضاً الطواف بالموقع كله بدءاً من الموسكوفا.

– الواقع أنك تستطيع القيام بذلك فيما بعد، أما الشيء الأساسي فهو الجناح الأيسر...

– نعم، نعم. وأين فوج الأمير «بولكونسكي». ألا تستطيع أن تدلني عليه؟

– فوج «آندريه نيكولايفيتش»؟ سنمر أمامه وسآخذك إليه.

وسأله بطرس:

– والجناح الأيسر؟

قال «بوريس» وهو يخفض صوته كمن يبوح بسر:

– الحق أن الجناح الأيسر –وهذا بيننا– في وضع لا تحمد عقباه.

وليس هذا ما أراده الكونت «بينيجسن». وإنما ارتأى تحصين تلك الأكمة هناك، على نحو آخر... لكن (وهز كتفيه) صاحب الرفعة لم يوافق، أو أنهم عبؤوه وأثاروه. ذلك أن...

ولم يتم «بوريس» كلامه لأن «كايساروف»[1] وهو أحد مساعدي «كوتوزوف» العسكريين اقترب من بطرس في تلك اللحظة.

واستأنف بوريس مخاطباً «كايساروف» وعلى وجهه ابتسامة طليقة:

– آه! «بابيسي سيرغيتش»، حاولت أن أشرح الموقف للكونت. إنه لمن المدهش كيف أن صاحب الرفعة استطاع أن يتنبأ بنوايا الفرنسيين.

وسأله «كايساروف»:

– أتتحدث عن الجناح الأيسر؟

– نعم، نعم، بالضبط. إن جناحنا الأيسر قوي جداً، جداً.

مع أن «كوتوزوف» طرد من الأركان العامة كل الذين لا حاجة إليهم، فإن «بوريس» استطاع أن يحتفظ بمركزه في مقر القيادة العامة، والتحق بالكونت «بينيجسن». وكان هذا ينظر إلى الأمير الشاب «دروبتسكوي»، كما نظر إليه جميع الذين ألحق بهم، على أنه رجل لا يقدر بثمن.

كانت القيادة العليا منقسمة إلى فريقين متميزين كل التيمز: فريق «كوتوزوف» وفريق «بينيجسن» رئيس الأركان. كان «بوريس» من الفريق الثاني. وكان أقدر الناس على أن يبديَ لكوتوزوف ضرباً من الاحترام المداهن وأن يلمّح مع ذلك إلى أن الشيخ ليس في مستوى القيادة، وأن «بينيجسن» هو الذي يدير كل شيء. لقد أزفت الآن ساعة المعركة الحاسمة، الساعة التي ستؤدي إلى أحد شيئين: فإما أن تقضي على «كوتوزوف» وتعاد السلطة إلى «بينيجسن»، وإما أن ينتصر «كوتوزوف»

١– بابيسي كايساروف: (١٧٨٣–١٨٤٤) جنرال، مساعد كوتوزوف العسكري وقائد الخيالة الروسية بين ١٨١٣–١٨١٤.

فينسب الفضل كله إلى «بينيجسن». على كل حال، إن نهار غد سيفسح المجال واسعاً لتوزيع المكافآت وسيقدم رجالاً جدداً. وذلك هو الذي أبقى «بوريس» طوال النهار، في حالة من الاضطراب الشديد.

وبعد «كايساروف»، اقترب من بطرس أشخاص آخرون يعرفهم، حتى أنه لقي مشقة في الرد على جميع الأسئلة التي انهمرت من كل صوب عن موسكو، وفي سماع القصص التي أخذوا يروونها. وكانت الوجوه جميعاً تنطق بالانتعاش والقلق. وخيل إلى «بطرس» أن مبعث هذه الحمية، لدى البعض، إنما هو مسائل ذات منفعة شخصية، على أن هناك ذكرى ظلت ماثلة في ذهنه، ذكرى حمية أخرى قرأها على وجوه أخرى، وكانت تعبر عن مسألة أخرى، عامة لا شخصية، مسألة الحياة والموت. لاحظ «كوتوزوف» شخص بطرس والجماعة التي تحيط به، فقال:

– قل له أن يأتي إلي.

نقل المساعد العسكري رغبة صاحب الرفعة فاتجه بطرس إلى المقعد. لكن جندياً من المتطوعين سبقه. كان الجندي «دولوخوف».

سأل بطرس:

– كيف جاء هذا إلى هنا؟

فرد عليه أحدهم:

– هذا شاطر. يستطيع أن يدس أنفه حيث شاء! أتعلم أنه جرد من رتبته مرة أخرى. وهو الآن يريد أن يرد الاعتبار إلى نفسه في نظر الناس. لقد تقدم بمشاريع وانسل في الليل إلى الخطوط العدوة.. لكنه فتى باسل!

حسر بطرس عن رأسه وانحنى باحترام أمام «كوتوزوف». وكان «دولوخوف» يقول:

- قدرت أني إن خاطبت سموكم، فكل ما أتعرض له هو أن تطردوني أو أن تقولوا لي أنكم تعرفون ذلك من قبل...

- حسناً، حسناً...

- أما إن كنت محقاً فلعلي أؤدي خدمة للوطن الذي أرجو أن أموت من أجله.

- حسناً... حسناً...

- وإذا كنتم سموكم، بحاجة إلى رجل لا يتوانى عن بذل نفسه، فأرجو أن تفكروا في... فلربما كنت نافعاً لسموكم.

فكرر «كوتوزوف» وهو يحط على بطرس عينيه الضاحكتين:

- حسناً... حسناً...

في هذه الأثناء انسل «بوريس»، ببراعة رجل الحاشية، إلى جنب بطرس فغدا أقرب منه إلى القائد الأكبر، وقال له بصوت هامس، وبلهجة طبيعية، وكأنه يتابع حديثاً:

- لقد ارتدى المتطوعون قمصاناً بيضاء نظيفة استعداداً للموت. ما أعظمها بطولة، أيها الكونت.

وإنما قال ذلك لكي يسمعه صاحب الرفعة. كان يعلم أن هذه الكلمات ستستدعي انتباه كوتوزوف. وبالفعل فإن صاحب الرفعة التفت إليه وسأله:

- ماذا قلت عن المتطوعين؟

- قلت: إنهم لبسوا قمصانهم البيضاء، استعداداً ليوم غد، للموت.

فقال «كوتوزوف»:

– آه!... يا لهم من قوم رائعين، لا مثيل لهم!

ثم هز رأسه وأغمض عينيه وردد وهو يتنهد!

– يا لهم من قوم لا مثيل لهم.

وقال لبطرس.

–أتريد أن تتنشق رائحة البارود؟ إنها لرائحة ذكية. لي الشرف أن أكون أحد المعجبين بالسيدة زوجتك. كيف صحتها؟ معسكري بين يديك. ونظر «كوتوزوف» حوله شارداً، كما يقع غالباً للشيوخ، وكأنه نسي ما أراد أن يقوله أو يفعله.

ثم تذكر، من غير شك، ما كان يبحث عنه فاستدعى بإشارة منه «آندريه سيرغيتش كايساروف»[1] شقيق مساعده العسكري:

– أتعرف أبيات «مارين»[2] تلك التي نظمها في «غيراكوف»[3]: «ستصير أستاذاً في هيئة الطلاب العسكريين»... هات، ألقها عليَّ،

١– آندريه كايساروف: (١٧٨٢–١٨١٣) شقيق بايسي كايساروف الذي مر ذكره آنفاً. أديب درس في ألمانيا وفي انكلترا. عين أستاذاً في جامعة ديربت سنة ١٨١١ ورئيساً لمطبعة الجيش سنة ١٨١٢.

٢– سيرج مارين: (١٧٧٥–١٨١٣) مساعد الكسندر الأول العسكري، شاعر هجاء كان يسخر من النزعة العسكرية والوطنية المفرطة.

٣– غابرييل غيراكوف (١٧٧٥–١٨٣٣) من أصل يوناني، مدرس التاريخ في «هيئة الطلاب العسكريين» ومؤلف كراريس متطرفة الوطنية من مثل «الأبطال الروس في أربعة قرون (١٨٠١)، وعظمة النفس لدى بعض الروس (١٨٠٣).

وأصر عليه وكان بادي الاستعداد لأن يسري عن نفسه. فأنشدها «كايساروف». كان كوتوزوف يساير الإيقاع، وهو يهز رأسه ويبتسم.

وبينما كان بطرس يترك «كوتوزوف» لحق به «دولوخوف»، وأمسك بذراعه، وقال له بصوت عال، وبلهجة واثقة، مهيبة، غير متحرج من حضور الآخرين:

-أنا سعيد بلقائك هنا، أيها الكونت. ففي عشية اليوم الذي لا يعلم إلا الله من الذي ستقدر له فيه الحياة، منا الاثنين، يسعدني أن أعرب لك عن أسفي لسوء التفاهم الذي كان بيننا، وأود لو تنزع ما في نفسك من ضغينة عليّ. أرجو أن تصفح عني.

نظر إليه بطرس مبتسماً، دون أن يعرف ماذا يقول له. وضمه «دولوخوف» بين ذراعيه، والدموع في عينيه، وعانقه.

قال «بوريس» بضع كلمات لجنراله، فاقترح الكونت «بينيجسن» على بطرس أن يرافقه في تفقده لخط القتال، وقال له:

- سيكون ذلك شائقاً لك.

فأجاب «بطرس»:

- نعم، كثيراً.

وبعد نصف ساعة، عاد «كوتوزوف» إلى «تاتارينوفو»، وذهب «بينيجسن» وحاشيته التي انضم إليها بطرس، نحو خطوط القتال.

***

الفصل الثالث والعشرون

بعد أن خرج «بينيجسن» من غوركي، انحدر على الطريق الرئيسية إلى الجسر الذي أشار إليه الضابط، حين كان بطرس فوق الأكمة، باعتباره مركز الموقع، والذي نضد بجنبه الحشيش المحصود الأرج. وبعد أن قطعوا الجسر مروا بقرية «بورودينو»، واستداروا إلى اليسار وتجاوزوا حشداً ضخماً من الجند والمدافع، وبلغوا ربوة كان المتطوعون يحفرون فيها خنادق. كان هذا المعقل هو المعقل الذي لا اسم له الآن والذي سيسمى فيما بعد «بطارية الأكمة» أو معقل رايفسكي.

لم يعر بطرس هذا المعقل كبير اهتمام، و لم يكن يعلم أنه سيصبح عنده نقطة مشهودة تستحق الذكر قبل غيرها في ساحة قتال «بورودينو». ثم توجهوا من خلال وهدة إلى «سيمينوفسكوي» حيث كان الجنود يحملون أواخر جسور البيوت والمخازن. ثم وصلوا، وهم ينزلون ويصعدون خلال حقول الشيلم الذي كان كأنما كسره وحصده البرد، على طريق شقتها المدفعية حديثاً، في أثلام حقل محروث، إلى التحصينات التي كان الجنود يحفرونها.

وقف «بينيجسن» قرب التحصينات، ونظر قبالته، إلى معقل «شيفاردينو» (وكان فيْ أيدينا حتى الأمس) الذي كان يرى فيه بعض الفرسان. وكان الضباط يقولون: لابد أن يكون نابليون أو «مورا»

بينهم. وراح الجميع يتشوقون بلهفة إلى هذه الجماعة الصغيرة من الفرسان. وفعل بطرس مثلهم، محاولاً أن يكشف: مَنْ مِنْ أولئك الرجال الذين لا يكادون يتميزون يمكن أن يكون نابليون. وأخيراً بلغ الفرسان أدنى الأكمة وتواروا.

التفت «بينيجسن» إلى جنرال كان يقترب وشرح له بالتفصيل موقع قطعاتنا. وكان بطرس يصغي إلى ما يقول، باذلاً جهده لتفهم خطة المعركة المقبلة، ولكنه كان يحس بمرارة أن ملكاته الذهنية كانت غير كافية لذلك. فلم يكن يفهم شيئاً مما يقال. صمت «بينيجسن» وحين رأى بطرس يصغي إليه، سأله فجأة:

– أقدر أن هذا لا يهمك!

فأجابه بطرس جواباً يعوزه الصدق:

– آه! على العكس، إنه يهمني كثيراً.

ومن التحصينات ساروا إلى اليسار، في طريق متعرج خلال غابة كثيفة من أشجار السندر الفتية. وفي وسط الغابة طلع على الطريق أرنب أسمر اللون، قوائمه بيضاء، روّعه وطء هذا العدد من الخيول ففقد رشده وأخذ يثب على الطريق، مسترعياً الانتباه العام، ومثيراً الضحك؛ و لم يندفع جانباً ويتوارى في الحرجة إلا حين انتهرته أصوات عديدة. وبعد أن قطعوا فرسخاً في الغابة، أفضوا إلى فسحة يحتلها فيلق «توتشكوف»[1] الذي عُهد إليه بالدفاع عن الجناح الأيسر.

هنا، في أقصى الجناح الأيسر، تكلم «بينيجسن» طويلاً وبحرارة

١– الجنرال نيكولا توتشكوف (١٧٦١–١٨١٢) كان يقود الفيلق الثالث وقد قُتل في بورودينو، فأقامت أرملته ديراً فيها وصارت هي رئيسة لهذا الدير.

واتخذ تدبيراً بدا لبطرس مهماً من الوجهة العسكرية. ففي مقابل قطعات «توتشكوف» كانت ترتفع ربوة غير محصنة بالجند. ولقد انتقد «بينيجسن» هذا الخطأ بصوت عال، قائلاً: إن من الجنون ترك هذه الأكمة التي تتحكم بالمنطقة دون حماية، وأن توضع القطعات عند سفح الأكمة. وأعرب بعض الجنرالات عن الرأي ذاته. وقال أحدهم خاصة، في شيء من الاندفاع العسكري، إنما يُرسلون هنا إلى المسلخ. وأمر «بينيجسن» بتغيير موقع القطعات وباحتلال الأكمة.

إن هذا التدبير المتخذ في الجناح الأيسر زاد من شكوك بطرس في قدرته على فهم فن الحرب. فحين استمع إلى «بينيجسن» والجنرالات الذين استنكروا وجود القطعات عند سفح الأكمة، فهم عنهم كل الفهم وشاركهم رأيهم، لكنه لم يستطع أن يفهم، بسبب ذلك بالذات، كيف ارتكب الذي وضع هذه القوات في السفح مثل هذا الخطأ الفاحش الصارخ.

كان يجهل أن هذه القوات لم توضع هنا للدفاع عن الموقع، كما ظن «بينيجسن»، بل إنها أُخفيت لتنصب شركاً للعدو، أي لتظل مستورة عن الأعين ولتُباغت العدو وتنقض عليه في سيره. لم يكن «بينيجسن» يعلم ذلك أيضاً، وقد نقلها لاعتبارات خاصة، دون الرجوع إلى القائد العام.

***

الفصل الرابع والعشرون

أثناء هذه الأمسية الصافية، في الخامس والعشرين من آب، كان الأمير آندريه يستريح، متكئاً على مرفقه، في مخزن مخرب من قرية «كنيازكوفو». في طرف الموقع المعين لفوجه. كان يتأمل من فرجة في الجدار، صفاً من أشجار السندر عمرها ثلاثون عاماً، أغصانها منخفضة مقطوعة تحاذي السياج، وحقلاً تناثرت فيه حزم من الشوفان، وحرجة تصاعد منها دخان مطابخ الجنود.

مع أن الحياة كانت تبدو للأمير آندريه ضيقة أشد الضيق. لا غناء فيها. وعبئاً ثقيلاً. إلا أنه أحس، عشية المعركة، أنه متأثر، مهتاج، كما كان قبل سبع سنوات في «أوسترليتس».

لقد تلقى الأوامر بشأن معركة الغد ونقلها، ولم يبق عليه ما يفعله. لكن أشد الأفكار بساطة ووضوحاً وأشدها من ثم إثارة للقلق، لم تدع له وقتاً للراحة. كان يعلم أن هذه المعركة ستكون أفظع المعارك التي خاضها، ولأول مرة تمثل له بحدة إمكان الموت، وكأنه اليقين، بسيطاً، عاتياً، دون علاقة بالحياة اليومية، ودون النظر إلى آثاره الممكنة في الآخرين، وإنما بالنسبة إليه فقط، بالنسبة إلى روحه، ومن أعالي هذه الرؤية استضاء فجأة كل ما عذبه وشغل لبّه حتى الآن بنور أبيض بارد لا ظلال فيه، ولا آفاق له، ولا حواشي واضحة. بدت له حياته كلها

مثل صورة يُلقيها مصباح سحري، صورة تأملها طويلاً على ضوء نور اصطناعي. أما الآن فهو يرى هذه اللوحات الملونة تلويناً فجاً، يراها فجأة دون أن تعترضه عدسة بلورية، على ضوء النهار الساطع. وقال في نفسه وهو يستعرض في خياله واحدة فواحدة الصور الرئيسية لمصباح حياته السحري، ناظراً إليها هذه المرة على ضوء النهار الأبيض البارد، على ضوء فكرة الموت الصافية:

–نعم، نعم، ها هي ذي تلك الرؤى الكاذبة التي هزتني وأثارتني وآلمتني، ها هي ذي تلك الصور التي رُسمت رسماً فجاً والتي بدت لي شيئاً جميلاً محفوفاً بالأسرار. فالمجد، والمصلحة العامة، وحب المرأة، والوطن ذاته، كم بدت لي هذه الصور عظيمة، مليئة بالمعاني العميقة! مع أن ذلك كله شديد البساطة، شديد الشحوب، شديد الفظاظة، على ضوء الصباح الأبيض البارد الذي أحس أنه يشرق عليّ.» واستوقفت انتباهه خاصة هموم حياته الثلاثة الكبرى، حبه تلك المرأة وموت أبيه والغزو الفرنسي الذي استولى على نصف روسيا. «الحب!... تلك الصبية التي بدت لي كأنما تحتوي على قوى خفية. لكم أحببتها! كنت أحلم أحلاماً شعرية بالحب والسعادة معها. –ورفع صوته عالياً بغضب.– «يا للفتى الصغير! ماذا! كنت أؤمن بحب مثالي كفيل بالمحافظة على وفائها لي خلال سنة كاملة من غيابي. كان عليها أن يُضنيها الفراق، كما تروي حكاية الحمامة الرقيقة، ووجدتُ أن ذلك كله أبسط مما قدرت... كل ذلك بسيط بساطة بشعة، كل ذلك كريه!».

وكان أبي يبني أيضاً ركناً في «ليسييه–خوري» ويعتقد أن هذا الركن له، بأرضه وهوائه وفلاحيه؛ لكن نابليون يجيء ويكنسه كعود من القش في طريقه، دون أن يعلم حتى بوجوده، وتنهار «ليسييه–خوري» وتنهار حياته بأسرها. وتزعم ماري أن هذا امتحان مرسل من السماء.

ما جدوى هذا الامتحان بعد أن قضى وإذا كان لن يعود؟ لن يعود أبداً! ولقد قضى! لِمن إذن ذلك الامتحان؟ الوطن، ضياع موسكو! لسوف أُقتل غداً، ولربما قتلني أحد رجالنا، لا الفرنسيون، كهذا الجندي الذي أفرغ بندقيته بالأمس قرب أذني، ثم يأتي الفرنسيون ليحملوني من رأسي وقدمي ويرموا بي في حفرة كي لا أنتن على مرأى منهم، ثم تقوم ظروف حياة جديدة سيراها الآخرون طبيعية، ولن أعرف هؤلاء، ولن أكون على قيد الحياة.

ونظر إلى صف أشجار السندر بأوراقها الساكنة الخضراء والصفراء، وبقشرتها البيضاء التي تلمع في الشمس. «أن أموت، أن أُقتل غداً، ألاّ أكون... أن يكون كل هذا وألاّ أكون.». تمثَّل بشدة غيابه عن هذه الحياة. وإذا بهذه الأشجار التي تتراقص عليها الأضواء والظلال، وإذا بتلك السحب المنفوشة البيضاء، وإذا بدخان المعسكرات، إذا بذلك كله يتحول ويبدو له شيئاً رهيباً، مهدداً. وخرج من المخزن وأخذ يتمشى.

وارتفعت أصوات وراء المخزن فصرخ الأمير آندريه.

– من هذا؟

دخل المخزن على استحياء «تيموخين» النقيب ذو الأنف الأحمر الذي كان قائداً لسرية «دولوخوف» والذي عُين الآن، بسبب نقص الضباط، قائد كتيبة. وكان يتبعه ضابط الخدمة والضابط المحاسب.

نهض الأمير آندريه مستعجلاً، وأصغى إلى تقرير الضابطين، وأنهى إليهما تعليماته الأخيرة، وأوشك أن يصرفهما عندما بلغ مسمعيه، من الخارج، صوت مألوف يُزأزئ، صوت امرئ تعثر في سيره:

– يا للشيطان!

ألقى الأمير «آندريه» نظرة إلى الخارج فرأى بطرس مقبلاً عليه وقد تعثر بخشبة وكاد يسقط. وكان الأمير «آندريه» يكره على العموم أن يرى ناساً من عالمه، وعلى الأخص بطرس الذي يذكره بالساعات المؤلمة التي قضاها في موسكو، أثناء إقامته الأخيرة. قال:

– عجباً! أية مصادفة جاءت بك؟ وكيف أتوقع ذلك!

كان في عينيه، وهو يتكلم، شيء أبعد من الجفاء، شيء من العداء الذي لاحظه بطرس. لقد وصل بطرس يحدوه الاندفاع، لكنه شعر وهو ينظر إلى ما ينطق به وجه الأمير آندريه، بالضيق والحرج، فقال:

– جئت... هكذا... أنت تعلم... جئت... هذا يهمني... أريد أن أرى المعركة.

وكان بطرس قد كرر مرات هذه الكلمة التي لا معنى لها: «هذا يهمني».

وسأله الأمير آندريه ساخراً:

– نعم، نعم، والأخوة الماسونيون، ماذا يقولون عن الحرب.

ثم سأله جاداً:

– حسناً! وما الذي يجري في موسكو؟ وأين أهلي؟ هل وصلوا إلى موسكو، أخيراً؟

– نعم. أنبأتني بذلك «جوليا دروبتسكوي». ذهبت لأراهم لكنني لم أجدهم. كانوا قد سافروا إلى أملاككم في الضاحية.

***

الفصل الخامس والعشرون

أراد الضباط أن ينسحبوا، لكن الأمير آندريه استبقاهم ودعاهم إلى تناول الشاي، وكأنه كان يحرص ألاّ ينفرد بصديقه. وحُملت المقاعد وقُدم الشاي. كان الضباط ينظرون بشيء من الدهشة إلى شخص بطرس الضخم البدين، ويصغون إليه وهو يتحدث عن موسكو وعن مواقع قطعاتنا التي أتيح له أن يطوف بها. وأخلد آندريه إلى الصمت، وكان وجهه جافياً إلى الحد الذي جعل بطرس يخاطب قائد اللواء الطيب «تيموخين» أكثر مما يخاطب «بولكونسكي».

وقاطعه الأمير آندريه:

– وإذن فقد فهمت جيداً ترتيب القطعات؟

فأجاب بطرس:

– نعم، أي بما أنني لست عسكرياً فلا أستطيع القول إنني فهمت فهماً كاملاً، لكنني، على كل حال، أدركت الخطوط الرئيسية.

قال الأمير آندريه:

– أعلم أنك أكثر تقدماً من كل أحد غيرك.

قال بطرس وهو ينظر إليه من خلال نظارتيه، وقد أخذته الحيرة:

- آه!

- وأضاف:

- وما رأيك بتعيين «كوتوزوف»؟

قال الأمير آندريه:

- كنت مسروراً جداً بهذا التعيين، هذا كل ما أعرفه.

- وقل لي: ما رأيك بـ «باركلي دي تولي»؟ فالناس في موسكو يحكون الكثير عنه. ما رأيك أنت به؟

قال الأمير آندريه وهو يشير إلى الضباط:

- اسأل هؤلاء السادة.

نظر بطرس إلى «تيموخين» وهو يبتسم تلك الابتسامة المتنازلة المستفهمة التي يبتسمها الناس جميعاً عفوياً حين يخاطبونه.

قال «تيموخين» بشيء من الخجل وهو دائم النظر إلى عقيده:

- يا صاحب السعادة، إنما رأينا النور عندما تولى القيادة صاحب الرفعة.

فسأله بطرس:

- وكيف ذلك؟

- لنأخذ مثلاً الخشب والعلف. لقد كان محظوراً علينا، أثناء تراجعنا بدءاً من «سوينسياني»، أن نمد أيدينا إلى عود من الحطب أو قبضة من الحشيش أو إلى أي شيء آخر. ومع ذلك فقد كنا نرحل وكان «هو»

الذي يستفيد منها. - وأضاف مخاطباً أميره: أليس كذلك يا صاحب السعادة؟ نعم، كان ذلك ممنوعاً، وحوكم في فوجنا، ضابطان بسبب هذه الأشياء، لكن، عندما وصل صاحب الرفعة، غدا كل شيء بسيطاً، رأينا النور...

- ولم هذا المنع؟.

ألقى «تيموخين» حوله نظرات مرتبكة وهو لا يعلم كيف يجيب عن مثل هذا السؤال. وطرح بطرس السؤال نفسه على الأمير آندريه.

قال الأمير آندريه بلهجة خبيثة ساخرة:

- ذلك لكي لا نخرب البلد الذي نتركه للعدو. وهو شيء مسوغ تماماً: فنحن لا نستطيع أن ندع القطعات تنهب البلد وتتعود السلب. أما في سمولنسك فكان محقاً أيضاً حين فكر أن الفرنسيين قد يلتفون حولنا وأن قواهم كانت متفوقة على قوانا.

وصاح فجأة بصوت حاد كأنما انطلقت بالرغم منه:

-لكنه لم يستطع أن يفهم أننا حاربنا هناك لأول مرة في سبيل الأرض الروسية، وأن الجيش كانت تلهبه روح لم أر مثلها قط، وأننا صددنا الفرنسيين يومين متواليين، وأن هذا النجاح ضاعف قوانا عشر مرات. لقد أمر بالانسحاب، وذهبت أدراج الرياح جهودنا وخسائرنا. لم يكن يفكر في أن يخون، وكان يجهد في أن يفعل كل شيء لينال الأفضل، وكان يزن كل شيء، لكنه من أجل هذا بالذات لم يكن صالحاً لشيء، وهو الآن غير صالح لشيء، لأنه يزن كل شيء بعناية فائقة ودقة مفرطة، كما يجدر بكل ألماني. كيف أقول لك... افترض أن لأبيك خادماً ألمانياً، خادماً ممتازاً يلبي حاجاته خيراً منك ويؤدي واجبه

بملء حريته، لكن ما أن يشرف أبوك على الموت حتى تطرد الخادم، وتُعنى بأبيك بيديك اللتين تنقصهما المهارة والبراعة، وتنفعه أكثر مما ينفعه الرجل الحاذق إذا كان غريباً. كذلك كان الأمر مع «باركلي». فما دامت روسيا سليمة استطاع الأجنبي أن يخدمها وأن يكون وزيراً ممتازاً، لكن ما إن تصبح في خطر حتى تحتاج إلى رجل من عرقها، من دمها. لقد زعم الناس عندكم، في ناديكم، أنه خائن! وستكون النتيجة الوحيدة لذلك أنهم سيخجلون من هذا الافتراء وسينصبون منه بطلاً أو عبقرياً، وهوَ أمر أشد ظلماً من الافتراء. إنه ألماني شريف مفرط الدقة.

قال بطرس:

– يقال مع ذلك: إنه رجل حرب ماهر.

قال الأمير آندريه ساخراً:

– لست أفهم ما تعنيه تلك الكلمة.

قال بطرس:

– رجل الحرب الماهر هو الذي يتنبأ بكل الاحتمالات، ويسبر نوايا العدو.

قال الأمير آندريه وكأنه يتحدث في قضية حسمت منذ زمن بعيد:

– لكن ذلك غير ممكن.

نظر إليه بطرس بدهشة وقال:

–على أنه يُقال: إن الحرب شبيهة بلعبة الشطرنج.

قال الأمير آندريه:

-نعم، ولكن مع هذا الفارق الصغير وهو أنك في لعبة الشطرنج تستطيع أن تفكر ما طاب لك التفكير، وأن عامل الزمن غير موجود، ومع هذا الفرق أيضاً أن خيال الشطرنج أقوى دائماً من البيدق وأن بيدقين أقوى دائماً من بيدق واحد، على حين أن اللواء في الحرب قد يكون أحياناً أقوى من فرقة وقد يكون أحياناً أضعف من سرية. ولا يستطيع أحد أن يعرف قوى الجيوش النسبية. صدقني، لو كانت الأشياء منوطة بأوامر الأركان لكنت هناك ولكنت أصدرت الأوامر، وبدلاً من ذلك تراني أعتز بالخدمة هنا مع هؤلاء السادة، وأقدر أن يوم غد إنما يتوقف علينا لا عليهم... لم يتوقف النجاح قط ولن يتوقف أبداً على الموقع، ولا على التسلح، ولا حتى على العدو، إنه لا يتوقف على الموقع، خاصة.

– وعلى أي شيء يتوقف إذن؟

– على الشعور الذي في نفسي، وفي نفسه – وأشار إلى تيموخين– وفي نفس كل جندي.

وألقى نظرة خاطفة على تيموخين الذي كان ينظر إلى رئيسه نظرة خائفة، حيرى. كان الأمير آندريه قبل قليل صامتاً، متحفظاً، أما الآن فبدا منفعلاً. كان واضحاً أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من التعبير عن الأفكار التي كانت تأتيه فجأة:

-إنما يربح المعركة من صمم بحزم على ربحها. لم خسرناها في «أوسترليتس»؟ كانت خسائرنا مساوية لخسائر الفرنسيين، لكننا عجلنا وقلنا لأنفسنا، قبل الأوان: إننا سنخسرها، فخسرناها. وإذا كنا قلنا ذلك لأنفسنا فلأننا لم يكن لنا شيء نقاتل من أجله؛ كنا نرغب فقط في مغادرة ساحة القتال بأسرع ما يمكن. «لقد خسرنا المعركة، هيا!

فلنهربْ!» وهربنا. ولو صبرنا إلى المساء و لم نقل لأنفسنا ما قلناه، فالله أعلم كيف كانت ستدور الأمور. لكننا لن نقول ذلك غداً. ذكرت موقعنا وأن الجناح الأيسر ضعيف والجناح الأيمن ممطوط، كل ذلك هراء، ولا وزن لشيء من ذلك كله. ما الذي ينتظرنا غداً؟ إن مئات المصادفات المختلفة ستقرر غداً من الذي سينهزم أولاً، نحن أم هم، وأن هذا سيقتل، ثم ذاك. لكن الذي يجري في هذه اللحظة ما هو إلا ألهية. فالذين زرت معهم الموقع لا يسهلون سير العمليات، بل إنهم يعرقلونها. إنهم منهمكون بمصالحهم الشخصية الصغيرة فقط.

قال بطرس بلهجة الملامة:

– في مثل هذه اللحظة؟

فردد الأمير آندريه:

– «في مثل هذه اللحظة»؛ هذه اللحظة، عندهم، هي اللحظة التي يستطيعون أن ينسفوا فيها مركز أحد خصومهم وأن ينالوا وساماً أو وشاحاً آخر. وإليك، برأيي، الوضع غداً: هناك جيشان يلتقيان للقتال، جيش روسي من مئة ألف رجل، وجيش فرنسي من مئة ألف رجل، المهم أن هذين الجيشين سيقتتلان وسوف ينتصر الجيش الذي يقاتل أشرس قتال ويراعي نفسه أدنى مراعاة. أتريد أن أخبرك: أننا سنربح معركة الغد، مهما يحدث، ومهما ترتكت فوق من حماقات. سنربح المعركة غداً، مهما يحدث.

قال تيموخين:

– هذه هي الحقيقة، يا صاحب السعادة، هذه هي الحقيقة الخالصة. ولَمَ يراعي المرء نفسه الآن؟ أتصدقون أن جنود لوائي رفضوا تناول الفودكا، وقالوا: ليس هذا أوان الفودكا.

ساد الصمت...

ونهض الضباط. فصحبهم الأمير آندريه إلى خارج المخزن وزود ضابط الخدمة بآخر تعليماته. فلما انصرفوا، دنا منه بطرس، و لم يكد يستأنف الحديث حتى تناهى إليهما وقع حوافر جياد ثلاثة على الطريق، غير بعيد عن المخزن، فالتفت آندريه إلى تلك الجهة وإذا «ولزوجين» و«كلوزويتز» يرافقهما قوزاقي. مرّا على مقربة وهما يتحدثان[1] حتى أن بطرس وآندريه سمعا الجمل التالية، قال أحدهم:

– يجب أن تتسع رقعة الحرب. لا أستطيع أن أولي هذا الرأي من الأهمية أكثر مما يستحق.

قال الصوت الآخر:

– طبعاً، وبما أن هدف الحرب إضعاف العدو فنحن لا نستطيع أن نحسب حساباً لخسائر الأفراد.

فأيّده الصوت الآخر:

– طبعاً...

وبعد أن مروا ردد الأمير آندريه وهو ينخر بغضب:

– «يجب أن تتسع رقعة الحرب». إن أبي وابني وأختي ظلوا في «ليسييه–خوري». وهما لا يكترثان لذلك. هذا هو بالذات ما كنت أقوله لك: إن هؤلاء السادة الألمان لن يربحوا المعركة غداً، بل إنهم سيفسدون كل ما في مقدورهم أن يفسدوه، لأنه ليس في رأسهم الألماني سوى المحاكمات التي لا تساوي شيئاً، وليس في قلبهم ما يلزم

١– إنهما يتحدثان بالألمانية.

ليوم غد، ليس في قلبهم ما في قلب «تيموخين». لقد تركوا «له» أوروبا بأسرها وجاؤوا يلقون علينا دروساً.

وختم كلامه بصوت حاد:

– ما أروعهم معلمين!

قال بطرس:

– وهكذا، فأنت تعتقد أننا سنربح معركة الغد؟.

فرد عليه الأمير آندريه بشرود:

– نعم، نعم. هناك شيء واحد، لو كان الأمر بيدي لما أسرتُ الأسرى. ما الأسرى؟ إنهم الخيالة. والخيالة الفرنسيون دمروا بيتي وأرادوا تدمير موسكو، أهانوني ومازالوا يهينونني. هم أعدائي، وهم مجرمون، برأيي. وهو رأي «تيموخين» والجيش بأسره. يجب أن يلقوا عقابهم. هم أعدائي، ولا يمكن أن يكونوا أصدقائي، بالرغم من محادثات «تلسيت».

قال بطرس، وهو ينظر إليه بعينين ملتمعتين:

– نعم، نعم، أنا موافق، تماماً!

وبدت له المشكلة التي عذبته منذ منحدر «موجايسك» وطوال النهار، واضحة وضوحاً كاملاً، الآن، محلولة حلاً تاماً.

فهم الآن معنى هذه الحرب وأدرك شأنها، كما فهم معنى المعركة المقبلة وأدرك شأنها. لقد استضاء كل ما رآه أثناء النهار، كل تلك الوجوه العابسة الرصينة التي شاهدها في طريقه، بنور جديد، في عينيه. أدرك تلك الحرارة الكامنة، كما يقال في الفيزياء، حرارة الوطنية الكامنة في

هؤلاء الرجال الذين رآهم، والتي أوضحت له لَمَ كان هؤلاء الرجال يستعدون للموت رابطي الجأش، غير مبالين بشيء.

تابع الأمير آندريه كلامه قائلاً:

– إن الامتناع عن أسر الأسرى كفيل بتغيير الحرب وجعلها أقل قسوة. نحن نلعب لعبة الحرب، وتلك هي المصيبة، إننا نتظاهر بالكرم. وهذا الكرم وتلك الحساسية الزائفة يشبهان كرم امرأة لا تقوى على رؤية العجل وهو يذبح وحساسيتها، ولا تطيق مرأى الدم بسبب رقة قلبها، لكنها تأكل بشهية لحم هذا العجل المعد بالمرق. يحدثوننا عن قوانين الحرب، عن روح الفروسية واحترام المفاوضين وواجب العفو عن البائسين، وغير ذلك. هراء كل ذلك. رأيت، في سنة ١٨٠٥، روح الفروسية واحترام المفاوضين! لقد خُدعنا وخَدعنا. إنهم ينهبون بيوت الآخرين، ويضعون في التداول أوراقاً نقدية زائفة، وأسوأ من ذلك كله أنهم يقتلون أولادي وأبي، ثم يأتي من يحدثني عن قوانين الحرب والكرم إزاء العدو! يجب ألا نأسر الأسرى بل يجب أن نقتلهم ونمشي إلى الموت! ومن توصل إلى هذا الحد مثلي، ماراً بنفس الآلام...

توقف الأمير آندريه فجأة بفعل تشنج مباغت شد على حنجرته، وكان يريد أن يقول: أنه لا يبالي الآن احتلت موسكو أم لم تحتل كما احتلت «سمولنسك» من قبل. خطا بضع خطوات بصمت، وكانت عيناه تلتمعان ببريق محموم وشفته ترتجف عندما استأنف كلامه:

–ولولا هذا الكرم الزائف في الحرب لما مشينا إلا إذا لزم أن نمضي إلى موت محقق، كما هي الحال اليوم. لن يكون آنذاك حرب بحجة أن «بول ايفانوفتش» أهان «ميشيل ايفانوفتش». وإذا ما نشبت حرب كحرب اليوم، فإنها ستكون حرباً حقيقية. وحينذاك لن تكون أهمية

القطعات كأهميتها اليوم، ولن يتاح لهؤلاء «الويستفاليين» و«الهسيين» الذين يسوقهم نابليون أن يتبعوه إلى روسيا، ولن يكون علينا أن نذهب ونقاتل في النمسا وبروسيا دون أن نعرف لماذا. ليست الحرب تأنقاً وظرفاً، لكنها أحقر ما في الحياة، ينبغي أن ندرك ذلك، وألاّ نجعل منها لعبة. يجب أن نقبل هذه الضرورة الرهيبة برصانة وجد. كل شيء يكمن هاهنا: نبذ الكذب؛ والحرب هي الحرب وليست لعبة. وإلاّ فهي التسلية المفضلة لدى العاطلين والتافهين... إن فئة العسكريين تُعتبر الفئة المبجلة فوق غيرها من الفئات. فما الحرب؟ وماذا يلزم المرء لينجح في مهنة السلاح؟ وما أخلاق الفئة العسكرية؟ إن هدف الحرب هو القتل، ووسائل الحرب هي التجسس، والخيانة والتشجيع على الخيانة، ودمار الأهلين بالنهب أو السرقة لتموين الجيش، والغش والكذب اللذان يسميان خدعتين من خدع الحرب. وأخلاق الفئة العسكرية هي إلغاء الحرية، أي الانضباط والفراغ والجهل والوحشية والتهتك والسكر. ومع ذلك فإنها فئة أعلى من غيرها، والجميع يكرمونها. كل الملوك، ما عدا امبراطور الصين، يرتدون الزي العسكري، ومن قتل أكبر عدد من الناس نال أعلى المكافآت... الناس يتقابلون، كما ستكون الحال غداً، ليقتل بعضهم بعضاً، فيقتل ويشوه عشرات آلاف الناس، ثم تقام صلوات الشكر لقتل هذا العدد من الناس (وهو عدد يُضخَّم أيضاً)، ويُعْلن النصر، وهو نصر يزداد فضلاً ورفعة كلما ازداد عدد القتلى فيه.

ثم هتف الأمير آندريه بصوت نحيف صارخ:

– كيف يستطيع الله أن ينظر إليهم من عليائه وأن يصغي إليهم! آه! يا عزيزي، الحياة، منذ بعض الوقت، عبء علي. وأرى أنني أدركت الآن أكثر مما ينبغي من الأشياء. ينبغي للإنسان ألا يذوق شجرة الخير والشر...

وأضاف:

– لكن ذلك لن يدوم طويلاً.

وقال فجأة:

– لكنك تنام وأنت واقف، وقد حان الوقت لأنام أنا أيضاً. فعُد إلى غوركي.

قال بطرس وهو ينظر إليه بعينين مروّعتين مليئتين بالود:

– أوه، كلا!

وكرر الأمير آندريه:

– امض، امض، على المرء أن ينام جيداً، عشية المعركة.

واقترب بشدة من بطرس وأمسكه بيد ذراعيه وعانقه وهو يصرخ:

– الوداع، انصرف، هل نلتقي بعد الآن...

وانثنى بشدة ورجع إلى المخزن.

كان الظلام مخيماً ولم يستطع بطرس أن يتبين وجه صديقه إن كان فظاً أم رقيقاً.

ظل بطرس في مكانه بضع لحظات صامتاً، وتساءل إن كان ينبغي له أن يتبعه أو أن ينصرف. ثم قرر: «كلا، إنه ليس بحاجة إليَّ! وأنا أعلم أن هذا هو لقاؤنا الأخير».

وصعَّد زفرة عميقة وعاد إلى «غوركي».

ما إن عاد الأمير آندريه إلى المخزن حتى استلقى على سجادة، لكنه لم يستطع النوم.

أغمض عينيه فتتالت الصور عليه. ووقف بفرح وقفة طويلة عند واحدة منها. رأى بقوة سهرة في بطرسبرج. كانت «ناتاشا» تروي له، وقد بدا على وجهها التأثر والحيوية، كيف أنها ضلت طريقها في غابة كبيرة كانت تبحث عن الفطور فيها. وكانت تصف له من غير نظام، وحشة الغابة، وإحساساتها، وحديثها مع أحد مربي النحل وقد صادفته في طريقها، متوقفة عن الكلام في كل لحظة لتقول: «كلا، لا أستطيع، لا أحسن الرواية، لا، لن تفهمني»، مع أن الأمير آندريه طمأنها قائلاً: إنه كان يفهمها، والواقع أنه كان يفهم كل ما كانت تريد أن تقوله. كانت ناتاشا غير راضية عن قصتها وكانت تحس أنها عاجزة عن نقل ذلك الانفعال الشعري الذي أحست به في ذلك اليوم والذي تمنت لو تعبر عنه. كانت تقول، وهي متضرجة الوجه، منفعلة: «كان رائعاً ذلك الشيخ، وكانت العتمة مطبقة على الغابة... وكان فيها الكثير... كلا، إني لا أحسن الرواية». ابتسم الأمير آندريه الآن ابتسامته السعيدة آنذاك حين نظر إليها في عينيها. وقال في نفسه: «كنت أفهمها، لم أكن أفهمها فحسب، بل كنت أحب فيها حباً عاتياً سعيداً هذه الروح القوية، ذلك الصدق، هذه الروح المنفتحة، هذه الروح التي كانت تبدو حبيسة جسدها....» وفجأة تذكر كيف انتهى حبه لها. «لم يكن ذلك الرجل بحاجة إلى شيء من هذا كله، لم يكن يرى و لم يكن يفهم شيئاً منه... لم يكن يرى فيها غير فتاة جميلة «غضة»، أبى أن يربط مصيره بمصيرها. أما أنا؟.... ومايزال حياً، سعيداً».

وثب الأمير آندريه على قدميه، وكأنما لذعته النار، وراح يتمشى أمام مخزن الحبوب.

***

الفصل السادس والعشرون

في الخامس والعشرين من آب، عشية معركة «بورودينو»، وصل إلى معسكر نابليون في «فالويفو» السيد «دي بوسيه»[1] محافظ قصر امبراطور فرنسا، والعقيد «فابييه»، الأول من باريس، والثاني من مدريد.

وبعد أن ارتدى السيد «دي بوسيه» بزة البلاط حمَّل أحد الخدم أمامه سفطاً أحضره للإمبراطور ودخل المقصورة الأولى من خيمة نابليون حيث عمد إلى فك السفط وهو يتحدث مع المساعدين العسكريين.

وقف «فابييه»[2] عند مدخل الخيمة يحادث بعض الجنرالات الذين يعرفهم.

لم يكن الإمبراطور نابليون قد خرج بعد من حجرة نومه حيث كان يُنهي زينته. كان يمد، وهو ينتفض ويترنم سروراً، ظهره العريض حيناً، وصدره السمين الكثير الشعر حيناً آخر، للفرشاة التي كان يدلك بها أحد الخدام جسده. وراح خادم آخر يرش جسد الإمبراطور المدلوك

١- محافظ قصر نابليون.

٢- العقيد شارل نيكولا فابييه (١٧٨٢-١٨٥٥). أصبح جنرالاً فيما بعد وتميز في حرب الاستقلال اليونانية.

بماء الكولونيا من زجاجة سدها بأصبعه، ووجهه يقول: إنه وحده قادر على معرفة الكمية التي يجب أن يسكبها والموضع الذي يجب أن تُسكب فيه. وكان شعر نابليون القصير مبللاً ومشعثاً على جبينه. لكن وجهه كان يعكس الهناء والراحة رغم صفرته وانتفاخه. وكان يقول لخادمه الذي يدلكه وهو يكوّر ظهره: «هيا، شدَّ يدك، استمر». وقرب الباب وقف مساعد عسكري دخل على الإمبراطور وأعلمه بعدد الأسرى في معركة الأمس. حتى إذا انتهى من مهمته انتظر الإذن بالانصراف. فحدجه نابليون بنظرة وهو يكشّر، وقال مردداً كلمات المساعد العسكري:

- لا أسرى، إنهم يقتلون أنفسهم. لا بأس، فالجيش الروسي هو الذي يخسرهم.

وقال لخادمه، وهو يكور ظهره ويعرض كتفيه السمينتين:

- هيا، شد يدك.

وقال للمساعد العسكري وهو يصرفه بإيماءة من رأسه:

- حسناً! أدخل السيد «دي بوسيه» و«فابييه».

- نعم، يا صاحب الجلالة.

وتوارى المساعد العسكري.

ألبسه الخادمان برشاقة وخفة بزة الحرس الزرقاء، ومضى إلى غرفة الاستقبال بخطى ثابتة سريعة.

كان «بوسيه» في هذه اللحظة يضع بسرعة على كرسيين هدية الإمبراطورة التي حملها معه، قبالة الباب الذي سيدخل منه الإمبراطور.

لكن الإمبراطور الذي ارتدى ثيابه على عجل دخل على حين غرة قبل أن ينتهي «دي بوسيه» من إعداد مفاجأته.

لاحظ نابليون على الفور ما كان يفعله، وقدر أن «بوسيه» لم يتم إعداد مفاجأته، و لم يشأ أن يحرمه هذه المتعة، فتظاهر بأنه لم يره، وأشار إلى «فابييه» بالاقتراب. وأصغى، وهو مقطب الحاجبين ودون أن ينبس بكلمة، إلى ما كان يقوله عن بسالة جنده وإخلاص هؤلاء الجند الذين قاتلوا في «سالامانك»، في الطرف الآخر من أوروبا، والذين لم يكن لهم من هم سوى أن يكونوا جديرين بامبراطورهم، و لم يكونوا يخشون إلا شيئاً واحداً هو ألا يبلغوا رضاه. وكانت نتيجة المعركة فاجعة. أبدى نابليون بعض الملاحظات الساخرة أثناء تقرير «فابييه»، وكأنه يريد أن يلمح إلى أنه لم يكن يتوقع أن تجري الأشياء في غيابه على نحو آخر. فقال:

– ينبغي أن أتدارك ذلك في موسكو. إلى اللقاء، قريباً.

واستدعى بإشارة «بوسيه» الذي استطاع، في أثناء ذلك، أن يعد المفاجأة، وذلك بأن وضع على كرسيين شيئاً مغطى بستار.

حياه «دي بوسيه» تحية عميقة على الطريقة الفرنسية، وهي طريقة لا يحسنها إلا خدم «آل بوربون» المحنكون، واقترب منه ماداً له مغلفاً. استقبله نابليون ببشاشة وشد أذنه شداً خفيفاً. وقال مستبدلاً بلهجته القاسية لهجة لطيفة أشد اللطف:

– لقد أسرعت، وأنا سعيد بذلك. حسناً! ماذا يقول الناس في باريس.

أجاب السيد «دي بوسيه» الجواب اللائق:

- إن باريس كلها، يا مولاي، تأسف لغيابكم.

ومع أن نابليون كان يعلم أن «بوسيه» سيجيب بهذا الجواب أو بجواب شبيه به، ومع أنه كان يعلم، في لحظات صفائه الذهني، أن هذا غير صحيح، إلا أنه سر بما قاله «بوسيه». وكرمه مرة أخرى بقرصه أذنه. وقال له:

- يشق علي أن أجشمك عناء هذا الطريق الطويل.

قال «بوسيه»:

- مولاي! ما كنت أتوقع إلا أن أراك على أبواب موسكو.

ابتسم نابليون ورفع رأسه ساهماً وألقى نظرة إلى يمينه. فاقترب منه المساعد العسكري بخطى منسابة ومعه مسعطة مذهبة ناوله إياها، فأخذها نابليون.

قال الإمبراطور وهو يدني من أنفه المسعطة المفتوحة:

- نعم، إن حظك لحسن، أنت المولع بالسفر. فسوف ترى موسكو في غضون ثلاثة أيام. ولا ريب أنك لم تكن تتوقع رؤية العاصمة الآسيوية. وهكذا ستكون رحلتك لطيفة.

انحنى «بوسيه» شاكراً هذه الالتفاتة إلى ولعه بالأسفار وهو ولع لا علم له به حتى الآن.

قال نابليون وهو يرى أن جميع عيون الحاشية شاخصة إلى الشيء المغطى بستار:

- آه! ما هذا؟

وبلباقة رجل الحاشية المجرب، تراجع «بوسيه» خطوتين إلى الوراء، من غير أن يدير ظهره للإمبراطور، وفي الوقت نفسه رفع الستار وهو يقول:

- هدية لجلالتكم من قبل الإمبراطورة.

كانت الهدية صورة رسمها «جيرار»[1] بالألوان الزاهية للصبي الصغير المولود من نابليون ومن ابنة امبراطور النمسا، والذي يسميه الجميع، من غير سبب معلوم، ملك روما.

كان ذلك الصبي الجميل بشعره الجعد، وبنظرته التي تذكر بنظرة الطفل يسوع في عذراء «سيكستين» مرسوماً وهو يلعب بكرة القرن. وكانت الكرة تمثل الكرة الأرضية، وقضيب الكرة يمثل صولجان الملك.

ومع أن ما أراد الفنان أن يعبر عنه بالضبط حين مثل ملك روما بثقب الكرة الأرضية بعصا دقيقة، لم يكن واضحاً كل الوضوح، فإن الرمز بدا واضحاً في عين نابوليون وأعجبه كثيراً، كما بدا واضحاً في أعين الذين رأوا اللوحة في باريس وكما أعجبهم جميعاً.

قال وهو يشير إلى الصورة بحركة رشيقة من يده:

- ملك روما، رائع!

وبتلك الموهبة الخاصة بالإيطاليين الذين يستطيعون أن يغيروا تعابير وجوههم متى شاؤوا، اقترب نابليون من الصورة واصطنع مظهر الحنان والتفكر. كان يحس أن ما يقوله أو يفعله سيغدو ملكاً للتاريخ. وخيل إليه أن أفضل ما يفعله في هذه اللحظة هو أن يظهر حنانه الأبوي في أبسط

١- فرانسوا جيرار (١٧٧٠-١٨٣٧) رسام ومصور شخصيات شهير، صانع لوحة «معركة اوسترليتس» (١٨١٠) التي أكسبته لقب بارون.

أشكاله، وهو حنان يتعارض وتلك العظمة التي بفضلها استطاع ابنه أن يتلاعب بالكرة الأرضية على عصاه الدقيقة. تغشت عيناه بغشاوة، وخطا خطوة، وبحث بنظره عن كرسي وراءه (فطارت الكرسي نحوه) وجلس مقابل الصورة. وأشار بيده فإذا بالجميع ينسحبون على أطراف أصابعهم تاركين الرجل العظيم لنفسه ولعواطفه.

ظل لحظة هكذا، ثم مر بيده آلياً على خشونة بريقها. ونهض واستدعى «بوسيه» وضابط الخدمة. وأمر بوضع الصورة أمام الخيمة كي لا يحرم الحرس القديم أن يسعدوا برؤية ملك روما ابن امبراطورهم المعبود ووارثه.

ولم يخب ظنه، ففي أثناء الغداء الذي كرم «بوسيه» به، دوت الهتافات الحماسية التي أطلقها، أمام الخيمة، ضباط الحرس القديم وجنوده بعد أن تراكضوا لرؤية الصورة:

– عاش الإمبراطور! عاش ملك روما! عاش الإمبراطور!

وبعد الغداء أملى نابليون، بحضور «بورسيه»، أمره اليومي للجيش.

وبعد أن قرأ البيان الذي كتب دفعة واحدة دون أي شطب قال:

– إنه قصير وقوي!

وهذا نص البيان: «أيها الجنود! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها. النصر منذ الآن منوط بكم، وهو ضروري لنا؛ إنه يهبنا الرخاء والمراكز الشتوية المريحة والعودة السريعة إلى الوطن؛ تصرفوا كما تصرفتم في «أوسترليتس» و«فريدلاند» و«فيتبسك» و«سمولنسك»، ولتذكر الأجيال الآتية سلوككم في هذا اليوم. وليقل الناس عنكم: لقد كانوا في المعركة الكبرى، عند جدران موسكو».

وكرر نابليون:

– جدران «موسكفا»!

ودعا السيد «دي بوسيه» الذي يحب السفر، إلى أن يرافقه في نزهته، وخرج من خيمته نحو الخيل المسرجة.

قال «بوسيه» رداً على دعوته، وكان ينعس، ولم يكن يحسن ركوب الخيل بل كان يخافه:

– لقد غمرتموني، يا صاحب الجلالة، بعطفكم.

لكن نابليون أومأ برأسه إلى الرحّالة فاضطر «بوسيه» إلى اللحاق به. وعندما برز نابليون تضاعفت هتافات جنود الحرس أمام صورة ابنه. فقطب حاجبيه وقال وهو يشير إلى الصورة بحركة مليئة بالجلالة والرشاقة:

– ارفعوها. فما يزال أصغر من أن يرى ساحة القتال.

أغمض «بوسيه» عينيه، وحنى رأسه وأطلق زفرة عميقة، مظهراً بذلك أنه يقدر كلمات الإمبراطور حق قدرها ويفهمها أحسن فهم.

***

الفصل السابع والعشرون

يقول مؤرخو نابليون: إنه قضى نهار الخامس والعشرين من آب على جواده، يتفقد الأرض، ويناقش الخطط التي يعرضها عليه مارشالاته، ويصدر بنفسه الأوامر إلى جنرالاته.

كان خط الروس الأول، على طول الكولوتشا، مقطوعاً، وقد سحب إلى الوراء جزء من هذا الخط، أي الجناح الأيسر، على أثر احتلال الفرنسيين لمعقل «شيفاردينو» في الرابع والعشرين. و لم يكن هذا الجزء من الخط محصناً ولا محمياً بالنهر، وأمامه وحده كانت الأرض مكشوفة، مستوية. وكان واضحاً لكل إنسان، عسكرياً كان أم لا، أن هذا الجزء من الخط هو الذي سيهاجمه الفرنسيون. لم يكن ذلك بحاجة إلى كثير من التفكير، على ما يبدو، و لم يكن بحاجة إلى مثل تلك العناية والروحات والجيئات من الإمبراطور ومارشالاته، ولا إلى تلك الموهبة الرفيعة الخاصة التي تسمى العبقرية والتي يحب الناس أن ينسبوها إلى نابليون؛ لكن المؤرخين الذين رووا الحادث، فيما بعد، والناس الذين كانوا يحيطون به آنذاك، ونابليون نفسه، كانوا يفكرون على نحو آخر.

كان نابليون يطوف بالأرض، ويتفحص ما حولها بنظره العميق التأمل، ويهز رأسه موافقاً أو متحرزاً، ولا يطلع الجنرالات الذين يحيطون به على الاعتبارات العميقة التي تحكم قراراته، ولا يبلغهم

إلا النتائج النهائية على شكل أوامر. فعندما اقترح «دافو» الذي كان يسمى أمير «ديكموهل»، الالتفاف حول الجناح الأيسر الروسي، قال له نابليون: إنه يجب أن يفعل هذا، دون أن يبين لماذا. وبالمقابل، لما اقترح الجنرال «كومبان» (الذي كان عليه مهاجمة التحصينات الروسية) تمرير فرقته من الغابة، وافق نابليون، مع أن دوق «دلشنجن» المزعوم، أي المارشال «ناي»[1] أجاز لنفسه أن يلفت انتباهه إلى أن التحرك عبر الغابة محفوف بالمخاطر وقد يشتت الفرقة.

بعد أن فحص نابليون الأرض قبالة معقل «شيفاردينو»، فكر بصمت لحظة طويلة وعين النقاط التي يجب أن تنصب فيها ليوم غد، بطاريتان مخصصتان لضرب التحصينات الروسية، والنقاط التي يجب أن تربض فيها بطاريات الميدان.

بعد أن أصدر هذه الأوامر وغيرها، رجع إلى مقره العام وأملى ترتيب المعركة.

إن هذا الترتيب الذي يتحدث عنه المؤرخون الفرنسيون بحماسة، ويتحدث عنه المؤرخون الآخرون باحترام عميق، قد صيغ على النحو التالي:

«في مطلع الفجر تبدأ بطاريتان جديدتان تقامان في الليل على هضبة الأمير «ديكموهل» بإطلاق نارهما على البطاريتين العدوتين المقابلتين».

١- المارشال ميشيل ناي (١٧٦٩-١٨١٥) «باسل البواسل». منح لقب دوق بعد أن هزم النمساويين قرب قرية دلشنجن. ومنح لقب أمير الموسكوفا بعد معركة بورودينو. منحه لويس الثامن عشر لقب أمير فرنسا. ثم انحاز إلى نابليون أثناء الأيام المئة وأعدم عند عودة الملكية الثانية.

«وفي اللحظة نفسها يبدأ الجنرال «بيرنيتي»، آمر مدفعية الوحدة الأولى، بإطلاق النار وسحق البطارية العدوة بالقذائف، من ثلاثين مدفعاً في فرقة «كومبان» ومن كل المدافع في فرقتي «ديسيكس» و«فريان» التي تتقدم إلى الأمام. ويكون مجموع ما لديه ضد البطارية العدوة:

٢٤ قطعة من الحرس

٣٠ من فرقة «كومبان»

٨ من فرقتي «ديسيكس» و«فريان»

المجموع ٦٢ قطعة.

«يتمركز الجنرال «فوشيه» قائد مدفعية الوحدة الثالثة بكل مدافع الوحدتين الثالثة والثامنة، وعددها ستة عشر، حول المدفعية التي تدك المعقل الأيسر، ويكون المجموع أربعين مدفعاً ضد هذه البطارية.

«يكون الجنرال «سورييه» مستعداً، عند أول أمر، للانفصال عن الحرس بكل المدافع ليتقدم إلى هذا المعقل أو ذاك.

«يتقدم الأمير «بونياتوسكي»[١]، أثناء القصف المدفعي، إلى القرية عبر الغابة ويلتف حول الموقع المعادي. ويسير الجنرال «كومبان» بحذاء الغابة للاستيلاء على أول معقل.

بعد أن ينشب القتال على هذا النحو، تعطى الأوامر تبعاً لتدابير العدو.

١- بونياتوسكي: الأمير جوزيف بانياتوسكي (١٧٦٢-١٨١٣) ابن أخر آخر ملوك بولونيا، جنرال لامع كان يقود فرقة من الخيالة البولونيين في الجيش الأعظم. غرق في نهر الأيلب أثناء انسحاب ليزيغ.

«يبدأ القصف على الجناح الأيسر منذ أن يسمع قصف الجناح الأيمن».

«ويبدأ رمي القناصة الشديد من فرقة «موران» وفرق نائب الملك حالما يرون أن هجوم اليمين بدأ. يستولي نائب الملك على القرية[1]، وينفذ إلى المرتفع عن طريق جسورها الثلاثة، في الوقت الذي يمضي فيه الجنرالان «موران» و«جيرار»[2] بإمرة نائب الملك إلى احتلال معقل العدو وإلى تشكيل خط الجيش».

«ينفذ ذلك كله بنظام ومنهج مع مراعاة الاحتفاظ دائماً بقدر كبير من الاحتياطي».

«المعسكر، على ميلين وراء «موجابيسك»، ٦ أيلول ١٨١٢».

يحتوي هذا الترتيب الذي صيغ على نحو غامض، مشوش، إذا جاز لنا أن ننظر إلى أوامر نابليون بدون ذلك الرعب المقدس أمام عبقريته، على أربعة تدابير. و لم ينفذ أي من هذه التدابير، ولا يمكن تنفيذ أي منها.

إنه ينص أولاً على «أن البطاريات المقامة في النقاط التي اختارها نابليون، وكذلك قطع «برنيتي» و«فوشيه» التي ستنضم إليها، أي ما مجموعه مئة وقطعتان، ستفتح النار وستمطر التحصينات والمعاقل الروسية بالقذائف». ولا يمكن لذلك أن يتم لأن القذائف لا تستطيع أن تصل إلى التحصينات الروسية من النقاط التي عيّنها نابليون، أي أن هذه القطع أطلقت نارها هدراً حتى عمد أقرب القادة إلى تقديمها، خلافاً لأوامر نابليون.

---

١ – بورودينو.

٢ – ايتيين جيرار (١٧٧٣–١٨٥٢) جنرال فرقة سنة ١٨١٢، كان يقود مؤخرة فيلق دافو أثناء الانسحاب، أصبح مارشالاً فيما بعد.

وينص التدبير الثاني على أن «بونياتوسكي» يلتف على الجناح «الأيسر للروس، وهو يتجه إلى القرية عبر الغابة». و لم ينفذ هذا التدبير ولا يمكن أن يُنفّذ لأن «بونياتوسكي» عندما اتجه إلى القرية عبر الغابة لقي «توتشكوف» يسد عليه الطريق، و لم يلتف، و لم يستطع أن يلتف، على الموقع الروسي.

التدبير الثالث: «يسير الجنرال «كومبان» بحذاء الغابة للاستيلاء على أول موقع دفاعي روسي». و لم تستول فرقة «كومبان» على هذا الموقع الدفاعي لكنها رُدّت على أعقابها، لأنه اضطر عند خروجه من الغابة إلى إعادة تشكيل قواته تحت وابل من النيران، وهو أمر لم يدر بخلد نابليون.

النقطة الرابعة: «يحتل نائب الملك قرية «بورودينو» وينفذ من جسورها الثلاثة إلى المرتفع في نفس الوقت الذي تبلغه فرقتا «موران» و«فريان» (اللذين لم يذكرا الترتيب متى وأين يتحركا) وتزحفان تحت قيادته للاستيلاء على المعقل وتشكيل خط الجيش».

والـذي يمكن أن نفهمه - لا من هـذا النص الغامض، بل من المحاولات التي حاولها نائب الملك لتنفيذ الأوامر الصادرة إليه - أنه كان عليه أن يزحف على المعقل من اليسار بعد عبور «بورودينو، بينما كان ينبغي لفرقتي «موران» و«فريان» أن تهاجما هجوماً جبهياً.

و لم يُنفّذ شيء من ذلك، كما لم تنفذ بقية نقاط الترتيب القتالي، ولا يمكن تنفيذ شيء منه. فبعد أن اجتاز نائب الملك «بورودينو» صُد إلى الكولوتشا و لم يستطع أن يتقدم بعد ذلك، بينما لم تحتل فرقتا «موران» و«فريان» المعقل وإنما دُحرتا، و لم يتم الاستيلاء عليه إلا في نهاية المعركة على أيدي الخيالة (وهو شيء لا يُصدّق، ومن المؤكد أن

نابليون لم يتوقعه). وهكذا فإن تعليمات هذا التدبير لم تُنفّذ و لم يكن ممكناً تنفيذها. ولقد ذكر في هذا الترتيب أن المعركة ما إن تنشب، حتى تصدر الأوامر تبعاً لتحركات العدو، وذلك يعني أن نابليون سيتخذ أثناء المعركة كل التدابير الضرورية، و لم يحدث شيء من هذا و لم يكن ذلك ممكناً، لأن نابليون كان بعيداً عن المعركة (كما ثبت ذلك فيما بعد) إلى الحد الذي لا يتيح له الاطلاع على سير العمليات والذي لا يمكن فيه تنفيذ أي من أوامره الصادرة أثناء المعركة.

***

الفصل الثامن والعشرون

يقول كثير من المؤرخين: أن الفرنسيين لم يربحوا معركة «بورودينو» لأن نابليون أصيب بزكام، وأنه لو لم يُصَب بزكام لكانت تدابيره أثناء المعركة وقبلها أحفل بالعبقرية، ولانهارت روسيا ولتغير وجه العالم. وبالنسبة إلى المؤرخين الذين يعتقدون أن روسيا تكوّنت بمشيئة رجل واحد، هو بطرس الأكبر، وأن فرنسا تحوّلت من جمهورية إلى امبراطورية وأن الجيوش الفرنسية سارت إلى روسيا بمشيئة رجل واحد، هو نابليون، تغدو المحاكمة التي تقول: أن روسيا ظلّت قوية لأن نابليون أصيب بزكام قوي، محاكمة منطقية لا سبيل إلى الطعن عليها.

وإذا كان يتوقف على مشيئة نابليون أن يخوض أو لا يخوض معركة بورودينو، وإذا كان يتوقف على مشيئته أن يتخذ هذا التدبير أو ذاك، فمن البديهي أن زكاماً قوياً يؤثر في مظاهر مشيئته قد يكون سبباً في خلاص روسيا، وبالتالي فإن الخادم الذي نسي أن يقدم إلى نابليون، في ٢٤ آب، حذاءه الواقي كان منقذ روسيا. هذه النتيجة لا مراء فيها، في هذا النمط من المحاكمة، كما أنه لا مراء في النتيجة التي توصّل إليها فولتير مازحاً (دون أن يعلم هو نفسه ممن كان يسخر) حين قال:

إن سبب مذبحة «سان بريتليمي» عسر هضم أصاب شارل التاسع. ولكن بالنسبة إلى الذين لا يُسلّمون أن تكون روسيا قد

تكونت بمشيئة رجل واحد، هو بطرس الأول، وأن تكون فرنسا قد تكونت وأن تكون الحرب قد شُنّتْ بمشيئة رجل واحد، هو نابليون، بالنسبة إلى هؤلاء لا تبدو تلك المحاكمة عارية من الصحة والمنطق فحسب، بل إنها تبدو أيضاً منافية للطبيعة البشرية. ورداً على السؤال الذي يطمح إلى معرفة سبب الأحداث التاريخية، هناك جواب آخر يعرض لنا: وهو أن سير الأحداث في هذا العالم مقرر سلفاً من فوق، وأنه منوط بتضافر جميع إرادات البشر الذي يشاركون في تلك الأحداث وأن تأثير نابليون في سير هذه الأحداث ليس سوى تأثير خارجي ظاهري.

ومهما يبدو غريباً لأول وهلة زعُمنا أن مذبحة «سان برتيليمي» التي أمر بها شارل التاسع لم تكن من فعل مشيئته، وإنما كان يعتقد فقط أنه أمر بها، وأن مذبحة «بورودينو» التي قتل فيها ثمانون ألف رجل لم تكن من فعل مشيئة نابليون (مع أنه هو الذي أصدر الأوامر لشنّ المعركة وسيرها)، وإنما كان يعتقد فقط أنه أمر بها، مهما تبدو هذه الفرضية غريبة، فإن الكرامة الإنسانية التي تُقرر أن كل واحد منا لا يقلّ -إن لم يزد- عن نابليون الكبير، تجبرنا على قبول هذا الحل للمشكلة، والأبحاث التاريخية تؤيد ذلك تأييداً واسعاً.

إن نابليون، في معركة «بورودينو»، لم يطلق النار على أحد و لم يقتل أحد. وكان كل ذلك من صنع جنوده. وبالتالي، فليس هو الذي قتل.

إن جنود الجيش الفرنسي قتلوا جنوداً روساً في «بورودينو»، لا بمقتضى أوامر نابليون، ولكن بملء إرادتهم. إن الجيش بأسره، أي أن الفرنسيين والإيطاليين والألمان والبولونيين الذين أضر بهم الجوع والعري والكلال، كانوا يحسون، إزاء الجيش الذي كان يسدّ طريق موسكو، أن «النبيذ قد صُفِّي وأنه يجب أن يُشرب». ولو أن نابليون

منعهم الآن من قتال الروس لقتلوه وانطلقوا إلى المعركة لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك.

وعندما قرئ عليهم أمر نابليون الذي مناهم، عوضاً عن جراحهم وموتهم بعزاء هوان الأجيال الآتية ستتحدث عنهم قائلة: إنهم كانوا في المعركة عند جدران موسكو، هتفوا: عاش الإمبراطور! كما هتفوا عاش الإمبراطور! لدى رؤية صورة الصبي الذي يثقب الكرة الأرضية بعصاه الصغيرة، وكما كانوا سيهتفون: عاش الإمبراطور! لأية حماقة ستقال لهم. لم يبق عليهم ما يفعلونه إلا أن يهتفوا: عاش الإمبراطور! وأن يذهبوا للقتال ليجدوا في موسكو الغذاء وراحة المنتصرين. وبالتالي فإنهم لم يقتلوا أمثالهم بمقتضى أوامر نابليون.

وليس نابليون هو الذي كان يقود المعركة، إذ لم تُنفّذ أية نقطة من ترتيبه القتالي، ولم يكن يعلم، أثناء المعركة، ما كان يجري أمامه. وبالتالي، فكون هؤلاء الناس قد اقتتلوا لم تحدده مشيئة نابليون، وإنما جرى خارجاً عنه، بإرادة مئات آلاف الرجال الذين شاركوا في المعركة. وإن كان نابليون يعتقد أن كل شيء جرى بمشيئته. ولذلك فإن معرفة ما إذا كان مصاباً بالزكام أو لم يكن مسألة لا تنطوي على قدر من الأهمية، بالنسبة إلى التاريخ، أكبر من زكام أي جندي عادي.

في السادس والعشرين من آب، كان زكام نابليون من قلة الشأن بحيث أن المؤرخين الذين زعموا أن الترتيب القتالي والأوامر الصادرة أثناء المعركة كانت، على أثر هذا الزكام، أدنى من سابقاتها يخطئون كل الخطأ.

إن الترتيب القتالي الذي ذكرنا نصه آنفاً لم يكن أدنى في شيء من الترتيبات السابقة، بل إنه كان أفضل من جميع الترتيبات السابقة التي

بفضلها تحقق النصر في المعارك. والأوامر التي يزعم أنها أعطيت أثناء المعركة لم تكن أدنى من غيرها في شيء، بل كانت بالضبط على ما كانت عليه من قبل. وإنما بدت هذه الترتيبات والأوامر أدنى من سابقاتها لأن معركة «بورودينو» كانت أول معركة لا ينتصر فيها نابليون. إن أكثر الترتيبات والأوامر كمالاً وأعمقها نضجاً وتفكيراً تبدو رديئة، وترى كل خبير عسكري ينتقدها انتقاد العالم البصير، إذا لم تفض إلى النصر، وأردأ الترتيبات والأوامر تبدو ممتازة، ويكرس لها كتاب رصينون مجلدات كاملة للإشادة بمحاسنها، إذا أتاحت الظفر بالمعركة.

إن الترتيب الذي صاغه «ويروذر» في «أوسترليتس» كان نموذجاً لهذا النوع، ومع ذلك فقد كان هدفاً للطعن بسبب كماله ودقة تفاصيله.

لقد قام نابليون بدوره في «بورودينو» دور ممثل السلطة، على النحو الذي قام به في سائر المعارك بل على نحو أفضل. فلم يفعل ما يسيء إلى سير المعركة، ووقف إلى جانب الآراء المعقولة؛ لم يعقد الأشياء ولم يناقض ذاته، ولم يخف، ولم يهرب من ساحة القتال، لكنه، بما أوتي من حصافة عظيمة ومن تجربة واسعة في الحرب قام بدوره الظاهر كقائد بهدوء وجدارة.

***

الفصل التاسع والعشرون

قال نابليون بعد عودته من تفّقد ثان مُتأن للخطوط:

- صُفَّت القطع على رقعة الشطرنج، واللعبة تبدأ غداً.

وبعد أن تناول شراب «البنش» واستدعى «بوسيه» تحادثا عن باريس، وعن بعض التغييرات التي ينوي إجراءها في بيت الإمبراطورة، وأدهش المحافظ بتذكره لأصغر الأشياء في القصر.

أبدى اهتماماً بمسائل تافهة، ومازح «بوسيه» حول شغفه بالأسفار وحدثه بطلاقة عن جراح شهير، واثق بنفسه، خبير بمهنته، يشمر عن كميه ويلبس مئزره في الوقت الذي يوضع فيه المريض على مائدة العمليات. «القضية كلها بين يدي، وفي رأسي، واضحة جلية. فإذا ما شرعت في العمل قمت به خيراً من أي إنسان. وفي هذه الأثناء أستطيع أن أمزح، وكلما مزحت ازددت هدوءاً، ووجب عليكم أن تزدادوا ثقة وهدوءاً وإعجاباً بعبقريتي.»

عندما انتهى نابليون من قدحه الثاني. ذهب ليستريح قبل القضية الخطيرة التي كانت في اعتقاده، تنتظره غداً.

لقد أهمته هذه القضية إلى الحد الذي لم ينم معه، بالرغم من زكامه الذي تفاقم بسبب رطوبة المساء، وفي الساعة الثالثة صباحاً عاد، وهو

يتمخط بشدة، إلى الحجرة الكبرى في خيمته. وسأل إن كان الروس قد ذهبوا. فأجابوه أن نيران العدو ماتزال في المواضع نفسها فأومأ برأسه إيماءة الاستحسان.

دخل الخيمة المساعد العسكري المناوب، فسأله نابليون:

– ما رأيك، يا «راب»[1]، أتعتقد أننا سنحسن العمل هذا اليوم؟

فأجاب «راب»:

– بلا شك، يا مولاي.

نظر إليه نابليون، وتابع «راب» كلامه:

– أتذكر، يا مولاي، ما شرفتني بقوله في سمولنسك:

صُفي النبيذ ويجب أن يُشرب.

قطب نابليون حاجبيه، وظل صامتاً زمناً طويلاً، وقال فجأة:

هذا الجيش المسكين، لقد تناقص منذ «سمولنسك». إن الحظ عاهرة حقيقية، يا «راب». قلت ذلك دائماً وبدأت أعانيه.

وأضاف بلهجة مستفهمة:

– لكن الحرس، يا «راب»، الحرس سليم؟

أجاب «راب»:

– نعم، يا مولاي.

١– جان راب (١٧٧٢–١٨٢١) جنرال مساعد عسكري لنابليون منح لقب كونت في سنة ١٨٠٩، وجرح في بورودينو.

أخذ نابليون حبة، ووضعها في فمه وتطلع إلى ساعته.

لم يكن يحس بالنعاس، وكان الصباح بعيداً؛ و لم يبق هناك تدابير يتخذها ويقتل بها وقته، ذلك أن جميع الأوامر بُلغت وهي في سبيلها إلى التنفيذ.

وسأل «راب» بلهجة صارمة:

– هل وُزع البسكويت والرز على أفواج الحرس؟

– نعم، يا مولاي؟

– والرز؟

أجاب «راب» بأنه نقل أوامر الإمبراطور بصدد الرز، لكن نابليون هز رأسه مستاء، وكأنما كان يشك في أن يكون أمره قد نُفذ. وحمل إليه خادم شيئاً من «البنش». فأمر بقدح آخر لراب واحتسى قدحه بصمت وبجرعات صغيرة.

قال وهو يرتشف قدحه:

– فقدت حاستي الشم والذوق. أعياني هذا الزكام. الناس يتحدثون عن الطب. ما ذلك الطب الذي لا يستطيع أن يشفي زكاماً؟ أعطاني «كورفيزار» هذه الحبوب، لكنها لا تفعل شيئاً. ما الذي يستطيعون أن يشفوه؟ لا يمكن أن نشفى. فجسدنا آلة للحياة. وهو منظم لهذه الغاية، هذه طبيعته؛ دع الحياة حرة فيه، ولتدافع عن ذاتها بذاتها؛ سيكون عملها أفضل مما لو شللناها ونحن نربكها بالأدوية. إن جسدنا مثل ساعة كاملة تعمل لبعض الوقت؛ وليس للساعاتي القدرة على فتحها، وهو لا يستطيع أن يعالجها إلا تلمساً وعيناه معصوبتان. جسدنا آلة للحياة، هذا كل ما في الأمر.

وكأنما طاب له السير في طريق التعريفات التي يحبها، فإذا به يخرج بهذا التعريف الجديد وهو يسأل «راب»: أتدري، يا «راب» ما فن الحرب؟ إنه الفن في أن تكون أقوى من عدوك في لحظة ما. هذا كل ما في الأمر.

ثم قال:

- سنواجه «كوتوزوف» غداً! وسنرى! أنت تذكر أنه كان يقود الجيش في «برونو» ولم يعتل صهوة جواده مرة واحدة، طوال ثلاثة أسابيع لكي يتفقد المواقع الدفاعية. سنرى!

ونظر إلى ساعته مرة ثانية. كانت الساعة هي الرابعة. لم يَغشه النعاس، وشرب قدحه، ولم يجد ما يفعله. فنهض، وخطا خطوات، وارتدى سترته الرسمية، وخرج من الخيمة. كان الليل مظلماً، رطباً؛ وأخذ الضباب الذي لا يكاد يرى، ينتشر. وكانت نيران معسكر الحرس تشتعل ببطء على مقربة منه، وعلى البعد كانت تلتمع، خلال الدخان، نيران أخرى على طول الخطوط الروسية. كان كل شيء هادئاً، وكان يُسمع بجلاء ضجيج أصم آت من وطء القطعات الفرنسية السائرة لاحتلال مواقعها.

خطا نابليون خطوات، ونظر إلى النيران، وأصاخ السمع إلى وقع الخطوات، فلما مر بأحد رماة الحرس الذي كان يقوم بالحراسة أمام خيمته والذي تجمد كأنه عمود أسود لدى ظهور الإمبراطور، وقف أمامه وسأله بتلك الخشونة العسكرية والمتوددة التي كان يصطنعها دائماً وهو يخاطب الجنود:

- كم سنة أمضيت في الخدمة؟

فأجاب الحارس:

– آه أأنا واحد من القدماء...

– هل وُزع عليكم الرز في الفوج.

– نعم، يا مولاي.

فأومأ إليه نابليون برأسه ومضى.

في الخامسة والنصف، اتجه نابليون على حصانه إلى قرية «شيفاردينو».

كان الفجر يبزغ، وكانت السماء قد صفت، ولم يبق في المشرق سوى سحابة واحدة. وأوشكت نيران المعسكرات المهجورة على الهمود في ضوء الصباح الخافت.

دوت، في الجهة اليمنى، طلقة مدفع قوية ووحيدة، انتشرت وتلاشت في الصمت المطبق. وانقضت لحظات. ودوت طلقة ثانية، ثم ثالثة هزتا الفضاء؛ وانطلقت رابعة وخامسة، قريبتين وجليلتين، في مكان ما، على اليمين.

لم تنته الانفجارات الأولى حتى تلتها انفجارات أخرى، إلى أن اختلطت بعضها ببعض وتمازجت.

وصل نابليون ومعه حاشيته إلى معقل «شيفاردينو» وترجل. لقد نشب القتال.

***

الفصل الثلاثون

عندما عاد بطرس إلى غوركي بعد أن ترك الأمير آندريه، أمر سائسه أن يُجهّز الخيل وأن يوقظه في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ثم نام من فوره في الركن الصغير الذي تركه له «بوريس».

عندما استيقظ في اليوم التالي، لم يكن في الخص أحد. كان زجاج النوافذ الصغير يهتز. وكان السائس يهزه، وهو يشده من كتفه دون أن ينظر إليه، ويكرر بلا كلل، وكأنما يئس من إيقاظه:

- يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة...

قال بطرس وهو يستيقظ:

- ماذا؟ هل بدأت؟ هل حان الوقت؟

قال السائس وهو جندي سابق:

- أنت تسمع قصف المدفعية، يا صاحب السعادة. لقد انصرف كل هؤلاء السادة، ومر صاحب الرفعة نفسه منذ زمن طويل.

لبس بطرس ثيابه على عجل وخرج إلى درج المدخل. كانت الصبيحة مشرقة، بهيجة، يرطبّها الندى. وعمدت الشمس إلى سحابة كانت تغطيها، فمزقتها وغمرت بأشعتها التي مايزال نصفها محجوباً

سقوف الجهة الأخرى من الشارع، وغبار الطريق المغطى بالندى، وجدران البيوت، وفتحات السياج، وخيله التي كانت تقف قرب الكوخ الخشبي. كان دوي المدافع أوضح في الخارج. ومر مساعد عسكري يتبعه قوزاقي خبباً في الشارع، وهتف به:

- حان الوقت، يا كونت، حان الوقت!

أمر بطرس أن يتبعه حصانه، ودلف إلى الشارع باتجاه الأكمة الذي تأمّل منها، بالأمس، ساحة المعركة. رأى هناك جمهوراً من العسكريين، وسمع ضباط الأركان يتكلمون بالفرنسية، وشاهد رأس «كوتوزوف» الأشيب مغطى بقلنسوة بيضاء عليها شريط أحمر، وقد غرق قذاله بين كتفيه. وكان ينظر بالمنظار المقرب أمامه، باتجاه الطريق الرئيسية.

بعد أن صعد بطرس الدرجات التي تفضي إلى الأكمة نظر فتملكه الإعجاب بجمال المنظر الذي بدا لعينيه. كان المنظر نفس المنظر الشامل الذي أعجب به بالأمس، لكنه كان مغطى بالجند وبدخان الانفجارات، وكانت الأشعة المائلة المنبعثة من الشمس الساطعة التي راحت تشرق خلفه وإلى اليسار منه قليلاً، تنشر في هواء الصباح النقي، ضوءاً باهراً، مذهباً، وردياً، تخدده ظلال سوداء طويلة. وكانت الغابات البعيدة التي ينتهي بها المنظر الشامل تبدو وكأنها منقوشة في حجر كريم أخضر ضارب إلى الصفرة، وتلقي على الأفق خط ذراها المتعرج الذي تقطعه وراء «فالويفو» طريق سملنسك الكبرى المغطاة بالجند. ومن دونها كانت تتلألأ حقول مذهبة وحرجات. وأينما تطلّع المرء، إلى اليمين، وإلى الشمال، وأمامه، رأى الجند. كان كل ذلك مليئاً بالحركة وبالجلال وبكل طارئ جديد؛ لكن أعظم ما أذهل بطرس كان ساحة القتال ذاتها، من «بورودينو» إلى المسيل فوق الكولوتشا، وفي «بوردوينو» من كلا الجانبين ولاسيما إلى الشمال، حيث يصب «فوينا» في الكولوتشا، بين ضفتين سبخيتين،

كانت تمتد ضبابة من ذلك الضباب الذي يذوب وينتشر ويتقزّح لدى ظهور الشمس الساطعة، مسبغاً ألواناً وحواشي سحرية على كل ما يشف عنه. وكان دخان الانفجارات يمتزج بهذه الضبابة، وفي هذه الضبابة وهذا الدخان كان ضوء الصبح يبرق على الماء حيناً، وعلى الندى حيناً آخر، وأحياناً على حراب الجند الذين يزدحمون على الضفتين وفي «بورودينو». وخلال هذه الغشاوة كانت تشاهد الكنيسة البيضاء، وسطوح «بورودينو» هنا، وكتل «متراصة» من الجنود هناك، وصناديق خضراء ومدافع في أمكنة أخرى. وكان كل ذلك يتحرك أو يبدو كأنه يتحرك، لأن الضبابة والدخان كانا يلفّان هذا الفضاء لفاً. ففي الأغوار قرب «بورودينو»، وفي الأعالي ولاسيما إلى اليسار، وعلى طول خط القتال، وعلى الغابات والحقول، وفي المنخفضات والمرتفعات، كانت لا تني تتولد تلقائياً أمواج من دخان المدافع، منفردة حيناً، ومتجمّعة حيناً آخر، متباعدة تارة، ومتقاربة تارة أخرى، أمواج تنتفخ، وتضخم وتدوّم، وتتمازج وترتفع فوق كل هذا الفضاء.

إن هذه الأدخنة والانفجارات التي ترافقها كانت تكوّن –وهو أمر غريب– العنصر الأساسي في جمال المشهد.

«بوف!» ويبدو فجأة دخان مستدير متماسك يبرق فيه اللون الخبازي والرمادي والأبيض، وبعد ثانية «بوم!»، وهو الصوت الذي آذن به الدخان.

«بوف – بوف!» دخانان يصعدان، ويتدافعان، ويمتزجان، و«بوم – بوم» صوتان يأتيان ليؤكدّا ما رأته العيون.

التفت بطرس إلى الدخان الأول الذي كان مستديراً متماسكاً كالكرة، فرأى مكانها حلقات تمتد جانبياً، و«بوف»... (ثم بعد فترة)،

«بوف – بوف»، وثلاث أخر، وأربع أخر، وكل واحدة تجاوبها، مع الفترات الزمنية نفسها، أصوات جميلة، رنانة، قوية: بوم... بوم – بوم – بوم. كانت الأدخنة كأنما تتراكض تارة، وتظل ساكنة تارة أخرى لتتراكض أمامها الحقول والغابات والحراب اللامعة. وإلى اليسار، على طول الحقول والأدغـال، كانت لا تني تتولد هذه الأدخنة الضخمة تتبعها أصداؤها الجليلة، وعلى مسافة أقرب، في الأغوار والغابات، كانت تنبعث أدخنة البنادق الصغيرة التي لا تجد الوقت لتستدير والتي لها مع ذلك أصداؤها الخفيفة. ترا – تا – تا – كذلك كانت تفرقع البنادق فرقعة متصلة لكنها غير منتظمة وهزيلة بالقياس إلى طلقات المدافع.

اشتهى بطرس أن يكون في وسط هذه الأدخنة، وهذه الحراب المتلألئة، وهذه الحركة، وهذه الأصوات. وألقى نظرة على «كوتوزوف» وحاشيته ليقيس مشاعره بمشاعر الآخرين. كانوا جميعاً مثله يتأملون ساحة القتال أمامهم، وبدا له أنهم يحملون الشعور نفسه. فعلى جميع الوجوه كانت تشع الآن هذه الحرارة الكامنة، حرارة الشعور التي لاحظها بالأمس وفهمها فهماً كاملاً بعد حديثه مع الأمير آندريه.

قال «كوتوزوف» لجنرال كان يقف بجنبه، دون أن يرفع عينيه عن ساحة القتال:

– امضِ، يا عزيزي، امضِ، في رعاية الله!

مرّ الجنرال أمام بطرس، بعد تلقي الأمر، لينزل الأكمة. وقال ببرودة وجفاء رداً على سؤال ضابط من الأركان سأله إلى أين يذهب:

– إلى معبر النهر!

قال بطرس في نفسه وهو يتبعه: «وأنا أيضاً، وأنا أيضاً»

امتطى الجنرال الجواد الذي قاده قوزاقي. واقترب بطرس من سائسه وسأله عن أهدأ جياده، فامتطى صهوته، وتشبث بعرفه، وشد بكعبيه على بطنه، وأحسّ أنه فقد نظارتيه وأنه عاجز عن أن يرخي عرف الجواد وأن يرفع ساقيه عن خاصرتيه، فجرى في أثر الجنرال، مثيراً الابتسامات بين ضباط الأركان الذين كانوا ينظرون إليه من أعلى الأكمة.

***

الفصل الحادي والثلاثون

بعد أن نزل الجنرال الذي تبعه «بطرس» السفح، استدار فجأة إلى اليسار وغاب عن نظر بطرس، فإذا ببطرس يُساق عدواً إلى صفوف الفرسان الذين كانوا يسيرون أمامه، ويحاول أن يتخلّص يميناً أو شمالاً أو إلى الأمام لكنه كان يلقى الجند أينما توجه، بوجوههم التي تنطق بهم متماثل وقد شغلهم شاغل لا يرى، لكنه عظيم الشأن حقاً. وكانوا جميعاً ينظرون باستياء وتساؤلٍ إلى هذا الرجل الضخم ذي القبعة البيضاء الذي، لا يعلم إلا الله، لَمِ جاء يطؤهم بحصانه.

وصرخ أحدهم:

– ماذا جاء يفعل في وسط الفوج؟

ودفع جندي آخر بعقبِ البندقية حصان بطرس فانحرف الحصان جانباً، وحُمل بطرس حَملاً إلى الأمام حيث كانت الطريق خالية، وهو متشبث بقربوس السرج، لا يكاد يكبح جماح جواده.

كان أمامه جسر، وقرب الجسر جنود آخرون يطلقون النار، فاتجه بطرس إليه. لقد وصل، وهو لا يعلم، إلى جسر الكولوتشا الواقع بين «غوركي» و«بورودينو» والذي هاجمه الفرنسيون في المرحلة الأولى من المعركة (بعد أن احتلوا «بورودينو»). رأى بطرس أن أمامه جسراً، وأن على جانبي الجسر وفي المرج بين أنضاد الحشيش المحصود التي

شاهدها بالأمس، جنوداً يفعلون شيئاً في الدخان؛ لكن بالرغم من التراشق المستمر في هذا الموضع، فإنه لم يَدرْ بخلده أن هاهنا ساحة القتال بالذات. لم يكن يسمع الرصاص الصافر من كل جانب حوله، ولا القذائف المـارة فوق رأسه، ولم يكن يرى العدو على الضفة الأخرى، وظل زمناً قبل أن يرى القتلى والجرحى يتساقطون من حوله. كان يطوف بنظره من حوله والابتسامة لا تفارق شفتيه.

وصرخ أحد الجنود:

– ماذا يفعل أمام الخطوط، هذا الرجل؟

وصاح به الجنود:

– خذ يسارك، يمينك...

وأخذ بطرس يساره وإذا به يلقى مساعداً عسكرياً للجنرال «رايفسكي» كان يعرفه. حدجه المساعد العسكري بنظرة غضبى، وأوشك أن يُعنّفه لولا أن عرفه، فأومأ إليه برأسه وقال له، وهو يتابع طريقه عدواً:

كيف جئت إلى هنا؟

وإذ أحس بطرس أنه ثقيل الظل، عديم الفائدة، وإذ خشي أن يضايق أحداً مرة أخرى، تبع المساعد العسكري وسأله:

– ما الذي يجري هنا؟ أأستطيع أن أرافقك؟

فردّ عليه المساعد العسكري:

– سآتي إلى الفور، على الفور.

ومضى على جواده بأقصى سرعة إلى عقيد ضخم واقف وسط المرج، ونقل إليه الأمر، وعاد بعد ذلك إلى بطرس، وسأله وهو يبتسم:

- ماذا جئت تفعل هنا، يا كونت؟ أما زلت محباً للاستطلاع؟

أجاب بطرس:

- نعم، نعم.

لكن المساعد العسكري ثنى عنان جواده وهم بالانصراف، وقال:

- الحالة حسنة هنا، والحمد لله، أما في الجناح الأيسر، عند «باغراتيون» فقد حمي وطيس القتال.

قال بطرس:

- حقاً؟ وأين ذلك؟

فقال المساعد العسكري:

- تعال معي إلى الأكمة، فالرؤية حسنة من عندنا. ومايزال الأمر محمولاً، في البطارية عندنا. ماذا، هل تأتي؟

قال بطرس وهو يفتش بعينيه عن سائسه:

- نعم، سأتبعك. وحينئذ لاحظ بطرس لأول مرة الجرحى الذين كانوا يجرون أنفسهم أو الذين كانوا يُحملون على النقالات. وفي المرج الأخضر الذي اجتازه بالأمس، بين أنضاد العشب الذكي الرائحة، اضطجع جندي تدحرجت عَمرته على الأرض، ساكناً لا حراك به، وقد التوى رأسه على نحو غريب. وهم بطرس بالسؤال:

- وهذا، لَمَ لم يرفعوه من هنا؟

لكنه عندما رأى الصرامة على وجه المساعد العسكري الذي كان ينظر إلى الجهة نفسها، لاذ بالصمت.

لم يجد «بطرس» خادمه، فاتجه بصحبة المساعد العسكري إلى أكمة «رايفسكي». وكان جواده يجد عَنتا في اللحاق بالمساعد العسكري ويهزه هزاً منتظماً.

سأله المساعد العسكري:

– أعتقد أنك لم تتعود ركوب الخيل، يا كونت؟

فرد بطرس وهو حائر:

– بلى، لكنني لا أعلم لَمَ يطفر الجواد طفراً.

قال المساعد العسكري:

–ايه!... لكنه جريح في ساقه اليمنى، فوق الركبة. إنها رصاصة، ولاشك، أهنئك، أيها الكونت، فهذا عماد النار.

وبعد أن تجاوز خلال الدخان الفيلق السادس، خلف المدفعية المتقدمة التي كان قصفها يصم الآذان، بلغا غابة صغيرة، صامتة، تنبعث منها رائحة الخريف. فنزلا عن جواديهما ليصعدا السفح مشياً. وسأل المساعد العسكري وهو يقترب من الأكمة:

– هل الجنرال هنا؟

فأجابه أحدهم وهو يشير إلى اليمين:

– كان هنا منذ برهة، ثم ذهب.

وألقى المساعد العسكري نظرة على بطرس وكأنما كان يتساءل عما ينبغي أن يفعله به. قال بطرس:

– لا تبال. سأصعد الأكمة، أأستطيع ذلك؟

– نعم، ويمكن أن يُرى كل شيء منها بدون كبير خطر. وسأعود إليك.

اتجه بطرس نحو البطارية وتابع المساعد العسكري طريقه. ولم يُتح لهما اللقاء بعد ذلك، إلا أن بطرس علم في وقت متأخر، أن هذا المساعد العسكري فقد ذراعه في هذا اليوم.

كانت الأكمة التي علاها بطرس هي النقطة الشهيرة التي سقط حولها عشرات آلاف الرجال والتي كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاح الموقع. (وقد عُرفت الأكمة فيما بعد، لدى الروس، باسم بطارية التل أو بطارية «رايفسكي»، ولدى الفرنسيين، باسم المعقل الأكبر، والمعقل المشؤوم، ومعقل المركز).

كان المعقل عبارة عن تل حُفرت حوله خنادق من الجهات الثلاث. ومن المرابض التي تحف بها هذه الخنادق كانت عشرة مدافع تطلق نيرانها من كوى السترة الأمامية.

وعلى نسقها، كانت مدافع أخرى لا تكف عن الرمي، من جانبي الأكمة. ووراءها قليلاً تمركزت قطعات المشاة. عندما تسلق بطرس الأكمة، لم يكن يتوهم البتة أن المرابض التي تحف بها خنادق صغيرة هي أهم نقطة في المعركة.

بل لقد بدا له (وبسبب وجوده هناك بالذات) أنها كانت من المواقع التي لا شأن لها.

عندما بلغ بطرس أعلى الأكمة، جلس على حافة الخندق الذي يحيط بالبطارية ونظر إلى ما كان يجري حوله، وعلى وجهه ابتسامة

لا شعورية، سعيدة. وكان ينهض، بين الوقت والآخر، ويتجول في البطارية، دون أن تفارقه البسمة، جاهداً ألاّ يضايق الجنود الذين كانوا يمرون قدامه وهم يركضون ومعهم الأكياس وحشوات المدافع. لم تكن المدافع تكف عن الرمي الواحد تلو الآخر مصحوبة بدوي يصم الآذان. ومخلفة دخاناً يلف كل ما يحيط بها.

وفي مقابل القلق الذي كان يبدو لدى المشاة من قطعات التغطية، كان يحس المرء هنا، في البطارية، حيث كان عدد ضئيل من الرجال العاكفين على عملهم منفصلين، منعزلين عن الآخرين بالخنادق، كان يحس لدى الجميع بحيوية متشابهة، إجماعية، وكأنها حيوية الأسرة الواحدة.

في بادئ الأمر، أحدث ظهور بطرس البعيد عن الطابع العسكري بقبعته البيضاء، مفاجأة غير سارة لدى هؤلاء الرجال. وكان الجنود يحدجونه بنظرة مدهوشة بل ومروعة. وقد اقترب منه آمر البطارية، وهو رجل طويل، مجدور، طويلِ الساقين، بحجة التحقق من عمل المدفع الجانبي، ونظر إليه مستغرباً.

وخاطبه بقسوة ضابط آخر، وهو فتى مدور الوجه، وكأنه طفل حقيقي، متخرج حديثاً من هيئة الطلاب العسكريين وكان يقود مع ذلك بكثير من الاندفاع المدفعين اللذين عُهد بهما إليه:

– أتسمح بالتنحي جانباً، يا سيدي، لا يجوز البقاء هنا.

وكان جنود المدفعية يهزون رؤوسهم مستنكرين، وهم ينظرون إلى بطرس. لكنهم عندما تأكدوا من أن هذا الرجل ذا القبعة البيضاء لا يسيء في شيء، ولكنه يجلس بهدوء على الأكمة أو يتجول في المربض، وعلى شفتيه ابتسامة خجلى، متنحياً بأدب عن طريق الجند، رابط الجأش تحت وابل النار كما لو كان في الشارع، راح شعورهم بالاستهجان المعادي

إزاءه يخلي مكانه شيئاً فشيئاً لضرب من العطف القلبي اللاهي الذي يشعر به الجنود نحو الحيوانات التي تتبعهم: كالكلاب والديكة والماعز وغيرها. وما لبثوا أن رحبوا به ضمناً في أسرتهم وتبنّوه، وأطلقوا عليه لقب «سيدنا»، وراحوا يتفكهون به فيما بينهم تفكهاً رقيقاً.

جاءت قذيفة فحفرت الأرض على خطوتين من بطرس، فنظر حوله مبتسماً وهو ينفض التراب الذي أصاب ثيابه.

قال له جندي ربعةٌ أحمر الوجه، تكشف ابتسامته عن أسنان صلبة، بيضاء:

- كيف لم تخف، يا سيدي؟

فسأله بطرس:

- وأنت، هل خفت؟

أجابه الآخر:

- وكيف لا! فالقذيفة لا ترحم. وإذا ما سقطت ألقت بأمعائك في الهواء.

وختم ضاحكاً:

- لا يمكن للمرء إلا أن يخاف.

وقف بعض الجنود قرب بطرس، ووجوههم تنطق بالود والمرح، وكأنما لم يكونوا ينتظرون أن يتكلم كما يتكلم الناس، فابتهجوا بهذا الاكتشاف:

- إنما نحن جنود، أما السيد مثلك فمن المدهش ألاّ يخاف. هذا سيد حقاً!

صاح الضابط الفتى بجنود المدفعية المتجمعين حول بطرس:

- إلى مدافعكم!

لقد كانت هذه هي المرة الأولى أو الثانية التي يؤدي فيها هذا الضابط الصغير مهماته، ولذلك كان يكلم مرؤوسيه وقائده بلهجة جدّ دقيقة وجدّ رسمية.

كانت نار المدافع والبنادق المستمرة تشتد في جميع أرجاء ساحة القتال، ولاسيما إلى اليسار، حيث تحصينات «باغراتيون»، أما في الموضع الذي فيه بطرس، فكان الدخان يحول دون رؤية أي شيء. ثم أن هذه الحلقة العائلية الصغيرة (المنعزلة عن الجميع) التي كان يشكلها رجال البطارية استأثرت بانتباهه. إن تلك الحماسة الأولى التي امتلأت بفرح لا شعوري والتي أثارها فيه مشهد المعركة وضوضاؤها، تلاها الآن شعور آخر، ولاسيما منذ أن رأى ذلك الجندي الراقد وحيداً في المرج. كان يراقب، وهو جالس على الأكمة، الوجوه التي تحيط به.

وفي نحو الساعة العاشرة حمل من البطارية ما يقرب من عشرين رجلاً؛ ودمر مدفعان، وازداد تساقط القذائف. وكانت الرصاصات الطائشة تئز وتصفر أكثر فأكثر. لكن رجال البطارية لم يكن يبدو عليهم أنهم يلاحظون ذلك، فمن كل صوب كانت تعلو أحاديثهم المرحة وفكاهاتهم.

صرخ جندي حين رأى قنبلة تقترب وهي تَصفر:

- ها هي ذي!

وأضاف آخر وقد انفجر ضاحكاً حين رآها تمر من فوقهم وتسقط في صفوف قطعات التغطية:

- لا تمري من هنا! اذهبي إلى المشاة!

قال ثالث، وهو يضحك، لمتطوع انحنى عند مرور القذيفة:

- أراك تنحني، أهي من معارفك؟

واجتمع عدد من الجنود حول السترة الأمامية ليروا ما يجري أمامهم. قال بعضهم وهو يشير إلى شيء من فوق السترة الأمامية:

- لقد أرجعوا خطوطهم، أترى لقد تقهقروا.

صاح بهم ضابط صف عجوز:

- عليكم بأنفسكم، ولا تتدخلوا فيما لا يعنيكم. إذا تراجعوا فلأن لهم عملاً في الخلف.

وأمسك بأحد الجنود من كتفه ولطمه بركبته. فعلا الضحك.

وصرخ صوت:

- هاتوا المدفع الخامس!

وصاح الذين كانوا يعيدون المدفع إلى موضعه بمرح:

- هو! هيس، شدوا مجتمعين، مثل ساحبي المراكب.

قال المزّاح ذو الوجه الأحمر وهو يُري أسنانه:

- آي، كادت تذهب بقبعة سيدنا.

وأضاف بلهجة الاستنكار مخاطباً القذيفة التي ذهبت بعجلة المدفع وساق أحد الجنود:

- هيه! يا لكِ من مجنونة!

وتفكه آخر بالمتطوعين الذين كانوا يصعدون البطارية وهم ينحنون لحمل الجريح:

– ايه، أيها الثعالب. لعل الحساء غير لذيذ؟

وصاح بعضهم بالمتطوعين الذين ترددوا أمام الجندي ذي الساق المقطوعة:

– آه، من هؤلاء الغربان، لقد بدا عليهم التقزز.

وقال آخرون وهم يقلدونهم:

– وكيف، ولماذا، يا شباب! أيشمئزون من ذلك!

لاحظ بطرس أن حيوية الجنود كانت تتصاعد بعد كل قذيفة تسقط، وبعد كل خسارة تقع....

وكما تنبعث البروق من السحب العاصفة، متزايدة عدداً وشدة، كذلك كان اللهب الخفي ينتشر على وجوه هؤلاء الرجال جميعاً. (وكأنه رد يعدّل ما كان يجري).

لم يكن بطرس ينظر إلى ساحة القتال أمامه و لم يكن يعنى بما يجري فيها: لقد ألهاه عن كل شيء آخر تأمل هذه الشعلة التي كانت تتسع شيئاً فشيئاً والتي أحس أنها أخذت تتقد في نفسه أيضاً.

في الساعة السادسة تراجع المشاة المتمركزون أمام البطارية، في الأدغال وعلى طول الكامنكا. لقد شوهدوا، من البطارية، وهم يرتدّون راكضين، حاملين جرحاهم على البنادق. وتسلق الأكمة جنرال مع حاشيته، وبعد أن تبادل والعقيد بضع كلمات، ألقى على بطرس نظرة خاطفة وانحدر بعد أن أصدر أوامره إلى قطعات التغطية المحتشدة خلف البطارية بالانبطاح ليكونوا أقل تعرضاً للنار. وبعد

ذلك دوى قرع الطبول في صفوف المشاة على يمين البطارية، وسمعت أوامر، وشوهد المشاة يتحركون إلى الأمام.

كان بطرس ينظر من فوق السترة الأمامية. واسترعى انتباهه، بخاصة، وجه أحد الضباط. كان الضابط فتياً، شاحب الوجه، يمشي القهقرى، خافضاً سيفه، ويجيل فيما حوله الطرف مروعاً.

توارى رتل المشاة في الدخان، وتناهى إلى الأسماع صراخ ممتد وتراشق متلاحق. وفي غضون لحظات، شوهدت جماعة من الجرحى والنقالات تعود. وأخذت القذائف تنهمر على البطارية. وكان بعض الرجال صرعى هنا دون أن يرفعهم أحد. ومن حول المدافع، كان السدنة يستعجلون ويضاعفون من نشاطهم، وقد غفلوا عن بطرس. وصرخ به الجنود بشيء من الغضب، مرة أو مرتين، لكي يحيد عن الطريق. وراح آمر البطارية يتنقل، بخطى واسعة حثيثة، وهو مقطّب الحاجبين من مدفع إلى آخر. وكان الضابط الفتى الذي ازداد لونه حيوية، يقود جنوده بحمية أشد، والجنود ينقلون القذائف، ويعودون، ويعبّئون المدافع وينجزون عملهم بجسارة متوترة. كانوا يَطفرون طفراً وهم يمشون وكأنما يمشون على نوابض.

كانت السحابة العاصفة فوق رؤوسهم، وعلى جميع الوجوه التمع ذلك اللهب المضيء الذي كان بطرس يلاحظ اتساعه. كان يقف بجنب القائد. هُرع الضابط الفتى، ويده على عمرته، إلى رئيسه وسأله:

– لي الشرف أن أخبرك، سيدي العقيد، أنه لم يبق لدينا سوى ثماني قذائف. فهل ينبغي الاستمرار في الرمي؟

صرخ العقيد الذي كان ينظر من فوق السترة الأمامية، دون أن يجيبه.

– ارموا بالقطع الحديدية:

وفجأة حدث شيء، ذلك أن الضابط الفتى أطلق صرخة وارتمى على الأرض منهاراً كأنه عصفور أصيب في طيرانه. فغدا كل شيء غريباً، ملتبساً، معتماً، في عيني بطرس.

وأخذت القذائف تصفر، واحدة بعد الأخرى، وتخرّق السترة الأمامية والسدنة والمدافع. وغدا بطرس لا يسمع شيئاً غيرها، بعد أن كان حتى هذا الحين لا يسمع شيئاً منها. وعلى يمين البطارية كان الجنود يركضون هاتفين: «هورا!»، وكأنهم يتراجعون إلى الوراء بدلاً من أن يتقدموا.

وضربت قنبلة حافة السترة الأمامية التي كان يقف بجنبها بطرس، ومرت كتلة سوداء أمام عينيه وفي الوقت نفسه سُمع صوت سقوط. وفرّ المتطوعون الذين كانوا يدخلون البطارية.

صرخ العقيد:

– ارموا بكل ما عندكم من قطع حديدية!

بادر إليه ضابط صف وأنبأه في همس مُروّع (كما ينبئ رئيس الخدم معلمه، أثناء الوليمة أنه لم يبق شيء من الخمر المطلوب)، أن الذخيرة نفدت.

صاح الضابط وهو يلتفت إلى بطرس، وقد احمر وجهه وتغطى بالعرق، والتمعت عيناه تحت حاجبيه المقطبين:

– وماذا يفعل هؤلاء الأشقياء إذن!

وصرخ بأحد السدنة وهو يلف بطرس بنظرة حانقة:

– أسرع إلى الاحتياطي، واحمل الصناديق.

قال «بطرس»:

– وأنا ذاهب أيضاً إلى هناك.

وابتعد العقيد بخطى واسعة دون أن يجيبه. ثم صرخ:

– لا ترموا... انتظروا.

اصطدم بطرس بالمدفعي الذي تلقى أمراً بحمل الذخيرة، وقال له وهو ينزل السفح مسرعاً:

– ايه! ليس مكانك هنا، يا سيدي.

لحق به بطرس جرياً وهو يدور حول المكان الذي سقط فيه الضابط الفتى.

مرت قذيفة وثانية وثالثة من فوق رأسه، ساقطة أمامه أو خلفه أو على جانبيه. وهبط بطرس السفح مسرعاً وسأل نفسه فجأة بينما هو يصل إلى الصناديق الخضراء: «إلى أين أذهب». وقف متردداً وهو لا يعلم إن كان عليه أن يتقدم أو يعود أدراجه. وفجأة ألقته صدمة هائلة إلى الوراء، أرضاً. وبهره لهب خاطف للبصر، وفي اللحظة نفسها دوى في أذنيه وأصمه هزيم رعد، وقرقعة وصفير.

كان بطرس قاعداً ويداه مستندتان إلى الأرض، عندما ثاب إلى رشده، و لم يجد من أثر للصندوق الذي كان بجنبه، وإنما وجد ألواحاً خضراء متفحمّة وبعض الخرق مبعثرة هنا وهناك على العشب الأشقر، وحصاناً يجر حطام عربة مرّ أمامه عَدْواً، على حين ارتمى حصان آخر على الأرض كما ارتمى بطرس نفسه، وهو يطلق أنيناً حاداً، طويلاً.

***

الفصل الثاني والثلاثون

وثب بطرس على قدميه، وقد استولى عليه الذعر، وركض إلى البطارية وكأنها الملاذ الوحيد من الأهوال التي تكتنفه.

وبينما هو يدلف إلى الخندق، وجد أن البطارية كفت عن الرمي وأن فيها رجالاً يفعلون شيئاً ما. و لم يجد الوقت الكافي ليتبين من هم هؤلاء الرجال. رأى العقيد ممدداً على حاجز السترة الأمامية كأنما يفحص شيئاً تحته، وشاهد جندياً لمحه من قبل، يتخبط بين رجال أمسكوا بذراعيه: وهو يصرخ: «النجدة، يا رفاقي». ورأى أيضاً شيئاً غريباً.

لم يتسن له أن يدرك أن العقيد قتيل وأن الجندي الذي استنجد برفاقه أسير، وأن تحت عينيه جندياً آخر طعن بحربة في ظهره. و لم يكد يدخل الخندق حتى انقض عليه رجل نحيل، في بزة زرقاء، أصفر الوجه مبلل بالعرق، وسيفه في يده، وهو يصرخ. ولكي يتفادى بطرس الصدمة، لأنهما التقيا بغتة، مد يديه غريزياً وأمسك بإحداهما كتف الرجل (الضابط الفرنسي) وبالأخرى عنقه. فأرخى الضابط سيفه وقبضه من ياقته.

نظر كلاهما، بضع لحظات، بعينين مروعتين، إلى وجه الآخر الغريب، وتساءل كل منهما عما فعله وعما ينبغي أن يفعله، وقال كل في نفسه: «أأنا الأسير أم هو؟». لكن الظاهر أن الضابط الفرنسي كان

أميل إلى الاعتقاد أنه هو الأسير، لأن يد بطرس القوية التي حركها الخوف الغريزي كانت تشد على حنجرته شداً متزايداً. وأراد الفرنسي أن يقول شيئاً عندما مرت من فوقهم قذيفة وهي تصفر صفيراً منذراً بالويل فأحس بطرس أن رأس الفرنسي طار لفرط السرعة التي حناه بها.

حنى بطرس رأسه أيضاً وأرخى قبضته. ودون أن يسأل كل منهما نفسه: أينا الأسير، فر الفرنسي هارباً إلى البطارية، بينما انحدر بطرس السفح مسرعاً، متعثراً بالقتلى والجرحى الذين خيل إليه أنهم يتشبثون برجليه. لكنه لم يكد يصل إلى أدنى السفح حتى برزت كتل متراصة من الجنود الروس، مقبلين عليه، وهم يسقطون ويتعثرون ويصرخون ويندفعون فرحين جياشين إلى البطارية.

(كان هذا هو الهجوم الذي ادعى «ايرمولوف» الفضل فيه، قائلاً: إن بسالته وحظه وحدهما جعلا هذه المأثرة ممكنة، وهو الهجوم الذي زعم أنه رمى بملء يديه فيه على الأكمة أوسمة القديس جورج التي كانت تملأ جيوبه).

فر الفرنسيون الذين احتلوا الأكمة. فطاردهم جندنا بعيداً وهم يصرخون: «هورا!» حتى لقد تعسر إيقافهم.

اقتيد من البطارية أسرى بينهم جنرال فرنسي جريح أحاط به ضباطنا. وكانت طائفة من الجرحى الروس والفرنسيين، ممن يعرفهم أو يجهلهم بطرس، يجرون أنفسهم جراً، أو يحملون على نقالات، وقد شوههم الألم. عاد بطرس صعد الأكمة حيث قضى نحو ساعة، فلم يجد أحداً من هذه الأسرة الصغيرة التي احتضنته. كان هناك كثير من القتلى لم يعرفهم. وعرف بعضاً منهم. وكان الضابط الفتى جالساً أبداً، منطوياً

على نفسه، عند حافة السترة الأمامية، في بركة من الدم، والجندي ذو الوجه الأحمر يتحرك حركة تشنجية، من غير أن ينقله أحد.

نزل بطرس مرة ثانية وهو يركض.

قال في نفسه وهو يتبع على غير هدى، حاملي النقالات العائدين من ساحة القتال: «سيكفون الآن عن القتال، وسيروعون من هول ما فعلوا».

لكن الشمس المغشاة بالدخان كانت ماتزال عالية في السماء، وكان هناك شيء يغلي في الدخان، صوب «سيمينوفسكي»، إلى الأمام وإلى اليسار خاصة، ذلك أن قرقعة الانفجارات والتراشق والقصف المدفعي لم تضعف وإنما بلغت غايتها من الشدة، وكأنها رجل يصرخ، وهو يلفظ آخر أنفاسه، بكل ما لديه من قوى.

***

الفصل الثالث والثلاثون

دارت معركة «بورودينو» الرئيسية على رقعة قدرها فرسخان، بين «بورودينو» وتحصينات «باغراتيون». (وفيما عدا ذلك، فقد قام خيالة «اوفاروف» بمناوشة في منتصف النهار، من جهة، ومن جهة ثانية وقع اشتباك خلف «اوتيتزا»، بين «بونياتوسكي» و«توتشكوف»؛ لكن الاشتباكين لم يكونا سوى عمليتين منعزلتين وضعيفتين بالنظر إلى ما كان يجري في الوسط). أما الاشتباك الرئيسي في المعركة، والذي نشب على أبسط الوجوه وأقلها تعقيداً، فقد دار بين «بورودينو» والتحصينات، قرب الغابة، على أرض مكشوفة، مرئية من الجانبين.

بدأ القتال من كلا الجانبين بقصف مدفعي اشتركت فيه بضع مئات من المدافع.

وعندما غطى الدخان الأرض بأسرها، زحفت فرقتا «ديسيكس» و«كومبان» إلى التحصينات، تحت ستار الدخان، من اليمين (من الجانب الفرنسي)، وتقدمت، من اليسار، قطعات الملك نحو «بورودينو».

كانت التحصينات تبعد فرسخاً عن معقل «شيفاردينو» حيث نابليون، وعن «بورودينو» أكثر من فرسخين، على خط مستقيم، ولذلك لم يكن بوسع نابليون أن يرى ما يدور فيها، ولاسيما أن الدخان المختلط بالضباب غطى الأرض. ولم تُر قطعات فرقة «ديسيكس»

الزاحفة إلى التحصينات إلا منذ دخولها الوادي الذي كان يفصلها عن التحصينات. وما إن انحدرت إليه حتى تكاثف دخان القصف والتراشق على التحصينات وغمر سفح الوادي المقابل. وخلال الدخان، كان يمكن أن يُرى شيء أسود فقط، لا ريب أنه الرجال، وبريق الحراب، من حين إلى آخر. ولم يكن بالمُستطاع تمييز ما إذا كان الرجال يتحركون أم يظلون ساكنين، وما إذا كانوا فرنسيين أم روساً.

كانت الشمس قد أشرقت وكانت أشعتها تنصب مائلة في وجه نابليون الذي أخذ يتشوف إلى التحصينات، ويده على حاجبه مستظلاً بها من الشمس. وكان الدخان يمتد إلى أمام التحصينات حتى يخيل إلى المرء أنه هو الذي يتحرك تارة، وأن القطعات هي التي تتحرك تارة أخرى. وبين الحين والحين كانت تُسمع، خلال الطلقات النارية، صرخات، لكن المرء ما كان يستطيع أن يتبين ما يفعله هؤلاء الرجال هناك.

كان نابليون على الرابية ينظر في منظار مقرّب، وفي تلك الدائرة الصغيرة كان يرى دخاناً وجنوداً، روساً حيناً وفرنسيين حيناً آخر، لكنه لم يكن يستطيع أن يحدد، بالعين المجردة، ما رآه.

نزل من الأكمة وتجول طويلاً. وكان يقف، بين الوقت والآخر، ويصيخ السمع إلى الانفجارات ويتفحص بنظره ساحة المعركة.

لم يكن من الممكن تبين ما كان يجري هناك، لا من النقطة التي كان فيها، في أدنى الأكمة، ولا من أعلى الأكمة حيث كان عدد من جنرالاته، بل ولا من التحصينات التي كان يحتلها الفرنسيون والروس معاً أو تباعاً، بين القتلى والجرحى والأحياء والمذعورين والمذهولين. لقد تعاقب على المكان، خلال عدة ساعات، ووسط تراشق وقصف

لا ينتهيان، الروس والفرنسيون، المشاة حيناً، والخيالة حيناً آخر؛ كانوا يظهرون ويسقطون ويُطلقون النار، ويتصادمون دون أن يدروا ما يفعلونه بعضهم ببعض، ويصرخون ويرتدون إلى الوراء.

كان يصلُ إلى نابليون، من ساحة القتال، وبدون انقطاع، المساعدون العسكريون الذين أرسلهم في مهمة، والضباط المرافقون لمارشالاته ومعهم تقارير عن سير المعركة؛ لكن جميع هذه التقارير كانت خاطئة، لأن من المستحيل، في غمرة القتال، أن يصف المرء ما يجري في لحظة معينة، ولأن المساعدين العسكريين ما كانوا يبلغون ساحة القتال الحقيقية، وإنما كانوا يرددون ما عرفوه سماعاً، وأيضاً لأن الموقف كان يتغير أثناء الفرسخين أو الثلاثة التي يقطعها المساعدُ العسكري ليصل إلى نابليون، ويغدو النبأ الذي يحمله غير صحيح. وهكذا نقل مساعد نائب الملك نبأ مفاده أن «بورودينو» احتلت، وأن جسر الكولوتشا في أيدي الفرنسيين. وسأل المساعد نابليون عما إذا كان ينبغي للقطعات أن تعبر النهر. فأصدر نابليون أمره بأن تلزم القطعات الضفة الأخرى وأن تنتظر؛ ولكن في اللحظة التي كان يصدر فيها هذا الأمر، بل قبل أن يبتعد المساعد العسكري عن «بورودينو» استرد الروس الجسر وأحرقوه، في نفس الاشتباك الذي وجد بطرس نفسه مسوقاً إليه، عند بداية المعركة.

وجاء ضابط آخر يجري من التحصينات، شاحب الوجه، مروّعاً، وأنبأ نابليون بأن الهجوم قد صُدَّ، وأن «كومبان» جريح، وأن «دافو» قتيل؛ في حين أن التحصينات قد احتلتها قطعات أخرى في اللحظة نفسها التي قيل فيها للمساعد العسكري إن الفرنسيين صُدّوا، وفي حين أن «دافو» كان حياً وأنه رُضَّ رضاً خفيفاً. وانطلاقاً من هذه التقارير الخاطئة بالضرورة، كان نابليون يتخذ تدابير اتخذت من قبل، أو تدابير لا يمكن تطبيقها فلم تطبق.

وكان المارشالات والجنرالات الذين هم أقرب إلى ساحة القتال، والذين لم يشاركوا في القتال مثل نابليون، لا يدخلون منطقة القتال إلا لماماً، ويتخذون تدابيرهم دون استشارة نابليون، ويُصدرون أوامرهم فيما يتصل باتجاه الرمي وبحركات الخيالة والمشاة. لكن أوامرهم، شأنها شأن أوامر نابليون، لم تكن تنفذ إلا بمقدار ضئيل. وفي معظم الأحيان، كان يجري عكس المطلوب. فالجنود الذين أمروا بالتقدم كانوا يهربون إذا وقعوا تحت شظايا العدو، والذين أمروا بالبقاء في أماكنهم كانوا يولون الفرار فجأة في بعض الأحيان إذا برز الروس أمامهم على حين غرة، وكانوا، أحياناً أخرى، يحملون على العدو، وينطلق الخيالة لمطاردة فلول الروس دون أن يتلقوا أمراً بذلك. وهكذا عبر وادي «سيمينوفسكوي» فوجان من الخيالة، وما كادوا يصعدون السفح الآخر حتى لووا أعنة خيلهم، وعادوا أدراجهم بأقصى سرعة. وكان المشاة يفعلون مثل ذلك فيغامرون بالذهاب إلى حيث لم يتلقوا أمراً بالذهاب. وحين كان يجب البتّ بالمكان الذي ينبغي أن تتقدم إليه المدافع، وبالزمان الذي يجب أن تتقدم فيه، وبأمر المشاة بالرمي أو بإرسال الخيالة لتطأ المشاة الروس، كل هذه التدابير كان يتخذها الضباط الأدنون دون الرجوع إلى «ناي» أو «دافو» أو «مورا» أو، من باب أولى، إلى نابليون. ولم يكن هؤلاء الضباط يخشون أن يُسألوا فيما بعد عن أمر لم ينفذوه أو عن مبادرة قاموا بها، لأن الخطر في المعركة يتهدد أثمن ما في الإنسان، يتهدد حياته، وقد يظن خلاصها في الفرار تارة، وفي الإقدام تارة أخرى؛ وهؤلاء الناس الذين كانوا في قلب المعركة كانوا يتصرفون تبعاً لدوافع اللحظة. والواقع أن كل هذه الحركات، حركات التقدم والتراجع لم تكن تحسن وضع القطعات أو تبدله. لأن هجماتهم لم تكن تسبب شراً كبيراً، بينما كان الشر، الموت والجراح، يأتي من الرصاص والقذائف التي كانت تتطاير في كل مكان

يتحرك حوله الناس. وما أن يغدو هؤلاء الرجال خارج مدى القذائف والرصاص، حتى يعمد القادة في المؤخرة إلى إعادة تشكيلهم، وإعادة الانضباط، وإرسالهم من جديد، بفضل ذلك الانضباط، إلى منطقة النار حيث يفقدون (بتأثير الخوف من الموت) معنى الانضباط مرة أخرى ويتصرفون على هوى مزاج الجماهير المتقلب.

***

الفصل الرابع والثلاثون

إن قادة نابليون: «دافو» و«ناي» و«مورا» الذين كانوا على مقربة من منطقة النار والذين كانوا يدخلونها بين الحين والحين، زجّوا فيها بكتل ضخمة من القطعات المنظمة. ولكن، على عكس ما جرى دائماً في جميع المعارك السابقة، فإن النبأ المنتظر عن هزيمة العدو لم يكن ليصل، وكانت هذه الكتل الحسنة الانضباط تعود من «هناك» جماعات مشتتة، مروعة. فيعيدون تشكيلها، لكن عدد الرجال كان في تناقص مستمر. وفي منتصف النهار أرسل «مورا» مساعداً عسكرياً في طلب التعزيزات.

كان نابليون جالساً عند سفح الأكمة يشرب «البنش» عندما وصل مساعد «مورا» ليؤكد أن الروس سيهزمون لو أرسل جلالته فرقة أخرى.

قال نابليون بدهشة وقسوة وكأنه لم يفهم ما قيل له، وهو ينظر إلى هذا الفتى الجميل بشعره الجعد على نمط شعر سيده «مورا»:

– تعزيزات؟

وفكر نابليون: تعزيزات! كيف يطلبون التعزيزات وفي حوزتهم نصف الجيش لمهاجمة جناح ضعيف لم يحصّنه الروس.

وأجاب نابليون بقسوة:

- قل لملك «نابولي» إن الظهر لم يأت بعد وإنني لا أرى الوضع بوضوح في رقعة الشطرنج. امضِ...

تنهد الفتى ذو الشعر الجعد تنهداً عميقاً، ويده ملصقة بقبعته، وانثنى راجعاً يعدو إلى حيث يُقتل الرجال.

نهض نابليون ودعا «كولنكور» و«بيرتييه»، وتبادل وإياهما أحاديث لا صلة لها بالمعركة.

وفي أثناء الحديث الذي أخذ يشوق نابليون، رأى «بيرتييه» جنرالاً يجري نحو الأكمة ومعه حاشيته. كان الجنرال «بيليار». نزل عن جواده الذي غطاه الزبد، واقترب بخطى حثيثة من الإمبراطور، وأخذ يدلل له بجرأة وبصوت مرتفع، على ضرورة إرسال التعزيزات. وأقسم بشرفه أن الروس سيهزمون لو زج الإمبراطور بفرقة أخرى.

هزّ نابليون كتفيه واستأنف سيره. وتكلم «بيليار» بصوت قوي حار إلى جنرالات الحاشية الذين أحاطوا به.

قال نابليون وهو يعود إلى الجنرال:

- أنت شديد الاندفاع، يا «بيليار». ومن السهل أن يخطئ المرء في حومة القتال. اذهب وتثبّت ثم عد إلى لقائي.

لم يكد «بيليار» يغيب عن البصر حتى وصل رسول آخر خبباً من نقطة أخرى في ساحة القتال. قال نابليون بلهجة مَنْ أثارته العوائق التي لا نهاية لها:

- وأنت، ما وراءك؟

وبدأ المساعد العسكري يقول:

- مولاي، إن الأمير...

فقاطعه نابليون بحركة غاضبة:

- يطلب تعزيزات؟

فحنى المساعد العسكري رأسه موافقاً وقدم تقريره، لكن الإمبراطور أعرض عنه، وخطا خطوتين، ووقف، وعاد أدراجه، واستدعى «بيرتييه»، وقال وهو يباعد بين يديه: لابد من إرسال التعزيزات.

ثم سأل «بيرتييه»: «ذلك الفرخ الذي جعلت منه نسراً»، كما سيقول عنه فيما بعد:

- ومن الذي سنرسله إلى هناك؟ ما رأيك؟

قال «بيرتييه» الذي كان يحفظ عن ظهر قلب أسماء الفرق والألوية والأفواج:

- مولاي، لنرسل فرقة «كلاباريد»[1].

فوافق نابليون برأسه.

جرى المساعد العسكري نحو فرقة «كلاباريد». وفي غضون لحظات أخذ الحرس الفتي المتمركز وراء الأكمة يسير. وكان نابليون ينظر إليه، فقال فجأة:

-لا، لا أستطيع أن أرسل «كلاباريد»، أرسل فرقة «فريان».

١- ميشيل كلاباريد (١٧٧٠-١٨٤٢) جنرال وكونت في عهد الإمبراطورية، كان يقود الحرس الفتي سنة ١٨١٢، وغدا أمير فرنسا سنة ١٨١٥.

نفذ الأمر بدقة، مع أن إرسال فرقة «فريان» بدلاً من فرقة «كلاباريد» لا ينطوي على ميزة خاصة، بل إن إيقاف «كلاباريد» واستبدال «فريان» به انطوى على مساوئ وأدى إلى ضياع واضح للوقت. لم يكن نابليون يرى أنه يلعب، تجاه جنده، دور الطبيب الذي تفاقم أدويته من المرض، وهو دور كان يحسن تمييزه ونقده لدى الآخرين.

توارت فرقة «فريان» في دخان المعركة، على غرار الفرق الأخرى. ومن مختلف الجهات، كان المساعدون العسكريون يصلون عدواً، ويقولون شيئاً واحداً كأنما اتفقوا عليه. كانوا جميعاً يطلبون التعزيزات ويقولون أن الروس لا يتزحزون وأنهم يصبون نار جهنم على الجيش الفرنسي الذي كان يذوب من وهجها.

ظل نابليون جالساً في مقعده يفكر.

اقترب من الإمبراطور السيد «دوبوسيه»، هاوي الأسفار الذي لم يتناول شيئاً منذ الصباح، وجوز لنفسه أن يعرض على جلالته بكل احترام تناول الغداء. وقال:

– أرجو أن أستطيع منذ الآن تهنئة جلالتك بالنصر.

هز نابليون رأسه نافياً، دون أن يقول شيئاً. وقد قدر السيد «دي بوسيه» أن النفي يتعلق بالنصر لا بالغداء، فجوز لنفسه أن يلفت النظر بلهجة مرحة وملأى بالاحترام، إلى أنه ما من شيء في الدنيا يستطيع أن يحول بيننا وبين الغداء عندما يكون الغداء ممكناً.

قال نابليون فجأة وهو متجهم الوجه:

– اذهب أنت...

وأدار له ظهره. فتهلل وجه «دي بوسيه» بابتسامة ساذجة من الأسف والندم والحماسة، وانسل ليلحق بالجنرالات الآخرين.

كان نابليون يحس بهذا الإحساس المؤلم، إحساس المقامر المحظوظ دائماً الذي يثق بحظه فيتهور ويلقي بما معه على المائدة، إحساس من كان يربح دائماً فيحس، على حين غرة، بعد أن يحسب لتقلبات الحظ حسابها، أنه كلما أمعن في الحساب تأكدت خسارته.

كانت القطعات هي نفسها، والجنرالات هم أنفسهم، والتجهيزات وأمر المعركة والإعلان «القصير والقوي» كلها هي نفسها، وهو نفسه لم يتغير أيضاً، كان يعلم ذلك، ويعلم أنه ازداد خبرة ومهارة، وكان العدو نفس العدو في «اوسترليتس» و«فريدلاند»، لكن ذراعه العاتية التي تهوي بالضربة الرهيبة ترتد عاجزة وكأنما ارتدت بسحر ساحر.

وكانت الخطة هي نفسها التي تتوجت دائماً بالنجاح: تركيز البطاريات في نقطة واحدة، الهجوم بالاحتياطي لخرق الخطوط، والانقضاض بالخيّالة، بالرجال الحديديين، كل هذه الوسائل استخدمت ولم يحرز نابليون النصر، بل إن الأنباء كانت تتوارد عليه من كل صوب مُعلنة عن قتل القادة أو جرحهم، وعن الحاجة الماسة إلى التعزيزات، وعن تعذر دحر الروس، وعن تفكك القطعات.

كان يكفي من قبل أمران أو ثلاثة، وجملتان أو ثلاث، حتى يهرع المارشالات والمساعدون العسكريون مهنئين ومتهللين ومعلنين عن غنائمهم من فيالق الأسرى، ومن «حزم الأعلام والنسور العدوة»، ومن المدافع والمتاع، وكان يكفي «مورا» إذنُ نابليون حتى يطلق فرسانه ويستولوا على القوافل. كذلك كان الأمر في «لودي» و«آركول»

و«ايينا»، و«اوسترليتس»، و«واغرام» الخ... لكن شيئاً رهيباً وقع لجنوده الآن.

وبالرغم من نبأ الاستيلاء على التحصينات، فقد كان نابليون يرى أن ما كان يجري الآن مختلف كل الاختلاف عما كان يجري في معاركه السابقة. وكان جميع من حوله، وهم رجال خبروا الحروب بالقتال، يرون رأيه. كانت الوجوه كلها حزينة، وكانت العيون تتحاشى أن تتلاقى. «بوسيه» وحده كان قميناً ألا يدرك أهمية ما يجري. أما نابليون فكان يعلم جيداً، بحكم خبرته الطويلة بالحرب، ما معنى المعركة التي لا ينتصر فيها المهاجم بعد ثماني ساعات من القتال، وبعد أن يبذل جهوده كافة. كان يعلم أنها معركة خاسرة وأن أدنى المفاجآت يمكنها –في هذا التوازن القلق إلى أعلى حدود القلق– أن تودي به وبجيشه.

وعندما كان يتذكر هذه الحملة الغريبة على روسيا التي لم ينتصر أثناءها في معركة، ولم يغنم فيها خلال شهرين، عَلَماً أو مدفعاً أو وحدة من الجند، وعندما كان ينظر إلى من حوله وقد اصطبغت وجوههم بحزن خفي، ويسمعهم يروون الأحاديث عن صمود الروس، عند ذاك كان يستولي عليه إحساس مقلق شبيه بالذي نشعر به في الحلم، وتمر بذهنه ضروب المفاجآت المشؤومة التي قد تؤدي إلى ضياعه. فقد ينقض الروس على جناحه الأيسر، وقد يخرقون مركز خطوطه،وقد تقتله هو نفسه قذيفة طائشة. كان كل ذلك ممكناً. كان لا يرتقب في معاركه السابقة، سوى المفاجآت السعيدة أما الآن فإن طائفة من المفاجآت المشؤومة تطوف بباله، وهو ينتظرها جميعاً. كان ذلك شبيهاً بما يجري في الحلم، عندما يرى المرء شريراً يهاجمه فيرفع يده ليضربه الضربة الرهيبة القاضية لكنه يحس بيده واهنة رخوة كالخرقة، ويحس برهبة الموت المحتم تشد خناقه.

إن نبأ مهاجمة الروس لجناحه الأيسر ضيّق صدره وملأه بمثل تلك الرهبة. فظل جالساً بصمت على كرسي الميدان عند سفح الأكمة، وقد أطرق رأسه وأسند مرفقيه إلى ركبتيه. اقترب منه «بيرتييه» واقترح عليه الطواف بالخطوط ليتبين الوضع نفسه.

قال نابليون:

- كيف؟ ماذا تقول؟ نعم، مُر لي بحصان.

اعتلى صهوة الجواد واتجه إلى «سيمينوفسكوي».

في دخان البارود الذي أخذ ينكشف شيئاً فشيئاً على طول الطريق التي قطعها نابليون، كانت جثث الخيول والرجال ترقد واحدة واحدة أو مكدسة بعضها فوق بعض، في برك من الدم. لم ير نابليون قط ولم ير مساعدوه مثل هذا الهول، ومثل هذا العدد من الجثث في مثل تلك الرقعة الصغيرة. كان هدير المدافع الذي لم ينقطع منذ نحو عشر ساعات يصم الآذان ويسبغ على هذا المشهد ضرباً من المهابة الخاصة. (كما ترافق الموسيقا اللوحات الحية). صعد نابليون إلى أعلى «سيمينوفسكوي» وشاهد، خلال الدخان، صفوفاً من الرجال ببزات لم يألف ألوانها. كان هؤلاء هم الروس.

كان الروس يقفون في صفوف متراصة خلف «سيمينوفسكوي» والأكمة، وكانت مدافعهم تدوي بلا كلل، فتملأ خطهم كله بدخانها. لم يكن هناك معركة، وإنما كان هناك مجزرة مستمرة، قتل لا يمكن أن يعود بشيء لا على الروس ولا على الفرنسيين. أوقف نابليون حصانه وعاد إلى أحلام اليقظة التي أخرجه «بيرتييه» منها؛ لم يكن بوسعه إيقاف ما كان يجري أمامه وحوله وما يظن أنه من صنعه وأنه منوط به، ولأول مرة، بدت له المعركة، على أثر هذا الفشل، عديمة الجدوى، فظيعة.

جوّز لنفسه جنرال لحق به فاقترح عليه أن يزج بالحرس القديم. تبادل «ناي» و«بيرتييه» نظرة وافترت شفاههما عن بسمة ازدراء لهذا العرض الأرعن.

أطرق نابليون ووجم، ثم قال:

لن أهلك حرسي على ثمانمئة ميل من فرنسا.

وثنى عنان جواده ورجع إلى «شيفاردينو»

***

الفصل الخامس والثلاثون

كان «كوتوزوف» جالساً على المقعد المغطى بسجادة، في الموضع نفسه الذي رآه فيه بطرس عند الصباح، مطرقاً رأسه الأشيب، متهالكاً بكل ثقل جسمه. لم يكن يصدر أمراً وكان يكتفي بالموافقة أو عدم الموافقة على ما يعرض عليه.

كان يجيب على مختلف الاقتراحات: «نعم، نعم، افعلوا ذلك» ويقول لهذا أو ذاك من خلصائه: «نعم، نعم، اذهب، يا عزيزي، وانظر في الأمر»، أو يقول: «لا، لا فائدة من هذا، الأوْلى أن ننتظر». كان يصغي إلى التقارير التي تقدم إليه، ويصدر الأوامر عندما يطلب إليه مرؤوسوه ذلك؛ لكنه كان يبدو، وهو يصغي، معنياً لا بمعنى الكلمات التي تقال له، بل بشيء آخر، في تعبير الوجوه، وفي اللهجة التي تقال بها تلك التقارير. كان يعلم، بحكم خبرته الطويلة بالحرب، ويدرك بحكمته، حكمة الشيخ، أن رجلاً واحداً لا يمكن أن يقود مئات آلاف الرجال الذين يصارعون الموت، كان يعلم أن ما يقرر مصير المعارك ليست أوامر القائد العام، ولا الموقع الذي تحتله القطعات، ولا عدد المدافع والقتلى، وإنما هي تلك القوة الخفية التي تسمى روح الجيش، وكان يراقب تلك القوة ويقودها جهد المستطاع.

كان وجهه يشف عن انتباه هادئ مركّز، انتباه يجد مشقة في التغلب على عناء هذا الجسم الشائخ الضعيف.

في الساعة الحادية عشر صباحاً جاء مَنْ ينبئه بأن التحصينات التي احتلها الفرنسيون قد استعيدت، وبأن الأمير باغراتيون جريح. فأطلق «كوتوزوف» صيحة تعجب وهز رأسه. وقال لأحد مساعديه العسكريين:

– اذهب إلى الأمير «بطرس ايفانوفيتش»، وانظر بالتفصيل إلى ما جرى له.

ثم التفت نحو أمير «ورتمبرج»[1] الذي كان يقف وراءه، وقال له

– هل تتفضل سموّك، بتولي قيادة الجيش الثاني؟

بعد ذهاب الأمير بقليل، وقبل أن يصل إلى «سيمينوفسكوي»، رجع مساعده العسكري ليقول لصاحب الرفعة: إنه يطلب تعزيزات.

قطّب «كوتوزوف» حاجبيه وأرسل إلى «دوكتوروف» يأمره بتولي قيادة الجيش الثاني، أما الأمير الذي لم يكن بوسعه أن يستغني عنه – على حد قوله– في مثل هذه اللحظات الخطيرة، فقد رجاه بالعودة إلى جانبه. وعندما أنبئ بأن «مورا» وقع في الأسر وراح رجال الأركان يهنئونه، تبسم وقال:

– مهلاً، يا سادة. لقد ربحنا المعركة وليس في أسر «مورا» ما هو خارق للعادة. لكن من الأفضل أن ننتظر كي نبتهج.

ومع ذلك فقد أرسل مساعداً عسكرياً يبشر القطعات بهذا النبأ.

عندما وصل «تشربينين» من الجناح الأيسر ليعلن أن الفرنسيين

١– أمير ورتمبرج: أوجين دي ورتمبرج (١٧٨٨–١٨٥٧) ابن أخي الإمبراطورة ماريا وابن عم الكسندر الأول. دخل في خدمة روسيا منذ صباه وأصبح فيها جنرالاً.

استولوا على تحصينات «سيمينوفسكوي»، قدّر «كوتوزوف» من وجهه ومن الشائعات التي كانت تأتي من ساحة القتال أن الأمور لا تسير سيراً حسناً، فنهض كأنما يريد أن يحرك ساقيه، وأخذ الضابط بيده، وانتحى به جانباً. ثم قال لايرمولوف:

– اذهب، يا عزيزي، وانظر إن كان في مقدورنا أن نفعل شيئاً.

كان «كوتوزوف» في «غوركي»، في قلب الموقع الروسي. وقد صد الهجوم الذي شنه نابليون على جناحنا الأيسر عدة مرات. وفي الوسط لم يتجاوز الفرنسيون «بورودينو». أما في الجناح الأيسر فإن خيّالة «أوفاروف» هزموا الفرنسيين.

في نحو الثالثة، توقفت الهجمات الفرنسية. وكان «كوتوزوف» يقرأ على وجوه الذين يصلون من ساحة القتال والذين يحيطون به معاني التوتر الذي بلغ أقصى غايته. كان راضياً عن هذا النهار الذي فاق نجاحه ما كان يؤمل. لكن القوى الجسدية كانت تتخلى عن هذا الشيخ. فلقد انحنى رأسه على صدره مرات ونام. وقُدّم له الغداء.

وبينما هو يأكل، وصل «ولزوجين» مساعد الإمبراطور العسكري، وهو الذي قال أثناء مروره أمام الأمير آندريه «يجب أن تتسع رقعة الحرب»، والذي كان يكرهه «باغراتيون» كثيراً. كان آتياً من قبل «باركلي» ليشرح الوضع في الجناح الأيسر. ذلك أن «باركلي دي تولي» الفطن الحذر قرر، أمام سيل الجرحى وفوضى المؤخرة، وبعد أن وزن ظروف المعركة، أن المعركة خاسرة فبعث بصديقه المفضل ليحمل النبأ إلى القائد العام.

حدجه «كوتوزوف» بعين خوصاء، وهو يمضغ بمشقة لقمة من دجاج مشوي.

اقترب «ولزوجين» من «كوتوزوف»، وهو يحرك رجليه بتراخ، وعلى شفتيه ابتسامة فيها الكثير من التعالي، ولمس مقدمة خوذته لمساً خفيفاً.

كان «ولزوجين» يتكلف إزاء القائد العام ضرباً من التهاون غايته أن يظهر أنه، وهو العسكري العظيم الشأن، يترك للروس أن يتخذوا من هذا الشيخ الذي لا نفع فيه معبوداً لهم، لكنه هو يعرف حقيقته. قال في نفسه وهو يلقي نظرة صارمة على الصحون الموضوعة أمام «كوتوزوف»: السيد العجوز (هكذا كان يسميه الألمان فيما بينهم) يُرفّه نفسه. ثم جعل يشرح له الوضع في الجناح الأيسر كما رآه «باركلي» وكما رآه وفهمه هو نفسه:

– كل نقاط موقعنا في يد العدو، ونحن لا نستطيع أن نصدهم بسبب نقصان الجند، الجنود يهربون ومن المتعذر إيقافهم.

توقف «كوتوزوف» عن المضغ، وحدّق في «ولزوجين» بعينين مدهوشتين، وكأنه لم يفهم ما قيل له. فقال «ولزوجين» وهو يبتسم، لدى رؤية انفعال «السيد العجوز»:

لم أر من حقي أن أخفي عن سموكم ما رأيت... لقد تشتّتت صفوف الجند تماماً....

صرخ «كوتوزوف» وقد قطّب حاجبيه ونهض بقوة ومشى نحو «ولزوجين» وهو يحرك يديه المرتجفتين مهدداً، ويكاد يختنق:

– أنت رأيت ذلك؟ أنت رأيت ذلك؟... كيف... كيف تجرؤ!.... كيف تجرؤ، يا سيدي، أن تقول هذا لي أنا. إنك لا تعلم شيئاً. قل للجنرال «باركلي» عن لساني: إن معلوماته خاطئة، وإنني أنا، القائد العام، أعرف أكثر مما يعرف، عن سير المعركة.

أراد «ولزوجين» أن يرد عليه، لكن «كوتوزوف» لم يتح له ذلك، وقال له بجفاء:

- لقد صُدّ العدو على الجناح الأيسر، وهزم على الجناح الأيمن. وإذا كنت لم تر، يا سيدي، فينبغي ألا تسمح لنفسك أن تتكلم بما تجهله. تفضل وعد إلى الجنرال «باركلي» وأعلمه برغبتي الصريحة في مهاجمة العدو غداً.

صمت الجميع و لم يسمعٍ سوى ذلك النفس اللاهث ينبعث من الجنرال العجوز. وأردف قائلاً وهو يرسم إشارة الصليب:

- لقد صُدّ العدو في كل المواقع، والشكر لله ولجيشنا الباسل. لقد غُلب العدو، وغداً سنطرده من أرض روسيا المقدّسة.

وفجأة اغرورقت عيناه بالدموع، وزفر زفرة. فهز «ولزوجين» كتفيه، ولوى شفتيه، ومضى بصمت دهشاً من اعتداد السيد العجوز بنفسه[1].

قال «كوتوزوف» وهو يشير إلى جنرال جميل، جسيم، أسود الشعر، كان يصعد الأكمة في هذه اللحظة:

- انظر، ها هو ذا بطلي.

كان القادم هو الجنرال «رايفسكي» الذي قضى النهار كله في النقطة الرئيسية من ساحة القتال في «بورودينو».

أعلن «رايفسكي» أن القطعات ثابتة في مواقعها وأن الفرنسيين لا يجرؤون على مهاجمتها.

١- وردت هذه الجملة بالألمانية في النص الروسي.

وبعد أن أصغى إليه «كوتوزوف»، قال بالفرنسية:

– أنت لا ترى كالآخرين إذن أننا مضطرون إلى الانسحاب؟

قال «رايفسكي»:

– على العكس، يا صاحب السمو، إذا ترجح النصر فالرابح أبداً، هو أشد الفريقين عناداً.

صاح «كوتوزوف» بمساعده العسكري:

– «كايساروف»! اجلس، واكتب الأمر اليومي للغد. وأنت – وأشار إلى مساعد آخر – امضِ ودُر على الخطوط وأعلن أننا سنهاجم غداً.

بينما كان الحديث يجري بينه وبين «رايفسكي»، وبينما كان الأمر اليومي يحرر، رجع «ولزوجين» من قبل «باركلي» وأنبأه أن الجنرال «باركلي دي تولي» يريد تأييداً خطياً لأمر الفيلد مارشال.

ودون أن ينظر إليه «كوتوزوف» أمر بتحرير ذلك الأمر الذي طلبه القائد العام القديم ليكون في مأمن من المسؤولية.

وبفضل هذا الرابط الخفي الذي لا سبيل إلى تحديده، والذي يحافظ على الحالة النفسية ذاتها في الجيش بأسره، تلك الحالة التي تسمى معنويات الجيش والتي هي عصب الحرب الرئيسي، فإن كلمات «كوتوزوف» وأمره اليومي الذي يعلن فيه الهجوم في اليوم التالي، انتشرت رأساً من أول الجيش إلى آخره.

إن ما نقل إلى آخر حلقة من هذه السلسلة كان بعيداً عن أن يكون كلماته نفسها، وعبارات الأمر اليومي ذاتها. بل إنه لم يكن فيما تنوقل

بالتدريج، من أول الجيش إلى آخره، ما يشبه أقوال «كوتوزوف» في شيء، لكن معنى أقواله شاع في كل مكان. لأن ما قاله لا ينجم عن اعتبارات معقدة، وإنما عن الشعور الذي يحرك روح القائد العام وروح كل روسي.

عندما علم هؤلاء الرجال المنهوكون، المخلخلون أننا سنهاجم العدو غداً، وعندما تلقوا من القيادة العليا تأييداً لما يريدون الإيمان به، اشتد أزرهم وعادت إليهم شجاعتهم.

***

الفصل السادس والثلاثون

كان فوج الأمير «آندريه» جزءاً من الاحتياطي الذي ظل حتى الساعة الثانية بدون عمل، خلف «سيمينوفسكوي»، تحت نار عنيفة من المدفعية. وفي نحو الساعة الثانية، تقدم الفوج الذي فقد أكثر من مئتي رجل، عبر حقل من الشوفان وطئته الأرجل، إلى المكان الذي يفصل «سيمينوفسكي» عن بطارية الأكمة، وهو المكان الذي قتل فيه هذا اليوم آلاف الرجال والذي وجهت إليه في نحو الساعة الثانية نار متقاربة من مئات المدافع العدوة.

هنا أيضاً فقد الفوج ثلث عدده، دون أن يترك موقعه، ودون أن يطلق طلقة واحدة. وأمام الفوج ولاسيما على يمينه، كانت المدافع ترعد، وسط دخان لا يريد أن ينقشع؛ ومن منطقة الدخان الخفية تلك كانت تصل القذائف دون توقف وهي تنش نشيشاً قصيراً، والقنابل وهي تصفر صفيراً ممدوداً. وأحياناً، كانت القذائف تتجاوز هدفها، طيلة ربع ساعة، وكأنها تهادنه، لكنها أحياناً أخرى، كانت تحصد، في ظرف دقيقة واحدة، عدداً كبيراً من الرجال في الفوج، فلا يكف الباقون عن رفع القتلى والجرحى ونقلهم.

لدى كل انفجار جديد، كانت فرص الحياة تتضاءل بالنسبة إلى الذين لم يقتلوا بعد. كان الفوج منتشراً في أرتال من الكتائب،

بين الكتيبة والأخرى ثلاثمئة قدم، ولكن بالرغم من ذلك كانت تسيطر على هؤلاء الرجال جميعاً حالة نفسية واحدة، كانوا جميعاً واجمين، متجهمين، لا يتبادلون الأحاديث إلا في النادر، وكانت هذه الأحاديث تقف كلما سقطت قذيفة وارتفع الصراخ: النقالات! وكان الجنود يظلون في معظم الوقت، جالسين على الأرض، بناء على أوامر قادتهم. كان هذا يرفع عمرته ويقلب كفتها ثم يردها بعناية؛ وذاك ينظف حربته بالطين الذي جبله في باطن كفه؛ وثالث يسوي حزام جواده ويعيد ربطه؛ ورابع يصلح ويحل اللفائف التي تقوم مقام الجوارب برفق، ثم يلفها وينتعل حذاءه. وعندما كان الرجال يجرحون أو يقتلون، وعندما كان يبدو صف النقالات، وعندما كان رجالنا يتراجعون، وعندما كانت كتل العدو المتراصة تبدو خلال الدخان، فإن أحداً لم يكن يوليها انتباهاً. أما عندما تتقدم مدفعيتنا أو يتقدم فرساننا، وعندما كان مشاتنا يشرعون في الزحف، عند ذاك كانت ترتفع من كل صوب صيحات الاستحسان. لكن أكثر ما كان يسترعي الانتباه إنما كان الحوادث العرضية التي لا صلة لها بالمعركة. فكأن انتباه جميع هؤلاء الرجال المنهوكين معنوياً كان يتركز على تلك الحوادث التافهة من الحياة اليومية. مرت بطارية أمام جبهة الفوج فعلقت بالمجر رجل حصان يحمل صندوقاً، عند ذاك صاح الجميع بصوت واحد: إيه! إياك والحصان!... أرجع الصندوق إلى وضعه! وإلا سقط!... ماذا! ألا يرون!...

وفي مرة ثانية استرعى الانتباه العام كلب كستنائي صغير، مبروم الذيل، لا يعلم أحد من أين جاء يركض مرعوباً أمام الخطوط، فلما سقطت قنبلة فجأة نبح وضم ذيله واندفع جانباً. فانفجر الفوج كله ضاحكاً وأطلق صيحات الفرح. لكن تسليات من هذا النوع لم تكن تدوم سوى لحظة، بينما مضى أكثر من ثماني ساعات والرجال

مايزالون هنا جياعاً، لا يفعلون شيئاً، في ظل الرعب المستمر من الموت، ووجوههم الشاحبة المتجهمة تزداد شحوباً وتجهماً.

كان الأمير آندريه يروح ويجيء من ثلم إلى آخر في المرج المجاور لحقل الشوفان، متجهماً، شاحباً مثل رجاله، مطرق الرأس ويداه وراء ظهره. لم يكن لديه ما يفعله، لم يكن لديه أمر يلقيه. كان كل شيء يسير من تلقاء ذاته. كان الموتى يُجرّون إلى المؤخرة، والجرحى ينقلون والصفوف تتشكل من جديد. وإذا انصرف بعض الجنود لم يلبثوا أن يعودوا مسرعين. كان الأمير آندريه، في البدء، يمر بين الصفوف مقدراً أن من واجبه إثارة شجاعة رجاله وضرب المثل أمامهم، لكنه اقتنع بأن ليس لديه ما يعلّمهم إياه. كانت كل قواه الروحية وقوى كل جندي من جنوده تتجه لا شعورياً إلى شيء واحد هو عدم الوقوف طويلاً عن هول الموقف. كان يتمشى في المرج جاراً قدميه، واطئاً العشب وفاحصاً الغبار الذي يغطي حذاءه. فتارة يمشي بخطى واسعة محاولاً أن يضع قدميه فوق الآثار التي خلفها الحصادون، وتارة أخرى، يعد خطواته ويحسب كم مرة عليه أن ينتقل من ثلم إلى آخر حتى يقطع فرسخاً، وقد يقتلع نبات الأرطماسية من الأثلام ويدعكها بين يديه ويشم رائحتها القوية المرّة. لم يبق شيء مما أتعب فيه فكره بالأمس. لم يكن يفكر في شيء. كان يصيخ السمع بأذن كليلة إلى تلك الأصوات المتشابهة فيميز صفير القذائف وهي تصل، من إرعادها وهي تنطلق، ويرمي بنظره هذه الوجوه التي يعرفها جيداً، وجوه رجال الكتيبة الأولى، وينتظر. كان يقول في نفسه وهو يصغي إلى الصفير الآتي من منطقة الدخان: «وهذه قذيفة... لنا أيضاً». واحد اثنان! أيضاً! أصابت...! ويقف ويلقي نظرة على الصفوف. «لا، لقد مرت. وهذه لنا». ثم يستأنف سيره، جاهداً في أن يوسع خطاه ليصل إلى الثلم في ست عشرة خطوة.

ثم إذا به يحس صفيراً وصدمة! فعلى خمس خطوات منه حرثت قذيفة الأرض ودخلت فيها. وسرت في ظهره رعشة بالرغم منه. نظر إلى الصفوف مرة أخرى. لا ريب أن كثيرين قد أصيبوا، إذ شاهد في الكتيبة الثانية تجمعاً وغوغاء. صرخ بالضابط المرافق:

- مُرْ بتفريقهم.

دنا الضابط، بعد أن نفذ الأمر، من الأمير آندريه. ومن الجهةالأخرى أقبل قائد الكتيبة على حصانه.

أطلق جندي صيحة مرعوبة:

- حذار!.

وكما يصفر عصفور صغير وهو يحط على الأرض، سقطت قنبلة برفق، على خطوتين من الأمير آندريه، قرب حصان قائد الكتيبة، فانتفض الحصان، دون أن يسأل نفسه إن كان من اللائق أو غير اللائق إظهار خوفه، وشب، وكاد يرمي بالنقيب، وجرى على وجهه. فانتقل رعب الحصان إلى الرجال.

صاح صوت الضابط المرافق الذي التصق بالأرض:

- انبطحوا أرضاً!

ظل الأمير آندريه واقفاً، متردداً. كانت القنبلة المدخنة تدور كالخذروف بينه وبين الضابط المرافق الذي لزم الأرض، على الحد بين المرج والحقل، قرب أغصان ملتفة من الأرطماسية.

فكر الأمير آندريه وهو يتأمل بنظرة جديدة كل الجدة، مفعمة بالرغبة، العشب والأرطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكتلة

السوداء المحمومة، «أهو الموت حقاً؟ لا أستطيع أن أموت، ولا أريد أن أموت. أحب الحياة، أحب هذا العشب، هذه الأرض، هذا الهواء....» كان يفكر في ذلك وكان يشعر أنهم ينظرون إليه. قال للضابط المرافق:

– عيب عليك، يا سيادة الضابط! أي...

ولم يتم كلامه. ففي نفس اللحظة، تردد صوت انفجار واهتزاز شظايا، وكأنها زجاج محطم، وانتشرت رائحة الدخان الخانقة، ومال الأمير آندريه على جنبه بحركة عنيفة، وهوى إلى الأمام وهو يرفع ذراعه في الهواء.

هُرع بعض الضباط إليه. كانت تنتشر على العشب، من جنبه الأيمن، بقعة عريضة من الدم.

وقف المتطوعون الذين استدعوا ومعهم نقالاتهم خلف الضباط. كان الأمير آندريه مضطجعاً على بطنه، ووجهه في العشب، وهو يتنفس محشرجاً بكثير من الألم.

– هيا، ماذا تنتظرون، اقتربوا!

اقترب الفلاحون وحملوه من كتفيه وساقيه، لكنه أنَّ متوجعاً فأعادوه إلى الأرض بعد أن تبادلوا النظر فيما بينهم.

فصاح بهم صوت:

– هيا احملوه، سيّان عنده!

وحملوه من جديد، ووضعوه على النقالة.

قالت أصوات من الضباط:

- آه، يا إلهي! يا إلهي! أممكن هذا؟.... البطن! هذه هي النهاية! آه! يا إلهي!

وقال الضابط المرافق:

- لقد لامست أذني.

حمل الفلاحون النقالة على أكتافهم واتجهوا مسرعين إلى مركز الإسعاف، على طريق شقوه بجيئاتهم وروحاتهم.

صاح ضابط وهو يوقف الفلاحين من أكتافهم لأنهم كانوا يمشون مشية غير متسقة ويهزون النقالة:

- سيروا بالخطوة.... ايه!.... أيها الأفظاظ!

قال الفلاح الذي في المقدمة:

- اتبع خطاي، يا فيدور! ايه! فيدور، فيدور!

قال الذي في المؤخرة بفرح وهو يتبع خطاه:

- لا بأس، لقد فعلت.

قال «تيموخين» بصوت مرتجف وهو يهرع إلى النقالة ويلقي عليها نظرة:

- أهذا أنت، يا صاحب السعادة؟ هيه! يا أمير!

ففتح الأمير آندريه عينيه، ونظر من فوق حافة النقالة التي كان رأسه غارقاً فيها إلى الذي كان يتكلم، ثم عاد وأغمض جفنيه.

نقل الفلاحون الأمير آندريه إلى الغابة التي وقفت فيها عربات النقل

والتي أقيم فيها مركز الإسعاف. كان قوام المركز ثلاث خيام مفتوحة، منصوبة على أطراف غابة السندر. أما العربات والخيل فكانت بين الأشجار. وكانت الخيل تأكل الشوفان من مخاليها، وعصافير الدوري تحوم حولها لتلتقط ما تناثر من الحب، والغربان التي اشتمت رائحة الدم تنتقل من شجرة إلى أخرى وهي تنعق، وقد نفد صبرها. وعلى أكثر من هكتارين، حول الخيام، انتشر الرجال الملطخون بالدم، ببزاتهم المتباينة الألوان، مستلقين وجالسين وواقفين. وحول الجرحى تجمع الجنود حاملو النقالات مقطبين، واجمين، وكان الضباط المكلفون بحفظ النظام يحاولون عبثاً إبعادهم. فقد أصر هؤلاء الجنود على البقاء هنا، متكئين على نقالاتهم، محدقين فيما يجري أمامهم، وكأنهم يسعون إلى التقاط المعنى الذي يشق على الفهم في هذا المشهد. ومن الخيام، كانت تترامى صرخات عنيفة غاضبة تارة، وأنات شاكية تارة أخرى. وبين الوقت والآخر، كان يخرج منها ممرضون ويجرون بحثاً عن الماء، ويشيرون إلى الجرحى الذين يجب أن يحملوا إلى الداخل. وكان الجرحى الذين ينتظرون دورهم عند مدخل الخيام، يحشرجون ويئنون ويبكون ويصرخون ويكيلون الشتائم ويطلبون الفودكا. وكان بعضهم يهذي. ولقد نقل الأمير آندريه، بصفته قائداً للفوج، من فوق الجرحى الذين لم يضمدوا بعد، إلى قرب إحدى الخيم، وتوقف حاملوه بانتظار الأوامر. وفتح الأمير آندريه عينيه وظل زمناً طويلاً وهو لا يعلم ما يجري حوله. وعاد إلى ذاكرته المرج، ونباتات الأرطماسية، والحقل، والكتلة السوداء المحومة، واندفاعته المشبوبة إلى حب الحياة. وعلى خطوتين منه، وقف ضابط صف بهي الطلعة، مديد القامة، أسود الشعر، معصوب الرأس، يتكئ على غصن ويتكلم بصوت عال استرعى انتباه الجميع. كان جريحاً بالرصاص في رأسه وساقه. ومن حوله تجمع الجرحى وحاملو النقالات ليصغوا بلهفة إلى حديثه.

كان يصرخ وهو يبعث من عينيه السوداوين المتوقدتين ببريق:

- عندما أدركناهم ألقوا بكل شيء، حتى أننا التقطنا مليكهم. ولو وصل الاحتياطي في اللحظة المناسبة، لما بقي منهم شيء. أكيد ما أقوله لكم، يا أصحاب....

نظر الأمير آندريه إلى المتحدث، كما نظر إليه كل من حوله، بعينين ملتمعتين، وأحس بالعزاء. ثم قال في نفسه: «لكن ما الذي يهمني الآن مما حدث هناك ومما يحدث هنا؟ لماذا يشق علي أن أغادر الحياة؟ في هذه الحياة شيء لم أفهمه من قبل ولست أفهمه الآن.

***

الفصل السابع والثلاثون

خرج من الخيمة طبيب، ووزرتـه ملطخة بالدم، وكذلك يداه الصغيرتان، وقد أمسك في إحداهما بسيجار بين الإبهام والخنصر. (لكي لا يوسخه). ورفع رأسه ونظر حوله، لكن من فوق الجرحى. ولعله كان يريد أن يخلد إلى الراحة لحظة من الزمن. بعد أن دار يميناً ويساراً تنهد، وخفض بصره، وقال لممرض أشار له إلى الأمير آندريه.

- على الفور.

وأمر أن ينقل إلى الخيمة.

علت الغمغمة بين جمهور الجرحى، وقال أحدهم:

- ربما كانت الأماكن في العالم الآخر أيضاً محجوزة «للسادة».

حمل الأمير آندريه ووضع على طاولة شغرت لتوها، وكان الممرض ينظفها. ولم يستطع الأمير آندريه أن يتبين بالتفصيل ما الذي كان في الخيمة. فالأنات الشاكية المتصاعدة من كل صوب. والألم الشديد الذي كان يحسه في جنبه وبطنه وظهره، كل ذلك كان يصرفه عما حوله. لقد ذاب كل شيء في إحساس واحد، إحساسه بالجسد البشري العاري الدامي الذي كان كأنما يملأ الخيمة المنخفضة، كما كان يملأ هذا الجسد نفسه المستنقع الموحل على طريق «سمولنسك»، قبل أسابيع،

في ذلك اليوم القائظ من أيام آب. نعم، كان الجسد نفسه، لحم المدفع ذاك، هو الذي استفظع رؤيته آنذاك، وكأنما كانت تلك الرؤية تؤذن بما يجري اليوم.

كان في الخيمة ثلاث طاولات، اثنتان منها مشغولتان، وعلى الثالثة مدد الأمير آندريه. وقد ترك وحده بعض الوقت، فاستطاع أن يرى ما يجري على تينك الطاولتين. على أقربهما جلس تتري، قوزاقي، ولا ريب، إذا نظرنا إلى بزته الملقاة جانباً. كان أربعة جنود يثبتونه، بينما راح الطبيب يشق له ظهره الأسمر، الواضح العضلات. وهو ينخر كالخنزير شاكياً: أوه، أوه، أوه!...

وفجأة رفع وجهه الأسمر ذا الوجنتين البارزتين، والأنف الأفطس، وكشف عن أسنانه البيضاء، وأطلق صرخة حادة مرتعدة، وعلى الطاولة الأخرى التي ازدحم حولها كثير من الناس، مدد على ظهره رجل طويل، قوي، وقد ألقى برأسه إلى الوراء (بدا للأمير آندريه أنه يعرف هذا الشعر الجعد ولونه وشكل الرأس معرفة غريبة). وكان عدد من الممرضين ينحنون بثقلهم على صدر هذا الرجل ويثبتونه. كانت ساقه الطويلة، البيضاء، الربلة، لا تني تنتفض انتفاضاً سريعاً تشنجياً، وكان هو ينتحب انتحاباً متشجناً ويكاد يختنق. وأكب طبيبان أحدهما شاحب مرتعش، على ساقه الأخرى المضرجة بالدم، وفعلا بها شيئاً، من غير أن ينبسا بحرف.

وبعد أن فرغ الطبيب ذو النظارتين من التتري الذي غطى بمعطفه، دنا من الأمير آندريه وهو يمسح يديه.

ألقى نظرة سريعة على وجهه، والتفت على عجل إلى الممرضين، وصاح بغضب:

- انزعوا ثيابه! ماذا تنتظرون؟

عادت إلى ذاكرة الأمير آندريه طفولته الأولى، البعيدة، عندما عمد الممرض الذي شمر عن ساعديه إلى فك أزرار ثيابه ونزعها بسرعة. انحنى الطبيب على الجرح، وجسه، وتنهد تنهداً عميقاً. ثم أشار إلى أحدهم. وما لبث الألم المبرح أن أفقد الأمير آندريه وعيه. فلما صحا، كانت شظايا عظم الفخذ قد انتزعت، ومزق اللحم قد قطعت، والجرح قد ضمد. وكان وجهه يرش. وما إن فتح عينيه حتى انحنى الطبيب فوقه وقبله في شفتيه بصمت وابتعد مسرعاً.

كان الأمير آندريه يشعر، بعد الآلام التي قاساها، بإحساس من الراحة لم يشعر به منذ زمن طويل. إن أفضل لحظات حياته، ولاسيما طفولته الأولى، عندما كانت مربيته تنزع عنه ثيابه، وتضجعه في السرير، وتغني له أغنيات تهدهده بها، وعندما كان يشعر، ورأسه غارق في الوسادة بالسعادة لمجرد إحساسه بأنه يحيا، إن هذه اللحظات مثلت أمام خياله على إنها الماضي، بل على أنها الواقع.

كان الأطباء يبالغون في العناية بذلك الجريح الذي بدت حواشي رأسه غير بعيدة عن الأمير آندريه، فيجلسونه ويهدئونه وهو يئن بصوت تقطعه الزفرات، وقد روعته الآلام وتغلبت عليه:

- أرونيها... أوه! أوه! أوه!

كان الأمير آندريه، عند سماعه ذلك الأنين، يشتهي أن يبكي. ألأنه يموت بلا مجد، أو لأنه يأسف على فراق الحياة، أو بتأثير ذكريات الطفولة التي مضى عهدها، أو لأنه يتألم وأن غيره يتألمون، وأن هذا الرجل يتوجع أمامه على نحو مثير للشفقة، ألهذا كله اشتهى الأمير آندريه أن يذرف دموعاً، دموع الطفل العذبة القريبة من دموع الفرح؟

ولما أروا الجريح ساقه المبتورة في حذائه المليء بالدم المتجمد، انتحب كما تنتحب المرأة: «أوه»! «أوه»! فتنحى الطبيب الذي كان ينكب على المريض ويخفي وجهه. قال الأمير آندريه في نفسه:

– يا إلهي! ماهذا؟ و لم هو هنا؟

ذلك أنه عرف في ذلك البائس، المنهوك، الذي كان ينتحب والذي بترت ساقه قبل حين، «آناتول كوراجين». أُسند آناتول من إبطيه وقُدّمت له كأس ماء فلم يفلح في أن يطبق شفتيه المرتجفتين، المتورمتين على حافتها، كان ينتحب بشدة، كمن لا رجاء له. قال الأمير آندريه في نفسه، وهو لم يدرك بوضوح بعد ما يراه أمام عينيه: «نعم، إنه هو بعينه، نعم، هناك شيء يربط هذا الرجل بي ربطاً وثيقاً مؤلماً؟» ثم تساءل دون أن يجد الجواب: «ما ذلك الرابط الذي يربط هذا الرجل بطفولتي، بحياتي؟». وإذا بذكرى جديدة، لم تخطر بباله من قبل، ذكرى من عالم الطفولة النقي المفعم بالحب تهجم عليه. تذكر «ناتاشا» كما رآها أول مرة في الحفل الراقص عام ١٨١٠، بعنقها النحيف، وذراعيها الدقيقتين، ووجهها الخائف، السعيد، المستعد للحماسة، فاستيقظ حبه وحنانه كأشد ما يكونان حياة وقوة. تذكر الآن ذلك الرابط بينه وبين هذا الرجل الذي يرميه بنظرة كابية، من خلال الدموع التي تغشي عينيه المنتفختين. تذكر كل شيء فامتلأ قلبه السعيد برحمة وحب بالغين لهذا الرجل.

لم يستطع الأمير آندريه أن يتمالك نفسه فذرف دموع العطف والحب، على الناس وعلى نفسه، وعلى غيه وغيهم.

«الشفقة، حب إخواتنا، حب الذين يحبوننا والذين يكرهوننا، حب أعدائنا، ذلك الحب الذي بشر به الله على الأرض والذي علمتني إياه

الأميرة ماريا فلم أفهمه، هذا هو الذي يدعوني إلى الأسف على الحياة، هذا ما بقي لي إن قدر لي أن أحيا. ليت شعري! لقد فات الأوان الآن».

***

الفصل الثامن والثلاثون

إن المنظر المرعب لساحة القتال المغطاة بجثث القتلى وبالجرحى، إضافة إلى الثقل الذي كان يحس به نابليون في رأسه، وإلى نبأ قتل عشرين من جنرالاته الذين يعرفهم أو جرحهم، وإلى شعوره بعجز يده التي كانت قوية من قبل، كل ذلك ترك في نفسه أثراً لم يكن يتوقعه، وهو الذي من عادته أن يحب منظر القتلى والجرحى لأن ذلك امتحان لقوة نفسه (على حد تفكيره). أما في هذا اليوم، فإن منظر ساحة المعركة الرهيب تغلب على قوة روحه تلك التي كان يرى فيها مزيته وعظمته. فمضى مسرعاً وعاد إلى تل «شيفاردينو»، مصفراً، منتفخاً، ثقيلاً، كابي العينين، أحمر الأنف، مبحوح الصوت، وظل جالساً على كرسيه، مصغياً بالرغم منه، ودون أن يرفع عينيه، إلى أصوات الانفجارات. كان ينتظر بقلق مؤلم نهاية هذه المعركة التي كان يعتقد أنه يشارك فيها لكنه لا يستطيع إيقافها. وطغى على ذلك السراب الخداع، سراب الحياة التي عاش من أجله زمناً طويلاً، شعور شخصي، إنساني، لم يستمر إلا لحظة قصيرة. فعانى بنفسه كل ما رآه في ساحة القتال من موت ومن آلام. وذكر ثقل رأسه وضيق صدره بأنه يمكن أن يتألم ويموت هو أيضاً. في هذه اللحظة لم يكن يريد لنفسه لا موسكو، ولا النصر، ولا المجد. (ما المجد الذي ما يزال يحتاج إليه؟) كل ما كان يتوق إليه الآن هو الراحة والهدوء والحرية. لكنه عندما توقف على مرتفع «سيمينوفسكوني»،

اقترح عليه قائد المدفعية أن يضع فيه بعض البطاريات لدعم النار الموجهة إلى القطعات الروسية المتمركزة أمام «كنيازكوفو»، فوافق على ذلك وأمر أن يقدم إليه تقرير بالنتائج الحاصلة.

وجاء أحد المساعدين العسكريين لينبئه أن مئتي مدفع سددت إلى الروس، بناء على أوامر الإمبراطور، لكن الروس مازالوا صامدين.

قال:

– إن نارنا تحصد صفوفاً كاملة منهم، ومع ذلك فهم صامدون.

قال نابليون بصوت أجش:

– إنهم بحاجة إلى المزيد!...

ولم يسمع المساعد العسكري جيداً، فقال مستفهماً:

– مولاي!

قال نابليون بنفس الصوت الأجش، وهو يقطب حاجبيه:

– إنهم بحاجة إلى المزيد، زدهم منها.

ما أراده نابليون كان يتم، حتى بدون أمره، ولم يكن يتخذ التدابير إلا لاعتقاده أنهم ينتظرون أن يتخذها. ومرة أخرى، انتقل إلى عالمه الاصطناعي، إلى سراب العظمة، ومرة أخرى، كان يقوم مذعناً بذلك الدور الكالح، الوحشي، المؤلم (كالحصان الذي يدير ناعورة ويعتقد أنه يفعل شيئاً لنفسه)، هذا الدور اللاانساني الذي كُتب عليه أن يلعبه.

لم تكن هذه هي الساعة الوحيدة، ولم يكن هذا هو اليوم الوحيد اللذين يظلم فيهما ذهن ذلك الرجل ووجدانه، ذلك الرجل الذي

يتحمل تبعة ما يجري أكثر من أي إنسان آخر؛ لم يتوصل نابليون حتى أواخر أيامه إلى إدراك الخير والجمال والحق، ولا إدراك مدى أهمية أعماله التي كانت منافية للخير والحق أشد منافاة، بعيدة عن الشعور الإنساني أشد بعد، إلى الحد الذي كان عاجزاً معه عن ذلك الإدراك. لم يكن بوسعه أن يتنكر لأفعاله التي مجدها نصف العالم، فكان عليه، من ثم أن يعدل عن الحق والخير وعن كل شعور إنساني.

لم يكن هذا هو اليوم الوحيد الذي يطوف فيه بساحة القتال المفروشة بالرجال القتلى أو المشوهين (بمشيئته كما كان يعتقد)، فيحسب، وهو ينظر إلى هؤلاء الرجال، نسبة الروس إلى الفرنسيين، ويغتر فيجد المسوغ للابتهاج حين يتبّين أن النسبة كانت خمسة روس إلى فرنسي واحد. ولم يكن هذا هو اليوم الوحيد الذي يكتب فيه إلى باريس: «إن ساحة القتال كانت رائعة» لأن خمسين ألف جثة تغطيها، بل أنه كتب في جزيرة القديسة هيلانة أيضاً، في هدوء الوحدة، حيث كان ينوي، كما قال، أن يكرس أوقات فراغه لرواية الأمور العظام التي صنعها، كتب يقول:

كان ينبغي للحرب الروسية أن تكون أكثر حروب العصور الحديثة شعبية: كانت حرب العقل السليم والمصالح الحقيقية، حرب راحة الجميع وأمنهم؛ كانت حرباً سلمية محضة ومحافظة خالصة.

كانت بالنسبة إلى القضية الكبرى، نهاية المخاطر وبداية الأمن. وكانت ستنجلي عن آفاق جديدة وأعمال جديدة مليئة برفاه الجميع وازدهارهم. لقد غدا النظام الأوروبي قائماً، ولم يبق سوى تنظيمه.

ولو أني وجدت الرضى عن هذه النقاط الكبرى، ووجدت الهدوء عاماً، شاملاً، إذن لكان لي مؤتمري وحلفي المقدس، فهذه أفكار سرقت

مني، ولتناولنا بالبحث، في اجتماع الملوك الكبار ذاك، مصالح أسرتنا ولقدمنا للشعوب حساباً دقيقاً.

وبهذا الشكل كانت أوروبا ستغدو بعد حين شعباً واحداً، وكان كل واحد سيجد نفسه أبداً، أينما سافر، في الوطن المشترك. كنت سأطلب أن تكون الأنهار مفتوحة للملاحة بالنسبة إلى الجميع، وأن تكون البحار مشتركة، وأن تُحوَّل الجيوش الدائمة الكبيرة إلى مجرد حرس للملوك.

كنت سأعلن، بعد عودتي إلى فرنسا، في قلب الوطن العظيم، القوي، الرائع، الهادئ، المجيد، عن حدوده الثابتة، وعن أن كل حرب مقبلة ستكون حرباً دفاعية، خالصة؛ وأن كل توسع جديد معاد للقومية. كنت سأربط مصير ولدي بالإمبراطورية؛ وعند ذاك ستنتهي دكتاتوريتي وسيبدأ حكمه الدستوري...

كانت باريس ستكون عاصمة الدنيا، وكان الفرنسيون سيكونون محط أنظار الأمم!...

وكانت أوقات فراغي وأيام شيخوختي ستكرس، بعد ذلك، لزيارة معالم الإمبراطورية، بصحبة الإمبراطورة وأثناء تدرب ابني على شؤون الملك، زيارة مستأنية، كزوجين ريفيين، وعلى جيادي الخاصة مستقبلاً الشكاوي، مصححاً الأخطاء، ناشراً في كل مكان روائع الفن والحسنات».

لقد كان يريد أن يقنع نفسه، وهو الذي سخرته العناية الإلهية لأن يقوم بدور كالح، دور جلاد الأمم، بأن هدف أعماله كان لخير الأمم، وأنه كان يستطيع أن يتحكم بمصير ملايين البشر، وأن يبني سعادتهم بالقوة!

وكتب في مكان آخر بصدد حملة روسيا:

«من ٤٠٠٠٠٠ رجل عبروا «الفستول»، كان النصف نمساوياً وبروسياً وسكسونياً وبولونياً وبافارياً وورتمبرجيا وميلكنبورجياً واسبانياً وايطالياً ونابولياً. أما الجيش الإمبراطوري بالمعنى الصحيح، فكان ثلثه مؤلفاً من الهولنديين والبلجيكيين وسكان ضفتي الرين، والسويسريين وسكان الفرقة الثانية والثلاثين العسكرية، «بريم» وهامبورغ الخ؛ وكان عدده لا يكاد يصل إلى ١٤٠٠٠٠ رجل يتكلمون الفرنسية. لقد كلفت الحملة الروسية فرنسا الحالية أقل من خمسين ألف رجل؛ وفقد الجيش الروسي في انسحابه من «فيلنا» إلى موسكو، في مختلف المعارك، أربعة أضعاف ما خسره الجيش الفرنسي؛ وقضى حريق موسكو على حياة مئة ألف روسي ماتوا من البرد والبؤس في الغابات؛ وأخيراً أصيب الجيش الروسي أثناء سيره من موسكو إلى الأودر بتقلبات الطقس؛ ولم يتجاوز عدده، لدى وصوله إلى «فيلنا»، خمسين ألف رجل، ولدى وصوله إلى «كاليش» ثمانية عشر ألف رجل».

كان نابليون يتصور أن الحرب نشبت بينه وبين روسيا بمشيئته، ولم تستفدح نفسه هول فعلته بعد انتهائها. ولقد تحمل بجرأة قبعة الحادث كاملة، ورأى فكره المظلم تسويغاً لذلك في أن بين مئات آلاف القتلى كان عدد الفرنسيين أقل من عدد الهيسيين والبافاريين.

***

الفصل التاسع والثلاثون

كان عشرات آلاف الرجال يرقدون قتلى، في أوضاع وبزات شتى، على الحقول والمروج التي يملكها آل «دافيدوف» وفلاحو التاج، والتي ظل سكان قرى «بورودينو» و«غوركي» و«شيفاردينو» و«سيمينوفسكوي» يستثمرونها ويرعون مواشيهم فيها، قروناً طوالاً. وفي مراكز الإسعاف، على مساحة هكتار، كان العشب والتراب مشبعين بالدم. وكانت جماعات من الجنود الجرحى أو الأصحاء، من مختلف الوحدات، يسيرون إلى الوراء مروعين، بعضهم إلى «موجايسك» وبعضهم الآخر إلى «فالويفو». وكانت جماعات أخرى أنهكها التعب والجوع تمضي إلى الأمام بقيادة رؤسائها. وبقيت فئة أخرى في مكانها تطلق النار.

على امتداد ساحة القتال التي كانت جد جميلة وجد بهيجة قبل حين ببريق الحراب وبالأدخنة في شمس الصباح، هبطت الآن غلالة من الرطوبة والدخان وسطعت رائحة غريبة، حادة، من البارود والدم. وتراكمت السحب، وأخذ المطر الدقيق يهطل على الموتى وعلى الجرحى، على الرجال المرعوبين والمنهوكين الذين أخذ الشك يساور نفوسهم، وكأنما كان المطر يقول: «كفى، كفى، أيها الرجال. كفّوا... تمالكوا أنفسكم... ماذا تفعلون؟».

بدأ الجنود الذين هدهم التعب وأعوزهم الغذاء والراحة في كلا الجيشين يشكون في وجوب الاستمرار على استئصال بعضهم لبعض، وكان التردد يقرأ على جميع الوجوه، وبرز في كل نفس السؤال التالي: «لماذا ولمن ينبغي أن أقتل أو أقتل؟ اقتلوا من تشاؤون، افعلوا ما تشاؤون، أما أنا فلست أشتهي ذلك بعد الآن!» لقد نضجت هذه الفكرة، حوالي المساء، في نفس كل جندي. كان يمكن لهؤلاء الرجال في كل لحظة، أن يتملكهم الهول مما يفعلون، وأن يتركوا كل شيء مولين الأدبار إلى حيث تقودهم أرجلهم.

ومع أن هؤلاء الرجال أحسوا، عند نهاية المعركة، بفظاعة ما كانوا يفعلون، ومع أنهم فرحوا بالتوقف، إلا أن قوة خفية، لا سبيل إلى فهمها، ظلت تحكمهم، وظل المدفعيون الذين تغطوا بالعرق والبارود والدم والذين نقص عددهم إلى الثلث، يحملون، وهم يتعثرون ويلهثون من التعب، الذخائر ويحشونها، ويسددونها، ويشعلون الفتيل، وظلت القذائف تطير بنفس سرعتها ووحشيتها من كلا الجانبين وتمزق الأجساد البشرية، وهكذا كان يتم ذلك الشيء الرهيب الذي لا يتم بمشيئة البشر، ولكن بمشيئة الذي يحكم البشر والعوالم.

ولو أن أحداً لاحظ ما في مؤخرة الجيش الروسي من اضطراب لقال: أنه كان يكفي الفرنسيين أن يبذلوا شيئاً يسيراً من الجهد أيضاً حتى ينهار الجيش الروسي؛ ولو أن أحداً شاهد مؤخرة الجيش الفرنسي لقال: إنه كان يكفي الروس أن يبذلوا شيئاً يسيراً من الجهد أيضاً حتى يقضى على الجيش الفرنسي. لكن لا الفرنسيون ولا الروس بذلوا ذلك الجهد. وانتهت نار القتال إلى الانطفاء شيئاً فشيئاً.

لم يبذل الروس ذلك الجهد لأنهم لم يكونوا هم الذين هاجموا الفرنسيين. لقد اقتصروا، في بداية المعركة، على السيطرة على طريق

موسكو بسدها، وظلوا يسيطرون عليها في نهاية المعركة كما كانوا في بدايتها. ولكن حتى لو كان هدف الروس صد الفرنسيين لعجزوا عن بذل ذلك الجهد الأخير، لأن جميع قطعاتهم كانت مفككة، و لم تنجُ قطعة من التعرض لأذى المعركة، ففقد الروس، وهم في مواقعهم، نصف جيشهم.

أما الفرنسيون الذين شد من أزرهم ذكرى خمس عشرة سنة من الانتصارات، وإيمانهم بأن نابليون لا يقهر، وشعورهم بأنهم أصبحوا يتحكمون بجزء من ساحة القتال، وبأنهم لم يفقدوا بعد سوى ربع جيشهم، وبأن وراءهم عشرين ألفاً من رجال الحرس لم يصابوا بأذى، فقد كان من السهل عليهم أن يبذلوا ذلك الجهد. كان من واجب الفرنسيين الذين هاجموا الجيش الروسي بغية طرده من مواقعه، أن يبذلوا ذلك الجهد، ذلك أن الروس ماداموا يسدون طريق موسكو، كما كان الأمر قبل المعركة، فلن يبلغ الفرنسيون هدفهم وستذهب جهودهم وخسائرهم سدى. لكن الفرنسيين لم يبذلوا ذلك الجهد. ويرى بعض المؤرخين أن نابليون لو أمر بزج حرسه القديم الذي لم يصب بأذى لربح المعركة. لكن الكلام على ما كان سيقع لو أن نابليون أمر بزج حرسه القديم يشبه الحديث عما كان سيقع لو أن الربيع جاء في الخريف. لا يمكن لذلك أن يكون. وإذا كان نابليون لم يأمر بزج حرسه، فليس مرد ذلك إلى أنه لم يكن يريده، بل لأن ذلك كان مستحيلاً. وكان جنرالات الجيش الفرنسي وضباطه وجنوده يعلمون جميعاً بأن ذلك غير ممكن، لأن معنويات الجيش المتداعية لم تكن تسمح بذلك.

لم يحس نابليون وحده بهذا الشعور -الشبيه بما نحسه في الحلم- وهو أن يده الرهيبة ترتد فاقدة قوتها: فجنرالات الجيش الفرنسي وجنوده، مقاتلين كانوا أم لا، أحسوا، بعد تجاربهم الطويلة في المعارك

السابقة، (حيث كان العدو يلوذ بالفرار بعد جهود أقل بعشر مرات)، برهبة متماثلة أمام هذا العدو الذي فقد نصف جيشه وظل مرهوب الجانب في نهاية المعركة كما كان في بدايتها. لقد نفدت القوة المعنوية للجيش الفرنسي المهاجم. فالنصر الذي أحرزه الروس في «بورودنيو» لم يكن من هذه الانتصارات التي تقاس بالأرض المحتلة وبتلك الخرق التي تعلق بالعصي وتسمى أعلاماً، بل إنه كان نصراً معنوياً أقنع العدو بتفوق عدوه وأقنعه بعجزه هو. كان الغازي الفرنسي يتوجس الهلاك، كالوحش الهائج الذي أصيب إصابة قاتلة أثناء فراره؛ لكنه لم يكن يستطيع أن يتوقف، كما لم يكن يستطيع الجيش الروسي الذي هو أضعف مرتين أن يستسلم. كان الجيش الفرنسي يستطيع أن يسير، بفعل السرعة المكتسبة، حتى موسكو، لكنه كان لابد أن يهلك هناك، ولو لم يقم الجيش الروسي بأي جهد، بعد أن ينزف دمه من الجرح المميت الذي أصيب به في «بورودينو».

لقد كانت النتيجة المباشرة لمعركة «بورودنيو» فرار نابليون الذي لا سبب له من موسكو، وانسحابه على طريق سمولنسك القديمة، وفقدان جيش من خمسمائة ألف رجل، ونهاية فرنسا النابوليونية التي امتدت عليها، لأول مرة في «بورودينو» يد خصم يتمتع بقوة معنوية متفوقة.

***

الجزء الثالث

الفصل الأول

إن اتصال الحركة المطلق يستعصي فهمه على الفكر البشري. وليس يفهم الإنسان قوانين أية حركة إلا إذا فحص وحدات معينة منها. لكن من هذا التقسيم الاعتباطي للحركة المتصلة إلى وحدات غير متصلة إنما تنبع، على وجه التحديد، معظم الأخطاء البشرية.

نحن نعرف سفسطة القدماء التي تذهب إلى أن «آخيل» لن يدرك أبداً السلحفاة التي تسبقه، مع أن سرعته تساوي عشرة أضعاف سرعتها: ذلك أن «آخيل» عندما يقطع المسافة التي تفصله عن السلحفاة، تكون هذه قد قطعت عشر تلك المسافة؛ وعندما ما يقطع «آخيل» ذلك العشر تكون هي قد قطعت عشره، وهكذا دواليك، إلى ما لا نهاية. إن هذه المشكلة بدت غير قابلة للحل لدى القدماء. واستحالة هذه المشكلة («آخيل» لن يدرك السلحفاة أبداً) لم تنجم إلا عن التقسيم الاعتباطي للحركة إلى وحدات غير متصلة، على حين أن حركة «آخيل» وحركة السلحفاة متصلتان.

وعندما نقتطع من الحركة وحدات ممعنة في الصغر فإنما نقترب من حل المشكلة فقط دون أن نصل إلى ذلك الحل. ولن نصل إلى حل المشكلة إلا إذا قبلنا بقيمة متناهية في الصغر وبنموها التصاعدي حتى العشر، وحسبنا مجموع هذه المتتالية الهندسية. إن فرع الرياضيات الحديث

حين يكتشف فن حساب الكميات المتناهية الصغر، يعطي اليوم أجوبة عن المسائل التي كانت تبدو متعذرة الحل، حتى في مشكلات الحركة، وهي مشكلات أكثر تعقيداً.

إن هذا النوع الحديث من الرياضيات الذي لم يعرفه القدماء، حين يُدخل، في دراسة مشكلات الحركة، القيم المتناهية الصغر، أي التي تسمح بإعادة شرط الحركة الأساسي «الاتصال المطلق» يصحح بهذه الإعادة ذلك الخطأ المحتوم الذي لا يستطيع الفكر البشري أن يفلت منه عندما يفحص وحدات من الحركة معزولة بدلاً من الحركة المتصلة.

والأمر كذلك في البحث عن قوانين حركة التاريخ.

إن حركة البشرية، وهي محصلة مالا يحصى من الإرادات الفردية، حرة متصلة. ومعرفة قوانين هذه الحركة هي غرض التاريخ. لكن الفكر البشري يقبل بوحدات اعتباطية غير متصلة، بغية إدراك قوانين الحركة المتصلة لمجموع الإرادات الفردية. إن منهج التاريخ الأول يقوم على الاقتطاع الاعتباطي لزمرة من الحوادث المتصلة، وعلى النظر إليها بمعزل عن الزمر الأخرى، في حين أنه لا توجد ولا يمكن أن توجد بداية لحادث وأن الحادث ينبع دائماً وبدون انقطاع من حادث آخر. والمنهج الثاني يقوم على النظر إلى أفعال رجل واحد، كالملك أو قائد الجيش، على أنها مجموع إرادات البشر، في حين أن هذا المجموع لا يتجلى البتة في فعالية شخصية تاريخية واحدة.

إن العلم التاريخي، في تطوره، يتناول بالدراسة، وحدات ممعنة في الصغر، ويسعى جاهداً، بهذه الوسيلة، إلى أن يتقرب من الحقيقة. لكن مهما تكن الوحدات التي يقبل بها، بالغة الصغر، فنحن نحس أن القبول بوحدات منفصلة بعضها عن بعض، والقبول «ببداية» للظاهرة،

والقبول بأن إرادات جميع البشر تتجلى في أفعال شخصية تاريخية وحيدة، نحس أن ذلك كله خطأ في ذاته.

إن كل استنتاج تاريخي بدون أي جهد من النقد يذهب هباء ولا يترك أثراً وراءه، لمجرد أن النقد يختار وحدة غير متصلة، كبيرة أم صغيرة، موضوعاً لبحثه؛ وهذا من حقه دائماً لأن الوحدة التاريخية المختارة اعتباطية دائماً.

نحن لا نستطيع أن نأمل في إدراك قوانين التاريخ إلا إذا اتخذنا من الوحدة المتناهية الصغر غرضاً لملاحظتنا -أي من تفاضلية التاريخ أي طموحات البشر المشتركة- وإذا تعلمنا فن تكاملها (أي حساب مجموع هذه الوحدات المتناهية الصغر).

ترينا السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن التاسع عشر مشهد حركة عجيبة لملايين الرجال. ذلك أن هؤلاء الرجال يتركون مشاغلهم المعتادة، ويمضون من طرف إلى طرف آخر في أوروبا، وينهبون، ويقتتلون، وينتصرون، وييأسون، ويتغير مجرى الحياة كله لمدى سنوات، وتتجلى فيه حركة شديدة تتصاعد أولاً ثم تضعف. فما سبب هذه الحركة أو ما القوانين التي تنظمها؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه الفكر البشري.

يجيب المؤرخون عن هذا السؤال بعرض التصرفات والأفعال التي قام بها بضع عشرات من الأشخاص في أحد مباني مدينة باريس ويطلقون على هذه التصرفات والأفعال اسم الثورة؛ ثم يسردون السيرة الكاملة لنابليون ولبعض الشخصيات، من أنصاره أو خصومه، ويتحدثون عن التأثير الذي مارسته بعض هذه الشخصيات في الأخرى ويقولون: من هنا جاءت هذه الحركة وهذه هي قوانينها.

لكن الفكر البشري لا يأبى فقط الإيمان بهذا التفسير، لكنه يعلن بجلاء أن طريقة التفسير هذه غير صحيحة لأنه يجعل من أضعف الظواهر سبباً لأقواها. إن الإرادات البشرية بمجموعها هي التي خلقت الثورة ونابليون، وهذا المجموع وحده هو الذي رضخ للثورة ونابليون وأبادهما.

يقول التاريخ: «لا فتوحات بلا فاتحين؛ لا انقلابات في الدولة بلا رجال عظام». ويجيب الفكر البشري: «الواقع أنه ما من مرة ظهر فيها الفاتحون إلا كان هناك حرب، لكن ذلك لا يدل على أن الفاتحين هم سبب الحروب، ولا على أن من الممكن العثور على قوانين الحرب في فعالية فرد واحد. إني كلما نظرت إلى ساعتي ورأيت العقرب على الرقم «١٠» سمعت أجراس الكنيسة المجاورة تقرع، لكن ليس لي الحق في أن أستنتج أن وضع العقرب هو سبب حركة الأجراس لكون هذه الأجراس تقرع كلما أشار العقرب إلى الساعة العاشرة.

وكلما رأيت قاطرة تسير سمعت صافرة، ورأيت الصمام يفتح والعجلات تدور؛ لكن ليس لي الحق في أن استنتج من ذلك أن الصافرة وحركة العجلات هما سبب سير القاطرة.

يقول الفلاحون: إن ريحاً باردة تهب في آخر الربيع لأن براعم السنديان تتفتح، والواقع أن الريح الباردة تهب في كل ربيع عندما تتفتح براعم السنديان. ولكن مع أنني أجهل سبب هذه الريح الباردة التي تهب آنذاك، فإني لا أستطيع أن أستنتج من ذلك، مع الفلاحين، أن سبب هذه الريح هو تفتح برعم السنديان، لهذه العلة الوجيهة وهي أن قوة الريح لا تتأثر بالبراعم. إنني أرى توافق الشروط الذي تلاحظه في كل ظاهرة من ظاهرات الحياة، وأرى أنني، بالرغم من اهتمامي بمراقبة عقرب الساعة وصمام القاطرة وعجلاتها، وبراعم السنديان،

لن أعرف سبب قرع الأجراس وحركة القاطرة والريح الربيعية. ولمعرفة ذلك، ينبغي لي أن أعدّل كلياً نقطة ملاحظتي وأن أدرس قوانين حركة البخار والجرس والريح. وعلى التاريخ أن يفعل مثل ذلك. ولقد قامت محاولات بهذا الاتجاه.

لكي ندرس قوانين التاريخ ينبغي أن نغير كلياً غرض البحث، وأن ندع الملوك والوزراء والقادة وشأنهم، وأن ندرس العناصر المتجانسة، المتناهية الصغر التي تحكم الجماهير. لا يستطيع أحد أن يتنبأ إلى أي حد سيتاح للإنسان، بهذه السبيل، فهم قوانين التاريخ؛ لكن من الجلي أن هذه السبيل هي وحدها التي تسمح بإمكان فهم القوانين التاريخية؛ وأن الفكر البشري لم يبذل، في هذا المجال، جزءاً من مليون من الجهود التي بذلها المؤرخون الذين وقفوا أنفسهم على وصف أعمال الملوك وقادة الحرب والوزراء، وعلى عرض اعتباراتهم حول هذه الأعمال.

***

الفصل الثاني

إن قوى اثني عشر شعباً من شعوب أوروبا تجتاح روسيا. فينسحب الجيش الروسي والأهلون، متحاشين الاصطدام، إلى سمولنسك ومن سمولنسك إلى «بورودينو». ويزحف الجيش الفرنسي على موسكو، هدف تحركه، في اندفاعة تزداد عنفاً. وتشتد قوة هذا الاندفاع عند الاقتراب من الهدف كما يتسارع الجسم الساقط كلما اقترب من الأرض. وراء هذا الجيش، آلاف الفراسخ من بلد جائع معاد، وأمامه بضع عشرات من الفراسخ تفصله عن هدفه. هذا ما أحسه كل جندي من جنود نابليون، والغزو يمضي إلى الأمام بقوة الاندفاعة وحدها.

أما في الجيش الروسي فيزداد الغيظ من العدو تأججاً كلما تقهقر: فأثناء الانسحاب يكظم الغيظ وينمو. ويقع الصدام في «بورودينو»، فلا يتفكك أي من الجيشين، لكن الجيش الروسي يتراجع بعد الصدام مباشرة، بالضرورة التي تنكفئ فيها كرة صدمتها كرة أخرى أقوى دفعاً، وبالضرورة ذاتها تمضي كرة الغزو بعد انطلاقها (وإن فقدت كل قوتها في الصدام) إلى بعض المسافة.

وينسحب الروس إلى مائة وعشرين فرسخاً وراء موسكو. ويبلغ الفرنسيون موسكو ويلبثون فيها. ولا تقع معركة أثناء خمسة أسابيع، ولا يحرك الفرنسيون ساكناً. إنهم يظلون خمسة أسابيع في

موسكو دون أن يفعلوا شيئاً، كالوحش الذي جُرح جرحاً مميتاً فأخذ يلعق جراحه ودمه ينضب، ثم يفرون فجأة، من دون سبب جديد، وينطلقون على طريق «كالوغا»[1]، ويمعنون في الفرار (بعد انتصارهم في معركة «مالو ايارو سلافتر») دون أن يدخلوا في معركة جادة، نحو سمولنسك، وإلى ماوراء سمولنسك، وإلى ماوراء «فيلنا»، وإلى ماوراء «بيريزينا»، وهكذا دواليك.

في مساء السادس والعشرين من آب، كان «كوتوزوف» والجيش الروسي برمته مقتنعين بأنهم ربحوا معركة «بورودينو»، وهو ما كتب به «كوتوزوف» إلى الإمبراطور. وقد أمر «كوتوزوف» بالاستعداد لمعركة جديدة بغية الإجهاز على العدو، لا لأنه يريد أن يخدع أحداً أيّاً كان، لكن لأنه كان يعلم أن العدو قد غُلب، كما يعلم ذلك كل واحد من المحاربين.

ولكن في هذا المساء نفسه وفي اليوم التالي، جاءت الأنباء تترى لتُعلن عن خسائر لا تصدق، عن فقدان نصف الجيش، فغدت المعركة الجديدة مستحيلة من الوجهة المادية.

كان مستحيلاً خوض معركة جديدة ما لم تجمع المعلومات الكافية، وما لم يُرفع الجرحى، وتُستكمل الذخائر، ويحصى القتلى ويُعيِّن قادة جدد مكان الذين قُتلوا، وما لم ينم الرجال ويأكلوا. وفي الوقت نفسه، كان الجيش الفرنسي يزحف من ذاته، فور انتهاء المعركة، في صباح اليوم التالي، على الجيش الروسي (بتلك القوة الدافعة التي كأنما تتزايد

١- طريق كالوغا كانت تؤدي إلى جنوبي موسكو، وعليها، أي على ١٣٠كم من موسكو، وقعت معركة «مارو-اياروسلافتز» الدامية التي أجبرت الجيش الفرنسي على الإنسحاب إلى طريق سمولنسك.

الآن بعكس مربع المسافة). كان «كوتوزوف» يريد أن يهاجم في اليوم التالي وكان الجيش بأسره يريد ذلك. لكن الرغبة وحدها لا تكفي للهجوم، وكان لابد من إمكان العمل، وهو إمكان لم يكن موجوداً. كان مستحيلاً ألاّ يتراجع الروس مرحلة أولى، ثم مرحلة ثانية، ثم ثالثة، وأخيراً، عندما بلغ الجيش موسكو، أرغمته قوة الأشياء، بالرغم من احتدام الحماسة بين صفوفه، على أن يتراجع إلى ما وراءها. وتراجع الجيش مرحلة أيضاً، وسلم موسكو للعدو.

هناك أسئلة تطرح نفسها على الذين من دأبهم الاعتقاد بأن خطط الحروب والمعارك يضعها قادة الجيوش على النحو الذي يفعله كل منا لو أكب على خارطة في مكتبه وفحص التدابير التي يتخذها في هذه الموقعة أو تلك: لَمَ لَمْ يتصرف «كوتوزوف» أثناء انسحابه بهذا الشكل أو ذاك؟ لَمَ لَمْ يتخذ موقعه أمام «فيلي»[1]؟ لَمَ لَمْ يتراجع في الحال على طريق «كالوغا» بعد أن ترك موسكو، الخ...؟ إن الذين تعودوا التفكير على هذا النمط ينسون أو يجهلون الشروط التي لا مفر منها والتي يجري ضمنها نشاط كل قائد عام. فلا جامع بين هذا النشاط والنشاط الذي تتصوره عندما ندرس، ونحن قابعون في مكتبنا، حملة على الخارطة، بعدد معروف من الجند في المعسكرين، وأرض معروفة، ولحظة محددة نتخذها منطلقاً لاعتباراتنا. إن قائداً عاماً لا يجد نفسه أبداً في شروط «بداية» الحدث، وهي الشروط التي نكون فيها نحن دائماً عند فحص الحدث. وإنما هو يجد نفسه دائماً وسط سلسلة متحركة من الأحداث، إلى الحد الذي لا يجد نفسه قادراً فيه، في أية لحظة، على قياس مدى أهمية الحدث الذي يتم. إن الحدث يتشكل، على نحو غير محسوس، دقيقة فدقيقة، وفي كل لحظة من لحظات تشكله المتصل،

١- فيلي قرية صغيرة غربي موسكو على طريق سمولنسك.

المطّرد، يجد القائد العام نفسه في معترك جملة معقدة من الدسائس والمشاغل والعبوديات والقوى والمشروعات والنصائح والتهديدات والخدع، وهو مرغم باستمرار على الإجابة عن عدد لا يُحصى من الأسئلة المتناقضة في الغالب.

يقول لنا المنظّرون العسكريون بكل ما أوتوا من جدّ أن «كوتوزوف» كان عليه أن يقود جنده على طريق «كالوغا»، قبل «فيلي» بكثير، وأن مشروعاً بهذا المعنى قُدِّم إليه. لكن قائداً عاماً مثله يجد بين يديه دائماً، ولاسيّما في اللحظات الحرجة، عشرات المشروعات معاً لا مشروعاً واحداً. وكل واحد من هذه المشروعات المرتكزة على الاستراتيجية والتكتيك يناقض المشروعات الأخرى. وكأنْ ليس على القائد العام إلا أن يختار أحد هذه المشروعات. لكن هذا نفسه لا يستطيع أن يفعله. فالأحداث والزمن لا تنتظر. ولنفرض أنه عُرِض عليه في الثامن والعشرين أن يمضي على طريق «كالوغا»، وأن مساعداً عسكرياً يصل في اللحظة ذاتها، من قِبل «ميلورادوفيتش» ليسأله إن كان يجب عليه أن يخوض معركة ضد الفرنسيين أو أن يتراجع. وعلى «كوتوزوف» أن يصدر أمره من فوره، في اللحظة نفسها. والأمر بالتراجع يعدل بنا عن طريق «كالوغا». ويأتي بعد المساعد العسكري الضابط المعتمد ليسأل عن الجهة التي ينبغي تسيير الأرزاق إليها، ثم المسؤول عن مراكز الإسعاف الذي يريد أن يعلم إلى أين ينبغي أن يؤخذ الجرحى؛ في حين يحمل رسول من بطرسبرج رسالة من الإمبراطور يرفض فيها إمكان مغادرة موسكو، وأن خصم القائد العام الذي يسعى إلى ايذائه (هؤلاء الناس موجودون دائماً بكثرة) يقترح مشروعاً جديداً معارضاً على طول الخط خطة الانسحاب على طريق «كالوغا»؛ وفي حين أن قوى القائد العام تتطلب النوم والراحة؛ وأن جنرالاً طيب القلب يأتي ليشكو من ترقية غير قانونية مُنحها غيره؛ وأن الأهلين يلتمسون الحماية؛ وأن

ضابطاً أُرسل للاستطلاع يعود ويقدم تقريراً مناقضاً كل المناقضة لما قاله الضابط الذي سبقه؛ وأن كشافاً وأسيراً وجنرالاً تفقد المواقع، وصفوا، كل على طريقته، موقع الجيش العدو. إن الذين يميلون إلى تجاهل أو نسيان الشروط التي يدور ضمنها بالضرورة نشاط القائد العام يصورون لنا، مثلاً، موقع الجيش أمام «فيلي» مفترضين أن القائد العام كان يستطيع، في اليوم الأول من أيلول، أن يحل بملء الحرية مسألة التخلي عن موسكو أو الدفاع عنها، في حين أن هذه المسألة لم يكن بالإمكان طرحها لأن الجيش الروسي كان على خمسة فراسخ من موسكو. فمتى حُلّت هذه المسألة إذن؟ لقد حُلت في «دريسا» وفي «سمولنسك»، وبشكل ملموس، في الرابع والعشرين في «شيفاردينو»، وفي السادس والعشرين في «بورودينو»، وفي كل يوم وفي كل ساعة وفي كل دقيقة من الانسحاب من «بورودينو» إلى «فيلي».

***

الفصل الثالث

توقفت القطعات الروسية في «فيلي» بعد تراجعها من «بورودينو»، وكان «ايرمولوف» قد ذهب يتفقد الموقع فعاد ليقابل المارشال وليقول له.

- من المستحيل القتال في هذا الموقع.

فنظر إليه «كوتوزوف» نظرة تنم على الدهشة، وطلب إليه أن يكرر ما قاله، ثم مد إليه يده وقال:

- أعطني يدك.

وأضاف بعد أن أدار يده بحيث جس نبضه:

- أنت مريض، يا عزيزي. فكّر فيما تقول.

على هضبة «بوكلونايا»[1]، على ستة فراسخ من حاجز «دوروجو ميلوفو»[2]، نزل «كوتوزوف» من عربته وجلس على مقعد في جانب

١- هضبة بوكلونايا إحدى هضاب «الدوري» ومنها يتكشف منظر جميل لموسكو، وقد سميت كذلك لأن المسافرين والحجاج كانوا يحيون المدينة المقدسة التي يطلون عليها تحيات عميقة (بوكلوني).

٢- حاجز دوروجو ميلوفو: عند مدخل موسكو من طريق سمولنسك. وكان لكل مخرج من مخارج المدينة حاجزها (زاستافا) مع مركز للشرطة.

الطريق. فأحاط به جمهور غفير من الجنرالات. وانضم إليهم الكونت «روستوبتشين» الذي قدم من موسكو. كان هذا الجمع اللامع الذي كوّن عدة جماعات يناقش محاسن الموقع ومساوئه، وحالة القطعات، والخطط المقترحة، والوضع في موسكو، ومسائل ذات طابع عسكري على العموم. كانوا جميعاً يحسّون أنهم في مجلس استشاري حربي، وإن لم يُدعوا إليه، وإن لم يُطلق عليه هذا الاسم، وإذا نقل أو تقصى أحدهم خبراً شخصياً فإنما يفعل ذلك بصوت خافت ولا يلبث أن يعود من فوره، إلى المسائل ذات الطابع العام: لا مزح، لا ضحك، وحتى لا بسمة بين هؤلاء الرجال. كان الجميع يبذلون وسعهم على نحو ملحوظ ليكونوا على مستوى الوضع. وكانت كل جماعة تحاول، وهي تتحدث، أن تبقى على مقربة من القائد العام (الذي كان مقعده مركز هذه الجماعات)، وأن يسمعها القائد العام. وكان القائد العام يصغي ويطلب أحياناً أن يعاد عليه ما كان يقال حوله، لكنه لم يكن يشارك في الأحاديث ولم يكن يبدي رأياً. وكان، في معظم الأحيان، يلوي رأسه خائب الظن، بعد أن يُصيخ السمع إلى ما يقال في إحدى هذه الجماعات، وكأنهم لم يكونوا يتحدثون البتة عما كان يرغب في معرفته. كان بعضهم يناقش مسألة الموقع المختار منتقدين القدرات الذهنية للذين اختاروه أكثر من انتقادهم للموقع ذاته؛ وكان آخرون يؤكدون أن الخطأ وقع قبل ذلك، وأنه كان ينبغي خوض معركة أول من أمس؛ وكان غيرهم يتحدث عن معركة «سالامنك»[1] التي رواها الفرنسي «كروسار»، وهو قادم جديد يلبس بزة اسبانية. (كان هذا الفرنسي يحلل مع أمير ألماني يخدم في الجيش الروسي، حصار

١- معركة سالامنك هي التي سحق فيها الجنرال الإنجليزي ولنجتون فيلق مارمون في ٢٢ تموز ١٨١٤، وكان يقال في انكلترا: «إنه أباد ٤٠٠٠٠ فرنسياً في أربعين دقيقة».

«سراغوس»[1] تحسباً لدفاع مشابه في موسكو.) وفي جماعة رابعة، كان الكونت «روستو بتشين» يعلن استعداده للموت هو ومتطوعو موسكو عند جدران العاصمة، لكنه لم يتمالك نفسه من الأسف لأنه لم يطلع على حقيقة الأمر، وإلاّ لجرت الأمور على نحو آخر... وكانت جماعة خامسة تتحدث عن الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه القطعات، مظهرة عمق مفاهيمها الاستراتيجية، وسادسة كانت أحاديثها ضرباً من المُحال. وكان وجه «كوتوزوف» ينطق بهمٍّ وحزن متزايدين. ففي هذه الأحاديث جميعاً لم يكن يرى سوى شيء واحد: أن الدفاع عن موسكو «مستحيل مادياً»، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أي بحيث لو أن قائداً عاماً مجنوناً أصدر أمره بخوض المعركة لوقعت الفوضى، ولما دارت المعركة مع ذلك؛ ما كانت المعركة لتدور لأن كبار القادة لم يكونوا يرون أن الموقع يتعذر الدفاع عنه فحسب، بل أنهم لم يكونوا يناقشون في أحاديثهم إلا ما سيجري بعد التخلي المؤكد عن هذا الموقع. فكيف يمكن للقادة أن يقودوا جندهم إلى ساحة قتال يعتبرون الدفاع عنها متعذراً؟ وكان الضباط الأدنَون، وحتى الجنود (الذين يحاكمون الأمور أيضاً) يعترفون بذلك أيضاً، ولا يستطيعون، من ثَمَّ، أن يذهبوا إلى القتال وهم على يقين بالهزيمة. وإذا كان «بينيجسن» يُصر على الدفاع عن هذا الموقع، وإذا كان آخرون يناقشون ذلك أيضاً، فإن المسألة لم تكن لها أهمية في ذاتها ولم تكن سوى ذريعة للمناقشات والدسائس. وكان «كوتوزوف» يعلم ذلك.

كان «بينيجسن» الذي اختار الموقع يبالغ في إظهار وطنيته الروسية (وهو ما لم يكن «كوتوزوف» يسمعه دون تأفف) ويُصر على الدفاع

١- قاومت عاصمة الآراغون الفرنسيين مقاومة شرسة استمرت من ١٥ حزيران ١٨٠٨ إلى ١٩ شباط ١٨٠٩ وقتل فيها نصف السكان.

عن موسكو. وكان «كوتوزوف» يرى لعبته الماكرة بوضوح كما يرى النهار: فإذا فشل الدفاع ألقى التبعة على «كوتوزوف» الذي قاد جنده دون قتال إلى هضاب «الدوري»، وإذا انتصر الروس عزا الفضل إلى نفسه؛ أما إذا رُفض المشروع فإنه يغسل يديه من جريمة التخلي عن موسكو. لكن هذه الدسائس لم تكن تشغل بال الشيخ. كان مستغرقاً في مسألة واحدة رهيبة لم يسمع أحداً يجيب عنها. كانت كل المشكلة تتلخص الآن فيما يلي: «أمن الممكن أن أكون أنا قد تركت نابليون يبلغ موسكو، ومتى كان ذلك؟ متى تقرر ذلك؟ أكان البارحة عندما أرسلت إلى «بلاتوف» أمراً بالانسحاب، أم أول البارحة مساء عندما نعست وقلت لبينيجسن أن يفعل ما هو ضروري؟ أو كان قبل ذلك؟... متى تقرر إذن ذلك الأمر الرهيب؟ يجب أن ينسحب الجيش ويجب أن يصدر الأمر بذلك».

كان إصدار هذا الأمر الرهيب يعادل، في نظره، الاستقالة من منصبه. وهو لم يكن يحب السلطة فحسب، ولم يكن قد تعودها فحسب (إن التكريم الذي لقيه الأمير «بروزوروفسكي[1]»، وكان ملحقاً به في تركيا، أثار طموحه)، بل كان مقتنعاً بأنه هو الذي كُتب عليه أن يُنقذ موسكو، وأنه من أجل ذلك إنما انتُخب قائداً عاماً بإرادة الشعب وخلافاً لإرادة الإمبراطور. كان مقتنعاً بأنه هو وحده القادر على البقاء على رأس الجيش، في هذه الظروف العصيبة، وأنه هو وحده القادر على التصدي بدون خوف لخصم لا يُقهر مثل نابليون؛ لقد تملكه الهول من فكرة الأمر الذي ينبغي أن يصدره. لكن، كان لابد

١- الفيلد مارشال العجوز ألكسندر بروزوروفسكي (١٧٣٢-١٨٠٩) تقاعد في عهد بول الأول، وقاد الجيش الروسي لفترة قصيرة في روسيا وفي مولدافيا في سنة (١٨٠٩).

من اتخاذ قرار يضع حداً لهذه المحادثات من حوله، التي بدأت تتخذ طابعاً مسرفاً من الجسارة والصراحة. فاستدعى أعلى الجنرالات رتبة، وقال وهو ينهض عن مقعده:

- سواء أكان رأسي حسناً أم سيئاً فعليه أن يُعوِّل على ذاته وحدها.

ومضى إلى «فيلي» حيث توقفت عرباته.

***

الفصل الرابع

انعقد المجلس الحربي في الساعة الثانية في البيت الفسيح الذي يسكنه الفلاح «آندريه سافوستيانوف». وقد تجمع رجال هذه العائلة الكبيرة العدد ونساؤها وأطفالها في الغرفة الصغيرة، في الجانب الآخر من البهو. ولم يبق في الغرفة الواسعة سوى حفيدة آندريه، الطفلة «مالاشا»[1] البالغة من العمر ست سنوات التي أعطاها صاحب الرفعة قطعة من السكر وهو يتناول الشاي ولاطفها، فجلست فوق الموقد. كانت «مالاشا» تنظر من فوق الموقد باستحياء وفرح إلى وجوه الجنرالات وبزاتهم وأوسمتهم وهم يدخلون واحداً وراء الآخر ويجلسون على مقاعد عريضة في «الركن الجميل»[2] تحت الإيقونات. وكان الجَدُّ - كما سمت «مالاشا» كوتوزوف في نفسها - جالساً على حدة، في الركن المظلم خلف الموقد. كان غارقاً في مقعد قابل للطيّ، لايني يتنهد وهو يسوّي ياقة معطفه التي كانت كأنما تضغط عنقه، مع أن المعطف محلول الأزرار. وكان الذين يصلون يدنون واحداً وراء الآخر من المارشال، فيصافح بعضهم، ويومئ إلى آخرين برأسه. ولما أراد مساعده العسكري «كايساروف» أن يزيح الستائر عن النافذة التي كانت قبالة «كوتوزوف»، أشار هذا إشارة تنمَ

١- مالاشا تصغير مالانيا.

٢- الركن الجميل (كراسني أوغول) زاوية الغرفة المزينة بالإيقونات، إلى يمين المدخل.

على ضيق الصدر، ففهم «كايساروف» أن صاحب الرفعة لا يحب أن يرى أحد وجهه.

حول طاولة الصنوبر الخشنة المغطاة بالخرائط والمخططات والأقلام، والورق، جلس عدد كبير من الأشخاص حتى أن الخدم حملوا مقعداً آخر. وعلى هذا المقعد جلس أواخر القادمين: «كايساروف» و«ايرمولوف» و«تول». وتحت الإيقونات بالضبط، في مركز الصدارة، جلس «باركلي دي تولي»، وفي عنقه وسام القديس جورج، ووجهه شاحب معتلّ، وجبينه عال ممتد بسبب صلعته. منذ يومين وهو يشكو الحمّى، وقد أصابته القشعريرة في هذه اللحظة بالذات، وأحس أنه مهدود القوى. وبجنبه جلس «اوفاروف» الذي كان يحدثه بصوت خافت (ككل الناس) وهو يشير بيديه إشارات عنيفة. أما «دوكتوروف» القصير، المدوّر، فكان يصيخ السمع بانتباه، وهو مرفوع الحاجبين، مكتوف اليدين. وفي الجانب الآخر بدا الكونت «اوسترمان–تولستوي» غارقاً في أفكاره، وقد أسند إلى يده رأسه ذا التقاسيم الجريئة والعينين البراقتين. وراح «رايفسكي». يُشعّث بحركة آلية ضَجرة شعره الأسود على صدغيه وهو ينظر إلى كوتوزوف تارة، وإلى باب الدخول تارة أخرى. واستضاء وجه «كونومنتزين»[1] الجميل، الرصين، بابتسامة رقيقة، ماكرة، لقد التقت نظرته نظرة «مالاشا»، وغمزها بعينه غمزات أضحكتها.

كان الجميع ينتظرون «بينيجسن» الذي كان يفرغ من غداء شهي، بحجة إعادة النظر في الموقع. ظلّوا ينتظرونه من الساعة الرابعة إلى

١– بطرس كونومنتزين (١٧٦٦–١٨٢٢) جنرال فرقة (لواء) في سنة ١٨١٢، وزير للحرب من (١٨١٥–١٨١٩)، منح لقب كونت في سنة ١٨١٥.

السادسة، وأثناء هذا الوقت لم يفتتحوا النقاش لكنهم تحدثوا عن أشياء أخرى بصوت خافت.

لم يترك «كوتوزوف» ركنه ويدنو من الطاولة إلا بعد دخول «بينيجسن»، لكنه دنا من الطاولة على نحو لا يسمح للشموع التي وُضعت عليها أن تُضيء وجهه.

افتتح «بينيجسن» الجلسة بالسؤال التالي: «هل ينبغي أن نتخلى بدون قتال عن عاصمة روسيا القديمة المقدسة أم ينبغي الدفاع عنها؟» أعقب السؤال صمت شامل طويل، وتجهمّت الوجوه جميعاً، وسُمع في الصمت تنهد «كوتوزوف» وتنحنحه. كانت العيون شاخصة إليه، وكانت «مالاشا» أيضاً تنظر إلى الجَد. كانت أقرب إليه من الآخرين ورأت وجهه يتشنج: وكأنما يُجهش بالبكاء. لكن ذلك لم يدم طويلاً.

قال فجأة وهو يردد بصوت مُفعم بالغضب كلمات «بينيجسن» مشدداً على النبرة الزائفة التي انبعثت منها:

– عاصمة روسيا القديمة المقدسة! اسمح لي أن أقول لك، يا صاحب السعادة، أنه لا معنى لهذا السؤال بالنسبة إلى روسي.

(وانحنى إلى الأمام بكل ثقل جسمه). لا يمكن طرح مثل هذا السؤال وليس له من معنى. إن السؤال الذي طلبت إلى هؤلاء السادة أن يجتمعوا من أجله سؤال عسكري. وهو التالي: «إن خلاص روسيا في جيشها. فهل الأفضل أن نعرّض الجيش وموسكو للضياع بقبولنا المعركة، أم أن نُسلم موسكو دون قتال؟» هذه هي المسألة التي أود أن أعرف رأيكم فيها. (وألقى بجسمه على مسند الأريكة).

ودارت المناقشات. كان «بينيجسن» يعتقد أنه لم يخسر دعواه

بعد. فاقترح، وهو متشبع بالوطنية الروسية وبحب موسكو، وبعد أن قبل برأي «باركلي» والآخرين في استحالة خوض معركة دفاعية في «فيلي»، أن تُمرر القطعات أثناء الليل من الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر لتهاجم في اليوم التالي جناح الفرنسيين الأيمن. وانقسمت الآراء، ونوقشت حسنات هذا الرأي وسيئاته. وانحاز «ايرمولوف» و«دوكتوروف» و«رايفسكي» إلى رأي «بينيجسن».

وسواء أكان الشعور بأن التضحية ضرورية قبل التخلي عن العاصمة هو الذي يحدو هؤلاء الجنرالات أم الاعتبارات الشخصية، فقد بدوا وكأنهم لا يدركون أن هذا المجلس الحربي الذي يعقدونه لا يمكن أن يغيِّر مجرى الأشياء المحتوم، وأن موسكو قد جرى التخلي عنها. وفهم الجنرلات الآخرون ذلك، فضربوا صفحاً عن مسألة موسكو وتحدثوا عن الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه الجيش أثناء انسحابه. أما «مالاشا» التي لم ترفع بصرها عما يجري أمامها ففهمت معنى هذا المجلس الحربي فهماً مختلفاً. خُيل إليها أن هناك نزاعاً شخصياً بين «الجَدّ» والسيد «ذي السترة الفضفاضة» كما كانت تسمي «بينيجسن». رأت أنهما يغضبان وهما يتكلمان، فانحازت في أعماق قلبها، إلى الجد. وفي غمرة النقاش، لاحظت النظرة الخاطفة الماكرة التي حدج بها «كوتوزوف» «بينيجسن»، وتبينت بفرح عظيم أن الجدَّ قال للسيد ذي السترة الفضفاضة شيئاً أثار اضطرابه: إذا احمرّ «بينيجسن» فجأة وخطا بغضب بضع خطوات في الغرفة. كانت الكلمات التي أثرت فيه هذا التأثير هي التي عبّر بها «كوتوزوف» بصوت هادئ، متزن عن رأيه في محاسن اقتراحات بينيجسن ومساوئها، وهو: تمرير القطعات في الليل من الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر لمهاجمة جناح الفرنسيين الأيسر. قال «كوتوزوف»:

-لا أستطيع، أيها السادة، أن أوافـق على خطة الكونت. إن تحرك القطعات على مقربة من العدو وخيم العواقب دائماً، والتاريخ العسكري يؤكد ذلك. وهكذا... (وبدا عليه أنه يفكر، باحثاً عن مثل يستشهد به، وملقياً على «بينيجسن» نظرة واضحة ساذجة). لنأخذ مثلاً معركة «فريدلاند»[١] وحدها، وأُقدر أن الكونت يتذكر جيداً. أنها لم تنجح تماماً لهذا السبب الوحيد وهو أن قطعاتنا تجمعت على مقربة من العدو...

خيم صمت دام دقيقة لكنه بدا طويلاً جداً.

واستُؤنفت المناقشات تتخللها فترات من الصمت في الغالب، لأن الحاضرين أحسوا أن لم يبق لديهم ما يقولونه.

وفي إحدى هذه الفترات، تنهد «كوتوزوف» تنهداً عميقاً وكأنه يريد الكلام، فاتجهت الأنظار جميعاً إليه. قال:

- حسناً، أيها السادة! أرى أنني أنا الذي سيدفع الثمن.

ثم نهض ببطء واقترب من الطاولة:

- أيها السادة، لقد استمعت إلى آرائكم. إن بعضاً منكم لا يوافقني على رأيي، ولكني (وتوقف قليلاً) بموجب السلطة التي خولني إياها مليكي والوطن، آمر بالانسحاب.

بعد ذلك تفرق الجنرالات بمثل الرزانة المهيبة الصامتة التي نجدها بعد الفراغ من الدفن.

١- معركة فريدلاند هي المعركة التي خسرها الجنرال بينيجسن في حزيران ١٨٠٧، وكان آنذاك قائداً عاماً للجيش الروسي.

قال بعضهم شيئاً للقائد العام بصوت خافت، وبلهجة تختلف كل الاختلاف عن لهجتهم أثناء الجلسة.

نزلت «مالاشا» التي كان ينتظرها أهلها للعشاء برفق، وهي تحط قدميها الصغيرتين العاريتين على نتوءات الموقد، واندست بين أرجل الجنرالات، وانسلت من الباب.

بعد أن استأذن «كوتوزوف» الجنرالات لبث جالساً زمناً طويلاً، متكئاً بمرفقه على الطاولة، وهو يفكر بالمسألة الرهيبة نفسها: «متى، متى تَقرَّر التخلي عن موسكو؟ متى وقع ذلك الشيء الذي حسم المسألة ومن المسؤول؟».

قال لمساعده العسكري «شنيدر» الذي جاء يبحث عنه في ساعة متأخرة من الليل:

– ذلك، ذلك ما لم أكن أتوقعه، لم أكن أتوقع ذلك! وما كان ليخطر ببالي!

قال شنيدر:

– أنت بحاجة إلى الراحة، يا صاحب السمو.

صرخ «كوتوزوف» دون أن يرد عليه، وهو يضرب الطاولة بجمع يده العريضة:

– كلا! سيذوقون الأمرّين، كالترك، سيذوقون الأمرّين على شرط أن....

***

الفصل الخامس

في الوقت نفسه، وفي حادث أعظم خطراً من انسحاب الجيش دون قتال، هو التخلي عن موسكو وإحراقها، كان روستوبتشين الذي يبدو المدبر لهذا الحادث، يتصرف تصرفاً مناقضاً لكوتوزوف.

كان هذا الحادث، التخلي عن موسكو وإحراقها، حادثاً لا سبيل إلى تفاديه، شأنه شأن انسحاب القطعات بدون قتال إلى ماوراء العاصمة، بعد معركة «بورودينو».

كان بإمكان كل روسي أن يتنبأ بما حدث، لا بالاستنتاج المنطقي بل بهذا الإحساس الذي يحيا في كل منا كما كان يحيا في آبائنا.

فبدءاً من سمولنسك، وفي جميع مدن الأرض الروسية وقراها جرى عين ما جرى في موسكو، بدون تدخل الكونت «روستوبتشين» وإعلاناته. كان الشعب ينتظر العدو بغير اكتراث، لا يثور، ولا يتململ، ولا يؤذي أحداً، لكنه كان ينتظر مصيره بهدوء، شاعراً بقدرته على أن يجد ما يجب فعله في أصعب اللحظات. وما إن يقترب العدو حتى ينصرف أغنى عناصر السكان تاركين أرزاقهم؛ أما أفقرهم فيمكثون ويحرقون ويدمرون كل ما يبقى.

لقد كان يسكن النفسُ الروسية ومايزال يسكنها إيمان راسخٍ بأنه قد تم ما يجب أن يتم وبأن الأمور ستكون على هذا المنوال دائماً. وهذا

الإيمان، مع الإحساس المسبق بأن موسكو ستسقط في يد الأعداء، كان يحرك المجتمع الموسكوفي في سنة ١٨١٢ . فالذين ارتحلوا منذ تموز أو في أوائل آب أظهروا بفعلهم هذا أنهم كانوا يتوقعون سقوطها. والذين كانوا يرتحلون وهم يحملون كل ما يستطيعون حمله، تاركين بيوتهم ونصف أرزاقهم، كانوا يفعلون ذلك بتلك الوطنية «الكامنة» التي لا تعبر عن نفسها بالجمل الطنانة، ولا بالتضحية بالأولاد من أجل خلاص الوطن، ولا بالأفعال الأخرى المناقضة للطبيعة، وإنما هي وطنية تتجلى شيئاً فشيئاً، ببساطة، على نحو عضوي، وتحدث، من ثم، أنجع النتائج.

كان يقال لهم: «من العار أن تهربوا أمام الخطر؛ الجبناء وحدهم يهربون من موسكو». وكان «روستو بتشين» يسعى، في إعلاناته، إلى أن يقنعهم بأن من الشائن مغادرة موسكو. كانوا يحسون بالخزي في أن يوصفوا بالجبن، وأن يرحلوا، ومع ذلك فإنهم كانوا يرحلون، وهم يشعرون بوجوب الرحيل. لم كانوا يرحلون؟ لا يمكن الافتراض بأن «روستو بتشين» أدخل الخوف إلى نفوسهم بوصفه للفظائع التي كان يرتكبها نابليون في البلدان المحتلة. كانوا يرحلون، وكان أوائل الراحلين هم الأغنياء والمثقفين الذين يعلمون جيداً أن «فيينا» و«برلين» بقيتا سالمتين، وأن السكان كانوا يقضون فيهما، أثناء احتلال نابليون لهما، وقتاً ممتعاً بصحبة هؤلاء الفرنسيين الساحرين الذين افتتن بهم الروس آنذاك ولاسيما النساء الروسيات.

كانوا يرحلون لأن مسألة ما إذا كانوا سيعيشون عيشة راضية أو منغصة في ظل الإدارة الفرنسية مسألة لم يكن بالإمكان طرحها. لم يكن بإمكانهم أن يعيشوا في ظل الإدارة الفرنسية: كان ذلك هو البلاء الأعظم. لقد بادروا بالرحيل قبل معركة «بورودينو» وأسرعوا فيه بعد المعركة، متصامين عن النداءات التي تدعو إلى الدفاع عن المدينة، وبالرغم

من إعلان الحكومة عن انتوائها رفع ايقونة «ايبيريا» والسير إلى القتال، وبالرغم من المناطيد التي ستبيد الفرنسيين، وبالرغم من السخافات التي كان يقولها «روستو بتشين» في إعلاناته. كانوا يعلمون أن عبء القتال يقع على الجيش، وأنه لا يمكن الذهاب إلى «التلال الثلاثة»[1] ليجابهوا نابليون بالآنسات والخدم، عندما يكون الجيش عاجزاً عن القتال، وأن عليهم أن يرحلوا، مهما يشق عليهم أن يتركوا ممتلكاتهم نهباً للدمار. كانوا يرحلون من غير أن يفكروا في العظمة الكامنة وراء تخلي السكان عن هذه المدينة الرحبة الغنية التي ستغدو طعماً للنيران (عندما تهجر مثل هذه المدينة العظيمة المبنية من الخشب فلابد من أن تحترق بالضرورة)؛ كانوا يرحلون كل بمفرده، ولأنهم رحلوا تم ذلك الحدث المليء بالعظمة الذي سيظل أعرق أمجاد الشعب الروسي. فتلك السيدة النبيلة التي غادرت موسكو منذ شهر حزيران، ومعها زنوجها ومهرجوها،، إلى أراضيها في مقاطعة «ساراتوف»، شاعرة شعوراً مبهماً بأنها لا تستطيع أن تحني رأسها أمام نابليون، ومتخوفة من أن يثنيها عن عزمها أمر «روستو بتشين»، إنما كانت تشارك ببساطة وعفوية في ذلك العمل العظيم الذي أنقذ روسيا. أما الكونت «روستو بتشين» الذي كان يعيب الذين يرتحلون حيناً، ويأمر بإخلاء الدوائر حيناً آخر، ويوزع الأسلحة غير الفعالة على عصابات من السكارى في بعض الأحيان، ويرفع الإيقونات تارة، ويمنع المطران «أوغسطين» من إخراج الإيقونات وذخائر القديسين تارة أخرى، ويصادر جميع العربات الخاصة في موسكو طوراً، أو يأمر بنقل المنطاد الذي صنعه «ليبيك» على مئة وست وثلاثين عربة طوراً آخر، ويلمح بأنه سيحرق موسكو حيناً، أو يروي أنه أحرق منزله حيناً آخر، ويلوم الفرنسيين رسمياً في إعلان موجه إليهم على أنهم خربوا ميتمه، ويفتخر بإحراق موسكو تارة، أو

١- ثلاث هضاب غربي موسكو.

ينفي ذلك عن نفسه تارة أخرى، ويأمر الشعب بمطاردة الجواسيس وبأن يقتادوهم إليه مرة، أو يلوم الشعب على ذلك مرة أخرى، ويطرد ذات يوم من موسكو جميع الفرنسيين، ويترك فيها السيدة «اوبير–شالميه» مركز الجالية الفرنسية يوماً آخر، ويأمر في أحد الأيام بالقبض على مدير البريد، الشيخ الجليل «كليو تشاريف»[1]، بدون سبب خاص، ثم ينفيه، ويجمع الشعب ليذهب إلى قتال الفرنسيين في «التلال الثلاثة»، فيسلمهم رجلاً يقتلونه وينسل هو من الباب الخلفي؛ أو يقول أنه لن يعيش بعد نكبة موسكو، أو يكتب في مذكراته أشعاراً فرنسية عن دوره في المعركة –أما هذا الرجل فلم يكن يفهم مغزى الحدث الذي كان يتم لكنه كان يريد أن يفعل شيئاً، أن يدهش الآخرين، أن يقوم بعمل بطولة وطنية؛ كان كالصبي، يلهو بذلك الحدث الجبار الذي هو التخلي عن موسكو وإحراقها، ويحاول أن يسرع أو يوقف جريان هذا التيار الشعبي العاتي الذي كان يجترفه معه.

***

١– فيدور كليوتشاريف (١٧٥١–١٨٢٢) أحد قادة الماسونية الروسية. أوقفه روستو بتشين بتهمة اعتناق الأفكار المارتينية بعد أن دافع عن أحد مرؤوسيه فيريستشاجين الذي سيرد ذكره.

الفصل السادس

ألفتْ «هيلين» نفسها، بعد عودتها مع الحاشية الملكية من «فيلنا» إلى بطرسبرج، في وضع حرج.

كانت تنعم في بطرسبرج برعاية خصها بها نبيل كبير يشغل منصباً من أعلى المناصب في المملكة. كما ارتبطت، في «فيلنا» بأمير أجنبي شاب. ولدى عودتها إلى بطرسبرج، تمسك كل منهما، وكانا في بطرسبرج، بحقه، فعرضت لها في حياتها مشكلة جديدة: أن تحافظ على صداقتها الحميمة مع الاثنين دون أن تجرح أياً منهما.

إن ما قد يبدو صعباً بل ومتعذراً على امرأة أخرى لم يحتج إلى لحظة تفكير من الكونتيسة «بيزوخوف» التي استحقت شهرتها بأنها أذكى النساء. فلو أنها حاولت إخفاء سلوكها، ولو أنها اصطنعت الحيلة لتتخلص من الحرج، لأفسدت بذلك كل شيء، ولكان ذلك إقراراً منها بأنها مذنبة؛ لكن هيلين، على العكس من ذلك، أعلنت حقها فيما فعلت (وكانت تعتقد ذلك بصدق) وألقت الذنب على الآخرين.

وفي أول مرة أنحى عليها الشاب الغريب باللوم، ردت إلى الوراء رأسها الجميل بأنفة والتفتت إليه نصف التفاتة وقالت له بحزم:

– هاهي ذي أنانية الرجال وقسوتهم! ما كنت أتوقع شيئاً آخر. إن المرأة تضحي بنفسها من أجلكم، وتتألم، ثم تلقى هذا الجزاء. بأي حق

تحاسبني، يا سيدي، على صداقاتي ومو داتي؟ لقد كان هذا الرجل أكثر من أب بالنسبة لي.

وأراد هذا الشخص أن يضيف كلمة فقاطعته هيلين قائلة:

- حسناً! نعم، لعله يحمل لي عواطف أخرى غير عواطف الأب، لكن ذلك ليس سبباً في أن أغلق بابي دونه. لست رجلاً لأنكر الجميل.

وختمت كلامها وهي تضع يدها على نحرها الجميل المضطرب، وترفع عينيها إلى السماء:

- اعلم، يا سيدي، إنني لا أطلع على مكنون عواطفي إلا ربي وضميري.

- ولكن، اصغي إلي، بالله عليك.

- تزوجني، ولسوف أكون أمتك.

- لكن هذا مستحيل.

- أنت لا تكلف نفسك النزول إلي، أنت...

وانفجرت هيلين باكية.

بادر الأمير الشاب إلى تهدئتها. لكن «هيلين» كانت تقول خلال دموعها (وكأنها لم تكن تعلم ما تفعل) أن لا شيء يمكن أن يحول بينها وبين الزواج، وأن هناك أمثلة تحتذي بها (كانت الأمثلة قليلة آنذاك، لكنها استشهدت بنابليون وببعض الشخصيات الرفيعة الشأن)، وأنها لم تكن قط زوجة لزوجها، وأنها كانت ضحية.

قال الأمير الشاب وقد بدأ يستسلم:

– والقوانين والدين...

فقالت:

– القوانين والدين... ما جدواها إن لم تنفع في مثل هذه الحالات!

دهشت هذه الشخصية الكبيرة لأن مثل هذه المحاكمة البسيطة لم تخطر ببالها، فاستشارت الآباء الصالحين في جمعية يسوع وكانت تربطها بهم علاقات وثيقة.

بعد بضعة أيام، قُدم لهيلين، في إحدى هذه الحفلات الساحرة التي كانت تقيمها في مغنى «كاميني أوستروف»[1]، رجل طاعن في السن، ذو شعر أبيض كالثلج، وعينين سوداوين براقتين، هو السيد «دي جوبير» الفاتن، اليسوعي ذو الجبة القصيرة[2]، الذي تحدث طويلاً معها، على ضوء أنوار الزينة وعلى أصوات الموسيقى، عن حب الله، وعن المسيح، وعن قلب العذراء المقدسة وعن ألوان العزاء التي توفرها، في هذه الحياة وفي الحياة الآتية، العقيدة الحقيقية الوحيدة، الدين الكاثوليكي. تأثرت هيلين وفاضت الدموع غير مرة من عينيها كما فاضت من عيني السيد «دي جوبير»، وارتجف صوتاهما غير مرة. وجاء راقص يدعو «هيلين» فقطع حديثها مع مرشدها المقبل، لكن السيد «دي جوبير» عاد وحده في مساء اليوم التالي، وثابر منذ ذلك الحين على زيارتها.

في ذات يوم، أخذ الكونتيسة إلى كنيسة كاثوليكية حيث ركعت أمام المذبح الذي قادها إليه. ووضع ذلك الفرنسي الفاتن، الطاعن في

١– جزيرة في مصب النيفا، مكان للاصطياف والتنزه.

٢– كان اليسوعيون الذين وجدوا حماية لهم في روسيا منذ عهد بول الأول، يقومون بالدعاية الكاثوليكية في الأوساط الراقية من المجتمع.

السن يديه على رأسها، فأحست، كما روت فيما بعد، بشيء كالنفحة الندية تتغلغل إلى روحها. وفسر لها ذلك بأنه «النعمة الإلهية».

ثم جيئت براهب ذي جبة طويلة سمع اعترافها وحلها من خطاياها. وفي اليوم التالي، حملت إليها علبة فيها القربان المقدس والخمر المقدسة وتركت عندها لتحتفظ بها لنفسها. وفي غضون أيام علمت «هيلين» باغتباط أنها أصبحت تتبع الكنيسة الكاثوليكية، وأن البابا سيخبر بذلك عما قريب وسيرسل إليها رسالة.

كل ما كان يجري في هذه الفترة حولها ومعها، كل هذه الرعاية التي كانت غرضاً لها من جانب مثل هؤلاء الرجال الأذكياء والتي تجلت في أشكال لطيفة، مرهفة، وذلك النقاء، كنقاء الحمامة الذي ألفتْ نفسها فيه الآن (ارتدت طوال هذه الفترة أثواباً بيضاء مزينة بأشرطة بيضاء)، كل ذلك أدخل السرور إلى نفسها؛ لكنها بالرغم من هذا السرور لم تنس هدفها الذي وضعته نصب عينيها لحظة واحدة. لقد أدركت، كما يحدث دائماً في ميدان الاحتيال حيث يخدع الغبي من هو أذكى منه، أن كل هذه الكلمات وكل تلك الرعاية تهدف جوهرياً، بعد تحويلها إلى الكاثوليكية، إلى ابتزاز المال منها لمصلحة المؤسسات اليسوعية (وهو ما لمح إليه أمامها)، فأصرت قبل أن تفي بوعدها على أن يُصار إلى القيام بالعمليات اللازمة لتخليصها من زوجها. وفي اعتقادها أن وظيفة الدين لم تكن سوى مراعاة بعض اللياقات اذ يستجيب للرغبات الإنسانية. ولذلك سألت مرشدها بإلحاح في أحد أحاديثهما أن يقول لها إلى أي حد كان زواجها رباطاً لها.

كانا جالسين في قاعة الاستقبال، قرب النافذة، في الغسق. ومن النافذة، كان أريج الزهور يدخل الغرفة. وكانت «هيلين» ترتدي فستاناً أبيض شفافاً على صدرها وكتفيها، أما الراهب فكان ممتلئ الجسم،

عظيم الذقن، حليقاً، ذا فم دقيق، لطيف الشكل، ويدين بيضاوين تلاقتا بتواضع على ركبتيه، وكان يجلس قريباً منها، وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة، ملقياً على وجهها بين الحين والآخر نظرة تنم على التعجب الوادع بجمالها، وهو يعرض لها وجهة نظره في المسألة التي تعنيهما. كانت هيلين تنظر إلى شعره الجعد، وخديه الممتلئين الحليقين ببريقهما الأخضر، مبتسمة بقلق، وهي تتوقع في كل لحظة أن ترى الحديث يسير في وجهة أخرى. لكن الراهب انساق وراء مهارته في فنه وإن بدا مفتوناً بجمال محدثته.

كانت محاكمة مرشدها على النحو التالي. لقد أقسمت، وأنت تجهلين المعنى الحقيقي لما تفعلينه، يمين الأمانة الزوجية لشاب ارتكب من جهته منكراً، ودنس المقدسات وهو يعقد زواجاً لا يؤمن بطابعه الديني. فلم يتوفر في هذا الزواج المعنى المزدوج الذي ينبغي أن يتوفر فيه، لكن يمينك تربطك به مع ذلك. وقد حنثت بها. فماذا ارتكبت بذلك؟ هل ارتكبت خطيئة عرضية أم خطيئة مميتة؟ خطيئة عرضية، لأنك تصرفت بدون نية سيئة. فإذا عقدت الآن زواجاً آخر، بقصد إنجاب الأولاد، فإن خطيئتك يمكن أن تغتفر. لكن المسألة تنطوي أيضاً على وجهين اثنين. الأول....

قالت «هيلين» فجأة، وقد أضجرها ذلك الحديث، وعلى وجهها ابتسامتها الفاتنة:

- لكنني أرى أني عندما أعتنق الدين الحقيقي فأنا في حل من الالتزامات التي فرضها علي الدين الخاطئ.

ذهل مرشدها لهذه البساطة التي طرحت بها تلك المسألة التي بدت عويصة، وتعجب من سرعة التقدم التي لم يكن يتوقعها من تلميذته،

لكنه لم يستطع أن يتخلى عن ذلك البناء من الحجج الذي بني بكثير من الجهد. فقال وهو يبتسم:

- لنتفاهم، يا كونتيسة.

وجعل يدحض حجج ابنته الروحية.

***

الفصل السابع

فهمت «هيلين» أن القضية شديدة البساطة والسهولة من وجهة نظر الكنيسة، وأن مرشديها لا يصّعبونها إلا لأنهم يخشون موقف السلطة الزمنية منها.

ومن ثم، قررت أنه ينبغي تهيئة الرأي العام. فأيقظت غيرة النبيل العجوز وقالت له ما قالته للعاشق الآخر، أي أنها عرضت المسألة بحيث أظهرت أن الوسيلة الوحيدة لاستحقاقها هي الزواج بها. ودهشة هذه الشخصية الكبيرة العجوز أول الأمر، كما دهشة الشخصية الأولى، الشابة، لهذا العرض الذي تعرضه امرأة في عصمة زوجها؛ لكن ثقة «هيلين» الراسخة حين ذهبت إلى أن هذا الأمر سهل وطبيعي كزواج الفتاة ذاته، فعلت فعلها به أيضاً. ولو أنها أبدت أدنى إمارات التردد والخجل أو الرياء لخسرت اللعبة؛ لكنها لم تبد شيئاً من الرياء أو الخجل، بل إنها كانت تروي ببساطة وسذاجة بريئة لأصدقائها الحميمين (أي بطرسبرج برمتها) أن الأمير والنبيل العظيم طلبا يدها، وأنها تحبهما الاثنين ولا تريد أن تؤلم أياً منهما.

وفي الوقت نفسه، شاع في بطرسبرج أن هيلين لا تريد الطلاق (فمثل هذه الشائعة جديرة أن تثير عدداً كبيراً من الأشخاص يناهضون هذا القصد غير المشروع) وإنما شاع بكل بساطة أن هيلين البائسة،

الفاتنة تتساءل حيرى: أي الشخصين ينبغي أن تتزوج. لم تكن المسألة معرفة الحد الذي يكون فيه هذا الزواج ممكناً، وإنما معرفة أي الفريقين أكثر إغـراء، وكيف يقف البلاط من القضية. نعم، كان هناك بعض الأشخاص المتخلفين الذين لا يستطيعون أن يرتفعوا إلى مستوى هذه القضية والذين يرون في هذا المشروع تدنيساً لقدسية الزواج؛ لكنهم كانوا قلة وكانوا يخلدون إلى الصمت، في حين أن الأكثرين كانوا معنيين بنصيب «هيلين» وبالاختيار الذي ستختاره. أما إن كان خيراً أم شراً أن تتزوج المرأة في حياة زوجها، فذلك ما لم يتطرق إليه أحد، لأن من البديهي أن هذه المسألة حسمت من قبل في أذهان أناس أذكى منك ومني (كما كان يقال)، ومن يشكك بصحة هذا الحل يعرض نفسه للظهور بمظهر الغبي أو بمظهر من يجهل آداب السلوك.

ماعدا «ماريا دميتريفنا آكروسيموف» التي جاءت في هذا الصيف إلى بطرسبرج لترى أحد أبنائها، فقد جوّزت لنفسها أن تعبرّ بكل وضوح عن رأيها المناقض للرأي العام. ذلك أنها التقت «هيلين» في حفلة راقصة، فأوقفتها في منتصف القاعة وقالت لها بصوتها الخشن، وسط الصمت الشامل:

– ها إن النساء يتزوجن الآن وأزواجهن أحياء. لعلك تعتقدين أنك ابتكرت شيئاً جديداً؟ سبقتك النساء إلى ذلك، يا عزيزتي، وابتكرنه منذ زمن طويل. ففي كلّ.... يفعلن مثل ما فعلت... قالت هذا، وشمرت عن كميّها العريضين بحركة مهددة أِلفتْها واجتازت القاعة وهي تلقي حولها نظرات قاسية.

مع أن الناس كانوا يخافون «ماريا دميتريفنا»، إلا أنهم كانوا يعتبرونها غريبة الأطوار، لذلك لم يحفظوا من كلماتها إلا تلك الكلمة الفاحشة التي تناقلتها الألسن، على اعتبار أنها ملحة هذه القصة.

كان الأمير «فاسيلي» الذي صار منذ حين ينسى، في الأعمّ الأغلب، ما يقوله، ويكرّر الشيء نفسه مئة مرة، يقول لابنته كلما لقيها:

- «هيلين»، عندي كلمة يجب أن أقولها لك، - ثم ينتحي بها ناحية وهو يُمسك بذراعها - بلغني أن هناك بعض المشاريع المتعلقة بـ.... كما تعلمين. حسناً! أنت تعرفين، يا ولدي العزيز، أن قلبي، قلب الأب يبتهج أن يراك.... لقد تألمت كثيراً... لكن، يا ولدي العزيز... لا تستشيري إلا قلبك. هذا كل ما أقوله لك.

ثم يشد بوجنته على وجنة ابنته، مخفياً الانفعال نفسه، ويبتعد. أما «بيليبين» الذي لم يفقد شيئاً من شهرته كأذكى الرجال والذي كان صديقاً نزيهاً لهيلين، صديقاً من الذين تصطنعهم النساء اللامعات، صديقاً لا يمكنه أبداً أن ينتقل إلى دور العاشق، فقد أبدى لها ذات يوم، في جماعة من الأصدقاء، وجهة نظره في هذه القضية.

قالت «هيلين»:

- اسمع، يا بيليبين، (كانت هيلين تسمي أصدقاءها من نمط «بليبين» بأسمائهم) -ولامست كمَّ ثوبه بيدها البيضاء المثقلة بالخواتم- قل لي كما تقول لأختك، ماذا يجب أن أفعل؟ أيهما؟

قطب «بيليبين» جبينه، وراح يفكر والبسمة على شفتيه، وقال:

- لن تأخذيني على حين غرة، كما تعلمين. لقد فكرت وأعدت التفكير في قضيتك. لو تزوجت الأمير (أي الشاب) -وعدَّ على أصابعه- لأضعتِ إلى الأبد فرصة الزواج من الآخر، ثم إنك تُسخطين البلاط عليك (فهناك، كما تعلمين، نوع من القرابة). أما لو تزوجت الكونت العجوز لأسعدته في أيامه الأخيرة، ثم إنك كأرملة لهذا

الرجل العظيم... إن الأمير لن يعقد بعد ذلك زواجاً غير متكافئ حين يتزوجكِ.

وبسط «بيليبين» جبينه.

قالت هيلين وقد تهللت ولامست بيدها كمَّ «بيليبين» مرة أخرى:

– هذا هو الصديق الحقيقي! لكن المشكلة أنني أحبهما كليهما، ولا أريد أن أحمل الغمَّ إليهما. إنني أبذل حياتي من أجل سعادتهما كليهما.

هزّ «بيليبين» كتفيه ملمّحاً بذلك إلى أنه نفسه عاجز عن التخفيف من ذلك الغمّ. وفكر في نفسه:

– إنها امرأة عاهرة! هذا ما يُسمى طرح المشكلة بصراحة. إنها تود لو تتزوج الثلاثة معاً».

وسألها وهو يعلم أن رسوخ شهرته يُخوّله القاء مثل هذا السؤال الساذج دون أن يخشى فقدان هيبته:

– لكنْ قولي لي، كيف سينظر زوجك إلى الأمر؟ هل يوافق؟

قالت «هيلين» التي كانت تعتقد –الله أعلم لماذا– أن بطرس يحبها أيضاً:

– آه! إنه يحبني كثيراً، ويفعل كل شيء من أجلي.

قطب «بيليبين» جبهته ليقول كلمة أعدها:

– حتى الطلاق؟

فضحكت «هيلين».

كانت الأميرة «كوراجين»، والدة «هيلين» في عداد الذين سمحوا لأنفسهم أن يضعوا شرعية الزواج المنوي موضع الشك. لقد كانت تحسد ابنتها دائماً أشد الحسد والآن بعد أن غدا موضوع الحسد أشد إلحاحاً عليها فإنها لم تُطق تلك الفكرة. وذهبت تستشير كاهناً روسياً لتعلم إلى أي حد يمكن الطلاق ولتعلم إذا كان يحق للمرأة أن تعقد زواجاً جديداً في حياة زوجها، قال لها الكاهن: إن ذلك غير ممكن، وكان فرحها عظيماً عندما دلّها على نصّ في الإنجيل ينفي بصراحة (في اعتقاده) إمكان مثل هذا الزواج.

قصدت الأميرة ذات صباح بيت ابنتها، مبكّرة لكي تلقاها وحدها، وقد تسلحت بهذه الحجج الدامغة، في نظرها.

بعد أن أصغت «هيلين» إلى اعتراضات أمها ابتسمت ابتسامة رقيقة ساخرة.

قالت الأميرة الأم:

- لكنه جاء في الإنجيل صراحة: «من تزوج امرأة مطلقة....»

قالت «هيلين» وهي تنتقل من الروسية إلى الفرنسية لأنه بدا لها أن في الروسية غموضاً في قضيتها:

- آه! لا تتفوهي بحماقات، يا أمي! إنك لا تفقهين شيئاً. إن عليّ، في وضعي، واجبات.

- لكن، يا صديقتي....

- آه، كيف لا تعرفين، يا أمي، أن لقداسة البابا الحقّ في منح الإعفاءات...

في تلك اللحظة، دخلت وصيفة «هيلين» لتُنبئها أن سموّه في القاعة الكبرى وهو يودّ أن يراها.

- لا، قولي له أنني لا أريد أن أراه، وأنني غاضبة عليه لأنه لم يَفِ بكلامه.

قال شاب أشقر، طويل الوجه والأنف، وهو يدخل:

- لكل ذنب غفرانه، يا كونتيسة.

نهضت الأميرة الأم باحترام وانحنت. فلم يعرها الشاب التفاتاً. وأومأت برأسها إلى ابنتها واتجهت إلى الباب.

وقالت في نفسها وهي تصعد إلى عربتها:

«لا، الحق معها، -لقد ذهبت حُججها أدراج الرياح لدى ظهور سموّه- الحقُّ معها، لكن كيف جرى أننا لم نعرف ذلك في شبابنا الذي انقضى إلى غير رجعة؟ مع أنه كان بسيطاً جداً.»

في أوائل آب اتضحت بدقة قضية «هيلين» فكتبت إلى زوجها (الذي يحبها كثيراً، كما كانت تعتقد) رسالة تعلن فيها نيتها الزواج من ن.ن. واعتناقها الدين الحقيقي الوحيد، وترجوه أن يقوم بالإجراءات اللازمة للطلاق والتي سيدله عليها حامل الرسالة.

«وعلى هذا، أرجو الله يا صديقي، أن يرعاك بعنايته العظيمة المقدسة. صديقتك هيلين».

حُملتْ هذه الرسالة إلى منزل بطرس، بينما كان هو في ساحة القتال، في بورودينو.

***

الفصل الثامن

غادر بطرس بطارية «رايفسكي» للمرة الثانية، عند نهاية معركة «بورودينو»، وتبع جمهور الجند في واد نحو «كنيازكوفو»، ووصل إلى مركز إسعاف، فلما رأى الدم وسمع الصراخ والأنين استأنف طريقه على عجل واختلط بسيل الجند مرة أخرى.

كان الشيء الوحيد الذي يرغب فيه الآن من كل قلبه هو أن يترك بأقصى سرعة هذه الانطباعات الرهيبة التي عاش في ظلها هذا النهار، وأن يعود إلى شروط حياته العادية، وأن ينام بهدوء في غرفته وعلى فراشه. كان يُحس أنه لن يكون في مقدوره تَبيُّن ما في نفسه وفَهْم ما رآه وما انتابه إلا في تلك الشروط العادية. لكن هذه الشروط العادية لم تكن موجودة في أي مكان.

لم يُغير من الأمر شيئاً توقّفُ القذائف والرصاص عن الصفير هنا، فعلى الطريق الذي كان يسير فيه، وحيثما تطلع، كانت الأشياء شبيهة بساحة المعركة: نفس الوجوه المتوجعة، المنهوكة أو السادرة على نحو مستغرب، نفس معاطف الجنود، نفس ضوضاء الانفجارات التي كانت تملأ النفس خوفاً وإن بعدت؛ وانضاف إلى ذلك نقص الهواء، والغبار.

جلس بطرس على حافةُ الطريق، بعد أن قطع حوالي ثلاثة فراسخ على طريق «موجايسك» الكبرى.

هبط الغسق على الأرض وصمت دوي المدافع. فتمدد بطرس متكئاً على يده ولبث زمناً طويلاً هكذا ينظر إلى الأطياف التي تمرّ أمامه في العَتمة. وكان يُخيَّل إليه أبداً أن قذيفة سقطت عليه وهي تصفر صفيراً مرعباً؛ فينتفض ويهب جالساً. لم يكن يعلم مقدار الزمن الذي مكث فيه هنا. وفي منتصف الليل أقبل ثلاثة جنود يجمعون بعض الأغصان ونزلوا بجنبه وأشعلوا النار.

وضع الجنود قدراً على النار وهم يختلسون النظر إلى بطرس، وفتّوا فيه بسكويتاً وأضافوا إليه دهناً. فاختلطت برائحة الدخان رائحة لذيذة من طعام دسم. ونهض بطرس بجهد وتنهد. كان الجنود الثلاثة يأكلون دون أن ينتبهوا إليه ويتحدثون فيما بينهم.

وسأله أحد الجنود فجأة:

– وأنتَ، من أين أنت؟

لا ريب أنه كان يقصد من هذا السؤال ما كان يفكر فيه بطرس بالذات، أي: إذا شئت أن تأكل أطعمناك، لكن قل لنا إنْ كنت رجلاً فاضلاً.

قال بطرس، وقد أحسّ بضرورة الحطّ من مركزه الاجتماعي جهدَ المستطاع ليكون أقرب إلى هؤلاء الجنود وليفهموه فهماً أعظم:

– أنا؟.... أنا؟.... أنا في الحقيقة ضابط من المتطوعين، لكن قطعتي ليست هنا، جئت إلى المعركة وأضعت رجالي.

قال أحد الجنود:

– أرأيتَ إلى هذا!

هزّ جندي آخر رأسه، وقال الأول وهو يناول بطرس ملعقة خشبية بعد أن لعقها:

– حسناً! كلْ من هذا الطبيخ إذا شئت.

دنا بطرس من النار وطفق يأكل من طبيخ القدر الذي بدا له أشهى ما تناوله من مأكولات. وبينما كان منحنياً على القدر بنهم، يغترف منها ملاعق ملأى ويلتهمها واحدة تلو الأخرى، أضاءت النار وجهه، فنظر إليه الجنود بصمت.

وسأله أحدهم مرة أخرى:

– حسناً، قل لنا الآن إلى أين تريد أن تذهب؟

– إلى موجا يسك.

– وإذن فأنت سيّد؟

– نعم.

– وما اسمك؟

– بطرس «كيريلوفيتش».

– هيَّا، يا بطرس كيريلوفيتش، تعال معنا وسنوصلك.

اتجه بطرس والجنود إلى «موجا يسك» في الظلام الحالك.

كانت الديكةُ تصيح عندما بلغوا المدينة وصعدوا السفح الذي يؤدي إليها. كان بطرس يتبع الجنود، ناسياً كل النسيان أن نزله في أدنى السفح وأنه قد تجاوزه. ما كان ليذكر ذلك (لفرط اضطرابه) لولا أن اصطدم، في منتصف السفح، بسائسه الذي كان عائداً إلى النزل

بعد أن ذهب يبحث عنه في المدينة. عرفه خادمه في الظلمة من قبعته البيضاء، وقال له:

– يا صاحب السعادة، لقد يئسنا من العثور عليك. لم أنتَ راجل؟ وأين تذهب؟ تعال، أرجوك.

قال بطرس:

– آه! نعم!

وقف الجنود، وقال أحدهم:

– هل وجدت جماعتك؟

وقال الآخران:

– الوداع، يا بطرس «كيريلوفتش» على ما أعتقد؟ الوداع، يا بطرس «كيريلوفتش»!

قال بطرس وهو يتجه مع سائسه إلى النزل:

– الوداع.

قال في نفسه وهو يمد يده إلى جيبه: «يجب أن أعطيهم شيئاً». وهتف به صوت داخلي: «كلا، لا يجب أن تعطيهم».

لم يجد بطرس في النزل مكاناً: كانت جميع الغرف مشغولة. فمضى إلى الفناء واستلقى في عربته متدثراً بمعطفه حتى رأسه.

***

الفصل التاسع

لم يكد بطرس يضع رأسه على الوسادة حتى أحس أنه ينام؛ وإذا به يسمع هدير المدافع، والأنّـات والصرخات، وانفجار القذائف، ويشم رائحة الدم والبارود، بوضوح شديد كوضوح الواقع، فاستبد به إحساس بالهول وخوف من الموت، وفتح عينيه مرعوباً ورفع رأسه من تحت المعطف. كان كل شيء هادئاً في الفناء، إلا جندياً وصيفاً يحدّث البواب عند البوابة ويخبط في الوحل. وفوق رأسه، في ظل الطنف الاردوازي، صفقت حمامات بأجنحتها، جافلة من الحركة التي أتى بها وهو ينهض. كان الفناء بأسره مشبعاً بتلك الرائحة القوية، الهادئة، رائحة الفنادق التي أنعشته في تلك اللحظة، رائحة العلف والزبل والقطران. وفي الفرجة بين الطنفين الأسودين، كان يشاهد السماء الصافية المنجمة.

قال بطرس في نفسه وهو يغطي رأسه ثانية:

-الحمد لله، لقد انتهى ذلك كله. أوه! ما أبشع الخوف، وكيف استسلمت له استسلاماً مخزياً! أما «هم»... فظلوا طوال الوقت، إلى النهاية، صامدين، هادئين... و«هم» تعني الجنود، جنود البطارية، والجنود الذين أطعموه، والجنود الذين كانوا يصلّون أمام الأيقونة. «هم» تعني هؤلاء الرجال الغرباء الذين كان يجهلهم حتى الآن والذين راحوا يتميّزون في ذهنه ويباينون غيرهم من الرجال.

حدّث بطرس نفسه وهو ينام: «ليتني أكون جندياً، مجرد جندي! ليتني أتغلغل بكل كياني إلى هذه الحياة المشتركة، وأتشبع بما يجعلهم على ما هم عليه! لكن كيف أنعتق من كل ما لا خير منه، من هذا العبء الشيطاني للكائن الخارجي؟ جاء وقت كنت أستطيع أن أكون فيه كما أشتهي. كنت أستطيع أن أهرب من منزل والدي كما كنت أريد. كنت أستطيع أيضاً، بعد مبارزتي مع «دولوخوف»، أن ألحق بفوج من الأفواج لأكون جندياً فيه.» وطافت بمخيلته الصور، الغداء في النادي الذي تحدّى فيه «دولوخوف»، ولي نعمته في «تورجوك». وها هو ذا يتمثل اجتماعاً رسمياً في المحفل. كانت تلك الجلسة في النادي الإنكليزي. وكان يجلس إلى رأس الطاولة شخص أنيس إليه، قريب منه، عزيز عليه. إنه هو بالذات! ذلك المحسن. قال بطرس في نفسه: لكنه ميت! نعم، هو ميت، لم أكن أعلم أنه كان حياً. كم أسفت على موته وما أعظم سعادتي أن يكون حياً»! على أحد جانبي الطاولة جلس آناتول، دولوخوف، نيزفيتسكي، دينسوف، وآخرون مثلهم (كانت الفئة التي ينتسب إليها هؤلاء الناس متميزة في الحلم بوضوح، في نفس بطرس كتميز الفئة التي سماها «هم»)، كانوا يصرخون بقوة ويغنون، وكان صوت المحسن الذي يتكلم بلا كلل يطغى على أصواتهم، وكان رنين كلماته مثقلاً بالمعاني، متصلاً، كمثل دويّ ساحة القتال، لكنه رنين عذب ومعزّ. لم يكن بطرس يفهم ما يقوله المحسن، لكنه كان يعلم (كان نمط أفكاره متميزاً في الحلم أيضاً) إنه يتحدث عن الخير، وعن إمكان أن يكونوا «هم» على ما كانوا عليه، و«هم» يحيطون بالمحسن من كل جانب، بوجوههم البسيطة، الطيبة، الصامدة. لكنهم بالرغم من طيبتهم، لم يكونوا ينظرون إلى بطرس، لم يكونوا يعرفونه. وأراد بطرس أن يجتذب انتباههم إليه وأن يقول شيئاً فنهض، وفي الوقت نفسه أحس بالبرد يصيب رجليه اللتين تكشفتا.

استشعر الخجل وردّ المعطف الذي انزلق عن رجليه. وبينما كان

يسوي المعطف، فتح عينيه لحظة ورأى الأطناف ذاتها، والأعمدة ذاتها، والفناء ذاته، لكن ذلك كله كان مائلاً الآن إلى الزرقة، صافياً منقطاً بالندى أو بالجمد الأبيض.

قال في نفسه: «ها قد بزغ الفجر، لكن هناك شيئاً آخر يشغلني. ينبغي أن أصغي حتى النهاية وأن أفهم كلمات المحسن.» وتغطى بمعطفه مرة أخرى، إلا أنه لم يبق محفل ولا محسن. و لم تبق سوى أفكار صنعت صياغة واضحة بالكلمات، أفكار عبّر عنها شخص ما أو جاءت إليه نفسه.

عندما تذكر بطرس أفكاره فيما بعد، كان على يقين من أن أحداً غيره قالها له، مع أن انطباعات النهار هي التي أوحت بها. خُيِّل إليه أنه لم يكن قادراً قط على أن يملك مثل هذه الأفكار، في حالة اليقظة، وأن يُعبّر عنها مثل هذا التعبير.

كان الصوت يقول: «الحرب هي أصعب خضوع تخضعه إرادة الإنسان للقوانين الإلهية. البساطة هي الخضوع لله، ولا يمكن الإفلات منه. و«هم» بسطاء. هم لا يفكرون وإنما يعملون. الكلام من فضة والسكوت من ذهب. لا يستطيع المرء أن يملك شيئاً مادام يخاف الموت. ومن لم يخف الموت يملك كل شيء. لا يعرف الإنسان حدوده بدون الألم، لا يعرف نفسه بدون الألم. أصعب الأمور (كما ظل بطرس يفكر أو يسمع في الحلم) أن يجمع المرء في نفسه معنى الأشياء جميعاً. وتساءل بطرس: أن يجمع كل شيء؟ لا، لا يمكن جمع الأفكار، بل التوفيق بين هذه الأفكار، هو ما يلزمنا. نعم يجب التوفيق بينها، يجب التوفيق بينها!». وكرر «بطرس» هذه الكلمة بحماسة داخلية، وهو يشعر أن هذه الكلمات، هذه الكلمات وحدها تعبّر عما أراد أن يقوله وتحل المشكلة التي كانت تؤرّقه.

– نعم، يجب التوفيق، حان وقت التوفيق.

وردد صوت:

– يجب ربط الخيول، حان وقت الربط، يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة، يجب ربط الخيول، حان وقت الربط[1]...

كان الصوت صوت خادمه الذي كان يوقظه. كانت الشمس تصب أشعتها في وجه بطرس. ألقى نظرة إلى الفناء الوسخ الذي كان الجنود يسقون في وسطه، قرب البئر، خيولهم الضامرة، بينما أخذت العربات تخرج من البوابة. فأشاح بوجهه مشمئزاً، وأغمض عينيه، وتهالك على مقعد عربته. «كلاّ، لا أريد ذلك، لا أريد أن أرى وأفهم ذلك. أريد أن أفهم ما كان يتجلى لي في أثناء نومي. لو استمر الحلم ثانية واحدة أيضاً لفهمت كل شيء. لكن ما الذي ينبغي أن أفعله؟ التوفيق، فكيف أوفق بين الأشياء جميعاً؟» وأحس بطرس برعب أن معنى ما رآه وما فكّر فيه في الحلم قد انهار.

أخبره السائس والحوذي والبواب أن ضابطاً أنبأهم بتقدم الفرنسيين نحو «موجايسك» وأن الروس يتراجعون. نهض بطرس وأمر سائسه بربط الخيول وباللحاق به، ومضى ماشياً عبر المدينة.

كانت القطعات تنصرف وتترك وراءها نحو عشرة آلاف جريح، يراهم الناظر في الأفنية وفي نوافذ المنازل، ويراهم متجمعين في الشوارع حول العربات التي ستنقلهم وقد علا صوت صراخهم تجديفهم وضربهم. أما بطرس فإنه قدم عربته التي لحقت به لجنرال

١– تلاعب لفظي بين فعلين متجانسين جناساً ناقصاً في الروسية ربط أو وفق بين الأفكار وربط الخيل أو قرنها.

جريح يعرفه، ومضى معه إلى موسكو. وفي الطريق علم بموت شقيق زوجته وبموت الأمير آندريه.

***

الفصل العاشر

في الثلاثين من الشهر، بلغ بطرس موسكو. وعند الحاجز تقريباً، لقي مساعداً عسكرياً للكونت «روستوبتشين». قال له المساعد:

- بحثنا عنك في كل مكان. إن الكونت بحاجة ماسة إلى أن يراك. وهو يرجوك أن تقابله رأساً لأمر عظيم الأهمية.

استقل بطرس عربة واتجه إلى الحاكم، دون أن يمر ببيته.

كان الكونت «روستوبتشين» قد عاد في ذلك الصباح بعينه من مغناه في «سوكولنيكي»[1]، في الضواحي. وكانت غرفة الانتظار وغرفة الاستقبال غاصتين بالموظفين الذين استدعوا أو الذين جاؤوا يسألون الأوامر. وقد أجرى «فاسيلتشيكوف»[2] و«بلاتوف» مقابلة مع الكونت أوضحا له فيها أن من المتعذر الدفاع عن موسكو وأن العاصمة سوف تُسلّم. ومع أن هذه الأنباء أخفيت عن السكان، إلا أن موظفي الإدارات ورؤساءها كانوا يعلمون أن موسكو ستسقط في أيدي الأعداء، كما كان الكونت «روستوبتشين» نفسه يعلم ذلك؛

١- سوكولنيكي: غابة عظيمة في الشمال الشرقي من موسكو، مكان اصطياف.

٢- هيلاريون فاسيلتشيكوف (١٧٧٧-١٨٤٧) جنرال، قائد فرقة الخيالة التي كانت تشكل مؤخرة الجيش الروسي مثل قوزاق الجنرال بلاتوف.

ولذلك جاؤوا، دفعاً للمسؤولية، كي يقابلوا الحاكم ويسألوه عما يجب أن يفعلوه بالمصالح الموكلة إليهم.

في اللحظة التي كان بطرس يدخل فيها غرفة الاستقبال، خرج منها رسول موفد من الجيش.

أشار الرسول بيده إشارة قانطة رداً على الأسئلة التي كانت تطرح عليه، وعبر غرفة الاستقبال. نقل بطرس عينيه المتعبتين، بينما كان ينتظر، في مختلف الموظفين الموجودين في القاعة، الشباب والشيوخ منهم، العسكريين والمدنيين، الكبار أو الصغار. كان الاستياء والقلق باديين عليهم. اقترب بطرس من جماعة لمح بين أفرادها شخصاً يعرفه. وبعد أن حيوه، استأنفوا حديثهم.

– إن طرده ثم استدعاءه ليس شراً. ففي مثل هذا الوضع لا يستطيع المرء أن يضمن شيئاً.

قال آخر وهو يريهم ورقة مطبوعة أمسكها بيده:

– لكن، هاكم ما يكتب.

قال الأول:

– هذا شيء آخر، لابد من هذا للشعب.

سأل بطرس:

– ما هذا؟

– انظر، هذا إعلان جديد.

أخذها بطرس وراح يقرؤها.

«إن الأمير صاحب الرفعة، بغية الالتحاق بالقطعات التي تسير إلى لقائه بأسرع ما يمكن، اجتاز «موجايسك» وتمركز في موقع منيع لا يستطيع العدو أن يهاجمه فيه على غرة. وقد أرسل إليه من هنا ثمانية وأربعون مدفعاً مع ذخائرها، ويقول صاحب الرفعة أنه سيدافع عن موسكو حتى آخر قطرة من الدم وأنه مستعد للقتال في الشوارع إذا دعت الضرورة إلى ذلك. لا تبالوا، أيها الأصدقاء، إذا كانت الإدارات مغلقة، إذ ينبغي أن توضع شؤون الدولة في مأمن من الخطر. أما نحن فسوف نحاسب هذا الآثم حساباً عسيراً. وإذا حان الوقت احتجت إلى فتيان أشداء من المدينة والريف معاً. سأوجه نداء قبل يوم أو يومين، أما في هذه اللحظة فلا جدوى من ذلك، والصمت أجدر بي. من المستحسن أن يحمل المرء فأساً، ولا بأس من أن يملك حربة، وأفضل من ذلك أن يكون لديه شوكة، فليس الفرنسي بأثقل من حزمة الشيلم. سآمر غداً، بعد الغداء، برفع أيقونة «ايبيريا» ليطاف بها في موكب ديني من أجل جرحى المستشفى. وهنالك نبارك الماء فيكون شفاؤهم أسرع؛ أما أنا فصحتي حسنة الآن: أصبت بوجع في عيني، لكني أصبحت الآن أفتح عيني الاثنتين وأحدّق بهما».

اعترض بطرس قائلاً:

– لكن العسكريين قالوا لي: إن من المتعذر إطلاقاً القتال في المدينة وأن الموقع...

قال الموظف الأول:

– هذا بعينه ما كنا نتحدث عنه.

فسأله بطرس:

– ما معنى قوله: «أصبت بوجع في عيني، لكني أصبحت أفتحهما»

فأجاب المساعد العسكري وهو يبتسم:

– طلعت للكونت شعيرة في عينه. وقد انزعج كثيراً عندما قلت له أن الشعب جاء يسأل عن صحته.

وأضاف فجأة مخاطباً بطرس وهو يبتسم:

– قل لي، يا كونت، أصحيح ما بلغنا من أن لك متاعبك العائلية، وأن الكونتيسة زوجتك ستكون...

قال بطرس غير مكترث:

– لا علم لي بشيء ماذا قيل لك؟

– أوه، أنت تعلم أن الناس يتقوّلون كثيراً، ولن أكرر ما قيل لي.

– وماذا قيل لك؟

أجاب المساعد العسكري والابتسامة ماتزال على شفتيه:

– إنهم يروون أن الكونتيسة زوجتك تستعد للسفر إلى الخارج. لاشك أنها أقاويل...

قال بطرس وهو يلقي حوله نظرة ساهمة:

– ممكن.

وسأله بطرس وهو يشير إلى شيخ قصير يرتدي سترة زرقاء، شديدة النظافة، شيخ نضر اللون، طويل اللحية، أبيض الحاجبين كالثلج:

– من هذا؟

- هذا؟ هذا تاجر، أعني صاحب حانة، «فيربستشاغين»[1]. لعلك سمعت عن قصة الإعلان.

قال بطرس وهو يتمعن في وجهه الرصين الهادئ باحثاً فيه عن معاني الخيانة:

- آه، أهو «فيريستشاغين» إذن؟

قال المساعد العسكري:

- ليس هذا. هذا أبو الذي كتب الإعلان. ابنه في السجن وأظن أن عقابه سيكون شديداً.

اقترب من المتحدثين شيخ قصير على صدره وسام، وموظف آخر، ألماني، في عنقه وسام.

كان المساعد العسكري يروي:

- إنها، كما ترى، قصة مشوشة. فمنذ شهرين ظهر الإعلان، وأخطر الكونت فأمر بالتحقيق. وقام «غافريلو ايفانيتش» بالتحريات فوجد أن هذا الإعلان مر بثلاث وستين يداً. كان يسأل الواحد: ممن أخذته؟ من فلان، فيذهب إليه ويسأل: وأنت ممن أخذته؟ الخ... حتى وصل إلى «فيريستشاغين»، وهو تاجر صغير نصف متعلم، كما تعلم. فسأله: ممن أخذته؟ لاحظ أننا كنا نعلم ممن أخذه، لا يمكن أن يكون قد أخذه إلا من مدير البريد. ولابد من الاعتقاد بالتواطؤ بينهما. قال: لم آخذه من أحد، وأنا حررته بنفسي. وعبثاً هدّدوه وألحوا في السؤال فلم يتراجع عن موقفه: أنا ألّفته. وأخبر الكونت بذلك فأمر باستقدامه وسأله: ممن أخذت هذا الإعلان؟

١- فيربستشاغين: ابن تاجر، مستخدم صغير في بريد موسكو ترجم وأذاع مقالة من «جريدة هامبورغ» تمجد نابليون.

فأجابه: كتبته بنفسي. قال المساعد العسكري وعلى وجهه ابتسامة الاعتزاز والفرح: الواقع، أن الكونت، وأنت تعرفه، استشاط غضباً، تصوره أمام مثل هذه الوقاحة والكذب والعناد...

قال بطرس:

– آه، فهمت! كان الكونت يريد منه أن يبلغ عن «كليوتشاريف»

قال المساعد العسكري مرعوباً.

–لا، ليس الأمر كذلك. كان لكليوتشاريف على كل حال، أخطاؤه الخليقة باللوم والتي نفي من أجلها. لكن الواقع أن الكونت كان ساخطاً. قال له وهو يتناول عن الطاولة جريدة هامبورغ: «كيف أمكنك أن تؤلف مثل هذا الإعلان. ها هوذا الإعلان في الجريدة. أنت لم تؤلّفه، أنت ترجمته، ترجمته ترجمة سيئة، لأنك لا تعرف الفرنسية أيها الغبي. ما رأيك في ذلك؟ فقال له: أنا لم أقرأ جريدة، بل حررته بنفسي – إذن، إذا كان الأمر كذلك... فأنت خائن، وسأحيلك إلى القضاء، وسوف تشنق. قل: من أين أخذته؟ – لم أقرأ جريدة، وحررته بنفسي. بقيت الأمور عند هذا الحد. واستدعى الكونت أباه، إلا أن الابن أصرّ على أقواله. وأحيل إلى القضاء وحكم بالأشغال الشاقة، فيما أظن. والآن جاء الأب يستعطفهم من أجله. لكنه رجل سافل! فهو كما تعلم ابن تاجر، تافه، فاسق، لا أدري أين تلقى دروسه، يتصور أنه فوق الناس. أما أبوه فهو يملك حانة قرب جسر بطرس، وفي حانته أيقونة تمثل الإله الأب ممسكاً بإحدى يديه صولجاناً وباليد الأخرى الكرة الأرضية، حسناً! لقد حمل هذه الإيقونة إلى بيته بضعة أيام، أتدري ماذا فعل بها؟ وجد رساماً من أوباش الناس...

***

الفصل الحادي عشر

في وسط هذه القصة الجديدة، دُعي بطرس إلى الدخول على الحاكم.

دخل بطرس مكتب الكونت «روستوبتشين». كان «روستوبتشين» مقطبَّ الحاجبين، يفرك بيده جبهته وعينيه عندما دخل بطرس. وكان معه رجل قصير يحدثه، فلما ظهر بطرس صَمت وخرج.

ما إن توارى ذلك الرجل حتى قال «روستوبتشين»:

آه! مرحباً بالمحارب الشهير. لقد سمعنا عن مآثرك! لكني أريد أن أحدثك في موضوع آخر. أنت، يا عزيزي، -بيننا- ماسوني؟ وتابع كلامه بلهجة قاسية كأن في الانتساب إلى الماسونية شراً وكأنه قرر أن يغفر له هذا الشرَّ. وظل بطرس صامتاً.

- يا عزيزي، أنا حسنُ الاطلاع بهذا الصدد، لكنني أعلم أن الماسونيين ليسوا سواء، وآمل ألا تكون من هؤلاء الذين يريدون ضياع روسيا بحجة انقاذ الجنس البشري.

رد بطرس:

- نعم، أنا ماسوني

- حسناً! أظنك ياعزيزي، لا تجهل أن السيدين «سبيرانسكي»

و«ماغنيفسكي» قد أبعدا إلى حيث يستحقان كما أُبعد السيد «كليوتشاريف» وآخرون ممن تذرعوا ببناء هيكل سليمان لتدمير هيكل الوطن. ولا يفوتك أن هناك أسباباً موجبة لذلك، وإنني لم أكن لأنفي مدير البريد من هنا لو لم يكن رجلاً خطيراً. وقد علمت أنك أرسلت إليه عربة ليغادر المدينة بل وإنك قبلت أن تضع بعض الأوراق في عهدتك. إني أحبك ولا أريد أن يصيبك مكروه، وبما أنك في نصف سني فإني أنصحك كما ينصح الأب ابنه أن تقطع جميع علاقاتك بهذا النوع من الناس وأن تسافر أنت نفسك من هنا بأسرع ما يمكن.

سأله بطرس:

– لكن، في أي شيء أذْنب «كليوتشاريف»؟

فصرخ «روستوبتشين»:

– من حقي معرفة ذلك وليس لك أن تسأل عنه.

قال بطرس دون أن ينظر إليه:

– إذا كنت تتهمه بتوزيع نداءات نابليون فهذا غير ثابت عليه، و«فيريستشاغين»...

فصرخ «روستوبتشين» بصوت أقوى وهو يقطب حاجبيه ويقاطعه:

– وصلنا إلى لب المشكلة. «فيريستشاغين» خائن باع نفسه، وسيلقى العقاب الذي يستحقه. -كان يتكلم وهو هائج من الغضب كما يهيج المرء عندما يتذكر إهانة شخصية- لكنني لم أستدعك لأناقش شؤوني معك، وإنما لأسوق إليك النصيحة، أو الأمر إذا شئت. أرجوك أن تقطع كل علاقاتك بأناس مثل «كليوتشاريف» وأن ترحل من هنا، أما حماقاتهم فسأحملهم جميعاً على العدول عنها. -وحين رأى نفسه

كأنما يصرخ في وجه «بيزوخوف» وهو غير مذنب بعدُ، أضاف وهو يمسك ذراعه بحركة ودّية- نحن على أبواب كارثة عامة، وليس لدي الوقت لملاطفة كل من لهم صلة بي، فقد تمر لحظات لا أعرف أين أنا! حسناً! ماذا تفعل، أنت شخصياً، يا عزيزي؟

أجاب بطرس دون أن يرفع عينيه ودون أن يغير ما في وجهه من أمارات التفكير.

- إني لا أفعل شيئاً.

قطب الكونت حاجبيه وقال:

- اسمع نصيحة الصديق، يا عزيزي. ارحل بأسرع ما يمكن. هذا كل ما عندي. والسلام لمن اهتدى! وداعاً ياعزيزي.

وبينما بطرس يصل إلى الباب صرخ به:

- آه! نعم، أصحيح أن الكونتيسة وقعت بين براثن آباء جمعية يسوع؟

لم يجب بطرس بشيء، وخرج من عند «روستوبتشين» كالح الوجه، هائجاً، على نحو لم يُر بمثله قط.

عندما عاد إلى البيت كان الظلام مخيماً. وجاء إليه سبعة أو ثمانية أشخاص في السهرة: أمين سر اللجنة وعقيد كتيبته ووكيله وكبير الخدم وبعض ذوي المصالح. كانوا جميعاً بحاجة إليه لإنجاز بعض الأعمال التي ينبغي أن يبتّ فيها. ولم يكن بطرس يفقه شيئاً منها، ولا يهتم بها وبغيرها من المسائل، ولا يُجيب إلا ليتخلص من هؤلاء الناس. وأخيراً، عندما بقي وحده، فضّ رسالة امرأته وقرأها.

«هُم»، جنود البطارية، الأمير آندريه قُتل... الشيخ...؟ البساطة هي الخضوع لله، يجب أن تتأ لم.... معنى الأشياء جميعاً... يجب أن نوفق بينها... زوجتي تتزوج... يجب أن ننسى ونفهم...» واقترب من سريره، وارتمى عليه دون أن يخلع ثيابه، ونام من فوره.

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، أبلغه رئيس الخدم أن شرطياً أرسله الكونت «روستوبتشين» جاء يسأل إن كان الكونت «بيزوخوف» قد سافر أم هو ينوي السفر.

كان ينتظره في قاعة الاستقبال نحو عشرة أشخاص لأعمال لهم. لبس بطرس ثيابه على عجل، وبدلاً من أن يذهب لمقابلتهم، سلك سلّم الخدم وخرج من بوابة الفناء.

منذ ذلك الحين وحتى نهاية خراب موسكو لم يَر بطرس أحد ممن يحيطون به، بالرغم من البحث والاستقصاء، ولم يعلم أحد ما الذي حلّ به.

***

الفصل الثاني عشر

ظل آل «روستوف» في المدينة حتى أول أيلول، أي حتى عشية دخول العدو إلى موسكو.

بعد انضمام «بيتيا» إلى فوج قوزاق «أوبولنسكي» وسفره إلى «بيلاتسيركوف» حيث كان فوجه يتشكل، استولى الخوف على الكونتيسة. فكونُ ولديها في الحرب، وأنهما هجرا كنفَ جناحها، وأن أحدهما أو كليهما قد يُقتل اليوم أو غداً كما قُتل الأولاد الثلاثة لإحدى صديقاتها، هذه الفكرة خطرت في بالها لأول مرة بوضوح فظ. حاولت أن تُعيد «نيقولا» إلى البيت، وأرادت أن تذهب هي نفسها وتلحق ببيتيا، أو أن تعيّنه في مكان ما في بطرسبرج، فتبيّن أن ذلك كله مستحيل. لم يكن «بيتيا» يستطيع العودة إلا مع فوجه أو بواسطة انتقاله إلى فوج آخر مقاتل. أما «نيقولا» فكان في مكان ما في الجيش، ومنذ رسالته الأخيرة التي وصف فيها لقاءه مع الأميرة «ماريا» وصفاً مفصلاً، انقطعت أخباره عن أهله. لم تكن الكونتيسة لتنام الليل من جرّاء ذلك، فإذا أغفت رأت في الحلم ولديْها قتيلين. وأخيراً، وبعد مراجعات ومشاورات، عثر الكونت على وسيلة لتهدئتها. ذلك أنه نقل «بيتيا» من فوج «اوبولنسكي» إلى فوج «بيزوخوف» الذي كان يتشكل قرب موسكو. ومع أن «بيتيا» ظلّ في الخدمة، إلا أن هذا النقل منح الكونتيسة العزاء بأن يكون أحدُ ولديها في ظل جناحها، والأمل

بأن تضع ابنها في موضع لا يسمح له بتركها، وأن تعيّنه في مراكز لا يتعرض فيها لمخاطر القتال. كان يبدو لها «وكانت تُقرَ بذلك» إن ابنها البكر «نيقولا»، أحب أولادها إليها، مادام وحده في خطر؛ لكنْ، عندما أصبح ابنها المدلل الأصغر، هذا العفريت «بيتيا»، الذي كان مهملاً لدروسه، وكان يحطم كل شيء في البيت ويضايق الناس جميعاً، «بيتيا» هذا ذو الأنف الأخنس، والعينين السوداوين البشوشتين، واللون النضر المتورد مع ظلال من الزغب على وجنتيه، عندما أصبح هناك، بين أولئك الرجال العتاة القساة، الذين يقتتلون لسبب لا يعلمه إلا الله، والذين يجدون الفرح في هذا الاقتتال، عند ذاك خُيل إلى الأم أنها تحبه أكثر من غيره، أكثر من غيره بكثير. كانت كلما اقتربت اللحظة المرتقبة التي سيعود فيها «بيتيا» اشتد قلقها. كانت تحدث نفسها أنها لن تحظه بمثل هذه السعادة أبداً. و لم يكن وجود «صونيا» وحدها هو الذي يثيرها، بل ووجود «ناتاشا» التي تعبدها، وحتى وجود زوجها ذاته. كانت تقول في نفسها: «مالي ولهم، لست بحاجة إلا إلى «بيتيا!»».

في أواخر أيام آب، تلقى آل «روستوف» رسالة ثانية من «نيقولا» كتبها من مقاطعة «فورونيج» حيث أرسل بمهمة شراء خيل بدلاً من المفقود. لم تُدخل هذه الرسالة الطمأنينة إلى قلب الكونتيسة. فحين علمت أن أحد ولديها بعيد عن الخطر تزايد قلقها على «بيتيا».

مع أن معظم معارف آل «روستوف» غادروا موسكو منذ العشرين من آب، ومع أن الجميع دعوا الكونتيسة إلى الرحيل بأسرع ما يمكن، فإنها كانت تأبى أن تسمع كلاماً على الرحيل قبل عودة كنزها، «بيتيا» المعبود. ووصل «بيتيا» في الثامن والعشرين من آب. لكن الحنان المفرط المشبوب الذي لقيته به أمه لم يعجب هذا الضابط ذا الستة عشر عاماً. ومع أنها كتمت عنه نيتها في الاحتفاظ به تحت جناحها، إلا أنه استشف

مقاصدها وخشي بغريزته أن يسترخي وتفتر همته قرب أمه (هكذا كان يفكر بينه وبين نفسه)، فعاملها ببرودة وتحاشاها ولزم أخته «ناتاشا» دون غيرها أثناء إقامته في موسكو، وكان يشعر دائماً إزاء «ناتاشا» بحنان أخوي خاص قريب من العشق.

لم يكن قد أعد شيء للرحيل في الثامن والعشرين من آب، من جراء لامبالاة الكونت المعتادة، ولم تصل العربات الصالحة لنقل المتاع من ممتلكاتهم في «ريازان» وفي ضواحي موسكو إلا في الثلاثين.

ومن الثامن والعشرين إلى الواحد والثلاثين عاشت موسكو في حركة محمومة. ففي كل يوم كان يؤتى بآلاف الجرحى من معركة «بورودينو»، عن طريق حاجز «دوروغو ميلوفو»، وكانوا يوزعون في موسكو، بينما كان يخرج من الحواجز الأخرى آلاف العربات المحملة بالناس والأرزاق. وبالرغم من إعلانات «روستوبتشين» أو بمعزل عنها، أو بسبب هذه الإعلانات، تناقلت الألسن أشد الأنباء تناقضاً وغرابة. كان بعضها يقول: إن الرحيل أصبح ممنوعاً، وبعضها على العكس، يروي أن الإيقونات رفعت من الكنائس وأن الناس يرحلون بالقوة؛ كان هذا يزعم أن معركة جديدة دارت رحاها بعد معركة «بورودينو» هزم فيها الفرنسيون؛ وذاك، على نقيضه، يزعم أن الجيش الروسي بأسره أبيد؛ هذا يتحدث عن متطوعي موسكو الذين سيمضون إلى التلال الثلاثة وعلى رأسهم رجال الدين؛ وذاك يهمس أن «اغسطين»[1] منع من الذهاب، وأن خونة أوقفوا، وأن الفلاحين يثورون وينهبون أرزاق الذين رحلوا، إلخ، إلخ. لكن الناس كانوا يقولون ذلك بألسنتهم فقط؛ والحقيقة أن الذين كانوا يرحلون مثلهم مثل الذين كانوا يبقون (مع أن مجلس «فيلي» العسكري الذي قرر التخلي عن المدينة لم يكن قد عقد

---

١ – أغسطين مطران موسكو.

بعد) أحسوا، وإن لم يعبروا عن ذلك، أن موسكو، لا محالة، ستسلم للعدو وأن من واجبهم الارتحال بأسرع وقت ممكن وتخليص أرزاقهم. لقد شعروا أن كل شيء سينهار فجأة وسيتغير، إلا أنه لم يتغير شيء حتى الأول من أيلول. كانت موسكو، شبيهة بمجرم يساق إلى العذاب ويعلم أنه سيموت بين لحظة وأخرى لكنه مايزال ينظر حوله ويصلح من وضع قبعته، تتابع حياتها المألوفة مع علمها باقتراب ساعة الكارثة التي ستتقوض فيها كل أعراف الحياة، وهي أعراف تعودوا أن يخضعوا لها.

اضطر آل «روستوف»، خلال الأيام الثلاثة التي سبقت سقوط موسكو، أن يواجهوا شتى الهموم المنزلية. وكان رب الأسرة الكونت «ايليا اندريتيش» دائم التطواف في موسكو، يتلقف الأخبار، ويصدر في البيت أوامر مبهمة وسريعة بصدد الرحيل.

كانت الكونتيسة تشرف على نقل المتاع، غير راضية عن شيء، وتفتش عن «بيتيا» الذي كان يهرب منها دائماً، وتغار من «ناتاشا» التي كان يقضي معها كل وقته. وكانت «صونيا» وحدها تعنى بالجانب العملي: حزم الأمتعة. لكنها كانت في الآونة الأخيرة مخلدة إلى الحزن والصمت. ذلك أن رسالة «نيقولا» التي يتحدث فيها عن الأميرة ماريا فسحت المجال لخواطر مفعمة بالفرح من جانب الكونتيسة، وبحضور «صونيا»، وكانت الكونتيسة ترى في لقاء الأميرة «ماريا» و«نيقولا» تدبيراً من العناية الإلهية، قالت:

– لم أبتهج قط عندما خطب «بولكونسكي» ناتاشا، لكني تمنيت دائماً أن يتزوج «نيقولا» الأميرة، وإني لأحدس أن هذا الزواج سيتم. سيكون ذلك عظيماً!

كانت «صونيا» تحس أن ذلك صحيح، وأن الوسيلة الوحيدة

التي يستطيع بها آل «روستوف» إصلاح وضعهم المادي هي تزويج «نيقولا» من فتاة غنية وأن الأميرة ماريا هي الفتاة المطلوبة. لكنها كانت تشعر بكثير من المرارة من جراء ذلك. وبالرغم من حزنها بل لعلها بسبب هذا الحزن نفسه، قد أخذت على عاتقها أعباء النقل والحزم واستغرقت في الشغل أياماً كاملة. وكان الكونت والكونتيسة يتوجهان إليها بأوامرهما. أما «بيتيا» و«ناتاشا» فلم يتركا مساعدة أهلهما فحسب، بل أنهما كانا يزعجان الجميع ويضايقانهم. وكان البيت يعج طوال النهار بصدى جريهما وصراخهما وقهقهاتهما. وإذا كانا يضحكان ويلهوان، فلم يكن مرد ذلك إلى سبب معين، بل لأن روحهما كانت خفيفة، فرحة، وكان كل ما يقع لهما باعثاً على الفرح والضحك. كان «بيتيا» فرحاً لأنه ذهب من البيت صبياً، وعاد إليه (على حد قول الجميع) رجلاً شديد القوى، بهي الطلعة؛ كان فرحاً لأنه كان في بيته، ولأنه بعد «بيلاتسيركوف» التي لم يكن يتاح له فيها خوض معركة قريبة، ألقى نفسه في موسكو حيث سينشب القتال في هذه الأيام بالذات، ولأن ناتاشا، بخاصة، كانت مبتهجة وكان «بيتيا» يتخلق بأخلاقها. أما «ناتاشا» فكانت مبتهجة لأنها ظلت زمناً طويلاً حزينة، ولأنه ما من شيء يذكرها الآن بسبب حزنها، ولأن صحتها حسنة. كانت مبتهجة أيضاً لأنها وجدت من يعجب بها (إعجاب الآخرين عندها هو الزيت الذي لا غنى عنه لحسن دوران الآلة)، وكان «بيتيا» يعجب بها. لكنهما كانا مبتهجين، على وجه الخصوص، لأن الحرب كانت على أبواب موسكو، ولأن القتال سينشب عند مداخلها، ولأن السلاح كان يوزع، ولأن الناس يلوذون بالفرار، ويمضون إلى مكان قصي، وخلاصة القول أنهما كانا مبتهجين لأن شيئاً غير مألوف سيجري، وهو ما يفتن اللب دائماً، ولاسيما عندما يكون المرء شاباً.

***

الفصل الثالث عشر

في سبت الواحد والثلاثين من آب، بدا كل شيء منقلباً رأساً على عقب في منزل آل «روستوف». كانت جميع الأبـواب مفتوحة، والأثـاث مرفوعاً أو منقولاً، والمرايا واللوحات مفكوكة. كانت الصناديق تزحم الغرف التي يناثر في أرجائها القش وورق الصر والحبال. وكان الفلاحون والخدم يحملون الأمتعة ويروحون ويجيئون بخطى ثقيلة على أرض الغرف. وفي الفناء ازدحمت عربات الفلاحين التي حمل بعضها ورتب ما فيها، وربط، وبقي بعضها الآخر فارغاً.

من كل جانب تجاوبت ضوضاء الخطى وأصوات هذا الجمع الغفير من الخدم والفلاحين الذين جاؤوا مع عرباتهم وراحوا يتصايحون في الفناء وفي البيت. كان الكونت قد خرج منذ الصباح، واستلقت الكونتيسة في مخدعها الجديد وعلى جبينها كمادات بالخل بسبب الصداع الذي أصابها لفرط الحركة والضجيج. وغاب «بيتيا» عن البيت. (كان يزور صديقاً ينوي معه الانتقال من فرق المتطوعين إلى الجيش المقاتل). وكانت «صونيا» تشرف، في صالة الرقص، على حزم الأواني البلورية والخزفية، و«ناتاشا» جالسة على الأرض، في غرفتها المقلوبة، وسط ركام من الأثواب والأشرطة والأوشحة، وعيناها شاخصتان إلى الأرض، وبين يديها ثوب قديم من ثياب الرقص (بطل زيه الآن) ذاك الذي ارتدته في أول حفلة راقصة لها في بطرسبرج.

أحست «ناتاشا» بالخجل لأنها لا تعمل شيئاً في البيت بينما انهمك الجميع في العمل، وحاولت مراراً أن تباشر عملاً لكنها لم تجد من نفسها ميلاً إليه؛ وهي لا تستطيع ولا تحسن شيئاً إلا إذا أقبلت عليه بكل قلبها، دون تحفظ. بقيت لحظة قرب صونيا بينما كانت الأواني الخزفية تحزم، وأرادت أن تساعدها، لكنها لم تلبث أن أقلعت عن ذلك ومضت إلى غرفتها لترتب متاعها الخاص. استمتعت أول الأمر بتوزيع أثوابها وأشرطتها على الوصيفات، لكنها لما عمدت إلى حزم ما تبقى من ثيابها، بدا لها ذلك مملاً، متعباً.

- «دونياشا»، سوف تحزمين ذلك كله، يا عزيزتي؟ نعم؟ أليس كذلك.

وعندما وعدت «دونياشا» بأن تقوم بذلك كله، جلست «ناتاشا» على الأرض، وتناولت فستان الرقص العتيق وأخذت تفكر في غير ما ينبغي أن يشغلها في هذه اللحظة، وأيقظتها من أحلام يقظتها أصوات الخادمات اللائي كن يتحدثن في غرفتهن المجاورة لغرفتها. نهضت وألقت بنظرة من النافذة فرأت قافلة لا نهاية لها من الجرحى تقف في الشارع.

وكان الخدم والقيمة والمربية العجوز والطهاة والحوذيون ومساعدو الطباخين عند البوابة ينظرون إلى الجرحى.

ألقت «ناتاشا» منديلاً أبيض على شعرها وخرجت إلى الشارع، وهي تمسك المنديل من طرفيه بيديها.

فارقت الجمع المحتشد عند البوابة القيمة القديمة، العجوز «مافراكوزمينيشتا»[1]، ودنت من عربة مغطاة بغطاء جلدي، وبدأت

١- مافراكوزمينيشتا: ابنة كوزما.

الحديث مع ضابط شاب شاحب الوجه كان ممدداً. وخطت «ناتاشا» خطوات ووقفت على استحياء وهي ماتزال تمسك بالمنديل، وأصغت إلى ما كانت تقوله القيمة، كانت «مافراكوزمينيشتا» تقول:

– إذن، ليس لك أحد في موسكو؟ ستكون أكثر هدوءاً في أحد المنازل هنا، هذا المنزل مثلاً، إن أهله على أهبة السفر.

قال الضابط بصوت ضعيف:

– لا أعلم إن كانوا يسمحون. ها هو ذا الرئيس... اسأليه.

وأشار بإصبعه إلى نقيب ضخم يعود بحذاء صف العربات.

ألقت ناتاشا نظرة مذعورة على وجه الضابط الجريح ومضت على الفور إلى لقاء النقيب. وسألته:

– أيمكن للجرحى أن يأووا إلى بيتنا؟

رفع النقيب يده إلى حافة عمرته مبتسماً، وقال وهو يغضن عينيه:

– فيم ترغبين، يا آنسة؟

كررت «ناتاشا» سؤالها بهدوء، وكان وجهها وكل مظهرها ينمان على جد بالغ، مع أنها ظلت تمسك المنديل بيديها، حتى إن النقيب كف عن ابتسامه، وأجابها بالموافقة بعد أن فكر وكأنه تساءل إلى أي حد كان الشيء ممكناً. قال:

– أوه! نعم، لم لا، يمكنهم ذلك.

فحنت «ناتاشا» رأسها انحناءة خفيفة ورجعت بخطى حثيثة إلى «مافراكوزمينيشتا» التي كأنت مائلة على الضابط تحدثه بعطف مشفق، وهمست في أذنها:

– يمكنهم ذلك، قال: إنه يمكنهم ذلك!

استدارت عربة الضابط لتدلف إلى فناء آل روستوف، ودخلت عشرات العربات المحملة بالجرحى إلى أفنية بيوت شارع بوفارسكايا، بناء على دعوة الأهلين. وكأنما فتن «ناتاشا» هذا الاحتكاك بأناس جدد، خارج شروط الحياة اليومية، فحاولت جاهدة مع «مافراكوزمينيشتا» أن تدخل إلى فناء البيت أكبر عدد ممكن من الجرحى.

قالت «مافراكوزمينيشتا»:

– يجب على أي حال، إعلام أبيك.

– لا أهمية لذلك، لا أهمية لذلك! نستطيع أن نمضي يومنا في الصالون. يمكننا أن نعطيهم جناحنا كله.

– مهلاً، يا آنسة، أنت تتسرعين إلى أفكارك! يجب أن تطلبي الإذن حتى لو أردت وضعهم في الأجنحة وفي غرف الخدمة وفي غرفة المربية.

– حسناً! سأطلب الإذن.

ركضت «ناتاشا»، إلى الداخل، واجتازت، على أطراف أصابعها، باب المخدع المشقوق الذي تفوح منه رائحة الخل وقطرات من سائل «هوفمان».

– أأنت نائمة، يا أمي؟

قال الكونتيسة وهي تستيقظ بعد أن أغفت قبل هنيهة:

– آه! كيف يستطيع المرء أن ينام!

قالت ناتاشا وهي تجثو أمام أمها وتلصق وجهها بوجه أمها:

– يا أمي، يا أمي الحبيبة اللطيفة، الغلطة غلطتي، اغفري لي، لن أعود إلى مثلها. لقد أيقظتك. «مافراكوزمينيشتا» هي التي أرسلتني. لقد أدخلنا جرحى وضباطاً، أتسمحين؟

ثم قالت بسرعة دون أن تلتقط أنفاسها:

– إنهم لا يعلمون أين يذهبون، كنت أعلم أنك ستسمحين...

قالت الكونتيسة:

– أي ضباط؟ بمن جئتم؟ لست أفقه شيئاً.

أخذت «ناتاشا» تضحك وابتسمت الكونتيسة أيضاً ابتسامة خفيفة.

نهضت «ناتاشا» وقبلت أمها واتجهت إلى الباب:

– كنت أعلم أنك ستسمحين.... هذا ما سأعلنه.

وفي صالة الرقص لقيت أباها داخلاً وهو يحمل أخباراً سيئة. قال بغيظ عفوي:

– لقد تأخرنا أكثر مما ينبغي! وأغلق النادي ورحلت الشرطة.

قالت له ناتاشا:

– أيسوءك أني أدخلت الجرحى إلى بيتنا؟

أجاب الكونت وهو شارد اللب:

– طبعاً لا. لكن الموضوع غير هذا. أطلب إليكم ألا تهتموا بسفاسف الأمور، وعلينا أنْ نعكف جميعاً على العمل وأن نذهب غداً، أن نذهب غداً....

وأصدر أمره هذا إلى رئيس الخدم وإلى الخدم. وعلى المائدة أخبرهم بيتيا الذي عاد للغداء، أخباراً التقطها من المدينة.

روى أن الشعب كان يتسلح اليوم في الكريملين، وأن الأمر قد صدر، بالرغم من أن «روستو بتشين» قال في إعلانه: إنه سيصدر نداء إلى الشعب قبل يوم أو يومين، للتوجه إلى التلال الثلاثة وأن معركة كبرى ستنشب هناك.

كانت الكونتيسة تنظر بذعر خجل إلى وجه ابنها المبتهج، المهتاج وهو يتكلم. كانت تعلم أنها لو قالت له كلمة واحدة تطلب فيها ألا يذهب إلى هذه المعركة (أدركت أنه مبتهج لأنه يأمل أن يقاتل) لتحدث عن الواجب والرجال والشرف والوطن، ولتفوه بأشياء منافية للعقل، لا يقولها سوى الذكور، مشبعة بالعناد، مما لا تجد رداً عليها، ولأفسدت كل شيء. لذلك لم تقل له شيئاً، على أمل أن تتدبر الأمر وتسافر قبل المعركة، وأن تصطحبه بصفته مدافعاً وحامياً، لكنها بعد الغداء استدعت الكونت وتوسلت إليه بالدموع أن يرحل بها في أسرع ما يمكن، في الليل إن أمكن الأمر. لقد تسلحت بما في الحب من مكر غريزي أنثوي وقالت أنها -وهي التي أظهرت حتى الآن رباطة جأش فائقة- ستموت خوفاً إن لم تسافر في هذه الليلة بالذات. لم تكن تتصنع الخوف، بل إنها كانت في الحقيقة خائفة من كل شيء.

***

الفصل الرابع عشر

زادت السيدة «شوس» التي كانت في زيارة ابنتها من مخاوف الكونتيسة عندما حدثتها عما رأته في شارع «مياسنيتسكايا»، أمام أحد مستودعات المشروب. لم تستطع المرور أثناء عودتها بسبب الجمهور الثمل الهائج من حواليه. فاستقلت عربة واضطرت أن تدور حول الطريق وتسلك أحد الأزقة؛ وقد روى لها الحوذي أن الشعب كان ينزل براميل المستودع، وأنه تلقى أمراً بذلك.

بعد الغداء، أكبَّ كل مَنْ في منزل آل «روستوف» على العمل السريع المليء بالحماسة للانتهاء من الحزم وللاستعداد للسفر. و لم يكف الكونت العجوز، بعد أن باشر الأمور بنفسه على حين غرة، من التنقل بين الفناء والمنزل، وهو يزجر بغير حق ولا تمييز، خدمه الذين كان يريد منهم أن يضاعفوا من سرعتهم. وكان «بيتيا» يصدر أوامره في الفناء. وحارت «صونيا» فيما تفعل أمام أوامر الكونت المتضاربة. وكان الخدم يتراكضون عبر الغرف والفناء وهم يصرخون ويتخاصمون ويضجون. وأقبلت «ناتاشا» أيضاً على العمل فجأة بشغف، كعادتها عندما تقبل على أي شيء. لقد استقبل تدخلها للمشاركة في الحزم بحذر في مبتدأ الأمر. فلم يكن ينتظر أحد منها سوى الشيطنة و لم يشأ أحد أن يصغي إليها. لكنها أصرّت بعناد على أن يستجاب طلبها وغضبت، وبكت لأن الناس لا يصغون إليها، وانتهت بالحصول على الثقة المطلوبة.

وأول مأثرة لها كلفتها مجهودات عظيمة وفرضت سلطانها، كان حزم السجاد. وكان الكونت يملك سجاداً ثميناً مما يعلق على الجدران، وسجاداً فارسياً. وعندما شرعت «ناتاشا» في العمل، كان في صالة الرقص صندوقان مفتوحان: الأول معبأ حتى حافته بالخزفيات، والآخر بالسجاد. وبقي الكثير من الخزف على الطاولات، ومازال الخدم يأتون به من المدخرات. كان لابد من تعبئة صندوق ثالث، وذهب الخدم لحمل هذا الصندوق، فقالت «ناتاشا»:

– انتظري، يا «صونيا». سنضع كل شيء في هذين الصندوقين.

قال الخازن:

– مستحيل، يا آنسة. لقد جربنا ذلك من قبل.

– بلى، انتظر قليلاً.

وأخرجت «ناتاشا» من الصندوق الأطباق والصحون الملفوفة بالورق. وقالت:

– لنضع الأطباق هنا، في السجاد.

قال الخازن:

– سيكون شيئاً حسناً إذا توصلنا إلى وضع السجاد في ثلاثة صناديق.

– انتظر، أرجوك.

وراحت تنتقي الأشياء انتقاء سريعاً، ماهراً. فتقول عن خزف «كييف»: هذا، لا غناء فيه. وتقول بصدد خزفيات «ساكس»: هذا نعم، ضعوه بين السجاد.

قالت «صونيا» بلهجة الملامة:

- دعي عنك هذا، يا «ناتاشا»: سنفعل ذلك بأنفسنا.

وقال رئيس الخدم:

- ايه! يا آنسة!

لكن «ناتاشا» لم تتراجع، وأفرغت الصندوق وبدأت التعبئة بسرعة، مقررة أنه لا يجب حمل السجاد الزهيد الثمن والأواني التي لا نفع فيها. وبعد أن أفرغت جميع الصناديق من كل ما فيها بدأت التعبئة من جديد. فنحت جانباً مالا يستحق عناء الحمل ووضعت في الصندوقين نفائس الأشياء. لكن غطاء صندوق السجاد أبى أن ينغلق وكان من الممكن رفع شيء ما من داخله، إلا أن «ناتاشا» كابرت وأصرت على رأيها. فكانت تحزم المتاع، وتغير مكانه، وتحشوه، وتطلب إلى الخازن وإلى «بيتيا» الذي جرته إلى العمل: أن يشدا بثقلهما على الغطاء وتبذل هي نفسها جهداً يائساً.

قالت لها «صونيا»:

- مهلاً، يا «ناتاشا». أرى أنك على حق. لكن: على كل حال، ارفعي القطعة التي على الوجه.

فصرخت «ناتاشا» وهي ترد بإحدى يديها شعرها المحلول من على وجهها المبلل بالعرق، وتضغط باليد الثانية السجاد:

- لا أريد. لكن شد أنت، يا «بيتيا»، شد، شد، يا فاسيلي!

واستوى سطح الصندوق وانغلق غطاؤه. فصفقت «ناتاشا» بيديها، وأطلقت صرخات الفرح: وانبحست الدموع من عينيها. لكن ذلك لم يدم سوى لحظة. إذ ما لبثت أن أكبت على عمل آخر، وأخذ الجميع

يثقون بها ثقة تامة، و لم يغضب الكونت عندما قيل له أن ابنته خالفت أوامره، وكان الخدم يأتون إليها ليسألوها إن كان يجب ربط العربات وإن كانت حمولتها كافية. كان العمل يتقدم بفضل تعليمات «ناتاشا» أي إهمال الأشياء التافهة وحزم الأشياء النفيسة حزماً محكماً.

وبالرغم من حمية الجميع إلا أنهم لم يستطيعوا أن ينتهوا من حزم جميع المتاع حتى ساعة متأخرة من الليل. فنامت الكونتيسة وذهب الكونت لينام بعد أن أجّل السفر إلى صباح اليوم التالي.

ونامت «ناتاشا» و«صونيا» بثيابهما في المخدع.

في هذه الليلة، جيء بجريح آخر إلى شارع «بوفارسكايا» وأدخلته «مافراكوزمينيشتا» التي كانت أمام البوابة إلى منزل آل «روستوف». كان هذا الجريح، برأيها، شخصية عظيمة الشأن. فقد كان محمولاً على عربة خفيفة مرفوعة الواقية، مسدلة الغطاء. وكان يجلس قرب الحوذي، على المقعد، خادم حسن الهيئة، ويتبعه طبيب وجنديان في عربة.

قالت العجوز مخاطبة الخادم العجوز:

– ادخلوا إلى بيتنا، أرجوكم، ادخلوا. إن السادة سيرحلون والبيت خال.

أجاب الخادم وهو يتنهد:

– عجباً! ما كنا نأمل أن نأتي به حياً! إن لنا نحن بيتاً في موسكو، لكنه بعيد، وليس فيه أحد.

قالت «مافراكوزمينيشتا»:

– أهلاً بكم في بيتنا، فلدى أسيادنا كل ما يلزمكم.

وأضافت:

- وإذن، فحالته سيئة جداً.

أشار الخادم بيده إشارة تدل على اليأس وقال:

- فقدنا الرجاء في أن نعود به حياً! يجب أن أسأل الطبيب.

نزل من مقعده واقترب من العربة. قال الطبيب:

- لا بأس.

عاد الخادم إلى العربة وألقى عليها نظرة، وهز رأسه، وأمر الحوذي أن ينعطف إلى الفناء ووقف قرب «مافراكوزمينيشتا».

قالت هذه:

- يا يسوع!

وعرضت عليه أن ينقل الجريح، وأكدت القول:

- لن يقول السادة شيئاً....

ولمّا كان ينبغي تحاشي صعود الدرج نقل الجريح إلى الجناح ووضع في الغرفة التي كانت فيها السيدة «شوس». كان الجريح الأمير آندريه بولكونسكي.

***

الفصل الخامس عشر

أشرق آخر يوم من أيام موسكو. كان الجو صحواً، والطقس خريفياً بهيجاً، وكان اليوم يوم أحد كبقية الأحاد، قرعت فيه أجراس جميع الكنائس للصلاة. لم يكن أحد قد فهم بعد -على ما يبدو- ما كان ينتظر موسكو.

غير أن دلالتين من حالة السكان النفسية دلتا على الوضع الذي كانت فيه موسكو: موقف الشعب، أي الفقراء، وأسعار السلع. لقد ذهب العمال والخدم والفلاحون منذ الصباح الباكر إلى التلال الثلاثة في جمهور غفير اختلط به الموظفون وتلامذة الأديرة والنبلاء. وبقوا هناك زمناً، فلما رأوا أن «روستوبتشين» لم يأت، أدركوا أن موسكو ستسلم فانتشروا في أرجاء المدينة، في دكاكين الخمور وفي الحانات. وكانت الأسعار في هذا اليوم تدل على الوضع أيضاً، ذلك أن أسعار الأسلحة والذهب والعربات ما فتئت ترتفع، بينما أخذت أسعار الأوراق النقدية والبضاعة تنخفض باستمرار حتى إن بضاعة ثمينة كالقماش بيعت بعد الظهر، بنصف ثمنها، في حين بلغ سعر حصان الفلاحين خمسمئة روبل، أما الأثاث والمرايا والبرونز فكانت تعطى بلا ثمن.

لم يترك تفكك شروط الحياة القديمة أثراً محسوساً في بيت آل روستوف، هذا البيت العتيق والجدير بالاحترام. ففيما يتعلق بالخدم،

لم يتوار أثناء الليل سوى ثلاثة من جمهرتهم الغفيرة، لكن لم يسرق شيء، وفيما يتعلق بقيمة الأشياء، تبين أن الثلاثين عربة التي أتت من الريف تمثل ثروة عظيمة أثارت حسد الكثيرين لآل روستوف فعرضوا عليهم بها مبالغ خيالية. ولم تقتصر العروض على عربات النقل المحملة، بل لقد توافد إلى الفناء في المساء وفي صبيحة الأول من أيلول، الوصفاء والخدم الذين أرسلهم ضباط جرحى، وجر الجرحى أنفسهم جراً سواء منهم الموجودون عند آل «روستوف» أم في البيوت المجاورة. وكانوا جميعاً يتوسلون إلى خدم آل «روستوف» ليسعوا لهم في الحصول على عربات كي يتسنى لهم مغادرة موسكو. وكان رئيس الخدم الذي تقدم إليه هذه الطلبات يرفض رفضاً قاطعاً، وإن رثى لحالة الجرحى، قائلاً: إنه لا يجرؤ على مفاتحة الكونت بذلك. ومهما كان الجرحى الذين قدر لهم أن يبقوا جديرين بالشفقة، فقد كان من الواضح أنه لو أعطيت عربة واحدة لما كان هناك مسوغ لعدم إعطاء الثانية، ولو أعطيناهم جميعاً لكان لابد من إعطاء عربات السادة أيضاً. ثلاثون عربة لم تكن كافية لإنقاذ جميع الجرحى، وإذا عم البلاء وجب على المرء أن يفكر بنفسه وبذويه. هكذا كان يفكر رئيس الخدم نيابة عن سيده.

عندما استيقظ الكونت «إيليا أندرييتش» في صباح الأول من أيلول خرج بهدوء من غرفة النوم لكي لا يوقظ الكونتيسة التي نامت قبل هنيهة، وسار إلى درج المدخل في مبذل حريري بنفسجي. كانت العربات محزومة تنتظر في الفناء. وكان رئيس الخدم عند البوابة يكلم وصيفاً مسناً وضابطاً شاباً شاحباً، يده معصوبة بضماد معلقة بعنقه. وعندما رأى رئيس الخدم الكونت أشار إشارة متعالية، صارمة تأمرهما بالابتعاد.

سأله الكونت وهو يفرك رأسه الأصلع وينظر بسذاجة إلى الضابط والوصيف اللذين حياهما بإيماءة من رأسه (كان الكونت يحب الوجوه الجديدة):

– هل جهز كل شيء، يا «فاسيليتش»؟

– يمكن أن نربط الخيل فوراً، يا صاحب السعادة.

– حسناً! ستستيقظ الكونتيسة بعد قليل وسوف نمضي.

ثم سأل الضابط:

– وأنتما، ما الذي تبغيانه؟ أنتما في بيتي.

دنا الضابط واحمر وجهه فجأة:

– أرجوك يا كونت، اسمح لي... بحق السماء... أن أركب في مكان ما في عرباتك. ليس معي شيء... ولا يضيرني أن أسافر على إحدى العربات... ولم يتم كلامه حتى تقدم الوصيف بمثل ذلك الرجاء لسيده.

قال الكونت بعجلة:

– آه! نعم، نعم، نعم. سيسعدني ذلك جداً، سيسعدني ذلك جداً. يا فاسيليتش، افعل ما يلزم لذلك، افرغ عربة أو اثنتين... افعل ما يلزم...

وفي اللحظة ذاتها نطق وجه الضابط بآيات العرفان بالجميل فأيد بذلك ما أمر به الكونت. ونظر الكونت حواليه نظرة عجلى: فإذا بالجرحى والوصفاء في الفناء، عند البوابة، في نوافذ الجناح. كانوا جميعاً ينظرون إليه ويقتربون من درج المدخل.

قال رئيس الخدم:

- هلا تفضلتم بالمجيء إلى الرواق، يا صاحب السعادة. ماذا نصنع باللوحات؟

تبعه الكونت إلى البيت وهو يكرر أمره بعدم رفض نقل الجرحى الذين طلبوا أن ينقلوا، وأضاف بصوت خافت، خفي، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- لم لا، يمكننا أن نفرغ بعض الأمتعة.

استيقظت الكونتيسة في الساعة التاسعة، وجاءت إليها «ماترينا تيموفيفنا»، وصيفتها التي تقوم عندها مقام قائد شرطة، لتعلن لها أن «ماريا كارلوفنا» مغتاظة وأنه لا يجوز أن تترك ثياب البنات الصيفية. ألحت الكونتيسة بالسؤال لتعلم سبب انزعاج السيدة «شوس» فعلمت أن صندوقها أُنزل عن إحدى العربات وأن العربات الأخرى تفك وتفرغ ليحل محلها الجرحى الذين أمر الكونت بنقلهم نخوة منه. استدعت الكونتيسة زوجها وقالت له:

- ماذا أسمع، يا صاحبي، لقد أنزلت الأمتعة مرة أخرى؟

- تعلمين، يا عزيزتي، كنت أريد أن أقول لك... يا عزيزتي الكونتيسة... جاء إلي ضابط يطلب عربات للجرحى. كل هذا المتاع يمكن أن نجد بديلاً عنه، أما هؤلاء، تصوري ماذا يعني عندهم البقاء هنا!... الحق أنهم في بيتنا، ونحن دعوناهم إلى الدخول، وبينهم ضباط... أتدرين، أعتقد حقاً، يا عزيزتي، على كل حال، يا عزيزتي يجب أن ننقلهم... لم العجلة؟

قال الكونت ذلك بوجل كعادته عندما يتحدث عن القضايا المالية.

وقد اعتادت الكونتيسة هذه اللهجة التي تنذر بمشروع يتلف فيه ثروة أولاده، من مثل إقامة رواق، أو بيت زجاجي، أو مسرح أو جوقة، وكانت ترى فرضاً عليها أن تتصدى لما يقوله بهذه اللهجة الوجلة. اصطنعت مظهر الإذعان الباكي وقالت لزوجها:

– اسمع، يا كونت، لقد بالغت كثيراً في الماضي حتى إن البيت لا يدر درهماً، وتريد الآن أن تضيع كل ما نملك، كل ما يملكه أولادنا. قلت أنت أن في البيت ما يعادل مئة ألف روبل. لا أوافقك على ذلك، يا صاحبي، إطلاقاً. أما الجرحى فالدولة هي التي تعنى بهم، وهي تعلم ما عليها تجاههم. انظر إلى آل «ليبوكين» قبالتنا، لقد نقلوا كل شيء منذ أول أمس. هكذا يفعل الناس. نحن وحدنا أغبياء. إذا لم ترحمني فارحم الأولاد على الأقل.

حرّك الكونت يديه وخرج دون أن ينبس بكلمة.

سألته «ناتاشا» وقد لحقت به إلى غرفة أمها:

– أبي، ماذا جرى؟

فأجابها الكونت بحدة:

– لا شيء! الأمر لا يعنيك!

قالت «ناتاشا»

– بلى، سمعت كل شيء. لماذا تمانع أمي؟

فصاح الكونت:

– أيعنيك هذا؟

ابتعدت «ناتاشا» إلى النافذة وراحت تفكر. ثم قالت وهي تلقي نظرة إلى الخارج:

– ها هوذا «بيرج» يصل، يا أبي.

***

الفصل السادس عشر

كان «بيرج» صهر آل «روستوف»، وقد أصبح عقيداً ونال وسامي القديس فلاديمير والقديسة آن وكان مايزال يقوم بمهام منصبه الهادئة، الممتعة، منصب مساعد رئيس المكتب الأول من أركان الفيلق الثاني.

وصل في الأول من أيلول إلى موسكو قادماً من الجيش. لم يكن لديه ما يفعله في موسكو، لكنه لاحظ أن الجميع في الجيش كانوا يطلبون الذهاب إليها لأعمال لهم فيها، فرأى من واجبه أن يطلب هو أيضاً الإذن بالذهاب لأعمال عائلية.

وصل «بيرج» إلى بيت حميه في عربته الأنيقة التي يجرها جوادان كميتان فارهان، والتي كانت تشبه في كل شيء عربة أمير يعرفه. نظر بإمعان إلى العربات الواقفة في الفناء وأخرج منديلاً أبيض وهو يصعد درج المدخل وعقده عقدة.

اندفع «بيرج» من البهو إلى الصالة حثيث الخطى، فارغ الصبر: فعانق الكونت، وقبّل يد «ناتاشا» و«صونيا» واستعلم على خجل عن صحة الكونتيسة.

قال الكونت:

– دعك من الصحة! هات، أخبرنا، ماذا يفعل الجيش؟ هل ينوي التراجع أم القتال؟

قال بيرج:

– الله وحده، يا أبي، يمكنه أن يقرر مصير الوطن. إن الجيش يستعر بالروح البطولية وفي هذه اللحظة يجتمع القادة في مجلس عسكري. لسنا نعلم ماذا سيجري. لكني أؤكد عموماً، يا أبي، أن هذه الروح البطولية في الجيش الروسي: هذه البسالة الجديرة حقاً بالعصور القديمة التي أبداها في معركة السادس والعشرين، يعجز اللفظ عن وصفها. أؤكد لك، يا أبي، (وضرب صدره كما ضرب صدره جنرال رآه «بيرج» يفعل ذلك وهو يروي قصته أمامه، وإن كان «بيرج» قد تأخر قليلاً لأنه كان يجب أن يضرب صدره عند قوله: الجيش الروسي) أؤكد لك بصراحة أننا، نحن القادة، لم نكن فقط في غنى عن تحميس الجنود أو عمل من هذا القبيل، بل أننا لم نكد نكبح جماح هؤلاء.... إلا بأعظم الجهد.... نعم، إنها مآثر بطولية جديرة بالعصور القديمة. ولقد عرّض الجنرال «باركلي دي تولي» حياته للخطر على رأس رجاله. أما فيلقنا فوضع على سفح الهضبة. يمكنك أن ترى ذلك من هنا! وهنا روى «بيرج» كل ما حفظه من قصص سمعها في هذه الآونة الأخيرة. ولم ترفع «ناتاشا» عينيها عنه كأنما كانت تبحث في وجهه عن جواب لسؤال خامرها، مما بلبل «بيرج».

قال «بيرج» وهو يلقي نظرة على «ناتاشا» ويجيب بابتسامة على نظرتها العنيدة، وكأنه يريد أن يكسب رضاها واستحسانها:

– لا يمكن أن نتخيل بطولة كالتي برهن عليها الجنود الروس، ولا يمكن أن نجد الكلام الكافي للإشادة بها! «ليست روسيا في موسكو، إن روسيا في قلوب أبنائها!» أليس ذلك صحيحاً يا أبي.

في هذه اللحظة، خرجت الكونتيسة من مخدعها بادية التعب والانزعاج فوثب بيرج نحوها، وقبّل يدها، وسألها عن صحتها، ووقف جنبها وهو يهز رأسه ليدلل على احتفائه بما تقول.

– نعم، يا أمي، إن روسيا تعيش، في الحقيقة، أياماً كالحة، عصيبة لكن لَم كل هذا القلق؟ مايزال في الوقت مهلة للرحيل....

قالت الكونتيسة مخاطبة زوجها:

– لست أدري ماذا يفعل رجالنا. لقد قيل لي قبل هنيهة أنهم لم يجهزوا شيئاً بعد. ينبغي أن يهتم أحدكم بذلك. في مثل هذه الأوقات إنما يأسف المرء على «ميتنكا». لن نفرغ من ذلك أبداً!

أراد الكونت أن يقول شيئاً، لكنه آثر أن يمسك عن الكلام. ونهض عن كرسيه واتجه إلى الباب.

أخرج «بيرج» منديله، في هذه الأثناء، كأنه يريد أن يمتخط، فلما رأى العقدة شخص إليها، وأخلد إلى التفكير، وهز رأسه هزة حزينة ذات معنى، وقال:

– لي رجاء عظيم إليك، يا أبي.

قال الكونت وهو يقف:

– وما هو؟

قال «بيرج» ضاحكاً:

–مررت قبل حين أمام بيت «يوسوبوف»[1]. فبادر الوكيل الذي

١– قصر قديم لأمراء آل يوسوبوف وهي عائلة عظيمة الثراء.

أعرفه إلى لقائي وسألني إن لم أكن أريد شراء شيء ما. فدخلت كما تعلم، فضولاً مني، ووجدت خزانة صغيرة بمرآتها. وأنت تعلم شغف «فيرا» بمثلها، وتعلم كم تخاصمنا بهذا الشأن. (عندما طرق «بيرج» إلى هذا الموضوع عاد بالرغم منه إلى لهجته الفرحة وهو يتذكر ما في حياته من نظام.) إنها تحفة نادرة! ولها جرارات وقفل انكليزي خفي، أتعلم أن «فيرا» اشتهت أن تملك مثلها منذ زمن بعيد؟ ولذلك أحببت أن أفاجئها بها. وقد رأيت في الفناء، فلاحين كثيرين، أعطني واحداً منهم، أرجوك، وسأدفع له أجرته وافية و...

عبس الكونت وتنحنح وقال:

– اسأل الكونتيسة، فلست أنا الآمر هنا.

قال بيرج:

– إن كان الأمر صعباً، فلا حاجة إليها، أرجوك. إنما اشتهيتها لفيرا فقط.

فصاح الكونت العجوز:

– آه! تباً لكم جميعاً، تباً لكم، تباً لكم... إن المرء ليفقد صوابه!

وخرج من الغرفة.

انهمرت الدموع من عيني الكونتيسة، فقال لها «بيرج»:

– نعم، نعم، يا أمي... الأوقات عصيبة!

خرجت «ناتاشا» في الوقت الذي خرج فيه أبوها، وتبعته أولاً وقد بدا عليها التفكير العميق، ثم نزلت الدرج راكضة.

كان «بيتيا» على درج المدخل، يوزع الأسلحة على الرجال الذين

كانوا يغادرون موسكو. وكانت العربات المحملة ماتزال في الفناء، وقد أفرغت عربتان كان يتسلق إحداهما ضابط يسنده وصيفه.

سأل «بيتيا» ناتاشا:

– أتعرفين ما الداعي؟ (فهمت «ناتاشا» أنه كان يريد الكلام على سبب النقاش بين أبويها، فلم تجب).

قال «بيتيا»:

– ذلك لأن أبي أراد أن يعطي الجرحى جميع العربات. «فاسيليتش» قال ذلك لي. وعندي أن...

صرخت «ناتاشا» وهي تدير نحو أخيها وجهها الغاضب:

– وعندي، عندي أن ذلك هو نهاية الخسة والقبح و.... لا أدري ماذا أقول. أأصبحنا ألماناً تافهين؟....

واعتصرت حنجرتها زفرات تشنجية، ولما خشيت أن تُضعف أو تبدد شحنة غضبها عادت أدراجها واندفعت بشدة على الدرج.

كان «بيرج» يجلس بجنب الكونتيسة ويُفيض في عزائه المليء بالاحترام البَنويّ. وكان الكونت يذرع المكان ذهاباً وإياباً ممسكاً غليونه بيده، عندما اقتحمت «ناتاشا» الغرفة كالعاصفة واقتربت من أمها بخطى حثيثة وصرخت وقد شوّه الغضب وجهها:

– إن هذا ليثير الاشمئزاز! إن هذا لبشع! لا يمكن أن تكوني قد أمرتِ بذلك.

نظر إليها «بيرج» والكونتيسة بحيرة وخوف. ووقف الكونت قرب النافذة، يُصيخ السمع.

واستأنفت «ناتاشا» صراخها:

– هذا غير ممكن، يا أمـي، انظري إلى ما يجري في الفناء! لقد بقوا!....

– ما بكِ؟ من هم هؤلاء؟ ماذا تريدين؟

– الجرحى، قصدت الجرحى! هذا غير ممكن، يا أمي، ولا اسمَ له لفظاعته... لا، يا أمي العزيزة، سامحيني، أرجوك، يا أمي العزيزة... ما حاجتنا يا أمي إلى ما نحمله من متاع، انظري فقط إلى الفناء... أماه! هذا غير ممكن!...

تطلعت الكونتيسة إلى ابنتها وشاهدت وجهها الذي يقطر خجلاً عن أمها، ورأت انفعالها فأدركت لمَ كان زوجها يعرض عنها، وألقت نظرة حولها وهي لا تعلم ما تفعل، وقالت دون أن تستسلم تماماً:

– آه! افعلوا ما تشاؤون! أتراني أضايق أحداً؟....

– يا أمي، يا أمي الحبيبة، سامحيني.

لكن الكونتيسة صدت ابنتها ودنت من الكونت، وقالت له وهي تخفض بصرها كالمذنبة:

– افعل، يا عزيزي، ما يلزم... فأنا لا أفقه شيئاً من ذلك.

قال الكونت وهو يذرف دموع السعادة:

– البيض... البيض يُلقن الدجاجة درساً...

وضم بين ذراعيه امرأته التي سرّها أن تخفي وجهها المرتبك في صدر زوجها.

سألت ناتاشا:

– أمي، أمي! أيمكن أن أصدر التعليمات بنفسي؟ أأستطيع؟... سنَحمل معنا، على أي حال، ما لاغنى عنه...

أشار الكونت إشارة الموافقة، فسارعت «ناتاشا» كسابق عهدها عندما كانت تلعب، من صالة الرقص إلى الردهة ونزلت الدرج الذي يُفضي إلى الفناء.

أحاط بها الخدم و لم يصدقوا الأمر الغريب الذي حملته إليهم حتى جاء الكونت بنفسه وأكد، باسم امرأته، أنه ينبغي وضع جميع العربات تحت تصرف الجرحى، ونقل الصناديق إلى المستودع، فلما فهم الخدم الأمر أقبلوا على هذا العمل الجديد بحميّة وفرح، و لم يجدوا فيه غرابة، بل خُيِّل إليهم أن الأمور لا يمكن أن تكون على نحو آخر، كما أنهم قبل ربع ساعة لم يستغربوا تركهم للجرحى ونقلهم للمتاع، بل إنهم كانوا يعتقدون أن الأمور لا يمكن أن تكون بخلاف ذلك.

أقبل جميع من في البيت على هذا العمل الجديد وهو إحلال الجرحى في العربات بحمية ونشاط، وكأنهم يريدون تدارك الوقت الضائع. وخرج الجرحى من غرفهم يجرون أنفسهم جراً، فرحين، شاحبي الوجوه، وأحاطوا بالعربات. ثم انتشر نبأ وجود العربات في البيوت المجاورة فتوافد الجرحى منها إلى فناء منزل آل «روستوف». وطلب كثير منهم ألا تُفرغ العربات من حمولتها وأن يُسمح لهم بالركوب فوقها. ولكن ما إن بدأ إفراغ العربات حتى تعذر إيقافه، إذ كان إفراغها كلها أم نصفها سواء. وتغطى الفناء بالصناديق الملأى بالأواني وبالبرونز وباللوحات وبالمرايا التي حُزمت حزماً محكماً في الليلة السابقة، وكان الجميع يبحثون عن الوسيلة التي ينزلون بها هذا الشيء أو ذاك للحصول على مزيد من العربات الفارغة.

قال مدير الأعمال:

يمكننا أن ننقل أيضاً أربعة آخرين، وأنا أتنازل لهم عن عربتي، وإلا فكيف نفعل؟

قالت الكونتيسة:

– أعطهم عربة متاعي، ستركب «دونياشا» معي.

وأُعطيت هذه العربة أيضاً وأُتي بالجرحى من بيتين بعيدين. وكان السادة والخدم مُبتهجين مندفعين. وكانت «ناتاشا» هائجة وسعيدة على نحو لم تحسه منذ زمن بعيد.

قال الخدم وهم يضعون صندوقاً على مرقاة العربة الضيقة:

– أين نضع هذا الصندوق؟ يجب أن نحتفظ بعربة على الأقل.

سألت «ناتاشا»:

– ماذا في داخله؟

– كُتب الكونت.

– دعوها. سيهتم بها «فاسيليتش». لسنا بحاجة إليها.

كانت عربة الركاب غاصة بالركاب الذين راحوا يتساءلون أين يمكن أن يجلس «بطرس إيليتش».

صاحت ناتاشا:

سيجلس على المقعد. أليس كذلك يا «بيتيا»؟

نشطت «صونيا» أيضاً نشاطاً متصلاً. لكن موضوع اهتمامها

كان على نقيض موضوع اهتمام «ناتاشا». كانت ترتّب ما سيبقى من المتاع، وتسجله على قوائم، بناء على طلب الكونتيسة، وتسعى جهدها لحمل أكبر قدر ممكن من الأشياء.

***

الفصل السابع عشر

في نحو الساعة الثانية، كانت مركبات آل «روستوف» الأربع مجهزة، محملة، تقف أمام درج المدخل، بينما راحت عربات الجرحى تخرج واحدة تلو الأخرى من الفناء.

استرعت عربة الأمير آندريه، أثناء مرورها أمام درج المدخل، انتباه «صونيا» التي كانت تعمل هي والخادمات على إعداد مقعد الكونتيسة في المركبة الواسعة، العالية، الأنيقة، الواقفة أمام البيت.

سألت «صونيا» وهي تُخرج رأسها من باب المركبة:

– لمن هذه العربة؟

أجابت الوصيفة:

– ألم تعلمي بعد، يا آنسة؟ هذا أمير جريح قضى الليل عندنا وهو راحل معنا.

– لكن من هو؟ ما اسمه؟

أجابت الوصيفة وهي تتنهد:

– إنه الخطيب القديمُ نفسه، الأمير آندريه «بولكونسكي»، وهو مشرف على الموت.

قفزت «صونيا» إلى الأرض وجرت إلى الكونتيسة. كانت الكونتيسة قد لبست ثياب السفر وأخذت تروح وتجيء بقبعتها وشالها، متعبة، تنتظر أفراد الأسرة لكي يجلسوا لحظة والأبواب مغلقة، ويصلوا قبل الرحيل. ولم تكن «ناتاشا» هنا.

قالت «صونيا»:

– يا أمي، الأمير آندريه هنا، وهو جريح ومشرف على الموت ومرتحل معنا.

فتحت الكونتيسة عينين مذعورتين وأمسكت بذراعها وألقت نظرة خلفها وقالت:

– و«ناتاشا»؟

لم يكن لهذا النبأ، عند صونيا والكونتيسة، في مبتدأ الأمر، سوى معنى واحد. كانتا تعرفان «ناتاشا» وكان الخوف الذي تستشعرانه حين تفكران بردود أفعالها يخنق فيهما كلَّ رأفة بهذا الرجل الذي تحبانه كلتاهما حباً جماً.

قالت صونيا:

– «ناتاشا» لم تعلم بعد، لكنه ذاهب معنا.

– قلت: إنه موشك على الموت.

فأومأت صونيا برأسها موافقة.

فضمتها الكونتيسة بين ذراعيها وأخذت تبكي.

«طُرق الربّ لا تُدرك» هذا ما خطر ببالها وهي تشعر أن كل ما كان

يحدث بدأت تتجلى فيه الآن يد الله القادرة على كل شيء، الخافية حتى هذه اللحظة عن عيون البشر.

سألت «ناتاشا» وهي تبادر مسرعة، ووجهها يفيض حياة:

– هيا، يا أمي، كل شيء جاهز. مابكِ؟...

قالت الكونتيسة:

– لا شيء. وبما أن كل شيء جاهز، فلنمض.

وانحنت على حقيبتها اليدوية لتخفي وجهها المنقلب. وضمت «صونيا» «ناتاشا» بين ذراعيها وعانقتها.

ألقت عليها «ناتاشا» نظرة مستفهمة:

– ما بك؟ ماذا جرى؟

– لا شيء.... كلا...

واستفهمت «ناتاشا» القوية الحدس:

– لاشك أن هناك خبراً سيئاً لي؟.... ما هو؟....

تنهدت صونيا ولم تجب. ودخل إلى الصالة الكونت و«بيتيا»، والسيدة «شوس» و«فاسيليتش» وجلسوا جميعاً بصمت، والنوافذ مغلقة، دون أن ينظر بعضهم إلى بعض، لبضع لحظات.

نهض الكونت أولاً وتنهد تنهداً قوياً ورسم إشارة الصليب أمام الأيقونة، ثم ضم «مافراكوزمينيشتا» و«فاسيليتش» اللذين سيبقيان في موسكو، وبينما كانا يمسكان بيده ويقبلاّن كتفه، ربّت برفق ظهريهما وهو يغمغم بكلمات مبهمة، مُلاطفة يشد بها عزيمتهما. وانسحبت

الكونتيسة إلى المصلّى ووجدتها «صونيا» راكعة فيه أمام الأيقونات القليلة الباقية هنا وهناك على الجدران. (نُقلت الأيقونات الثمينة المتصلة بتقاليد العائلة).

وعند درج المدخل وفي الفناء كان الخدم المسافرون مسلحين بالخناجر والسيوف التي وزعها عليهم «بيتيا»، وقد أدخلوا أطراف بناطيلهم في جزماتهم وشدوا أحزمتهم وزنانيرهم، وراحوا يودعون الذين سيمكثون.

وكما هي الحال دائماً عند السفر، فإن كثيراً من الأشياء نُسيت أو حُزمت حزماً سيئاً، وقد انتظر الحارسان المسلحان وقتاً طويلاً عند بابي مركبة الكونتيسة ليساعداها على الصعود إليها، في حين كانت الخادمات يجرين وهن يحملن الوسائد والأسفاط من البيت إلى مركبة الكونتيسة وإلى المركبة الكبرى وإلى العربة الصغرى.

قالت الكونتيسة:

– ما أكثر الأشياء التي تُنسى! أتعلمين أنني لا أستطيع أن أجلس هكذا. فبادرت «دونياشا»، إلى العربة الفخمة، وقد شدت على أسنانها دون أن تجيب وارتسمت على وجهها أمارات الملامة، لتصلح الوسائد.

قال الكونت وهو يهز رأسه:

– آه لهؤلاء الخدم!

كان الحوذيُّ العجوز «يفيم»، وهو الوحيد الذي تثق فيه الكونتيسة، جالساً على مقعده العالي، لا يلتفت إلى ما يجري خلف ظهره. كان يعلم بحكم تجربته التي مرّ عليها ثلاثون عاماً أنهم لن يقولوا له: «هيا، انطلق!» إلا بعد مدة طويلة، وعندما يقولون له ذلك سيوقفونه مرتين

ليأتوا بأشياء نسوها، وسوف يوقفونه مرة أخرى أيضاً بعد ذلك، وسوف تطل الكونتيسة برأسها، في هذه الأثناء، من باب المركبة لتوصيه أن يسير برفق في المنحدرات. كان يعلم هذا، ولذلك كان ينتظر ما يجري وهو أصبر من جياده. (ولاسيما الذي على الشمال، الجواد الكميت «سوكول» الذي كان يضرب الأرض بحافره ويلوك لجامه.) وأخيراً استقر الجميع في أماكنهم ورُفعت المراقي وصُفقت الأبواب، ثم أخرجت الكونتيسة رأسها من نافذة العربة وجهرت ببعض العبارات المقدسة. فحسر «ايفيم» عن رأسه ببطء ورسم إشارة الصليب. وحذا حذوه السائس وجميع الخدم.

قال «ايفيم» وهو يعيد قبعته إلى رأسه:

– لننطلق! هُوه!

مشّى السائس الخيول، وشد الجواد الأيمن طوقه، فصرّت النوابض واهتز صندوق المركبة، وقفز الخادم إلى مقعده والعربة سائرة. ووثبت العربة الفخمة وهي تمر من الفناء إلى بلاط الشارع غير المستوي، ووثبت المركبات الأخرى أيضاً، ودلفت المركبة إلى الشارع. وعندما مرت المركبات الثلاث أمام الكنيسة المواجهة رسم كل من فيها إشارة الصليب. وكان الخدم المتبقون في موسكو يسيرون على جانبي العربات مشيعين.

قلما أحست «ناتاشا» بالفرح كما أحست به الآن، وهي جالسة في المركبة الفخمة قرب أمها تنظر إلى جدران موسكو المتحسرة المهجورة إذ تتوالى أمامها. وكانت تُخرج رأسها بين الحين والحين من النافذة وتتطلع خلفها وأمامها إلى تلك القافلة الطويلة من الجرحى التي تسبقهم.

وفي مقدمتها تقريباً شاهدت غطاء عربة الأمير آندريه. ولم تكن تعلم من فيها، لكنها كانت كلما نظرت إلى القافلة بحثت بعينيها عن هذه العربة التي كانت على رأس العربات الأخرى.

في «كودرينو»، وافت قوافل أخرى كثيرة من العربات شبيهة بقافلة آل «روستوف»، آتية من شارع «نيكيتسلي» و«بريسنيا» وشارع «بودنوفنسكوي»، واضطرت العربات والمركبات أن تسير على صفين في شارع «سادوفايا».

وعندما انعطفت العربات حول برج «سوكاريف»[1]، هتفت «ناتاشا» التي كانت تلقي نظرة عجلى، مستطلعة على المارة المشاة وفي العربات، هتفت فجأة بدهشة فرحة:

– يا إلهي! أمي، صونيا، انظرا، إنه بعينه!

– مَنْ؟ من هذا؟

قالت «ناتاشا» وهي تنحي من النافذة وتنظر إلى رجل طويل ضخم بلباس حوذي، رجل تدل مشيته ومظهره على أنه نبيل متنكر، كان يمر تحت قوسٍ برج «سوكاريف»، وبجنبه شيخ قصير، أجرد، مصفر، يرتدي معطفاً صوفياً غليظاً.

– انظرا، أقسم لكما أن هذا هو «بيزوخوف»!

وكررت «ناتاشا»:

١– كودرينو ساحة في الحي الشمالي من موسكو. أما نيكيتسايا وبريسينا وبودنوفنسكوي فهي أحياء غربية في موسكو تنطلق منها العربات إلى شارع سادوفايا (الحدائق) ملتفة حول المدينة وسائرة في دائرة ثانية بعد دائرة الشوارع. ها هنا كان يقوم برج سوكاريف الذي بني سنة ١٧٠٤ وتهدّم اليوم.

– أقسم لكما أنه «بيزوخوف» وهو يرتدي قفطاناً ومعه شيخ قصير وجهه كوجه الصبي، أقسم لكما على ذلك، انظرا، انظرا.

– لكنه ليس بطرس. كيف تقولين مثل هذه الحماقات!

صرخت «ناتاشا»:

– أمي، أقطع رقبتي إن لم يكن هو بعينه، أؤكد لك ذلك.

وصاحت بالحوذي: قف، قف. لكن الحوذي لم يكن يستطيع الوقوف لأن العربات والمركبات كانت تفد من شارع «ميستشنسكايا» وكان السائقون يصيحون بسائقي عربات آل «روستوف» أن يسرعوا كي لا يقف السير.

الواقع أن جميع أفراد آل «روستوف» شاهدوا بطرس أو شخصاً يشبهه شبهاً غريباً، وإن كان الآن أبعد من ذي قبل، بلباس حوذي، يمر في الشارع، خافض الرأس، صارم الوجه، وبجنبه شيخ قصير، أجرد بهيئة خادم. لاحظ هذا الشيخ القصير رأسها الذي أطل من نافذة المركبة، فلامس بتأدب مرفق بطرس وقال له شيئاً وهو يشير إلى المركبة. لم يفهم بطرس في أول الأمر ما قاله له لفرط ما كان مستغرقاً في أفكاره. ولما فهم أخيراً، نظر إلى الجهة المشار إليها وعرف «ناتاشا»، فاتجه بقوة إلى العربة،، مدفوعاً بحركته الأولى، لكنه لم يكد يخطو نحو عشر خطوات حتى توقف، ولعله تذكر شيئاً أوقفه.

كان وجه «ناتاشا» المطل من نافذة المركبة يشع بعطف هازئ.

فصاحت وهي تمد يدها:

– تعال، يا بطرس كيريلتش! لقد عرفناك! هذا مدهش! وماذا تفعل هنا؟ لم أنت هكذا؟

أمسك بطرس باليد الممدودة وقبلها قبلة خرقاء وهو يمشي (ظلت العربة تسير).

سألته الكونتيسة بصوت ينم على الدهشة والإشفاق:

– ماذا أصابك، يا كونت؟

قال بطرس وهو يلتفت إلى «ناتاشا» التي كانت نظرتها المشرقة الفرحة تغمره بسحرها. (أحس ذلك دون أن يتطلع إليها):

– لا تسألوني «لم» ولا «كيف».

– وماذا تفعل أم أنك تنوي البقاء في موسكو؟

– في موسكو؟ نعم، في موسكو. الوداع.

قالت «ناتاشا»:

– آه! لكم أتمنى أن أكون رجلاً، اذن لبقيت معك. آه!

ما أروع ذلك! اسمحي لي، يا أمي، أن أبقى.

رماها بطرس بنظرة ساهمة وأراد أن يقول شيئاً، لكن الكونتيسة قاطعته:

– قيل لنا: إنك كنت في المعركة؟

أجاب بطرس:

– نعم، كنت فيها. وستدور غداً معركة أخرى...

فقاطعته «ناتاشا»:

– ماذا أصابك، يا كونت؟ أنت غريب....

قال بطرس:

– آه! لا تسألوني، لا تسألوني، فأنا نفسي لا أعرف شيئاً. وغداً... لكن لا! وداعاً، وداعاً، يا لها من لحظات رهيبة!

ثم ترك العربة تمر وصعد إلى الرصيف.

وظلت «ناتاشا» فترة تطل برأسها من النافذة وهي تبتسم له ابتسامة فرحة، متوددة، فيها شيء من الهزء.

***

الفصل الثامن عشر

كان بطرس، منذ أن اختفى قبل يومين من منزله، يسكن في شقة خالية للمرحوم «بازديف». وقد جرت الأمور على النحو التالي:

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي لعودته إلى موسكو ومقابلته الكونت «روستوبتشين»، ظل زمناً طويلاً دون أن يفهم أين موضعه وما المراد منه. ولما قيل له أن بين المنتظرين في الصالة الفرنسي الذي حمل إليه رسالة الكونتيسة «هيلين فاسيلييفنا»، اجتاحه فجأة إحساس من الرعب والتخاذل أمام تعقيدات الحياة التي كان ميالاً إليها. وقال في نفسه: إن كل شيء قد انتهى الآن، واختلطت الأشياء بعضها ببعض وأخذت تنهار، ولم يبق هناك عادل أو مذنب، وأنه لن يبقى شيء في المستقبل وأن هذا الوضع لا مخرج له. كان يجلس على الأريكة جلسة العجز تارة، وهو يبتسم ابتسامة مقتسرة ويغمغم بشيء ما، وكان، تارة أخرى، ينهض ويدنو من الباب وينظر إلى الصالة من ثقب القفل، ثم لا يلبث أن يعود بحركة قانطة ليتناول كتاباً. وجاء رئيس الخدم مرة أخرى ليخبره أن الفرنسي الذي حمل رسالة الكونتيسة يصر على رؤيته، ولو إلى لحظة، وأن رسولاً من قبل أرملة «بازديف» يرجوه أن يتعهد كتبها، لأنها هي ذاهبة إلى الريف.

أجابه بطرس:

- آه! نعم! في الحال، انتظر.... أولاً، لا، قل لهم إني سآتي على الفور.

لكن ما إن خرج رئيس الخدم حتى أخذ قبعته من على الطاولة وغادر مكتبه من الباب الداخلي. كان الممر خالياً، فسار فيه حتى الدرج، ونزل، مكشراً يحك جبهته، إلى سطح الدرج. كان البواب واقفاً عند الباب الرئيسي. وكان سطح الدرج متصلاً بدرج آخر يفضي إلى باب الخدم. فمضى فيه بطرس ونزل إلى الفناء دون أن يراه أحد. لكنه ما إن صار في الشارع واجتاز بوابة الفناء حتى شاهده البواب والحوذيون الذين كانوا ينتظرون قرب عرباتهم وحسروا عن رؤوسهم. ولما أحس بطرس أن الأنظار شاخصة إليه فعل ما تفعله النعامة عندما تدفن رأسها في شجيرات الأرض لكي لا ترى؛ فخفض رأسه وحث خطاه ودلف إلى الشارع.

من بين جميع الأعمال التي عرضت هذا الصباح لبطرس بدا أن تصنيف كتب «جوزيف اليكسيفيتش» وأوراقه هو أجداها وأجدرها بعنايته.

استقل أول عربة مرت وأمر حوذيها أن يوصله إلى «مستنقعات البطريرك»[1] حيث منزل الأرملة «بازديف».

كان يحس، وهو لا يني يتلفت من كل الجهات إلى صف العربات الذي كان يغادر موسكو ويبذل جهده ليثبت جسمه الثقيل حتى لا يسقط من هذه العربة العتيقة المتهادية، كان يحس ذلك الإحساس الفرح الذي يخالج الصبي الهارب من مدرسته، وكان يبادل الحوذي أطراف الأحاديث.

١- مستنقعات البطريرك حي بعيد شرقي موسكو.

روى له الحوذي أن الأسلحة يجري توزيعها في الكرملين وأن جماهير الشعب ستتوجه غداً إلى «التلال الثلاثة» حيث ستنشب معركة كبرى.

عندما وصل بطرس إلى «مستنقعات البطريرك» وجد منزل «بازديف» الذي لم يأته منذ زمن طويل. ودنا من الباب الصغير وقرعه فظهر «جيراسيم» ذاك الشيخ القصير، الأجرد، المصفر الذي رآه قبل خمس سنوات، في «تورجوك» مع «جوزيف اليكسيفيتش».

سأل بطرس:

– هل في البيت أحد؟

– نظراً للظروف الراهنة، سافرت «صوفيا دانيلوفنا» مع الأولاد إلى أملاكهم في «تورجوك»، يا صاحب السعادة.

قال بطرس:

– سأدخل مع ذلك، لابد من تصنيف الكتب.

قال الخادم العجوز:

– تفضل وادخل، أرجوك، إن شقيق الفقيد، رحمه الله، «ماكار الكسيفيتش» باق، لكنه، كما تعلم، متعب قليلاً.

كان بطرس يعلم أن «ماكار الكسيفيتش» شقيق الفقيد نصف مجنون، مدمن خمر.

قال بطرس:

– نعم، نعم، أعلم ذلك. لندخل، لندخل...

دخل البيت. كان في الردهة شيخ طويل، أصلع، محمر الأنف، يرتدي مبذلاً، وقدماه في خفين من المطاط. وعندما رأى بطرس غمغم شيئاً وهو مغتاظ وانصرف إلى الممر.

قال «جيراسيم»:

– كان رجلاً فذَّ الذكاء، أما الآن فقد ضعف ذكاؤه، كما ترى. أتريد أن تدخل المكتب؟

أومأ بطرس برأسه موافقاً.

وتابع «جيراسيم» كلامه:

– ما يزال المكتب كما هو، منذ أن ختم بالشمع. وقد أمرت «صونيا دانيلوفنا» أن تسلم الكتب إلى من ترسله.

دخل بطرس إلى ذلك المكتب المحزون الذي لم يكن يدخل إليه في حياة صاحبه المحسن ألا وهو يرتجف. لم يمسه أحد منذ موت «جوزيف اليكسيفيتش»، وكان كل شيء مغطى بالغبار وأشد حزناً مما تصور.

فتح «جيراسيم» مصراعاً وخرج على أطراف قدميه. طاف بطرس بالمكتب ودنا من الخزانة التي كانت فيها المخطوطات وتناول منها مخطوطة كانت قديماً واحدة من أثمن مقدسات المحفل. كانت تضم الصكوك الايكوسية[1] الأصلية التي علق عليها وشرحها المحسن. جلس بطرس أمام المكتب المغبر ووضع المخطوطات أمامه وفتحها وأغلقها، ثم دفعها بيده عنه واستغرق في أفكاره ورأسه بين يديه.

جاء «جيراسيم» عدة مرات ونظر من طرف خفي إلى المكتب فرآه

١– كانت الماسونية الروسية تابعة للماسونية الإيكوسية.

جالساً أبداً في الوضع نفسه. ومضت ساعتان، وجوَّز «جيراسيم» لنفسه أن يحدث شيئاً من الضوضاء على الباب ليسترعي انتباه بطرس، فلم يسمعه بطرس.

- هل ينبغي أن أصرف العربة.

قال بطرس وهو يثوب إلى نفسه وينهض مستعجلاً:

- آه، نعم!

وأضاف وهو يمسك «جيراسيم» بزر معطفه، وينظر إلى الشيخ القصير من فوق إلى تحت بعينين ملتمعتين، مبللتين، متوثبتين:

- اصغ، أتدري أنه ستنشب معركة في الغد؟...

أجاب «جيراسيم»:

- هذا ما يقال.

- أطلب إليك ألا تقول لأحد من أنا، وافعل ما آمرك به...

قال «جيراسيم»:

- أنا رهن أوامرك. أوًّ قدم لك الطعام؟

قال بطرس وهو يحمر فجأة:

- كلا، إنما يلزمني شيء آخر. أنا بحاجة إلى ثياب فلاح وإلى مسدس.

قال «جيراسيم» بعد لحظة تفكير:

- أنا رهن أوامرك.

قضى بطرس سائر النهار في مكتب المحسن وحيداً، يتمشى بعصبية في طول الغرفة وعرضها. وقد سمعه «جيراسيم» وهو يمشي ويكلم نفسه؛ وفي الليل نام بطرس في الغرفة على سرير أعدَّ له.

قبل «جيراسيم»، وهو الخادم الذي رأى كثيراً من الغرائب في حياته، قبل من دون دهشة، بحلول بطرس في البيت، وبدا مسروراً أن يكون لديه من يخدمه. وفي المساء، وفر لبطرس ثوباً وقبعة، من غير أن يتساءل عن الغاية من ذلك كله، ووعد أن يوفر له في اليوم التالي المسدس المطلوب. وخلال الليل، جاء «ماكار اليكسيفيتش» مرتين إلى الباب يجر خفيه ويقف وهو ينظر إلى بطرس كمن يطلب ودَّه. لكن ما إن يلتفت بطرس إليه حتى يلف نفسه بمبذله وينثني مسرعاً وقد بدا عليه الحياء والغضب. وإنما لقي بطرس آل «روستوف» عندما كان ذاهباً، وهو يرتدي قفطان الحوذي الذي اشتراه ونظفه له «جيراسيم»، ليبتاع مسدساً من برج «سوكاريف».

***

الفصل التاسع عشر

في ليلة الأول من أيلول، أصدر «كوتوزوف» أمره إلى القطعات الروسية بالانسحاب عبر موسكو على طريق «ريازان».

تحركت القطعات الأولى في الليل. سارت دون أن تستعجل وتقدمت ببطء وهدوء؛ لكنها رأت أمامها في الفجر، وهي تقترب من جسر «دوروغو ميلوفو»[1]، أفواجاً أخرى لا نهاية لها من القطعات تتدافع على الجسر، وتزدحم على الضفة الأخرى، وتسد الشوارع والطرقات، ومن خلفها قطعات أخرى تلزها. فاستولى على الناس اضطراب وقلق عاتيان، واندفع الجميع إلى الجسر، وعلى الجسر والمعابر والقوارب. وأمر «كوتوزوف» أن تمر عربته من ضواحي الجانب الآخر من الموسكوفا.

في الساعة العاشرة من صباح الثاني من أيلول، لم يبق في ضاحية «دوروغو ميلوفو» سوى المؤخرة. كان الجيش قد عبر الموسكوفا وتجاوز موسكو.

وفي الوقت نفسه، في الساعة العاشرة من صباح الثاني من أيلول، كان نابليون مع قطعاته على هضبة «بولكونايا» يتأمل المشهد الذي

١- جسر دوروغو ميلوفو على المسكوفا عند المدخل الغربي للعاصمة.

انكشف أمامه. كان الطقس منذ السادس والعشرين من آب حتى أول أيلول، منذ معركة «بورودينو» حتى دخول العدو إلى موسكو، خلال جميع أيام هذا الأسبوع المملوء بالقلق، هذا الأسبوع المشهود، طقساً خريفياً، فريداً، مدهشاً عندما تغدو الشمس المنخفضة أشد إنقاذاً منها في الربيع، ويلتمع كل شيء في الهواء المخلخل النقي إلى الحد الذي تتأذى فيه العيون، ويتمدد الصدر ويستنشق بملء الرئتين عطر الخريف، وتصبح الليالي أكثر دفئاً، وتهوي من السماء، في هذه الليالي الحالكة الدافئة، النجوم الذهبية التي تبعث الخوف والفرح.

كذلك كان الطقس في الثاني من أيلول، في الساعة العاشرة صباحاً. كان بريق الصباح فاتناً، عجيباً، وكانت موسكو من هضبة «بوكلونايا»، تتبسط بعيداً على مدى واسع، بنهرها وحدائقها وكنائسها، فتبدو كأنما تحيا حياة خاصة بها، وكانت قبابها تتلألأ تحت أشعة الشمس كما تتلألأ النجوم.

لدى مرأى هذه المدينة الغريبة بهندستها التي خالفت بها المعروف الشائع، شعر نابليون بذلك الفضول المشوب بالحسد والقلق الذي يشعر به الرجال عند مرأى أشكال الحياة الغريبة التي يجهلونها. فلا شك أن هذه المدينة كانت تحيا حياتها الخاصة بكل ما في تلك الحياة من قوى. وكما يميز المرء الجسد الحي من الجسد الميت، من مسافة عظيمة، بعلامات فارقة لا سبيل إلى معرفة كنهها، كذلك رأى نابليون من هضبة «بوكلونايا» الحياة تنبض في هذه المدينة وأحس بما يشبه نفحة هذا الجسد العظيم الجميل.

قال نابليون:

– هذه المدينة الآسيوية بكنائسها التي لا تحصى، موسكو المقدسة، ها هي ذي أخيراً، هذه المدينة الذائعة الصيت! لقد آن الآوان.

وترجّل وأمر أن يُنشر مخطّط موسكو أمامه ودعا مترجمه «ليلوزم ديدفيل». وفكر في نفسه «إن مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة ضيعت شرفها»! (كما قال لتوتشكوف في سمولنسك). ومن هذه الزاوية كان يتأمل الجمال الشرقي الممتد أمامه الذي يراه لأول مرة. فحتى بالنسبة إليه، كان تحقيق ذلك الحلم الذي راوده طويلاً والذي ظنه مستعصياً على التحقيق يبدو غريباً. لقد كان ينظر، في ضوء الصباح الصافي، إلى المدينة طوراً، وإلى المخطط طوراً آخر، محققاً في التفاصيل، وكان يقينه من امتلاكها يملؤه بالانفعال والرعب.

قال في نفسه: «لكن أكان يمكن أن تكون الأمور بخلاف ذلك؟ ها هي ذي تلك العاصمة، عند قدمي، تنتظر مصيرها. أين الكسندر الآن وماذا يقول؟ يا للمدينة الغريبة، الجميلة، الجليلة! ويا للحظة الغريبة، الجليلة! وتساءل وهو يفكر بجنوده: «بأي منظار ينظرون إلي. ها هي ذي، مكافأة هؤلاء الناس القليلي الايمان»، وألقى نظرة إلى ما حوله وإلى القطعات وهي تدنو وتصطف: «كلمة واحدة مني، إشارة واحدة من يدي، فإذا بها أثر بعد عين، عاصمة القياصرة القديمة هذه، لكن رحمتي سرعان ما تهبط على المغلوبين، يجب أن أدلل على الشهامة والعظمة الحقيقية... ودار بخلده: «كلا، لا أصدق أنني في موسكو. ومع ذلك فها هي ذي عند قدمي بقبابها المذهبة وصلبانها التي تتلألأ وترتعش في الشمس. لكني لن أصيبها بسوء. وعلى هذه الأوابد القديمة الشاهدة على الهمجية والاستبداد سأنقش تلك الكلمات العظيمة، كلمات العدل والرحمة.... وهذا الذي سيقع موقعاً مؤلماً من نفس الكسندر، فأنا أعرفه. (كان يبدو لنابليون أن جوهر ما كان يجري صراع بينه وبين الكسندر). من أعلى الكريملين، نعم، وهذا هو الكريملين بعينه، سأسنُّ لهم القوانين العادلة، سأريهم ما الحضارة الحقة، سأجبر الأجيال الآتية من نبلاء روسيا على أن يذكروا بحب اسم قاهرهم. سأقول لوفدهم:

إنني لم أكن أريد الحرب وإنني لا أريدها، وإنني لم أحارب سوى سياسة البلاط الغادرة، وإنني أحب الكسندر وأحترمه وإنني سأقبل في موسكو بعروض الصلح الجديرة بي وبشعوبي. لست أريد أن أستغل أحوال الحرب لإذل ملكاً خليقاً بالاحترام. وسأقول لهم: «أيها النبلاء! لست أريد الحرب، وإنما أريد الصلح ورخاء رعاياي جميعاً.» على كل حال، إني أعلم أن حضورهم سيلهمني ما أقوله وإنني سأكلمهم كما أتكلم دائماً: بوضوح وفخامة وعظمة. لكن أيمكن أن أكون حقاً في موسكو؟ نعم، ها هي ذي!.

قال وهو يلتفت إلى حاشيته:

– ائتوني بنبلاء[1] موسكو.

وسرعان ما انطلق جنرال معه حاشية متألقة للبحث عن النبلاء.

مرت ساعتان تناول نابليون خلالهما غداءه وعاد إلى مكانه نفسه على الهضبة، بانتظار الوفد. وقد اتخذ الخطاب الذي سيوجهه إلى النبلاء شكلاً محدداً في خياله. وكان يفيض بالكرامة والعظمة كما يفهمهما نابليون.

ولقد أُخذ هو نفسه بلهجة الشهامة هذه التي نوى أن يصطنعها في موسكو. وراح يحدد في خياله أيام الاجتماع في قصر القياصرة حيث سيتلاقى كبار النبلاء الروس وكبار أصحاب المراتب الفرنسيين. وعيّن بذهنه الحاكم الذي يستطيع أن يستميل إليه الأهلين. وقرر، بعد أن علم أن في موسكو عدداً كبيراً من المؤسسات الخيرية، أن يغمر هذه

١– يستخدم نابليون لقب Boyards ليدل على النبلاء أو الأشراف أو الأعيان مع أن بطرس الأكبر قد ألغى هذا اللقب قبل قرن.

المؤسسات بأفضاله. وكان يعتقد أنه مثلما وجب عليه أن يذهب إلى الجامع، في افريقيا، ببرنسه، فكذلك ينبغي أن يكون، في موسكو، محسناً كالقياصرة. ولكي يكسب قلوب الروس قرر، وهو العاجز، مثل كل فرنسي، عن أن ينساق وراء عواطفه دون أن يتذكر أمه الغالية، الحنونة، أمه المسكينة، قرر أن يكتب على جميع المؤسسات بحروف كبيرة: «مؤسسة مقدمة إلى أمي الغالية»، ثم قال في نفسه: لا، يكفي أن يكتب: «دار أمي». لكن، أمن الممكن أن أكون في موسكو؟ نعم، وها هي ذي أمامي. لكن، لم تأخر وفد المدينة إلى هذا الحد»؟

في هذه الأثناء، كان الجنرالات والمارشالات، في الصفوف الأخيرة من حاشية الإمبراطور، يعقدون مجلساً سرياً يتشاورون فيه بصوت خافت، وقد ألمّ بهم الاضطراب. ذلك أن الذين ذهبوا لإحضار الوفد عادوا ليخبروا أن موسكو فارغة، وأن جميع سكانها غادروها سيراً على الأقدام أو في العربات. كانت وجوههم شاحبة، منفعلة. لم يروعوا لأن موسكو هجرها أهلها (وإن بدا الحدث جللاً)، إنما روعهم وجوب إبلاغ النبأ إلى الإمبراطور، فلا يعرف أحد كيف يخبر جلالته، من غير أن يدفعه إلى ذلك الموقف الرهيب الذي يسميه الفرنسيون «مضحكاً»، بأنه انتظر النبلاء طويلاً بلا جدوى، وبأنه ليس في موسكو سوى عصابات من السكارى، ولا أحد غيرهم. كان بعض مَن في المجلس يقول: إنه يجب جمعُ وفد ما مهما كلف الأمر، والبعض الآخر يقاوم هذه الفكرة ويذهب إلى أنه ينبغي إعدادُ الإمبراطور بحذر ومهارة وإطلاعه على الحقيقة.

كان رجال الحاشية هؤلاء يقولون:

– لابد، مع ذلك، من إطلاعه على النبأ. لكن، أيها السادة،...

كان الموقف شاقاً، وزاد من مشقته أن الإمبراطور الذي استغرق في مشاريعه الشهمة كان يروح ويجيء متصبراً أمام المخطط المنشور، مستشرفاً بين الحين والحين طريق موسكو وهو يتسم بفرح واعتزاز.

ثم يقولون:

- لكن هذا مستحيل...

ويهزون أكتافهم دون أن يستطيع أحد التفوه بتلك الكلمة الرهيبة التي أضمروها، كلمة «مضحك»....

إلا أن الإمبراطور، بعد أن أتعبه هذا الانتظار الفارغ، استروح بحاسة الممثل فيه أن تلك اللحظة السامية إن طالت فوق حدها فقدت جلالها، فأشار بيده. ودوى صوت مدفع منفرد معطياً إشارة المسير فتحركت القطعات التي كانت تحدق بموسكو نحو حواجز «تفير» و«كالوغا» و«دوروغو ميلوفو»، متسارعة، متسابقة فيما بينها، جرياً وخبباً، وقد غطتها سحب من الغبار وملأت الفضاء بضوضاء هتافها.

سار نابليون مع جنوده، مدفوعاً بحركتهم، حتى حاجز «دوروغو ميلوفو»، وهنا توقف وترجل وتمشى طويلاً أمام سور «مجمع الغرفة»[1] في انتظار الوفد.

***

١- سور خارجي لموسكو يشكل الدائرة الثالثة، وهو مبني من الطوب، بنته في منتصف القرن الثامن عشر وزارة المالية التي كانت تسمى آنذاك «مجمع الفرقة» على الطريقة الألمانية.

الفصل العشرون

على أن موسكو كانت خالية. مايزال فيها بعض السكان، جزء من خمسين من سكانها القدماء، لكنها كانت خالية. كانت خالية كالخلية التي تموت إذا حرمت ملكتها.

ليس في الخلية التي بلا ملكة حياة، لكنها تبدو للنظرة السطحية حافلة بالحياة.

ففي أشعة شمس الجنوب الدافئة، يحوم النحل حول هذه الخلية بمرح كما يحوم حول الخلايا الحية؛ إنها تفوح، من بعيد، برائحة العسل، كما تفوح بها الخلايا الحية، والنحل يخرج منها ويدخلها كما يخرج من الخلايا الحية ويدخلها. لكن يكفي أن نلاحظها بإمعان لندرك أن الحياةِ غائبة عنها. فالنحل لا يحوم حولها كما يحوم حول الخلايا الحية، والرائحة هناك غير الرائحة هنا، ودوي النحل الذي يصك سمع مربيه هناك غير دويه هنا. وعندما يقرع مربي النحل جانب خلية مريضة لا تجاوبه سوى طنطنات منعزلة ترن في أرجاء الخلية الفارغة، بدلاً من الجواب الفوري الإجماعي لدوي عشرات الآلاف من النحل الذي يشرع حماته، ويضرب بأجنحته على عجل، محدثاً هذا الحفيف الهوائي، حفيف الحياة. أما المدخل فلا يحس المرء عنده بتلك الرائحة الكحولية العطرة رائحة العسل والسم، ولا ينبعث منه دفء

الخلية الملأى، وإنما تمتزج برائحة العسل رائحة الفراغ والعفن فيه، ولا تحميه الحارسات التي تشرع حماتها وتستعد للتضحية بنفسها في سبيل الدفاع عن خليتها، ولا تسمع فيه هذه الضوضاء المنتظمة العذبة، ولا نبض العمل الشبيه بالغليان، وإنما تسمع فيه الضوضاء المتنافرة، ضوضاء الفوضى التي لا نظام فيها. وترى النحل النهّاب الأسود بأجسامه المتطاولة يدخل ويخرج منه، وهو مطلي بالعسل، لكنه لا يلسع وإنما يهرب من الخطر. وقديماً لم تكن ترى سوى العاملات يدخلن مثقلات بغنيمتهن ليخرجن فارغات منها، أما الآن فهن يطرن بحملهن. ويفتح المربي أسفل الخلية، ويفحص الجزء الأدنى منها، فلا يجد ما كان يجده قديماً من عناقيد النحل الحي المتدلي إلى أسفل الخلية، وقد تشبث بعضه ببعض، وراح يفرز الشمع، في دوي لا ينقطع، وإنما يجد نحلاً غلب عليه النعاس والهزال، يشرد تائهاً في قاع الخلية وعلى جدرانها. وبدلاً من الأرض المطلية بالعكبر اللزج، والمكنوسة بضربات الأجنحة، يتغطى القاع بفتات الشمع، والفضلات، والنحل المشرف على الموت الذي لا يكاد يحرك أرجله، وجثة النحل التي لم ترفع بعد.

ويفتح مربي النحل الغطاء ويفحص جسم الخلية، فلا يرى صفوف النحل المتراصة التي تسد جميع نخاريب الشهد وتدفئ البيض، وإنما يرى بنيان الأقراص الماهر المعقد، ولكن بدون ذلك المظهر العذراوي الذي كان له من قبل. كل شيء فيها همل، مدنس. والنهابات من النحل الأسود يحوّمن مسرعات، خلسة بين العاملات التي أصابها الجفاف والخوف والكلال أو العجز، والتي تحوم ببطء لا تعترض سبيل غيرها ولا ترغب في شيء وقد فقدت الشعور بالحياة. وراحت الزنابير والنعرات، والطنانات والفراشات تصطدم بجدران الخلية أثناء طيرانها المضطرب، فيعلو هنا وهناك، بين أقراص الشهد والبيض الميت والعسل، طنين غاضب من حين إلى آخر. وفي ركن من الخلية نحلتان ساقتهما

عادتهما القديمة في تنظيف العش إلى جرّ جثة نحلة عاملة وطنانة بعناية ومشقة إلى خارج الخلية من غير أن تعلما لِمَ تفعلان ذلك.وفي ركن آخر نحلتان هرمتان تقتتلان برخاوة، أو تنظفان جسديهما، أو تطعم إحداهما الأخرى دون أن تعلما إن كان ما تفعلانه ودياً أو عدائياً. وفي ركن ثالث جماعة من النحل تراكب بعضه فوق بعض يهاجم ضحية، ويضربها ويخنقها. فتسقط النحلة الضحية متهالكة أو ميتة ببطء وخفة كريشة من زغب فوق كومة الجثث. فإذا قلب المربي قرصي الوسط ليرى العش رأى بضع مئات من النحل الكئيب، المخدر، الشبيه بالميت، بدلاً من آلاف النحل القابع ظهراً إلى ظهر في دائرة مرصوصة، سوداء، ساهراً على سر النقف. ذاك النحل ميت تقريباً دون أن يعلم أنه ميت، مقيم يحرس الكنز الذي لم يبق له وجود، تفوح منه رائحة العفن والموت، إلا بعضاً منه يتحرك وينهض ويطير بتوان ويحط على يد العدو خائر القوى ليموت وهو يلسعه؛ أما النحل الميت فيسقط بهدوء إلى القاع كحراشف السمك. عند ذاك يعيد المربي غطاء الخلية ويؤشر عليها بالحوار، ويختار الوقت المناسب ليحطمها ويحرقها.

هكذا كانت موسكو خالية في حين كان نابليون يتمشى طولاً وعرضاً، وهو متعب، قلق، متجهم، عند السور، ينتظر مراعاة اللياقة، على الأقل، اللياقة الخارجية التي لا غنى عنها في رأيه: إرسال الوفد.

لم يكن، في مختلف أرجاء المدينة، سوى أناس يتحركون بلا هدف، ويخضعون لعادات قديمة دون أن يدركوا ما يفعلون.

وعندما أُبلغ نابليون، بكل احتراس، أن موسكو خالية، حدج المبلِّغ بنظرة حانقة، ثم انثنى واستأنف تمشيه بصمت. وقال:

– لتقدم عربتي.

وصعد إلى جانب المساعد العسكري المناوب ودخل الضاحية.

كان يقول في نفسه:

«موسكو مقفرة! يا للحدث الذي لا يصدق!».

لم يدخل المدينة لكنه توقف في نزل في ضاحية «دوروغو ميلوفو». لقد أخفقت المفاجأة.

***

الفصل الحادي والعشرون

اجتازت القطعات الروسية موسكو من الساعة الثانية صباحاً إلى الساعة الثانية بعد الظهر، جارة في أثرها الذين تخلفوا من السكان والجرحى.

حدث أكبر زحام أثناء مسيرة الجيش على جسر بطرس وجسر الموسكوفا وجسر اياوزا[1].

وبينما كانت القطعات تتجمع على جسري موسكوفا وبطرس، بعد أن انقسمت شطرين حول الكريملين، كان عدد جم من الجنود يستغلون التوقف والزحمة ويعودون أدراجهم، منسلين خلسة وفي صمت، بحذاء كنيسة الدائم الغبطة فاسيلي[2] ومن باب بوروفيتسكي، صاعدين نحو الساحة الحمراء[3] حيث كانوا يستروحون بحاستهم

١- الجسران الأولان يقعان في جنوبي الكريملين، على الموسكوفا والثالث على نهر اياوزا الذي يصب في الموسكوفا شرقي الكريملين.

٢- كنيسة الدائم الغبطة فاسيلي كنيسة ذات ثماني قباب مبرقشة، بنيت في سنة ١٥٦٠ فوق الساحة الحمراء تمجيداً لذكرى فتح قازان.

٣- «نحو الساحة الحمراء»: ترجمة غير دقيقة لأن (كراسنابا بلوتشاد) كانت تعني في الروسية الساحة الجميلة، لكن كلمة (كراسني) أخذت فيما بعد معنى «أحمر» وفي هذه الساحة كانت توجد أروقة أو معارض التجار (فوستيني دفور).

الخفية أن السلب هنا أسهل منه في أي مكان آخر. كان حشد شبيه بالحشود في أيام الرخصة يجتاح «غوستيني دفور» من كل منافذها. لكن لم تكن تتردد فيها أصوات البائعين الخلابة الملأى بمعسول اللطف و لم يكن فيها الحمالون ولا جمهور النساء المبرقش، وإنما كانت تغص ببزات الجنود ومعاطفهم وهم يدخلون صامتين، بدون سلاح، صفر الأيدي إلى المعارض ويخرجون منها مثقلين. وكان التجار والمستخدمون (كانوا قلة) يتجولون كالتائهين بين الجنود، يفتحون دكاكينهم ويطلقونها ويحملون مع مساعديهم ما أمكنهم حمله من البضاعة إلى جهة ما. ودقت الطبول في الساحة قرب «غوستيني دفور» دقة التجمع. فلم يستجب أحد من الجنود لها، وإنما دفعتهم هذه الدقة إلى الإمعان في هربهم. ثم اختلط بالجنود في الدكاكين والممرات أفراد حليقو الرؤوس يلبسون ستراً رمادية[1]. وفي زاوية «ايلينكا» وقف ضابطان يتحدثان فيما بينهما، أحدهما يمتطي حصاناً هزيلاً رمادياً غامقاً، ويضع وشاحاً فوق بزته، والآخر راجل يلبس معطفاً طويلاً. خف إليهما ضابط ثالث:

– أصدر الجنرال أمره بطرد الناس رأساً، مهما كلف الثمن. هذا شيء فظيع! هرب نصف الرجال.

وصاح بثلاثة من جنود المشاة انسلوا أمامه إلى المعارض، بدون سلاح، وقد رفعوا أطراف معاطفهم الطويلة:

– إلى أين تذهب؟.... إلى أين تذهبون؟.... قفوا، أيها الأوباش!

أجاب الضابط الآخر:

١- أي المجرمون الذين أخلي سبيلهم من السجون.

– لا سبيل إلى إيقافهم، بل يجب أن تعجل في الذهاب قبل أن يترك الآخرون صفوفهم ويتفرقوا، هذا كل ما نستطيعه!

– وكيف نتقدم؟ لقد توقف الجند هناك، وتكوموا على الجسر لا يتحركون. ربما لزمنا إقامة شريط لمنع الآخرين من الفرار.

فصرخ الضابط الأعلى:

– لكن اذهب إلى هناك! اطردهم جميعاً.

ترجّل الضابط الذي يضع وشاحاً واستدعى طبالاً ودخل معه تحت الأقواس. فهرب بعض الجنود. واقترب من الضابط تاجر على وجنتيه قرب الأنف بثور حمراء، وعلى وجهه الممتلئ إمارات الحساب والتقتير التي لا يغيرها مرور الأيام، وهو يهز ذراعه بتبجح وسرعة، وقال:

– يا صاحب النبل، احمنا، أرجوك. لا حساب بيننا، يسرنا أن نخدمك!... هيا، سآتيك بقطعة جوخ تصلح لرجل نبيل مثلك، بل سأقدم قطعتين، بكل سرور! لأننا لا ننسى الجميل، أما هذا، ما هذا، هذا نهب حقيقي! تفضل بمرافقتي. لابد من وضع حرس، لنتمكن من إغلاق متاجرنا على الأقل...

وأحاط بالضابط بعض التجار قال أحدهم، وهو رجل هزيل قاسي الوجه:

– ايه! ما جدوى النقاش! إذا قطع الرأس لم يؤسف على الشعر.

وأشار بيده إشارة قوية وهو يلتفت إلى الضابط، وقال:

– ليأخذ كل واحد ما طاب له!

قال التاجر الأول محتداً:

– أنت تتكلم كما يحلو لك، يا إيفان سيدوريتش. تفضل، يا صاحب النبل، أرجوك.

فصرخ التاجر الهزيل:

– ما جدوى الكلام! إن لدي هاهنا في ثلاثة متاجر من البضاعة ما يعادل مئة ألف روبل. كيف يمكن المحافظة عليها عندما يرحل الجيش؟ آه لهؤلاء الناس! لا راد لمشيئة الله.

كرر البائع الأول وهو ينحني:

– تفضل، يا صاحب النبل، أرجوك.

تردد الضابط ونطق وجهه بهذا التردد. وصرخ فجأة:

– على كل حال، مالي ولهذا؟

وابتعد وهو يغذ خطاه تحت أقواس الأروقة. ومن حانوت مفتوح وافت أصوات الضربات والتجديف في الوقت الذي اقترب منه الضابط وبرز منه رجل ذو سترة رمادية ورأس حليق قد أُلقي إلى الخارج.

طوى ذلك الرجل ظهره وانسل بين التجار والضابط. وانقض الضابط على الجنود الذين كانوا في الحانوت. ولكن، في تلك اللحظة، ارتفعت جلبة رهيبة أطلقها جمهور غفير على جسر الموسكوفا، فهرع الضابط إلى الساحة. وسأل زميله:

– ماذا يجري؟ ماذا يجري؟

لكن زميله كان يعدو صوب الصياح، بحذاء كنيسة الدائم الغبطة «فاسيلي»، فركب جواده ولحق به. ولما بلغ الجسر رأى مدفعين نزعا من مقطورتهما، ومشاة يسيرون، وعربات مقلوبة، ووجوهاً ذاهلة،

وجنوداً يضحكون. وقرب المدفعين وقفت عربة يجرها حصانان. ووراءها، بجنب العجلات، ربط أربعة كلاب سلوقية يلز بعضها بعضاً. وكانت العربة مثقلة بالأمتعة، ومن فوقها، بجنب كرسي طفل قوائمه في الهواء، جلست امرأة تطلق صرخات حادة تمزق القلب. وروى رفاق الضابط له أن الباعث على صراخ الجمهور وزعاق المرأة كان أمراً أصدره الجنرال «ايرمولوف» الذي رأى الجنود يقبلون على نهب الحوانيت ورأى المدنيين يسدون الجسر، فأمر بنزع المقطورة وهدد بفتح النار على الجسر ليكون ذلك عبرة لمن اعتبر. عند ذاك راحت الجماهير تخلي الجسر وهي تقلب العربات وتتدافع ويدهك بعضها بعضاً وتطلق صرخات موجعة حتى استأنفت القطعات سيرها.

***

الفصل الثاني والعشرون

على أن موسكو كانت مقفرة. لم يكن في الشوارع أحد تقريباً. وكانت بوابات الأفنية والحوانيت مغلقة. وكانت تتردد هنا وهناك، حول الحانات، صرخات منفردة أو أغنيات السكارى. لم تكن تمرّ عربة واحدة في الشوارع، وقلما كان ترنّ خطى عابر سبيل ماش. وكان شارع «بوفارسكايا» خالياً، يخيم عليه الصمت الشامل. وكان فناء آل «روستوف» الرحب مغطى ببقايا العلف، وبالروث، وليس فيه من أحد. وكان في البيت المهجور بما فيه من خيرات شخصان في الصالة الكبرى وهما البواب «اينياس» والخادم الصغير «ميشكا» حفيد «فاسيليتش»، وقد بقي في موسكو مع جده. وكان الخادم الصغير قد رفع غطاء البيانو القيثاري وأخذ ينقر بإصبعه، بينما وقف البواب أمام المرآة، ويداه على خصريه، وعلى شفتيه ابتسامة فرحة.

قال الصبي وقد أخذ ينقر بكلتا يديه الملامس:

- عمّ «اينياس»! قل لي إن كان عزفي مسلياً؟

أجاب «اينياس» وهو يتأمل في المرآة ابتسامته التي راح يفترُّ عنها فمه:

- أترى أنت ذلك؟

قال صوت «مافرا كوزمينيشنا» من ورائهما وقد دخلت بدون ضجة:

– ألا تخجلان؟ انظر إلى هذا الوجه الضخم الذي كشف عن أسنانه جميعاً! أنتما لا تصلحان إلا لهذا! كل شيء في فوضى هناك، وقد أعيا الشعب «فاسيليتش». انتظراني قليلاً!

أصلح «إينياس» زناره، وكف عن الابتسام وخفض عينيه مذعناً وخرج.

قال الصبي:

– يا عمة، سأعزف برفق.

فصاحت به «مافرا كوزمينيشنا» وهي ترفع عليه يداً مهددة:

– سأذيقك مرارة «الرفق»! يا عفريت! اذهب وأشعل السماور لجدك.

نفضت «مافرا كوزمينيشا» الغبار عن المعزف وأغلقته وتركت الصالة وهي تتنهد تنهداً عميقاً وأغلقت الباب بالمفتاح.

خرجت إلى الفناء وتساءلت: أين تذهب الآن: أتذهب إلى تناول الشاي مع فاسيلينش» في الجناح أم ترتب في المستودع ما لم يُرتب بعد.

دوّت في الشارع الصامت خطى حثيثة وقفت عند الباب الصغير؛ وصرّ المزلاج من جراء ضغط يد تحاول فتحه.

– من تريد؟

– الكونت، الكونت «إيليا أندريتش روستوف».

- ومن أنت؟

فأجاب صوت عذب، صوت نبيل روسي:

- أنا ضابط، وأنا بحاجة إليه.

فتحت «مافرا كوزمينيشنا» الباب. ودخل الفناء ضابط شاب في نحو الثامنة عشرة، تذكر تقاطيع وجهه المدور بتقاطيع آل «روستوف».

قالت «مافرا كوزمينيشنا» بلطف:

- لقد ارتحلوا، ارتحلوا مساء أمس.

صَفق الضابط بلسانه، وهو واقف على الباب، وكأنه لا يدري أيدخل أم لا. وقال:

- آه! يا للخيبة! كان ينبغي أن آتي البارحة... آه! إن ذلك مؤسف!

تفرّست «مافرا كوزمينيشنا»، أثناء ذلك، بإمعان وود، في وجه الشاب، في قسمات ذلك الوجه الشبيهة بما عهدته في أسرة «روستوف» وتفحصت معطفه وجزمته التي بلي كعبها.

سألته:

- و لم كنت تريد أن ترى الكونت؟

قال الضابط باغتياظ وهو يضع يده على أكرة الباب كأنه يهم بالانصراف:

- الواقع... أنه لا حيلة لي في الأمر.

ثم توقف متردداً، وقال فجأة:

– اعلمي أنني من أقرباء الكونت، وكان دائماً عظيم الإحسان إلي، وها أنت ذي ترين (ونظر بابتسامة ساخرة إلى معطفه وجزمته) رثاثة ثيابي، وليس معي فلس، وكنت أريد أن أسأل الكونت...

ولم تُتح له «مافرا كوزمينيشنا» أن يتم جملته، فقالت:

– ليتك تنتظر لحظة قصيرة، يا سيدي. لحظة قصيرة.

وما إن أرخى الضابط أكرة الباب حتى انطلقت بخطى العجوز الحثيثة واتجهت نحو الفناء الخلفي حيث الجناح الذي تسكنه.

بينما كانت «مافرا كوزمينيشنا» تطير إلى غرفتها، أخذ الضابط يتنزه في الفناء خافض الرأس، محدّقاً في جزمته البالية، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ويفكر: «ما أشد أسفي لأني لم أجد عمي. لكن يا لها من عجوز شهمة! أين ذهبت؟ وكيف أستطيع أن أعرف الطريق التي يجب أن أسلكها لألحق على جناح السرعة، بفوجي الذي لابد أن يكون قد اقترب الآن من حاجز «روغوجسكي؟» وما لبثت أن ظهرت، في زاوية من الفناء، «مافرا كوزمينيشنا»، وعلى وجهها أمارات الخوف والعزم، وفي يدها منديل معقود، ذو مربعات. وعلى خطوات من الضابط حلّت المنديل وأخرجت ورقة نقدية بيضاء بخمسة وعشرين روبلاً وناولته إياها على عجل قائلة:

– لو كان سعادته هنا لفعل، بدون شك، ما يليق فعله للقريب، لكن ربما، هاك... في هذا الوقت...

وهنا اضطربت «مافرا كوزمينيشنا»، فتناول الضابط الورقة من غير تعفف ومن غير تعجّل وشكرها.

وأتمت كلامها كأنها تريد أن تعتذر:

- لو كان الكونت هنا... ليحمك الله، يا سيدي، ليحفظك الله.

قالت ذلك وهي تنحني وتشيّعه إلى الباب. فابتسم الضابط كأنما يهزأ من نفسه وهز رأسه واندفع جارياً في الشوارع المقفرة ليدرك فوجه قرب جسر «إياوزا».

ظلت «مافر كوزمينيشنا» زمناً طويلاً أمام الباب المغلق، مبللة العينين، تهز رأسها متفكّرة، وقد أحست بفيض مفاجئ من الشفقة والحنان الأمومي إزاء هذا الضابط الصغير المجهول.

***

الفصل الثالث والعشرون

في منزل لم يكتمل بعد، في شارع «فارفاركا»[1]، ارتفعت الصيحات وأغنيات السكارى من حانة كانت تشغل الدور الأسفل فيه. كان نحو عشرة عمال يجلسون على مقاعد حول الطاولات، في غرفة صغيرة قذرة. كانوا جميعاً سكارى، يتصببون عرقاً، عكري العيون، يغنون بكل ما أوتوا من قوة وهم يفتحون أفواههم العريضة. كانوا يغنون كما يحلو لهم، بدون تمييز، وبمشقة وجهد، لا لأنهم كانوا يشتهون الغناء، بل لمجرد التدليل على أنهم سكارى، مبتهجون. كان يقف بجنبهم فتى طويل، أشقر، يرتدي سترة زرقاء، جد نظيفة. وكان وجهه ذو الأنف المستقيم الدقيق حرياً بأن يكون جميلاً لولا شفتاه الرقيقتان، المزمومتان، الدائمتا الحركة، ولولا عيناه العكرتان، الجامدتان، العابستان. كانوا جلوساً وكان واقفاً يُشرف عليهم من فوق، وكأنما تصوّر أنه يلعب دوراً فأخذ يحرك فوق رؤوسهم، ذراعه البيضاء التي شمّر كمها حتى المرفق، بحركة مهيبة مكسّره، محاولاً جهده أن يباعد بين أصابعه الوسخة. وكان كم سترته لا يفتأ يسقط فيشمره بأناة بيده اليسرى، وكأن من الأهمية بمكان أن تكون هذه الذراع البيضاء، القوية عارية. وفي خلال الأغنية، علا ضجيج شجار وضربات في المدخل وعند درج المدخل. فأشار الفتى الطويل بيده وصرخ بلهجة حاسمة:

١- شارع في وسط المدينة في «كيتايفورود».

- تمّ الأمر! ووقع الشجار، يا شباب.

وخرج إلى مدخل الدرج دون أن يكفّ عن تشمير كمه.

تبعه العمال. وكان هؤلاء العمال الجالسون في الحانة قد حملوا إلى الحانة في هذا الصباح، بقيادة الفتى الطويل، جلودا من المصنع بادلوا بها خمرا.

فلما سمع الحدادون في دكاكين حدادتهم الضوضاء التي أحدثوها، ظنوا أن الحانة تتعرض للنهب وأرادوا أن يدخلوها بالقوة، فوقع الشجار عند درج المدخل.

كان صاحب الحانة، على بابه مشتبكاً مع أحد الحدادين، وفي اللحظة التي ظهر فيها العمال أفلت هذا الحداد من يدي صاحب الحانة وسقط بوجهه على البلاط.

وجهد حداد آخر في أن يعبر الباب دافعاً صاحب الحانة بصدره.

وعمد الفتى المتشمر عن كمه إلى حداد أراد أن يصل إلى الباب فلطمه في وجهه، قبل أن يصل، وصرخ بأعلى صوته:

- أيها الشباب! إنهم يضربون رفاقنا!

في هذه اللحظة، نهض الحداد الأول، ومر بأصابعه على وجهه المدمّى، وصرخ بصوت شاك:

- النجدة! أمسكوا بالقاتل!... قتلوا رجلاً! أيها الرفاق!...

وصرخت امرأة كانت تخرج من البوابة المجاورة:

- أوه! يا أصحابي، إنهم يقتلون رجلاً، لقد قتلوا الرجل!

وتجمع حشد من الناس حول الحداد المدمّى.

ارتفع صوت يخاطب صاحب الحانة:

- ألم تشبع من نهب الناس وابتزاز آخر قميص لهم؟ وتريد الآن قتلهم، أيها اللص!

كان الفتى الطويل، واقفاً على الدرج، ينقّل عينيه العكرتين في صاحب الحانة تارة، وفي الحدادين تارة أخرى، وكأنما كان يتساءل مَن يُقاتل منهما.

وصاح فجأة بصاحب الحانة:

- سفّاح! أوثقوه، يا رفاق!

صرخ صاحب الحانة وهو يهز الذين ارتموا عليه، وينتزع قبعته ويَخبط بها الأرض.

- أتوثقونني، أنا!

وكأنما كان لتلك الحركة معنى خفي منذر بالويل، فوقف العمال حوله مترددين.

ثم استأنف الخمار صراخه وهو يلتقط قبعته من الأرض:

- أنا أعرف القانون، أيها الفتيان، على رؤوس أصابعي، وسأذهب إلى آمر شرطة الحي. أتظن أنني لن أذهب؟ لا يحق لأحد اليوم أن يقوم بأعمال النهب.

وصرخ صاحب الحانة والفتى الطويل على التوالي:

- هيا إلى هناك!.. هيا إلى هناك!...

ومضى الاثنان في الشارع. وسار الحداد المدمّى في إثرهما. وتبعهم العمال والمتفرجون وهم يتكلمون ويصرخون.

في زاوية «الماروسيكا»[1]، مقابل بيت كبير مغلق المصاريع تزينه لافتة «صانع أحذية»، كان يقف حوالي عشرين عاملاً من صانعي الأحذية بانَ عليهم الهزال والضنى ولبسوا أردية فضفاضة وقفطانات رثة.

قال عامل هزيل ذو لحية متفرقة الشعر وحاجبين مقطّبين:

– ليُعطنا حسابنا بحسب الأصول! لقد امتصّ دمنا وهو الآن يظن نفسه بريء الذمة. ما طَلنا وتلاعب بنا أسبوعاً كاملاً؛ وها هو ذا، في آخر لحظة يلوذ بالقرار.

وعند مرأى الجماعة والرجل المدمّى صمت العامل، وبادر صانعو الأحذية فانضموا بفضول إلى الجمهور السائر.

– إلى أين يذهب هؤلاء الناس؟

– معروف إلى أين، إلى السلطات.

– أصحيح أن جماعتنا لم يَغلبوا؟

– وأنت ماذا تظن؟ اصغ قليلاً إلى ما يقوله الناس.

تتالت الأسئلة والأجوبة. وانتهز صاحب الحانة هيجان الجمهور فتخلّف وعاد إلى حانته.

ظل الفتى الطويل يلوّح بذراعه العارية، ويفيض في كلامه، دون أن يفطن إلى اختفاء غريمه، مُسترعياً بذلك الانتباه العام. ومن حوله خاصة ازدحم الناس آملين أن يحصلوا على جواب عن الأسئلة التي كانت تشغل الجميع.

---

١ – شارع من «كيتاي غورود» مؤد إلى الشمال الشرقي.

كان الفتى الطويل يقول، وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تُلمح:

– ما عليه إلا أن يضرب المثل بنفسه، وأن يريهم ما القانون، من أجل ذلك أقيمت السلطات! أليسَ كذلك، أيها الأفاضل!

– يتصور أن ليس هناك سلطات؟ أيمكننا الاستغناء عن السلطات؟ ها هم أولاء هواة النهب قد بدؤوا يعيثون فساداً.

انبعثت من الجمهور أصوات تقول:

– ما هذا الكلام الذي لا معنى له! كيف يمكن أن تُترك موسكو هكذا! موسكو! لقد مازحوكَ فصدّقت المزحة. لا ينقصنا الجند. فكيف يتركونه يدخل هكذا! هناك سلطات تتولى ذلك. الأحرى بك أن تسمع ما يرويه هؤلاء الناس. (واشار إلى الفتى الطويل).

أمام جدار «كيتاي غوردو»[1] أحاطت جماعة أخرى، قليلة العدد، برجل يرتدي معطفاً من الصوف الغليظ ويمسك ورقة بيده.

قال بعض من في الجمهور الذي اتجه من فوره نحو المنادي:

– إنه يقرأ بلاغاً، بلاغاً.

كان الرجل ذو المعطف الصوفي الغليظ يقرأ إعلان الواحد والثلاثين من آب. وعندما أحاط به الجمهور بدا عليه الاضطراب، لكنه استأنف قراءته مع ارتعاش خفيف في صوته، بناء على طلب الفتى الطويل الذي اندفع إلى جنبه:

«سأذهب غداً، في ساعة مبكرة، لأرى الأمير صاحب الرفعة، (كرر

١– كيتاي غورود: الحي التجاري الذي تفصله الساحة الحمراء عن الكريملين. وكان تحيط به أيضاً الأسوار التي تهدمت اليوم.

الفتى الطويل مع ابتسامة مهيبة على الشفتين، وهو يقطب حاجبيه: صاحب الرفعة!) للتفاهم معه وللعمل ومساعدة قطعاتنا على إبادة الأثيمين؛ سنبذل وسعنا نحن أيضاً للقضاء عليهم... (وهنا وقف المنادي لأن الشاب الطويل صرخ كالمنتصر: أترون؟ سيذيقهم سوء العقاب...)، لإبادة هؤلاء الواغلين والإلقاء بهم بعيداً؛ سأعود في ساعة الغداء وسنبدأ العمل، سنمضي فيه، سنتمّه وسنذيق الأثيمين سوء العقاب».

قرأ المنادي الكلمات الأخيرة وسط الصمت التام. أطرق الفتى الطويل رأسه بأسى. وكان واضحاً أن أحداً لم يفهم النهاية. أما قوله: «سأعود في ساعة الغداء» فقد شقّت، من غير شك، على المنادي وعلى المستمعين. كان الفهم الشعبي ينتظر كلاماً بليغاً، في حين أن ما جاء في الإعلان كان مفرط البساطة والسهولة، يستطيع كل من المستمعين أن يقول مثله، ومن ثم فلا يمكن أن يُقال في إعلان صادر عن السلطات العليا.

أخلد الجميع إلى الصمت الكئيب. وكان الفتى الطويل يحرك شفتيه ويترنح.

ارتفعت من الصفوف الخلفية فجأة أصوات تقول:

– ينبغي أن نذهب ونسأله!... ها هو ذا بعينه!... أتريد أن تسأله!... ولَمَ لا؟... سيدلنا...

واتجهت أنظار الجمهور إلى عربة قائد الشرطة التي وصلت إلى الساحة يرافقها فارسان على جواديهما.

كان قائد الشرطة قد ذهب هذا الصباح، بناء على أمر الكونت، ليحرق بعض القوارب، وربح بهذه المناسبة، مبلغاً كبيراً كان معه؛ فلما

رأى الجمهور يسير نحوه أمر الحوذي بالوقوف. وصاح على وجل بالناس الذين كانوا يقتربون من العربة واحداً واحداً:

- من أنتم؟ من أنتم؟ أسألكم من أنتم؟

لكنه لم يتلق جواباً. قال الموظف ذو المعطف الصوفي الغليظ:

- يا صاحب النبل، كانوا يريدون... وفقاً لإعلان سعادة الكونت، كانوا يريدون أن يقوموا بواجب الخدمة باذلين حياتهم لا أن يتمردوا كما قال سعادة الكونت...

أعلن قائد الشرطة:

- الكونت لم يسافر، وستصلكم التعليمات.

وقال للحوذي:

- سِرْ!

توقف الجمهور، وتكتّل حول الذين سمعوا كلمات ممثل السلطة، ناظراً إلى العربة وهي تبتعد.

في هذه اللحظة التفت قائد الشرطة إلى حوذيه مرعوباً، وقال له شيئاً، فزادت الجياد من جريها.

ارتفع صوت الفتى الطويل:

- هذه خدعة، أيها الفتيان! خُذنا إلى القائد الأعلى بذاته!

لا تَدَعوه يذهب، أيها الرفاق! ليشرح لنا الأمور بدقة!

وصرخت أصوات: قِفْ!، وانطلق الجمهور في إثر عربته.

اتجه الجمهور وهو يتبع قائد الشرطة إلى «اللوبيانكا» بضوضاء صاخبة ارتفعت فيها أصوات متزايدة تقول:

- وإذن فالأثرياء والتجار ولّوا هاربين، ومِنْ أجل ذلك سيُقضى علينا! أنحن كلاب؟

***

الفصل الرابع والعشرون

في مساء الأول من أيلول، عاد الكونت «روستوبتشين» إلى موسكو، بعد مقابلته لكوتوزوف، ذليلاً مهاناً، لأنه لم يُدعَ إلى حضور المجلس الحربي، ولأن «كوتوزوف» لم يأبه لعرضه المشاركة في الدفاع عن العاصمة، ولأنه فوجئ بوجهة النظر الجديدة التي اكتشفها في المعسكر والتي تذهب إلى أن مسألة هدوء العاصمة وروحها الوطنية لم تكن مسألة ثانوية فحسب، بل إنها كانت عديمة الجدوى، جديرة بالإهمال. وبعد أن تعشى، استلقى على الأريكة بثيابه، وفي الساعة الواحدة صباحاً، أيقظه رسول يحمل رسالة من «كوتوزوف» يطلب فيها إليه أن يرسل رجال الشرطة لمواكبة القطعات التي كانت تنسحب على طريق «ريازان» إلى ما وراء موسكو، عبر العاصمة. لم يكن النبأ جديداً على «روستو بتشين». فقد كان يعلم أن موسكو ستُهجر، لا عند مقابلته «كوتوزوف»، أمس، على هضبة «بوكلونايا»، ولكن منذ معركة «بورودينو»، عندما كان جميع الجنرالات الآتين إلى موسكو يُجمعون على أن من المتعذر خوض معركة جديدة، وعندما كانت تُرحَّل، بإذنه كل ليلة، أموال الدولة، بعد أن ارتحل نصف السكان؛ ومع ذلك فإن هذا النبأ الذي جاءه على شكل بطاقة مجردة تحمل أمر «كوتوزوف»، ويتلقاها في الليل، أثناء إغفاءته الأولى، قد أدهشه وغاظه.

فيما بعد، عندما شرح الكونت «روستو بتشين» نشاطه في هذه الفترة، كرر مرات في مذكراته أنه كان يسعى إلى هدفين مهمين: أن يحافظ على الهدوء في موسكو وأن يُرحِّل السكان. إذا قبلنا بهذا الهدف المزدوج غدا كل عمل من أعمال «روستو بتشين» لا غبار عليه. لكن لَمَ لم تُخْلَ عن موسكو كنوز الكنائس والأسلحة والخرطوش والبارود والاحتياطي من القمح؟ لماذا خُدع ونُكب آلاف السكان حين أكّد لهم أن موسكو لن تُخلى؟ يقول الكونت «روستو بتشين» شارحاً: إنه فعل ذلك ليحافظ على الهدوء في العاصمة. لكن لَمَ رُحِّلت أكداس لا شأن لها من أوراق الدوائر، ورُحِّل منطاد «ليبيكَ» وأشياء أخرى؟ يُعلّل الكونت «روستو بتشين» ذلك بأنه يريد أن يترك المدينة خالية. يكفي أن نقبل بأن هناك ما يهدد الأمن العام حتى يغدو كل عمل مسوَّغاً.

كل فظاعات الإرهاب لم يُملها إلا الحرص على الأمن العام.

على أي أساس إذن كانت تقوم مخاوف الكونت «روستو بتشين» بشأن الأمن العام في موسكو، سنة ١٨١٢؟ ما الداعي إلى الاعتقاد بأن السكان كانوا يميلون إلى الثورة في المدينة؟ كان السكان ينصرفون، وكانت القطعات المتراجعة تملأ موسكو. فلِمَ يثور الشعب، بعد ذلك؟

لم يكن هناك ما يشبه الثورة، عند دخول العدو، لا في موسكو ولا في أي مكان من روسيا. لقد بقي في موسكو، في الأول والثاني من أيلول، أكثر من عشرة آلاف شخص، وإذا استثنينا التجمع الذي وقع في فناء دار الحاكم –وهو تجمع أثاره هو نفسه– فإنه لم يقع شيء. ومن البديهي أن إمكان وقوع الاضطرابات الشعبية كان سيكون أقل لو أن «روستو بتشين»، بعد معركة «بورودينو»، عندما أصبح الجلاء عن موسكو محققاً أو على الأقل محتملاً، بدلاً من أن يبثّ الذعر في الشعر

بما ينشر من بلاغات وبما يوزع من سلاح، اتخذ تدابير لإجلاء كنوز الكنائس والبارود والذخيرة والمال، ولو أنه أعلن صراحة للسكان أن المدينة ستُهجر.

لم تكن لروستو بتشين، هذا الرجل المُحتدم، الدموي الذي تقلّب في مناصب الدولة العالية، أدنى فكرة عن هذا الشعب الذي يظن أنه يحكمه، وإن كان يضطرم بالمشاعر الوطنية. فمنذ دخول العدو إلى سمولنسك انتحل في خياله دور مرشد الشعور القومي، مرشد قلب روسيا. كان يُخيَّل إليه أنه لا يقود بإعلاناته وبلاغاته التي يكتبها بلغة عامية يحتقرها الشعب في الوسط الشعبي ولا يفهمها إن جاءت من فوق، لا يقود مظاهر حياتهم الخارجية فحسب بل وعواطفهم أيضاً. ولقد أعجب هذا الدور، دور مرشد الشعور الشعبي «روستو بتشين» أيّما إعجاب، وتعوّده أيما تعوّد حتى أن ضرورة التخلي عنه، ضرورة التخلي عن موسكو دون أن يأتي بعمل باهر، قد داهمته من حيث لا يحتسب، فشعر أن الأرض تغيب من تحت قدميه وحار فيما يفعل. ومع علمه بحقيقة ما يجري فإنه أبى بكل جوارحه حتى آخر لحظة، الاعتقاد بأن موسكو ستُخلى، ولم يفعل شيئاً بهذا الشأن. وكان الأهلون يرتحلون خلافاً لإرادته. وإذا كانت الإدارات قد رُحِّلت فإن ذلك تم بناء على طلب الموظفين الذين قَبِل برأيهم على كُره منه. أما هو فلم يكن يهتم إلا بالدور الذي عيّنه لنفسه. وكما يقع غالباً للناس الذين أوتوا خيالاً متوقداً، فإنه كان يعلم منذ زمن طويل أن موسكو ستُهجر، لكنه لم يكن يعلم ذلك إلا بالمحاكمة العقلية، وكان يرفض تصديق ذلك والانتقال بخياله إلى هذا الوضع الجديد.

لم يتجه نشاطه المضطرم القوي (أما إلى أي حد كان هذا النشاط نافعاً وهل أثر في الشعب فتلك مسألة أخرى) إلا إلى أن يوقظ في الشعب

الشعور الذي يستشعره هو نفسه: الحقد الوطني على الفرنسيين والثقة بالذات.

لكن عندما أخذ الحدث أبعاده التاريخية الحقيقية، وعندما بدا أن المجاهرة الكلامية بالحقد على الفرنسيين غير كافية، وعندما أصبح متعذراً إظهار هذا الحقد في معركة، وعندما غدت الثقة بالذات عديمة الأثر فيما يتصل بمسألة موسكو إذا نظر إليها منعزلة عن غيرها، وعندما ترك السكان بأسرهم أرزاقهم، كالرجل الواحد، وانساحوا إلى خارج موسكو، مدللين بذلك الفعل السلبي على كل قوة الشعور القومي، عند ذلك تبين فجأة أن الدور الذي اختاره «روستو بتشين» مخالف للعقل والمنطق. وأحس بنفسه وحيداً، ضعيفاً، مثيراً للسخرية، محروماً من أي سند يسنده.

حين أوقظ من نومه ليتلقى بطاقة «كوتوزوف» الجافة، الآمرة، اغتاظ، وزاد من غيظه شعوره بأنه مذنب. فكل ما عهد به إليه، كل أملاك الدولة التي كان يجب عليه إجلاؤها، كل ذلك بقي في موسكو، وغدا مستحيلاً إجلاؤه كله.

أخذ يفكر: «إذا كنا قد وصلنا إلى هذا الحد، فعلى من يقع الذنب؟ من المؤكد أنه لا يقع علي. فأنا أعددت كل شيء، وأمسكت موسكو بقبضتي! ثم ها نحن أولاء نصل إلى هذا الحد! يا للحقراء، الخونة!» قال هذا دون أن يحدد في فكره مَن الحقراء والخونة، وإن كان يحس بالحاجة إلى كره هؤلاء الخونة المجهولين الذين جروه إلى هذا الوضع الخاطئ المثير للسخرية.

ظل الكونت «روستو بتشين» طوال الليل يصدر الأوامر التي كانت تطلب إليه من جميع أرجاء موسكو. ولم تره بطانته قط في مثل هذا الكلوح والهياج.

كانت الأسئلة تنهال عليه طوال الليل، دون انقطاع: يا صاحب السعادة، جاؤوا يسألون عن أوامرك، من قبل إدارة الأملاك العامة، من قبل المجمع الكنسي، من قبل مجلس الشيوخ(١)، من قبل الجامعة، من قبل الميتم، أرسل النائب الأسقفي رسولاً... إنهم يسألون... ما أوامرك بصدد رجال المطافئ؟ مدير السجن.. مدير مصح المجانين.

كان يجيب عن هذه الأسئلة جميعاً بأجوبة مقتضية، ساخطة، تظهر أن أوامره غدت بلا جدوى، وأن عمله الذي أعده بعناية فائقة قد خرّبه أحد المخربين، وأن هذا المخرب يتحمل كامل المسؤولية عما سيقع.

أجاب عن سؤال دائرة الأملاك العامة:

– قل لهذا الغبي أن يبقى ليحرس أوراقه البالية.

وقال بصدد رجال المطافئ:

– لَمَ هذه الأسئلة الغبية؟ إن لهم خيولهم، فليذهبوا بها إلى «فلاديمَير»(٢). لن تترك هذه الخيول للفرنسيين، على كل حال.

– يا صاحب السعادة، مدير مصح المجانين هنا، ماذا نقول له؟

– ماذا تقولون له؟ أن يرحلوا، هذا كل شيء... وليطلقوا المجانين في المدينة. عندما يقود المجانين الجيوش في بلادنا فإن الله ذاته يأمر بالإفراج عن مجانين المصحات.

١– كان هناك هيئتان في مجلس الشيوخ تجتمعان في موسكو في الكريملين بوصفهما محكمة التمييز العليا.

٢– فلاديمير مدينة من مدن المقاطعات على ٣٠٠ كم شرقي موسكو، عاصمة روسيا الكبرى في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

ورداً على سؤال بصدد المساجين المقيدين بالحديد، صرخ الكونت بمدير السجن وقد هاج هائجه:

– هل ينبغي أن أقدم لك كتيبتين لحراستهم، كتيبتين لا نملكهما؟ أخل سبيلهم، هذا كل شيء!

– يا صاحب السعادة، إن بينهم مساجين سياسيين: «ميشكوف» و«فيريستشاجين»...

فصرخ الكونت:

– «فيريستشاجين»! ألم يشنق بعد؟

***

الفصل الخامس والعشرون

حوالي الساعة التاسعة صباحاً، في حين كانت القطعات تجتاز موسكو، كف الناس عن سؤال الكونت أوامره. فكل الذين بمقدورهم أن يذهبوا كانوا يذهبون بوسائلهم الخاصة، أما الذين مكثوا فكانوا يقررون بأنفسهم ما ينبغي أن يفعلوه.

أمر الكونت بأن تعد له عربة ليذهب إلى «سكولنيكي» وكان ينتظر في مكتبه، مكفهراً، واجماً، ويداه مضمومتان على ركبتيه.

يعتقد كل حاكم إداري، في زمن الأمـن، أن بقاء الأهلين الذين أوكل أمرهم إليه رهين بجهوده وحدها، وهو يجد في يقينه أنه لا غنى عنه خير ثواب على أتعابه وجهوده. ومادام محيط التاريخ هادئاً، فمن المفهوم أن يعتقد الحاكم الإداري -الربان الذي يتكئ بعصاه من زورقه المتداعي، على مركب الدولة، أن هذا المركب الذي اتكئ عليه إنما يتقدم بجهوده وحده. لكن يكفي أن تهبّ العاصفة، وأن يثور البحر الذي يجرف المركب، حتى يغدو ذلك الوهم متعذراً. إذ تتابع السفينة سيرها مهيبة، مستقلة، وتعجز عصا الربان عن أن تطولها، ويسقط الربان من مركز القائد، وهو مصدر قوته، إلى مركز الرجل الواهن، المستضعف الذي لا غناء فيه.

كان «روستوبتشين» يحس بذلك، وهذا ما كان يثير غضبه.

دخل قائد الشرطة، هذا الذي استوقفه الجمهور، والمساعد العسكري الذي جاء يعلن أن العربة جاهزة، معاً مكتب الكونت. كان كلاهما شاحباً وقد أعلن قائد الشرطة، بعد أن أوضح أن مهمته قضيت، أن جمهوراً غفيراً تجمع في الفناء وهو يريد مقابلة الكونت.

نهض «روستوبتشين» دون أن ينبس بكلمة، ومضى بخطوات حثيثة إلى صالة فخمة مضاءة واقترب من باب الشرفة، وأمسك بمقبضه ثم أرخاه وذهب إلى نافذة أخرى يمكن رؤية الجمهور منها. كان الفتى الطويل يقف في الصفوف يقف في الصفوف الأولى، وكان بوجهه القاسي، يتحدث وهو يلوّح بيديه. وكان الحداد المدمى إلى جنبه، مكفهر الوجه. ومن النوافذ المغلقة، ترامى إليه دوي الأصوات.

سأل «روستوبتشين» مساعده العسكري وهو يترك النافذة:

– هل العربة جاهزة؟

فرد المساعد العسكري:

– نعم، يا صاحب السعادة.

ثم عاد «روستوبتشين» إلى باب الشرفة وسأل قائد الشرطة: – لكن ماذا يريدون؟

– يقولون، يا صاحب السعادة، إنهم تجمعوا ليزحفوا على الفرنسيين حسب أوامركم، وهم يصيحون بأنهم كانوا ضحية الخيانة. لكن الجمهور هائج، ولم أنج منه إلا بشق النفس، يا صاحب السعادة. وإذا سمحت لي، يا صاحب السعادة، أن أقترح عليك...

فصرخ «روستوبتشين» بغضب:

– تفضل بالانصراف، أعرف بدونك ما الذي ينبغي أن أفعله.

كان يقف عند باب الشرفة شاخصاً إلى الجمهور، يفكر: «هكذا هو ما فعلوه بروسيا! هذا هو ما فعلوه بي! وأحس بغضب عات يثور فيه على ذاك الذي يمكن أن تلقى عليه تبعة ما جرى. وكما يحدث غالباً للأشخاص النزقين، فإن الغضب تملكه، لكنه كان يبحث عن غرض لغضبه. قال في نفسه وهو ينظر إلى الجمهور:

«هؤلاء هم الرعاع، حثالة الشعب» وقال في نفسه وهو ينظر إلى الفتى الذي كان يلوّح بيديه: «هذه هي الدهماء التي أثاروها بحماقاتهم، إنها بحاجة إلى ضحية».

وإذا كان ذلك قد مر بباله، فذلك لأنه هو نفسه كان بحاجة إلى ضحية، إلى هذا الغرض لغضبه. وكرر:

– هل العربة جاهزة؟

فأجاب المساعد العسكري:

– نعم، يا صاحب السعادة. ما هي أوامرك بشأن «فيريستشاجين»؟ إنه ينتظر عند الدرج.

فهتف «روستوبتشين» وكأنما صدمته ذكرى مفاجئة:

– آه!

وفتح الباب بقوة، وخرج بخطوات ثابتة إلى الشرفة. فصمتت الأصوات دفعة واحدة، وحسرت الرؤوس واتجهت الأنظار إلى الكونت قال بسرعة وبصوت مرتفع:

– مرحباً، يا أولادي. شكراً على مجيئكم. سأنزل إليكم بعد قليل.

لكننا ينبغي أن نسوي حساب المجرم، قبل ذلك. يجب أن نعاقب الأثيم المسؤول عن ضياع موسكو. انتظروني! وعاد الكونت إلى الداخل بالسرعة التي خرج بها، وهو يصفق الباب.

سرت في الجمهور همهمة الرضى. وكانوا يقولون وكأنما يلوم بعضهم بعضاً على ما أصابهم من ضعف الايمان: «وإذن فهو يريد تصفية حساب الآثمين جميعاً! وأنت لقد قلت أنه فرنسي... سيذيقهم سوء العذاب!».

في مدى بضع دقائق، خرج ضابط من الباب الكبير مستعجلاً وأمر الفرسان بالاستعداد. تقدّم الجمهور بلهفة من الشرفة إلى درج المدخل. وخرج «روستوبتشين» بخطوات سريعة، نزقة، وألقى نظرة عجلى حوله كأنه يبحث عن أحد الأشخاص، وسأل:

- أين هو؟

وفي اللحظة نفسها لمح في زاوية البيت شاباً بين جنديين، طويل العنق، دقيقه، حلق نصف رأسه وبدأ الشعر ينمو عليه من جديد. وكان يرتدي معطفاً مبطناً بفرو الثعلب ومغطى بجوخ أزرق، رثاً، ولاشك أنه كان أنيقاً من قبل، أما سرواله فكانت وسخة، مصنوعة من القنب، مما يلبسه السجناء، وقد أدخل طرفيها في فتحتي الجزمة الدقيقة، البالية القذرة، وكانت السلاسل الثقيلة التي تعرقل ساقيه الدقيقتين تجعل مشيته كالمترددة.

قال «روستوبتشين» وهو يحوّل بصره بسرعة عن الشاب ذي الفروة، ويشير إلى آخر درجة من الدرج:

- آه! خذوه إلى هناك!

صعد الشاب إلى الدرجة المشار إليها، في قعقعة السلاسل، وهو يدخل إصبعه في ياقة الفروة التي كانت تضغطه، وأدار عنقه الطويل مرتين، وشبك، وهو يتنهد، يديه النحيلتين اللتين لم تتعودا العمل على صدره في حركة تدل على الإذعان والتسليم.

دام الصمت بضع ثوان، في حين كان الشاب يقف على الدرجة، ولم يقطعه سوى زفرات وهزّات ووطء أقدام في الصفوف الخلفية التي كانت تتدافع.

كان «روستوبتشين» يمسح وجهه بيده ويقطب حاجبيه، وهو ينتظر وقوف الشاب على الدرجة المطلوبة.

قال بصوت معدني رنان:

– يا أولادي! هذا الرجل هو «فيريستشاجين»، السافل الذي كان سبباً في ضياع موسكو.

ظل الرجل ذو الفروة في وضعه المذعن المسلم، يداه مشبوكتان على صدره وقد تقوّس ظهره قليلاً، وأطرق وجهه الفتي، المهزول، الذي بدت عليه دلائل القنوط، والذي شوّهته تلك الجمجمة الحليقة. وما إن بدأ الكونت كلامه حتى رفع رأسه ببطء وصعّد فيه نظره كأنه يريد أن يقول له شيئاً أو كأنه يريد أن تلتقي نظراتهما، على الأقل. لكن «روستوبتشين» لم ينظر إليه. وعلى طول عنق الشاب الدقيق، خلف الأذن، ازرق عرق وبدا ناتئاً كالحبل، واحمرّ وجهه فجأة.

كانت الأنظار شاخصة إليه. نظر إلى الجمهور، وابتسم ابتسامة حزينة، وجلة كأنما تشجع بما قرأه على وجوه الناس من تعبير، ثم عاد فخفض رأسه ووقف منتصباً على الدرجة.

قال «روستوبتشين» بصوت مستو، قاس، وهو يحط بصره على الشاب الذي استمر في وقفته المذعنة:

- لقد خان قيصره ووطنه والتحق ببونابرت، وهو الروسي الوحيد الذي دنّس شرف الاسم الروسي، وبسبب خطيئته إنما ضاعت موسكو.

وكأنما أخرجه وضع الرجل عن طوره، فصرخ، وهو يرفع يده ويخاطب الجمهور:

- عاقبوه بأنفسكم، فأنا أسلمكم إياه!

صمت الجمهور واكتفى بأن أخذ يرص صفوفه رصاً أوثق. وقد غدا شيئاً لا يطاق أن يقفوا متراصين بعضهم بجنب بعض، يتنفسون هذا الهواء الخانق الفاسد، عاجزين عن الحركة، ينتظرون شيئاً مجهولاً، مستعصياً على الفهم، رهيباً. كان الذين في الصفوف الأولى، يرون ويسمعون كل ما يجري، مذعوري النظرات، جاحظي الأعين، فاغري الأفواه، صامدين بكل قواهم لدفع الذين كانوا في الخلف.

صرخ «روستوبتشين»:

- اضربوه!... الموت للخائن وليتخلص الاسم الروسي من العار الذي لحقه! اضربوه بسيوفكم! إني آمر بذلك!

تأوه الجمهور وتقدم، وهو يسمع نبرة الغضب التي رافقت كلمات «روستوبتشين» دون الكلمات ذاتها، لكنه عاد فتوقف.

نطق «فيريستشاغين»، في الصمت الذي خيم لحظة، بصوت وجل ومسرحي:

- كونت! الله وحده يحكم بيننا...

ورفع رأسه وانتفخ، مرة أخرى، العرق الضخم على عنقه الدقيق، واحمر وجهه ثم شحب. ولم يتم ما كان ينوي أن يقوله.

صرخ «روستوبتشين» وقد غدا وجهه فجأة شاحباً كوجه «فيريستشاغين»:

- اضربوه بسيوفكم! إني آمر بذلك!

استل الضابط سيفه وأمر جنوده:

- استلوا سيوفكم!

أثارت الجمهور موجة أقوى امتدت إلى الصفوف الأولى، وحملت أوائلها، وهي تترنح، حتى درجات المدخل. وألقى الفتى الطويل نفسه إلى جنب «فيريستشاغين»، وقد تحجر وجهه ورفع يده.

قال الضابط لجنوده همساً:

- اضربوه بسيوفكم!

عمد واحد منهم شوه وجهه الغضب إلى ضربه بصفحة السيف على رأسه.

هتف «فيريستشاجين» بكلمة واحدة وبصوت ذاهل: «آه»، وهو يلقي نظرة مذعورة كأنه لم يفهم لِمَ يفعلون ذلك به. وسرت في الجمهور أنة الذهول والخوف نفسها.

وتأوه أحدهم بحزن: «أوه! يا ربي!».

ولكن بعد آهة الذهول تلك، أطلق «فيريتشاجين» أنة الألم، فكانت هذه الصرخة مدعاة إلى هلاكه. ذلك أن عاطفة الشفقةالتي توترت إلى

أقصى حد والتي كانت ترد الجمهور عنه، انهارت فجأة كما ينهار السد. لقد بدأت الجريمة ولابد من المضي فيها إلى نهايتها. وغرقت أنة اللوم في هدير الجمهور المتوعد المليء بالغضب. وكما تبتلع الموجة السابعة والأخيرة باخرة، فكذلك انطلقت هذه الموجة الأخيرة العاتية من الصفوف الأخيرة وجرت إلى الصفوف الأمامية وغمرتها وابتلعت كل شيء. أراد الجندي الذي ضربه الضربة الأولى أن يعيد ضربه أيضاً. لكن «فيريستشاجين» أطلق صرخة رعب وألقى بنفسه على الجمهور ويداه على وجهه. فأنشب الفتى الطويل الذي اصطدم به يديه في عنقه الدقيق وتدحرج معه، وهو يصرخ صراخاً وحشياً، تحت أقدام الجمهور الذي كان يحاصرهما وهو يزعق.

كان بعضهم يضرب «فيريستشاجين» ويهشمه، بينما راح الآخرون يضربون الفتى الطويل. وكان صراخ الذين خنقهم الزحام والذين يحاولون إنقاذ الفتى الطويل لا يني يفاقم من الهياج العام. و لم يخلص الجنود العامل المدمى الذي كاد يموت من الضرب إلا بشق النفس. وبالرغم من السرعة المحمومة التي لجأ إليها الجمهور لإنهاء العمل الذي شرع به، فإن الذين كانوا يضربون «فيريستشاجين» ويخنقونه ويهشمونه ظلوا زمناً طويلاً دون أن يفلحوا في قتله؛ كان الناس يحثونهم من كل صوب، لكنهم كانوا كالكتلة المتراصة، يترنحون ويتهادون، فلا يستطيعون القضاء عليه ولا يستطيعون إرخاءه.

«حسبه ضربة بلطة!... ليسحق... الخائن، يهوذا!... إنه مايزال حيا... من الصعب أن يموت... لقد استحق الوغد هذا العقاب... أما يزال حياً؟».

لم يتنح الجمهور عن الجثة المدماة الراقدة على الأرض إلا بعد أن كفت الضحية عن التخبط وحلت الحشرجة الطويلة المنتظمة محل

صرخاته. كان كل واحد يقترب ويلقي نظرة عجلى على ما قد تم، ثم ينسحب وقد تملكه الهول والاستنكار والدهشة.

كان الناس في الجمهور يرددون: «أوه! يا إلهي، الناس كالحيوانات المفترسة، فكيف يمكن أن يظل حيا! كان فتى يافعاً.. لاشك أن أسرته من التجار، هذه هي حال الناس!... يقال إن الجاني غير هذا... كيف لا يكون هذا... أوه! يا إلهي!... والآخر الذي ضُربَ، يبدو أنه نصف ميت... إيه! الناس... من لا يخاف الخطيئة...».

هذا ما كان يقوله الناس أنفسهم وهم يتأملون بشفقة متوجعة نطقت بها وجوههم الجثة بوجهها المزرق الملطخ بالدم والغبار، والعنق الطويل، الدقيق، المهشم.

رأى شرطي شديد الغيرة أن وجود جثة في فناء صاحب السعادة أمر غير مقبول فأمر الجنود بجرها إلى الشارع. أمسك جنديان بساقيه المحطمتين وجرا الجسد إلى الخارج. كان الرأس الميت الحليق، الملطخ بالدم والغبار، العالق بعنقه الطويل، يثب ويخبط الأرض. وكان الجمهور يعرض عن الجثة.

في اللحظة التي سقط فيها «فيريستشاجين»، حين كان الجمهور يزدحم وهو يزمجر زمجرة وحشية، ويضطرب فوقه، شحب «روستوبتشين» فجأة، وبدلاً من أن يذهب إلى الدرج الخلفي حيث كانت تنتظره عربته، سار حثيث الخطوات، مطرق الرأس، دون أن يعلم إلى أين يذهب ولماذا يذهب، في الممر الذي يفضي إلى غرف الدور الأرضي. كان وجه الكونت شاحباً ولم يستطع أن يدفع الارتجاف عن فكه الأسفل.

قال صوت مرتجف خائف خلفه:

– من هنا، يا صاحب السعادة... أين تذهب؟... من هنا، إذا سمحت.

كان الكونت «روستوبتشين» عاجزاً عن الجواب، فعاد أدراجه منصاعاً، وسار في الوجهة التي عينها له صاحب الصوت. كانت عربته تقف أمام درج الخدم، وكان هدير الجمهور البعيد ما يزال يسمع أيضاً. صعد «روستوبتشين» على عجل إلى عربته وأمر حوذيه بالذهاب إلى بيته الريفي في «سوكولنيكي». حتى إذا بلغ شارع «ميازنيتسكايا» وغابت عنه صرخات الجمهور، عضه الندم. لقد تذكر باستياء الاضطراب والخوف اللذين بدرا منه أمام مرؤوسيه.

فقال في نفسه بالفرنسية: «الرعاع رهيبون، بشعون، إنهم كالذئاب التي لا يمكن تهدئتها إلا باللحم». وعادت إلى ذاكرته فجأة كلمات «فيرستشاجين» فسرى في ظهره إحساس مؤذ من البرد. لكن هذا الإحساس كان خاطفاً فابتسم ابتسامة مزدرية لذاته. وفكر في نفسه: «كانت لدي واجبات أخرى، وكان لابد من تهدئة الشعب. إن كثيراً من الضحايا هلكت في سبيل المصلحة العامة». وفكر في الواجبات الملقاة على عاتقه إزاء أسرته وعاصمته (الموكلة إليه) وإزاء نفسه، لا من حيث هو «فيدور فاسيليفتش روستوبتشين»، (كان يعتقد أن فيدور فاسيليفتش كان يضحك بنفسه في سبيل المصلحة العامة)، بل من حيث هو حاكم عام، ممثل للسلطة ومندوب للقيصر. «لو لم أكن إلا «فيدور فاسيليفتش» لتغير خط سلوكي، لكن علي أن أنقذ حياة الحاكم وكرامته».

كان «روستوبتشين» يتهادى مسترخياً على نوابض العربة المرنة وقد انقطعت ضوضاء الجمهور المرعبة عن سمعه، فهدأ جسدياً، وفي الوقت نفسه الذي وجد فيه أسباب الهدوء الجسدي، قدم له فكره

أسباب الهدوء النفسي، كما هي الحال دائماً. والفكرة التي أدخلت الطمأنينة إلى نفسه لم تكن جديدة. فمنذ أن كان الكون، ومنذ أن اقتتل الناس لم يرتكب إنسان جرماً بحق أخيه الإنسان إلا وجد الهدوء في تلك الفكرة. والفكرة هي فكر المصلحة العامة، سعادة الآخرين.

إن هذه المصلحة تظل مجهولة أبداً عند الإنسان الذي لا يضله هواه؛ أما الإنسان الذي يرتكب جريمة فهو يعلم حق العلم دائماً كنه هذه المصلحة وقوامها. وكان «روستوبتشين» يعلم ذلك الآن.

حين كان «روستوبتشين» يفكر في ذلك، لم يمتنع عن لومه نفسه فحسب، بل إنه كان يجد دواعي الرضى عن ذاته لأنه عرف كيف ينتفع من الوضع في الوقت المناسب:

معاقبة المجرم مع تهدئة الجمهور.

كان «روستوبتشين» يفكر: «لقد حوكم «فيريستشاجين» وحكم عليه بالموت (مع أن مجلس الشيوخ لم يحكم عليه بغير الأشغال الشاقة). كان خائناً، و لم يكن بوسعي أن أدعه بدون عقاب، ثم إني ضربت بحجر واحد عصفورين. سلمت ضحية للجمهور من أجل تهدئته وعاقبت مجرماً».

وعندما وصل إلى بيته الريفي واستغرقته التدابير التي عليه أن يتخذها، استعاد هدوءه نهائياً.

بعد نصف ساعة، كان يجتاز سهل «سوكولنيكي» خبباً، بخيل سراع، لا يفكر بما جرى ولا يخطر بباله سوى المستقبل. كان يقصد الآن جسر «إياوزا» حيث «كوتوزوف» كما قيل له. وكان يعد في خياله انتقادات سامة ومفعمة بالغضب سيوجهها إلى «كوتوزوف»

لأنه خدعه. سيشعر هذا الثعلب العجوز المداهن أن مسؤولية جميع المصائب التي نجمت عن ترك العاصمة، عن ضياع روسيا (كما كان يعتقد) تقع على رأسه العتيق الخرف. كان «روستوبتشين» يتقلب بغضب في عربته وهو ينعم الفكر فيما سيقوله، ويلقي حواليه نظرات تتلظى سخطاً.

كان سهل «سوكولنيكي» مقفراً، إلا في الطرف الآخر حيث شاهد، قرب مأوى العجزة ومصح المجانين، جماعات بثياب بيضاء، وبعض الأفراد المشابهين الذين كانوا يمشون منفردين خلال الحقول وهم يصرخون ويلوحون بأيديهم.

ركض أحدهم وسد الطريق في وجه عربة الكونت «روستوبتشين». فنظر الكونت نفسه وحوذيه وجنود الحراسة إلى هؤلاء المجانين الذين أخلي سبيلهم، ولاسيما إلى ذلك المجنون الذي ركض نحوهم، بشعور يختلط فيه الرعب والفضول. كان هذا المجنون يركض بكل قوته مترنحاً على ساقيه الطويلتين الهزيلتين، في مبذله الفضفاض، دون أن يرفع بصره عن «روستوبتشين»، وهو يصرخ بصوته الأجش مشيراً إليه بالوقوف. كان وجهه المكفهر المهيب الذي تناثرت فيه خصل من شعر نحيلاً أصفر. وكانت عيناه السوداوان كالسبج تنتقلان على الأرض، قلقتين، وبياضهما كلون الزعفران.

كان يصرخ بصوت ثاقب، ثم أخذ يزعق، وهو يلهث، بنبرات وحركات آمرة:

– قف! قف! قلت لك: قف!

ووصل إلى حذاء العربة وأخذ يركض بجنبها ويصيح بصوت يعلو شيئاً فشيئاً:

- ثلاث مرات قتلوني، وثلاث مرات قمت من بين الأموات. لقد رجموني وصلبوني... وسأبعث حياً... سأبعث حياً، سأبعث حياً. لقد مزقوا جسدي. ستنهار مملكة الرب... سأهدمها ثلاث مرات وسأقيمها ثلاث مرات. امتقع وجه الكونت «روستوبتشين» فجأة كما امتقع عندما انهال الجمهور على «فيريستشاجين». وأشاح بوجهه وأمر حوذيه صارخاً بصوت مرتجف:

- أسرع... أسرع!

جرت العربة بأقصى سرعتها، لكن الكونت «روستوبتشين»ظل زمناً طويلاً يسمع وراءه الزعاق الذي ينأى ويرى أمام عينيه الوجه المدمى، الذاهل، الخائف، وجه الخائن المرتدي فروة الثعلب.

كان «روستوبتشين» يحس الآن أن هذه الذكرى، وإن كانت غضة، غدت منقوشة في أعماق قلبه، حتى الدم. كان يحس أن الأثر الدامي لهذه الذكرى لن يُمحى أبداً، بل لقد كان يحس أن هذه الذكرى ستغدو أشد حيوية وفظاظة كلما تقدمت به السن، إلى آخر أيامه. كان يخيل إليه أنه يسمع صوت ألفاظه ذاتها: «اضربوه بالسيف، أنتم مسؤولون عنه برؤوسكم!» -» لَمَ قلت هذه الكلمات! قلتها بالرغم مني... كان بوسعي ألا أقولها (كذَلك كان يفكر): إذن لما وقع شيء». رأى وجه الجندي الذي ضربه الضربة الأولى مروعاً ثم رآه يتلظى غضباً، ورأى نظرة اللوم الصامتة، الوجلة التي رماه بها الفتى ذو فرو الثعلب. وفكر في نفسه: «لكني لم أقدم على ذلك من أجل نفسي. كان لابد من أن أتصرف على هذ النحو. الدهماء، الخائن... المصلحة العامة.

كان القطعات تزدحم عند جسر «اياوزا». وكان الحر شديد. كان كوتوزوف، متجهماً، مغتماً، جالساً على مقعد قرب الجسر يخط على

الرمال بطرف سوطه عندما وصلت عربة في قرقعة صاخبة. دنا منه رجل في بزة الجنرال، يضع على رأسه قبعة ذات ريش، زائغ النظرة عن خوف أو عن غضب، وحدثه بالفرنسية. كان هذا هو الكونت «روستوبتشين». قال لكوتوزوف: إنه يجيء إلى هنا لأنه لم يبق ما يسمى عاصمة أو موسكو وأنه لم يبق سوى الجيش. وقال:

– لو لم تقل لي سموك أن موسكو لن تخلى بدون قتال لاختلف الأمر ولما وقع شيء من ذلك كله.

نظر إليه «كوتوزوف» وكأنه لم يفهم معنى كلماته فحاول جاهداً أن يقرأ على وجه الرجل شيئاً خاصاً مكتوباً عليه في هذه اللحظة. فاضطرب «روستوبتشين» وصمت. وهز كوتوزوف رأسه هزاً خفيفاً، وقال بهدوء دون أن يحول عنه نظرته السابرة:

– لا، لن أسلم موسكو بدون قتال.

أكان «كوتوزوف» يفكر في شيء آخر وهو يقول هذه الكلمات، أم أنه كان يقول ذلك عمداً وهو يعلم أنها عارية من المعنى؟ لم يُجِب الكونت «روستوبتشين» بشيء وابتعد مسرعاً. ثم جرى أمر غريب، ذلك أن الحاكم العام لموسكو، الكونت المتكبر «روستوبتشين» اقترب من الجسر وهو يحمل بيده سوطاً، وراح يفرق العربات التي تكدست عليه وهو يصرخ صراخاً عالياً.

***

الفصل السادس والعشرون

في الساعة الرابعة بعد الظهر، دخلت قطعات «مورا» موسكو، وعلى رأسها مفرزة من الفرسان الورتمبرجيين، وخلف هذه المفرزة جاء ملك نابولي بشخصه يمتطي جواداً وتحيط به حاشية كبيرة.

توقف «مورا» عند وسط الإربات لينتظر تقرير المقدمة عن حالة حصن المدينة، «الكريملين».

تجمع حول «مورا» نفر من الأهلين الباقين في موسكو. كانوا جميعاً يتأملون بحيرة وجلة هذا القائد الغريب ذا الشعر الطويل، المزدان بالريش والذهب. وكانوا يقولون بصوت خافت:

– أهذا قيصرهم؟ لا بأس به.

اقترب من الجماعة مترجم فقال كل واحد لجاره:

– ارفع قبعتك... قبعتك.

خاطب المترجم بواباً عجوزاً وسأله إن كان الكريملين بعيداً: فأصغى البواب وهو حائر، إلى لهجته البولونية، ولما لم يجد لغته روسية خالصة أصغى دون أن يفهم ما يقال وتوارى خلف الآخرين.

اقترب «مورا» من المترجم وأمره أن يسأل: أين الجيش الروسي.

وفهم أحد الروس السؤال فأجابت المترجم عدة أصوات فجأة ثم أقبل على «مورا» ضابط من المقدمة ليعلن له أن أبواب الحصن مسدودة وأن هناك كميناً، من غير شك.

قال «مورا» وهو يخاطب أحد ضباط حاشيته:

– حسناً.

وأمر أن تتقدم أربعة مدافع خفيفة لضرب الأبواب.

انفصلت المدافع عن الرتل الذي كان يتبع «مورا» ومضت خبباً بحذاء «الآربات». وعندما وصلت إلى أسفل «فوزدفيجنكا» توقفت واصطفت ووضعها بعض الضباط الفرنسيين في مواضع ملائمة وفحصوا الكريملين بالمنظار المقرب.

كانت الأجراس في «الكريملين» تقرع لصلاة الغروب، وكان صوتها مدعاة لاضطراب الفرنسيين إذ ظنوه دعوة إلى حمل السلاح ركض بعض جنود المشاة نحو باب «كوتافيا». كانت الألواح والجسور الخشبية تحصّن الباب كالمتراس. انطلقت طلقتا بندقية عندما هجم الضابط وجنوده. صرخ الجنرال الذي كان يقف قرب المدافع آمراً الضابط الذي عاد إلى الوراء وهو يركض مع جنوده.

وانطلقت من الباب ثلاث طلقات أخرى.

أصابت إحداها جندياً فرنسياً في ساقه وارتفعت من خلف المتراس صرخات غريبة. فارتسمت على وجه الجنرال ووجوه الضباط والجنود، في الوقت نفسه، وكأنهم ينفذون إيعازاً، أمارات العناء والانقباض التي تلوح على وجوه الذين يستعدون للقتال والألم بدلاً من أمارات البهجة والطمأنينة. لم يكن هذا المكان، بالنسبة إليهم، من المارشال إلى

آخر جندي، «فوزفيجنكا» ولا «موكوفايا» ولا أبواب «كوتافيا» أو «ترينيه»، وإنما كان ميداناً لمعركة جديدة، معركة دامية بلاشك، تهيأ لها الجميع. صمتت الصيحات خلف الباب، وقدمت المدافع ونفخ المدفعيون على الفتيل وأمر الضابط: نار! فانطلقت قذيفتان من قذائف الشظايا الواحدة تلو الأخرى وهما تصفران. وتفرقت شظايا الحديد على أحجار الباب والجسور والألواح، وارتفعت فوق المكان سحابتان من الدخان.

بعد لحظات من خمود دوي القذيفتين على طول سور الكريملين، علت ضجة غريبة فوق رأس الفرنسيين. ذلك أن سرباً هائلاً من غربان الزرع طارت من الجدران وهي تنعب وتصفق بآلاف الأجنحة، وتحوم في الفضاء. وفي الوقت نفسه، دوّتْ صرخة بشرية منعزلة عند الباب، وبدا، من خلال الدخان، شبح إنسان عاري الرأس، يرتدي قفطاناً، وبيده بندقية كان يسددها على الفرنسيين. ردد ضابط المدفعية: نار! فانطلقت طلقة بندقية وقذيفتا مدفع معاً. وغطى الدخان الباب ثانية.

لم تبق خلف المتراس حركة واقترب المشاة الفرنسيون منه مع ضباطهم. كان، عند الباب، ثلاثة جرحى وأربعة قتلى. وفر رجلان يلبسان قفطانين نحو «زنامنكا»؛ بحذاء الجدران.

قال الضابط وهو يشير إلى الجسور والجثث:

– ارفعو هذا من وجهي.

بعد أن أجهز الفرنسيون على الجرحى رموا الجثث من فوق السور.

من كان هؤلاء؟ لم يكن يعلم ذلك أحد. «ارفعوا هذا من وجهي» هذا كل ما قيل بشأنهم، ورموا ثم نقلوا تفادياً للنتانة. «تيير» وحده

خصهم بهذه الأسطر البليغة: «أغار هؤلاء الأشقياء على القلعة المقدسة، واستولوا على البنادق من مخزن السلاح وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين. فضرب بعضهم بالسيف وطهر الكريملين منهم».

أخبر «مورا» أن الطريق غدت حرة. فعبر الفرنسيون الباب وعسكروا في ساحة مجلس الشيوخ. ألقى الجنود بالكراسي من نوافذ مجلس الشيوخ وأوقدوا بها ناراً.

عبرت الكريملين مفارز أخرى واتخذت مواقعلها في «ماروسيكا» و«لوبيانكا» و«بوكروفكا»، وعسكر آخرون في «فوزفيجنكا» و«زنامنكا» و«نيكولسكايا» و«تفيرسكانا». لم يكن الفرنسيون يقيمون، حيث لا يجدون الأهلين، في أحياء سكنية، بل في معسكرات واقعة في قلب المدينة.

دخل الفرنسيون موسكو بنظام مع أنهم كانوا في ثياب رثة، وقد عضهم الجوع وأعياهم التعب وفقدوا ثلثي عددهم. كان جيشاً بلغ به الجهد غايته لكنه كان جيشاً مقاتلاً، مرهوب الجانب. على أن هذا الجيش ظل جيشاً حتى اللحظة التي تفرق فيها الجنود في المنازل. فما إن بدأ هؤلاء الرجال ينتشرون في تلك المنازل الغنية الخالية حتى اختفى الجيش إلى الأبد، وغدا أفراده لا هم بالمدنيين ولا هم بالجنود وإنما غدوا شيئاً وسطاً يدعى عادة: النهابين. وعندما غادر هؤلاء الرجال أنفسهم موسكو، بعد خمسة أسابيع، لم يكونوا جيشاً. وإنما كانوا عصابة من النهابين يحمل كل واحد منهم، على ظهره أو على عربته، طائفة من الأشياء التي يظنها ثمينة أو مفيدة. كان هدف كل واحد من هؤلاء الرجال المحافظة على غنيمته وحدها، لا القتال والفتوحات، كما كان من قبل. فكما أن القرد الذي يدس يده في عنق الجرة لتناول كمية من الجوز يأبى أن يفتح قبضته حتى لا يسقط الجوز منها، فيورده طمعه موارد

الهلاك، كذلك كان الفرنسيون، عند خروجهم من موسكو، يردون مورد الهلاك لأنهم كانوا يجرون معهم أسلابهم ولا يستطيعون التخلي عنها كما لا يستطيع القرد التخلي عن قبضة الجوز. بعد عشر دقائق من دخول كل من هذه المفارز لحي من أحياء موسكو لم يكن يبقى شيء اسمه جنود وضباط. ففي نوافذ المنازل، كان الرجال يُرون بمعاطفهم ولفافاتهم وهم يتجولون في الغرف ضاحكين؛ بينما راح آخرون يستولون على المؤن في الأقبية؛ وراح غيرهم يفتحون ويحطمون أبواب العنابر والاسطبلات في الأفنية؛ أما في المطابخ فقد أشعلوا النار وشمروا عن سواعدهم وجعلوا يعجنون ويطهون ويطبخون، وهم يضحكون ويداعبون الأطفال والنساء ويملؤون قلوبهم، في الوقت نفسه، خوفاً. كان هؤلاء الناس كثيرين في كل مكان؛ على أنه لم يبق هنالك جيش.

في ذلك اليوم أصدرت القيادة الأوامر الواحد تلو الآخر لتمنع القطعات صراحة من الانتشار في المدينة، ومن النهب، ومن استخدام العنف مع الأهلين، وحددت المساء نفسه موعداً للتفقد العام؛ لكن بالرغم من جميع التدابير المتخذة جعل الرجال الذين كانوا بالأمس يُكوّنون الجيش، ينتشرون في هذه المدينة الغنية، المقفرة التي حفلت بوسائل الراحة وبالمؤن والثروات.

كان الجيش يرتع في هذه المدينة الغنية كما يرتع القطيع الجائع عندما يقع على المرعى الخصب بعد أن ظل زمناً في الحقول الجرداء.

كان سكان موسكو غائبين عنها وكان الجنود، كالماء على الرمال، يتسربون إليها وينتشرون فيها من كل صوب حول الكرملين الذي دخلوه أولاً انتشاراً لا سبيل إلى دفعه. وكان الخيالة إذا دخلوا بيتاً ثرياً مهجوراً بكل خيراته ووجدوا فيه إسطبلات تتسع لأكثر من خيولهم، لا يتوانون عن احتلال منزل مجاور بدا لهم أجمل. وكان الكثيرون يشغلون عدة

بيوت ويعلمونها بكتابة أسمائهم عليها بالحكك ويجادلون أفراداً من الوحدات الأخرى بسببها، وقد يصل الجدال بينهم إلى التشاجر بالأيدي. ولا يكاد يستقر المقام بالجنود حتى يهرعوا إلى الخارج ليزوروا المدينة فإذا علموا أن كل شيء مهجور اندفعوا إلى الأماكن التي يمكنهم نهب الأشياء الثمينة منها. وكان القادة يحاولون إيقاف الرجال لكنهم كانوا ينجرفون بالرغم منهم. ففي معرض العربات[1] كانت الحوانيت ملأى بالعربات وقد ازدحم الجنرالات حولها ينتقون منها العربات الكبيرة والصغيرة. وكان السكان الذين بقوا يدعون الضباط إلى بيوتهم آملين أن يحتموا بهم من النهب. وكانت الثروات وفيرة لا نهاية لها. فمن حول الأحياء التي كان يحتلها الفرنسيون أمكنة أخرى لم تكتشف، ولم تحتل، كانت الثروات فيها أوفر، بحسب اعتقادهم. ولذلك كانت موسكو تمتصهم شيئاً فشيئاً إلى أعماقها. وكما أن الماء، إذا صب على الأرض اليابسة، اختفى وأخفى معه الأرض اليابسة، كذلك ما إن دخل الجيش الجائع هذه المدينة الثرية، الفارغة، حتى اختفى هو وثراء المدينة، ولم يبق فيها سوى الوحل والحرائق والنهب.

كان الفرنسيون يعزون حريق موسكو إلى وطنية روستوبتشين المستعرة ويعزوه الروس إلى همجية الفرنسيين. ولكن لا شيء في الواقع يسمح أو كان يمكن أن يسمح بأن تعزى مسؤوليةالحريق إلى شخص أو عدد من الأشخاص. لقد احترقت موسكو لأنها وضعت فيه شروط لا يمكن إلا أن تحترق معها أية مدينة مبنية من الخشب، بغض النظر عن وجود مئة وثلاثين مضخة للحريق غير صالحة، أو غيابها. كان لابد لموسكو، إذ هجرها أهلها، من أن تحترق كما لابد من أن تشتعل كومة من نشارة الخشب يسقط عليها الشرار خلال عدة أيام. أن مدينة خشبية

١- معرض العربات: شارع قديم كانت تباع فيه العربات.

تشهد في كل يوم من أيام الصيف حريقاً، بالرغم من وجود الأهلين والشرطة، لا يمكن أن تنجو من الحريق عندما تكون خالية من أهليها، وعندما يحتلها جند يدخنون الغليون ويطعمون النار التي يشعلونها في ساحة مجلس الشيوخ كراسي ذلك المجلس، ويطهون مرتين في اليوم. يكفي، في زمن السلم، أن تتخذ القطعات مواقعها في قرى تلك المنطقة ليزداد في الحال عدد الحرائق فيها. فإلى أي حد ستزداد إذن فرص الحريق في مدينة مبنية من الخشب، مهجورة، يعسكر فيها جيش أجنبي؟

إن وطنية «روستوبتشين» الشرسة وهمجية الفرنسيين لا دخل لهما في ذلك. لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات وإهمال الجنود الأعداء، سكان البيوت دون أن يكونوا مالكين لها. وحتى لو كان هناك مشعلون للحريق (وهو أمر مشكوك فيه إذ ليس لأحد من داع يدعوه إلى إشعال النار، ثم إن الحريق على كل حال أمر عسير يحمل أخطاراً)، فلا يمكننا أن نلقي عليهم التبعة، لأن الحريق كان سيقع بدونهم.

ومهما رضي الفرنسيون عن اتهامهم لشراسة «روستوبتشين»، والروس عن اتهامهم لهذا الأثيم بونابرت، أو عن وضعه مشعلاً بطولياً بين يدي الشعب، فيما بعد، فمن المستحيل ألا نرى أن مثل هذه الأسباب المباشرة للحريق ما كان يمكن أن توجد، ذلك أنه كان لابد لموسكو من أن تحترق كما أنه لابد من أن تحترق كل قرية هجرها أصحابها وكل مصنع أو بيت هجرهما أصحابهما. إنما أحرق موسكو أهلوها، هذا صحيح، أهلوها الذين ارتحلوا لا الذين بقوا. إن موسكو التي احتلها العدو لم تبق سليمة مثل برلين أو فيينا أو مثل مدن أخرى، وما ذلك إلا لأن سكانها لم يأتوا ليقدموا مفاتيحها للفرنسيين مع الخبز والملح، وإنما ارتحلوا عنها.

***

الفصل السابع والعشرون

إن تسرّب الفرنسيين الذين انتشروا على شكل نجمة خلال موسكو أثناء الثاني من أيلول لم يبلغ الحي الذي غدا يسكنه بطرس إلا في المساء.

ألقى بطرس نفسه، بعد يومين من العزلة التي اكتنفتها ظروف شاذة، في حالة قريبة من الجنون. واستبدت بكيانه كله فكرة مستحوذة لم يكن يعلم متى جاءته وكيف جاءته، لكنها استولت عليه استيلاء حال بينه وبين تذكر الماضي وفهم الحاضر، وكان كل ما يراه ويسمعه يجري وكأنه في حلم.

لم ينصرف من بيته إلا ليفلت من تعقيدات الحياة ومن متطلباتها التي ألفى نفسه عالقاً بها، والتي كان عاجزاً عن حلها، في حالته آنذاك. وقصد إلى منزل «جوزيف أليكسيفتش» بحجة انتقاء كتب الفقيد وأوراقه وتصنيفها، والحقيقة أنه كان يسعى إلى الراحة من اضطراب الحياة وأن ذكرى «جوزيف أليكسيفتش» كانت مرتبطة، في نفسه، بعالم من الأفكار الخالدة، الوادعة، الجليلة، التي تناقض كل المناقضة تلك البلبلة المثيرة للقلق التي أحس أنه سيق إليها سوقاً. كان يلتمس ملجأ هادئاً فوجده حقاً في مكتب «جوزيف أليكسيفتش». وعندما جلس، في صمت الموت المخيم على المكتب، متكئاً بمرفقه على المكتب المغشى بالغبار، طافت بخياله ذكريات الأيام الأخيرة

الواحدة تلو الأخرى، هادئة ومثقلة بالمعاني، ولاسيما ذكريات معركة «بورودينو» وشعوره العاتي بالعدم وبالزيف، عدمه وزيفه هو، بالقياس إلى حقيقة أولئك الرجال الذين ثبتوا في ذهنه باسم «هم»، وإلى بساطتهم وقوتهم. وعندما جاء «جيراسيم» ينتشله من أفكاره، خطر بباله أن يشارك في الدفاع الشعبي عن موسكو الذي كان الأهلون يعتزمونه (في اعتقاده)، ولهذه الغاية طلب على الفور من «جيراسيم» أن يؤمن له الثياب والمسدس وأطلعه على نيته في إخفاء اسمه وفي البقاء في منزل «جوزيف الكسيفتش». ثم فكر مرة أخرى أثناء يومه الأول من العزلة والعطالة (حاول مراراً وبدون جدوى أن يركز انتباهه على المخطوطات الماسونية) تفكيراً مشوشاً في الدلالة الخفية لاسمه في ارتباطه باسم «بونابرت»؛ لكن هذه الفكرة التي مفادها أنه هو الروسي «بيزوهوف» قد قدر له أن يضع حداً لسلطان «الوحش»، لم تكن تخطر له إلا على شكل حلم من أحلام اليقظة التي تمر بالخيال دون داع ودون أن تترك فيه أثراً.

وعندما صادف آل «روستوف» بعد أن اشترى الثوب (اشتراه بقصد الاسهام في الدفاع الشعبي عن موسكو)، وعندما قالت له ناتاشا: «أتبقى؟ آه! ما أحسن هذا!» دار في خلده بمثل لمح البرق أنه قد يكون من الحسن حقاً، حتى لو كانت موسكو محتلة، أن يبقى فيها وأن يتم ما قُدّر عليه أن يتمه.

في اليوم التالي ذهب إلى حاجز «التلال الثلاثة» وليس له إلا مقصد واحد وهو ألا يكترث بسلامته وألا يسقط في عيونهم «هم». لكنه أحس فجأة، عندما عاد إلى البيت واثقاً من أن موسكو لن يدافع عنها، بأن ما بدا له حتى الآن احتمالاً ممكناً غدا ضرورة لا مناص منها. أن عليه أن يخفي اسمه وأن يمكث في موسكو وأن يلتقي نابليون وأن

يقتله، فإما أن يهلك هو نفسه وإما أن يضع حداً لمصيبة أوروبا بأسرها وهي مصيبة مردّها، في رأيه، إلى نابليون وحده.

كان بطرس يعرف جميع تفاصيل محاولة الاعتداء على حياة نابليون التي اقترفها طالب ألماني[1] في (فيينا) سنة ١٨٠٩، وكان يعلم أن هذا الطالب أعدم رمياً بالرصاص. وكان هذا الخطر الذي يُعرّض نفسه له لكي يؤدي مهمته يزيد من حماسته.

كان هناك عاطفتان متعادلتا القوة تشدان بطرس إلى مشروعه شداً لا سبيل إلى مقاومته. كانت الأولى إلى التضحية والآلام، الحاجة التي أوحت بها الكارثة العامة؛ هذه العاطفة هي التي ساقته، في الخامس والعشرين، إلى «موجايسك»، ورمت به في غمار المعركة ودفعته إلى هجران بيته الآن، عازفاً عن الترف وخفض العيش اللذين تعودّهما، لينام بثيابه على مقعد جاف وليقاسم «جيراسيم» طعامه؛ وكانت العاطفة الأخرى إحساساً غامضاً، روسياً على وجه الخصوص، إحساساً بالاحتقار لكل ما هو متواضع عليه، مصطنع، يومي، لكل ما يعتبره معظم الناس الخير الأعظم في هذا العالم. لقد عرف بطرس لأول مرة هذا الإحساس الغريب المثير في قصر «سلوبودوسكوي» عندما أحس فجأة أن الثروة والجاه والحياة، أن كل ما يسهر البشر على تنظيمه والمحافظة عليه، أن ذلك كله لا قيمة له إلا بالمتعة التي نستشعرها عندما نستطيع أن نتخلى عنه كله.

كان إحساسه نفس إحساس المتطوع الذي يبذل آخر فلوسه على الشراب، نفس إحساس الثمل الذي يحطم الزجاج من غير علّة ظاهرة

١- أطلق الطالب فريديريك ستاب في فيينا النار على نابليون في ١٢ تشرين، في عرض الشارع، لكنه أخطأه، وأعدم الطالب بعد خمسة أيام.

مع علمه بأن ذلك سيكلفه كل ما يملك من مال، وهو ذلك الإحساس الذي يدفع الإنسان إلى ارتكاب أعمال مجنونة (في نظر العامي)، وكأنه يريد أن يختبر قدرته وقوته في إثبات وجود محكمة عليا، مستقلة عن المواضعات البشرية، تحكم على الحياة.

منذ اليوم الذي أحس فيه بطرس للمرة الأولى في قصر «سلوبودوسكوي» بهذا الإحساس فإنه لم يفتأ يخضع لتأثيره، لكن لم يتسن له إشباعه كاملاً إلا في هذه الفترة فقط. وفوق ذلك، فإن ما فعله في هذا السبيل من قبل دعّم عزمه وجعل تراجعه مستحيلاً. ولو أنه ترك موسكو كما تركها الآخرون لما فقد فراره، وشراؤه الثياب والمسدس، وإعلامه آل «روستوف» أنه باق في موسكو، كل معنى فحسب بل لكان ذلك كله جديراً بالاحتقار والسخرية (وهو أمر كان بطرس شديد التأثر به).

كانت حالة بطرس الجسدية تتفق، كما يجري دائماً، وحالته النفسية. فالغذاء الثقيل الذي لم يألفه، والفودكا التي كان يشربها في هذه الأيام، والحرمان من الخمر والسيجار، وتعذر تغيير ثيابه الداخلية، والليلتان اللتان قضاهما على مقعد مفرط القصر دون فراش، كل ذلك أبقاه في حالة عصبية قريبة من الجنون.

في الساعة الثانية بعد الظهر، كان الفرنسيون قد دخلوا موسكو. وكان بطرس يعلم ذلك، لكنه بدلاً من أن يعمل كان يفكر في مشروعه فقط، مستعرضاً في ذهنه أدنى التفاصيل. ولم يكن يتصور، في أحلام يقظته هذه، تصوراً واضحاً كيف سيطلق النار ولم يكن يتصور موت نابليون، لكنه كان يتمثل بحدة فائقة واستمتاع حزين موته هو وشجاعته البطولية.

وفكّر: «نعم، أنا وحدي يجب أن أتم ذلك، من أجل الجميع، أو أموت! نعم، سأذهب... ثم فجأة... المسدس أم الخنجر؟ لا أهمية لذلك سأقول له (كان بطرس يفكر بالكلمات التي سيقولها وهو يقتل نابليون):

يد العناية الإلهية هي التي تعاقبك لا يدي... هيا، خذوني، اقتلوني. فكّر في هذا وهو مطرق الرأس. وعلى وجهه أمارات الحزن والعزم.

وبينما كان بطرس واقفاً في وسط الغرفة، يفكر على هذا النحو، انفتح باب المكتب وظهر على العتبة «ماكار اليكسيفتش» الذي كان خجلاً حتى الآن والذي تغير تغيراً كاملاً. كان مبذله فضفاضاً ووجهه محمراً، مشوه القسمات، وكان بادي السكر. اضطرب لحظة لدى رؤية بطرس، لكنه سرعان ما تشجع عندما لاحظ أن بطرس كان مضطرباً أيضاً، فسار إلى وسط الغرفة وهو يترنح على ساقيه المهزولتين. وقال بصوت أجش مليء بالثقة.

– لقد خافوا. أقول لك: إنني لن أستسلم، أقول... أليس كذلك، يا سيدي؟

وظهرت عليه أمارات التفكّر، لكنه لمح فجأة المسدس على المكتب فتناوله في حركة عنيفة، مباغتة وفر به إلى الممر.

أوقفه «جيراسيم» والبواب اللذان لحقا به إلى الردهة وحاولا انتزاع المسدس منه. نظر بطرس الذي انضم إليهما في الممر نظرة شفقة ممتزجة بالاشمئزاز إلى هذا الشيخ نصف المجنون. وكان «ماكار اليكستش» مكشراً تحت وطأة الجهد، يشد على المسدس ويصرخ بصوت أجش، وقد خيل إليه أنه يعيش لحظة مؤثرة:

– إلى السلاح! إلى الصدام! أنت مخطئ، لن تظفر به!

كان «جيراسيم» يقول له وهو يحاول دفعه برفق إلى الباب.

– كفى، أرجوك، كفى. كن لطيفاً، أرجوك، وإرخ المسدس. هيا أرجوك، يا سيدي....

وكان «ماكار اليكستش» يصرخ:

– من أنت؟ بونابارت!...

– ليس هذا حسناً، يا سيدي. تفضل وادخل إلى المنزل واسترح، يا سيدي. هات المسدس من فضلك.

وتابع «ماكار اليكسيفتش» صراخه وهو يشهر المسدس ويدعو إلى الصدام:

– إلى الوراء، أيها العبد الحقير! لا تلمسني! أرأيت؟ إلى الصدام!

همس «جيراسيم» للبواب:

– اقبض عليه.

أخِذ «ماكار اليكسيفتش» من ذراعه وجر إلى الباب جراً.

فامتلأت الردهة بضوضاء مقاومة السكير وصرخاته اللاهثة الجشاء.

وفجأة علا صوت جديد، صوت امرأة ثاقب، على درج المدخل واندفعت الطاهية إلى الممر. وصرخت:

– ها هم أولاء! يا إلهي!... أقسم لك أنهم هم بأنفسهم. إنهم أربعة، على خيولهم!...

أرخى «جيراسيم» والبواب «ماكار اليكسيفتش»، في الممر الذي خيم عليه الصمت الآن سمعت بوضوح قرعات على باب المدخل قرعتها أيد عديدة.

***

الفصل الثامن والعشرون

كان بطرس الذي قرر في نفسه ألا يكشف عن طبقته وعن معرفته اللغة الفرنسية حتى تنفيذ مشروعه، يقف بجنب باب الممر المشقوق، مستعداً للتواري فور دخول الفرنسيين. لكن الفرنسيين دخلوا ولم يتحرك بطرس عن الباب: أوقفه في مكانه فضول لا يقهر.

كانا اثنين. أحدهما ضابط طويل جميل، قوي البنية، والآخر جندي أو وصيف قصير، هزيل الجسم، ملوح الوجه، غائر الوجنتين، بليد القسمات. دخل أولاً الضابط الذي كان يعرج ويستند إلى عصا. ووقف بعد خطوات، وكأنما أعجب المنزل ذوقه، والتفت إلى الجنود الذين ظلوا عند الباب وأمرهم بصوت قوي ألف إلقاء الأوامر أن يأتوا بالجياد. ثم ملّس شاربه بحركة تنم على الغطرسة رافعاً مرفقه إلى فوق وملامساً بيده عمرته. وقال مبتهجاً وهو يبتسم وينقل عينيه حوله

– مرحباً، يا جماعة!

فلم يجبه أحد.

وسأل الضابط «جيراسيم»:

أأنت البرجوازي؟

فنظر إليه «جيراسيم» مرعوباً، مستفهماً.

قال الضابط وهو ينظر إلى الرجل القصير من فوق إلى تحت بابتسامة رحيمة تفيض طيباً:

– مأوى، مأوى، سكن. الفرنسيون أناس وديعون.

وأضاف وهو يربت كتف «جيراسيم» الخائف الساكت:

– يا للشيطان! مالك! لا تغضب، يا صاحبي.

ثم استأنف كلامه إذ ألقى نظرة حوله وصادف عيني بطرس.

– آه، أنت! قل لي، ألا يتكلم أحد الفرنسية في هذا المكان؟

فتنحى بطرس عن الباب.

قال «جيراسيم» الذي شوّه ألفاظه ليجعلها مفهومة:

– السيد ليس هنا... لا أفهم... أنا لك...

فتح الضابط ذراعيه أمام وجه «جيراسيم» وهو يبتسم ليقول له أنه لم يكن يفهمه أيضاً، واتجه وهو يعرج إلى الباب الذي كان يقف بجنبه بطرس. وأراد بطرس أن يتنحى ليفلت منه، ولكن في هذه اللحظة بالذات رأى «ماكار اليكسيفتش» يطل من باب المطبخ المفتوح والمسدس في يده، وينظر إلى الفرنسي بمكر المجنون ويسدد.

صرخ السكير وهو يضغط على الزناد:

– إلى الصدام!

التفت الفرنسي إلى الصرخة وفي الوقت نفسه ارتمى بطرس على السكير. وبينما كان يمسك بالمسدس ويرفعه وقعت إصبع «ماكار اليكسيفتش» على الزناد وانطلقت الطلقة فأصمّت الناس وملأت الغرفة بالدخان. فامتقع الفرنسي واندفع نحو الباب.

نسي بطرس ما عزم عليه من إخفاء معرفته للغة الفرنسية، فانتزع المسدس من يدي «ماكار اليكسيفتش» ورمى به وركض إلى الضابط وسأله بالفرنسية:

- عسى ألا تكون جرحت؟

أجاب الفرنسي وهو يجس نفسه:

- أظن أن لا.

وأضاف وهو يشير إلى الجص المكشوط عن الجدار:

- لكنني نجوت بأعجوبة هذه المرة.

وسأل بطرس وهو ينظر إليه بقسوة:

- من هذا الرجل؟

قال بطرس بسرعة وقد نسي دوره تماماً:

- آه! أنا شديد الأسى حقاً لما وقع. هذا مجنون، شقي لم يكن يعرف ما يفعل.

اقترب الضابط من «ماكار اليكسيفتش» وأمسك به من ياقته.

كان «ماكار اليكسيفتش» يترنح وقد استند ظهره إلى الجدار، وتدلى فكه كمن ينام.

قال الفرنسي وهو يرخيه:

- أيها الوغد، ستدفع لي ثمن ما فعلت.

وأضاف وعلى وجهه أمارات التجهّم والأبهة، وهو يحرك يده حركة قوية وجميلة:

- نحن، الفرنسيين، رحماء بعد النصر، لكننا لا نغفر للخونة خيانتهم.

ظل بطرس يناشده بالفرنسية ألا يضمر الضغينة لهذا الرجل السكران، المجنون. وأصغى إليه الفرنسي دون أن يترك تجهمه، وفجأة ابتسم ونظر إليه بضع لحظات دون أن يقول شيئاً. واصطبغ وجهه بمسحة رقيقة، مأساوية، ومد إليه يده قائلاً:

- لقد أنقذت حياتي! هل أنت فرنسي؟

هذا الاستنتاج لا يتطرق إليه الشك، عند الفرنسي. فالفرنسي وحده هو الذي يستطيع أن يقوم بعمل نبيل، وإنقاذ حياته هو، السيد «رامبال» قائد السرية الخفيفة الثالثة عشرة، كان، بلا نزاع، أنبل الأعمال جميعاً.

لكن مهما يكن أكيداً هذا الاستنتاج واليقين الذي استخلصه الضابط منه، فقد رأى بطرس نفسه مضطراً إلى تخييب أمله. فقال بحدة:

- أنا روسي.

قال الفرنسي وهو يبتسم ويحرك إصبعه أمام أنفه:

- تا، تا، تا، قُل هذا لغيري. ستروي علي القصة كلها بعد حين. يسرني أن ألقى مواطناً. حسناً! ماذا نفعل بهذا الرجل؟

قال هذا وهو يخاطب بطرس كما يخاطب الأخ. وكانت أسارير الضابط ولهجته تقول: حتى لو لم يكن بطرس فرنسياً، فإنه لا يستطيع أن يرفض هذا اللقب الذي مُنِحَه، وهو أرفع لقب في العالم. ورداً على سؤاله الأخير أوضح بطرس مرة أخرى من هو «ماكار اليكسيفتش»، وكيف أن هذا السكير، المجنون نشل المسدس المحشو، قبل وصوله بالضبط، دون أن يستطيعوا استرداده منه، ورجا الضابط ألاّ يعاقبه.

نفخ الفرنسي صدره وأشار بيده إشارة فخمة وقال بسرعة وبلهجة قوية:

- لقد أنقذت حياتي. أنت فرنسي. سألتني العفو عنه؟ وأنا أمنحُك ذلك العفو. خذوا هذا الرجل.

ثم أمسك بذراع بطرس الذي رُفِّع إلى فرنسي بما بذله من عناية لإنقاذ حياته، ودخل معه داخل المنزل.

دخل الجنود الذين كانوا في الفناء غرفة الانتظار حين سمعوا الطلقة النارية وسألوا عما جرى وأعلنوا استعدادهم لمعاقبة المجرم، لكن الضابط أوقفهم بقسوة قائلاً:

- سوف تُدعون إذا دعت الحاجة إليكم.

خرج الجنود. واقترب الوصيف الذي تسنّى له أن يطوف بالمطبخ في هذه الأثناء، وقال:

- سيدي النقيب، إن لديهم في المطبخ حساء وفخذ خروف. فهل آتيك بذلك؟

قال النقيب:

- نعم، مع الخمر.

***

الفصل التاسع والعشرون

عندما دخل الضابط وبطرس داخل المنزل، رأى بطرس من واجبه أن يؤكد للضابط أنه ليس فرنسياً، وكان ينوي أن ينسحب، لكن الضابط لم يوافق. كان بالغ الأدب واللطف والدماثة، صادق العرفان بجميل منقذه، حتى إن بطرس لم يجرؤ على الرفض وجلس معه في الصالة الكبرى، وهي الغرفة الأولى التي دخلاها. وبعد أن أكد بطرس أنه ليس فرنسياً لم يملك النقيب الذي لم يكن يستطيع أن يفهم، كما يبدو، كيف يرفض امرؤٌ هذا اللقب المغري، إلا أن يهز كتفيه ويقول: إنه إذا حرص كل هذا الحرص على اعتبار نفسه روسياً، فليكن، لكنه سيظل بالرغم من ذلك معترفاً إلى الأبد بجميله لأنه أنقذ حياته.

ولو أن هذا الرجل أوتي القدرة على فهم مشاعر الآخرين، لو أنه استشفَّ ما كان يختلج في نفس بطرس، لكان من المحتمل أن يتركه؛ لكن انغلاق نفسه عن كل ما لا يتصل بها، ومرحه حملا بطرس على الإذعان.

قال الضابط وهو يلقي نظرة على ثياب بطرس الوسخة والفاخرة، وعلى الخاتم في إصبعه:

– سواء أكنت فرنسياً أم أميراً روسياً متخفياً فأنا مدين لك

بحياتي، وأنا أعرض عليك صداقتي. إن الفرنسي لا ينسى أبداً الإهانة ولا ينسى الفضل. إني أعرض عليك صداقتي. ولا أقول لك غير هذا.

كان في نبرة صوت هذا الضابط، وفي تعبير وجهه، وفي حركاته كثير من طيبة القلب والنبل (بالمعنى الفرنسي لهذه الكلمة) حتى إن بطرس شد على اليد الممدودة وهو يرد على الابتسامة بمثلها. وقدم الضابط نفسه وهو يفترّ عن ابتسامة لا تُقاوم من الرضى عن الذات، ابتسامة غضنت شفتيه تحت شاربيه:

– النقيب «رامبال» من السرية الخفيفة الثالثة عشرة، الحائز على وسام في معركة السابع[1]. فهل تتكرم وتقول لي مع من أتشرف بهذا الحديث الممتع بدلاً من أن أظل مسجّى في عربة الإسعاف ورصاصة هذا المجنون في جسدي.

أجاب بطرس بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه، وتحدث وهو يحمر خجلاً عن الأسباب التي تمنعه من ذلك، مفتشاً في الوقت نفسه عن اسم مستعار له. لكن الفرنسي أسرع وقاطعه قائلاً:

– من فضلك، إني أفهم دواعيك، أنت ضابط... ولعلك ضابط كبير، حملت السلاح في وجهنا. ليس هذا من شأني. أنا مدين بحياتي، وكفى. أنا رهن إشارتك.

وأضاف بشيء من الاستفهام:

– أنت نبيل؟

١– أي في معركة بورودينو التي وقعت في ٧ أيلول.

فحنى بطرس رأسه.

– اسم المعمودية إن سمحت؟ لا أطلب أكثر من ذلك، قلت إن اسمك هو بطرس... رائع. هذا كل ما أود معرفته.

وعندما جيء بفخذ الخروف وعجّة البيض وبالسماور والفودكا والنبيذ الروسي من صندوق روسي حمله الفرنسيون معهم، دعا الضابط بطرس لمشاركته طعامه، وما لبث أن شرع يأكل بنهم وسرعة كما يأكل الرجل الصحيح الجسم الذي أصابه الجوع، ماضغاً بأسنانه القوية، صافقاً أبداً بشفتيه ومكرراً: ممتاز، لذيذ! واحمّر وجهه وغطاه العرق. وشاركه بطرس، وكان جائعاً، طعامه بسرور. وحمل الوصيف «موريل» قدراً فيها ماء ساخن ووضع فيها زجاجة النبيذ الأحمر، ثم جاء بزجاجة نبيذ «كفاس» أخذها من المطبخ ليذوقها. وكان الفرنسيون يعرفون هذا الشراب ويسمونه «شراب ليمون الخنزير» وقد أخذ «موريل» يثني على هذا الشراب الذي وجده في المطبخ. لكن النقيب الذي تزود بالنبيذ أثناء مروره بموسكو ترك تلك الزجاجة لوصيفه وأقبل على زجاجة «بوردو». لفها حتى عنقها بمنشفة وملأ كأسه وكأس بطرس. فلما هدأ جوعه وحرّكته الخمر ازداد حيوية وتكلم بدون توقف أثناء الطعام.

– نعم، يا سيدي العزيز بطرس، لقد غمرتني بمعروفك لأنك أنقذتني... من هذا المسعور... يكفيني ما في جسدي من الرصاص، كما ترى. هذه واحدة (وأشار إلى جنبه) في «واغرام» واثنتان في «سمولنسك» (وأشار إلى ندبة في خده). وهذه الساق التي تأبى أن تمشي، كما ترى، أصيبت في معركة اليوم السابع في الموسكوفا. يا إلهي، ما كان أجملها من معركة! ليتك رأيت ذلك، كان طوفاناً من النار. لقد كلفتنا هذه المعركة جهوداً مضنية؛ وتستطيعون أن

تفخروا بذلك، صدّقني. أقسم لك بشرفي أنني مستعد للعودة إلى مثل تلك المعركة، بالرغم من السعال الذي أصابني، وأنا أرثي لمن لم يشهدوها.

قال بطرس:

– قد كنت هناك.

واستأنف الفرنسي كلامه:

– حقاً! حسناً! هذا أفضل. أنتم أعداء أباة على كل حال. كان المعقل، والله، صامداً، وعزَ المرام. ولقد حملتمونا بإبائكم على دفع الثمن باهظاً. لقد وصلت إلى المعقل ثلاث مرات، كما تراني. ثلاث مرات بلغنا المدافع وثلاث مرات رددنا على أعقابنا خاسرين. أوه! كان ذلك جميلاً، يا سيد بطرس. كان رماتكم رائعين، والله. رأيتهم يرصّون صفوفهم ست مرات ويمشون وكأنهم في عرض عسكري. ما أروع أولئك الرجال! وعندما رآهم ملكنا، ملك نابولي، وهو خبير برمي القنابل، هتف:

مرحى!

وقال بعد لحظة صمت:

–آه! آه! أنت جندي مثلنا! هذا أحسن، أحسن، يا سيد بطرس. جبّارون في المعارك... غَزِلون... (وغمز بعينيه وهو يبتسم)، مع الحسان، كذلك هم الفرنسيون، يا سيد بطرس، أليس كذلك؟

بلغ النقيب حداً من المرح الساذج والطيب والامتلاء بالذات والرضى عن الذات أوشك معه بطرس أن يرد على غمزته بغمزة مماثلة

وهو ينظر إليه ببهجة. ولعل كلمة «غَزل» ذكّرت النقيب بالوضع في موسكو، فقال:

– قل لي، بهذه المناسبة، أصحيح أن جميع النساء هجرن موسكو، ما أسخف هذه الفكرة! من أي شيء يخفن؟

قال بطرس:

–ألا تهجر النساء الفرنسيات باريس لو أن الروس دخلوها؟

انطلق الفرنسيُّ في قهقهة فرحة وهو يربت كتف بطرس وقال:

– آه! آه آه! زدْتَها الآن. باريس.... لكن باريس... باريس....

فأتم بطرس:

– باريس عاصمة الدنيا...

نظر إليه النقيب. وكان من عادته أن يتوقف، وهو في أواسط حديثه، وأن يُحدّق في محدّثه بعينين باشتين، أنيستين:

– حسناً! لو لم تقل لي أنك روسي لراهنت على أنك باريسي. إن فيك شيئاً لا يُدرك كنهه من....

فلما انتهى من ثنائه هذا نظر إليه بصمت مرة أخرى.

قال بطرس:

– لقد زرت باريس، وقضيت فيها سنين.

– آه! هذا واضح أشد الوضوح. باريس!.... إن إنساناً لا يعرف باريس لهو إنسان متوحش. إن المرء ليحس بالباريسي على بعد

ميلين. باريس هي «تالما»[1] هي «دوشينوا»[2]، هي «بوتييه»[3]، هي السوربون، هي الشوارع العريضة....

ثم تبيّن أن خاتمة كلامه أضعف مما سبق فبادر وأضاف:

– ليس هناك سوى باريس واحدة في العالم. لقد ذهبت إلى باريس وبقيت روسيا. حسناً! إن تقديري لك مع ذلك باق على حاله.

وجد بطرس على الرغم منه متعة في الحديث مع هذا الرجل المرح الطيب، بعد أن لعبت الخمر برأسه وبعد تلك الأيام التي قضاها وحيداً مع أفكاره الكالحة.

– لنعد إلى نسائكم، الشائع أنهن جميلات. فأية فكرة مُنكرة دفعتهن إلى أن يذهبن ليدفن أنفسهن في السهوب عندما يكون الجيش الفرنسي في موسكو. وأية فرصة فاتت هؤلاء النسوة. إن فلاحيكم شيء آخر. أما أنتم المتمدنون فينبغي أن تعرفونا معرفة أفضل. لقد استولينا على «فيينا» و«برلين» و«مدريد» و«نابولي» و«روما» و«فرسوفيا»، وجميع عواصم العالم... الناس فيها يخشوننا لكنهم يحبوننا. ومن الممتع أن يتعرفوا بنا. ثم أن الامبراطور... لكن بطرس قاطعه عندما بدأ الضابط كلامه على الامبراطور، فكرر وقد بدا الكمد والضيق على قسمات وجهه:

١– تالما: فرانسوا تالما (١٧٦٣–١٨٢٦) ممثل تراجيدي كبير كان نابليون يقدره ويراه أفضل ممثل تراجيدي.

٢– لادوشينوا: الآنسة كاترين لادوشينوا (١٧٧٧–١٨٢٥) ممثلة تراجيدية فرنسية منافسة الآنسة جورج.

٣– شارل بوتييه: (١٧٧٥–١٨٣٨) ممثل شهير في باريس.

– الامبراطور، هل الامبراطور...

– الامبراطور؟ إنه الكرم والرحمة والعدل والنظام والعبقرية، هذا هو الامبراطور! أنا «رامبال» أقول لك ذلك. فكما تراني الآن، كنت عدواً له منذ ثماني سنوات. كان والدي كونتاً مهاجراً... لكنه غلبني، هذا الرجل. لقد هزني. لم أستطع أن أصمد لمشهد العظمة والمجد اللذين أسبغهما على فرنسا. عندما فهمت ما يريد، عندما رأيت أنه كان يضع لنا محفة من الغار، قلت في نفسي: هكذا يكون الملك، وأسلمت له نفسي. تأمل! أوه! نعم، يا عزيزي، إنه أعظم رجل في العصور الماضية والآتية.

سأله بطرس متردداً وكالمذنب:

– هل هو في موسكو؟

نظر الفرنسي إلى وجه بطرس المذنب وتبسم، ثم قال:

– لا، سيدخل المدينة غداً.

وتابع قصته.

قطعت حديثهما صرخات عند الباب دخل على أثرها «موريل» ليعلن للنقيب أن فرساناً ورتمبرجيين وصلوا وأرادوا أن يربطوا خيولهم في الفناء الذي ربط فيه الفرنسيون خيولهم. وجاءت الصعوبة من أن الفرسان لم يكونوا يفهمون ما يُقال لهم.

استدعى النقيب رقيبهم وسأله بلهجة قاسية عن فوجه وعن رئيسه، وبأي حق سمح لنفسه أن يحتل مسكناً مشغولاً من قبل. ورداً على السؤالين الأولين، ذكر له الرقيب فوجه ورئيسه؛ أما السؤال الأخير

الذي لم يفهمه، فقد أجاب عنه وهو يخلط بالألمانية كلمات فرنسية مشوهة بأنه محاسب التجهيزات وأن قائده أمره أن يحتل جميع البيوت واحداً بعد الآخر. كان بطرس الذي يعرف الألمانية يترجم للنقيب ما يقول الفارس وينقل لهذا ما يقوله النقيب. وعندما فهم الألماني أذعن وسحب رجاله. وخرج النقيب إلى درج المدخل وألقى أوامره بصوت قوي.

عندما عاد، كان «بطرس» جالساً في موضعه نفسه، ورأسه بين يديه. كان وجهه ينطق بالألم. لقد كان يتألم حقاً في هذه اللحظة.

فعندما خرج النقيب وظل وحده، عاد فجأة إلى رشده وتبين حقيقة الوضع الذي هو فيه. لم يكن يؤرّقه في هذه اللحظة أن موسكو احتلت، وأن هؤلاء المنتصرين السعداء أصبحوا سادة لها وأنه في حمايتهم، وإن شقَّ عليه ذلك وآلمه أشد الألم. بل إن ما كان يؤرّقه هو الشعور بضعفه. أن بضعة أقداح من النبيذ، وحديثه مع هذا الضابط الطيب، إن ذلك دمّر فيه تلك الحالة النفسية الكالحة، حالة الانكماش على الذات التي عاش فيها هذه الأيام الاخيرة والتي لابد منها لتنفيذ مشروعه. كان المسدس والخنجر والثياب جاهزة. ونابليون سيدخل غداً. وكان بطرس يجد من المفيد والنبيل أن يقتل الأثيم؛ لكنه كان يحس أنه لن يُقدم على هذا الآن. لماذا؟ كان يجهل لماذا، لكنه كان يحس إحساساً مسبقاً بأنه لن يحقق هدفه. كان يصارع شعوره بالضعف، لكنه كان يحس إحساساً غامضاً بأنه لن يستطيع التغلب عليه، وبأن أفكاره الكالحة، أفكار الانتقام والقتل والتضحية بالذات قد تطايرت لدى الاحتكاك بأول قادم.

رجع النقيب إلى الغرفة وهو يعرج عرجاً خفيفاً ويصفر.

بدت ثرثرة الفرنسي التي سلّت «بطرس» في بادئ الأمر بغيضة

الآن. وبدا النغم الذي يصفره، ومشيته وحركاته وطريقته في فتل شاربيه، بدا له ذلك كله الآن مهيناً.

وفكر بطرس:

- سوف أنصرف، ولن أزيد كلمة على ما قلت. هكذا كان يفكر ومع ذلك فإنه لم يكن يتحرك. كان يُسمّره في موضعه إحساس غريب الضعف: وأراد أن ينهض ويمضي فلم يستطع.

بدا النقيب، على العكس، مرحاً جداً. طاف بالغرفة مرتين. والتمعت عيناه وارتعش شاربه ارتعاشاً خفيفاً وكأن شيئاً مسلّياً دفعه إلى الابتسام بينه وبين نفسه. وقال فجأة:

- فاتن عقيد هؤلاء الورتمبرجيين! إنه ألماني؛ لكنه فتى طيب كأشد ما يكون الطيب. لكنه ألماني.

وجلس في مواجهة بطرس:

- بالمناسبة، أنت تعرف الألمانية إذن؟

نظر إليه بطرس بصمت.

- كيف تُسمي الملجأ بالألمانية؟

فردّد بطرس:

- ملجأ؟ ملجأ بالألمانية «انتركونفت».

قال النقيب بحيوية كمن لم يصدق:

- كيف تقول؟

فردد بطرس:

- «انتركونفت»

قال النقيب الذي تأمل بطرس بضع لحظات بعينين ضاحكتين: أونتركوف.

- وأردف الألمان حيوانات مزهوة. أليس كذلك، يا سيد بطرس؟

وصاح بمرح:

- حسناً! لابد من زجاجة أخرى من نبيذ بوردو المسكوفي، أليس كذلك؟ سيُسخن لنا «موريل» زجاجة أخرى، «موريل»!

حمل «موريل» شموعاً وزجاجة نبيذ. نظر النقيب إلى بطرس على ضوئها ودهش دهشة واضحة لوجه محدثه الذي تغيّر. فدنا منه يحدوه الود المؤاسي بصدق وانحنى عليه، وسأله وهو يلمس ذراعه:

- ماذا! أأنت حزين؟ هل أسأت إليك؟ لا، قل لي الحق، هل لك مأخذ علي؟ لعل ذلك بسبب الوضع؟

لم يجب بطرس، لكنه نظر بلطف إلى الفرنسي في عينيه. كان شديد التأثر لهذه البادرة من الود.

هتف الفرنسي وهو يضرب صدره:

- أقسم بشرفي أنني أضمر لك الصداقة، بغض النظر عما أنا مدين لك به. هل أستطيع أن أفعل شيئاً لك؟ أنا بين يديك، إلى الأبد. أقول لك هذا ويدي على قلبي.

قال بطرس:

- شكراً.

فحدّق فيه النقيب على نحو ما حدّق فيه عندما علم كيف تُسمى كلمة «ملجأ» في الألمانية، وفجأة استنار وجهه، وهتف بمرح وهو يملأ كأسين:

- آه! في هذه الحالة، دعني أشرب نخب صداقتنا.

تناول بطرس كأسه وأفرغه وأفرغ النقيب كأسه، وشد مرة أخرى على يد بطرس، واتّكأ بمرفقيه على الطاولة في وضع ينم على الاستغراق في التفكير والكآبة. وبدأ كلامه قائلاً:

- نعم، يا صديقي العزيز، ها هي ذي تقلّبات الدهر، فمن قال أنني سأصبح جندياً ونقيباً للفرسان في خدمة بونابارت، كما كنا نسميه قديماً؟ ومع ذلك فأنت تراني في موسكو معه.

وتابع صوته الحزين، المتّزن الذي يتهيأ لرواية قصة طويلة:

- ينبغي أن أقول لك، يا عزيزي، أن اسمنا من أعرق الأسماء في فرنسا.

وروى لبطرس بصراحة الفرنسيين الساذجة السهلة تاريخ أجداده وطفولته ويفاعته وشبابه ومشكلات القرابة والثروة والعائلة المتصلة به. وكانت «أمي المسكينة» تلعب بالطبع دوراً هاماً في هذه الحكاية.

ثم قال وقد زاد حيوية:

- لكن هذا كله ليس سوى الإخراج المسرحي للحياة أما جوهرها فهو الحب. الحب! أليس كذلك، يا سيد بطرس؟ أتريد كأساً أخرى؟

فشرب بطرس وصب لنفسه كأساً ثالثة.

- أوه! النساء، النساء!

ونظر النقيب إلى بطرس بعينين أشِرتين وأخذ يتحدث عن الحب وعن مغامراته الغرامية. كانت مغامراته جمة العدد، وكان من السهل تصديقه لما بدا من عُجْب على وجهه الجميل، ومن حماسة في كلامه على النساء. ومع أن لجميع مغامرات «رامبال» الغرامية هذا الجانب الماجن الذي يقوم عليه، عند الفرنسيين، سحر الحب وشاعريته، إلا أن النقيب كان يروي قصصه وهو قانع أصدق قناعة أنه الوحيد الذي ذاق لذات الحب بأسرها، وكان يصف النساء وصفاً أخّاذاً حمل بطرس على الإصغاء بفضول.

كان واضحاً أن الحب الذي يحبه الفرنسي ليس ذلك الحب المنحط والبدائي الذي أحس به بطرس قديماً إزاء امرأته، ولا هو ذلك الحب الرومانسي الذي يحمله لناتاشا والذي يُذكيه في نفسه (كان «رامبال» يحتقر أيضاً هذين النوعين من الحب: الأول حب سائقي العجلات، والثاني حب الأغرار)؛ الحب الذي كان يعبده الفرنسي يقوم قبل كل شيء على هذا التصنّع في العلاقات بالنساء وعلى تلك التركيبات الغريبة التي تمنح فتنتها الأساسية.

هكذا، روى النقيب قصة حبه المؤثرة لمركيزة فاتنة عمرها خمسة وثلاثون عاماً، وحبه في الوقت نفسه لطفلة رائعة بريئة، عمرها سبعة عشر عاماً، هي ابنة الكونتيسة الفاتنة. ومع أن النزاع بين كرم الأم وكرم ابنتها، وهو نزاع انتهى بتضحية الأم التي وهبت ابنتها عشيقها ليكون زوجاً لها، مجرد ذكرى بعيدة، لكنها ذكرى ما فتئت تهز النقيب. ثم روى فصلاً لعب فيه الزوج دور العاشق ولعب هو (العاشق) دور الزوج، وروى فصولاً مضحكة عن ذكرياته في ألمانيا حيث يُسمى الملجأ: «انتركنفت»، وحيث الأزواج يأكلون الكرنب، وحيث الفتيات مفرطات الشقرة.

وأخيراً روى آخر مغامرة له في بولونيا، وهي ماتزال غضة في ذاكرته، بكثير من الإشارات العنيفة وقد انتعش وجهه، ومدارها أنه أنقذ حياة بولوني (في قصص النقيب ترد دائماً الحوادث التي يُنقذ فيها حياة أحد الناس)، وأن هذا البولوني عهد إليه بامرأته الفاتنة (الباريسية القلب) بينما تطوع هو في الجيش الفرنسي. كان النقيب سعيداً، وأرادت البولونية الفاتنة أن تهرب معه؛ لكن النقيب رد المرأة إلى زوجها، في اندفاعة من اندفاعات الكرم، قائلاً له: «لقد أنقذت حياتك وهأنذا أنقذ شرفك!». وكرر النقيب هذه الكلمات، وفرك عينيه وهز رأسه كأنه يريد أن يطرد التحنن الذي استولى عليه من جراء هذه الذكرى المؤثرة.

وكما يقع دائماً إذا تقدم الليل ولعبت الخمر برأس شاربها، كان بطرس يتابع كل ما يقوله النقيب، وهو يُصغي إلى قصصه، ويفهم كل شيء، وكان في الوقت نفسه يتابع موكباً من ذكرياته الشخصية التي كانت تفد على خياله فجأة ودون أن يعرف السبب. عاد إلى ذاكرته بغتة، بينما كان يصغي إلى قصص الحب هذه، حبَّه لناتاشا، وعند استعراضه الصور في خياله على غير عمد، كان يقارن في ذهنه بينها وبين حكايا «رامبال». وأثناء قصة الصراع بينِ الواجب والحب رأى أمام عينيه بأدق التفاصيل لقاءه مع موضوع حبه عند برج «سوكاريف». لم يترك فيه هذا اللقاء آنذاك أثراً كبيراً؛ و لم يفكر فيه من بعد ذلك ولو مرة واحدة. أما الآن فقد بدا له أن في ذلك اللقاء شيئاً عظيم الدلالة والشاعرية.

«تعال إلى هنا، يا بطرس كيريليتش، فقد عرفتك». كان يسمع هذه الكلمات التي قالتها له، ويرى أمامه عينيها وبسمتها وقبعة السفر على رأسها وخصلة شعرها المتطايرة... كان في ذلك كله ما يثير رقته وحنانه.

بعد أن أنهى النقيب قصة البولونية الفاتنة سأل بطرس إن كان قد

أحس بعاطفة التضحية بالذات في سبيل الحب، والغيرة من الزوج الشرعي.

رفع بطرس رأسه وشعر بالحاجة على التعبير عن الأفكار التي كانت تشغله، بعد أن شجعه سؤال الضابط على ذلك، فأوضح أنه يفهم حب الرجل للمرأة فهماً آخر. وقال: إنه لم يحب طوال حياته سوى امرأة واحدة و لم يزل يحبها وأن هذه المرأة لا يمكن أن تكون له.

قال النقبيب:

- عجباً!

ثم أوضح بطرس أنه كان يحب هذه المرأة منذ صغرها، لكنه لم يكن يحق له أن يفكر فيها لأنها كانت صغيرة السن ولأنه كان هو ولداً غير شرعي لا اسم له. وعندما جاءه الاسم والثروة فيما بعد لم يكن يجرؤ أيضاً على التفكير فيها لأنه كان يحبها حباً مفرطاً ويضعها فوق الناس جميعاً ومن ثم فوق نفسه. ولما وصل بطرس إلى هذا الموضع من قصته سأل النقيب إن كان يفهم ذلك.

فرد عليه النقيب بإشارة تعني أنه يدعوه إلى متابعة قصته، حتى وإن لم يكن يفهمها.

وغمغم:

- الحب الأفلاطوني، السحب...

أكان النبيذ الذي شربه، أو الحاجة إلى البوح، أو تصوره أن هذا الرجل لا يعرف ولن يعرف أحداً من أشخاص قصته، أو كانت هذه الدوافع مجتمعة هي التي حلت عقدة لسان بطرس. لقد روى قصته برمتها وهو يبدل من الجيم زايا، ذابل العينين، شاخصاً إلى نقطة في المكان البعيد:

قصة زواجه وحب «ناتاشا» لأفضل صديق له، وخيانتها، وصلاته الطفيفة بها. ثم دفعته أسئلة «رامبال» إلى أن يذكر ما كان أخفاه في بادئ الأمر، أي موقعه الاجتماعي، حتى أنه كشف له عن اسمه.

أشد ما أدهش النقيب في قصة بطرس هو أن بطرس كان غنياً، وأنه كان يملك قصرين في موسكو، وأنه تخلى عن كل شيء و لم يرتحل لكنه مكث في المدينة مخفياً اسمه ومقامه.

وفي موهن من الليل، خرجا معاً إلى الشارع. كانت الليلة معتدلة، مضيئة. إلى يسار المنزل أخذ يحمر ضياء أول حريق أشعل في موسكو، في «بتروفكا». وإلى اليمين كان الهلال في كبد السماء، وقد برز في مواجهته هذا المذنّب المضيء[1] الذي يقترن في نفس بطرس بحبه. وأمام البوابة وقف «جيراسيم» والطاهية وفرنسيان. كانوا يضحكون ويتكلمون كل اثنين بلغتهما التي لا يفهمها الآخران. كانوا يتأملون ضياء الحريق الذي ارتفع فوق المدينة.

لم يكن في هذا الحريق الصغير البعيد في تلك المدينة الهائلة ما يخيف.

كان بطرس يشعر، وهو ينظر إلى قبة السماء المنجمة وإلى القمر وإلى المذنب وإلى ضياء الحريق، بالرقة المشوبة بالفرح. وفكر: «ما أبدع هذا، لا مطمح بعده لمستزيد!». وفجأة تذكّر مشروعه فأصابه الدوار وأحس بالألم واضطر أن يستند إلى جدار الفناء كي لا يقع.

ابتعد بطرس عن البوابة، دون أن يستأذن صديقه الجديد، بخطوات قلقة، واستلقى على الأريكة ونام من فوره.

***

١- خطأ مقصود من الكاتب لأن المذنّب ظهر في سنة ١٨١١ لا في سنة ١٨١٢.

الفصل الثلاثون

كان السكان الهاربون والجيش المنسحب يتأملون، من طرق مختلفة وبعواطف شتى، أول حريق شب في الثاني من أيلول.

توقفت قافلة آل روستوف هذه الليلة في «ميتيستشي» على عشرين فرسخاً من موسكو. لقد سافروا في الأول من أيلول، متأخرين، وكانت الطريق مزدحمة بالعربات والجند، كما اضطروا أن يرسلوا من يأتي بكثير من الأشياء المنسية في موسكو، فقرروا أن يقضوا الليل على خمسة فراسخ من موسكو. وفي اليوم التالي، استيقظوا متأخرين وتوقفوا مرات في الطريق حتى أنهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوا «ميتستشي»[1] الكبرى. وفي الساعة العاشرة، توزع آل روستوف والجرحى الذين يسيرون معهم، في أفنية الضيعة الكبيرة وأكواخها الخشبية. أما خدم آل «روستوف» والسائقون والمرافقون للجرحى فبعد أن قدّموا الطعام لأسيادهم تعشوا وأطعموا خيولهم وخرجوا إلى درج المدخل.

كان في المنزل المجاور مساعد «رايفسكي» العسكري الجريح الذي كسر زنده، وقد انتزع منه الألم المبرّح أنيناً متواصلاً منذراً بالويل في عتمة ليل الخريف. قضى هذا المساعد العسكري ليلته الأولى في الفناء الذي كان فيه آل «روستوف»، وقالت الكونتيسة إنها لم تستطع أن

١– متيستشي الكبرى والصغرى قريتان في الشمال الشرقي من موسكو.

تغمض عينها بسبب هذا الأنين، فباتت ليلتها الثانية، في «ميتستشي»، في منزل أشد تواضعاً لكنه أشد بعداً عن الجريح.

شاهد أحد الخدم في ظلمات الليل، من خلف صندوق عربة كانت تقف خلف درج المدخل، ضياء حريق لم يتسع بعد. وكان قد شوهد ضياء حريق آخر من قبل عرف الجميع أنه في «ميتيستشي» الصغرى التي أحرقها جنود «مامونوف» القوزاق.

قال أحد تابعي الجرحى:

- انظروا، أيها الأصحاب، هذا حريق آخر.

اتجهت الأنظار إلى هذا الضياء.

- لكن يقال أن جنود «مامونوف» أشعلوا النار في «ميتيستشي» الصغرى -أجل! لا، ليست هذه «ميتيستشي»، بل أبعد منها. -انظر، يبدو أن ذلك في موسكو. ونزل خادمان عن درج المدخل وذهبا إلى خلف العربة وقعدا على المرقاة -النار على يسارها! كلا، إن «ميتيستشي» هناك، أما النار فهي في جهة أخرى. وانضم آخرون إلى الذين كانوا يتحدثون. وقال أحدهم: ها هو ذا اللهب يشتد، يا سادة، إنه في موسكو، وهذا الحريق إما أن يكون في شارع «سوستشيفسكايا»، أو في شارع «روجوسكايا»[1].

لم يرد أحد على هذه الملاحظة. ونظر الجميع بصمت، أثناء فترة طويلة من الزمن، إلى امتداد لهب هذا الحريق الجديد البعيد.

اقترب خادم الكونت العجوز. «دانيلو تيرنتيش»، من الجماعة ودعا «ميشكا» قائلاً:

١- حيان شرقيان في العاصمة.

– إلام تنظر، أيها الصبي الوقح؟ لو أن الكونت نادى لما وجد من يرد عليه؛ ادخل ورتب الثياب.

قال «ميشكا»:

– لم أذهب إلا لآتي بالماء.

قال أحد الخدم:

– وأنت، ما رأيك، يا «دانيلو تيرنتيش»، ألا يبدو لك أن هذا الضياء في موسكو؟

لم يجب «دانيلو يترنتيش» وخيم الصمت مرة أخرى. كان الضياء يخفق وتتسع رقعته.

قال صوت:

– ليرحمنا الله!... في مثل هذه الريح وهذا الجفاف...

– انظر كيف يسير الحريق. أوه! يا إلهي! حتى إننا نرى الغربان. يا إلهي، ارحمنا نحن الخطأة!

– ستُطفأ النار، من غير شك.

فرد «دانيلو يترنتيش» الذي صمت حتى هذه اللحظة. وكان صوته هادئاً، بطيئاً:

– ومن ذا الذي سيطفئها؟ هذه موسكو بعينها، يا أبنائي، أمنا ذات الجدران البيـ...

وتهدج صوته وانتحب كما ينتحب الشيوخ. وكأن الحاضرين ما كانوا ينتظرون غير ذلك ليدركوا ماذا يعني بالنسبة إليهم هذا الضياء

الـذي يرونه. فامتزجت بنحيب خـادم الكونت العجوز الزفرات والصلوات.

***

الفصل الحادي والثلاثون

عاد خادم الكونت إلى المنزل وأنبأ الكونت أن موسكو كانت تحترق. فلبس الكونت مبذله على عجل وخرج ليرى. وتبعته «صونيا» التي لم تخلع ثيابها والسيدة «شوس». أما «ناتاشا» والكونتيسة فبقيتا وحيدتين في الغرفة. (لم يكن «بيتيا» مع أسرته: ذلك أنه التحق بفوجه الذاهب إلى «ترويتسا»[1]).

أخذت الكونتيسة تبكي حين علمت بحريق موسكو. وكانت «ناتاشا» جالسة على مقعد تحت الأيقونات (في نفس المكان الذي جلست فيه حين وصولها)، شاحبة الوجه، شاخصة العينين، لا تلتفت إلى ما يقوله أبوها. كانت تصيخ السمع إلى أنين المساعد العسكري المتصل الذي يسمع من مسافة ثلاثة بيوت.

قالت «صونيا» وهي تعود من الفناء مرتعدة خائفة:

- آه! هذا فظيع! أحسب أن موسكو برمتها ستحترق. الضياء رهيب!

وأردفت مخاطبة ناتاشا وكأنها تريد أن تسري عنها:

١- أشهر دير في روسيا الشمالية، يقع على ٦٠ كم شمالي موسكو، وقد أسسه القديس سيرج في سنة ١٣٣٥. وتسمى الضيعة التي حول الدير زاجورسك.

- انظري من النافذة، يا «ناتاشا».

لكن «ناتاشا نظرت إليها وكأنها لم تفهم ما كانت تطلبه إليها، وشخصت مرة أخرى إلى المدفأة. لقد كانت في هذه الحالة من الخور منذ الصباح، منذ أن رأت «صونيا» أن من الضروري إخبار «ناتاشا» بجرح الأمير آندريه وبوجوده في القافلة، مقدمة على ذلك دون سبب واضح، ومثيرة بفعلتها دهشة الكونتيسة وسخطها. واستشاطت الكونتيسة غضباً من صونيا، وقلما وقع لها ذلك، فسألتها «صونيا» الصفح وهي تبكي، وأرادت الآن أن تكفّر عن غلطتها فأخذت تحوط ابنة عمها برعايتها. قالت لها:

- انظري، يا «ناتاشا» إلى النار المشتعلة، هذا رهيب!

سألتها «ناتاشا».

- ما الذي يشتعل؟ آه، نعم! موسكو.

وكأنما لم تشأ أن تجرح صونيا برفضها، فلوت رأسها نحو النافذة ونظرت على نحو كان من الواضح أنها لن ترى شيئاً معهن ثم عادت إلى وضعها السابق.

- ألم تري شيئاً؟

قالت بصوت يتوسل إليها أن تتركها وشأنها:

- بلى، رأيت حقاً.

فهمت الكونتيسة وصونيا أن موسكو، وحريق موسكو، وكل ما قد يقع ليس له أية أهمية عند «ناتاشا».

عاد الكونت إلى خلف الحاجز واضطجع. دنت الكونتيسة من

«ناتاشا» ولمست رأسها بظاهر يدها كما تفعل عندما تكون مريضة، ولامست جبهتها بشفتيها كأنها تريد أن تعلم إن كانت محمومة وعانقتها قائلة لها:

– هل بردت؟ أنت ترتعشين. يجب أن تنامي.

قالت «ناتاشا»:

– أنام؟ نعم، طيب، سأنام. سأنام في الحال.

عندما علمت «ناتاشا»، في الصباح، أن الأمير آندريه مصاب بجرح خطير وأنه يسافر معهم، ألحت، أول الأمر، في السؤال لتعرف طبيعة جرحه ومدى الخطر فيه، وإن كانت رؤيته ممكنة، وعندما قيل لها أنه لا يمكن رؤيته وأن حياته في مأمن من الخطر بالرغم من خطر الجرح، لم تصدق، على ما يبدو، ما قيل لها، وقنعت أنها، مهما سألت فسوف تجد الأجوبة نفسها، فكفت عن السؤال والكلام. قبعت، أثناء الرحلة، في زاوية من العربة ساكنة، بلا حراك، شاخصة بعينيها اللتين تعرفهما الكونتيسة جيداً وتخشى ما تعبران عنه من معان، وهي الآن جالسة على المقعد في الوضع نفسه. كانت تفكر بشيء ما، تتخذ قراراً في ذهنها، أو لعلها اتخذته. كانت الكونتيسة تعلم ذلك، لكنها كانت تجهل ماذا يمكن أن يكون، وهذا ما كان يخيفها ويؤرقها:

– «ناتاشا»، يا حبيبتي، اخلعي ملابسك وتعالي نامي في سريري. (الكونتيسة وحدها كانت تنام على سرير: أما السيدة «شوس» والفتاتان فكن ينمن على الأرض فوق القش).

قالت «ناتاشا» بحدة:

– كلا، يا أمي، سأنام هنا، على الأرض.

ودنت من النافذة وفتحتها، فوافت منها أنات المساعد العسكري وهي أشد وضوحاً. ومدت رأسها في هواء الليل الرطب فلمحت أمها عنقها الدقيق ينتفض من النحيب ويلطم إطار النافذة. كانت «ناتاشا» تعلم أن هذا الذي يتوجع ليس الأمير آندريه، وتعلم أن الأمير آندريه ينام في نفس البيت الذي هم فيه، في غرفة أخرى، في الجانب الآخر من البهو؛ لكن هذه الأنات الفظيعة المتصلة كانت تدفعها إلى النحيب.

بادلت الكونتيسة «صونيا» النظر وقالت لناتاشا وهي تمس كتفها مساً رفيقاً:

- نامي، يا حبيبتي، نامي، يا صغيرتي، هيا، آن لك أن تنامي...

قالت «ناتاشا» وهي تخلع ملابسها على عجل وتنزع الأشرطة من تنانيرها:

- آه! نعم... سأنام في الحال، في الحال.

وبعد أن خلعت فستانها ولبست قميص نومها، جلست وثنت ساقيها على الفراش الذي فرش لها على الأرض، وردت إلى الأمام شعرها الناعم القصير وأخذت تجدله. لقد حلت أصابعها الطويلة الدقيقة ضفيرتها بخفة ومهارة وعلى نحو آلي ثم ضفرتها من جديد. كان رأسها يميل، لكن عينيها اللتين اتسعتا، وكأنما اتسعتا بفعل الحمى، لما فرغت من زينتها الليلية استلقت بهدوء على الشرشف المفروش على القش، بجانب الباب.

قالت «صونيا»:

- «ناتاشا»، نامي وسط الشرشف.

قالت «ناتاشا»:

- لا، أفضل أن أبقى هنا.

وأردفت قائلة بحدة:

- هلا نمتن.

ودفنت وجهها في الوسادة.

خلعت الكونتيسة والسيدة «شوس» و«صونيا» ثيابهن على عجل واضطجعن. وظل سراج الليل وحده مضاء. ولكن في الخارج، كان حريق «ميتستشي» الصغرى يضيء على مدى فرسخين، وكانت الصرخات الليلية توافي من الحانة الواقعة في الجهة الأخرى من الشارع والتي نهبها جنود «مامونوف»، وظلت تصك الأسماع أنات المساعد العسكري المتصلة.

أصاخت «ناتاشا» إلى الضوضاء التي كانت توافيها من الداخل ومن الخارج، دون أن تأتي بحركة. سمعت أمها أولاً وهي تصلي وتتنهد، ثم سمعت قرقعة السرير تحت ثقلها، وشخير السيدة «شوس» الصافر الذي تعرفه حق المعرفة، ونفس «صوفيا» الهادئ. ونادت الكونتيسة «ناتاشا». فلم ترد «ناتاشا» عليها.

فهمست «صونيا».

- أظن أنها تنام، يا أمي.

ثم نادتها الكونتيسة مرة أخرى، بعد لحظة صمت. فلم يجبها أحد هذه المرة.

بعد برهة، سمعت «ناتاشا» تنفس أمها المنتظم، لم تأت «ناتاشا» بحركة، مع أن قدمها الصغيرة خارج الغطاء تجلدت على الأرض الباردة.

وصر في أحد الشقوق صرصور كأنه يريد أن يحتفل بانتصاره على الناس جميعاً، وصاح ديك في مكان بعيد، وأجابه ديك آخر في مكان قريب. وسكتت الصرخات، في الحانة، وترددت أنات المساعد العسكري وحدها. جلست «ناتاشا» وهمست:

– صونيا؟ أتنامين؟ أمي؟

لم يجبها أحد. فنهضت ببطء وحذر ورسمت إشارة الصليب ووضعت باحتراس قدمها الصغيرة الغضة على البلاط الوسخ. وصرّت الألواح الخشبية. خطت بخفة بضع خطوات كالهرة الصغيرة وأمسكت بمزلاج الباب البارد.

خُيِّل إليها أن شيئاً ثقيلاً يقرع بضرباته المنتظمة جدران الغرفة.

كان قلبها الخائر يدق حتى ليكاد يتمزّق من الخوف والهلع والحب.

فتحت الباب واجتازت العتبة ووضعت قدمها على الأرض المتجلدة الرطبة. فأنعشها البرد الذي أصابها. عثرت قدمها العارية برجل نائم فتخطته وفتحت باب الغرفة التي كان ينام فيها الأمير آندريه. كانت الغرفة مظلمة. وفي زاوية منها، في الصدر، قرب سرير يستلقي عليه شكل إنساني، كانت تشتعل شمعة من الشحم يسيل شمعها على مقعد ليكوّن ما يشبه الفطر.

منذ الصباح، منذ أن علمت «ناتاشا» بجرح الأمير آندريه وبوجوده بينهم، وطدت العزم على أن تراه. لم تكن تدري لِمَ وطدت العزم، لكنها كانت تعلم كأن هذه المقابلة ستكون مؤلمة، وكانت قانعة أشد قناعة أنها، من أجل ذلك، ضرورية.

عاشت طوال النهار على أمل رؤيته في الليل. لكن عندما أزفت

الآن اللحظة المنتظرة استولى عليها الرعب بسبب تصورها لما ستراه. إلى أي حد شُوّه؟ ماذا بقي منه؟ أهو مثل ذلك المساعد العسكري الذي لا يكف عن الأنين؟ نعم، كان كذلك. كان في خيالها تجسيداً لهذا الأنين الفظيع. وعندما شاهدت في الزاوية كتلة غير واضحة المعالم، وظنت ركبتيه اللتين ترفعان الغطاء كتفين، تمثلت جسداً شنيعاً ووقفت مرعوبة. لكن قوة لا تقهر كانت تشدها إلى الأمام. وخطت باحتراس خطوة، ثم خطت خطوة أخرى، فألفت نفسها وسط غرفة صغيرة مزحومة. لقد نام شخص تحت الأيقونات (هو تيموخين) واستلقى آخران على الأرض (هما الطبيب والخادم).

نهض الخادم وهمس شيئاً. وراح «تيموخين» الذي أرّقه وجع ساقه وحال بينه وبين النوم، يُحدّق في هذا الشبح الغريب، شبح فتاة في قميص أبيض وقبعة نوم. لكن الكلمات المذعورة التي قالها الخادم وهو بين النوم واليقظة: «ماذا تريدين؟ ماذا جئت تفعلين، هنا؟» دفعتها إلى أن تستعجل للاقتراب من ذاك الذي يستلقي في الزاوية. لابد أن ترى ذلك الجسد، مهما يكن شبهه بالجسد الإنساني قليلاً. مرت أمام الخادم فسقط قطر الشحم ورأت بوضوح الأمير آندريه مستلقياً، ويداه على الغطاء، كما عهدته من قبل.

كان كسابق عهده؛ لكن وجهه المحموم، وعينيه اللامعتين المحدّقتين فيها بحماسة، ولاسيما عنقه الغض، الطفولي الذي برز من ياقة قميصه كل ذلك أسبغ عليه مظهراً خاصاً، بريئاً، فتياً، لم تعهده من قبل. اقتربت منه وجثت على ركبتيها بحركة سريعة، مرنة، فتية.

فابتسم ومد لها يده..

***

الفصل الثاني والثلاثون

مضت سبعة أيام على الأمير آندريه منذ أن استعاد وعيه في مركز إسعاف في ساحة معركة «بورودينو». وخلال هذه المدة كلها لم يكد يستفيق من غيبوبته. فحالة الحمى والالتهاب الذي أصاب أمعاءه كانا كفيلين بالقضاء عليه، برأي الطبيب الذي كان يرافق الجريح. لكنه، في اليوم السابع، أكل بشهية قطعة خبز وشرب شاياً، وشاهد الطبيب انخفاض الحمى. وفي الصباح، استفاق الأمير آندريه من غيبوبته. لقد تُرك، في الليلة الأولى بعد الرحيل عن موسكو، وكان الجو بديعاً، تُرك في العربة. لكن الجريح نفسه طلب في «ميتيستشي» أن يُنقل إلى البيت وأن يُقدم له الشاي. ولقد برح به ألم النقل وأفقده وعيه مرة أخرى. وعندما أضجع على سرير الميدان ظل زمناً طويلاً ممدداً بلا حراك، مغمض العينين. ثم فتح عينيه وتمتم: «والشاي؟». أذهل الطبيب هذا التذكر للتفاصيل الدقيقة، فجسّ نبضه وإذا به يصاب بالدهشة والامتعاض لأنه وجده أحسن حالاً. أصيب بالامتعاض لأنه كان قانعاً بتجربته أن الأمير آندريه لا يمكن أن يعيش وأنه إن لم يمت الآن فسوف يموت بعد ذلك بزمن، مقاسياً آلاماً أشد تبريحاً. وفي الوقت الذي نقل فيه الأمير آندريه، نُقل نقيب آخر من فوجه، هو «تيموخين»، الضابط ذو الأنف الاحمر الذي جُرح في ساقه في معركة «بورودينو». وكان يرافقه الطبيب وخادم الأمير وحوذيّه ووصيفان.

قُدم الشاي للأمير آندريه فشربه بنهم، وعيناه المحمومتان شاخصتان قدّامه في الباب، وكأنه يجهد في فهم شيء ما أو تذكره، وقال:

– كفى شاياً.

ثم سأل:

– هل «تيموخين» هنا؟

فجرّ «تيموخين» نفسه على المقعد:

– أنا هنا، يا صاحب السعادة.

– وكيف حال جرحك؟

– جرحي؟ لابأس. وجرحك؟

عاد الأمير آندريه إلى التفكّر وكأنه يفتش في ذاكرته، وقال:

– ألا يمكن الحصول على الكتاب؟

– أي كتاب؟

– الإنجيل! ليس معي إنجيل.

وعده الطبيب أن يُحضر له الإنجيل وسأله عما يحسّه من آلام. فأجاب الأمير آندريه، على مضض، عن أسئلة الطبيب بما يناسبها، ثم قال! إنه بحاجة إلى مسند تحته، وأنه يتضايق بدون مسند ويتألم كثيراً. ورفع الطبيب والخادم المعطف الذي كان يغطيه وكشّرا من رائحة اللحم النتن، وفحصا الجرح المخيف. أظهر الطبيب انزعاجه من شيء ما، فعدّل الضماد وأدار الجريح على نحو أحس معه بالوجع وفقد وعيه وأخذ يهذي. وكان يردد الشيء نفسه باستمرار، وهو أن يؤتى بهذا الكتاب، على جناح السرعة، وأن يوضع بجنبه.

كان يقول بصوت مثير للشفقة:

- مـاذا يكلفكم ذلـك! هذا الكتاب ليس عندي، فائتوني به، أرجوكم، ضعوه هنا لحظة.

خرج الطبيب إلى البهو ليغسل يديه. وقال للخادم الذي كان يصب الماء على يديه:

- آه! لا ضمير لكم، في الحقيقة. يكفي أن أدير ظهري لحظة. لقد بلغت أوجاعه حداً بعيداً ويُدهشني أنه يتحملها.

قال الخادم:

- أظن أننا فعلنا كل ما ينبغي فعله، يا رب، يا يسوع.

أدرك الأمير آندريه، لأول مرة، حقيقة الأمر، أدرك ما وقع له؛ تذكر أنه جريح وأنه طلب أن يُنقل إلى الكوخ الخشبي في اللحظة التي توقفت فيها العربة في «ميتيستشي». ثم تشوشت أفكاره من جرّاء الألم. وعاد إلى وعيه ثانية في الكوخ حين شرب الشاي؛ وعندما استعاد في ذاكرته كل ما وقع له، عاش ثانية، وبقدر أكبر من الحدة والقوة، تلك اللحظة التي رأى فيها، في مركز الإسعاف، آلام ذلك الرجل الذي كان يكرهه، فاجتاحته آنذاك أفكار جديدة تبشّر بالسعادة. هذه الأفكار، مع أنها مشوشة مبهمة غزت روحه ثانية. تذكر أنه يملك الآن سعادة جديدة، وأن هذه السعادة مرتبطة بالإنجيل. ومن أجل ذلك طلب إنجيلاً. ولكن الوضع السيء الذي وُضع فيه جرحه عندما أداره الطبيب شوش أفكاره مرة أخرى، وعاد للمرة الثالثة إلى الحياة في صمت الليل المطبق. كان الجميع ينامون حوله. صرّ صرصور في الجانب الآخر من البهو، وصرخ في الشارع رجل ورفع صوته مغنياً، وخشخشت على الطاولة

والأيقونات والجدران بنات وردان، وأخذت ذبابة كبيرة تصطدم بوسادة رأسه وتطنّ حول شمعة الشحم الموضوعة إلى جنبه والتي سالت لتكوّن قطراً كبيراً.

لم تكن نفسه في حالة طبيعية. فالعادة أن الرجل السليم المعافى يفكر في عدد لا يحصى من الأشياء ويحس بها ويتذكرها في آن واحد، لكنه يملك القدرة والقوة، حين يختار زمرة من الأفكار والتصورات، أن يركز انتباهه عليها. الرجل السليم يستطيع أن ينتزع نفسه من أعماق التأملات ليقول كلمة لطيفة لزائر دخل ثم يعود بعد ذلك إلى أفكاره. لكن نفس الأمير آندريه لم تكن في حالة طبيعية، بهذا الصدد. كانت جميع ملكاته الذهنية أشد نشاطاً وصفاء من ذي قبل. لكنها كانت تعمل بمعزل عن إرادته. كانت تجتاحه أشد الصور والأفكار اختلافاً، في آن معاً. فقد يشرع فكره في العمل بقوة وصفاء وعمق كان عاجز عنها إذ هو سليم معافى، وإذا بفكره يتحطم وهو في عنفوان نشاطه، وإذا بصورة غير متوقعة تحل محل الفكرة التي كان يتعذر عليه أن يعود إليها.

كان يفكر وهو مضطجع في الغرفة التي خيم عليها الصمت، وخالط ظلمتها النور، وقد حدّق أمامه بعينيه اللتين وسّعتهما الحمى: «نعم، إن سعادة جديدة تجلت لي، سعادة لا يجوز التصرف بها، سعادة مستقلة عن القوى المادية والمؤثرات الخارجية، سعادة الروح وحدها، سعادة الحب! كل إنسان يستطيع أن يفهمها، لكن الله وحده هو الذي أعلنها وأمر بها. لكن لم سنّ الله هذا القانون؟ لم الابن؟... وفجأة، انقطع خيط أفكاره وسمع الأمير آندريه (وهو لا يعلم إن كان ذلك في هذيانه أم في الحقيقة) صوتاً عذباً، هامساً: «إي –بيتي –بيتي –بيتي»، ثم: «إي –تي –تي»، وأيضاً: «إي بيتي –بيتي –بيتي» وأيضاً «إي –تي –تي». وفي الوقت نفسه، وعلى صوت هذه الموسيقى الهامسة،

أحس الأمير آندريه أن بناء هوائياً يرتفع فوق وجهه، في وسطه بالذات، مصنوعاً من الإبر الدقيقة ومن شظايا الخشب. أحس (وإن شق ذلك عليه) أنه ينبغي عليه المحافظة على توازنه بعناية لكي لا ينهار البناء؛ لكنه كان ينهار مع ذلك ثم لا يلبث أن يرتفع مرة أخرى، ببطء، على إيقاع الموسيقى الهامسة. كان يقول في نفسه: «إنه يمتد! إنه يطول ويمتد أبداً». وفي الوقت الذي كان يُصغي فيه إلى هذا الهمس، والذي كان يحس فيه بامتداد هذا البناء من الإبر وتطاوله، كان يلمح لمحاً خاطفاً الهالة الحمراء حول الشمعة، ويسمع خشخشة بنت وردان وطنين الذبابة التي كانت تتخبط على الوسادة وعلى وجهه، وكلما لامست الذبابة وجهه أحس بلذع الحرق، ودهش في الوقت نفسه لأن الذبابة لم تدمر البناء وهي تصدم الموضع نفسه الذي قام فيه ذلك البناء، فوق وجهه، وفضلاً عن ذلك، كان هناك شيء خطير. كان ذلك شيئاً أبيض بجنب الباب، كان تمثالاً لأبي الهول يضغط هو أيضاً عليه.

وفكر الأمير آندريه: «لعله قميصي الملقى على الطاولة، وهاتان ساقاي هنا، وذاك هو الباب هناك، لكن لِمَ يمتد كل شيء ويطول؟ ولِمَ هذا الهمس «بيتي –بيتي –، إي –تي، تي، تي، إي بيتي –بيتي –بيتي...؟».

ثم قال متألماً وكأنه يسأل أحد الناس:

– كفى، كفى، أرجوك. وفجأة عاد إلى تفكيره وإحساسه بوضوح وقوة خارقين:

وفكر مرة أخرى تفكيراً ينمّ على صفاء ذهني تام: «نعم، الحب، لكنه ليس ذلك الحب الذي له علته ومسوّغه وهدفه، وإنما هو ذلك الحب الذي شعرت به لأول مرة عندما رأيت عدوي، وأنا مشرف

على الموت، فأحببته مع ذلك. شعرت بعاطفة الحب الذي هو جوهر النفس والذي لا حاجة به إلى موضوع له. وأنا أحس، الآن أيضاً، بهذه العاطفة السعيدة. أن يحب المرء قريبه، أن يحب أعداءه، أن يحب كل شيء، ذلك يعني أنه يحب الله في جميع تجلّياته. يمكننا أن نحب كائناً عزيزاً حباً بشرياً؛ لكن العدو وحده هو الذي نستطيع أن نحبه حباً إلهياً. لذلك أحسست بفرح عظيم عندما شعرت أنني أحب هذا الرجل. ماذا جرى له؟ هل هو حي؟... عندما نحب حباً بشرياً يمكننا أن نتحول من الحب إلى البغض؛ أما الحب الإلهي فلا يناله التحول. لا شيء يمكن أن يدمره، حتى ولا الموت. إنه جوهر النفس. ومع ذلك، فما أكثر الناس الذين كرهتهم في حياتي.. ولم أحب أحداً منهم جميعاً ولم أكره أحداً منهم جميعاً كما أحببتها وكرهتها». وتمثل «ناتاشا» بشدة، لا كما كان يتمثلها قديماً بسحرها الأخّاذ وحده؛ بل إنه تمثل روحها. وأدرك عواطفها وألمها وخجلها وندمها. ولأول مرة أدرك الآن فظاظة رفضه، رأى فظاظة فسخه الخطبة. «ليتني أستطيع أن أراها مرة واحدة فقط، مرة واحدة أقول لها فيها وأنا أنظر في عينيها...».

بيتي –بيتي –بيتي، بيتيي بوم! اصطدمت الذبابة... وفجأة تحول انتباهه إلى عالم آخر من الواقع والهذيان، عالم يجري فيه شيء فريد. في هذا العالم أيضاً، مازال البناء يرتفع دون أن ينهار، مازال هناك شيء يمتد ويتطاول، مازالت الشمعة تحترق في هالة حمراء، مازال القميص –أبو الهول عند الباب؛ لكن هناك فوق ذلك كله قرقعة ونفحة هواء باردة وشبحاً جديداً، أبيض، لأبي الهول، يظهر أمام الباب. وكان أبو الهول هذا شاحب الوجه وله عينا «ناتاشا» الملتمعتان اللتان كان يفكر فيهما قبل حين.

فكر الأمير آندريه وهو يحاول أن يطرد هذا الوجه من خياله:

«أوه! ما أشد إيلام هذا الهذيان الذي لا ينتهي!». لكن هذا الوجه ظل أمامه قوياً كقوة الحقيقة، وأخذ يدنو. أراد الأمير آندريه أن يعود إلى هذا العالم من الفكر الخالص، لكنه لم يستطع، وكان الهذيان يشده إلى أرضه. واستمر الصوت العذب الهامس في وشوشته الموقعة، وكان على صدره شيء يخنقه ويمتد ويتطاول. وظل الوجه الغريب أمامه. استجمع الأمير آندريه كل قواه ليتمالك نفسه؛ تحرك قليلاً وفجأة امتلأت أذناه بالطنين، وتشوش بصره، وغاب عن وعيه كما ينزلق المرء من مكان عمودي. وعندما ثاب إلى نفسه، كانت «ناتاشا»، ناتاشا الحية التي أراد أن يحبها قبل غيرها من البشر ذلك الحب الجديد، النقي، الإلهي الذي تجلى له، كانت جاثية على ركبتيها أمامه. وأدرك أنها «ناتاشا» الحية، «ناتاشا» الحقيقية، فلم يشعر بالدهشة وإنما شعر بالفرح العذب. كانت «ناتاشا» راكعة، تنظر إليه مرعوبة، لكنها كانت مشدودة إليه (لم تكن تستطيع أن تتحرك)، تحبس زفراتها. كان وجهها شاحباً، جامداً، إلا جزءه الأسفل الذي كان يرتعش.

تنفس الأمير آندريه الصعداء وتبسم ومد لها يده، وقال:

- هذا أنت؟... ما أسعدني!

دنت منه «ناتاشا» على ركبتيها، بحركة سريعة محترسة، وتناولت يده برفق، وانحنت بوجهها عليها وقبلتها وهي لا تكاد تلامسها بشفتيها.

وهمست وهي ترفع رأسها وتنظر إليه:

- اصفح عني! اصفح عني!

قال الأمير آندريه:

- عمّ أصفح؟

وهمست ناتاشا همساً متقطعاً لا يكاد يسمع:

– اصفح عما... فعلت.

وغطت يده بالقبل وهي لا تكاد تلامسها بشفتيها.

قال الأمير آندريه:

– أحبك أكثر مما أحببتك من قبل.

ورفع وجهها بيده ليرى عينيها.

كانت عيناها المغرورقتان بدموع الفرح تنظران إليه بخَفَر وحنو وفرح وحب. كان وجه «ناتاشا» النحيل، الشاحب، ذو الشفتين المنفوختين، بعيداً عن أن يكون جميلاً، كان مخيفاً. لكن الأمير آندريه لم يكن يرى هذا الوجه، كان يرى هاتين العينين المشعّتين الجميلتين. ثم ارتفع اللغط وراءهما.

ذلك أن الخادم الذي استيقظ تماماً، أيقظ بدوره الطبيب. وكان تيموخين الذي حال وجع ساقه بينه وبين النوم يرى منذ زمن بعيد كل ما يجري، متكوّراً على مقعده، وقد أمعن في تغطية جسْده المتعري بالغطاء.

قال الطبيب وهو ينهض من مضجعه:

– ماهذا؟ تفضلي بالانصراف، يا آنسة.

وفي اللحظة نفسها جاءت خادمة أرسلتها الكونتيسة تقرع الباب.

وكما يخرج المسرنم من نومه، كذلك خرجت «ناتاشا» من الغرفة ودخلت الغرفة الأخرى، وارتمت على مضجعها وهي تنتحب.

منذ هذا اليوم، وطوال بقية رحلة آل «روستوف»، عند كل الوقفات والمراحل، لم تترك «ناتاشا» الجريح. واضطر الطبيب إلى الاعتراف بأنه لم يكن يتوقع أن يجد لدى فتاة مثل هذا الثبات ومثل تلك المهارة في العناية بالجريح.

ومهما تكن رهيبة تلك الفكرة التي بدت للكونتيسة وهي أن الأمير آندريه قد يموت أثناء السفر بين ذراعي ابنتها (وهو شيء جدّ محتمل على حد قول الطبيب فإنها لم تستطع أن تحول بين ناتاشا وبينه. ومع أن تقارب الأمير آندريه و«ناتاشا» يوحي بعودة علاقاتهما كخطيبين في حال شفائه، إلا أن أحداً لم يتطرق إلى هذا الموضوع، وكان الأمير آندريه وناتاشا أقل الناس اكتراثاً له، ذلك أن مسألة الحياة أو الموت المعلقة، لا فوق «بولكونسكي» وحده وإنما فوق روسيا بأسرها، كانت تطغى على همومهما الأخرى.

***

الفصل الثالث والثلاثون

استيقظ بطرس في الثالث من أيلول. كان يحس بصداع في رأسه وكانت ثيابه التي لم يخلعها عندما نام تضايقه، وكان شعوره الغامض بأنه أتى في الليلة الفائتة أمراً شائناً يؤوده؛ كان ذلك الأمر الشائن حديثه مع النقيب «رامبال».

أشارت الساعة إلى العاشرة. لكن الجو بدا في الخارج شديد العتمة. فنهض بطرس وفرك عينيه، وعندما رأى المسدس ذا القبضة المحفورة الذي أعاده «جيراسيم» إلى الطاولة، تذكر الموضع الذي كان فيه وتذكر ما كان عليه أن يقوم به في هذا اليوم بالذات. وفكر: «لعلي تأخرت؟ لا، لا لن يدخل موسكو قبل الظهر». وأبى بطرس على نفسه بعد ذلك أن يفكر فيما كان عليه أن يفعله، لكنه كان يستعجل ليعمل بأسرع ما يمكن.

بعد أن أصلح هندامه أخذ المسدس وتهيأ للانصراف. لكنه تساءل حينئذ لأول مرة، كيف سيحمل مسدسه في الشارع، وهو لن يحمله بيده. لقد كان من الصعب أن يخفي مثل هذا المسدس الكبير حتى تحت قفطانه الفضفاض. و لم يكن يستطيع أن يضعه في حزامه ولا تحت ذراعه دون أن يفطن إليه الآخرون. وفضلاً عن ذلك، فإن المسدس كان فارغاً و لم يتسنّ له أن يعيد حشوه. وقال في نفسه: «لا أهمية لذلك، فالخنجر

معي» هذا مع أنه حدّث نفسه غير مرة وهو يفكر بتنفيذ مشروعه أن الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه طالب سنة ١٨٠٩ هو أنه أراد أن يقتل نابليون بخنجر. وأخذ على عجل الخنجر المثلم، الكابي الحد، في غمده الأخضر، وكان قد اشتراه من برج «سوكاريف» مع المسدس، وأخفاه تحت صدرته، وكأنما لم تكن غايته أن يحقق هدفه بل أن يظهر لنفسه أنه لا يتخلى عنه وأنه يفعل كل شيء من أجله.

خرج بطرس من الممر إلى الشارع، بعد أن شد حزام قفطانه، وكبس قبعته فوق عينيه، وهو يجهد في ألا يحدث صوتاً.

كان الحريق الذي نظر إليه مساء البارحة بكثير من عدم الاكتراث قد اتسع اتساعاً كبيراً أثناء الليل. كانت موسكو تحترق الآن من جميع جهاتها. وبلغت النار معرض العربات، والحي الواقع وراء الموسكوفا، و«غوستيني دفور» وشارع «بوفارسكايا»، والقوارب في المموسكوفا، وسوق الأخشاب قرب جسر «دورغو ميلوفو».

كانت طريق بطرس تمر من أزقة، ومن شارع «بوفارسكايا» إلى «الآربات» وتفضي إلى كنيسة القديس نيكولا حيث حدد في خياله، منذ زمن بعيد، الموضع الذي سينجز فيه عمله. كانت البوابات والمصاريع في معظم البيوت مغلقة، والشوارع والأزقة مقفرة، والهواء يفوح برائحة الحريق والدخان. وبين الحين والآخر كان المرء يلتقي روساً وجوههم قلقة ووجلة، وفرنسيين يمشون مشية عسكرية في وسط الشارع. كانوا جميعاً ينظرون إلى بطرس بدهشة. كان يجتذب انتباه الروس لأنهم لم يكونوا يفلحون في تحديد الطبقة الاجتماعية التي يمكن أن ينتمي إليها هذا الرجل، فضلاً عن طول قامته وبدانته، وما ينطق به وجهه وشخصه كله من تجهم وانكماش وهم. أما الفرنسيون فكانوا يتطلعون إليه بدهشة لأنه لم يكن يعيرهم انتباهه، خلافاً لجميع الروس

الذي كانوا ينظرون إليهم بفضول متخوف. وعند بوابة أحد المنازل أوقفه ثلاثة فرنسيين كانوا يكلمون روساً دون أن يوفقوا في إفهامهم، ليسألوه إن كان يعرف الفرنسية.

أومأ بطرس برأسه نافياً وتابع طريقه. وفي زقاق آخر، صاح به حارس كان يقوم بالحراسة أمام صندوق أخضر، و لم يفهم بطرس أنه يجب عليه المرور من الجانب الآخر للشارع إلا بعد الإنذار الثاني وبعد أن رفع الحارس بندقيته مهدداً. لم يكن يسمع أو يرى شيئاً حوله. وكان يحمل في نفسه، وهو مستعجل فزع، مشروعه وكأنه شيء رهيب وغريب يخاف -متعلماً من تجربة الليلة السابقة- أن يضيع منه. لكن بطرس لم يتح له أن يحتفظ بحالته النفسية سليمة حتى الموضع الذي كان يتجه إليه. وفوق ذلك، فلو أن شيئاً لم يستوقفه في الطريق لما أمكن لمشروعه أن يتحقق، لهذا السبب الوجيه وهو أن نابليون مر من ضاحية «دورو غوميلوفو»، عبر الآربات إلى الكريملين، منذ أكثر من أربع ساعات، وأنه يقيم الآن في مكتب القياصرة، وهو في أشد حالاته النفسية اكفهراراً، ويصدر أوامر مفصلة، دقيقة، عن التدابير المباشرة التي يجب أن تتخذ لإطفاء الحريق، والحيلولة دون النهب، وتهدئة السكان. لكن بطرس لم يكن يعلم ذلك، كان يتعذب، وهو مستغرق فيما سيتم استغراقاً كاملاً، كما يتعذب الذين يصرون على تحقيق المحال، لا بسبب صعوباته بل بسبب التعارض بين المشروع وطبيعته هو، كان يرتجف خوفاً من أن يضعف في اللحظة الحاسمة وأن يفقد من ثم، تقديره لنفسه.

ومع أنه لم ير أو يسمع شيئاً حوله، فإنه كان يتجه بغريزته، دون أن يخطئ في اختيار الأزقة التي ستقضي به إلى شارع «بوفار سكايا». كان الدخان يتكاثف كلما اقترب بطرس من هذا الشارع، وحرارة الحريق تشتد. وبين الحين والحين. كانت ألسنة اللهب تنبعث من

سطوح المنازل، وقد غدت الشوارع أحفل بالناس، وغدا الناس أشد قلقاً واضطراباً. ومع أن بطرس أحس أن شيئاً مخالفاً للمألوف يجري حوله، لكنه لم يتبين أنه كان يقترب من الحريق. وبينما كان يسير في طريق يمر عبر أرض خلاء مجاورة من جهة لشارع «بوفارسكايا»، ومن جهة أخرى لحدائق قصر الأمير «غروزنسكي»[1]، سمع فجأة على مقربة منه، نحيب امرأة يمزق القلب. فوقف ورفع رأسه وكأنه يفيق من حلم.

إلى جانب الطريق، على العشب اليابس، تكدست أشياء منزلية: لحف وسماور وأيقونات وصناديق. وقرب الصناديق، جلست، على الأرض، امرأة هزيلة متقدمة في السن، طويلة الأسنان الأمامية، مرتدية معطفاً طويلاً أسود وواضعة على رأسها قبعة. كانت هذه المرأة تتمايل وهي تنوح وتذرف دموعاً ساخنة، وتردد شيئاً. وبجنبها طفلتان في العاشرة والثانية من عمرهما، تلبسان فسطانين وسخين قصيرين ومعطفين صغيرين، كانتا تنظران إلى أمهما بحيرة بادية على وجهيهما الشاحبين الخائفين. بينما راح يبكي بين ذراعي المربية العجوز طفل أصغر منهما، في نحو السابعة من عمره، يلبس بلوزة وقبعة ضخمة أكبر من رأسه.

وجلست خادمة قذرة حافية القدمين على صندوق، وقد حلّت شعرها الأشقر المائل إلى الصفرة وأخذت تنتزع منه شعرات شقراء ترفعها إلى أنفها. أما الزوج فكان رجلاً قصير القامة، محدودب الظهر، في بزة موظف، له سالفان مقوسان، وصدغان أملسان كشفت عنهما قبعته المستقيمة على رأسه، وكان يحرك الصناديق التي وضعت بعضها فوق بعض، وهو جامد الوجه، ويسحب من تحتها ثياباً.

١– أمراء آل غروزنسكي أبناء آخر ملك لجيورجيا.

ألقت المرأة بنفسها عند قدمي بطرس حين شاهدته، وقالت خلال نحيبها:

- خلّصونا أيها الأخيار، أيها المسيحيون الأرثوذكسيون، ساعدنا أيها السيد الكريم!... ليمد إلينا أحدكم يد المساعد. ابنتي الصغيرة!... ابنتي!.. تركنا ابنتي الصغيرة!. لقد احترقت! أوه! أوه! أوه! أمن أجل ذلك دلّلتك... أوه! أوه! أوه!

قال لها زوجها بتؤدة، ولاريب أنه كان يريد أن يبرئ نفسه أمام إنسان آخر لا غير:

- اهدئي، يا «ماريا نيكولايفنا»

وأردف:

-لابد أن أختك أخذتها، وإلا فأين يمكن أن تكون!

صاحت المرأة بحقد ولقد كفّت فجأة عن البكاء:

- أيها الوحش، الأثيم! أنت عديم القلب، عديم الرأفة بابنتك. لو كان أبوها غيرك لأنقذها من النار.

وقالت لبطرس بسرعة وهي تنتحب:

- هذا وحش، وليس رجلاً ولا أباً. وأنت رجل نبيل القلب.

كانت النار بجانبنا وامتدت إلى بيتنا... صرخت الخادمة: النار! فهرعنا لنجمع حاجاتنا واندفعنا إلى الخارج وعلى ظهورنا ما جمعناه... انظر إلى ما استطعنا حمله... الأيقونة وجهاز العرس، أما ما سوى ذلك فقد ضاع. تطلعت فلم أجد «كاتيا» أوه! أوه! أوه! يا إلهي..

واستأنفت نحيبها:

– ابنتي الصغيرة الغالية، لقد احترقت، احترقت!

سألها بطرس:

– وأين بقيت، أين؟

أدركت المرأة من انتعاش وجهه أنه قادر على مساعدتها. فصرخت وهي تضم ركبتيه بذراعيها:

– يا سيدي الكريم! أيها المحسن إلي، طمئن قلبي على الأقل...

وصاحت بالخادمة وهي تفغر فمها الغاضب وتمعن في الكشف عن أسنانها الطويلة:

– «أنيسكا»، اذهبي، يا خبيثة، ودلّيه على الطريق.

قال بطرس باندفاع وبصوت لاهث:

خذيني إلى البيت، خذيني، أنا... أنا... أنا سأفعل ذلك.

خرجت الخادمة القذرة من خلف الصندوق وسارت، وهي تُصلح ضفيرتها وتتنهد، بقدميها العريضتين العاريتين على الطريق أمام بطرس. وكأنما عاد بطرس إلى الحياة فجأة بعد إغماء عميق، فرفع رأسه، وتوقّد بريق الحياة في عينيه، وتبع الخادمة بخطوات حثيثة ثم سبقها ودلف إلى شارع «بوفارسكايا». كان الشارع كله مغطى بسحابة من الدخان الأسود. وكانت تنبعث منه في بعض المواضع ألسنة اللهب، وقد أخذ جمهور غفير يزدحم أمام اللهب. وفي وسط الشارع، كان جنرال فرنسي يقول شيئاً للذين يحيطون به. فلما أوشك أن يقترب بطرس والخادمة من الموضع الذي يقف فيه الجنرال الفرنسي، أوقفه الجنود الفرنسيون. وصاح به صوت:

– المرور ممنوع.

فصرخت الخادمة:

– تعال من هنا، سنمر من الزقاق ومن فناء آل «نيكولين».

عاد بطرس أدراجه وتبعها وهو يوسع خطاه بين الحين والآخر كي لا يتخلف عنها. عبرت الخادمة الشارع راكضة، وعرّجت إلى اليسار في زقاق، وبعد ثلاثة بيوت، انعطفت إلى اليمين من بوابة، وقالت:

– سنصل عما قريب. واجتازت الفناء جارية، وفتحت بويب حِباك، ووقفت وأرت بطرس جناحاً من الخشب يلتهب بلهب خالص ويُشيع حرارة قوية، وقد انهار جانب منه وأخذ الجانب الآخر يشتعل، ولهب النار ينبعث من فتحات النوافذ ومن السقف.

عندما اجتاز بطرس الباب الصغير آذته الحرارة فوقف بالرغم منه، وسألها:

– أي البيوت بيوتكم، أيها؟

فزعقت الخادمة، وهي تشير إلى الجناح الذي يحترق، شاعرة بالحاجة إلى إظهار عواطفها أيضاً:

– أوه! ها هو ذا، هاهنا كان مسكننا. احترقت، يا كنزنا، «كاتيا»، يا آنستي الصغيرة!.

أراد بطرس أن يدنو من الجناح، لكن الحرارة كانت من الشدة بحيث أنه اضطر إلى أن يدور حوله فألفى نفسه قرب منزل كبير يحترق جانب من سقفه فقط، ومن حوله تحشّد جمهور من الفرنسيين. لم يدرك بطرس أول الأمر ما كان يفعله هؤلاء الفرنسيون الذين كانوا

يجرون شيئاً، لكنه لما رأى أحدهم يضرب فلاحاً بصفيحة سيفه وهو يحاول أن ينتزع منه فروة من جلد الثعلب، أدرك، على نحو غامض، أنهم كانوا مشغولين بالنهب، بيد أنه لم يجد الوقت الكافي ليقف عند هذه الفكرة.

إن قرقعت الجدران والسقوف التي كانت تنهار وتقصّفها، وصفير النار وزفيرها، وصرخات الجمهور المهتاجة، ومنظر سحب الدخان التي كانت تتراكم سوداء صفيقة حيناً، وتثب حيناً آخر وهي أرق وقد رقّشها الشرار، ومنظر اللهب وهو يلعق الجدران أحمر كثيفاً ها هنا وكأنه الحزم، وشبيهاها هناك بالحراشف المذهبة، والإحساس بالحرارة، والدخان والاضطراب، كل ذلك ترك في بطرس ذلك الأثر المعتاد المهيِّج الذي يتركه الحريق. وقد بلغ من قوة هذا الأثر أنه لما رأى الحريق أحس فجأة بالخلاص من الأفكار التي كانت تؤوده، أحس أنه شاب، بهيج، حاذق وثابت العزم. دار حول الجناح من جهة المنزل راكضاً وأراد أن يندفع إلى الجزء الذي مازال صامداً عندما سمع أصواتاً تصرخ فوق رأسه، ثم سمع بعد ذلك مباشرة، قرقعة وضجة معدنية من شيء ثقيل يسقط بجنبه.

التفت بطرس فرأى في نوافذ البيت فرنسيين قد رموا درج صوان مملوءاً بأشياء معدنية. واقترب من الدرج جنود فرنسيون آخرون ظلوا على الأرض. صرخ أحدهم وهو يلمح بطرس.

– ما الذي يريده هذا؟

قال بطرس:

– أبحث عن طفل في هذا البيت. ألم تروا فيه طفلاً؟

قالت الأصوات:

- بم يَهذر هذا؟ امض في سبيلك.

وتقدم أحد الجنود مهدداً، وكأنه خشي أن يتجرأ بطرس فينازعهم ما في الدرج من فضيّات وبرونز.

صرخ أحد الفرنسيين من فوق:

- طفل؟ سمعت شيئاً يصيح في الحديقة. لعله صبي هذا المسكين. يجب أن يكون المرء إنسانياً، فهمتهم...

سأله بطرس:

- أين هو؟ أين هو؟

صاح الفرنسي به وهو يشير إلى الحديقة خلف البيت:

- من هنا! من هنا! انتظر، سأنزل.

والواقع أن الفرنسي، وهو فتى أسود العينين. في وجنته شامة، لا يلبس سوى القميص، قفز من نافذة الطابق الأرضي بعد لحظة وربت كتف بطرس وركض معه إلى الحديقة، وصرخ برفاقه:

- أسرعوا أنتم، أخذت الحرارة تشتد.

وسحب بطرس بذراعه ونفذ إلى خلف البيت على درب رملي وأراه شيئاً مدوراً. كان الشيء طفلة بنت ثلاث سنوات في ثوب وردي مستلقية تحت مقعد.

قال الفرنسي:

- هذا هو طفلك. آه طفلة، هذا أحسن! إلى اللقاء يجب أن يكون المرء إنسانياً. نحن جميعاً فانون.

وجرى الفرنسي ذو الشامة ليلحق برفاقه.

ركض بطرس إلى الصغيرة، وهو يختنق من الفرح، وأراد أن يأخذها بين ذراعيه. لكن الطفلة المعتلة، المصابة بداء الخنازير، الكريهة المنظر، الشبيهة بأمها، أخذت تصرخ لما رأت الغريب وولت هاربة. على أن بطرس أمسك بها ورفعها بين ذراعيه، فزعقت بصوت مفعم بالغضب الوحشي وحاولت بيديها الصغيرتين أن تفلت منه وعضت يديه بفهما الخانب. فاستولى على بطرس إحساس من الاستبشاع والتقزز كالذي يشعر به لدى ملامسة حيوان صغير. لكنه تحامل على نفسه لكي لا يرخي الطفلة وركض بها إلى البيت الكبير. بيد أن الرجوع على الطريق ذاته لم يكن ممكناً. و لم تكن «آنيسكا» هنا. فاندفع خلال الحديقة ليفتش عن مخرج آخر، وقد انتابه شعور من الرأفة والاشمئزاز، وهو يضم إلى صدره بكل حنان الطفلة المبللة التي كانت تبكي بكاء شديداً.

***

الفصل الرابع والثلاثون

عندما رجع بطرس بحمله إلى حديقة «غروزنسكي» عند زاوية شارع بوفارسكايا، ماراً بالأفنية والأزقـة، لم يتعرف في أول الامر الموضع الذي انطلق منه للبحث عن الطفلة، لفرط ما غص بالناس والأشياء التي سحبت من البيوت. ففضلاً عن العائلات الروسية التي جاءت بأرزاقها لتكون في مأمن من الحريق، كان هناك بعض الجنود الفرنسيين بألبسة شتى.

لم يلتفت بطرس إليهم. كان مستعجلاً للعثور على عائلة الموظف لكي يرد الطفلة إلى أمها ويعود لإنقاذ غيرها. وخيل إليه أن أعمالاً ملحة كثيرة تنتظره. كان يشعر في هذه اللحظة بعد أن حمي من جراء اللهب والركض، شعوراً أقوى بذلك الإحساس من الفتوة والاندفاع والعزم، وهو الإحساس الذي استولى عليه عندماهرع إلى نجدة الطفلة. وقدهدأت الطفلة واستقرت على ذراعـه متشبثة بقفطانه بيديها الصغيرتين، ناظرة حولها كالحيوان الوحشي الصغير. وكان بطرس يلقي عليها نظرة عجلى بين الحين والآخر وهو يبتسم ابتسامة خفيفة. كان يخيل إليه أنه يرى شيئاً مؤثراً وبريئاً في هذا الوجه المروِّع السقيم.

لم يبق الموظف ولا زوجته في المكان نفسه. كان بطرس يسير بخطوات حثيثة وسط الجمهور وهو يتصفح الوجوه التي يصادفها.

لاحظ بالرغم منه عائلة جيورجية أو أرمنية تتألف من شيخ بهي الطلعة، شرقي السمات، يلبس معطفاً جديداً من الفرو مغطى بالجوخ وينتعل حذاء جديداً، ومن عجوز لها السمات الشرقية ذاتها ومن امرأة شابة. وبدت هذه المرأة لبطرس في منتهى الجمال الشرقي، بحاجبيها الفاحمين المقوسين وبوجهها الجميل، المائل إلى الطول، ذي اللون الوردي الفاتح إلى أبعد الحدود، العاري من أي تعبير. إن هذه المرأة بمعطف الساتان الفاخر الذي تلبسه وبوشاحها البنفسجي اللامع الذي تغطي به رأسها كانت تذكّر، وسط هذه الأشياء المبعثرة، وبين هذا الجمهور المحتشد في الساحة، بنبتة دقيقة انتزعت من بيتها الزجاجي وألقي بها على الثلج. كانت جالسة على بعض الحزم، خلف العجوز قليلاً، تنظر إلى الأرض بعينيها اللوزيتين السوداوين الثابتتين اللتين تظللهما أهداب طويلة. وكأنما كانت تعلم بجمالها فخافت عليه. لقد راع وجهها بطرس فالتفت غير مرة بالرغم من عجلته وهو يمر بحذاء السياج. وعندما وصل إلى آخر السياج و لم يجد الذين يبحث عنهم وقف وهو ينقل البصر حوله.

أثار انتباه الناس شخص بطرس بهذا الطفل على ذراعيه، وتجمع حوله عدد من الروس، رجالاً ونساء.

وسألوه:

– هل فقدت أحداً، أيها الرجل الكريم؟ –أنت نبيل، أليس كذلك؟ لمن هذا الطفل؟

أجاب بطرس أن الطفل لامرأة ترتدي معطفاً أسود طويلاً كانت جالسة في هذا المكان مع أولادها وسأل إن كان يعلم أحد أين ذهب.

قال شماس عجوز مخاطباً امرأة مجدورة:

- لابد أنهم آل «انفيروف».

وأردف بصوت شعائري جهير:

- ارحمنا، يا رب، ارحمنا...

قالت المرأة:

- كيف، آل «انفيروف»؟ آل «انفيروف» رحلوا منذ الصباح. لابد أنها «ماريا نيكولايفنا» أو آل «إيفانوف».

وتدخل أحد الخدم قائلاً:

- لقد قال: امرأة، و«ماريا نيكولايفنا» سيدة.

قال بطرس:

- لابد أنكم تعرفونها، إنها امرأة هزيلة، أسنانها طويلة.

قالت المرأة:

- إنها «ماريا نيكولايفنا» بذاتها. لقد ذهبوا إلى الحديقة عندما انقض هؤلاء الذئاب علينا.

وأشارت إلى الجنود الفرنسيين.

أضاف الشماس مرة أخرى:

- أوه! يا رب، ارحمنا.

وأردفت المرأة:

- اذهب إلى هناك؛ إنهم هناك. إنها هي بعينها. لم تشأ أن تكف عن العويل والبكاء. إنها هي بعينها. من هنا.

لكن بطرس لم يكن يصغي إلى المرأة. لقد كان يحدق، منذ لحظات، فيما يجري على خطوات منه دون أن يرفع بصره عنه. كان ينظر إلى العائلة وجنديين فرنسيين اقتربا منها. كان أحد الجنديين رجلاً قصيراً، حركاً، يرتدي معطفاً أزرق تزنر عليه بقطعة حبل، على رأسه قبعة، ورجلاه حافيتان. أما الجندي الآخر الذي استرعى انتباه بطرس على نحو خاص، فكان شخصاً طويلاً، أشقر، هزيلاً، محدودباً، بطيء الحركة، غبي المظهر، يرتدي معطفاً من نسيج صوفي غليظ، وبنطالاً أزرق وينتعل جزمة عالية، بالية. اقترب الفرنسي القصير، الحافي، ذو المعطف الأزرق، من الأرمن، وقال شيئاً ثم ما لبث أن أمسك برجلي الشيخ الذي بادر من فوره إلى نزع حذائه. ووقف الجندي ذو المعطف أمام الحسناء الأرمنية، ساكناً، لا يفوه بكلمة، ينظر إليها ويداه في جيبه.

قال بطرس للمرأة على عجل وبلهجة آمرة وهو يمد إليها الطفلة:

- خذي الطفلة، خذيها.

ورفع صوته بما يشبه الصراخ وهو يضع الطفلة المعولة على الأرض:

- أعيديها إليهم، أعيديها!

واستدار نحو الفرنسيين والعائلة الأرمنية. كان الشيخ حافياً. لقد انتزع الفرنسي منه الفردة الثانية وأخذ يضربها بالأخرى. كان الشيخ يقول شيئاً وهو يبكي. لكن بطرس لم ير ذلك إلا خطفاً؛ كان كل انتباهه منصباً على الفرنسي الآخر ذو المعطف الذي كان يدنو، في هذه اللحظة، من المرأة الشابة، وهو يتهادى، ثم يخرج يديه من جيبيه ويمسك بعنق المرأة.

ظلت الحسناء الأرمنية جامدة، لا تحرك ساكناً، مسبلة أهدابها الطويلة، وكأنها لاترى ولا تحس ما كان يفعله الجندي.

بينما كان بطرس يقطع الخطوات التي تفصله عن الفرنسيين، كان النهاب الطويل، ذو المعطف، قد انتزع من عنق الأرمنية العقد الذي تقلدته، وقد أخذت المرأة الشابة تصرخ بصوت ثاقب ويداها على عنقها.

زمجر بطرس بصوت مليء بنار الحق وهو يقبض على الجندي المحدودب من كتفيه ويدفعه: دع هذه المرأة. فسقط الجندي ثم نهض وولى فاراً. لكن رفيقه رمى الجزمة واستل سيفه وأقبل على بطرس مهدداً، وصرخ به:

– اسمع، إياك والحماقات!

كان بطرس في عنفوان الهياج الذي أخرجه عن طوره وضاعف قواه إلى عشرة أمثالها. فانقض على الفرنسي الحافي القدمين، وقبل أن يتسنى له أن يستل سيفه، صرعه أرضاً وانهال عليه ضرباً بجمع كفه. انبعثت من الجمهور صرخات الاستحسان، وفي الوقت نفسه، أطلت من زاوية الشارع دورية من الرماحين الفرنسيين الفرسان. اقترب الرماحون خبباً من بطرس والفرنسي وأحاطوا بهما. لم يعلم بطرس شيئاً مما حدث بعد ذلك. تذكر أنه ضَرب وضُرب وأحسَّ في آخر الأمر أن يديه موثقتان، وأن جماعة من الجنود الفرنسيين أحاطوا به وأخذوا يفتشونه.

كانت أولى الكلمات التي وعاها بطرس:

– إن معه خنجراً، أيها الملازم.

قال الضابط:

– آه! سلاح!

والتفت إلى الجندي الحافي القدمين الذي أُلقي القبض عليه مع بطرس وقال:

– لابأس، ستروي ذلك كله للمجلس الحربي.

ثم التفت إلى بطرس وقال:

– أتتكلم الفرنسية، أنت؟

نقَّل بطرس حوله عينيه المحتقنتين بالدم ولم يجب. ولا ريب أن وجهه كان مُرعباً، لأن الضابط قال شيئاً بصوت خافت فانفصل عن الفصيلة أربعة من الرماحة ليحيطوا ببطرس.

وردد الضابط الذي وقف على مسافة من بطرس:

– أتتكلم الفرنسية؟ أحضروا المترجم.

فخرج من الصفوف رجل بلباس مدني روسي. وعرف بطرس على الفور من لهجته ولباسه أنه فرنسي في مخزن من مخازن موسكو.

قال المترجم بعد أن تفحص بطرس:

– لايبدو عليه أنه رجل من الشعب.

قال الضابط:

– أوه! أوه! يبدو لي أنه أحد مشعلي الحرائق.

وأردف:

– سله من هو.

فسأله المترجم:

– من أنت؟ يجب أن تجيب عن أسئلة السلطات.

قال بطرس فجأة بالفرنسية:

– لن أقول لكم من أنا. أنا أسيركم، فخذوني.

قال الضابط وهو يقطب حاجبيه:

– آه! آه! لنسر.

احتشد الجمهور حول الرماحين. كانت المرأة المجدورة ومعها الطفلة قرب بطرس؛ فلما تحركت الدورية تقدمت وقالت:

– إلى أين يقتادونك، أيها المسكين؟ والصغيرة؛ ماذا أفعل بها إن لم تكن لهم!

سأل الضابط:

– ماذا تريد، هذه المرأة؟

كان بطرس كالثمل. وازداد هياجه لدى رؤية الطفلة التي أنقذها، فقال:

– ماذا تقول؟ إنها تحمل إلي ابنتي التي أنقذتها من الحريق قبل برهة. الوداع!

وتقدم بخطوات ثابتة، مهيبة، دون أن يعلم كيف أمكن أن تفلت منه هذه الكذبة التي لا جدوى منها.

كانت هذه الدورية الفرنسية إحدى الدوريات التي أرسلت إلى

شوارع موسكو، بناء على أمر «دوروسنيل»، لقطع دابر النهب ولمطاردة مشعلي الحرائق الذي كانوا، بحسب الرأي العام الشائع بين الفرنسيين في هذا اليوم، سبباً للنكبات المادية. وقد أوقفت هذه الدورية، أثناء طوافها بعدد من الشوارع، خمسة مشبوهين من الروس وهم حانوتي وطالبان في معهد ديني وفلاح وخادم، كما أوقفت عدداً من النهابين. لكن بطرس كان يبدو، بين هؤلاء المشبوهين، أشدهم إثارة للشبهة. وعندما اقتادهم الفرنسيون لقضاء ليلتهم في بيت كبير عند سور «زوبوفو» حيث أقيم مركز للشرطة، وضع بطرس على حدة تحت الحراسة المشددة.

***

خلاصة الفصول

الكتاب الثالث

الجزء الأول

الفصل الأول: تأملات المؤلف في أسباب الأحداث التاريخية على العموم وفي حركة الشعوب الغربية من الغرب إلى الشرق سنة ١٨١٢. حول الحتمية في التاريخ...

الفصل الثاني: نابليون يغادر درسدن، وصوله إلى الجيش في بولونيا. الأمر بعبور النيمين وغزو روسيا. حماسة القطعات لنابليون. فوج من الفرسان البولونيين يعبر النهر سباحة....

الفصل الثالث: إقامة الامبراطور الكسندر، امبراطور روسيا في فيلنا. غياب الخطة العامة وعدم استعداد روسيا للحرب. ولائم وحفلات راقصة يقيمها على شرف الكسندر المساعدون العسكريون من الجنرالات. هيلين بيزوخوف وبوريس دروبتسكوي في الحفلة الراقصة. نبأ دخول القطعات الفرنسية إلى روسيا. رسالة الكسندر الاول على نابليون...

الفصل الرابع: الكسندر الأول يدعو بالاشيف ويحمله رسالة إلى نابليون. بالاشيف في المخافر الفرنسية الأمامية. اللقاء بينه وبين مورا وحديثهما....

الفصل الخامس: المارشال دافو يستقبل بالاشيف الذي يقضي أربعة أيام في المعسكر الفرنسي؛ وصوله إلى فيلنا التي يحتلها الفرنسيون....

الفصل السادس: نابليون يستقبل بالاشيف. حديثه مع امبراطور الفرنسيين. انفجار غضب نابليون...

الفصل السابع: نابليون يدعو بالاشيف إلى الغداء. احتفاء نابليون به. الحديث أثناء الغداء. الأجوبة الموفقة التي رد بها بالاشيف على أسئلة نابليون عن موسكو. سفر بالاشيف....

الفصل الثامن: الأمير آندريه يذهب إلى بطرسبرج بحثاً عن أناتول كوراجين، ثم يلتحق بالجيش في تركيا حيث يعين في أركان كوتوزوف، وفي سنة ١٨١٢ عند إعلان الحرب ينقل بولكونسكي إلى جيش الغرب، زيارته ليسييه خوري... خلافه مع أبيه بشأن أخته والآنسة بورين. سفر الأمير آندريه إلى الجيش...

الفصل التاسع: وصول بولكونسكي إلى معسكر دريسا. أركان المقر العام للامبراطور. الأفرقة والتيارات في الجيش. الفريق الألماني، بفويل وأتباعه، منظرو الحرب، فريق الروسي، باغراتيون، إيرامولوف، فريق البلاط، أركاتشيف وآخرون، فريق الدوق الأكبر دروميانتزيف، أنصار الصلح، أنصار باركلي دي تولي، فريق بينيغسن، فريق رجال الدولة، شيشكوف وآخرون، يوجهون رسالة إلى الكسندر الأول يقترحون عليه فيها ترك الجيش، أفرقة أخرى....

الفصل العاشر: تفقد الكسندر الأول وبينجسن وبولوتشي وبفويل لمعسكر دريسا...

الفصل الحادي عشر: بولوكشي يحدث الكسندر الأول وينتقد

معسكر دريسا. المجلس الحربي بفويل يعرض خطته، مناشقات. خواطر الأمير آندريه عن العلم العسكري والعبقرية العسكرية. عزمه على الخدمة في الصفوف لا في الأركان....

الفصل الثاني عشر: نيقولا روستوف يتلقى رسالة من أهله يرجونه فيها أن يتقدم باستقالته. رسالة نيقولا إلى صونيا. إنه يحلم بحياة وادعة في الريف. الحرب التي بدأت تحول بينه وبين تقديم الاستقالة. حياة فرسان فوج بافلوغراد أثناء المعارك في بولونيا. نيقولا روستوف وإيلين. مأثرة رايفسكي. خواطر روستوف بصدد هذه المأثرة...

الفصل الثالث عشر: مشهد في النزل، الضباط يغازلون ماريا هنريخوفنا، زوجة الطبيب؛ تناول الشاي؛ لعبة الورق...

الفصل الرابع عشر: انتقال كوكبة نيقولا روستوف إلى أستروفنيا. حالة روستوف النفسية قبل المعركة. بداية معركة اوستروفينا...

الفصل الخامس عشر: الاشتباك بين الرماحين الروس والفرسان الفرنسيين نيقولا روستوف يهاجم الفرنسيين بكوكبته ويأسر ضابطاً فرنسياً. الشعور الغامض الذي أحس به بعد أسر الضابط وخواطره عن مأثرته وعن البطولة....

الفصل السادس عشر: حياة آل روستوف في موسكو. مرض ناتاشا النفسي بعد فسخ خطبتها من الأمير آندريه. اغتمام الكونت والكونتيسة لمرض ابنتهما. الأطباء والرعاية التي أغدقت عليها...

الفص السابع عشر: نفسية ناتشا. تباعدها عن أهلها وتقربها من بطرس. اعترافها وتناولها...

الفصل الثامن عشر: نداء الامبراطور وبيانه عن الحرب يصلان إلى

موسكو. ناتاشا وأمها في كنيسة خاصة لآل رازوموفسكي، ردود فعل ناتاشا أثناء الصلاة. الصلاة لأجل خلاص روسيا التي غزاها العدو...

الفصل التاسع عشر: بطرس يعيش على عاطفته لناتاشا. حساباته التنبئية بناء على رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ إنه يظن نفسه مدعواً إلى القيام بعمل عظيم. يرسل إلى آل روستوف رسالة من نيقولا.

الفصل العشرون: بطرس يتعشى عند آل روستوف. التقاؤه ناتاشا وحديثهما. قراءة البيان عن الحرب. بيتيا يطلب من أهله أن يتطوع. بطرس يصمم، بعد أن وعى شعوره نحو ناتاشا، ألا يعود إلى منزل آل روستوف....

الفصل الواحد والعشرون: دموع بيتيا على أثر رفض أهله. وصول الكسندر الأول إلى موسكو. بيتيا يصمم على أن يطلب من القيصر السماح له بالتطوع في الجيش. بيتيا بين الجماهير في الكريملين. ردود فعل الجمهور. حماسة بيتيا. بيتيا يعلق في الزحام. عشاء الكسندر الأول في الكريملين. حادثة البسكويت.

الفصل الثاني والعشرون: اجتماع النبلاء والتجار في قصر سلو بودسكوي قراءة البيان وحديث النبلاء. خطبة بطرس. الهجوم عليه بسبب كلامه المفرط التحرر....

الفصل الثالث والعشرون: وصول روستوبتشين، ثم القيصر. وطنية النبلاء والتجار...

الجزء الثاني

الفصل الأول: تأملات المؤلف في الأحداث التاريخية ودور

الشخصيات التاريخية. دور الكسندر ونابوليون في أحداث ١٨١٢ ولمحة موجزة عن الحرب منذ البداية وحتى التخلي عن سمولنسك...

الفصل الثاني: ليسييه خوري، الأمير الشيخ بعد شجاره مع ابنه، يبعد الفرنسية. رسالة جوليا دروبتزكوي إلى الأميرة ماريا. رسالة من الأمير آندريه عن مجرى الحرب واقتراب العدو. ضعف ذاكرة الأمير الشيخ. الحديث بين الأمير الشيخ وديسال عن الحرب. الشيخ بولكونسكي يسيء تقدير الخطر الذي يمثله الاقتراب من مسرح العمليات...

الفصل الثالث: الأمير الشيخ في مكتبه يقرأ «ملاحظاته». إرسال الباتيتش إلى سمولنسك. الأمير يبحث عن موضع لسريره. حديثه مع تيخون بصدد رسالة الأمير آندريه. الأمير الشيخ يتذكر شبابه...

الفصل الرابع: سفر الباتيتش إلى سمولنسك. نزوله عند التاجر فيرابونتوف. حركة القطعات الروسية خلال المدينة. الباتيتش عند الحاكم. قصف سمولنسك. جرح طاهية فيرابونتوف. لقاء الباتيتش والأمير آندريه الذي كتب إلى أبيه رسالة يدعوه فيها إلى الرحيل بلا إبطاء إلى موسكو. تنديد بيرج، بصفته قادئاً للأركان، بالأمير آندريه.

الفصل الخامس: الأمير آندريه في الميدان مع فوجه. حالة الأمير آندريه النفسية. زيارته ليسييه خوري المقفرة. حديث مع الباتيتش؛ الأمير آندريه يظن، من جراء سوء الفهم، أن أباه وأخته وابنه قد سافروا إلى موسكو بينما هم في بوغاتشوروفو. استحمام الجنود في المستنقع. خواطر بولكونسكي بصدد الجنود (لحم المدفع). رسالة من باغراتيون إلى أراكتشيف تحمل تهماً موجهة على باركلي دي تولي وزير الحرب والقائد العام...

الفصل السادس: بطرسبرج. المنتديات السياسية: منتدى آنا

بافلوفنا شيرر؛ موقف المتديين من الحرب، في منزل آنا بافلوفنا شيرر؛ أحاديث عن تعيين قائد عام جديد. رأي مناهض لكوتوزوف يبديه الأمير فاسيلي. تعيين كوتوزوف قائداً عاماً للجيوش الروسية ولجميع الأراضي التي تحتلها. محاورة في منزل آنا بافلوفنا بصدد هذا التعيين. رجوع الأمير فاسيلي عن رأيه بشأن كوتوزوف ودفاعة عنه بحرارة...

الفصل السابع: تحرك الفرنسيين من سمولنسك إلى موسكو. لافروشكا في أيدي الفرنسيين. حديث نابليون مع لافروشكا. نابليون يأمر بإخلاء سبيله...

الفصل الثامن: ليسييه خوريه. الأمير الشيخ يصاب بنوبة قلبية. رحيل الأميرة ماريا إلى بوغا تشوروفو مصطحبة معها أباها المريض. مرض الشيخ بولكونسكي. تحنن الشيخ وحبه لابنته. حالة الأميرة ماريا النفسية. حديثها مع أبيها. موت الأمير الشيخ...

الفصل التاسع: فلاحو بوغوتشاروفو. القيم الأميري درون. الفلاحون يأبون أن يعطوا العربات لسفر الأميرة ماريا...

الفصل العاشر: حزن الأميرة ماريا بعد موت أبيها. الآنسة بوريين تحمل إليها نداء من الجنرال الفرنسي رامو يدعو فيه السكان إلى البغاء في أماكنهم، وتنصحها بعدم الرحيل. الشعور بالعزة الوطنية لدى الأميرة ماريا. إنها تعزم على السفر دون إبطاء. حديثها مع القيم درون...

الفصل الحادي عشر: درون يعقد اجتماعاً لفلاحي بوغتشوروفو. الأميرة ماريا تخطب في الجمهور. الفلاحين يرفضون أن يتركوا ماريا ترحل من بوغاتشوروفو...

الفصل الثاني عشر: أفكار الأميرة ماريا بصدد والدها ومرضه وموته...

الفصل الثالث عشر: نيقولا روستوف وإيلين ولافروشكا يصلون إلى بوغاتشورفو بحثاً عن المؤن. الباتيتش يخبر روستوف بعصيان الفلاحين الذين لا يريدون أن يتركوا الأميرة تشافر. اللقاء بين روستوف والأميرة ماريا....

الفصل الرابع عشر: غضب نيقولا على الفلاحين المتمردين. الارتباك والاختلافات في جمهور الفلاحين على أثر وصول الفرسان. روستوف يقمع التمرد. استعدادات الأميرة ماريا للرحيل. الانطباع الذي تركه كل من نيقولا والأميرة ماريا في الآخر....



يخبرنا تولستوي أنَّ الحرب والسّلم ليس برواية، ولا هو بقصيدة، انما هو سجل أدبي حافل بالاثارة وقصص الحب ودورس التاريخ وعبره".

هذه الرواية التي كتبها تولستوي العام ١٨٦٩، والتي تعدُّ قمة تطوره الأدبي، ويصفها البعض بإنها رواية تأمل التأريخ، يقدم لنا تولستوي من خلالها كيف يتعارض حب الحياة مع الحروب ومأسيها، تولستوي يخبرنا أنه كتب الحرب والسّلم ليؤكد أنَّ: حادثـاً احـترب فيه ملايين البشر، وقتل فيه نصف مليون من الرجال، لا يمكن أن تكون إرادة فرد واحد هي سببه، أنَّ رجلاً وحده لا يستطيع ان يجبر ٥٠٠ ألف شخص على ان يموتوا.

لم يكن ليف تولستوي "١٨٢٨ - ١٩١٠"، كاتباً فقط، بل كان مفكراً وفيلسوفاً وثورياً. كتب الرواية والقصة والمسرحية وتعمق في دراسة الفلسفة، وجعل لنفسه مذهباً فكرياً، حاول من خلاله أنَّ يجدَ إجابات للسؤال الذي أرقه دائماً هو: "لماذا نعيش؟" وكانت كل أعماله هي محاولة للإجابة عن هذا السؤال.

وضمن مشروعها في طبع الأعمال الكاملة لتولستوي تصدر المدى الترجمة الكاملة والامينة لتحفة تولستوي الخالدة "الحرب والسلام" والتي قام بها المترجم القدير سامي الدروبي، لكن القدر لم يمهله لكي يكملها بعد ان انجز الجزأين الأول والثاني، ليكمل عمله المترجم القدير صياح الجهيم الذي يعد واحداً من أبرز المترجمين العرب، من الذين قدّموا تولستوي الى العربية بلغة صافية وانيقة وبترجمة تطابق النص الأصلي.

لوحة الغلاف للفنان Chris Collingwood


ISBN 978-2-843091-22-3
9 782843 091223